

مركز تفسير للدراسات القرآنية  
Tafsir Center For Qur'anic Studies



# التفسير

في

## اختصار تفسير ابن كثير

اختصار وتحقيق

صالح بن محمد عرفان محمد بن عبد الله الشافعي

عن الدين فوزي عبد الحميد

إشراف معالي الشيخ

د. صالح بن عبد الله بن حميد

إمام وخطيب المسجد الحرام وعضو هيئة كبار العلماء



السيرة

في

اختصار نفسي ابن كثير



البريد الإلكتروني: [info@tafsir.net](mailto:info@tafsir.net)



# التفسير

في

## اختصار تفسير ابن كثير

اختصار وتحقيق

صالح بن محمد عرفان محمد بن عبد الله الشافعي

خالد بن فوزي عبد الحميد

إشراف معالي الشيخ

د. صالح بن عبد الله بن حميد

إمام وخطيب المسجد الحرام وعضو هيئة كبار العلماء

المجلد الثاني



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تفسير سورة الإسراء

وهي مكية

روى الإمام أحمد [٢٤٤٣٣] عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل، والزمر [روى الترمذي أوله/٧٦٨ وصححه].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ۚ لَنُرِيَهُ ۖ مِن ءَايِنِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾

يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره، ﴿الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾؛ يعني: محمداً ﷺ ﴿لَيْلًا﴾؛ أي: في جنح الليل ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام؛ ولهذا جُمِعُوا له هناك كلهم فأهمهم في دارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾؛ أي: في الزروع والثمار ﴿لَنُرِيَهُ﴾؛ أي: محمداً ﷺ ﴿مِن ءَايِنِنَا﴾؛ أي: العظام، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِن ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]، وسنذكر من ذلك [بعض] ما وردت به السنة من الأحاديث عنه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾؛ أي: السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطى كلًا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

ذكر بعض الأحاديث الواردة في الإسراء:

روى الإمام أحمد [١٢٥٢٧] عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبُغْلِ، يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرَفِهِ، فَرَكِبْتُهُ فَسَارَ بِي حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَرَبَطْتُ الدَّابَّةَ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرِبُطُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فَأَتَانِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِّنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِّنْ لَّبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ. فَقَالَ جِبْرِيلُ: أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ). قال: (ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. فَقِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ لَهُ: مَنْ



أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. فَقِيلَ لَهُ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. فَقِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِأَبْنِي الْخَالَةِ يَحْيَى وَعِيسَى، فَرَحَبًا بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدٌ. فَقِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عليه السلام، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسَيْنِ، فَرَحَبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، فَقِيلَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ الْبَابُ، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدٌ، فَقِيلَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ، فَرَحَبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، فَقِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عليه السلام، فَرَحَبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، فَقِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَإِذَا هُوَ مُسْتَنِدٌّ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَهَيَّ، فَإِذَا وَرَقُهَا كَأَذَانِ الْفِيلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقَلَالِ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا). قَالَ: (فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، وَفَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ صَلَاةً، فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى). قَالَ: (مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، وَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَّرْتُهُمْ، قَالَ: فَارْجِعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: أَيُّ رَبِّ، خَفَّفَ عَنْ أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَارْجِعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: مَا فَعَلْتُ؟ فَقُلْتُ: قَدْ حَطَّ عَنِّي خَمْسًا. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعْ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى، وَيَحْطُّ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فِتْلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هُمْ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرًا، وَمَنْ هُمْ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةً، فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ) [ورواه مسلم/ ١٦٢ بنحوه].

وروى الإمام أحمد [١٥٠٧٦] عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لَمَّا

كَذَبْنِي فُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فُتِمْتُ فِي الْحَجَرِ فَجَلَّى اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفَّقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ) [ورواه البخاري/ ٣٦٧٣ ومسلم/ ١٧٠].

وروى الإمام أحمد [٣٥٤٦] عن ابن عباس قال: أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدّثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبغيرهم، فقال ناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول، فارتدوا كفاراً فضرب الله رقابهم مع أبي جهل، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمرّاً وزبداً فتزقموا، ورأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام وعيسى وموسى وإبراهيم، وسئل النبي ﷺ عن الدجال فقال: (رَأَيْتُهُ فَيَلَمَانِيَا أَقْمَرِ هِجَانًا، إِحْدَى عَيْنَيْهِ قَائِمَةٌ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ، كَأَنَّ شَعْرَ رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ، وَرَأَيْتُ عِيسَى ﷺ أَتْبِضُّ، جَعَدَ الرَّأْسِ، حَدِيدَ الْبَصَرِ، مُبْطِنُ الْخَلْقِ، وَرَأَيْتُ مُوسَى ﷺ أَسْحَمَ آدَمَ، كَثِيرَ الشَّعْرِ، شَدِيدَ الْخَلْقِ، وَنَظَرْتُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى إِرْبٍ مِنْهُ إِلَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنْي، حَتَّى كَأَنَّهُ صَاحِبُكُمْ، قَالَ جِبْرِيلُ: سَلِّمْ عَلَى أَبِيكَ، فَسَلِّمْتُ عَلَيْهِ) ورواه النسائي وهو صحيح.

وروى البيهقي [في شعب الإيمان/ ١٦٣٦] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَّتْ بِي رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ؟ قَالُوا: مَا شَيْطَةُ بَنْتِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادَهَا، سَقَطَ مُشْطُهَا مِنْ يَدِهَا فَقَالَتْ: بِاسْمِ اللَّهِ: فَقَالَتْ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: رَبِّي وَرَبُّكَ وَرَبُّ أَبِيكَ، قَالَتْ: أُولَئِكَ رَبٌّ غَيْرُ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ وَرَبُّ أَبِيكَ اللَّهُ.. قَالَ: فَدَعَاهَا، فَقَالَ: أَلَيْكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ﷻ. قَالَ: فَأَمَرُ بِتَقَرَّةٍ مِنْ نَحَاسٍ، فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا تُلْقَى فِيهَا، قَالَتْ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَتْ: تَجْمَعُ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي مَوْضِعٍ، قَالَ: ذَاكَ لَكَ، لِمَا لَكَ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ، قَالَ: فَأَمَرَ بِهِمْ فَأُلْقُوا وَاحِدًا وَاحِدًا، حَتَّى بَلَغَ رَضِيْعًا فِيهِمْ، فَقَالَ: يَا أُمُّهُ، قِيعِي وَلَا تَقَاعِصِي، فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ. قَالَ: وَتَكَلَّمُ أَرْبَعَةً فِي الْمَهْدِ وَهُمْ صِغَارٌ: هَذَا، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ). إسناده لا بأس به.

وروى الإمام أحمد [٣٥٥٦] عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: (لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﷺ، فَتَذَاكَرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ، قَالَ: فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى عِيسَى، فَقَالَ: أَمَّا وَجِبَّتُهَا فَلَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ ﷻ، وَفِيمَا عَهْدَ إِلَيَّ رَبِّي أَنَّ الدَّجَالَ خَارِجٌ، قَالَ: وَمَعِيَ قَضِيْبَانِ، فَإِذَا رَأَيْتَ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرِّصَاصُ، قَالَ: فَيَهْلِكُهُ اللَّهُ إِذَا رَأَيْتَ حَتَّى إِنَّ الْحَجَرَ وَالشَّجَرَ يَقُولُ: يَا مُسْلِمُ إِنَّ تَخَنِي كَافِرًا، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، قَالَ: فَيَهْلِكُهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَطُؤُونَ بِلَادَهُمْ، فَلَا يَأْتُونَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكُوهُ، وَلَا يَمْرُونَ عَلَى مَاءٍ إِلَّا شَرَبُوهُ، قَالَ: ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيَّ فَيَشْكُونَهُمْ، فَأَدْعُو اللَّهَ عَلَيْهِمْ، فَيَهْلِكُهُمْ وَيَمِيتُهُمْ حَتَّى تَجُوزَ الْأَرْضُ مِنْ نَتَنِ رِيحِهِمْ؛ أَيُّ: تُتْنِ، قَالَ: فَيَنْزِلُ اللَّهُ الْمَطَرَ فَيَجْتَرِفُ أَجْسَادَهُمْ حَتَّى يَبْقُدَهُمْ فِي الْبَحْرِ، فَيَمِيتُهُمْ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيَّ رَبِّي: أَنَّ



ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَنَّ السَّاعَةَ كَالْحَامِلِ الْمُتِمِّ، لَا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَى تَفْجُوهُمْ بِوَلَادِهَا، لَيْلًا أَوْ نَهَارًا، وأخرجه ابن ماجه [برقم: ٤٠٨١ بنحوه وقال البوصيري: هذا إسناده صحيح].

وقد روى البخاري [٣٢٥٤] ومسلم [١٦٨] في «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (حِينَ أُسْرِيَ بِهِ: لَقِيتُ مُوسَى ﷺ فَفَنَعَنِي فَإِذَا رَجُلٌ حَبِيبَتُهُ قَالَ: مُضْطَرِبٌ، رَجُلُ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ، قَالَ: وَلَقِيتُ عِيسَى - فَفَنَعَنِي النَّبِيُّ ﷺ رُبْعَةَ أَحْمَرَ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ؛ يَعْنِي: حَمَام، قَالَ: وَلَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ، وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ، قَالَ: وَأُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الْآخَرِ خَمْرٌ، قِيلَ لِي: خُذْ أَيُّهُمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَشَرِبْتُ، فَقِيلَ لِي: هُدَيْتَ الْفِطْرَةَ - أَوْ: أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ - أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ خَمْرًا غَوَتْ أُمَّتُكَ).

فصل: وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء ﷺ، ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأنبت إسرءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب، ولم يتحصل على مطلب، وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه ﷺ أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء، وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات، وهذا بعيد جدًّا، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ولو تعدد هذا التعدد، لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرار.

قال الزهري: كان الإسرء قبل الهجرة بسنة، وكذا قال عروة. وقال السدي: بستة عشر شهرًا، والحق أنه ﷺ أسري به يقظة لا منامًا من مكة إلى بيت المقدس راكبًا البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب ودخله، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فقلقه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام؛ أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى وغشيتها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة وغشيتها الملائكة ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ورأى رفرقًا أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه؛ لأنَّه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفًا بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم، ومن الناس من يزعم أنه أهمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها

أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحدًا واحدًا، وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولًا مطلوبًا إلى الجنب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبيين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك.

ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله تعالى أعلم، وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه في بيت المقدس وجاء أنه في السماء، ويحتمل أن يكون هاهنا وههنا؛ لأنه كالضيافة للقدام، والله أعلم.

ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببذنه عليه السلام وروحه، أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثر من العلماء على أنه أسري ببذنه وروحه يقظة لا منامًا، ولا ينكر أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى قبل ذلك منامًا ثم رآه بعد يقظة؛ لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان منامًا لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظمًا، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، وأيضًا فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقال تعالى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرِّيحَ الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، رواه البخاري [٣٦٧٥]، وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضًا فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براق لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، والله أعلم.

فائدة: قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه «التنوير في مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد، ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قرط، وأبي حبة، وأبي ليلي الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وحذيفة وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين، منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مِمَّنْ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].



﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلَنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبدته محمد ﷺ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أيضًا، فإنه تعالى كثيرًا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد ﷺ، وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾؛ يعني: التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾؛ أي: الكتاب ﴿هُدًى﴾؛ أي: هاديًا ﴿لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾؛ أي: لئلا تتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلًا﴾؛ أي: وليًا ولا نصيرًا ولا معبودًا دوني، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبدوه وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلَنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره يا ذرية من حملنا مع نوح، فيه تهيج وتنبيه على المنية؛ أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسال إليكم محمدًا ﷺ، وقد ورد في الأثر عن السلف أن نوحًا ﷺ كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله، فلهذا سمي عبدًا شكورًا. روى الطبراني [٥٤٢٠] عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سمي نوح عبدًا شكورًا؛ لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله.

وروى الإمام أحمد [١١٩٩١] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليهما) وهكذا رواه مسلم [٢٧٣٤]، وقال مالك عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال، وقد روى البخاري [٤٤٣٥] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - بِطَوْلِهِ - وَفِيهِ -: فَيَأْتُونَ نُوحًا يَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ) وذكر الحديث بكماله.

﴿وَفَضَّلْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَهُ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلُوا نَبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب؛ أي: تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلمون علوًا كبيرًا؛ أي: يتجبرون ويطغون على الناس، كقوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]؛ أي: تقدمنا إليه، وأخبرناه بذلك، وأعلمناه به، وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾؛

أي: أولى الإفسادتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: سلطنا عليكم جنودًا من خلقنا أولى بأس شديد؛ أي: قوة وعدة وسلطة شديدة، فجاسوا خلال الديار؛ أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم؛ أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدًا وكان وعدًا مفعولًا.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت وجنوده، سلط عليهم أولًا ثم أدبلوا عليه بعد ذلك، وقتل داود جالوت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل وجنوده، وعنه أيضًا وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل.

وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحًا، ونحن في غنية عنها، والله الحمد، وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم، وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا، سلط الله عليهم عدوهم فاستباح يَبْضَتَهُمْ، وسلط خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقًا من الأنبياء والعلماء، وقد روى ابن جرير [٣٠/١٥] عن سعيد بن المسيب قال: ظهر بُخْتَنْصَرٌ على الشام، فخرّب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دمًا يغلي على كِبَا، فسألهم، ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر، قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفًا من المسلمين وغيرهم، فسكن. [والكبا: الكناسة والتراب] وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشrafهم وعلماءهم حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ منهم خلقًا كثيرًا أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾؛ أي: فعليةها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: المرة الآخرة؛ أي: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسْخَبُوا وَجُوهَكُمْ﴾؛ أي: يهينوكم ويقهروكم، ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾؛ أي: بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار، ﴿وَلِيَسْخَبُوا﴾؛ أي: يدمروا ويخربوا ﴿مَا عَلَوُا﴾؛ أي: ما ظهروا عليه ﴿نَبِيرًا﴾ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾؛ أي: فيصرفهم عنكم، ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾؛ أي: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾؛ أي: مستقرًا ومحصرًا وسجنًا لا محيد لهم عنه. قال ابن عباس: حصيرًا؛ أي: سجنًا، وقال مجاهد: يحصرون فيها، وكذا قال غيره، وقال الحسن: فراشًا ومهادًا، وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط الله عليهم محمدًا ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾.

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه، أن لهم أجرًا كبيرًا؛ أي: يوم القيامة، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ أي: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذابًا أليمًا؛ أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝﴾.

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر؛ أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]، وكذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وفي الحديث: (لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، أَنْ تَوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً إِجَابَةً يَسْتَجِيبُ فِيهَا) [رواه مسلم نحوه/ ٣٠٠٩]، وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ نَفْصِيلًا ۝﴾.

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل، وينتشروا في النهار للمعاش والصنائع، والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك، ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقًا واحدًا وأسلوبًا متساويًا لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِأَيْتِكُمْ بِضُبٍّ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝﴾ [٧١] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِأَيْتِكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝﴾ [٧٢] وَنَزَحْتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[القصص: ٧١ - ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمْ إِنْ لَّمْ يَأْتِكُمْ مِنَ اللَّهِ آيَةٌ إِذَا هُمْ مُنْطَلِقُونَ ۝﴾ [٧٤] وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿[يس: ٣٧، ٣٨] ثم إنه تعالى جعل ليل آية؛ أي: علامة يعرف بها، وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة وهي النور وطلوع الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾

إلى قوله: ﴿لَا يَنْتَظِرُ لِقَوْمِهِ يُتَنَفَّسُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَاجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

قال عبد الله بن كثير في قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قال: ظلمة الليلة وسدف النهار، وقال مجاهد: الشمس آية النهار والقمر آية الليل، ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالى، ونحوه عن ابن عباس، وقد روى أبو جعفر بن جرير [٤٩/١٥] من طرق متعددة جيدة أن ابن الكوّاء سأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقال: يا أمير المؤمنين ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك أما تقرأ القرآن؟ فقال: فمحونا آية الليل فهذه محوه، وقال قتادة في قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه، وجعلنا آية النهار مبصرة؛ أي: منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم، وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله ﷻ [الطبري ٥٠/١٥].

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ ١٣ ﴿أَقْرَأْ كُنْتُكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ هَسْبًا﴾ ١٤ ﴿

يقول تعالى: بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وطائره هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس، ومجاهد وغيرهما، من خير وشر، يُلْزَمُ به ويجازى عليه، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ٧ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً.

وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾؛ أي: نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة إما يمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقيّاً، منشوراً؛ أي: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿يَبْيُتُّ الْإِنْسَانُ يَوْمَذٍ بِمَا فَعَلَ وَأَخَّرَ﴾ ١٣ ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ١٤ ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ﴾ [القيامة: ١٣ - ١٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ كُنْتُكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ هَسْبًا﴾ ١٤ ﴿حَسْبًا﴾؛ أي: إنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت، لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي، وقوله: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ إنما ذكر العنق؛ لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه.

وقال قتادة: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال عمله [الطبري ٥١/١٥] ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ قال معمر، وتلا الحسن البصري ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَغَنِ الشِّمَالِ قَبِيلٌ﴾ [ق: ١٧]، يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكّل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك



في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتابًا تلقاه منشورًا، ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ الآية، قد عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك [الطبري ٥٣/١٥]، هذا من أحسن كلام الحسن رحمه الله.

﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق، واقتفى أثر النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾؛ أي: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ثم قال: ﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يُمْحَلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ [فاطر: ١٨]، ولا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله: ﴿وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئًا، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْفَيْ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [٨، ٩]، وكذا قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ أَفِئَتْ أَنْبُؤُهُمْ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحدًا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه.

وها هنا مسألة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها قديمًا وحديثًا، وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآبائهم كفار: ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ومن مات في الفترة ولم تبلغه الدعوة؟ وقد ورد في شأنهم أحاديث.

منها: ما روى الإمام أحمد [١٦٣٤٤] عن الأسود بن سريع أن نبي الله ﷺ قال: (أَرْبَعَةٌ يَخْتَبِجُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرَمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فِتْرَةٍ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصَّبِيَّانُ يَحْذِقُونِي بِالْبُعْرِ، وَأَمَّا الْهَرَمُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفِتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ، مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَاقِفَهُمْ لِيُطِيعَنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا).

[وروى الحافظ أبو يعلى الحديث/ ٤٢٢٤] وفيه: (يُؤْتَىٰ بِأَرْبَعَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: بِالْمَوْلُودِ، وَالْمَعْتُوهِ)، [وساقه

بنحوه، وله شاهد من حديث أبي سعيد عند أحمد والبخاري].

[وعنده] عن أبي هريرة مثله، غير أنه قال في آخره: (فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا،

وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا يُسْحَبْ إِلَيْهَا [أحمد/١٦٣٤٥]، ورواه البيهقي في كتاب «الاعتقاد» [ص١٦٩] وقال: هذا إسناد صحيح.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجْسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُجَسُّونَ فِيهَا مِنْ جَذْعَاءٍ؟) [البخاري/١٣١٩ ومسلم/٢٦٥٨] وفي رواية قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: (اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ) [البخاري/٦٢٢٣]، وروى الإمام أحمد [٨٣٠٧] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ذَرَارِيُّ الْمُسْلِمِينَ فِي الْجَنَّةِ، يَكْفُلُهُمْ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام) [ورواه الحاكم/٣٣٩٩ وصححه ووافقه الذهبي].

فمن العلماء من ذهب إلى التوقف فيهم، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في «صحيح البخاري» [٦٦٤٠] أنه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم عليه السلام، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: (نَعَمْ وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ)، ومنهم من جزم لهم بالنار لقوله ﷺ: (هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ) [رواه أحمد/٢٤٥٨٩ وأبو داود/٤٧١٢ بنحوه]، ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف على الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله به بسابق الشقاوة وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض، وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «الاعتقاد»، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد.

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، روي ذلك عن ابن عباس والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد ابن الحنفية وغيرهم، وأخرج ابن حبان في «صحيحه» [٦٧٢٤] عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَزَالُ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُوَاتِيًّا أَوْ مُقَارِبًا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا فِي الْوِلْدَانِ وَالْقَدَرِ). قال ابن حبان: يعني: أطفال المشركين، وهكذا رواه أبو بكر والبخاري.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيَّهَا الْقَوْلُ فَمَدَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً، كقوله تعالى: ﴿أَتْلَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش، فاستحقوا العذاب، وقيل: معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة، روي عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبير أيضاً، وقال ابن جرير: يحتمل أن يكون معناه جعلناهم

أمراء [الطبري ٥٥/١٥]، قلت: إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ ﴿أَمَرْنَا مَتْرَفِيهَا﴾، قال ابن عباس في قوله: ﴿أَمَرْنَا مَتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب [الطبري ٥٥/١٥]، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا يَمْتَكِرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والربيع بن أنس. وقال ابن عباس أيضًا: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن الزهري: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أكثرنا [الطبري ٥٦/١٥].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ رِبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ، بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسول من بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام [الطبري ٣٣٤/٢]، ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتهم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ رِبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾؛ أي: هو عالم بجميع أعمالهم: خيرها وشرها لا يخفى عليه منها خافية ﷻ.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩).

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل عليه، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: في الآخرة ﴿يَصْلَاهَا﴾؛ أي: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾؛ أي: في حال كونه مذمومًا على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي ﴿مَدْحُورًا﴾ مبعداً حقيراً ذليلاً.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾؛ أي: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾؛ أي: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: وقلبه مؤمن؛ أي: مصدق بالثواب والجزاء ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾.

﴿كُلًّا نُّنِذِرُ هُنَآءَ وَهُنَآءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْطُورًا﴾ (٢٠) نُنْظِرُ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١).

يقول تعالى: ﴿كُلًّا﴾؛ أي: كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة

نمدهم فيما هم فيه ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾؛ أي: هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة، فلا راد لحكمه، ولا مانع لما أعطى ولا مغير لما أراد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾؛ أي: ممنوعاً؛ أي: لا يمنعه أحد، ولا يرده راد. قال قتادة: منقوصاً، وقال الحسن، وابن جريج، وابن زيد: ممنوعاً [الطبري ٦١/١٥]، ثم قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلك ﴿وَلَا آخِرَهُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾؛ أي: ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدرجات يتفاوتون في ما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وفي «الصحيحين»: (إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَوْنَ أَهْلَ عِلِّيَّينَ، كَمَا تَرَوْنَ الْكُوكَبَ الْعَابِرَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ) [روى البخاري نحوه/ ٣٠٨٣ ومسلم كذلك/ ٢٨٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا آخِرَهُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْذُورًا﴾.

يقول تعالى، والمراد المكلفون من الأمة: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾؛ أي: على إشراكك به ﴿مَحْذُورًا﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك بل يكللك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضرراً ولا نفعاً، لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له.

﴿وَقَصَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢٤).

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له، فإن القضاء هاهنا بمعنى الأمر، قال مجاهد: ﴿وَقَصَىٰ﴾؛ يعني: وصى، وكذا قرأ أبي بن كعب، وابن مسعود: (وَوَصَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) [الطبري ٦٢/١٥]؛ ولهذا قرن بعبادته برّ الوالدين، فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ أي: وأمر بالوالدين إحساناً، كقوله في الآية الأخرى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَاكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ﴾؛ أي: لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلَا نَهْرُهُمَا﴾؛ أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَلَا نَهْرُهُمَا﴾؛ أي: لا تنفض يدك على والديك [الطبري ٦٥/١٥]، ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن، فقال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾؛ أي: ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم، ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾؛ أي: تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾؛ أي: في كبرهما

وعند وفاتهما، ﴿كَأَنَّ رَبِّيَ صَغِيرًا﴾. قال ابن عباس [كما روى الطبري ٦٧/١٥]: ثم أنزل الله: ﴿كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣].

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره أن النبي ﷺ لما صعد المنبر قال: (أَمِينَ أَمِينَ أَمِينَ) قيل: يا رسول الله علام أمنت؟ قال: (أَتَانِي جَبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرَتْ عَنْهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، فَقُلْ: أَمِينَ، فَقُلْتُ: أَمِينَ، ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ ثُمَّ خَرَجَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قُلْ: أَمِينَ، فَقُلْتُ: أَمِينَ، ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ أَبُوهُ أَوْ أَحَدُهُمَا فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةَ، قُلْ: أَمِينَ، فَقُلْتُ: أَمِينَ) [والحديث بعضه في مسلم/ ٢٥٥١ من حديث أبي هريرة، وحديث أنس عند البزار/ ١٤٠٥، وابن حبان/ ٤٠٩ وهو صحيح].

﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾.

قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به [الطبري ٦٨/١٥]، وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك، فقال: ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة، وعن ابن عباس: المسبحين، وفي رواية عنه: المطيعين المحسنين، وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين وقال بعضهم: هم الذين يصلون الضحى، وقال سعيد بن المسيب: الذي يصيب الذنب ثم يتوب، ويصيب الذنب ثم يتوب، وكذا قال عطاء بن يسار، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: هم الراجعون إلى الخير، وقال عبيد بن عمير: هو الذي إذا يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله منها، ووافقه مجاهد في ذلك، وقال عبيد بن عمير أيضًا: كنا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللَّهُمَّ اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا، وقال ابن جرير [بعد أن أورد الأقوال السابقة ٧٠/١٥]: والأولى في ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع من المعصية إلى الطاعة مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه، وهذا الذي قاله هو الصواب؛ لأن الأواب مشتق من الأوب، وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥].

﴿وَأَنذَرْتُ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِنَّمَا تَعْرِضَنَّهُمْ لِنِيعَةِ رَبِّكَ أَتَيْتَهُمْ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهُمْ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨).

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، وفي الحديث: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَبِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) [البخاري نحوه/ ١٩٦١ ومسلم/ ٢٥٥٧].

وقوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ لما أمر بالإنفاق، نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطًا كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾



[الفرقان: ٦٧]، ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾؛ أي: أشباههم في ذلك. قال ابن مسعود: التبذير الإنفاق في غير حق، وكذا قال ابن عباس، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حقه كان تبذيراً، وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق وفي الفساد.

وروى الإمام أحمد [١٢٤١٧] عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله فقال: يا رسول الله إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق، وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: (تُخْرِجُ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِكَ، فَإِنَّهَا طَهْرَةٌ تُطَهِّرُكَ، وَتَصِلُ أَقْرَبَاءَكَ، وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ وَالْبَجَارِ وَالْمُسْكِينِ). فقال: يا رسول الله أقلل لي؟ فقال: (وَأَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا)، فقال: حسبي يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: (نَعَمْ، إِذَا أَدَيْتَهَا إِلَى رَسُولِي فَقَدْ بَرِئْتَ مِنْهَا، فَلَكَ أَجْرُهَا، وَإِنَّهَا عَلَى مَنْ بَدَلَهَا) [رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾؛ أي: في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾؛ أي: جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته.

وقوله: ﴿وَمَا تُرْضَيْنَ عَنْهُمْ آيَةً رَحِمَ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُومًا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَسُورًا﴾؛ أي: وإذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَسُورًا﴾؛ أي: عدهم وعداً بسهولة ولين، إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فسر قوله: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَسُورًا﴾ بالوعد، مجاهد وسعيد بن جبير والحسن وغير واحد.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾.

يقول تعالى أمراً بالاقتصاد في العيش، ذاماً للبخل، ناهياً عن السرف ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾؛ أي: لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً، وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾؛ أي: ولا تسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك فتقعد ملوماً محسوراً.

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو الدابة التي عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال: ﴿فَاتَّجَعَ الْبَصَرُ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (٢) ثُمَّ أَتَّجَعَ الْبَصَرُ كَرْتَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿الملك: ٣، ٤﴾؛ أي: كليل عن أن يرى عيباً، هكذا فسر هذه الآية بأن المراد هنا البخل والسرف ابن عباس، والحسن، وابن زيد وغيرهم، وقد جاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ تَدْيِينِهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَعَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانُهُ

وَتَعْفُو أَثَرَهُ، وَأَمَّا الْبَحِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ [البخاري/ ١٣٧٥ ومسلم/ ١٠٢١].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُسِيكًا تَلَفًا) [البخاري/ ١٣٧٤ ومسلم/ ١٠١٠].

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخباراً أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني ما يشاء، ويفقر من يشاء لما له في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾؛ أي: خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر، وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة، عياداً بالله من هذا وهذا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَزْفُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾.

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه ينهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لثلاث تكثر عيئته، فهي الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَزْفُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾؛ أي: خوف أن تفتقروا في ثاني حال، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿تَحْنُ نَزْفُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، وفي الأنعام ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمَّاكٍ﴾؛ أي: من فقر ﴿تَحْنُ نَزْفُكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾؛ أي: ذنباً عظيماً، وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم: قال: (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ). قلت: ثم أي؟ قال: (أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ). قلت: ثم أي؟ قال: (أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ) [البخاري/ ٤٤٨٣ ومسلم/ ٨٦].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربتهم ومخالطة أسبابه ودواعيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾؛ أي: ذنباً عظيماً ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾؛ أي: بشس طريقاً ومسلِكاً.

وقد روى الإمام أحمد [٢٢٢٦٥] عن أبي أمامة أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: (اذْنُهُ) فذنا منه قريباً، فقال: (اجْلِسْ) فجلس، قال: (اتَّجِبْهُ لِأُمِّكَ؟) قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: (وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ)، قال: (أَفَتَجِبْهُ لِابْنَتِكَ؟) قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: (وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ). قال: (اتَّجِبْهُ لِأَخِيكَ؟) قال: لا والله، جعلني الله فداك،

قال: (وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ)، قال: (أَفْتَحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟) قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: (وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ)، قال: (أَفْتَحِبُّهُ لِحَالَاتِكَ؟) قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: (وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِحَالَاتِهِمْ)، قال: فوضع يده عليه، وقال: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ). قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء [رواه الطبراني ١٦٢/٨ وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٣٣).

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: (لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ: النَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَالزَّانِي الْمُحْصَنِ، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمَفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ) [البخاري/ ٦٤٨٤ ومسلم/ ١٦٧٦].

وقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾؛ أي: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قوداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك، وقوله: ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ قالوا: معناه فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل، وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾؛ أي: إن الولي منصور على القاتل شرعاً وغالبًا قدرًا.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا﴾ (٢٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٢٥).

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: لا تتصرفوا له إلا بالغبطة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾؛ أي: الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾؛ أي: عنه.

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾؛ أي: من غير تطفيف ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ وهو الميزان، وقال مجاهد: هو العدل بالرومية [ذكره البخاري تعليقاً ٢٧٤٩/٦]، وقوله: ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾؛ أي: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾؛ أي: لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ أي: مآلاً ومنقلباً في آخرتكم، قال قتادة: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ أي: خير ثواباً وأحسن عاقبة.

﴿وَلَا تَقُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦).

قال ابن عباس يقول: لا تقل. وعنه أيضًا: لا ترم أحدًا بما ليس لك به علم، وقال محمد ابن الحنفية: يعني: شهادة الزور، وقال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله [الطبري ٨٦/١٥]، ومضمون ما ذكره أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وفي الحديث: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ) [البخاري/٤٨٤٩ ومسلم/٢٥٦٣].

وقوله: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾؛ أي: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾؛ أي: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وعما عمل فيها.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧) ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٨).

يقول تعالى ناهيًا عباده عن التبختر في المشية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾؛ أي: متبخترًا متميلاً مشي الجبارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾؛ أي: لن تقطع بمشيتك، ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾؛ أي: بتمايلك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازي فاعل ذلك بنقيض قصده، كما ثبت في «الصحيحين»: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَعَلَيْهِ بُرْدَانٌ يَتَبَخَّرُ فِيهِمَا، إِذْ خُسِفَ بِهِ الْأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [البخاري نحوه/٣٢٩٧ ورواه مسلم بلفظ قريب/٢٠٨٨]، وكذلك أخبر الله عن قارون أنه خرج على قومه في زينته وأن الله خسف به وبداره الأرض، ورأى البختری العابد رجلاً من آل علي يمشي وهو يخطر في مشيته، فقال له: يا هذا، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته، قال: فتركها الرجل بعد.

وقوله: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أما من قرأ «سيئته»؛ أي: فاحشة فمعناه عنده: كل هذا الذي نهينا عنه من قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا أَوْلَدُكُمْ خَشِيَةً إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] إلى هنا فهو سيئة مؤاخذ عليها مكروهاً عند الله لا يحبه ولا يرضاه، وأما من قرأ «سيئته» على الإضافة فمعناه عنده: كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿وَفَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى هنا فسيئته؛ أي: فقيحه مكروه عند الله، هكذا وجه ذلك ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (٣٩).

يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس، ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾؛

أي: تلومك نفسك ويلومك الله والخلق، ﴿مَدْحُورًا﴾؛ أي: مبعدًا من كل خير، قال ابن عباس وقتادة: مطرودًا، والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

﴿أَفَاصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيِّنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنشَاءً إِنَّكُمْ لَقُلُوبُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (٤٠).

يقول تعالى رادًا على المشركين الزاعمين، عليهم لعائن الله: أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثاء، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطؤوا خطأ عظيمًا، فقال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَفَاصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيِّنِ﴾؛ أي: خصكم بالذكور ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنشَاءً﴾؛ أي: واختار لنفسه على زعمكم البنات، ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَقُلُوبُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾؛ أي: في زعمكم أن الله ولدًا، ثم جعلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يكن لكم، وربما قتلتموهن بالوآد، فتلك إذا قسمة ضيزى، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ (٨٩) ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا﴾ (٩٠) ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٩١) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٩٢) ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٣) ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ (٩٤) ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤١).

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾؛ أي: صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والمواعظ، فينزعجوا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾؛ أي: الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾؛ أي: عن الحق وبعدها منه.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْنَعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (٤٢) ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٣).

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن الله شريكًا من خلقه، العابدين معه غيره، ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويتغنون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أتم وحده كما يعبد من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون وساطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه، ثم نزه نفسه الكريمة وقُدَّسها فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾؛ أي: هؤلاء المشركون المعتقدون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾؛ أي: تعاليًا كبيرًا، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.



﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤).

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن؛ أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته: ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾؛ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم، وهذا عام في الحيوانات والنبات والحمام، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في «صحيح البخاري» [٣٣٨٦] عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وهو حديث مشهور في «المسانيد» [دلائل النبوة للبيهقي ٦/٦٤] وقال الهيثمي: إسناده صحيح.

وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: الأسطوانة تسبح والشجرة تسبح، وقال بعض السلف: صرير الباب تسبيحه وخريف الماء تسبيحه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ وقال إبراهيم: الطعام يسبح، ويشهد لهذا القول آية السجدة في أول الحج [الطبري ٩٢/١٥]، وقال آخرون: إنما يسبح ما كان فيه روح، يعنون من حيوان ونبات.

وقال قتادة: كل شيء فيه روح يسبح، وقاله الحسن والضحاك، وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: (إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَرُ مِنَ الْبُولِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ). ثم أخذ جريدة رطبة فشققها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، ثم قال: (لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْسُ). أخرجه في «الصحيحين» [البخاري/٢١٥ ومسلم/٢٩٢]، قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء: إنما قال ما لم يبسا؛ لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾؛ أي: أنه تعالى لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في «الصحيحين» [البخاري/٤٤٠٩ ومسلم/٢٥٨٣]: (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ)، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِمٌ لِنَفْسِهِ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، ومن أفلح عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذْ مَسَّكُمَا مِنْ أَمَرٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ إلى آخر السورة [فاطر: ٤١ - ٤٥].

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجابًا مستورًا، قال قتادة وابن زيد [الطبري ٩٣/١٥]: هو الأكنة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]؛ أي: مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء.

وقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾؛ بمعنى: ساتر وقيل: مستورًا عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ وهي جمع كنان الذي يغشى القلب ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾؛ أي: لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾؛ أي: إذا وحدت الله في تلاوتك، وقلت لا إله إلا الله، ﴿وَلَوُاْ﴾؛ أي: أدبروا راجعين ﴿عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥]. قال قتادة: إن المسلمين لما قالوا لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم وضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها ويعليها وينصرها ويُفْلجها ويظهرها على من ناوأها [الطبري ٩٤/١٥].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ أَنْظَرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

يخبر تعالى نبيه صلوات الله وسلامه بما تناجى به رؤساء قريش حين جاؤوا يستمعون قراءة رسول الله ﷺ سرًا من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور من السحر على المشهور، أو من السحر وهو الرئة؛ أي: إن تتبعون إن اتبعتم محمدًا إلا بشرًا يأكل ويشرب، وقد صوب هذا القول ابن جرير، وفيه نظر لأنهم أرادوا هاهنا أنه مسحور له رأي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ومنهم من قال: شاعر، ومنهم من قال: كاهن، ومنهم من قال: مجنون ومنهم من قال: ساحر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْظَرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾؛ أي: فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصًا، قال محمد بن إسحاق في «السيرة» [كما ذكر عنه البيهقي في دلائل النبوة ٢/٢٠٦]: حدثني الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلسًا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعهم

الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. قال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُكَب وكنا كَفَرَسِي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه. قال: قام عنه الأخنس وتركه [وهو مرسل].

﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤٩) ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ (٥٠) ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْخِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (٥١) ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥٢).

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبشرين وقوع المعاد القائلين استفهام إنكار منهم لذلك ﴿إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا﴾؛ أي: تراباً، قاله مجاهد. وقال ابن عباس: غباراً [الطبري ٩٧/١٥]، ﴿أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؛ أي: يوم القيامة بعدما بلىنا وصرنا عدماً لا نذكر، كما أخبر عنهم في الموضوع الآخر ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُعِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَوِيَّةٌ﴾ (٧٨) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، وهكذا أمر رسول الله ﷺ أن يجيبهم فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال ابن عباس: هو الموت [الطبري ٩٨/١٥]، وروي عن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم، وكذا قال سعيد بن جبير وأبو صالح والحسن وقتادة والضحاك [الطبري ٩٩/١٥]، ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أَرَادَهُ.

وقال مجاهد: ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾؛ يعني: السماء والأرض والجبال، وفي رواية: ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾؛ أي: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديدًا أو خلقاً آخر شديداً ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم

بشرًا تنتشرون، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿فَسَيُغْضَوْنَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء [الطبري ١٥/١٠٠]، وهذا الذي قلاه هو الذي تفهمه العرب من لغاتها؛ لأن الإنغاض: هو التحرك من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥]، وقوله: ﴿فَلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾؛ أي: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آتٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾؛ أي: الرب تبارك وتعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]؛ أي: إذا أمركم بالخروج منها، فإنه لا يخالف ولا يمانع، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿١٣﴾ فإذا هم بالسَّاهِرَةِ [النازعات: ١٣، ١٤]؛ أي: إنما هو أمر واحد بانتهاز، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾؛ أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته، قال ابن عباس: فتستجيبون بحمده؛ أي: بأمره، وكذا قال ابن جريج: وقال قتادة: بمعرفته وطاعته [الطبري ١٥/١٠١ وابن أبي حاتم/١٥٢٩٣].

وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾؛ أي: وله الحمد في كل حال، وقوله: ﴿وَتَقُتْلُونَ﴾؛ أي: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِنْ لَيْتُمْ﴾؛ أي: في الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكقوله تعالى: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَوْ يَبْتُؤُوا إِلَّا غِشِيَةً أَوْ تُخَفَّوْنَ﴾ [النازعات: ٤٦].

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ ﴿٥٣﴾.

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ في يده؛ أي: فربما أصابه بها.

وروى الإمام أحمد [٨١٩٧] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يُشِيرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ أَنْ يَنْزِعَ فِي يَدِهِ، فَيَقَعَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ) أخرجه الشيخان [البخاري/٦٦٦١ ومسلم/٢٦١٧].

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ بِرَحْمَتِكَ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿٥٥﴾.

يقول تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أيها الناس، بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿إِنْ

يَشَأْ يَرْحَمَكُمُ ﴿۱﴾ بِأَنْ يُوَفَّقَكُم لَطَاعَتِهِ وَالْإِنَابَةَ إِلَيْهِ ﴿۲﴾ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبَكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴿۳﴾ يَا مُحَمَّد ﴿۴﴾ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿۵﴾؛ أَي: إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ نَذِيرًا، فَمَنْ أَطَاعَكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاكَ دَخَلَ النَّارَ.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أَي: بِمَرَاتِبِهِمْ فِي الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ﴾ وكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وَهَذَا لَا يَنَافِي مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ» [البخاري/ ٢٢٨١/ ومسلم/ ٢٣٧٤] كِلَاهُمَا بِنَحْوِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ) فَإِنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ التَّفْضِيلُ بِمَجْرَدِ التَّشْهِي وَالْعَصْبِيَّةِ لَا بِمَقْتَضَى الدَّلِيلِ فَإِذَا دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى شَيْءٍ وَجِبَ اتِّبَاعُهُ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ الرِّسْلَ أَفْضَلُ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ أَوَّلِي الْعِزِّ مِنْهُمْ أَفْضَلُهُمْ، وَهُمُ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورُونَ نَصًّا فِي آيَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ، فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [٧]، وَفِي الشُّورَى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [١٣]، وَلَا خِلَافَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَفْضَلُهُمْ، ثُمَّ بَعْدَهُ إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ مُوسَى عَلَى الْمَشْهُورِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ تَنْبِيْهُ عَلَى فَضْلِهِ وَشَرْفِهِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ [٤٤٣٦] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَائِتِهِ لَشُرْجٍ، فَكَانَ يَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ)؛ يَعْنِي: الْقُرْآنَ.

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (٥٧).

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبْدُوا غَيْرَ اللَّهِ ﴿أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ فَارْغَبُوا إِلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾؛ أَي: بِالْكُلِّيَّةِ ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾؛ أَي: بِأَنْ يَحْوِلُوهُ إِلَى غَيْرِكُمْ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الشِّرْكِ يَقُولُونَ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَالْمَسِيحَ وَعِزِيرًا، وَهُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. رَوَى الْبُخَارِيُّ [٤٤٣٧] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الْجِنِّ، فَأَسْلَمَ الْجِنُّ وَتَمَسَكَ هَؤُلَاءُ بِدِينِهِمْ.

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ قَالَ: عِيسَى وَآمَةُ وَعِزِيرٌ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ [١٥/١٠٥] قَوْلَ ابْنِ مَسْعُودٍ لِقَوْلِهِ: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ وَهَذَا لَا يَعْزِزُ بِهِ عَنِ الْمَاضِي، فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ عِيسَى وَالْعِزِيرُ. قَالَ: وَالْوَسِيلَةُ هِيَ الْقُرْبَةُ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء ينبعث على الطاعات، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾؛ أي: ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله، عيادًا بالله منه.

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكُمْ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٥٨).

هذا إخبار من الله ﷻ بأنه قد حتم وقضى بما عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿وَكَايَنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَنْتَ عَنْ أَمرِ رَبِّهَا وَرُسُلُهُ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تَكَرَّرَ﴾ (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسرًا [الطلاق: ٨، ٩].

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَعَاقِبَتُنَا تُمُودُ النَّاقَةَ مُبْصَرَةً فَظَلَمُوا﴾ (٥٩) ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

روى الإمام أحمد [٢٣٣٣] عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، ف قيل له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا فإن كفروا أهلكوا، كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم، وقال: (لَا بَلِ اسْتَأْنَيْتُمْ بِهِمْ) وأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَعَاقِبَتُنَا تُمُودُ النَّاقَةَ مُبْصَرَةً﴾، ورواه النسائي [بنحوه/١١٢٩٠، وصححه الحاكم/٣٣٧٩ ووافقه الذهبي].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾؛ أي: نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في المائدة: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [١١٥]، وقال تعالى عن ثمود حين سألوا آية ناقة تخرج من صخرة عينوها، فدعا صالح ﷺ ربه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا، فظلموا بها؛ أي: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروها، فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَاقِبَتُنَا تُمُودُ النَّاقَةَ مُبْصَرَةً﴾؛ أي: دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾؛ أي: كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها، فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قال قتادة: إن الله يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون [الطبري ١٥/١٠٩]. وروي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن



الخطاب ﷺ مرات، فقال عمر: أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن [روى البيهقي معناه/ ٦١٧٠]، وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: (إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَإِنْهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ﷻ يُرْسِلُهُمَا يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزِعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ)، ثم قال: (يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أُمَّتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا) [البخاري/ ٩٩٧ ومسلم/ ٩٠١].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا آلَإِسْرَافَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضًا له على إبلاغ رسالته مخبرًا له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته، وقال مجاهد، وعروة بن الزبير، والحسن وغيرهم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾؛ أي: عصمك منهم، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آلَإِسْرَافَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ روى البخاري عن ابن عباس قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ شجرة الزقوم، وهكذا فسر ذلك بلبلة الإسراء مجاهد، والحسن، ومسروق، وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد، وقد تقدمت أحاديث الإسراء في أول السورة.

وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾؛ أي: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾؛ أي: تماديًا فيما هم فيه من الكفر والضلال، وذلك من خذلان الله لهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا.

يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه الله لآدم ﷺ وذريته وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخارًا عليه واحتقارًا له ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال أيضًا: أرايتك يقول للرب جراءة وكفرًا والرب يحلم ويُنظر ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قال ابن عباس يقول: لأستولين على ذريته إلا قليلًا وقال مجاهد: لأحتوين، وقال ابن زيد: لأضلنهم، وكلها متقاربة والمعنى أرايتك هذا الذي شرفته وعظمته علي لئن أنظرنتي لأضلن ذريته إلا قليلًا منهم.

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۖ﴾ [٦٣] ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدُّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۖ﴾ [٦٤] ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۖ﴾ [٦٥].

لما سأل إبليس النظرة قال الله له: ﴿أَذْهَبَ﴾ فقد أنظرتك. كما قال في الآية الأخرى قال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [٦٧] إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ [الحجر: ٣٧، ٣٨] ثم أوعده ومن تبعه من ذرية آدم جهنم فقال: ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ﴾؛ أي: على أعمالكم ﴿جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ قال مجاهد: وافرًا، وقال قتادة: مَوْفُورًا عليكم لا ينقص لكم منه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ قيل: هو الغناء. قال مجاهد: باللهو والغناء؛ أي: استخفهم بذلك وقال ابن عباس: كل داع دعا إلى معصية الله ﷻ، وقاله قتادة واختاره ابن جرير [١١٨/١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يقول واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجالتهم فإن الرجل جمع راجل كما أن الركب جمع راكب وصاحب جمع صاحب؛ ومعناه: تَسَلَّطَ عليهم بكل ما تقدر عليه، وهذا أمر قذري، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَذًا﴾ [مريم: ٨٣]؛ أي: ترعجهم إلى المعاصي إزعاجًا، وتسوقهم إليها سوقًا، وقال ابن عباس ومجاهد: كل راكب وماش في معصية الله، وقال قتادة: إن له خيلًا ورجالًا من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه [الطبري ١١٨/١٥]. تقول العرب: أجلس فلان على فلان إذا صاح عليه، ومنه اشتقاق الجلبة وهي ارتفاع الأصوات.

وقوله تعالى: ﴿وَشَارِكُكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله، وقال عطاء: هو الربا، وقال الحسن: هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام، وكذا قال قتادة، وقال ابن عباس ﷺ: أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حرموه من أنعامهم؛ يعني: من البحائر والسوائب ونحوها وكذا قال الضحاك وقاتدة، وقال ابن جرير: والأولى أن يقال إن الآية تعم ذلك كله.

وقوله: ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: يعني: أولاد الزنا، وقال ابن عباس أيضًا: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم، وقال الحسن البصري: قد والله شاركهم في الأموال والأولاد مَجَسُّوا وَهَوَّدُوا وَنَصَرُوا وَصَبَّغُوا عَلَى غَيْرِ صِبْغَةِ الْإِسْلَامِ، وَجَزَّوْا مِنْ أَمْوَالِهِمْ جِزَاءً لِلشَّيْطَانِ، وكذا قال قتادة سواء، وقال ابن عباس أيضًا: هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث، وعبد الشمس وعبد فلان. قال ابن جرير: فكل ما عصي الله فيه أو به أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة، وهذا الذي قاله متجه وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركة فقد ثبت في «صحيح مسلم» [٢٨٦٥] عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال: (يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ لَهُمْ)، وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: (لَوْ أَنَّ

أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا) [البخاري/ ٦٠٢٥ ومسلم/ ١٤٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَعِدُّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول: إِذَا حَصْحَصَ الْحَقُّ يَوْمَ يَقْضَىٰ بِالْحَقِّ ﴿إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدُوكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بَرِيكَ وَكِيلًا﴾؛ أي: حافظًا وناصرًا.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر، وتسهيلها لمصالح عباده لا بتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا﴾؛ أي: إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾.

يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾؛ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًّا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة فذهب هاربًا فركب في البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلاضعن يدي في يدي محمد فلاجدنه رؤوفًا رحيمًا، فخرجوا من البحر فرجع إلى رسول الله ﷺ أسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه [رواه النسائي/ ٣٥٣٠، وصححه الحاكم/ ٥٠٥٦ ووافقه الذهبي].

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾؛ أي: نسيتم ما عرفتم من توحيده وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾؛ أي: سجيته هذا ينسى النعم ويجحدوها إلا من عصم الله.

﴿أَفَأَمْتُمْ أَنْ يَخْفَىٰ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾.

يقول تعالى: أفحسبتم إن نخرجكم إلى البر أمنتكم من انتقامه وعذابه ﴿أَنْ يَخْفَىٰ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهو المطر الذي فيه حجارة، قاله مجاهد وغير واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]، وقد قال في الآية الأخرى:

﴿وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]، وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾؛ أي: ناصرًا يرد ذلك عنكم وينقذكم منه.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّن الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ (٦٩).

يقول تبارك وتعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر وخرجوا إلى البر ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ في البحر مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّن الرِّيحِ﴾؛ أي: يقصف الصواري ويغرق المراكب قال ابن عباس وغيره: القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها وقوله: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾؛ أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى، وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ قال ابن عباس: نصيرًا [ذكره البخاري تعليقًا ١٧٤٤/٤] وقال مجاهد: نصيرًا ثائرًا؛ أي: يأخذ بثأركم بعدكم، وقال قتادة: ولا نخاف أحدًا يُتْبِعُنَا بشيء من ذلك [الطبري ١٢٥/١٥].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّن الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٠).

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]؛ أي: يمشي قائمًا منتصبًا على رجله ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه وجعل له سمعًا وبصرًا وفؤادًا، يفقه بذلك كله وينتفع به ويفرق بين الأشياء ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ﴾؛ أي: على الدواب من الأنعام والخيول والبغال، وفي البحر أيضًا على السفن الكبار والصغار ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّن الطَّيِّبَاتِ﴾؛ أي: من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾؛ أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات، وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧١) وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢).

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم، وقد اختلفوا في ذلك فقال مجاهد، وقتادة: بنبيهم [الطبري ١٢٦/١٥]، وهذا كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]، وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب

الحديث؛ لأن إمامهم النبي ﷺ، وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع، واختاره ابن جرير، وعن مجاهد أنه قال: بكتبهم، فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما روي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْبِهِمْ﴾؛ أي: بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية والحسن، والضحاك [الطبري ١٥/١٢٦]، وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهداً على أمته بأعمالها، كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، ولكن المراد هاهنا بالإمام هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْبِهِمْ فَمَنْ أُوْقَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾؛ أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرأه ويحب قراءته، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُطْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الفيل: ١] هو الخيط المستطيل في شق النواة.

وقوله: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد [كما روى الطبري ١٥/١٢٩]: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ﴾؛ أي: في الحياة الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾؛ أي: عن حجج الله ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾؛ أي: كذلك يكون ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ أي: وأضل منه كما كان في الدنيا عياداً بالله من ذلك.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ مِنْكَ لِيُقَرِّبَكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا لَا أَذْقَنَكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا (٧٥)﴾.

يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيتته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره مؤيده ومظفّره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها ﷺ، تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَكَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)﴾.

قيل: نزلت في اليهود إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة، وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة بعد ذلك، وقيل: إنها نزلت بتبوك وفي صحته نظر.

والأظهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي لم يغز تبوك عن قول اليهود، وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ

الْحَقِّ مِنَ الَّذِيكَ أَوْثُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ [التوبة: ٢٩]، وغزاها ليقنص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه، والله أعلم، وقيل: نزلت في كفار قريش، هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا سيرا، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسبى سراتهم؛ ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾؛ أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وآذوهم يُخْرِجُ الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب، ولولا أنه رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾.

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ قيل: لغروبها، قاله ابن مسعود، ومجاهد، وابن زيد، وقال ابن عباس: ذلوكها زوالها، ورواه نافع عن ابن عمر، وقاله أبو برزة الأسلمي وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن، والضحاك، وأبو جعفر الباقر وقتادة، واختاره ابن جرير [١٣٥/١٥]. هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس فمن قوله: ﴿لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وهو ظلامه، وقيل: غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾؛ يعني: صلاة الفجر، وقد ثبتت السُّنَّةُ عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفاً من سلف وقرناً بعد قرن. ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ روى الإمام أحمد [١٠١٣٧] عن ابن مسعود، وأبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: (تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ)، ورواه الترمذي [٣١٣٥] والنسائي [١١٢٩٣]، وابن ماجه [٦٧٠]، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال عبد الله بن مسعود: يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء [الطبري ١٣٩/١٥]، وكذا قال إبراهيم النخعي ومجاهد وقتادة وغير واحد في تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في «صحيح مسلم» [١١٦٣ بنحوه] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: (صَلَاةُ اللَّيْلِ)؛ ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد ما كان بعد نوم. قاله علقمة والأسود، وإبراهيم النخعي وغير واحد، وهو المعروف في لغة العرب، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس، وعائشة وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم.

وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء، ويحمل على ما كان بعد النوم، واختلف في

معنى قوله تعالى: ﴿نَافِلَةٌ لَّكَ﴾ فقليل معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فاجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة، روي عن ابن عباس، وهو أحد قولي العلماء، واختاره ابن جرير [١٤٨/١٥]، وقيل: إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه. قاله مجاهد.

وقوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّخْمُودًا﴾؛ أي: افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً يحمدك عليه الخلائق كلهم وخالقهم. قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم. ثم رواه عن حذيفة، وابن عباس وحكاه عن مجاهد والحسن وقتادة.

روى الإمام أحمد رحمه الله [٩٦٢١] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتني رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة، ثم قال: (أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُم الدَّاعِيَ وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَذَنُّو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْعَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَلَا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ مِمَّا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَبُوكُمْ آدَمُ!، فَيَأْتُونَ آدَمَ ﷺ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ؛ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ، نَفْسِي، نَفْسِي! اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ نُوحٌ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَىٰ قَوْمِي، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي! اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، فَذَكَرَ كَذِبَاتِهِ نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ عِيسَى، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، قَالَ: وَكَلِمَتُ النَّاسِ فِي الْمَهْدِ



صَبِيًّا، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَأَقُومُ فَآتَيْتُ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ، وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، فَيَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَسَلِّ تَعَطُّهُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَارْفَعْ رَأْسِي فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبِّ أُمَّتِي، فَيَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ: أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ). ثم قال: (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَمَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مِصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى). أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/ ٤٤٣٥ ومسلم/ ١٩٤].



﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾  
 ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

روى الإمام أحمد [١٩٤٨] عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [رواه الترمذي/ ٣١٣٩، وقال: حسن صحيح].

وقال قتادة: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ﴾؛ يعني: المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾؛ يعني: مكة، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهذا القول هو أشهر الأقوال، وقال ابن عباس: ﴿ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ﴾؛ يعني: الموت ﴿وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾؛ يعني: الحياة بعد الموت، وقيل غير ذلك الأقوال، والأول أصح، وهو اختيار ابن جرير [١٤٩/١٥].

وقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ قال الحسن البصري في «تفسيرها»: وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له [الطبري ١٥٠/١٥]، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له، وقال قتادة فيها: إن نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم [الطبري ١٥٠/١٥]، قال مجاهد: ﴿سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ حجة بينة، واختار ابن جرير قول الحسن و قتادة، وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه؛ ولهذا قال ﷺ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَبْصُرُ وَهُدًى لِلنَّبِيِّ﴾ [الحديد: ٢٥]، وفي الحديث [الموقوف على عثمان]: (إِنَّ اللَّهَ لَيَرْزِعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزْعُ بِالْقُرْآنِ) [رواه الخطيب البغدادي في تاريخه/ ١٧٦٥]؛ أي: لِيَمْنَعُ بِالسُّلْطَانِ عَنْ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ

والآثام، ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ تهديد ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع، وزهق باطلهم؛ أي: اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وروى البخاري [برقم: ٤٠٣٦] ومسلم/ [١٧٨١] عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصْب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا، جاء الحق وما يُبدئ الباطل وما يُعيد).

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢).

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه الذي أنزل على رسول الله ﷺ وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين؛ أي: يذهب ما في القلب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيف وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيد سماعه القرآن إلا بعدًا وكفرًا، والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، والآيات في ذلك كثيرة. قال قتادة في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ أي: لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين [الطبري ١٥٣/١٥].

﴿وَإِذَا أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ (٨٣) قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ (٨٤).

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصمه الله تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه، قال مجاهد: بعد عنا [الطبري ١٥٣/١٥]، قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]. وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وبأنه إذا مسه الشر وهو المصائب، والحوادث والنوائب ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾؛

أي: قنط أن يعود فيحصل له بعد ذلك خير، كقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَرَةٍ مَسَتْهُ يُقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١٠، ١١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته، وقال مجاهد: على حدته وطبيعته، وقال قتادة: على نيته، وقال ابن زيد: دينه، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى [رواه الطبري ١٥٤/١٥] وهذه الآية، والله أعلم تهديد للمشركين ووعد لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ [سود: ١٢١، ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾؛ أي: منا ومنكم، وسيجزى كل عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية.

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

روى البخاري [١٢٥] ومسلم [٢٧٩٤] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في حرث وهو متوكئ على عسيب، إذ مر باليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم إليه، وقال بعضهم: لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه، فقالوا سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ، فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقامت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ الآية، وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سألته اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية، وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو نزل عليه الوحي بأن يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾، وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح هاهنا على أقوال: أحدها: أن المراد أرواح بني آدم، وقيل: المراد بالروح هاهنا جبريل، قاله قتادة، وقيل: المراد به هاهنا ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها، عن ابن عباس قال: الروح ملك.

وقال السهيلي: وقيل: المراد بذلك طائفة من الملائكة على صور بني آدم، وقيل: طائفة يرون الملائكة ولا تراهم، فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم.

وقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾؛ أي: من شأنه ومما استأثر بعلمه دونكم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى، والمعنى أنه علمكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه أمر الروح مما استأثر به تعالى ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى، وسيأتي إن شاء الله في قصة موسى والخضر أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة فقر في البحر نفرة؛ أي: شرب منه بمنقاره، فقال: يا موسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر، أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ثم ذكر

السهيلى الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها، فحاصل ما يقول: أن الروح هي أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه لا من كل وجه، وهذا معنى حسن، والله أعلم.

قلت: وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها، وصنفوا في ذلك كتباً، ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده.

﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. قال ابن مسعود رضي الله عنه: يطرق الناس ريح حمراء؛ يعني: في آخر الزمان من قبل الشام، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية، ثم قرأ ابن مسعود ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية [الطبري ١٥/١٥٨]، ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظاهروا فإن هذا أمر لا يُستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له، ولا عديل له.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: بينا لهم البراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾؛ أي: جحوداً ورداً للصواب.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِلَهُةٍ وَالْمَلَكِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفِيقِكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّفَرُّهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ينبوع: العين الجارية، سألوه أن يُجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز هاهنا وهاهنا، وذلك سهل يسير على الله تعالى لو شاء لفعله ولأجابهم على جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

وقوله تعالى: ﴿أَوْ شَقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾؛ أي: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء، فعجل ذلك في الدنيا وأسقطها كسفًا؛ أي: قطعًا كقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتِنَا يُعَذِّبَ آلِئِمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وكذلك سأل قوم شعيب منه قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم، وأما نبي الرحمة ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين فسأل إنظارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلاهم من يعبد لا يشرك به شيئًا، وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أبي أمية الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلامًا تامًا وأنا ب إلى الله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: هو الذهب [الطبري ١٥/١٦٣]، ﴿أَوْ تَرَفَّى فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ قال مجاهد: أي: مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة هذا كتاب من الله لفلان تصبغ موضوعة عند رأسه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾؛ أي: ﷺ وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء إن شاء أجابكم إلى ما سألتكم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتكم إلى الله ﷻ.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي مَطْمَئِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾؛ أي: أكثرهم ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أَكُنَّا لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَنُفِّرِ الْكَذِبَ ءَامِنًا﴾ [يونس: ٢]، والآيات في هذا كثيرة، ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده: أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا منه لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي مَطْمَئِينَ﴾؛ أي: كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾؛ أي: من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشرًا بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿٩٦﴾.

يقول تعالى مرشدًا نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به: إنه شاهد علي وعليكم، عالم بما جئتمكم به، فلو كنت كاذبًا عليه لانتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿٩٦﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٩٧﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٩٨﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]، وقوله:

﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾؛ أي: عليهم بهم بمن يستحق الإنعام والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال؛ ولهذا قال:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا ۖ ذَرْهُمْ عَلَىٰ مَا يَبْتَلِيهِمْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۚ﴾ [٩٧].

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له، ومن يضلّل فلن تجد لهم أولياء من دونه؛ أي: يهدونهم، كما قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقوله: ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ﴾ روى الإمام أحمد [١٢٧٣١] عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: (الَّذِي أَمْسَاهُمْ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ)، وأخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٤٤٨٢ ومسلم/٢٨٠٦ كلاهما بمعناه].

وقوله: ﴿عُمِيًّا﴾؛ أي: لا يبصرون، ﴿وَبِكْمًا﴾؛ يعني: لا ينطقون، ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون، وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصمّاً عن الحق، فجازوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَا وَنَّهْتُمْ﴾؛ أي: منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس: سكنت [الطبري ١٦٩/١٥]، وقال مجاهد: طفئت، ﴿وَزِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾؛ أي: لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿فَذَوْقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتْ أَعْنَآ لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۚ﴾ [٩٨] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا ۚ﴾ [٩٩].

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمي والبكم والصمم، جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: بأدلتنا واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتْ﴾؛ أي: بالية نخرة ﴿لَنَأْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؛ أي: بعدما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفوق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية؟ فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ يَخْلُقْهُنَّ يَفْقَدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُخْجِيَ الْمَوْتِ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال هاهنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾؛ أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُّوا﴾ إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ .

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمستكم خشية الإنفاق، قال ابن عباس وقتادة: أي: الفقر [الطبري ١٥/ ١٧٠]؛ أي: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجايكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ قال ابن عباس، وقتادة: أي: بخيلاً منوعاً، وقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ نَصِيبْ مِنَ الْإِنْفَاقِ فَإِذَا لَمْ يُوَفِّوْا الْإِنْفَاقَ﴾ [النساء: ٥٣]؛ أي: لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقيراً، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهده، فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [١٩] إِذَا مَسَّهُ الْفَقْرُ جَرُوعًا [٢٠] وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا [٢١] إِلَّا الْمُصَلِّينَ [المعارج: ١٩ - ٢٢]، ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في «الصحيحين»: (يَدُّ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ) [البخاري/ ٤٤٠٧ ومسلم/ ٩٩٩٣].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى نِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ [١٥١] قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعَوْتُ مَشْجُورًا [١٥٢] فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا [١٥٣] وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُونُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا [١٥٤] .

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا، واليد، والسنين، والبحر، والظوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات، قاله ابن عباس، وقال محمد بن كعب: هي اليد والعصا، والخمس في الأعراف والظمسة والحجر، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد، وعكرمة، والشعبي وقتادة: هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والظوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي، وجعل الحسن البصري السنين ونقص الثمرات واحدة، وعنده أن التاسعة هي تلف العصا ما يافكون [ذكر هذه الأقوال بأسانيد الطبري ١٥/ ١٧١] . ﴿فَأَسْتَكَبرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]؛ أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت فيهم: فكذلك لو أجبتنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ قيل: بمعنى ساحر، والله تعالى أعلم، فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المراد هاهنا، وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدِرِكًا وَلَّى مُعِيبٌ يَمُوسَى﴾

لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠٥﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسًّا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَصْصَاءً مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تَسْعِ ءَايَاتِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿النمل: ١٠ - ١٢﴾، فذكر هاتين الآيتين العصا واليد، وبين الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصلها، وقد أوتي موسى ﷺ آيات أخر كثيرة، منها ضربه الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر هاهنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً.

ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾؛ أي: حججاً على صدق ما جئت بك به ﴿وَلِيَّيْ لَأَظُنُّكَ يُفِرُّعُونَ مَثْبُورًا﴾؛ أي: هالكا، قاله: مجاهد، وقتادة، وقال ابن عباس: ملعوناً، وقال أيضاً هو والضحاك ﴿مَثْبُورًا﴾؛ أي: مغلوباً [الطبري ١٥/١٧٥]، والهالك يشمل هذا كله، قرأ بعضهم برفع التاء من قوله علمت، وروي ذلك عن علي بن أبي طالب، ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مَبْصُرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣٦﴾ وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

وقوله: ﴿فَارَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: يزيلهم عنها ﴿فَاعْرِفْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٣٧﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةً مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]؛ ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها غنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]، وقال هاهنا: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾؛ أي: جميعكم، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: لفيفاً؛ أي: جميعاً [الطبري ١٥/١٧٧].

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَفَرَأْنَا أَنَّهُ يَرْفَعُ رَفْعَهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنُنَزِّلُ لَهَا نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد أنه بالحق نزل؛ أي: متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلْنَاهُ بَعْلَمَةً﴾ [النساء: ١٦٦]؛ أي: متضمناً علم الله الذي أراد أن يُطْلِعَكُم عليه من أحكامه وأمره ونهيه.

وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾؛ أي: ووصل إليك يا محمد محفوظاً محروساً لم يُشَبَّ بغيره، ولا زيد



فيه ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى الأمين المكين المطاع في الملاء الأعلى.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾؛ أي: يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين ونذيراً لمن عصاك من الكافرين.

وقوله: ﴿وَقَرَأْنَاكَ فَرَقَتَهُ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفَرَّقًا منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، قاله ابن عباس، وعن ابن عباس أيضاً أنه قرأ: فرفقاه بالتشديد [الطبري ١٧٨/٥]؛ أي: أنزلناه آية آية مُبَيَّنًا ومفسراً؛ ولهذا قال: ﴿لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾؛ أي: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم، ﴿عَلَى مَكٍّ﴾؛ أي: مهل ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾؛ أي: شيئاً بعد شيء.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم ﴿ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾؛ أي: سواء آمنتم به أم لا، فهو حق في نفسه أنزله الله ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾؛ أي: من صالح أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم وقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذفن وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾؛ أي: لله ﷻ شكراً على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلاً أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾؛ أي: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على السنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾؛ أي: خضوعاً لله ﷻ وإيماناً بكتابه ورسوله، ويزيدهم الله خشوعاً؛ أي: إيماناً وتسليماً، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا رَأَدُّهُمْ هُدًى وَءَانْتَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ﴾ عطف صفة على صفة لا عطف السجود على السجود.

﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرَنَّ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله ﷻ، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾؛ أي: لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ

الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُونَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ الآية، روى الإمام أحمد [١٥٥] عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله ومن جاء به، قال: فقال الله تعالى لنبية ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾؛ أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾ عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٧٠٥٢ ومسلم/٤٤٦ بنحوه]، وقال عكرمة، والحسن البصري وقتادة: نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة، وقال ابن مسعود: لم يخاف بها مَنْ أسمع أذنيه [الطبري ١٥/١٨٨].

قال ابن عباس: نزلت في الدعاء، وهكذا قالت عائشة، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو عياض، ومكحول، وعروة بن الزبير.

قول آخر: عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزلت هذه الآية في التشهد، وبه قال محمد بن سيرين [الطبري ١٥/١٨٧].

قول آخر: عن ابن عباس قال: لا تصل وراءك للناس، ولا تدعها مخافة الناس، وقال الحسن البصري: لا تحسن علانياتها وتسيء سريرتها [الطبري ١٥/١٨٧].

قول آخر: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: أهل الكتاب يخافتون، ثم يجهر أحدهم بالحرف، فيصيح به ويصيحون هم به وراءه، فنهاء أن يصيح كما يصيح هؤلاء، وأن يخافت كما يخافت القوم، ثم كان السبيل الذي بين ذلك الذي سن له جبريل من الصلاة [الطبري ١٥/١٨٧ - ١٨٨].

وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى، نزه نفسه عن النقائص فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَئِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾؛ أي: ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له، قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَئِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ لم يحالف أحداً ولم يبتغ نصر أحد [الطبري ١٥/١٨٩]. ﴿وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾؛ أي: عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.



## تفسير سورة الكهف

وهي مكية

ذكر ما ورد في فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها وأنها عصمة من الدجال :  
 روى الإمام أحمد [١٨٤٩٧] عن البراء قال: قرأ رجل الكهف، وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضيابة أو سحابة قد غشيتها، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: (اقْرَأْ فَلَانُ، فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ عِنْدَ الْقُرْآنِ، أَوْ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ) أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٣٤١٨ ومسلم/٧٩٥] وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير، وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: (مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ) رواه مسلم [٨٠٩].

وروى الإمام أحمد [٢٧٥٥٦] من طريق أخرى عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: (مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ) ورواه مسلم أيضًا [٨٠٩].  
 وروى الإمام سعيد بن منصور في «سننه» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق، وقد أخرجه الحاكم في «مستدركه» [٣٣٩٢] عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ). ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه [وهو صحيح بشواهده].

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ فَيَمَّا لِيُذِيرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ﴿٢﴾ مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا ۖ ﴿٣﴾ وَيُذِيرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ﴿٥﴾﴾

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتيمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة؛ ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور حيث جعله كتابًا مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا زيف، بل يهدي إلى صراط مستقيم واضحًا بينًا جليًا، نذيرًا للكافرين، بشيرًا للمؤمنين؛

ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾؛ أي: لم يجعل فيه اعوجاجًا ولا زيجًا، بل جعله معتدلاً؛ ولهذا قال: ﴿فِيمَا﴾؛ أي: مستقيماً ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾؛ أي: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به ينذره بأسا شديداً، عقوبة عاجلة في الدنيا وأجلة في الآخرة ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾؛ أي: من عند الله الذي لا يُعَذِّبُ عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد. ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾؛ أي: مثوبة عند الله جميلة ﴿مَّا كُنْتُمْ فِيهِ﴾ في ثوابهم عند الله، وهو الجنة خالدين فيه ﴿أَبَدًا﴾ دائماً لا زوال له ولا انقضاء.

﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب في قولهم: نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله. ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: بهذا القول الذي افتروه واثفكوه ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾؛ أي: لأسلافهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز تقديره: كبرت كلمتهم هذه كلمة. وقيل: على التعجب تقديره: أعظم بكلمتهم كلمة، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ يَقُولُوا إِلَّا كَذِبًا﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ﴿٨﴾.

يقول تعالى مسلماً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان، وبعدهم عنه كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿بَنِيعٌ﴾؛ أي: مهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾؛ يعني: القرآن ﴿أَسَفًا﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفاً. قال قتادة: قَاتِلْ نَفْسَكَ غَضَبًا وَحُزْنًا عَلَيْهِمْ، وقال مجاهد: جزعاً [الطبري ١٥/١٩٥]، والمعنى متقارب؛ أي: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مَرْيَنَةً بَزِينَةٍ زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [روى مسلم/٢٧٤٢] عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِنَّ الدُّنْيَا خُلُوةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظِيرُ مَاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَىٰ إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)، ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا﴾؛ أي: وإنا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكا ﴿صَعِيدًا جُرًّا﴾ لا يُنْبِت ولا يتنفع به.

كما روي عن ابن عباس قال: يهلك كل شيء عليها ويبید، وقال مجاهد: صعيداً جرراً: بلقاً، وقال قتادة: الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات، وقال ابن زيد: الصعيد

الأرض التي ليس فيها شيء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا السَّيِّدَةَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُبْرِ فَخَرَجَ بِهِ زُرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]، وقال محمد بن إسحاق: إن ما عليها لفان وبائد، وإن المرجع لإلى الله، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى [هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ١٥/١٩٦].

﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لِسُوءِ أَمَدًا ﴿١٢﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ﴾؛ يعني: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾؛ أي: ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف، كما قال مجاهد: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك.

وعن ابن عباس قال: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وأما الكهف فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون، وأما الرقيم فعن ابن عباس: هو واد قريب من أيلة، وكذا قال العوفي وقتادة، وقال الضحاك: أما الكهف فهو غار في الوادي، والرقيم اسم الوادي، وقال مجاهد: الرقيم كان بنيانهم، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم [هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ١٥/١٩٨].

وقال ابن عباس: يزعم كعب أنها القرية، وقال ابن عباس أيضاً: الرقيم الجبل الذي فيه الكهف، وعنه كذلك: ما أدري ما الرقيم؟ أكتاب أم بنيان، وفي رواية عنه: الرقيم الكتاب، وقال سعيد بن جبیر: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم الكتاب، ثم قرأ: ﴿يَكْتُبُ مَرْقُومًا﴾ [المطففين: ٩]، وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير [١٥/١٩٨]، قال: الرقيم فعيل بمعنى مرقوم.

وقوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوه عن دينهم، فهربوا منهم فلجأوا إلى غار في جبل ليخفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾؛ أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾؛ أي: وقدر لنا من أمرنا هذا رشداً؛ أي: اجعل عاقبتنا رشداً،

وفي «المسند» [مسند الإمام أحمد/ ١٧٦٦٥] من حديث بسر بن أرطاة عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: (اللَّهُمَّ، أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ) [رواه ابن حبان في «صحيحه»/ ٩٤٩، وذكره الهيثمي وقال: رجال أحمد ثقات].

وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾؛ أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾؛ أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدرهم معه ليشتري لهم بها طعامًا يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾؛ أي: المختلفين فيهم ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية.

﴿ثُمَّ نَفْضُ عَلَيْكَ نَبَاهُكَ بِالْحَقِّ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ (١٣) ﴿وَرَبَّنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ﴾ (١٤) ﴿إِنَّا لَنَدْعُوهُ﴾ (١٥) ﴿وَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (١٦) ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ (١٧).

من هاهنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً، وقال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة؛ يعني: الحلق، فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم، فأمنوا بربهم؛ أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو ﴿وَرَدَّاهُمْ هُدًى﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَدَّاهُمْ هُدًى﴾ كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَارَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى ابن مريم، والله أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم، وقد روي عن ابن عباس [كما ذكره الطبري ١٥٥/١٥] أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَبَّنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة، فإنه ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد،

وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له دقيانوس، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا الله الذي خلق السموات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز عنهم، فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة فجاء الآخر فجلس إليها عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذين رواه البخاري تعليقاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُّجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ) [البخاري/٣١٥٨] وأخرجه مسلم [٢٦٣٨] في «صحيحه» عن أبي هريرة، والناس يقولون: الجنسية علة الضم.

والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم: تعلمون والله يا قوم أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء، فليظهر كل واحد منكم بأمره، فقال آخر: أما أنا فأني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة، وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله ﷻ؛ ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ ولن لنفي التأييد؛ أي: لا يقع منا هذا أبداً؛ لأننا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً؛ ولهذا قال عنهم: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطْنَا﴾؛ أي: باطلاً وبهتاناً ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَّوَلَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ﴾؛ أي: هلاً أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهدهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يراجعون دينهم الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء في الحديث: (يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالٍ أَحَدِكُمْ غَنَمًا يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ) [رواه البخاري/١٩] ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع، فلما وقع عزمهم على الهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك وأخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ أي: وإذ فارقتهم وخالفتهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأديانكم، ﴿فَقَالُوا إِلَى

الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ؛ أَي: ييسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿وَيُخْرِجَكُم مِّنْ أَمْكُرِكُمْ﴾ الذي أنتم فيه ﴿مِرْفَقًا﴾؛ أَي: أمرًا ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هُرَابًا إلى الكهف فأووا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم وتَطَلَّبَهُم الملك، فيقال: أنه لم يظفر بهم وعمى الله عليه خبرهم.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِلْ فَلَن يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

هذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾؛ أَي: يتقلص الفئء يمنة، كما قال ابن عباس وسعيد بن جبیر، وقتادة: ﴿تَزَّوُّرُ﴾؛ أَي: تميل [الطبري ٢١١/١٥]، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾؛ أَي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: تقرضهم تتركهم [الطبري ٢١١/١٥]، وقد أخبر الله تعالى بذلك، وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي، وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً، فتقدم عن ابن عباس أنه قال: هو قريب من أيلة [الطبري ١٩٨/١٥]، وقال ابن إسحاق: هو عند نينوى، وقيل: ببلاد الروم، وقيل: ببلاد البلقاء، والله أعلم بأي بلاد الله هو، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه، فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ قال زيد بن أسلم: تميل ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْ ذَلِكَ﴾؛ أَي: في متسع منه داخلاً بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس [الطبري بمعناه ٢١٢/١٥]: ﴿ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِلْ فَلَن يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾؛ أَي: هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾.

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقي لها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ



رُفُودٌ ﴿١٩﴾ وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينًا ويفتح عينًا، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد.

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين. قال ابن عباس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض، وقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بِسِطْرِ ذَرَأَتِهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة: الوصيد: الفناء، وقال ابن عباس: بالباب، وقيل: بالصعيد وهو التراب [الطبري ٢١٥/١٥]، والصحيح أنه بالفناء وهو الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨]؛ أي: مطبقة مغلقة، ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب، قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب، وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب، كما ورد في «الصحيحين» [البخاري/٣٠٥٣ ومسلم/٢١٠٤] ولا صورة، ولا جُنُب ولا كافر، كما ورد به الحديث الحسن [رواه أبو داود/٢٢٧ والنسائي/٢٥٧]، وشملت كلبهم بركتُهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وشأن.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾؛ أي: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم، لما ألْبَسُوا من المهابة، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لاس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى: كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم لم يفقدوا من أحوالهم وحياتهم شيئًا وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم ﴿كَمْ لَبِئْتُمْ﴾؛ أي: كم رقدتم؟ ﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستبقاظهم كان في آخر نهار؛ ولهذا استدرکوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾؛ أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾؛ أي: فضتكم هذه، وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها؛ فلماذا قالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾؛ أي: مدينتكم التي خرجتم منها، ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾؛ أي: أطيب طعامًا، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] ومنه الزكاة التي تُطَيَّبُ المال وتطهره، وقيل: أكثر طعامًا، ومنه زكا الزرع إذا كثر، والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال سواء كان كثيرًا أو قليلًا.

وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾؛ أي: في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتَخَفَّ كل ما يقدر

عليه ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾؛ أي: ولا يُعلمَنَّ ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ ١٩ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ؛ أي: إن علموا بمكانكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها، أو يموتوا، وإن واتوهم على العود في الدين فلا فلاح لهم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ تَقْلِحُوا وَإِذَا أَبَدًا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَدَّيْنَاهُمْ أَعْلَمَ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ ٢١.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أطلعنا عليهم الناس ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة، وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد، فبعث الله أهل الكهف حجة وآية على ذلك، وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه، تنكر وخرج يمشي في غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها: لا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير في نفسه ويقول: لعل بي جنوناً أو مساً أو أنا حالم، ويقول: والله ما بي شيء من ذلك، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة، ثم قال: إن تعجيل الخروج من هاهنا لأولى لي، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعل هذا وجد كنزاً، فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة، لعله وجدها من كنز ومن أنت؟ فجعل يقول: أنا من أهل هذه البلدة، وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس، فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولي أمرهم فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره، وهو متحير في حاله وما هو فيه، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف - مُتَوَلَّى البلد وأهلها - حتى انتهى بهم إلى الكهف فقال لهم: دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل، فيقال: إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبرهم، ويقال: بل دخلوا عليهم ورأوهم، وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل، ففرحوا به وأنسوه بالكلام، ثم ودعوه وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، توفاهم الله ﷻ، فالله أعلم.

قال قتادة: غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهف في بلاد الروم، فرأوا فيه عظاماً فقال قائل: هذه عظام أهل الكهف، فقال ابن عباس: لقد بليت عظامهم من أكثر من

ثلاثمائة سنة. رواه ابن جرير [٢١٧/١٥]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهياتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ﴾؛ أي: في أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾؛ أي: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثاني: أهل الشرك منهم، فالله أعلم، والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: (لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ) [رواه البخاري/٤٢٥ بلفظه ومسلم/٥٢٩] يحذر ما فعلوا، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضَعَّفَ القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: قولاً بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فبلا قصد، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: ﴿وَوَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ دل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر.

وقوله: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وَقَفْنَا حَيْثُ وَقَفْنَا.

وقوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ أي: من الناس. قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله ﷻ، كانوا سبعة [رواه الطبراني في «الأوسط»/٦١١٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ﴾؛ أي: سهلاً هيناً، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾؛ أي: فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب؛ أي: من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية فيه، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ (٢٣) ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (٢٤).

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ﷻ، علّام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما ثبت في «الصحاحين» عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا طُوفَنَ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً وَفِي رَايَةٍ: تَسْعِينَ امْرَأَةً، وَفِي رَايَةٍ: مِائَةً امْرَأَةً - تِلْدُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقِيلَ لَهُ - وَفِي رَايَةٍ: قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ، فَطَافَ بِهِنَّ فَلَمْ يَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً نِصْفَ إِنْسَانٍ)، قال رسول الله ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْ يَخْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ) [رواه البخاري نحوه/ ٣٢٤٢ ومسلم/ ١٦٥٤]، وفي رواية: (وَلَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ) [البخاري/ ٢٦٦٤].

وقوله: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: معناه إذا نسيت الاستثناء، فاستثنى عند ذكرك له، قاله أبو العالية والحسن البصري [الطبري ٢٢٩/١٥]. وقال عكرمة: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ إذا غضبت [ابن أبي شيبه/ ٣٥٤٦٥]، وعن ابن عباس: أن تقول إن شاء الله.

ويحتمل في الآية وجه آخر وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد مَنْ نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣] وذكره الله تعالى يطرد الشيطان فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله تعالى سبب للذكر؛ ولهذا قال: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾؛ أي: إذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك، وقيل في تفسيره غير ذلك، والله أعلم.

﴿وَلْيَسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ (٢٥) ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦).

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي الثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال: بعد ثلاثمائة وازدادوا تسعاً، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾؛ أي: إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء، بل

قل في مثل هذا: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْتُوا لَهُمْ عِيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه عليه من خلقه، وهذا الذي قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد وغير واحد من السلف والخلف.

وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ﴾؛ أي: أنه لبصير بهم سميع لهم، قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ثم روي عن قتادة في قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع، وقال ابن زيد: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ﴾ يرى أعمالهم ويسمع ذلك منهم سميعاً بصيراً [الطبري ٢٣٢/١٥]، وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾؛ أي: أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس.

﴿وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧) وَأَبْصِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨).

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾؛ أي: لا مغير لها ولا محرف ولا مؤول، وقوله: ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ عن مجاهد ملتحدًا قال: ملجأ، وعن قتادة: ولياً ولا مولى [الطبري ٢٣٣/١٥]. قال ابن جرير: يقول إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقوله: ﴿وَأَبْصِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾؛ أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيًا، من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضعفاء، يقال: إنها نزلت في أشرف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم، وحدهم، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخباب، وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء.

روى مسلم في «صحيحه» [٢٤١٣] عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرده هؤلاء لا يجترؤن علينا قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال، ورجلان نسبتهما اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما يشاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: ولا تتجاوزهم إلى

غيرهم، تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة [الطبري ٢٣٤/١٥]، ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِكْرِنَا﴾؛ أي: شُغِلَ عن الدين وعبادة ربه بالدنيا، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾؛ أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط، ولا تكن مطيعاً ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩).

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس: هذا الذي جئتم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾؛ أي: أَرَصَدْنَا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾؛ أي: سورها.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ قال ابن عباس: المهل: الماء غليظ مثل دُرْدِي الزيت، وقال مجاهد: هو كالدِّم والقِيح، وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حره، وقال آخرون: هو كل شيء أذِيب [الطبري ٢٤٠/١٥]، وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئاً من الذهب في أخدود، فلما انماع وأزبد، قال: هذا أشبه شيء بالمهل [الطبراني في الكبير/ ٩٠٨٢]، وقال الضحاك: ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود، وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار؛ ولهذا قال: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾؛ أي: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه.

وقال سعيد بن جبیر [كما ذكر الطبري ٢٤١/١٥]: إذا جاع أهل النار استغاثوا، فأغيثوا بشجرة الزقوم فيأكلون منها، فاختلست جلود وجوههم، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم، لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود؛ ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾؛ أي: بئس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾؛ أي: وساءت النار منزلاً ومقيلاً للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (٣٠) ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَبَّحَتِ الْوُحُوشُ حُمْرَ النَّعُورِ﴾ (٣١).

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما

جاؤا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم جنات عدن، والعدن: الإقامة، ﴿يَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: من تحت غرفهم ومنازلهم، ﴿يُحَلَّوْنَ﴾؛ أي: من الحلية ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وقال في المكان الآخر: ﴿وَلَوْثُ وَأَلْبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٣٣]، وفصله هاهنا، فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ فالسندس ثياب رقاق كالقمصان وما جرى مجراها، وأما الاستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ الاتكاء قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس وهو أشبه بالمراد هاهنا، ومنه الحديث في الصحيح (أَمَا أَنَا فَلَا أَكَلُ مُتَّكِئًا) [رواه البخاري/٥٠٨٣]، فيه القولان: والأرائك جمع أريكة، وهي السرير تحت الحجلة، والحجلة [بيت يزين بالثياب والأسرة والستور]. قال قتادة: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ قال: هي الحجال، وقال غيره: السرر في الحجال [الطبري ٢٤٣/١٥].

وقوله: ﴿نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾؛ أي: نعمت الجنة ثوابًا على أعمالهم وحسنت مرتفعًا؛ أي: حسنت منزلاً ومقيلاً، كما قال في النار: ﴿يُسَكُّ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]، ثم ذكر صفات المؤمنين، فقال: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِيَ وَسَلَامًا﴾ (٧٥) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۚ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ تَانٍ وَأَكَلْهُمَا وَلَمْ يُظِلُّ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ۚ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۚ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ۚ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۚ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۚ﴾

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين؛ أي: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخيل في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع ثمر مقبل في غاية الجودة؛ ولهذا قال: ﴿كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ تَانٍ وَأَكَلْهُمَا﴾؛ أي: خرّجت ثمرها ﴿وَلَمْ يُظِلِّ مِنْهُ شَيْئًا﴾؛ أي: ولم تُنقص منه شيئاً ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾؛ أي: والأنهار تتخرق فيهما هاهنا وهاهنا، ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قيل: المراد به المال، روي عن ابن عباس، ومجاهد وقاتدة، وقيل: الثمار، وهو أظهر هاهنا ويؤيده القراءة الأخرى: ﴿وكان له ثمر﴾ بضم الثاء [والميم] [الطبري ٢٤٥/١٥]، فيكون جمع ثمرة كخشبة وخشب، فقال: أي صاحب هاتين الجنتين لصاحبه وهو يحاوره؛ أي: يجادله، ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾؛ أي: أكثر خدماً وحشماً وولداً، قال قتادة: تلك والله أمانة الفاجر، كثرة المال وعزة النفر.

وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾؛ أي: بكفره وتكبره وإنكاره المعاد ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وذلك اغتراراً منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار، والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تتلف، وذلك لقلّة عقله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾؛ أي: كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾؛ أي: ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا لأنني محطى عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]؛ أي: في الدار الآخرة، تألى على الله ﴿وَبِالْحَمْدِ﴾.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۚ لَّيَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۚ ۞ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۚ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۚ ۞ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غُورًا فَلَن يَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۚ﴾ (٤١).

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن، وأعطاه له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعترار ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه، وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]؛ أي: كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جليلة، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء، ولهذا قال المؤمن: ﴿لَّيَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾؛ أي: لكن أنا لا أقول بمقاتلك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية، ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾؛ أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك؛ أي: هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها، حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده، فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة، وقد ثبت في «الصحیح» عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: (أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ كَنْزٍ مِّنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) [البخاري/ ٣٩٦٨ ومسلم/ ٢٧٠٤].

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾؛ أي: في الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس



والضحاك وقتادة والزهري: أي: عذابًا من السماء، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: ﴿فَصَبِّحْ صَعِيدًا زَلَقًا﴾؛ أي: بَلَقًا ترابًا أملس لا يثبت فيه قدم، وقال ابن عباس: كالجزر الذي لا يُنْبِت شيئًا [الطبري ٢٤٩/١٥] وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾؛ أي: غائرًا في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]؛ أي: جار وسائح، وقال هاهنا: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا﴾ والغور مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه.

﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (٤٤).

يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ بأمواله أو بشماره، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خَوْفَهُ به المؤمن من إرسال الحسابان على جنته التي اغتر بها وألهمته عن الله ﷻ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَفَقَ فِيهَا﴾ وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفًا متلهفًا على الأموال التي أذهبها عليها ﴿وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ؛ أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز ﴿يَصْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ اختلف القراء هاهنا فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ (٤٣) هُنَالِكَ؛ أي: في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله، فلا منقذ له منه، وابتدئ بقوله: ﴿الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ ومنهم من يقف على ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ يبتدئ بقوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ ثم اختلفوا في قراءة الولاية، فمنهم من فتح الواو من الولاية، فيكون المعنى هنالك الموالاتة لله؛ أي: هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤]، ومنهم من كسر الواو من الولاية؛ أي: هنالك الحكم لله الحق، ثم منهم من رفع الحق على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، ومنهم من خفض القاف على أنه نعت لله ﷻ، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾؛ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾؛ أي: الأعمال التي تكون لله ﷻ، ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِدًا﴾ (٤٥) أَلَمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٤٦).

يقول تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ﴾ يا محمد للناس ﴿مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ في زوالها وانقضائها ﴿كَمَاءٍ﴾

أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ؛ أَي: ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنصرة، ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصْبَحَ حُشَيْمًا﴾ يابسًا ﴿نَذَرُوهُ الرِّيحَ﴾؛ أَي: تفرقه وتطرّحه ذات اليمين وذات الشمال، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا﴾؛ أَي: هو قادر على هذه الحال وهذه الحال، وكثيرًا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل، كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وفي الحديث الصحيح: (الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ) [رواه مسلم/٢٧٤٢]، وقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كقوله: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفَنَاءِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَآثِرِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]؛ أَي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف: الباقيات الصالحات الصلوات الخمس، وعن ابن عباس: الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وبه قال مجاهد والحسن وقتادة، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن الباقيات الصالحات ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله [ونحوه عن ابن عمر وسعيد بن المسيب، تفسير الطبري ٢٥٤/١٥ وما بعدها].  
روى ابن جرير [٢٥٦/١٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ هُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ) [إسناده حسن].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض، وعنه أيضًا: هن الكلام الطيب، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها، واختاره ابن جرير رحمه الله.

﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧) ﴿وَعَرِضْهُ عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُو أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ (٤٨) ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَنَا مَا هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩).

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (٩) ﴿وَتُسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠]؛ أَي: تذهب من أماكنها وتنزل؛ ولهذا

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾؛ أي: بادية ظاهرة ليس فيها معلّم لأحد، ولا مكان يوارى أحدًا، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية. قال مجاهد وقتادة: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ لا حَمَرٌ فيها ولا غَيَابَةٌ قال قتادة: لا بناء ولا شَجَر [الطبري ١٥/٢٥٧].

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ وأي وجمعناهم الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحدًا لا صغيرًا ولا كبيرًا كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٨﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقوله: ﴿وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفًا واحدًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] ويحتمل أنهم يقومون صفوفًا صفوفًا، كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُو أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هذا تقرير للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد؛ ولهذا قال تعالى مخاطبًا لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّنِي جَعَلْتُ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾؛ أي: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن.

وقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾؛ أي: كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير، والقطمير، والصغير والكبير، ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾؛ أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ إِنَّهُمْ لَبَشِيرٌ﴾؛ أي: يا حسرتنا على ما فرطنا في أعمالنا ﴿وَمَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾؛ أي: لا يترك ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا ولا عملاً وإن صَغُرَ، إلا أحصاها؛ أي: ضبطها وحفظها.

وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾؛ أي: من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقوله: ﴿وَلَا يَظَلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾؛ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعًا، ولا يظلم أحدًا من خلقه بل يغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملا النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، والآيات في هذا كثيرة، وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: بلغني حديث عن رجل سمعه عن النبي ﷺ، فاشتريت بعيرًا ثم شددت عليه رحلاً، فسرت عليه شهراً حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فقلت للبوابة: قل له جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقتي واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمع، فقال: سمعت رسول الله يقول: (يَحْشُرُ اللَّهُ ﷻ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ الْعِبَادَ - عُرَاءَ غُرْلًا بَهْمًا) قلت: وما بهما؟ قال: (لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ، كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرَبَ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدِّيَّانُ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ، حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلَهُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ حَقٌّ، حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ حَتَّى

اللَّطْمَةُ). قال: قلنا كيف وإنما نأتي الله ﷻ حفاة عراة غرلاً بهماً؟ قال: (بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ) [رواه الحاكم/٣٦٣٨ وصححه ووافقه الذهبي].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝﴾

يقول تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، وهو الذي أنشأه وبألطاف رزقه وغذاه، ثم بعد هذا كله وإلى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾؛ أي: لجميع الملائكة كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾؛ أي: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، وقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾؛ أي: خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في «صحيح مسلم» [٢٩٩٦] عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ)، فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتسك، فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة، ونبه تعالى هاهنا على أنه من الجن؛ أي: على أنه خلق من نار، كما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم ﷺ أصل البشر، رواه ابن جرير [٢٦٠/١٥] بإسناد صحيح عنه.

وقال ابن عباس [كما ذكر الطبري ٢٥٩/١٥]: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، وخلق الملائكة من نور غير هذا الحي، قال: وخلق الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون فيه طرفها إذا التهبت، وقال سعيد بن المسيب: كان رئيس ملائكة سماء الدنيا، وعن سعيد بن جبير أنه قال: كان من الجنان الذين يعملون في الجنة، وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تُنْقَلُ لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يُقْطَع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غُنيَّة عن كل ما عدها من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين يُقُون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والأبرار والنجباء من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث، وحروره وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره، وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم.

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾؛ أي: فخرج عن طاعة الله، فإن الفسق هو الخروج، يقال: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ إذا خرجت من أكمامها، ثم قال تعالى مقررًا وموبخًا لمن اتبعه وأطاعه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾؛ أي: بدلاً عني؛ ولهذا قال: ﴿يَسْأَلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْيَوْمَ أَوْلِيَاءَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٥٩) ﴿أَلَمْ يَعْهَدُوا إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٠) ﴿وَأِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (يس: ٥٩ - ٦٢).

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (٥١).

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبید أمثالكم، لا يملكون شيئًا، ولا أشهدتهم خلقي للسموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ومقدرها وحدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير، ولا نظير، كما قال: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢) ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الآية [سبأ: ٢٢، ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ قال مالك: أعوانًا.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ (٥٢) ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (٥٣).

يقول تعالى مخبرًا عما يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريرًا لهم وتوبيخًا: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾؛ أي: في دار الدنيا ادعوه يوم ينقدوكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَأَى ظُهُورُكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ كما قال: ﴿وَقِيلَ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قال ابن عباس وقتادة وغير واحد: مهلكًا، وعن عبد الله بن عمرو قال: هو واد عميق فُرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة، وقال قتادة: موبقًا واديًا في جهنم [الطبري ٢٦٤/١٥].

وقال أنس بن مالك: واد في جهنم من قيح ودم [الطبري ٢٦٥/١٥]، وقال الحسن البصري: موبقًا: عداوة، والظاهر من السياق هاهنا: أنه المهلك، ويجوز أن يكون واديًا في جهنم أو غيره، إلا أن الله تعالى أخبره أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير، وأما إن جعل الضمير في قوله ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائداً إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو: إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله

تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِدُ بِفَرْقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣].  
وقوله: ﴿وَرَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾؛ أي: أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك فإذا رأى المجرمون النار، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾؛ أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (٥٤).

يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة. روى الإمام أحمد [٩٠٠] عن علي بن أبي طالب قال: إن رسول الله ﷺ طرقة وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: (أَلَا تُصَلِّيَانِ؟) فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته وهو موّل يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/ ١٠٧٥ ومسلم نحوه/ ٧٧٥].

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ (٥٥) ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَجَدِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ (٥٦).

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والآثار والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً، كما قال أولئك لنبيهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وقالت قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾؛ أي: يرونه عياناً مواجهة ومقابلة، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَجَدِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾؛ أي: قبل العذاب مبشرين مَنْ صَدَّقَهُمْ وَآمَنَ بِهِمْ، ومنذرين من كذبهم وخالفهم، ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون ﴿بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾؛ أي: ليضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم، ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾؛ أي: اتخذوا الحجج وخوارق

العادات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هَؤُلَاءِ﴾؛ أي: سخروا منهم في ذلك وهو أشد التكذيب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۖ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ۝٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۝٥٩﴾.

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها؛ أي: تناساها وأعرض عنها، ولم يَصْغ لها، ولا ألقى إليها بالاً، ﴿وَنَسَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾؛ أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾؛ أي: أغطية وغشاوة ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾؛ أي: لنلا يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ أي: صمماً معنوياً عن الرشد ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾؛ أي: ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ﴾ كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا دَابَّةً﴾ [فاطر: ٤٥]، والآيات في هذا كثيرة، ثم أخبر أنه يحلم ويسر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا﴾؛ أي: ليس لهم عنه محيص ولا محيد، ولا معدل، وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾؛ أي: الأمم السالفة والقرون الخالية، أهلكتناهم بسبب كفرهم وعنادهم، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾؛ أي: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين، معلوم لا يزيد، ولا ينقص؛ أي: وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبت أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذري.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَتَّبِعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝١٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۝١١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا غَدَاؤُنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۝١٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۝١٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۝١٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۝١٥﴾.

سبب قول موسى لفتاه وهو يوشع بن نون، هذا الكلام أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَتَّبِعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين. قال قتادة وغير واحد: هما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي

المغرب، وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة [الطبري ٢٧١/١٥]؛ يعني: في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْضَى حُقُبًا﴾؛ أي: ولو أني أسير حقبا من الزمان. قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقْبُ في لغة قيس: سنة، ثم روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحقب ثمانون سنة، وقال مجاهد: سبعون خريفاً، وقال ابن عباس: دهرًا، وقال قتادة، وابن زيد مثل ذلك [الطبري ٢٧٢/١٥].

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وذلك أنه كان قد أُمرَ بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت، فهو ثمة، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين يقال لها: عين الحياة، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب وكان في مكث مع يوشع رَاحَةً، وظفر من المكث إلى البحر، فاستيقظ يوشع رَاحَةً وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾؛ أي: مثل السرب في الأرض. قال ابن عباس: صار أثره كأنه حجر [الطبري ١٥/٢٧٣]، وقال ابن عباس أيضًا: جعل الحوت لا يمس شيئًا من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة، وقال قتادة: سرب من البر حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقًا إلا جُعل ماء جامدًا [الطبري ١٥/٢٧٤].

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾؛ أي: المكان الذي نسيا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه.

فلما ذهب عن المكان الذي نسياه فيه مَرَحَلَةً قَالَ موسى ﴿لِفَتْنَةٍ إِنَّا غَدَاةٌ لَقَدْ لَبِيتْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾؛ أي: الذي جاوزا فيه المكان نَصَبًا؛ يعني: تعبًا ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتَ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ قال قتادة: وقرأ ابن مسعود: ﴿وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان﴾ [الطبري ١٥/٢٧٥]؛ ولهذا قال: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾؛ أي: طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾؛ أي: هذا هو الذي نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾؛ أي: رجعا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾؛ أي: طريقهما ﴿فَصَصَا﴾؛ أي: يقصان آثار مشيهما ويقفوان أثرهما ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا هو الخضر رَاحَةً، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ بذلك، روى البخاري [١٢٢ و ٤٤٥٠] عن أبي بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَآئِيلَ فُسِّلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرِدْ الْعِلْمُ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. فَقَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذْ مَعَكَ حُوتًا، فَتَجْعَلُهُ بِمِثْلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ، فَأَخَذَ حُوتًا، فَجَعَلَهُ بِمِثْلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ رَاحَةً، حَتَّى إِذَا آتَيْنَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِثْلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الْحُوتِ جَرِيَةَ الْمَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يُخْرِجَهُ بِالْحُوتِ، فَانْطَلَقَا بِقِيَّةِ يَوْمِهِمَا



وَلَيَلَيْتَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْعَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿إِنَّا عَدَاءُكَ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، قَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾) قَالَ: فَكَانَ لِلْحَوْتَ سَرَبًا، وَلِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قَالَ: فَرَجَعَا يَقْصَانِ اثْرُهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًى بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَتَى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ فَقَالَ: أَنَا مُوسَى. فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مَنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ، لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مَنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكِهِ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ. فَقَالَ مُوسَى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿إِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمُ أَنْ يَحْمِلُوهُمُ، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ، فَحَمَلُوهُمُ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَحِ السَّفِينَةِ بِالْقُدُومِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٦٦﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا. قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، قَالَ: وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَتَفَرَّقَ فِي الْبَحْرِ نَفْرَةً أَوْ تَفَرَّتَيْنِ فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا تَقْصُ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ.

ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ فَأَقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا رَكِيَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا ثُكْرًا﴾ ﴿٦٧﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى، ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ ﴿٦٨﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ أَسْتَطَعَا أَهْلَهَا فَأَبْنَا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فُوجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴿[الكهف: ٧٤، ٧٧]﴾ أَي: مَاثِلًا، فَقَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ فَقَالَ مُوسَى: قَوْمُ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعَمُونَا وَلَمْ يُضَيِّقُونَا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَخَدَّتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ﴿٦٩﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأَيْتُكَ بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿[الكهف: ٧٧، ٧٨]﴾، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبْرًا حَتَّى يَقْصُ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا).

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ نَصَبُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾.

يخبر تعالى عن قيل موسى ﷺ لذلك الرجل العالم وهو الخضر، الذي خصه الله بعلم لم

يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْعُكَ﴾ سؤال بتلطف لا على وجه الإلزام والإجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿أَتَيْعُكَ﴾؛ أي: أصبحبك وأرافقك ﴿عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾؛ أي: مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح، فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؛ أي: إنك لا تقدر على أن تصاحبني لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأنني على علم من علم الله ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ فأنا أعرف أنك ستنكر علي ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾؛ أي: على ما أرى من أمورك ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾؛ أي: ولا أخالفك في شيء فعند ذلك شارطه الخضر ﷺ ﴿قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: ابتداءً ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾؛ أي: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (٧١) ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٢) ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ (٧٣).

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه الخضر، أنهما انطلقا، فركبا في السفينة، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول؛ يعني: بغير أجرة، تكرمة للخضر، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ولججت؛ أي: دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعها، فلم يملك موسى ﷺ نفسه أن قال منكرًا عليه: ﴿أَخَرَقَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهذه اللام العاقبة لا لام التعليل.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قال مجاهد: منكرًا، وقال قتادة: عجبًا [الطبري ٢٨٤/١٥]، فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؛ يعني: وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر علي فيها، لأنك لم تحط بها خبراً، ولها داخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت. ﴿قَالَ﴾؛ أي: موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾؛ أي: لا تضيق علي ولا تشدد علي، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (كَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا).

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤) ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥) ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (٧٦).

يقول تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا﴾؛ أي: بعد ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ وقد تقدم أنه كان يلعب

مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضأهم فقتله، وروي أنه احتز رأسه، وقيل: رضخه بحجر، وفي رواية اقتطفه بيده، والله أعلم، فلما شاهد موسى ﷺ هذا، أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: ﴿أَفَلَيْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً؟﴾ أي: صغيرة لم تعمل الحِث ولا عملت إثمًا بعدُ فقتلته ﴿بِعَيْرِ نَفْسٍ؟﴾ أي: بغير مستند لقتله ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا؟﴾ أي: ظاهر النكارة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فأكد أيضًا في التذكار بالشرط الأول؛ فلهذا قال له موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا؟﴾ أي: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾؛ أي: أعذرت إلي مرة بعد مرة. روى ابن جرير [٢٨٨/١٥] عن أبي بن كعب قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحدًا فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: (رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لَأَبْصَرَ الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا) [ورواه أبو داود/ ٣٩٨٤ بنحوه وبعضه في مسلم/ ٢٣٨٠].

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنِيَّ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ. قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (٧٧) ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنِيَّتُكَ يَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٧٨).

يقول تعالى مخبرًا عنهما: إنهما ﴿انطلقا﴾ بعد المرتين الأوليين ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَنِيَّ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾. روى ابن جرير [٢٨٨/١٥] عن ابن سيرين أنها الأيلة، ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ والانقضاض هو السقوط.

وقوله: ﴿فَأَقَامَهُ﴾؛ أي: فرده إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه ودعّمه حتى رد ميله، وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ أي: لأجل أنهم لم يضيفونا، كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجانًا ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾؛ أي: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها، فلا تصاحبني فهو فراق بيني وبينك ﴿سَأْنِيَّتُكَ يَأْوِيلُ﴾؛ أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٧٩).

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى ﷺ، وما كان أنكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر ﷺ على حكمة باطنة، فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعييها؛ لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة؛ أي: جيدة ﴿غَصْبًا﴾ فأردت أن أعييها لأرده عنها لعييها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها، وقد قيل: إنهم أيتام.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨١) ﴿فَارْتَدَّا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَهْمًا حَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (٨٢).

وفي الحديث عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: (الْغُلَامُ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا) [رواه مسلم/٢٦٦١]؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾؛ أي: يحملهما حبه على متابعتها على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب، وصح في الحديث: (لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ) [عند مسلم بمعناه/٢٩٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقوله: ﴿فَارْتَدَّا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَهْمًا حَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾؛ أي: ولدا أركى من هذا، وهما أرحم به منه، قاله ابن جريج، وقال قتادة: أبرّ بوالديه.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٨٣).

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَنَّىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف: ٧٧]، وقال هاهنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْغُرَبَاءِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ يعني: مكة والطائف، ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته؛ لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما، قال عكرمة وقاتدة وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما، وهو ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

وعن ابن عباس: كان تحته كنز علم، وكذا قال سعيد بن جبير [الطبري ٥/١٦]، وقال مجاهد: صحف فيها علم، وقد روي في هذا آثار عن السلف، فروى ابن جرير في «تفسيره» [٦/١٦] عن الحسن البصري قال: هو لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وعن عمر مولى عُفْرَةَ قال: كان لوحاً من ذهب مصمت، مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجب لمن عرف النار ثم ضحك! عجب لمن أيقن بالقدر ثم نصب! عجب لمن أيقن بالموت ثم أمن! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله [الطبري ٦/١٦]، وقال جعفر بن محمد في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال: سطران ونصف لم يتم الثالث: عجبت للموقن بالرزق كيف يتعب، وعجبت للمؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت للمؤمن بالموت كيف يفرح، وقد قال الله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنْ

يَنَّا حَسْبَيْنَا ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧] وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة، لا ينافي قول عكرمة: إنه كان مالا، لأنهم ذكروا أنه كان لوحًا من ذهب، وفيه مال جزيل أكثر ما زادوا أنه كان مودعًا فيه علم، وهو حكم ومواعظ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يُحْفَظُ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت به السُّنَّة. قال ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يُذكر لهما صلاح [الطبري ١٦/٦]، وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ هاهنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا كَانَا﴾ [الكهف: ٨١] وقال في السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾؛ أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، وما فعلته عن أمري؛ أي: لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وقال آخرون: كان رسولاً، وقيل: بل كان ملكاً، وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً، بل كان ولياً، فالله أعلم.

قالوا: وكان يكنى أبا العباس، ويلقب بالخضر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووي في «تهذيب الأسماء»، وحكى هو وغيره في كونه باقياً إلى الآن، ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقاءه، وذكروا في ذلك حكايات وآثاراً عن السلف وغيرهم، وجاء ذكره في بعض الأحاديث، ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها حديث التعزية، وإسناده ضعيف، ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِّلشِّرِ مِّنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وبقول النبي ﷺ يوم بدر: (اللَّهُمَّ إِنَّ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعَصَابَةَ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ) [رواه مسلم/١٧٦٣]، وبأنه لم يُنْقَلْ أنه جاء رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه، ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنه ﷺ كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، وقد قال: (لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّيْنِ لَمَّا وَسِعَهُمَا إِلَّا أَتْبَاعِي) [رواه أحمد/١٥١٩٥] والدارمي وابن أبي عاصم، وقال الألباني: حسن، وأخبر قبل موته بقليل أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل.

روى الإمام أحمد [٨٠٩٨] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الخضر قال: (إِنَّمَا سُمِّيَ خَضِرًا؛ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَحْتَهُ تَهْتَزُّ خَضِرَاءَ) [ورواه البخاري/٣٢٢١ نحوه]، والمراد بالفروة هاهنا الحشيش اليابس وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الرزاق، وقيل: المراد بذلك وجه الأرض.

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾؛ أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداءً، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ﴾ وقبل ذلك كان

الإشكال قوياً ثقیلاً، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِثَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال: ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧] وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم.

فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح في الأحاديث الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى ﷺ.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾؛ أي: عن خبره. قال وهب بن منبه: كان ملكاً، وإنما سمي ذا القرنين؛ لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس، قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه ملك الروم وفارس، وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين، وقال علي رضي الله عنه: كان عبداً ناصحاً لله، فناصحته، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه، فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات، فسمي ذا القرنين، ويقال: إنه سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب.

وقوله: ﴿إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: أعطيناه ملكاً عظيماً متمكناً، فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال ابن عباس، والسدي، وقتادة وغيرهم: يعني: علماً، وقال قتادة أيضاً: منازل الأرض وأعلامها [الطبري ١٠/١٦].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال: تعليم الألسنة، قال: كان لا يغزو قومًا إلا كلمهم بلسانهم.

وفي المختارة للحافظ الضياء المقدسي عن حبيب بن حِمَار قال: كنت عند علي رضي الله عنه وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال: سبحان الله سخر له السحاب وقدر له الأسباب وبسط له اليد [ابن أبي شيبه نحوه/٣١٩١٥].

﴿فَأَنبَغُ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

قال ابن عباس: ﴿فَأَنبَغُ سَبَبًا﴾؛ يعني: بالسبب المنزل، وبه قال الضحاك، وقال مجاهد:

﴿فَأَنْبَغَ سَبَبًا﴾ منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب، ونحوه عن قتادة، وفي رواية عن مجاهد قال: طريقاً في الأرض، وقال سعيد بن جبير: علماً، وهكذا قال عكرمة، وعبيد بن يعلى، والسدي، وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾؛ أي: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض، وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾؛ أي: رأى الشمس في منظره تغرب في «البحر المحيط»، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهي لا تفارق الفلك الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه، والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاحِ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]؛ أي: طين أملس، وقد تقدم بيانه، وكذا قال ابن عباس، وبه قال مجاهد وغير واحد، وقال ابن عباس أيضاً: وجدها تغرب في عين حامية؛ يعني: حارة، وكذا قال الحسن البصري، وقال ابن جرير [١١/١٦]: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب.

وقوله: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾؛ أي: أمة من الأمم ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم، وقوله: ﴿قُلْنَا يَذَّاقُوا الْعَذَابَ إِنَّهُمْ كَانُوا فِيهِ يَسْتَمِعُونَ﴾؛ أي: معنى هذا أن الله تعالى مكنه منهم وحكمه فيهم وأظفره بهم وخيره إن شاء قتل وسبى وإن شاء من أو فدى، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه في قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾؛ أي: استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ قال قتادة: بالقتل، وقال السدي: كان يحمي لهم بقر النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا وقال وهب بن منبه: كان يسلط الظلمة فتدخل أجوافهم وبيوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم والله أعلم، وقوله: ﴿ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثُكْرًا﴾؛ أي: شديداً بليغاً وجيئاً أليماً وفي هذا إثبات المعاد والجزاء.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَن ءَامَنَ﴾؛ أي: اتبعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ﴾؛ أي: في الدار الآخرة عند الله ﴿وَنَسْأَلُ لَهُ مِن دُونِهَا سِرًّا﴾ قال مجاهد: معروفاً.

﴿ثُمَّ أَنْبَغَ سَبَبًا﴾ (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِرًّا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

يقول تعالى ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله ﷻ فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم واستباح أموالهم وأمتعهم واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم، وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض طولها وعرضها حتى بلغ المشارق والمغارب، ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾؛ أي: أمة ﴿لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِرًّا﴾؛ أي: ليس لهم بناء يُكِنُّهم ولا أشجار تظلمهم وتسترهم

من حر الشمس، وقال سعيد بن جبیر: كانوا حُمْرًا قِصَارًا مساكنهم الغيران أكثر معيشتهم من السمك.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ قال مجاهد والسدي: علمًا؛ أي: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شيء وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ثُمَّ أُنْبِئَ سَبَّأًا﴾ (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَذَّا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ نَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن ذي القرنين: ﴿ثُمَّ أُنْبِئَ سَبَّأًا﴾؛ أي: ثم سلك طريقًا من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين وهما جبلان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيشون فيها فسادًا، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في «الصحاحين» (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا آدَمُ، يَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: ابْعَثْ بَعَثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ؟ فَحِينَئِذٍ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، فَيُقَالُ: إِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ، مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثَرْتَاهُ: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) [البخاري/ ٣١٧٠ ومسلم/ ٢٢٢٢].

وقوله: ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾؛ أي: لاستعجاب كلامهم وبعدهم عن الناس ﴿قَالُوا يَذَّا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قال ابن عباس: أجرًا عظيمًا؛ يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا لهم من بينهم مالا يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبينهم سدًا، فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾؛ أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿أَتُمِدُّونِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]، وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبدلونه، ولكن ساعدوني بقوة؛ أي: بعملكم وآلات البناء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (٩٥) ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ والزبر جمع زُبْرَةٍ وهي القطعة منه قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وهي كاللبنة ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾؛ أي: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولًا وعرضًا ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾؛ أي: أجمع عليه النار حتى صار كله نارًا ﴿قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدي: هو النحاس زاد بعضهم المذاب ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ بَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبا: ١٢] ولهذا يشبه بالبرد المحبر.



ثم قال الله تعالى:

﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ۚ ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۚ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۚ ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْنَهُمْ جَمْعًا ۚ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال: ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه.

ويؤيد ما قلناه من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه ما رواه الإمام أحمد عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِئْسَ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدٍ اقْتَرَبَ فُتِخَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ بِأَجُوجٍ وَمَأْجُوجٍ مِثْلُ هَذَا). وحلّق. قلت: يا رسول الله أنهلك وفيما الصالحون؟ قال: (نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ). هذا حديث صحيح اتفق البخاري [٣١٦٨] ومسلم [٢٨٨٠] على إخراجه.

وقال عكرمة في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ قال: طريقاً كما كان، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾؛ أي: كائنًا لا محالة، وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾؛ أي: الناس يومئذ؛ أي: يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي: ذاك حين يخرجون على الناس، وهذا كله قبل القيامة وبعد الدجال. قال ابن زيد في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: هذا أول القيامة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ على أثر ذلك ﴿فُجِعَتْنَهُمْ جَمْعًا﴾، وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يوم القيامة يختلط الإنس والجن.

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ والصور كما جاء في الحديث: قرن ينفخ فيه، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، والأحاديث فيه كثيرة، وفي الحديث عن ابن عباس، وأبي سعيد مرفوعاً: (كَيْفَ أَنْعَمَ، وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدِ التَّقَمَ الْقُرْنُ، وَحَتَّى جَبَهَتُهُ وَاسْتَمَعَ مَتَى يُؤْمَرُ؟) قالوا: كيف نقول؟ قال: (قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا) [رواه أحمد/ ٣٠١٠ نحوه والترمذي/ ٢٤٣١، وقال: حسن]، وقوله: ﴿فُجِعَتْنَهُمْ جَمْعًا﴾؛ أي: أحضرنا الجميع للحساب، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۖ لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ۚ ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۚ ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْنِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۚ ﴿١٠٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم؛ أي: يبرزها لهم

ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهَمِّ والحزن لهم، وفي «صحيح مسلم» [٢٨٤٢] عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُقَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يَجْرُؤْنَهَا)، ثم قال مخبراً عنهم: (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي)؛ أي: تغافلوا وتعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال: (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) [الزخرف: ٣٦]، وقال ههنا: (وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)؛ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، ثم قال: (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ)؛ أي: اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك، وينتفعون بذلك (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) [مریم: ٨٢]؛ ولهذا أخبر أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ (١٠٥) ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ (١٠٦).

روى البخاري [٤٤٥١] عن مصعب قال: سألت أبي؛ يعني: سعد بن أبي وقاص عن قول الله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ أهم الحرورية؟ قال: لا هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين، وقال علي بن أبي طالب والضحاك وغير واحد: هم الحرورية، ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنا هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مَرْضِيَّة يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول وهو مخطئ وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ (٢) ﴿عَامِلَةٌ نَاصِيَةٌ﴾ (٣) ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢ - ٤]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾؛ أي: نخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ثم فسرهم، فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾؛ أي: يعتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون محبوبون.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ﴾؛ أي: جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾؛ أي: لا نُثَقِّل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير. روى البخاري [٤٤٥٢] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جِنَاحَ بُعُوضَةٍ) وقال: (اقْرَؤُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾)، وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا

كَفَرُوا؛ أَي: إِنَّمَا جَازَيْنَاهُمْ بِهَذَا الْجَزَاءِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَاتِّخَاذِهِمْ آيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلَهُ هَزْوَاً، اسْتَهْزَؤُوا بِهِمْ وَكَذَّبُوهُمْ أَشَدَّ التَّكْذِيبِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن عباده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسله، وصدقوهم فيما جاؤوا به، أن لهم جنات الفردوس، قال مجاهد: الفردوس هو البستان بالرومية، وقال كعب، والسدي، والضحاك: هو البستان الذي فيه شجر الأعناب، وقال أبو أمامة: سرة الجنة، وقال قتادة: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، وفي «الصحيح»: (إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) [رواه البخاري/٢٦٣٧].

وقوله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾؛ أَي: ضيافة، فإن النزل الضيافة، وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أَي: مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبداً ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾؛ أَي: لا يختارون عنها غيرها ولا يحبون سواها، وفي قوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا بدلاً.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه، لنفد البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾؛ أَي: بمثل البحر آخر، ثم آخر وهلم جراً بحور تمدده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]، وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يشي عليه كما ينبغي حتى يكون هو الذي يشي على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَنَ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

روى الطبراني [في الكبير ٣٩٢/١٩] عن معاوية بن أبي سفيان قال: هذه آخر آية أنزلت. [قال

الهيثمي: رجاله ثقات]. **يقول تعالى** لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُلْ لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الْمَكْذِبِينَ بِرِسَالَتِكَ إِلَيْهِمْ﴾ **﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾** فمن زعم أنني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتهم من قصة أصحاب الكهف وخبر ذو القرنين مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه، وإنما أخبركم **﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ﴾** الذي أدعوكم إلى عبادته **﴿إِلَهُ وَاحِدٌ﴾** لا شريك له **﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾**؛ أي: ثوابه وجزاءه الصالح **﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾** وهو ما كان موافقاً لشرع الله **﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾** وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ.

روى الإمام أحمد [٧٩٨٦] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن الله ﷻ أنه قال: (أَنَا خَيْرُ الشُّرَكَاءِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ) [ورواه مسلم/٢٩٨٥].



## تفسير سورة مريم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَمِيعَصَ ۝١﴾ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقوله: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ أي: هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا، وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وفي «صحيح [مسلم] [٢٣٧٩]» أنه كان نجاراً يأكل من عمل يديه في النجارة.

وقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا﴾ قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره، حكاه الماوردي وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله، كما قال قتادة في هذه الآية: إن الله يعلم القلب التقى، ويسمع الصوت الخفي، وقال بعض السلف: قام من الليل ﷺ وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يا رب، يا رب، يا رب، فقال الله: ليك ليك ليك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾؛ أي: ضعفت وخارت القوى ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾؛ أي: اضطرم المشيب في السواد، والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة، وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾؛ أي: ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك.

وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي: أراد بالموالي العصبية، وقال أبو صالح: الكلالة، وروي عن أمير المؤمنين عثمان بن عثمان رضي الله عنه أنه كان يقرؤها: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ بتشديد الفاء بمعنى قللت عصباتي من بعدي [الطبري ٤٧/١٦]، وعلى القراءة الأولى، وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثته عصباته له ويسأل أن يكون له ولد فيحوز ميراثه دونهم هذا وجه.

الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجارًا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

الثالث: أنه قد ثبت في «الصحيحين» من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: (لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ) [البخاري/٢٩٢٦ ومسلم/١٧٥٧]، وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: (نَحْنُ مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ)، وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرْثُنِي﴾ على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]؛ أي: في النبوة إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثته خاصة لما أخبر بها، قال مجاهد: كان وراثته علما، وكان زكريا من ذرية يعقوب، وقال أبو صالح في قوله: ﴿يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يكون نبيا كما كانت آبؤه أنبياء، وبه قال زيد بن أسلم، وقال الحسن: يرث نبوته وعلمه، وقال السدي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب، وقال أبو صالح: يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة، وهذا اختيار ابن جرير في «تفسيره» [٤٨/١٦].

وقوله: ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾؛ أي: مرضيا عندك وعند خلقك، تحبه وتحبه إلى خلقك في دينه وخلقه.

﴿يَرْكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

هذا الكلام يتضمن محذوفاً وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه، فقيل له: ﴿يَرْكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٢٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الْأَصْلٰحِينَ ﴿٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨، ٣٩]، وقوله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال قتادة، وابن جريج، وابن زيد: أي: لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، واختاره ابن جرير رحمه الله [بعد أن أورد الأقوال فيه ٤٩/١٦].

وقال مجاهد: أي: شبيهاً، وأخذه من معنى قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]؛ أي: شبيهاً، وقال ابن عباس: أي لم تلد العواقر قبله مثله [الطبري ٤٩/١٥]، وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم، وسارة عليه السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما لا لعقرهما؛ ولهذا قال: ﴿أُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [الحجر: ٥٤]، مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة، وقالت امرأته: ﴿يَوٰٓئِلٰٓحِ ۚ أَلِدْتُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ۖ هَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَنْتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ [هود: ٧٢، ٧٣].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾  
 ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ .

هذا تعجب من زكريا ﷺ حين أجيب إلى ما سأل، ، وبُشِّر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا؛ أي: عسا عَظُمَ وَنَحَلَ، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع، والعرب تقول للعود إذا يبس: عتا يعتو عِتِيًّا وَعُتُوًّا، وَعَسَا يَعْسُو عَسُوًّا وَعِسِيًّا، وقال مجاهد: عتيا بمعنى نحول العظم، وقال ابن عباس وغيره: يعني: الكبر، والظاهر أنه أخص من الكبر [الطبري ٥١/١٦].

﴿قَالَ﴾؛ أي: الملك مجيباً لزكريا عما استعجب منه: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾؛ أي: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها، ﴿هَيْنٍ﴾؛ أي: يسير سهل على الله، ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لَيْلًا لَّيَالٍ سَوِيًّا﴾  
 ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن زكريا ﷺ أنه: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً﴾؛ أي: علامة على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني، كما قال إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُخْرِجُ الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ ثُمُومٌ قَالَ بَلْ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠]. ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾؛ أي: علامتك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لَيْلًا لَّيَالٍ سَوِيًّا﴾؛ أي: أن يحتبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال، وأنت صحيح سوي من غير مرض. قال ابن عباس ووهب بن منبه والسدي، وقتادة وغير واحد: اعتَقَلَ لسانه من غير مرض. قال ابن زيد: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة [الطبري ٥٢/١٦].

وعن ابن عباس: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾؛ أي: متتابعات، والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح، كما قال تعالى في آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقال زيد بن أسلم: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ من غير خرس، وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿إِلَّا رَمْرًا﴾؛ أي: إشارة؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾؛ أي: الذي بشر فيه بالولد ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: أشار إشارة خفية سريعة ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ أي: موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه. قال مجاهد: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: أشار، وبه قال وهب وقتادة، وقال مجاهد في رواية عنه: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: كتب لهم في الأرض، وكذا قال السدي

﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۚ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۚ﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ .

وهذا أيضًا تضمن محذوفًا تقديره: أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار، وقد كان سنه إذ ذاك صغيرًا فلهذا نوه بذكره وبما أنعم به عليه وعلى والديه فقال: ﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: تعلم الكتاب بقوة؛ أي: بجهد وحرص واجتهاد ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾؛ أي: الفهم والعلم والجد، والإقبال على الخير والإكباب عليه، وهو صغير. قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقنا، قال: فلماذا أنزل الله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال ابن عباس: ورحمة من عندنا، وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك وزاد: لا يقدر عليها غيرنا، وزاد قتادة: رحم الله بها زكريا، وقال مجاهد: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وتعطفًا من ربه عليه، وقال عكرمة: محبة عليه، وقال ابن زيد: أما الحنان فالمحبة، وقال عطاء بن أبي رباح: تعظيمًا من لدنا، والظاهر من هذا السياق أن وحنانًا من لدنا معطوف على قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾؛ أي: وآتيناه الحكم وحنانًا وزكاة؛ أي: وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل، كما تقول العرب: حنَّت الناقة على ولدها وحنَّت المرأة على زوجها.

وقوله: ﴿وَزَكَاةً﴾ معطوف على وحنانًا، فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب، وقال قتادة: الزكاة العمل الصالح، وقال الضحاك وابن جريج: العمل الصالح الزكي، وقال ابن عباس: ﴿وَزَكَاةً﴾ قال: بركة، ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ ذا طهر فلم يعمل بذنب [الطبري ١٦/ ٥٧ - ٥٨].

وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عقوقهما قولاً وفعلًا، أمرًا ونهيًا، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾؛ أي: له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال، وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه، فقال: ﴿وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [الطبري ١٦/ ٥٩].



﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۖ قَالَتْ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۖ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۖ﴾.

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً مباركاً، عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، ولهذا ذكرهما في آل عمران وهاهنا، وفي سورة الأنبياء يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباد الله على قدرته وعظمته سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل، ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل، فلما أراد الله تعالى وله الحكمة والحجة البالغة، أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام ﴿اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا﴾؛ أي: اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس، وقال السدي: لحيض أصابها، وقيل: لغير ذلك [الطبري ٥٩/١٦].

قال ابن عباس: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة، لقول الله تعالى: فانتبذت ﴿مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة، وقال قتادة: ﴿مَكَانًا شَرْفِيًّا﴾ شاسعاً منتحياً، وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بقلتها تستقي من الماء، وقال نوف البكالي: اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾؛ أي: استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾؛ أي: على صورة إنسان تام كامل. قال مجاهد، وقاتدة، ووهب بن منبه والسدي [وغيرهم] في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾؛ يعني: جبرائيل عليه السلام، وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن، فإنه تعالى قد قال في الآية الأخرى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾؛ أي: لما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريد لها على نفسها، فقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾؛ أي: إن كنت تخاف الله تذكيراً له بالله وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله عز وجل.

قال أبو وائل [كما روى البخاري تعليقاً ١٧٥٩/٤] وذكر قصة مريم، فقال: قد علمت أن التقي ذو نهية حين قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾؛ أي: فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً ما حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين ولكني

رسول ربك؛ أي: بعثني الله إليك، ويقال: إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقا وعاد إلى هيئته وقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾؛ أي: فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لي غلام؟ أي: على أي صفة يوجد هذا الغلام مني، ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور، ولهذا قالت: ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾؛ أي: فقال لها الملك مجيبا لها عما سألت: إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاما وإن لم يكن لك بعل، ولا توجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾؛ أي: علامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم. ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾؛ أي: ونجعل هذا الغلام رحمة من الله ونبيًا من الأنبياء، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده.

وقوله: ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدرته ومشيئته، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢]، وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. قال ابن إسحاق: ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾؛ أي: إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد، واختار هذا أيضا ابن جرير في «تفسيره» [٦٢/١٦] ولم يحك غيره، والله أعلم.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ ٢٢ ﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنَعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثْ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ ٢٣.

يقول تعالى مخبرا عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى، فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك وهو جبرائيل ﷺ عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى، فلما حملت به ضاقت ذرعا، ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا.

قال مالك رحمه الله: بلغني أن عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا ﷺ ابنا خالة، وكان حملهما جميعا معا، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك، قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى ﷺ، لأن الله جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى ﷺ، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر، وقال عكرمة: ثمانية أشهر، قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر، وعن ابن عباس قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت، وهذا غريب، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ ٢٢ ﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنَعِ النَّخْلَةِ﴾ ٢٣ فالفاء وإن كانت للتعقيب، لكن تعقيب كل شيء بحسبه، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً ﴿٦٣﴾ [الحج: ٦٣]، فالمشهور الظاهر، والله على كل شيء قدير، أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن، ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكاناً قصياً؛ أي: قاصياً منهم بعيداً عنهم لئلا تراهم ولا يروها.

قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به ومألت قلتها ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغير اللون، حتى فطر لسانها فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا، وشاع الحديث في بني إسرائيل فقالوا: إنما صاحبها يوسف ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتوارت من الناس واتخذت من دونهم حجاباً، فلا يراها أحد ولا تراه.

وقوله: ﴿فَلَجَأَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ﴾؛ أي: فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تنحت إليه، وقد اختلفوا فيه، فقال السدي: كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس، وقال وهب بن منبه: ذهبت هاربة، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ضربها الطلق، وفي رواية عن وهب: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس في قرية هناك يقال لها بيت لحم، قلت: وفي أحاديث الإسرائ من رواية النسائي عن أنس رضي الله عنه، والبيهقي عن شداد بن أوس رضي الله عنه أن ذلك ببيت لحم، فالله أعلم، وهذا هو المشهور الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا تشك فيه النصارى أنه ببيت لحم، وقد تلقاه الناس، وقد ورد به الحديث إن صح.

وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، لا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: ﴿يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾؛ أي: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾؛ أي: لم أخلق ولم أك شيئاً، قاله ابن عباس، وقال السدي: قالت وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس: يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، والحزن بولادتي المولود من غير بعل، ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ نسي فترك طلبه، وقال قتادة: أي: شيئاً لا يعرف ولا يذكر، ولا يدري من أنا، وقال الربيع بن أنس: هو السقط، وقال ابن زيد: لم أكن شيئاً قط [الأقوال السابقة بأسانيدنا ذكرها الطبري ٦٧/١٦ وما بعدها].

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۖ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۖ﴾ ﴿٢٥﴾ فكلّي واشربي وقري عيناً فإمّا ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴿٢٦﴾.

قرأ بعضهم: «من تحتها» بمعنى الذي تحتها، وقرأ الآخرون: «من تحتها» على أنه حرف جر، واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال ابن عباس: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها، وكذا قال سعيد بن جبير، والضحاك، وعمرو بن ميمون، والسدي، وقاتدة: إنه جبريل عليه الصلاة والسلام [ابن أبي حاتم/١٧٢٣٦]؛ أي: ناداها من أسفل الوادي، وقال مجاهد: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ قال: عيسى ابن مريم، وكذا قال

الحسن: هو ابنها، وهو إحدى الروایتين عن سعيد بن جبیر أنه ابنها، قال: أولم تسمع الله يقول: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ واختاره ابن زيد، وابن جرير في «تفسيره» [١٦/٦٨].

وقوله: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾؛ أي: ناداها قائلاً لا تحزني ﴿فَدَجَّلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سِرِّيًّا﴾ قال البراء بن عازب: الجدول، وكذا قال ابن عباس: السري النهر، وبه قال عمرو بن ميمون نهر تشرب منه، وقال مجاهد: هو النهر بالسرانية، وقال سعيد بن جبیر: السري النهر الصغير بالنبطية، وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسرانية، وقال إبراهيم النخعي: هو النهر الصغير، وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز، وقال وهب بن منبه: السري هو ربيع الماء، وقال السدي: هو النهر، واختار هذا القول ابن جرير [بعد أن أورد الأقوال السابقة ١٦/٧٠].

وقال آخرون: المراد بالسري عيسى عليه السلام [الطبري ١٦/٧٠]، وبه قال الحسن، والربيع بن أنس، ومحمد بن عباد بن جعفر، وهو إحدى الروایتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم والقول الأول أظهر، ولهذا قال بعده: ﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ يَجْعَلُ النَّخْلَةَ﴾؛ أي: وخذي إليك بجذع النخلة. قيل: كانت يابسة، قاله ابن عباس، وقيل: مثمرة. قال مجاهد: كانت عجوة، والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه، ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال: ﴿سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۖ فَكُلْ وَاشْرَبْ وَفَرِّ عَيْنًا﴾؛ أي: طيبي نفساً، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة [الطبري ١٦/٧٢].

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾؛ أي: مهما رأيت من أحد ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد به القول اللفظي لثلاثين نافي ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ قال أنس بن مالك في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قال: صمتاً، وكذا قال ابن عباس والضحاك، وفي رواية عن أنس: صوماً وصمتاً، وكذا قال قتادة وغيرهما [الطبري ١٦/٧٤]، والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدي وقاتدة، وعبد الرحمن بن زيد، وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي، لا ذات زوج ولا مملوكة؟ أي شيء عذري عند الناس؟ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيّاً منسياً، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام ﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ قال هذا كله من كلام عيسى لأمه، وكذا قال وهب [الطبري ١٦/٧٥].

﴿فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٧٧﴾ يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٧٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٧٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٨٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٨١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا سَفِيًّا ﴿٨٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٨٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك وأن لا تكلم أحداً من البشر،

فإنَّها ستكفي أمرها ويقام بحجتها، فسلمت لأمر الله ﷻ واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جدًّا، ﴿وَقَالُوا يَمَزِيدُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾؛ أي: أمرًا عظيمًا، قاله مجاهد، وقتادة، والسدي وغير واحد. ﴿يَتَأَخَتِ هَرُونَ﴾؛ أي: يا شبيهة هارون في العبادة [الطبري ١٦/٧٧]: ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾؛ أي: أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟ قال علي بن أبي طلحة والسدي: قيل لها: ﴿يَتَأَخَتِ هَرُونَ﴾؛ أي: أخي موسى، وكانت من نسله كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمضري يا أخا مضر، وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة، وحكى ابن جرير عن بعضهم أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم يقال له هارون، ورواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة.

روى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرايت ما تقرؤون ﴿يَتَأَخَتِ هَرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (أَلَا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَسَمَّوْنَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ؟) رواه مسلم [٢١٣٥ بنحوه].

وعن قتادة: ﴿يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به، وكان هارون مصلحًا محببًا في عشيرته وليس بهارون أخي موسى ولكنه هارون آخر.

وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا﴾؛ أي: إنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامته، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهمكين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا﴾ قال ميمون بن مهران: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ قالت: كلموه، فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبيًّا، وقال السدي: لما أشارت إليه غضبوا، وقالوا: لسخرتها بنا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها [الطبري ١٦/٧٩].

﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا﴾؛ أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

وقوله: ﴿ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة، قال نوف البكالي: لما قالو لأمه ما قالوا، كان يرتضع ثديه، فنزع الثدي من فمه واتكأ على جنبه الأيسر وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ - إلى قوله: - ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾، وقال ثابت البناني: رفع أصبعه السبابة فوق منكبه، وهو يقول: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ الآية، وقال عكرمة: ﴿ءَاتَانِي الْكِتَابَ﴾؛ أي: قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى.

**وقوله:** ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ قال مجاهد وعمر بن قيس والثوري: وجعلني معلماً للخير، وفي رواية عن مجاهد: نفاعاً، وروى ابن جرير [٣٨/١٩]، عن وهيب بن الورد مولى بني مخزوم قال: لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم، فقال له: يرحمك الله ما الذي أعلن من عملي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده، وقد أجمع الفقهاء على قول الله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان.

**وقوله:** ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال مالك بن أنس في قوله: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت. ما أشدها على أهل القدر.

**وقوله:** ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ﴾ أي: وأمرني ببر والدي، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، **وقوله:** ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدي، فاشقى بذلك، قال سفيان الثوري: الجبار الشقي الذي يُقْبَلُ على الغضب، وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ قال: ولا تجد سيئ الملكة إلا وجدته مختلاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّا اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

قال قتادة: ذكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص في آيات سلطه الله عليهن وأذن له فيهن، فقالت: طوبى للبطن الذي حملك، والثدي الذي أرضعت به، فقال نبي الله عيسى ﷺ يجيبها: طوبى لمن تلا كتاب الله فاتبع ما فيه، ولم يكن جباراً شقياً [الطبري ٨٢/١٦].

**وقوله:** ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ إثبات منه لعبوديته لله ﷻ، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣٦) فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٧).

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به، ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ أي: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون علواً كبيراً ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: إذا أراد شيئاً،

فَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِهِ فَیَصِيرُ کَمَا یَشَاءُ، کَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: هذا الذي جئتمكم به عن الله صراط مستقيم؛ أي: قويم من اتبعه رشد وهدي، ومن خالفه ضل وغوى.

وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾؛ أي: اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم، وهم جمهور اليهود - عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنية، وقالوا: كلامه هذا سحر، وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله، وقال آخرون: بل هو ابن الله، وقال آخرون: ثالث ثلاثة، وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون، وابن جريج، وقتادة وغير واحد من السلف والخلف، وعن ابن عباس، وعن عروة بن الزبير، وعن بعض أهل العلم قريباً من ذلك [الطبري ١٦/٨٤].

وقوله: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تهديد ووعد شديد لمن كذب على الله وافتري وزعم أن له ولداً، ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة، وأجلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه، كما جاء في «الصحيحين» [البخاري/٤٤٠٩ ومسلم/٧٥٨٣]: (إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ) ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذُ بِكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، ولهذا قال هاهنا: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: يوم القيامة، وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدَخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ) [البخاري/٣٢٥٢ ومسلم/٢٨].

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٨) وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة: إنهم يكونون أسمع شيء وأبصره، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢]؛ أي: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله، لهذا قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾؛ أي: ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾؛ يعني: يوم القيامة ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾؛ أي: في الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: لا يسمعون، ولا يبصرون، ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾؛ أي: أنذر الخلائق يوم

الحسرة ﴿إِذْ فُتِيَ الْأَمْرُ﴾؛ أي: فصل بين أهل الجنة وأهل النار وصار كلٌّ إلى ما صار إليه مخلدًا فيه، ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أُنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يصدقون به.

روى الإمام أحمد [١١٠٨١] عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، يُجَاءُ بِالْمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرِيُونُ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ). قال: (فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرِيُونُ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ) قال: (فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ) قال: (وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ) قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ فُتِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وأشار بيده ثم قال: (أَهْلُ الدُّنْيَا فِي غَفْلَةِ الدُّنْيَا)، وأخرجه البخاري [٤٤٥٣] ومسلم [٢٨٤٩].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يوم القيامة، وقرأ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس، ولا أحد يدعي ملكًا ولا تصرفًا، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئًا ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة. روى ابن أبي حاتم أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد، فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت، فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل في كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على خلقه: إنه يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون [أبو نعيم في «الحلية» ٣٥٧/٥].

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥).

يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: واذكر في الكتاب إبراهيم وأتله على قومك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذي هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته، وقد كان صديقًا نبياً مع أبيه، كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾؛ أي: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً.

﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يقول: وإن كنت من صلبك وترى أنني أصغر منك؛ لأنني ولدك، فاعلم أنني قد اطلعتُ من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت، ولا اطلعت



عليه ولا جاءك بعد ﴿فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾؛ أي: طريقًا مستقيمًا موصلًا إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب.

﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾؛ أي: لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَكُنْ عَادَمٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]، وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾؛ أي: مخالفًا مستكبرًا عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله.

﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾؛ أي: على شركك وعصيانك لما أمرك به، ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾؛ يعني: فلا يكون لك مولى ولا مغيثًا إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَابَرَهُمْ لَنْ لَمْ تَنْتَ لَأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ (٤٦) قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا نَدْعُوكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ آلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَفِيًّا﴾ (٤٨).

يقول تعالى مخبرًا عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَابَرَهُمْ؟﴾ يعني: إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانت انت عن سبها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجَمَنَّكَ﴾ قاله ابن عباس، والسدي، وابن جريج، والضحاك وغيرهم، وقوله: ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن إسحاق: يعني: دهرًا، وقال الحسن البصري: زمانًا طويلًا، وقال السدي: أبدًا، وقال ابن عباس: سويًا سالمًا قبل أن تصيبك مني عقوبة، وكذا قال الضحاك، وقتادة، وعطية، وأبو مالك وغيرهم، واختاره ابن جرير [٩١/١٦]، فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ﴾؛ يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى وذلك لحرمة الأبوة، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ ولكن سأسال الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفًا؛ أي: في أن هدايني لعبادته والإخلاص له.

وقال قتادة، ومجاهد وغيرهما: عوّده الإجابة، وقال السدي: الحفي الذي يهْتَمُّ بأمره، وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام، وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل، وإسحاق ﷺ في قوله: ﴿رَبَّنَا آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقد استغفر المسلمون لقربائهم وأهلهم من المشركين في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ

أَبَدًا حَتَّى تَقُومُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِقَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴿٤٩﴾ الْآيَةُ [المتحنة: ٤٩]؛ يعني: إلا في هذا القول، فلا تتأسوا به، ثم بين تعالى أن إبراهيم أفلح عن ذلك ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وقوله: ﴿وَأَعَزَّلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾؛ أي: أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن الهتكُم التي تعبدونها من دون الله، وأدعو ربي؛ أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه ﷺ سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا أَعَزَّلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٥٠﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥١﴾﴾.

يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب؛ يعني: ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال: ﴿وَمِنْ وَرَثَةِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١].

ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، ولهذا إنما ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب؛ أي: جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء أقر الله بهم عينه في حياته، ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فلو لم يكن يعقوب ﷺ قد نبئ في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف، فإنه نبي أيضاً كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته حين سئل عن خير الناس، فقال: (يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ يَعْقُوبَ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ إِسْحَاقَ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ)، وفي اللفظ الآخر: (إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ: يوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ) [البخاري/٣٢٠٢]، وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ قال ابن عباس: يعني: الثناء الحسن، وكذا قال السدي ومالك بن أنس، وقال ابن جرير: إنما قال: ﴿عَلِيًّا﴾؛ لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَذَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقرْنَهُ يَحْيَىٰ ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام من الإخلاص في العبادة، وعن أبي لبابة قال: قال الحواريون: يا روح الله أخبرنا عن المخلص لله؟ قال: الذي يعمل لله لا يحب أن يحمد

الناس [رواه ابن عساكر عن أبي ثمامة ٤٧/٤٤٩]، وقرأ الآخرون بفتحها بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ جُمع له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وقوله: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾؛ أي: الجبل ﴿الْأَيْمَنِ﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة رآها تلوح فقصدها، فوجدها في جانب الطور الأيمن منه عند شاطئ الوادي، فكلمه الله تعالى وناداه وقربه وناجاه، وعن ابن عباس: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ قال: أُذِنِي حتى سمع صريف القلم، وهكذا قال مجاهد، وأبو العالية وغيرهم: يعنون صريف القلم بكتابة التوراة، وقال السدي: أدخل في السماء فكلم، وعن مجاهد نحوه، وقال قتادة: نجا بصدقه.

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾؛ أي: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْنَاهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ] [القصص: ٣٤]، وقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعته في الدنيا أعظم من شفاعته موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ قال ابن عباس: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد وهب له نبوته [الطبري ٩٥/١٦].

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ .

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل ؑ بأنه كان صادق الوعد. قال ابن جريج: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها؛ يعني: ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفّاها حقها، وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾؛ لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢]، فصدق في ذلك، فصدق الوعد من الصفات الحميدة كما أن خُلُقَهُ من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٦﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ [الصف: ٢، ٣] وقال رسول الله ﷺ: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ) [البخاري/٣٣ ومسلم/٥٩]، ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به.

وقوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ وصف بالنبوة والرسالة، وقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا هذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة، والخلة السديدة، حيث كان مثابراً على طاعة ربه ﷻ، أمراً بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا

مَلَكُكَ غَلاظٌ» [التحریم: ٦]؛ أي: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر ولا تدعوهم هملاً، فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، وَأَيَّقَطَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَيَّقَطَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ). أخرجه أبو داود [١٣٠٨]، وابن ماجه [١٣٣٦] نحوه وهو صحيح، وعن أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (إِذَا اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيَّقَطَ امْرَأَتَهُ، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ) رواه أبو داود [١٤٥١] والنسائي [١٣١٠]، وابن ماجه [١٣٣٥] واللفظ له [وهو صحيح].

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۗ﴾.

وهذا ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً، وفي «الصحيح» [عند ابن حبان ٢٤٥/١] أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة، وعن ابن عباس أن إدريس كان خياطاً، فكان لا يغرز إبرة إلا قال: سبحان الله، فكان يسمي حين يسمي وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه، وعن مجاهد في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى، وعنه أيضاً قال: رفع إلى السماء الرابعة، وعن ابن عباس قال: رفع إلى السماء السادسة فمات بها وهكذا قال الضحاك بن مزاحم، وقال الحسن وغيره في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: الجنة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبَيْنَا إِذَا تُنْذِرَ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَكُتِبَ ۖ﴾.

يقول تعالى: هؤلاء النبيون - وليس المراد هؤلاء المذكورين في هذه السورة فقط بل جنس الأنبياء عليهم السلام استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس - ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ الآية، قال السدي، وابن جرير رحمهما الله [٩٧/١٦]: فالذي عنى به من ذرية آدم: إدريس، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم، والذي عنى به من ذرية إبراهيم: إسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، والذي عنى به من ذرية إسرائيل: موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى ابن مريم، قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس، فإنه جد نوح.

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا تُنْذِرَ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَكُتِبَ ۖ﴾ أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبُكي جمع باك، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا اقتداء بهم. قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم، فسجد وقال: هذا السجود فأين البكي؟ يريد البكاء.

﴿خَلَفَ مِنْ بَإِذْنِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۖ﴾.

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء ﷺ، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدين فرائض الله التاركين لزواجه، ذكر أنه ﴿خَلَفَ مِنْ بَإِذْنِهِمْ خَلْفٌ﴾؛ أي: قرون آخر ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد، وأقبلوا على شهوات الدنيا، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غيًّا؛ أي: خَسَارًا يوم القيامة، وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ها هنا فقال قائلون: المراد بإضاعتها تركها بالكلية، قاله محمد بن كعب القرظي وابن زيد والسدي، واختاره ابن جرير [٩٩/١٦] ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة للحديث: (بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الشَّرْكِ تَرْكُ الصَّلَاةِ) [رواه مسلم/ ٨٢ نحوه]، والحديث الآخر: (الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ) [رواه الترمذي/ ١١ وقال: حسن صحيح]، وليس هذا محل بسط هذه المسألة.

وقال القاسم بن مُخَيَّمَة: إنما أضاعوا المواقيت ولو كان تركًا كان كفرًا، وقال ابن مسعود لما قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، و﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج، ٢٣]، و﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]، فقال ابن مسعود: على مواقيتها [الطبري ٩٩/١٦]. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك، قال: ذلك الكفر، وقال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة، وإفراطهن إضاعتهن عن وقتهن، وقرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿خَلَفَ مِنْ بَإِذْنِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت، وقال مجاهد: ﴿خَلَفَ مِنْ بَإِذْنِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ قال: عند قيام الساعة وذهاب صالح أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض في الأزقة، وكذا روي عن عكرمة وعطاء بن أبي رباح أنهم من هذه الأمة، يعنون في آخر الزمان، وقال الحسن البصري: عطلوا المساجد ولزموا الضيعات.

وقوله: ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ قال ابن عباس؛ أي: خسرانًا، وقال قتادة: شرًّا، وعن عبد الله بن مسعود قال: واد في جهنم بعيد القعر، خبيث الطعم، وعن أبي عياض نحوه.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾؛ أي: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ويجعله من ورثة جنة النعيم، ولهذا قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وذلك لأن التوبة تجب ما قبلها، وفي الحديث الآخر: (التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ) [رواه الطبراني في الكبير/ ١٠٢٨١ وغيره وهو حسن بمجموع طرقه]، ولهذا لا يُنْقَصُ هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئًا، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها؛ لأن ذلك ذهب هدرًا، من كرم الكريم وحلم الحليم، وهذا الاستثناء

هاهنا كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مُهْكًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿٦٦﴾ لَا يُسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴿٦٧﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا ﴿٦٨﴾﴾.

يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن؛ أي: إقامة التي وعد الرحمن عباده بظهر الغيب؛ أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه، وذلك لشدة إيمانهم وقوة إيمانهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨]؛ أي: كائنًا لا محالة، وقوله هاهنا: ﴿مَأْتِيًا﴾؛ أي: العباد صائرون إليه وسيأتونه، ومنهم من قال: ﴿مَأْتِيًا﴾؛ بمعنى: آتيا، لأن كل ما أتاك فقد أتيت، كما تقول العرب: أتت علي خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد.

وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾؛ أي: هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له كما قد يوجد في الدنيا، وقوله: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا ﴿٥٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾؛ أي: في مثل وقت البُكرات ووقت العشيات لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيتها بأضواء وأنوار، كما روى الإمام أحمد [٨١٨٣] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ فِيهَا، وَلَا يَنْغَوِطُونَ، آيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِصَّةُ، وَمُجَابِرُهُمُ الْأَلْوَةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يَرَى مَخَّ سَاقِيهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ؛ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًا) أخرجه في «الصحيحين» [البخاري/ ٣٠٧٠ ومسلم/ ٢٨٣٤]، وقال ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾ قال: مقادير الليل والنهار، وقال زهير بن محمد: ليس في الجنة ليل، هم في نور أبداً ولهم مقدار الليل والنهار، ويعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب، وعن الحسن البصري وذكر أبواب الجنة فقال: أبواب يرى ظاهرها من باطنها فتكلم وتكلم، فتفهم انفتحي انغلقي فتفعل، وقال قتادة: فيها ساعتان بكرة وعشي، ليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور، وقال مجاهد: ليس بكرة ولا عشي، ولكن يُؤْتُونَ به على ما كانوا يشتهون في الدنيا [هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ١٦/ ١٠٢].

وقال الحسن و قتادة وغيرهما: كانت العرب، الأنعم فيهم، من يتغدى ويتعشى، فنزل

القرآن على ما في أنفسهم من النعيم، وعن الحسن قال: البكور يرد على العشي، والعشي يرد على البكور، ليس فيها ليل.

وقوله: ﴿ذَلِكَ الْجَنَّةُ الَّتِي تُوْرَثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ نَقِيًّا﴾؛ أي: هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة، هي التي نورثها عبادنا المتقين وهم المطيعون لله ﷻ في السراء والضراء، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى أن قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا رُبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿١٥﴾﴾.

روى الإمام أحمد [٢٠٤٣] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: (مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟) قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية. انفرد بإخراجه البخاري [٤٤٥٤].

وقوله: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ قيل: المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا، وما خلفنا أمر الآخرة، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ما بين النفختين، هذا قول أبي العالية، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وقتادة في رواية عنهما، والسدي، والربيع بن أنس، وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما يستقبل من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾؛ أي: ما مضى من الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾؛ أي: ما بين الدنيا والآخرة، ويروى نحوه عن ابن عباس، وسعيد بن جبیر، والضحاك، وقتادة، وابن جريج، والثوري، واختاره ابن جرير أيضًا [١٠٤/١٦]، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا﴾ قال مجاهد: معناه ما نسيك ربك، وروى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء يرفعه قال: (مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَتَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَى شَيْئًا) ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا﴾ [ابن أبي حاتم عن ابن عباس/ ٨٠٠٠ ورواه البزار والحاكم/ ٣٤١٩ وصححه ووافقه الذهبي].

وقوله: ﴿رُبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: خالق ذلك ومدبره والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً، وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وقتادة، وابن جريج وغيرهم، وقال ابن عباس أيضًا: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ أَءِذَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجِّبْ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ أَءِذَا مَا مِثْ

لَسَوْفَ أُخْرِجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَّلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ يستدل تعالى بالبداة على الإعادة؛ يعني: أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئًا، أفلا يعيده وقد صار شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وفي «صحيح [البخاري] [٣٠٢١]»: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَن يُكَذِّبَنِي، وَأَذَانِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَن يُؤْذِنَنِي، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ آخِرِهِ، وَأَمَّا أَذَاهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: إِنَّ لِي وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ).

وقوله: ﴿وَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة أنه لا بد أن يحشرهم جميعًا وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ قال ابن عباس: يعني: قعودًا كقوله: ﴿وَرَبِّكَ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ﴾ [الجاثية: ٢٨]، وقال السدي: يعني: قيامًا، وروي عن ابن مسعود مثله.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعني: من كل أمة، قاله مجاهد: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾. قال ابن مسعود: يحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاها جميعًا، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرمًا، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾.

وقال قتادة: ثم لنزاعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر، وكذا قال ابن جريج وغير واحد من السلف، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِبُهُمْ لِأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَنَاتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرِبُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩]، وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ ثم هاهنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب، كما قال في الآية المتقدمة ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

قال خالد بن معدان: قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورود على النار؟ قال: قد مررتم عليها وهي خامدة، وعن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعًا رأسه في حجر امرأته، فبكى فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت، قال: إني ذكرت قول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا - وفي رواية، وكان مريضًا [الحاكم/٨٧٤٨].

وكان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أُمِّي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ قال: أَخْبَرْنَا أَنَا وَارِدُهَا وَلَمْ نُخَبَّرْ أَنَا صَادِرُونَ عَنْهَا، وقال الحسن



البصري: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ قال: فما رُئي ضاحكًا حتى لحق بالله، وعن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له أبو راشد وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس أرايت قول الله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر هل نصدر عنها أم لا؟

وروى ابن جرير عن عبد الله قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، ولهذا شواهد في «الصحيحين» وغيرهما من رواية أنس، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وجابر وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

وروى أحمد [٢٦٤٨٣] عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة قالت: كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة فقال: (لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَّةَ) قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [رواه مسلم/٢٤٩٥]، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ تَمَسُّهُ النَّارُ، إِلَّا تَجَلَّةَ الْقَسَمِ) [البخاري/١١٩٢ ومسلم/٢٦٣٢].

وعن مجاهد قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، وعن قتادة قال: هو الممر عليها، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيتها ورود المشركين أن يدخلوها، وقال ابن مسعود في قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ قال: قَسَمًا واجِبًا، وقال مجاهد: حَتْمًا، قال: قضاء، وكذا قال ابن جريج [الطبري/١١٤/١٦].

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾؛ أي: إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيُخْرِجون خلقًا كثيرًا قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم وهي مواضع السجود، وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولًا من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، حتى يخرجوا من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ثم يخرج الله من النار من قال يومًا من الدهر: لا إله إلا الله وإن لم يعمل خيرًا قط، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾.

﴿وَإِذَا تَنَالَى عَلَيْهِمْ أَيْنُنَا بَيْنَتِ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا وَكَوْا أَهْلَكًا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيعًا﴾ (٧٣).

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة أنهم يصدون عن ذلك

ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾؛ أي: أحسن منازل وأرفع دورًا وأحسن نديًا وهو مجمع الرجال للحديث؛ أي: ناديمهم أعمر وأكثر واردًا وطارقًا، يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل وأولئك الذين هم محتفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق، كما قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، وقال قوم نوح: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبَعَكَ الْأَرْذِلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ولهذا قال تعالى رادًا على شبهتهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي: وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم ﴿هُم أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِءْيَا﴾؛ أي: كانوا أحسن من هؤلاء أموالًا ومناظر وأمتعة، وعن ابن عباس: ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قال: المقام: المنزل، والندي: المجلس، والأثاث: المتاع، والرئي: المنظر، وعن ابن عباس أيضًا: المقام: المسكن، والندي المجلس والنعمة والبهجة التي كانوا فيها [الطبري ١١٦/١٦]، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقص شأنهم في القرآن: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِّن جَنَّتٍ وَعَيْوُنٍ ﴿٥٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]، فالمقام: المسكن والنعيم، والندي: المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال الله فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط: ﴿وَتَأْتُونَكَ فِي نَكَاحِكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، والعرب تسمي المجلس النادي، وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشتهم خشونة، وفيهم قسافة، تعرّض أهل الشرك بما تسمعون ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ وكذا قال مجاهد، والضحاك. ومنهم من قال في الأثاث: هو المال، ومنهم من قال الثياب، ومنهم من قال المتاع، والرئي المنظر كما قاله ابن عباس، ومجاهد وغير واحد، وقال الحسن البصري؛ يعني: الصور وكذا قال مالك: ﴿أَثْنًا وَرِءْيَا﴾ أكثر أموالًا وأحسن صورًا والكل متقارب صحيح [الطبري ١١٧/١٦].

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين برهبهم المدعين أنهم على حق وأنكم على باطل: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾؛ أي: منا ومنكم ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾؛ أي: فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقي ربه وينقضي أجله ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ يصيبه ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ بغته تأتية ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾؛ أي: في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي، قال مجاهد في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ فليدعه الله في طغيانه [الطبري ١١٩/١٦]، وهكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُواْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلّٰهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّعُواْ أَلْوَتَ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]؛ أي: ادعوا على المبطل منا أو منكم بالموت إن كنتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم

الدعاء، فنكلوا عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة البقرة مبسوطاً، والله الحمد، وكما ذكر المباهلة مع النصرارى في آل عمران [آية ٦١] ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْأَعْلَامِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَآبَاءَكُمْ وَسَاءَ مَا وَصَّيْنَا أَنْفُسَكُمُ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ فنكلوا أيضاً.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيْتُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ٧٦﴾.

لما ذكر الله تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًى إِيْمَانًا فَلَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ٧٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَاْفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، وقوله: ﴿وَالْبَيْتُ الصَّلَاحُ﴾ قد تقدم تفسيرها في سورة الكهف.

﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾؛ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾؛ أي: عاقبة ومردًا على صاحبها.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ٧٨﴾ أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ٧٩﴾ كَلَّا سَنَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ٨٠﴾ وَرَبُّهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا ٨١﴾.

روى الإمام أحمد [٢١١١٢] عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أنقاضه منه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا، والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ - إلى قوله: - ﴿وَيَأْتِنَا فَردًا﴾ أخرجه صاحبنا «الصحیح» [البخاري/ ١٩٨٥ - ٤٤٥٦ ومسلم/ ٢٧٩٥] وغيرهما، وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة... فذكر الحديث وقال: ﴿أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: موثقاً، وهكذا قال مجاهد، وقتادة وغيرهم: أنها نزلت في العاص بن وائل.

وقوله: ﴿لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قرأ بعضهم بفتح الواو من ولداً، وقرأ آخرون بضمها وهو بمعناه، وقيل: إن الولد بالضم جمع، والولد بالفتح مفرد، وهي لغة قيس، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ﴾ إنكار على هذا القائل ﴿لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾؛ يعني: يوم القيامة؛ أي: أعلم ما له في الآخرة حتى تألى وحلف على ذلك، ﴿أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخاري أنه الموثق، وقال ابن عباس: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله فيرجو بها، وقال محمد بن كعب القرظي: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

وقوله: ﴿كَلَّا﴾ هي حرف ردع لما قبلها، وتأکید لما بعدها، ﴿سَنَكُنُّبُ مَا يَقُولُ﴾؛ أي:

من طلبه ذلك وحُكِّمه لنفسه بما تمناه، وكفره بالله العظيم، ﴿وَمَنْذُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَذًا﴾؛ أي: في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا، ﴿وَنَرِئُهُ مَا يَقُولُ﴾؛ أي: من مال وولد، نسلبه منه عكس ما قال: إنه يُؤْتَى في الدار الآخرة مالا وولداً، زيادة على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يُسَلَّبُ منه الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾؛ أي: من المال والولد.

وقال قتادة: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ لا مال له ولا ولد، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَنَرِئُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما جمع من الدنيا وما عمل فيها، قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ قال: فرداً من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ (٨٣) ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (٨٤).

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم: أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ يعتزون بها ويستنصرونها، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ولا يكون ما طمعوا فقال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾؛ أي: بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ (٢١) وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿الأحقاف: ٥، ٦﴾، وقال السدي: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾؛ أي: بعبادة الأوثان.

وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾؛ أي: بخلاف ما رَجَوْا منهم، وقال ابن عباس: أعواناً. قال مجاهد: عوناً عليهم، تُخَاصِمُهُمْ وتُكَذِّبُهُمْ، وعن ابن عباس أيضاً: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: قرناء، وقال قتادة: قرناء في النار، يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم ببعض، وقال السدي: الخصماء الأشداء في الخصومة، وقال الضحاك: أعداء، وقال ابن زيد: الضد البلاء، وقال عكرمة: الضد الحسرة [الطبري ١٦/١٢٤].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ قال ابن عباس: تغويهم إغواءً، وعنه: تحرضهم على محمد وأصحابه، وقال مجاهد: تُشْلِيهِمْ إشلاءً، وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله، وقال سفيان الثوري: تغريهم إغراءً وتستعجلهم استعجالاً، وقال السدي: تطغيهم طغياناً [الطبري ١٦/١٢٥]، وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ بَعْثٍ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانٌ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾؛ أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾؛ أي: إنما نوخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْوَأُ لَكُمْ رُبُّكُمْ﴾ [الطارق: ١٧]،

وقال السدي: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾: السنين والشهور والأيام والساعات، وقال ابن عباس: نعد أنفاسهم في الدنيا.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۖ وَنَسُوفُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا ۖ﴾ (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ ﴿٨٧﴾.

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم، أنه يحشرهم يوم القيامة وفدًا إليه، والوفد هم القادمون ركبًا، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه، وأما المجرمون المكذبون للرسول المخالفون لهم، فإنهم يساقون غنًا إلى النار ﴿وَرِدًّا﴾ عطاشًا، قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغير واحد، وهاهنا يقال: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

وقال ابن عباس: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ قال: ركبًا، وعن أبي هريرة قال: على الإبل، وقال ابن جريج: على النجائب، وقال الثوري: على الإبل النوق [الطبري ١٦/١٢٧]، وقال قتادة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ قال: إلى الجنة.

وقوله: ﴿وَنَسُوفُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا﴾؛ أي: عطاشًا ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾؛ أي: ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠٠) وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ هذا استثناء منقطع بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهدًا، وهو شهادة أن لا إله إلا الله والقيام بحقوقها. قال ابن عباس: العهد شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله ﷻ.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۖ﴾ (٨٨) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ۖ وَتَشْأَلُ الْأَرْضُ وَنَحْرُ الْجِبَالِ هَذَا ۖ ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۖ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۖ ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۖ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۖ ﴿٩٥﴾.

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى ﷺ وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولدًا، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًا كبيرًا، فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ (٨٨) في قولكم هذا ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وقتادة ومالك: أي: عظيمًا [الطبري ١٦/١٢٩]، ويقال: إدًا بكسر الهمزة وفتحها، ومع مدها أيضًا ثلاث لغات أشهرها الأولى.

وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشْأَلُ الْأَرْضُ وَنَحْرُ الْجِبَالِ هَذَا ۖ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۖ﴾

أي: يكاد ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظاماً للرب وإجلالاً؛ لأنهم مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفاء له، بل هو الأحد الصمد.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

قال ابن عباس: إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين [الطبري ١٦/١٣٠]، وقال الضحاك: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾؛ أي: يتشققن فرقا من عظمة الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَتَشَقُّ الْأَرْضُ﴾؛ أي: غضبا لله ﷻ ﴿وَنَخْرُ الْجِبَالُ هَذَا﴾، قال ابن عباس: هدمًا، وقال سعيد بن جبیر: ينكسر بعضها على بعض متتابعات، وقال عون بن عبد الله: إن الجبل لينادي الجبل باسمه يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكر لله ﷻ؟ فيقول: نعم ويستبشر، قال عون: لهي للخير أسمع أفيسمعن الزور والباطل إذا قيل ولا يسمعن غيره، ثم قرأ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَنَخْرُ الْجِبَالُ هَذَا﴾ ﴿٩٦﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَكَ، وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا ما قالوا.

وروى الإمام أحمد [١٩٦٥٠] عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا أَحَدٌ أَضْبَرُ عَلَى أَدَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُ يُشْرِكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ وَيَرْزُقُهُمْ) أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٥٧٤٨ نحوه ومسلم/٢٨٠٤]، وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾؛ أي: لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفاء له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له، ولهذا قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ﴿٩٧﴾ لَقَدْ أَخَصَّنَا وَعَدَّنَا عَدًّا؛ أي: قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنشأهم، صغبرهم وكبيرهم، ﴿وَكُلُّهُمْ عَائِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾؛ أي: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحدًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحْسِنُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ .

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي ترضي الله ﷻ لمتابعتها الشريعة المحمدية يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة، وهذا أمر لا بد منه، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه، روى الإمام أحمد [٩٣٤١] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ. قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، قَالَ: ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ

السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبُوهُ، قَالَ: فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ فَقَالَ: يَا جَبْرِيلُ، إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ [البخاري/٧٠٤٧ ومسلم/٢٦٣٧].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَّهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: حبًّا، وعنه قال: محبة في الناس في الدنيا، وعنه أيضًا: يحبهم ويحبُّهم؛ يعني: إلى خلقه المؤمنين، كما قال مجاهد أيضًا، والضحاك وغيرهم، وعن ابن عباس أيضًا: الود من المسلمين في الدنيا، والرزق الحسن واللسان الصادق، وقال قتادة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَّهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ إني والله في قلوب أهل الإيمان، ذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: ما من عبد يعمل خيرًا أو شرًّا إلا كساه الله رسوله رداء عمله.

وقال الحسن البصري رحمته الله: قال رجل: والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها، فكان لا يرى في حين صلاة إلا قائمًا يصلي، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج، فكان لا يعظم، فمكث بذلك سبعة أشهر، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا: انظروا إلى هذا المرائي، فأقبل على نفسه فقال: لا أراني أذكر إلا بشرًّا، لأجعلن عملي كله لله رسوله، فلم يزد على أن قلب نيته، ولم يزد على العمل الذي كان يعمل، فكان يمر بعد بالقوم فيقولون: رحم الله فلانًا الآن، وتلا الحسن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَّهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾؛ يعني: القرآن بلسانك؛ أي: يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل لنبيشرك به المتقين؛ أي: المستجيبين لله، المصدقين لرسوله، وننذر به قومًا لئلا؛ أي: عوجًا عن الحق مائلين إلى الباطل وقال مجاهد: ﴿قَوْمًا لئلا﴾ لا يستقيمون، ومعناه عن أبي صالح، وقال الضحاك: هو الخصم، وقال القرظي: الألد الكذاب، وقال الحسن البصري: صمًّا، وقال غيره: صم آذان القلوب، وقال قتادة: قومًا لئلا؛ يعني: قريشًا وعن ابن عباس: فجارًا، وكذا روي عن مجاهد، وقال ابن زيد: الألد: الظلوم، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] [الطبري ١٦/١٣٤]، وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي: من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله هل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزًا؛ أي: هل ترى منهم أحدًا أو تسمع لهم ركزًا، قال ابن عباس، وأبو العالية، والحسن البصري، وابن زيد [وغيرهم]: يعني: صوتًا، وقال الحسن وفتادة: هل ترى عينًا أو تسمع صوتًا [الطبري ١٦/١٣٥]، والركز في أصل اللغة هو الصوت الخفي.



## تفسير سورة طه

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا نَذْكِرَ لِمَن يَخْشَى ﴿٢﴾ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٣﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٤﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٥﴾ وَإِن تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٧﴾ ﴿٨﴾

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وعن ابن عباس قال: طه: يا رجل، وهكذا روي عن مجاهد، والحسن، والسدي [وغيرهم] أنهم قالوا: طه بمعنى يا رجل [الطبري ١٣٦/١٦ والبخاري تعليقاً عن ابن جبير بمعناه ١٧٦٢/٤].

وقوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ قال الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾ ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكِرَ لِمَن يَخْشَى﴾ فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في «الصحيحين» عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ) [البخاري/ ٧١ ومسلم/ ١٠٣٧]، وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني [في الكبير/ ١٣٨١] عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْعُلَمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا قَعَدَ عَلَى كُرْسِيِّهِ لِقَضَاءِ عِبَادِهِ: إِنِّي لَمْ أَجْعَلْ عِلْمِي وَحِكْمَتِي فِيكُمْ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَ لَكُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْكُمْ، وَلَا أَبَالِي) إسناده جيد، وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ هي كقوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة، وقال قتادة: لا، والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة ﴿إِلَّا نَذْكِرَ لِمَن يَخْشَى﴾ إن الله أنزل كتابه وبعث رسله رحمة رحمة بها عباد وليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه.

وقوله: ﴿تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾؛ أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك، رب كل شيء ومليكه القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها، وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾



تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضًا، وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل.

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾؛ أي: الجميع ملكه، وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيتته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه لا إله سواه، ولا رب غيره.

وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ قال محمد بن كعب: أي: ما تحت الأرض السابعة.

وقوله: ﴿وَإِنْ نَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾؛ أي: أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسّموات العلى الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]. قال ابن عباس: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر ما أسره ابن آدم في نفسه، ﴿وَأَخْفَى﴾ ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال الضحاك: السر ما تحدث به نفسك، وأخفى ما لم تحدث به نفسك بعد، وقال سعيد بن جبیر: أنت تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدًا، والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غدًا، وقال مجاهد: ﴿وَأَخْفَى﴾؛ يعني: الوسوسة، وقال أيضًا هو وسعيد بن جبیر ﴿وَأَخْفَى﴾؛ أي: ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه [هذه الأقوال بأسانيدنا عند الطبري ١٣٩/١٦].

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾؛ أي: الذي أنزل عليك القرآن، هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ١٠ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١١﴾.

من ها هنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وسار بأهله قيل: قاصدًا بلاد مصر بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند معه ليوري نارًا كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئًا ولا يخرج منه شرر ولا شيء، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نارًا؛ أي: ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله ييشروهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾؛ أي: شهاب من نار، وفي الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]، وهي الجمر الذي معه لهب ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩] دل على وجود البرد، وقوله:

﴿يَبْسِ﴾ دل على وجود الظلام، وقوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾؛ أي: من يهديني الطريق، دل على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال ابن عباس: من يهديني إلى الطريق [الطبري ١٦/١٤٣]، وكانوا شاتين وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق آتكم بنار توقدون بها.

﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ۖ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۚ﴾  
 ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۚ﴾  
 ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ۖ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾  
 ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ۖ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۚ﴾  
 ﴿فَلَا يُصَدِّدُكَ عَنْهَا مِن لَّا يَوْمُنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا﴾؛ أي: النار، واقترب منها ﴿نُودِيَ يَمُوسَىٰ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿نُودِيَ مِن شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾  
 ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [الفصص: ٣٠]، وقال هاهنا: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾؛ أي: الذي يكلمك ويخاطبك ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قال علي بن أبي طالب، وأبو ذر، وأبو أيوب وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكي [الطبري ١٦/١٤٤]، وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة. قال سعيد بن جبير: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة، وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير منتعل، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ قال ابن عباس: هو اسم للوادي [الطبري ١٦/١٤٦]، وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان، وقيل: عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه، وقيل: لأنه قدس مرتين، وطوى له البركة وكررت، والأول أصح كقوله: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦]، وقوله: ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]؛ أي: على جميع الناس من الموجودين في زمانه، وقد قيل: إن الله تعالى قال: يا موسى أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس؟ قال: لا، قال: لأنني لم يتواضع إلي أحد تواضعك، وقوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾؛ أي: استمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾؛ أي: وحدي، وقم بعبادتي من غير شريك ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ قيل: معناه صلّ لتذكركني، وقيل: معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي، ويشهد لهذا الثاني ما في «الصحيحين» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا، فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ) [البخاري/ ٥٧٢ ومسلم/ ٦٨٤ بنحوه]، وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾؛ أي: قائمة لا محالة وكائنه لا بد منها.

وقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال ابن عباس: أنه كان يقرؤها: أكاد أخفيها من نفسي، يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً، وعنه رواية: من نفسه، وفي أخرى: لا أطلع عليها أحداً

غيري، وقال السدي: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى الله تعالى عنه علم الساعة وهي في قراءة ابن مسعود: ﴿إني أكاد أخفيها من نفسي﴾ [الطبري ١٦/١٤٩]، يقول: كتمتها عن الخلاق. قال قتادة: أكاد أخفيها، وهي في بعض القراءة: أخفيها من نفسي، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ومن الأنبياء والمرسلين.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ [الأعراف: ١٨٧]؛ أي: ثقل علمها على أهل السموات والأرض، وقوله ﷺ: ﴿لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى﴾؛ أي: أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقوله: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾، المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين؛ أي: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿فَتَرْدَى﴾؛ أي: تهلك وتعطب.

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْسِكُ﴾ (٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِلُ أُخْرَى ﴿٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا يَمْسُكُ ﴿٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِجَّةٌ تَسْعَى ﴿١٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿١١﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى ﷺ، وخرق للعادة باهر دالٌّ على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله ﷻ، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل، وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْسِكُ﴾ قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له، وقيل: وإنما قال له ذلك على وجه التقرير؛ أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها، فسترى ما نصنع بها الآن، [وهو] استفهام تقرير.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾؛ أي: أعتمد عليها في حال المشي ﴿وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾؛ أي: أهرز بها الشجرة ليسقط ورقها لترعاه غنمي. قال الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المخجن في الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره، ولا يكسر العود، فهذا الهش ولا يخبط، وكذا قال ميمون بن مهران أيضًا.

وقوله: ﴿وَلِي فِيهَا مَنَازِلُ أُخْرَى﴾؛ أي: مصالح وحاجات آخر غير ذلك، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمْسُكُ﴾؛ أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِجَّةٌ تَسْعَى﴾؛ أي: صارت في الحال حجة عظيمة، ثعبانًا طويلًا يتحرك حركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر وفي غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْعَى﴾؛ أي: تمشي وتضطرب.

قال وهب بن منبه [كما روى ابن أبي حاتم/١٦١٤٨] في قوله: ﴿خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ وعلى موسى حينئذٍ مدرعة من صوف قد خلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها، أدلى طرف المدرعة على يده، فقال له ملك: أرأيت يا موسى

لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا ولكنني ضعيف، ومن ضَعُفْ خُلِقْتُ، فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حسَّ الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهداها، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توکا بين الشعبتين، ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾؛ أي: إلى حالها التي تعرف قبل ذلك.

﴿وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ (٢٢) ﴿لِيُزَيِّنَكَ مِنْ بَيْنِنَا الْكَبْرَى﴾ (٢٣) ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (٢٤) ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (٢٦) ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ (٢٧) ﴿يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ (٢٨) ﴿وَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) ﴿هُرُونَ أَخِي﴾ (٣٠) ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ (٣١) ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ (٣٢) ﴿كَيْ تَسْحَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٣) ﴿وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٤) ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ (٣٥).

وهذا برهان ثانٍ لموسى عليه السلام، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه كما صرح به في الآية الأخرى، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ وقال في مكان آخر: ﴿وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بَرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [الفصص: ٣٢]، وقال مجاهد: ﴿وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ كفك تحت عضدك، وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج كأنها فلقة قمر.

وقوله: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾؛ أي: من غير برص ومن غير شين، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي وغيرهم [الطبري ١٦/١٥٨]، وقال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه ﷻ، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُزَيِّنَكَ مِنْ بَيْنِنَا الْكَبْرَى﴾، وقال وهب: قال له ربه: اذنه فلم يزل يدينه حتى أسند ظهره بجذع الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرعدة، وجمع يده في العصا وخضع برأسه وعنقه.

وقوله: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾؛ أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خرجت فاراً منه وهارباً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الرب الأعلى.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه ﷻ أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك وأجبرهم وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادّعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره. هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها، ثم بعد هذا بعثه ربه ﷻ إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾؛ أي: إن لم تكن أنت عوني، وظهيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك.

﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ وذلك لما كان أصابه، من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتي بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْرٌ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]؛ أي: يفصح بالكلام.

وقال الحسن البصري: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ قال: حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أُعطي، وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتل، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رداءً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فاتاه سؤاله فحل عقدة من لسانه.

وقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ﴿٢٨﴾ هَارُونَ أَخِي وهذا أيضاً سؤال من موسى ﷺ في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له. قال ابن عباس: فنبئ هارون ساعته حين نبئ موسى ﷺ [ابن أبي حاتم/١٦٩٠٤]، وعن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا: لا ندرى. قال: أنا والله أدري. قالت: فقلت في نفسي في حلفه لا يستثني إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله [تاريخ دمشق ٥٧/٦١]. قلت: وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى ﷺ: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقوله: ﴿أَشَدُّ بِهِ أَرَى﴾ قال مجاهد: ظهري ﴿وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي﴾؛ أي: في مشاورتي ﴿كَيِّ سُبْحِكَ كَثِيرًا﴾ ﴿٢٩﴾ وتذكرك كثيراً قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾؛ أي: في اصطفاك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون فلك الحمد على ذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٢٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى ﴿٢٨﴾ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴿٢٩﴾ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٠﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ ﴿٣١﴾ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٣٢﴾ وَقَلَّكَ نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفُتِنَّا ﴿٣٣﴾ فَنُوحًا ﴿٣٤﴾﴾

هذه إجابة من الله لرسوله موسى ﷺ فيما سأل ربه ﷻ، وتذكير له بنعمه السالفة عليه فيما كان ألهم أمه حين كانت ترضعه، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان، فاتخذت له تابوتاً، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله في النيل، وتمسكه إلى منزلها بحبل، فذهبت مرة لتربط الحبل فانفلت منها وذهب به البحر،

فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِيدًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ۚ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿فَالْفَقْطَةُ ۚ ۚ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]؛ أي: قدرًا مقدورًا من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل، حذرًا من وجود موسى، فحكم الله وله السلطان العظيم والقدرة التامة أن لا يربى إلا على فراش فرعون، ويُغذى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له، ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾؛ أي: عند عدوك جعلته يحبك، قال سلمة بن كُهَيْل: حبيبك إلى عبادي ﴿وَلِصْنَعِ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ قال أبو عمران الجوني: تُرَبِّي بعين الله، وقال قتادة: تغذى على عيني، وقال معمر بن المثنى: ﴿وَلِصْنَعِ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ بحيث أرى، وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني: أجعله في بيت الملك ينعم ويترف، وغذاؤه عندهم غذاء الملك فتلك الصنعة.

وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ۖ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَقَرَّ عِنْدَ آلِ فِرْعَوْنَ عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ فَأَبَاهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فجاءت أخته وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحَةٌ﴾ [القصص: ١٢]؛ تعني: هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة، فذهبت به وهم معها إلى أمه فعرضت عليه ثديها، فقبله ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة أغنى وأجزل، وقال تعالى ههنا: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾؛ أي: عليك ﴿وَقَلَّتْ نَفْسًا﴾؛ يعني: القبطي ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هاربًا حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: ﴿لَا تَحْزَنْ نَجَّوْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

### [حديث الفتون:]

وقوله: ﴿وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾ روى الإمام النسائي رحمه الله في كتاب «التفسير» من سننه [الكبرى/١١٣٢٦] قوله: ﴿وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾ عن سعيد بن جبيرة قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله ﷻ لموسى ﴿وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾ فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبيرة، فإن لها حديثًا طويلاً، فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم ﷺ أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكًا، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم ﷺ، فقال فرعون: كيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلا ذبحوه، ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: ليوشكن أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عامًا كل مولد ذكر، فيقل أبنائهم، ودعوا عامًا فلا تقتلوا منهم أحدًا، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن

تستحيون منهم، فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة، فلما كان من قابل، حملت بموسى ﷺ فوقع في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون - يا ابن جبير - ما دخل عليه وهو في بطن أمه مما يراد به، فأوحى الله إليها أن لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم، فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها: ما فعلت بابني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيثانه. فأنتهى الماء به حتى أوفى به عند فُرْصَةٍ مستقى جوارى امرأة فرعون، فلما رأيته أخذته، فهممن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن: إن في هذا مآلاً، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه فيه، فحملنه كهيتته لم يخرج منه شيئاً حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأت فيه غلاماً، فألقى الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليزبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير، فقالت لهم: أقروه، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم ألكم، فأتت فرعون فقالت: قرة عين لي ولك، فقال فرعون: يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه، فقال رسول الله ﷺ: (وَالَّذِي يُخَلِّفُ بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ كَمَا أَقَرَّتْ امْرَأَتُهُ، لَهْدَاهُ اللَّهُ كَمَا هَدَاهَا، وَلَكِنْ حَرَمَهُ ذَلِكَ)، فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لبن لتختار له ظئراً، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها، فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والهأ فقالت لأختها: قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكراً: أحي ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون، والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه وهو لا يشعر به، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فأخذوها فقالوا: ما يدريك ما نصحهم له هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون يا ابن جبير، فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبته في ظؤرة الملك ورجاء منفعة الملك فتركوها، فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه رياً، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئراً، فأرسلت إليها فأأت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئاً حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آله خيراً فعلت وإلا فإني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجز وعده، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وأنبتة الله نباتاً حسناً، وحفظه لما قد قضى فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممنوعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أتريني ابني فوعدها يوماً تريها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظهورها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك، وأنا باعثة أميناً يحصي ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته وأكرمته وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحله وليكرمه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدّها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلي به، وأريد به فتوناً فجاءت امرأة فرعون فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا تريه يزعم أنه يصرعني ويعلونني؟ فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً يعرف الحق به، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين، فاعرف أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين، فتناول الجمرتين، فانزعجتهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعدما كان قد هم به، وكان الله بالغاً فيه أمره، فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى غضباً شديداً؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم لا يعلم الناس إلا إنما ذلك من الرضاع إلا أم موسى إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره، فوكز موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله تعالى والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [القصص: ١٥، ١٦]، فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار، فأتى فرعون ف قيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم، فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صغوه مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم، فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبناً إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٨]، فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعدما قال له إنك لغوي مبين، أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراد ما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي وقال: ﴿يَمُوسَى أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد



موسى ليقتله، فتاركا وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس، فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره، وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين ولم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه ﷻ، فإنه قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۖ﴾ ﴿٢٣﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴿٢٤﴾ [الفصل: ٢٢، ٢٣]؛ يعني بذلك: حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما ننتظر من فضول حياضهم، فسقى لهما فجعل يغترف في الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء، فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى ﷺ فاستظل بشجرة وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَزَلْتُ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [الفصل: ٢٤]، واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حُفلاً بطاناً، فقال: إن لكما اليوم لشأناً، فأخبرتهما بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته، فلما كلمه قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان، ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: ﴿يَتَّبِعُكَ مِّنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينُ﴾ [الفصل: ٢٦]، فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته وما أمانته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة فإنه نظر إليَّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال لي: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسري عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت، فقال له: هل لك ﴿أَنَّا أَنْكَحَكُ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَٰذِهِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَن أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَنَجِدُكَ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الفصل: ٢٧]، ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمانين سنين واجبة، وكانت ستان عدة منه، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرًا.

قال سعيد وهو ابن جبير [في الحديث الطويل السابق آنفاً، أخرجه النسائي/١١٣٢٦]: فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا، وأنا يومئذ لا أدري، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانياً كانت على نبي الله واجبة لم يكن لنبي الله أن ينقص منها شيئاً، ويعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي كان وعده، فإنه قضى عشر سنين، فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك، قلت: أجل وأولى، فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله تعالى ما يحذر من آل فرعون في القتل وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رداءً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فأتاه الله سؤله وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله

إلى هارون وأمره أن يلقاه، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون عليه السلام، فانطلقا جميعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] قال: فمن ربكما؟ فأخبراه بالذي قص الله عليك في القرآن؟ قال: فما تريدان؟ وذكره القليل فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله وترسل معنا بني إسرائيل، فأبى عليه وقال: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة، فافرة فاهاً، مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فاقترح من سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء؛ يعني: من غير برص، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول، فاستشار الملاء حوله فيما رأى، فقالوا له: هذان ساحران ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَتِكُمُ الْمُنَى﴾ [طه: ٦٣]؛ يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع لهما السحرة، فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما، فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات، قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل، فما أجرتنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتهم، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبیر: فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء، فلما اجتمعوا في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ﴿لَعَلَّآ نَنبُغَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]؛ يعنون موسى وهارون استهزاء بهما؟ فقالوا: ﴿يَلْمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٦]، ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله إليه أن ألق عصاك، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فافرة فاهاً، فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جزراً إلى الثعبان تدخل فيه حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعتها، فلما عرف السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحرًا لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكن هذا أمر من الله تعالى، آمنا بالله وبما جاء به موسى من عند الله، ونتوب إلى الله مما كنا عليه، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴿فَعَلُّبُوا هَٰذَا لَكُمْ أَنْفَلِكُمْ وَانْقَلَبُوا وَنَعْلَكُمْ﴾ [الأعراف: ١١٩]، وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى، فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف مواعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه، ويؤاخذ على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك

عنه أخلف مواعده ونكث عهده حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتنبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التقى على من بقي بعد من فرعون وأشياعه، فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل، فيصير عاصياً لله .

فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى: إنا لمدركون افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال: وعدني ربي أن إذا أتيت البحر انفلق اثنتي عشرة فرقة حتى أجازه، ثم ذكر بعد ذلك العصا، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفلق البحر كما أمره ربه وما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه، ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿قَالُوا يَمْوَىٰ آجَعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (٢٢٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٢٩﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

قد رأيتم من العبر وسمعتهم ما يكفيكم، ومضى فأنزلهم موسى منزلاً وقال: أطيعوا هارون، فإنني قد استخلفته عليكم، فإنني ذاهب إلى ربي وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً، وقد صامهن ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت وهو أعلم بالذي كان، قال: يا رب إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، ارجع فصم عشرين ثم اثنتي.

ففعّل موسى ﷺ ما أمر به، فلما رأى قومه أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم وقال: إنكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع ولكم فيهم مثل ذلك، فإنني أرى أنكم تحتسبون ما لكم عندهم ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا، فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقدفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال: لا يكون لنا ولا لهم، وكان السامري من قوم يعبدون البقر جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا، فقضي له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة، فمر بهارون فقال له هارون ﷺ: يا سامري ألا تلقي ما في يدك، وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك؟ فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقيتها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد، فألقاها ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجلاً، فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح وله خوار، قال ابن عباس: لا، والله ما كان له

صوت قط إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه، وكان ذلك الصوت من ذلك، فتفرق بنو إسرائيل فرقاً، فقالت فرقة: يا سامري ما هذا وأنت أعلم به؟ قال: هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق، فقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأينا، وإن لم يكن ربنا فإننا نتبع قول موسى، وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون: ﴿يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ [طه: ٩٠]. قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا، هذه أربعون يوماً قد مضت، وقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه: يتبعه، فلما كلم الله موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقي قومه من بعده ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنَ أَسْفَاءً﴾ [طه: ٨٦]، فقال لهم ما سمعتم في القرآن، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له، وانصرف إلى السامري فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعُمت عليكم فقذفتها ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [٩٦] قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّكَ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٦، ٩٧]، ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فيكفر عنا ما عملنا، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لذلك لا يألوا الخير خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض! فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَأَتَى أَهْلُكُمَا بِمَا فَعَلَ الْأُسْفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وفيهم من كان اطلع الله منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض فقال: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهُنَّ لِأُولَئِكَ يَقُوتُ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٥٦] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، فقال: يا رب سألتك التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبتهما لقوم غير قومي، هلا أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون، واطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى ﷺ متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر به أن يبلغهم من الوظائف، فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يُقروا بها، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون، ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم، ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خلقهم خلق منكرو،

وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها، فقالوا: يا موسى إن فيها قومًا جبارين لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإننا داخلون. قال رجلان من الذين يَخَافُونَ آمنا بموسى وخرجا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم، ولا مَنَعَةٌ عندهم، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، ويقول أناس: إنهم من قوم موسى، فقال الذين يخافون من بني إسرائيل: ﴿قَالُوا يَكُونُ إِنَّنا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعُودُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذٍ، فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم موسى فاسقين، فحرَّمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار، وظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثيابًا لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجرًا مربعًا، وأمر موسى فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا في كل ناحية ثلاث أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها، فلا يرتحلون من مكان إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ، وصدق ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عباس [كما ورد في الحديث الطويل السابق تخريجه آنفًا عند النسائي/١١٣٢٦] يحدث هذا الحديث فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتل الذي قتل، فقال: كيف يفشي عليه ولم يكن علم به، ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك؟ فغضب ابن عباس فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري، فقال له: يا أبا إسحاق هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد على ذلك وحضره، وهكذا رواه النسائي في «السُّنَنِ الكُبرى»، وأخرجه أبو جعفر بن جرير [١٦/١٦٤]، وابن أبي حاتم في «تفسيريهما»، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنَّه تلقاه ابن عباس رضي الله عنه مما أبيع نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار، أو غيره، والله أعلم، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول ذلك أيضًا.

﴿فَلَيْتَ سَيْنَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُوسٍ ﴿٤١﴾ وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي ﴿٤٢﴾ أَدْهَبَ أَنْتَ وَلَوْكَ يَتَابِقِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٣﴾ أَدْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٤﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا نِيِتًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٥﴾﴾.

يقول تعالى مخاطبًا لموسى ﷺ: إنه لبث مقيمًا في أهل مدين فارًّا من فرعون وملئه، يرمى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقًا لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله تبارك وتعالى، وهو المُسَيِّرُ خلقه فيما يشاء، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ

يَمُوتَنَّ ﴿١﴾ قال مجاهد: أي: على موعد، وقال قتادة: على قدر الرسالة والنبوة، وقوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾؛ أي: اصطفتيك واجتبتك رسولاً لنفسي؛ أي: كما أريد وأشاء، وروى البخاري عند تفسيرها عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برساليته واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فوجدته قد كتب عليّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم فتح آدم موسى) [ورواه مسلم/٢٦٥٢].

وقوله: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَلُحُوكَ يَا بَنِي﴾؛ أي: بحججي ﴿وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾ قال ابن عباس: لا تُبْطِئَا [الطبري ١٦/١٦٨]، وعنه أيضاً: لا تَضْعُفَا، والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له، وقوله: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾؛ أي: تمرد وعتا على الله وعصاه ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهي أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا﴾ يا من يتحجب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟ وقال وهب بن منبه: قولاً له إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة، وعن عكرمة قال: لا إله إلا الله، وقال الحسن البصري: أعذرا إليه، قولاً له: إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة ونارا، وعن علي قال: كُنْه، وكذا روي عن سفيان الثوري: كنه بأبي مرة، والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين، ليكون أوقع في النفوس وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾؛ أي: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، أو يخشى؛ أي: يوجد طاعة من خشية ربه، فالتذكر الرجوع عن المحذور، والخشية تحصيل الطاعة، وقال الحسن البصري: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون: أهلكه قبل أن أعذر إليه، وهاهنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل، ويروى لأمية بن أبي الصلت فيما ذكره ابن إسحاق [ورواه عنه ابن هشام في السيرة ٢/٥٥].

بَعَثْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ رَسُولًا مُّتَادِيًا  
إِلَى اللَّهِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ بَاغِيًا  
بِلَا وَتَدٍ حَتَّى اسْتَقَلَّتْ كَمَا هِيََا  
بِلَا عَمَدٍ؟ أَرَفَقَ إِذْنُ بِكَ بَانِيَا  
مُنِيرًا إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ هَادِيَا  
فَيُصْبِحُ مَا مَسَّتْ مِنَ الْأَرْضِ ضَا حِيَا  
فَيُصْبِحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيَا  
فَنِي ذَاكَ آيَاتٍ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا

وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلٍ مَنْ وَرَحْمَةٍ  
فَقُلْتُ لَهُ: فَأَذْهَبْ وَهَارُونَ فَادْعُوا  
فَقُولَا لَهُ: هَلْ أَنْتَ سَوَّيْتَ هَذِهِ  
وَقُولَا لَهُ: أَأَنْتَ رَفَعْتَ هَذِهِ  
وَقُولَا لَهُ: أَأَنْتَ سَوَّيْتَ وَسْطَهَا  
وَقُولَا لَهُ: مَنْ يُخْرِجُ الشَّمْسَ بُكْرَةً  
وَقُولَا لَهُ: مَنْ يُنْبِتُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى  
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رُؤُوسِهِ

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ۖ﴾ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ۖ ﴿٤٦﴾ فَأَنبَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ ۖ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ﴾ (٤٨) .

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام، إنهما قالَا مستجيرين بالله تعالى شاكيتين إليه: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ يعنيان أن يُبْدِرَ إليهما بعقوبة أو يعتدي عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن يفرط: يَعْجَلُ [الطبري ١٦/ ١٧٠]، وقال مجاهد: ييسط علينا، وقال ابن عباس: يعتدي.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾؛ أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفي عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس، ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأبيدي.

وروى ابن أبي حاتم [١٠٢٩٨ نحوه] من طريق الأعمش عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: لما بعث الله ﷺ موسى إلى فرعون قال: رب أي شيء أقول؟ قال: قل هيا شراهما. قال الأعمش: فسر ذلك: أنا الحي قبل كل شيء والحي بعد كل شيء، إسناده جيد.

﴿فَأَنبَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ قد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس أنه قال: مكثا على بابهِ حيناً لا يؤذن لهما حتى أذن لهما بعد حجاب شديد.

وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِّنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: بمعجزة من ربك ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ ۖ﴾ أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى، ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً كان أوله: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرْقَلٍ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، فَأَسْلِمَ تَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ) [جزء من حديث طويل عند البخاري/ ٧، ومسلم/ ١٧٧٣]، ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ ۖ﴾ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ؛ أي: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۖ ﴿٢٧﴾ وَآثَرَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ۖ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٢٩].

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۖ﴾ (٥٢) .

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق إله كل شيء وربّه ومليكه، قال: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾؛ أي: الذي بعثك وأرسلك من هو، فإنني لا أعرفه وما

علمت لكم من إله غيري ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾. قال ابن عباس: يقول: خلق لكل شيء زوجة، وعنه أيضًا: جعل الإنسان إنسانًا، والحمار حمارًا، والشاة شاة، وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته، وعنه في رواية: سوى خلق كل دابة [الطبري ١٦/١٧٢].

وقال سعيد بن جبیر [كما روى الطبري بنحوه ١٦/١٧٢]: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهياً كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح، وقال بعض المفسرين: [هو] كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣]؛ أي: قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه؛ أي: كتب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحدون عنه ولا يقدر أحد على الخروج منه. يقول: ربنا الذي خلق الخلق، وقدر القدر، وجبل الخليقة على ما أراد.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ أصح الأقوال في معنى ذلك: أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى؛ أي: الذين لم يعبدوا الله؛ أي: فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك، بل عبدوا غيره، فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزئهم بعملهم ﴿فِي كِتَابٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾؛ أي: لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتقدس وتنزه، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان: أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر: نسيانه بعد علمه، فتره نفسه عن ذلك.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ۝٥٣﴾ ﴿وَمِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۝٥٤﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ۝٥٥﴾.

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه ﷻ حين سأل فرعون عنه، فقال: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾؛ أي: قرارًا تستقرون عليها، وتقومون وتنامون عليها، وتسافرون على ظهرها ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ أي: جعل لكم طرقًا تمشون في منابها كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾؛ أي: من أنواع النباتات من زروع وثمار، ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾؛ أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضرًا ويبسًا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾؛ أي: لدلالات وبراهين ﴿لِّأُولِي النَّهْيِ﴾؛ أي: لذوي العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه ﴿وَمِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾؛ أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من



أديم الأرض وفيها نعيديكم؛ أي: وإليها تصيرون إذا متم، ومنها نخرجكم تارة أخرى.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، وفي الحديث الذي في السُّنَنِ أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر ثم قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾، ثم أخذ أخرى، وقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، ثم أخرى، وقال: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [سُنَنِ ابْنِ مَاجَه/ ١٥٦٥ بنحوه، وقال البوصيري: إسناده صحيح].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾؛ يعني: فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات، وعاین ذلك وأبصره فكذب بها وأبأها كفرًا وبغيًا، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعبانًا عظيمًا، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال: هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك، وتكاثرنا بهم ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحرًا مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه، ﴿فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾؛ أي: يومًا نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم، ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ومعجزات الأنبياء وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ﴾؛ أي: جميعهم ﴿ضُحًى﴾؛ أي: ضحوة من النهار، ليكون أظهر وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم بين واضح، ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل ليلاً ولكن نهارًا ضحى، قال ابن عباس: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء، وقال السدي، وقتادة، وابن زيد: كان يوم عيدهم، وقال سعيد بن جبير: كان يوم سوقهم، ولا منافاة. قلت: وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت في «الصحيح» [كما روى البخاري/ ٤٤٠٣]، وقال وهب بن منبه: قال فرعون: يا موسى اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه. قال موسى: لم أؤمر بهذا إنما أمرت بمناجزتك إن أنت لم تخرج دخلت إليك، فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلاً، وقل له أن يجعل هو، قال فرعون: اجعله إلى أربعين يومًا، ففعل، وقال مجاهد، وقتادة: مكانًا سوى منصفًا، وقال السدي: عدلاً، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مستو يتبين الناس ما فيه، لا يكون صوب ولا شيء فيغيب بعض ذلك عن بعض مستو حين يرى [الأقوال السابقة بأسانيدھا عند الطبري ١٧٦/١٦].

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ ١٠٦ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَيْكُم لَا تَقْفَرُوا عَلَى اللَّهِ  
كَذِبًا فَيسْحِطْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ ١١١ ﴿فَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ  
قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ  
فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ ١١٦ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى ﷺ إلى وقت ومكان معلومين تولى؛ أي: شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان، وقد كان السحر فيهم كثيراً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩]، ثم أتى؛ أي: اجتمع الناس يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمناً ويسرة، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، يقولون: ﴿إِنَّا لَنَآ لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ١١١ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لُمَ الْمُفْرِينَ﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢]. ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَيْكُم لَا تَقْفَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: لا تحيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتهم على الله ﴿فيسْحِطْكُمْ بِعَذَابٍ﴾؛ أي: يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ ١١١ ﴿فَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقاتل يقول ليس هذا بكلام ساحر إنما هذا كلام نبي، وقاتل يقول بل هو ساحر، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾؛ أي: تناجوا فيما بينهم ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَٰنِ﴾ وهذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ: ﴿إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ﴾ وهذه اللغة المشهورة، والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعنون موسى وهارون - ساحران عالمان، خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة، ويقاتلا فرعون وجنوده، فينتصرا عليه، ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾؛ أي: ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر، فإنهم كانوا مُعْظَمِينَ بسببها لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم، وعن علي قال: يصرفا وجوه الناس إليهما، وقال مجاهد: أولي الشرف والعقل والأسنان، وقال أبو صالح: أشرافكم وسرواتكم، وقال عكرمة: بخيركم، وقال قتادة: وطريقتهما المثلى يومئذ بنو إسرائيل، وكانوا أكثر القوم عدداً وأموالاً، فقال عدو الله: يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما، وقال عبد الرحمن بن زيد: بالذي أنتم عليه [هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ١٦/١٨٢]. ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا﴾؛ أي: اجتمعوا كلكم صفًا واحدًا، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا

وأخاه ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْعَلَ﴾؛ أي: منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ﴿١٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا سَعَى ﴿١٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿١٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿١٨﴾ وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿١٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٢٠﴾.

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى ﷺ، أنهم قالوا لموسى: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَى﴾؛ أي: أنت أولاً ﴿وَلِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ﴿١٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا؛ أي: أنتم أولاً ليُرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جليلة أمرهم ﴿فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا سَعَى﴾ وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْوَتْهُمُ بَآءُو سِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال هاهنا: ﴿فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا سَعَى﴾ وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمعاً كثيراً، فألقى كل منهم عصاً وجبلاً حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضاً.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾؛ أي: خاف على الناس أن يُفْتَنُوا بسحرهم ويغترون بهم قبل أن يُلقَى ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ألقى ما في يمينك؛ يعني: عصاك، فإذا هي تلقف ما صنعوا وذلك أنها صارت تيناً عظيماً هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تُبق منها شيئاً إلا تلقفته وابتلغته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً ضحوة، فقامت المعجزة واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾، وروى ابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا أَخَذْتُمْ؛ يَعْنِي: السَّاحِرَ فَاقْتُلُوهُ)، ثم قرأ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ قال: (لَا يُؤْمَنُ بِهِ حَيْثُ وُجِدَ)، وقد روى أصله الترمذي موقوفاً ومرفوعاً [والحاكم وصححه ووافقه الذهبي]. فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوه علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجداً لله، وقالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، ولهذا قال ابن عباس وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة [الطبري ١٨٨/١٦]. وقال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفاً، وقال القاسم بن أبي بزة: كانوا سبعين ألفاً [الطبري ١٨٤/١٦]، وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفاً، وقال أبو ثمامة: كان سحرة فرعون تسعة عشرة ألفاً [ابن أبي حاتم نحوه عن كعب/ ٨٧٩٨]، وقال محمد بن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفاً، وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً.

وعن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء. قال الأوزاعي: لما خر السحرة سجداً، رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها، وعن سعيد بن جبير قال: رأوا منازلهم تبني لهم وهم في سجودهم [ابن أبي حاتم/ ٨٨١٠]، وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة.

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَادَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قُطْعَ بِيَدَيْكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صُلْبَيْنِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم، وغلب كل الغلب، شرع في المكابرة، وعدل إلى استعمال سلطانه في السحرة، فتهددهم وتوعددهم، وقال: ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ﴾؛ أي: صدقتموه ﴿قَبْلَ أَنْ ءَادَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: ما أمرتكم بذلك، وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه كذب: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾؛ أي: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، وانفقتم أنتم وإياه علي وعلى رعيتي لتظهروه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]. ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿فَلَا قُطْعَ بِيَدَيْكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صُلْبَيْنِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾؛ أي: لأجعلنكم مثله، ولأقتلنكم ولأشهرنكم، قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك، وقوله: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾؛ أي: أنتم تقولون: إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صال عليهم بذلك وتوعددهم، هانت عليهم أنفسهم في الله وَعَلَى ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، ﴿وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾ يحتتمل أن يكون قسماً، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البيئات، يعنون لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم المبتدي خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت، ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾؛ أي: فافعل ما شئت، وما وصلت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: إنما لك تسلط في هذه الدار وهي دار الزوال، ونحن قد رغبتنا في دار القرار ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا﴾؛ أي: ما كان منا من الآثام خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آية الله تعالى.

وعن ابن عباس [كما روى الطبري بنحوه ١٦/ ١٩٠] في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر، وقال: علموهم تعليمًا لا يعلمه أحد في الأرض، قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾؛ أي: خير لنا منك ﴿وَأَبْقَى﴾؛ أي: أدام ثواباً مما كنت وعدتنا ومينتنا، وهو رواية عن ابن إسحاق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال محمد بن كعب القرظي ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾؛ أي: لنا منك إن أطيع ﴿وَأَبْقَى﴾؛ أي: منك عذاباً إن عصي، وروي نحوه عن ابن إسحاق أيضاً، والظاهر أن فرعون - لعنه الله - صمم على ذلك، وفعله بهم رحمهم الله، ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾.

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نعمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد، فقالوا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾؛ أي: يلقي الله يوم القيامة وهو مجرم ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ كقوله: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، وروى الإمام أحمد بن حنبل [١١٠٩٢] عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ أَنَا نَصِيبُهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ، فَنُصِيبُهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْمًا، أُذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ، جِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرٌ، ضَبَائِرٌ، فُبْتُوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، فَيَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتُ الْحَبَّةِ تَكُونُ فِي حِمِلِ السَّيْلِ) قال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية، وأخرجه مسلم [١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾؛ أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمات، والمسكن الطيبات.

وفي «الصحيحين»: (أَنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَوْنَ مَنْ قَوْفَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوَكَبَ الْعَابِرَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، لِيَتَفَاضَلَ مَا بَيْنَهُمْ)، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء؟ قال: (بلى)، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ) [البخاري/٣٠٨٣ ومسلم/٢٨٣١ كلاهما بنحوه].

وقوله: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾؛ أي: إقامة، وهي بدل من الدرجات العلى ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ما كثرين أبداً ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾؛ أي: طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، وصدق المرسلين فيما جاؤوا به من خبر وطلب.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى﴾ (٧٧) فَأَنْبَعَثَ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾.

يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى ﷺ حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل أن يسري

وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْدَحَهُمُ النَّارَ وَيَسَّ الْوَرْدَ الْمَوْرُودَ﴾ [هود: ٩٨].

﴿٨٠﴾ كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَلِيَ لَغْفَارٍ لِّعَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ .

يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام، حيث أنجاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]، وروى البخاري [٤٤٦٠] عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وجد اليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: (نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى فَصُومُوهُ) رواه مسلم أيضًا في «صحيحه» [١١٣٠].

ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هناك، وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريباً، وأما المن والسلوى، فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى طائر يسقط عليهم فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد، لطفاً من الله ورحمة بهم وإحساناً إليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾؛ أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقكم، ولا تطغوا في رزقي فتأخذوه من

غير حاجة، وتخالفوا ما أمركم به ﴿فَيَجَلَّ عَلَيْكَ غَضَبِي﴾؛ أي: أغضب عليك ﴿وَمَنْ يَجَلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ قال ابن عباس: أي: فقد شقي [الطبري ١٦/١٩٤]، وقال شُعَيْبُ بْنُ مَاتَعٍ: إن في جهنم قصراً يُرْمَى الكافر من أعلاه، فيهوي في جهنم أربعين خريفاً قبل أن يبلغ الصلصال، وذلك قوله: ﴿وَمَنْ يَجَلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾.

وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾؛ أي: كل من تاب إليّ تبت عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿تَابَ﴾؛ أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق، وقوله: ﴿وَأَمَنَ﴾؛ أي: بقلبه، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾؛ أي: بجوارحه، وقوله: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ قال ابن عباس: أي: ثم لم يشكك [الطبري ١٦/١٩٤]، وقال سعيد بن جبير: أي: استقام على السُّنة والجماعة وروي نحوه عن مجاهد، والضحاك وغير واحد من السلف، وقال قتادة: أي: لزم الإسلام حتى يموت [الطبري ١٦/١٩٤]، وقال سفيان الثوري: أي: علم أن لهذا ثواباً، وثم هاهنا لترتيب الخبر على الخبر.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ (٨٢) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٣﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٤﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقُولُونَ لِمَ بَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٥﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقُورِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٦﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٧﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٨﴾﴾.

لما سار موسى ﷺ ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون وأتوا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ﴾ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَّجْهَلُونَ ﴿٨٢﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَنْطَلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٣﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] وواعده ربه ثلاثين ليلة، ثم أتبعها عشراً، فتمت أربعين ليلة؛ أي: يصومها ليلاً ونهاراً، وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك، فسارع موسى ﷺ مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ (٨٢) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَى؟ أي: قادمون ينزلون قريباً من الطور ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾؛ أي: لتزداد عني رضا ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري، وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة للتوراة كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِحَسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥]؛ أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

وقوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾؛ أي: بعدما أخبره تعالى بذلك في غاية الغضب والحنق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلّم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم، وهم قوم قد عبدوا غير الله، ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه، وسخافة عقولهم وأذهانهم، ولهذا رجع إليهم غضبان أسفًا، والأسف شدة الغضب، وقال مجاهد: أي: جزعًا، وقال قتادة والسدي: حزينًا على ما صنع قومه من بعده ﴿قَالَ يَبْقَوْنَ آلَٰمَ يَدْعُوكُمْ رَبِّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾؛ أي: أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة، كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من أياديهِ عندكم ﴿أَطَّالَ عَلَيْكُمْ ٱلْعَهْدُ﴾؛ أي: في انتظار ما وعدكم الله، ونسيان ما سلف من نعمه وما بالعهد من قَدَم.

﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أم هاهنا بمعنى بل، وهي للإضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتكم موعدي، قالوا أي بنو إسرائيل في جواب ما أثبهم موسى: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا﴾؛ أي: عن قدرتنا واختيارنا، ثم شرعوا يعتذرون بالعدو البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر، ففقدناها؛ أي: ألقيناها عنا، وقد تقدم في حديث الفتون أن هارون عليه السلام هو الذي كان أمرهم بإلقاء الحلي في حفرة فيها نار، وعن ابن عباس: إنما أراد هارون أن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة، ويُجعل حجرًا واحدًا، حتى إذا رجع موسى عليه السلام، رأى فيه ما يشاء ثم جاء بعد ذلك السامري فألقى عليها تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول، وسأل من هارون أن يدعو الله أن يستجيب له في دعوته، فدعا له هارون وهو لا يعلم ما يريد فأجيب له، فقال السامري عند ذلك: أسأل الله أن يكون عجلًا، فكان عجلًا له خوار؛ أي: صوت استدراجًا، واختبارًا، ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبَكَ ٱلْقَٰرِئُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ فَاخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ.

وعن ابن عباس: أن هارون مر بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما ينفع ولا يضر، فقال هارون: ٱللَّهُمَّ أعطه ما سأل على ما في نفسه، ومضى هارون، وقال السامري: ٱللَّهُمَّ إني أسألك أن يخور فخار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم [الحاكم في المستدرک/٣٢٥١]، وقال السدي: كان يخور ويمشي، فقالوا: أي الضلال منهم الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه: ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسَى﴾؛ أي: نسيه ها هنا وذهب يتطلبه، كما تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وقال ابن عباس: ﴿فَنَسَى﴾ أي: نسي أن يذكركم أن هذا إلهكم، وعن ابن عباس أيضًا: عكفوا عليه وأحبوه حبًّا لم يحبوا شيئًا قط مثله [ابن أبي حاتم بنحوه/٨٩٥٧]، يقول الله: ﴿فَنَسَى﴾؛ أي: ترك ما كان عليه من الإسلام؛ يعني: السامري، قال الله تعالى ردًّا عليهم وتقريعًا لهم وبيانًا لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ ٱلَّآلَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛



أي: العجل، أفلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ أي: في دنياهم ولا في آخرهم، قال ابن عباس رضي الله عنه: لا، والله وما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره، فيخرج من فمه فيسمع له صوت [روى ابن أبي حاتم بنحوه عن ابن جبير/ ٨٩٩٠]، وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب؛ يعني: هل يصلي فيه أم لا؟ فقال ابن عمر رضي الله عنه: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله؛ يعني: الحسين، وهم يسألون عن دم البعوضة [رواه البخاري/ ٥٦٤٨].

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ ﴿٩١﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ ﴿٩٢﴾.

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادة العجل وإخباره إياهم، إنما هذا فتنة لكم وإن ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾؛ أي: فيما أمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه، ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾؛ أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه، وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا أن يقتلوه.

﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ﴾ ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ﴿٩٤﴾.

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلاً عند ذلك غضباً وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وشرع يلوم أخاه هارون، فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾؛ أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ﴾؛ أي: فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ﴾ ترفق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾. هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، قال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾؛ أي: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس: وكان هارون هائباً له مطيعاً.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُ﴾ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ .

يقول موسى ﷺ للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟ قال ابن عباس: كان السامري رجلاً من قوم يعبدون البقر، وكان حبُّ عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل [الطبري ٢٨٢/١]، كان اسم السامري موسى بن ظفر [الطبري ٢٨٣/١]، وفي رواية عن ابن عباس أنه كان من كرمان، وقال قتادة: كان من قرية اسمها سامراً ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾؛ أي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾؛ أي: من أثر فرسه، وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم.

وقال مجاهد: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ قال: من تحت حافر فرس جبريل [الطبري ٢٠٥/١٦]، وقال مجاهد: نبذ السامري؛ أي: ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلًا جسداً له خوار حفيف الريح فيه فهو خواره. ولهذا قال: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾؛ أي: ألقيتها مع من ألقى ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾؛ أي: حسنته وأعجبها إذ ذاك ﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾؛ أي: كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول فعقوبتك في الدنيا أن تقول لا مساس؛ أي: لا تماس الناس ولا يمسونك. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ﴾؛ أي: لا محيد لك عنه، وقال قتادة: ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قال: عقوبة لهم وبقاياهم اليوم يقولون لا مساس.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ﴾ قال الحسن وقاتدة وأبو نهيك: لن تغيب عنه، وقوله: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾؛ أي: معبودك ﴿الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾؛ أي: أقمت على عبادته؛ يعني: العجل ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ قال ابن عباس والسدي: سحله بالمبارد وألقاه على النار، وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لحماً ودمًا، فحرقه بالنار، ثم ألقاه؛ أي: رماده في البحر، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾، وعن علي رضي الله عنه قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل، ثم صوره عجلًا، قال: فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد، فبرده بها وهو على شط نهر، فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب، فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً [ابن أبي حاتم/٥٣٢]، وهكذا قال السدي.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يقول لهم موسى ﷺ: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو؛ أي: لا يستحق ذلك

على العباد إلا هو ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه عبد لديه.

وقوله: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾؛ أي: هو عالم بكل شيء، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، فلا ﴿يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٣]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]، والآيات في هذا كثيرة جدًا.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿خَلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۖ﴾ ﴿١٠١﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا وقد آتيناك من لدنا؛ أي: من عندنا ذكرًا، هو القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، الذي لم يعط نبي من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد ﷺ كتابًا مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾؛ أي: كذب به وأعرض عن اتباعه أمرًا وطلبًا، وابتغى الهدى من غيره، فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء الجحيم، ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾؛ أي: إنما كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأُلْتَأْزَمُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [هود: ١٧]، وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هُدي ومن خالفه وأعرض عنه، ضلّ وشقي في الدنيا والنار موعده يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿خَلِدِينَ فِيهِ﴾؛ أي: لا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ وَلَا انْفِكَافَ ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾؛ أي: بِئْسَ الْحِمْلُ حَمْلُهُمْ.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۖ﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿يَخْخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۖ﴾ ﴿١٠٣﴾.

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور، فقال: (قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ) [رواه أحمد/ ٦٥٠٧]، وجاء في الحديث: (كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ التَّقَمَ الْقَرْنُ، وَحَتَّى جَبَّهَتْهُ، وَأَنْتَظَرُ أَنْ يُؤَدَّنَ لَهُ) فقالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: (قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا) [رواه الترمذي بنحوه/ ٢٤٣١ وقال: حسن].

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل: معناه رُزِقَ العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال ﴿يَخْخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يتسارون بينهم؛ أي: يقول بعضهم لبعض: إن لبثتم إلا عشرين؛ أي: في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلًا عشرة أيام أو نحوها، قال الله تعالى:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: في حال تناجيهم بينهم ﴿إِذْ يَقُولُ امْكُثْهُمْ طَرْفَةً﴾؛ أي: العاقل الكامل فيهم ﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾؛ أي: لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد؛ لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها، كأنها يوم واحد، ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾؛ أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾؛ أي: يُذْهِبُهَا عَنْ أَمَاكِنِهَا وَيَمْحَقُهَا ﴿فَيَذَرُهَا﴾؛ أي: الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾؛ أي: بساطًا واحدًا، والقاع هو المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذي لا نبات فيه، والأول أولى وإن كان الآخر مرادًا أيضًا باللازم، ولهذا قال: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾؛ أي: لا ترى في الأرض يومئذٍ واديًا ولا رابية ولا مكانًا منخفضًا ولا مرتفعًا، كذا قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصري وغير واحد من السلف.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾؛ أي: يوم يرون هذه الأحوال والأحوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادرُوا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا﴾ [مریم: ٣٨]، وقال محمد بن كعب القرظي: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، وتطوى السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد، فيتبع الناس الصوت فيأتونه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾ وقال قتادة: لا يميلون عنه، وقال أبو صالح: لا عوج عنه.

وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ قال ابن عباس: سكنت، وكذا قال السدي: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قال ابن عباس: يعني: وطء الأقدام، وكذا قال مجاهد، وقاتادة، وابن زيد وغيرهم، وقال ابن عباس أيضًا: الصوت الخفي [الطبري ١٦/٢١٤]، وهو رواية عن عكرمة، والضحاك، وقال سعيد بن جبیر ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: الحديث وسِرّه، ووطء الأقدام، فقد جمع سعيد كلا القولين، وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد سعي الناس إلى المحشر، وهو مشيهم في سكون وخضوع، وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ. عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ﴾؛ أي: عنده ﴿إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أِذْنُ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]، وفي «الصحيحين» من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على الله ﷻ أنه قال: (أَتَيْتُ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَأَخْبَرْتُ اللَّهَ سَاجِدًا، وَفُتِحَ عَلَيَّ بِمَحَامِدٍ لَا أَحْصِيهَا الْآنَ، فَبَدَعَنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعَنِي، ثُمَّ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ وَاشْفَعْ تُشْفَعُ) قال: (فَبَدَعْتُ لِي حَدًّا، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ)، فذكر أربع مرات، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء، وفي الحديث أيضًا: (يَقُولُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُ: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ نِصْفُ مِثْقَالٍ مِنْ إِيْمَانٍ، أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً، مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى مِثْقَالٍ ذَرَّةً مِنْ إِيْمَانٍ) الحديث [البخاري/٤٤٣٥] بالفاظ قريبة، ونحوه عند مسلم/١٩٤.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: يحيط علمًا بالخلائق كلهم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ. عِلْمًا﴾ كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: خضعت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، وهو قيم على كل شيء يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه لا قوام له إلا به.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾؛ أي: يوم القيامة، فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه حتى يقتصر للشاة الجماء من الشاة القرناء، وفي «الصحيح»: (إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [رواه مسلم/٢٥٧٨]، والخيبة كل الخيبة لمن لقي الله وهو به مشرك، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يُظلمون ولا يُهضمون؛ أي: لا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغير واحد، فالظلم الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم النقص.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ﴾  
 ﴿فَنَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ  
 زِدْنِي عِلْمًا ۖ﴾.

يقول تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعًا لا محالة، أنزلنا القرآن بشيرًا ونذيرًا بلسان عربي مبين، ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: يتركون المآثم والفواحش ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات ﴿فَنَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾؛ أي: تنزه الملك الحق الذي هو حق ووعدته حق، ووعيدته حق، وورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شيء منه حق، وعدله تعالى أن لا يعذب أحدًا قبل الإنذار وبعثه الرسل، والإعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، كقوله تعالى في سورة لا أقسم بيوم القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿إِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنِّي عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩]، وثبت في «الصحيح» [عند البخاري/٥] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك لسانه، فأنزل الله هذه الآية؛ يعني: أنه ﷺ كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾؛ أي: أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئًا ﴿إِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنِّي عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [متفق عليه]، وقال في هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾؛ أي: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراه بعده ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾؛ أي: زدني منك علمًا، قال ابن عيينة رحمه الله: ولم يزل ﷺ في زيادة من العلم حتى توفاه الله ﷻ، ولهذا جاء في الحديث: (إِنَّ اللَّهَ تَابَعَ الْوَحْيَ عَلَى رَسُولِهِ، حَتَّى كَانَ الْوَحْيُ أَكْثَرَ مَا كَانَ يَوْمَ تُوْفِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) [البخاري/٤٦٩٧ ومسلم/٣٠١٦ بنحوه].

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ۖ﴾ (١١٥) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۖ فَقُلْنَا يَنْتَادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۖ﴾ (١١٧) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ﴾ (١١٨) ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ۖ﴾ (١١٩) ﴿فَوْسَوْسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنْتَادِمُ هَلْ أَذْكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۖ﴾ (١٢٠) ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۖ﴾ (١٢١) ﴿ثُمَّ اجْبَنَاهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۖ﴾.

عن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان؛ لأنه عَهِدَ إليه فَنَسَى [الطبري/١٦/٢٢١]، وقال مجاهد

والحسن: تَرَكَ، وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم، وتكريمه وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً، وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة البقرة وفي الأعراف وفي الحجر والكهف، وسيأتي في آخر سورة «ص» إن شاء الله تعالى، يذكر تعالى فيها خَلَقَ آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، ويبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾؛ أي: امتنع واستكبر ﴿فَقُلْنَا يَتَّخِذُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجَالِكَ﴾؛ يعني: حواء ﴿فَلَا يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾؛ أي: إياك أن يسعى في إخراجك منها فتتعب وتشقى في طلب رزقك، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء، لا كلفة ولا مشقة ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ إنما قرن بين الجوع والعري، لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ وهذان أيضاً متقابلان، فالظما حر الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر.

وقوله: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُ هَلْ أَتُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ قد تقدم أنه دلاهما بغرور ﴿وَفَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرة الخلد؛ يعني: التي من أكل منها خلد ودام مكثه، وقوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب، وكذا قال قتادة والسدي، قال ابن عباس: ينزعان ورق التين فيجعلانه على سواتهما.

وقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ﴿١٣١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ روى البخاري [٣٢٢٨] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (حَاجَّ مُوسَى آدَمَ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشَقَّيْتَهُمْ؟ قَالَ آدَمُ: يَا مُوسَى، أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ، أَتُلَوْنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي أَوْ قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي) قال رسول الله ﷺ: (فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى) [ورواه مسلم/ ٢٦٥٢].

﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ﴿١٣٢﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٣٣﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ ﴿١٣٤﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ ﴿١٣٥﴾

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً؛ أي: من الجنة كلكم ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته، وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ قال ابن عباس [كما روى الطبري ٢٢٥/١٦]: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾؛ أي: خالف أمري وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداية ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾؛ أي: ضنكاً في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشرح لصدره، بل صدره ضيق حرج

لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة.

قال ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَهُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: الشقاء، وعنه أيضًا قال: كل مال أعطيته عبدًا من عبادي قل أو كثر، لا يتقيني فيه، فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة، ويقال: إن قومًا ضلًا لا أعرضوا عن الحق، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكًا، وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلقًا لهم معاشهم من سوء ظنهم بالله والتكذيب، فإذا كان العبد يكذب بالله ويُسِيء الظن به، اشتدت عليه معيسته، فذلك الضنك، وقال الضحاك: هو العمل السيء، والرزق الخبيث، وكذا قال عكرمة ومالك بن دينار.

وعن أبي سعيد قال: يُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ فِيهِ [انظر الطبري ٢٢٦/١٦ وما بعدها]. وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ قال مجاهد، وأبو صالح والسدي: لا حجة له، وقال عكرمة: عُمِيَ عليه كل شيء إلا جهنم، ويحتمل أن يكون المراد: أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ولهذا يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾؛ أي: في الدنيا ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَكَ ءَايَتُنَا فَتَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْشَىٰ﴾؛ أي: لما أعرضت عن آيات الله، وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك نعاملك اليوم، فإن الجزاء من جنس العمل، فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلًا في هذا الوعيد الخاص.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٢٧).

يقول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤] ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾؛ أي: أشد ألمًا من عذاب الدنيا وأدوم عليهم، فهم مخلصون فيه.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ (١٢٨) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (١٢٩) ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (١٣٠).

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد، كما أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسول قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها يمشون فيها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾؛ أي: العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي



أَصْدُرُوا ﴿[الحج: ٤٦]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾؛ أي: لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجاءهم العذاب بغتة، ولهذا قال لنبيه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: من تكذيبهم لك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾؛ يعني: صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾؛ يعني: صلاة العصر، كما جاء في «الصحيحين» عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: (إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا) ثم قرأ هذه الآية [البخاري/٥٢٩ ومسلم/٦٣٣].

وقوله: ﴿وَمِنْ آتَايَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾؛ أي: من ساعاته فتعبد به، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافِ النَّهَارِ﴾ في مقابلة آناء الليل ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥]، وفي «الصحيح»: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أَهْلَ الْبَيْتِ، لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ، وَقَدْ أُعْطِينَنَا مَا لَمْ نَطْغِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَجَلٌ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا) [البخاري/٦١٨٣ ومسلم/٢٨٢٩].

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾  
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (٢٣٦)

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وما هم فيه من النعيم، وإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور، وقال مجاهد: ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾؛ يعني: الأغنياء، فقد آتاك خيرًا مما آتاهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمُنَافِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٢٧) ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الآخرة أمر عظيم لا يحد ولا يوصف، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، ولهذا قال: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، وفي «الصحيح»: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فرآه متوسدًا مضطجعًا على رمال حصير، وليس في البيت إلا صبرة من قرظ وأهب معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال له رسول الله ﷺ: (مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ؟) فقال: يا رسول الله إن كسرى وقىصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: (أَوْ فِي شَكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ أُولَئِكَ قَوْمٌ عَجَّلَتْ لَهُمْ طَبِيبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا) [البخاري/٢٣٣٦ ومسلم/١٤٧٩]، فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئًا لغد.

وقال قتادة والسدي: ﴿زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ يعني: زينة الحياة الدنيا، وقال قتادة: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ

فِيهِمْ لِنَبْتَلِيهِمْ، وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾؛ أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]، وعن زيد بن أسلم عن أبيه: أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويرفأ، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها، فربما لم يقم، فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا استيقظ أقام؛ يعني: أهله، وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

وقوله: ﴿لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾؛ يعني: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ ﴿٢﴾ وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۖ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۖ ﴿٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] ولهذا قال: ﴿لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، وقال الثوري: لا نكلفك الطلب، وقوله: ﴿وَالْعَنَاقِبَةُ لِلنَّقْوَى﴾؛ أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة لمن اتقى الله، وفي «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال: (رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ كَأَنَّ فِي دَارِ عُقْبَةَ بْنِ رَافِعٍ، وَأَنَا أُتِينَا بِرُطَبٍ مِنْ رُطَبِ ابْنِ طَابٍ، فَأَوَّلْتُ ذَلِكَ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَنَا فِي الدُّنْيَا وَالرَّفْعَةَ، وَأَنْ دِينَنَا قَدْ طَابَ) [رواه مسلم/ ٢٢٧٠].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ۖ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ ۖ الْأُولَى ۖ ﴿٢٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِي ۖ ﴿١٣٢﴾ قُلْ كُلُّ مُرَيْضٍ فَتْرِيصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ۖ ﴿١٣٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم: ﴿لَوْلَا﴾؛ أي: هلا يأتينا محمد بآية من ربه؛ أي: بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ ۖ الْأُولَى﴾؛ يعني: القرآن الذي أنزله عليه الله، وهو أُمِّي لا يحسن الكتابة ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَتٌ مِنْ رَبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا أَلْأَيْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۖ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١] وفي «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَىٰ مَثَلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [البخاري/ ٤٦٩٦؛ ومسلم/ ١٥٢]، وإنما ذكر هاهنا أعظم الآيات التي أعطاها ﷺ، وهو القرآن، وإلا فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر، كما هو مودع في كتبه ومقرر في مواضعه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾؛ أي: لو أننا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم هذا

الكتاب العظيم، لكانوا قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه، كما قال: ﴿فَتَتَّبِعْ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين معاندون لا يؤمنون ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٧]، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾؛ أي: يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره ﴿كُلُّ مُتْرِصٍّ﴾؛ أي: منا ومنكم ﴿فَتَرِيصُوا﴾؛ أي: فانتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾؛ أي: الطريق المستقيم ﴿وَمَنْ أَهْتَدَى﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢].



## تفسير سورة الأنبياء وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) مَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مِّن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَّهِيبَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ (٣) قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمَ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِنَا إِنَّا نَشَاءُ كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ (٥) مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) .

هذا تنبيه من الله ﷻ على اقتراب الساعة، وأن الناس في غفلة عنها؛ أي: لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها، وروى النسائي [١١٣٣٢] عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: (في الدنيا) [وهو صحيح]، وقال تعالى: ﴿أَفَنُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَلَا نَسْتَعِجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانئ أبي نواس الشاعر أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول:

النَّاسُ فِي غَفْلَتِهِمْ وَرَحَى الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ

فقيل له: من أين أخذ هذا؟ قال من قول الله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾. ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿مَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مِّن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ﴾؛ أي: جديد إنزاله ﴿إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كما قال ابن عباس: ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يشب، رواه البخاري [٦٩٢٩] بنحوه.

وقوله: ﴿وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: قائلين فيما بينهم خفية ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ يعنون رسول الله ﷺ يستعدون كونه نبياً؛ لأنه بشر مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم، ولهذا قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾؛ أي: أفتتبعونه فتكونون كمن أتى السحر وهو يعلم أنه سحر، فقال تعالى مجيباً لهم عما اختلقوه من الكذب: ﴿قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض.

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: السميع لأقوالكم والعليم بأحوالكم، وفي هذا تهديد لهم ووعيد، وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلِمٌ بَلْ أَفْتَنَهُ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار والحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه وضلالهم عنه، فتارة يجعلونه سحرًا، وتارة يجعلونه شعراء، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]، وقوله: ﴿فَلْيَأْنَسَا بَيَاقُوتَ كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ﴾؛ يعنون كناية صالح، وآيات موسى وعيسى، وقد قال الله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتُنَا نَمُودُ النَّافَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: ما آتينا قرية من القرى التي بعث فيها الرسل آية على يدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأبهر وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾

يقول تعالى رادًا على من أنكر بعثة الرسل من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالًا من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْفُرْقَانِ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشرًا أو ملائكة؟ وإنما كانوا بشرًا، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه إذ بعث فيهم رسلًا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾؛ أي: بل قد كانوا أجسادًا يأكلون الطعام كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]؛ أي: قد كانوا بشرًا من البشر يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئًا، كما توهمه المشركون في قولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كِذْبٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رِجَالًا مَسْحُورًا ۝٨ أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾؛ أي: في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله ﷻ، وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾؛ أي: الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين، صدقهم الله وعده ففعل ذلك، ولهذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾؛ أي: أتباعهم من المؤمنين ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: المكذبين بما جاءت به الرسل.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ١٠ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ١١ ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ١٢ ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ﴾ ١٣ ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ١٤ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ ١٥.

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن ومحرضاً لهم على معرفة قدره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قال ابن عباس: شَرَّفُكُمْ. وقال مجاهد: حديثكم [الطبري ٦/١٧]، وقال الحسن: دينكم، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: هذه النعمة، وتتلقونها بالقبول، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُشْتَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَبْلِهِ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا تَارِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥]، وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾؛ أي: أمة أخرى بعدهم ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾؛ أي: يتقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾؛ أي: يفرون هاربين ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ﴾ هذا تهكم بهم قيل لهم: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة. قال قتادة: استهزاء بهم [الطبري ٨/١٧]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ﴾؛ أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعم، ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾؛ أي: ما زالت تلك المقالة، وهي الاعتراف بالظلم هجيراهم حتى حصدناهم حصداً، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ﴾ ١٦ ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَا تَخَذُكُنَّ مِنْ لَدُنَّا إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ١٧ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ١٨ ﴿وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكَرِبُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْشِرُونَ﴾ ١٩ ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ٢٠.

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق؛ أي: بالعدل والقسط، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً كما قال:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قال مجاهد: يعني: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا نارًا ولا موتًا، ولا بعثًا ولا حسابًا، وقال الحسن وقتادة وغيرهما: اللهو المرأة بلسان أهل اليمن، وقال إبراهيم النخعي: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْتَهُ﴾ من الحور العين، وقال عكرمة والسدي: والمراد باللهو هاهنا: الولد [هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ١٧/١٠]، وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ﴾ [الزمر: ٤]، فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقًا، لا سيما عما يقولون من الإفك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزير أو الملائكة ﷺ عما يقولون علوًا كبيرًا.

وقوله: ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قال قتادة، والسدي، وإبراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم: أي: ما كنا فاعلين [الطبري ١٧/١٠]، وقال مجاهد: كل شيء في القرآن «إن» فهو إنكار، وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾؛ أي: نبين الحق فيدحض الباطل، ولهذا قال: ﴿فَيَذْمُوهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾؛ أي: ذاهب مضمحل ﴿وَلَكُمْ أَلْوِيلٌ﴾؛ أي: أيها القائلون لله ولد ﴿مِمَّا نَصِفُونَ﴾؛ أي: تقولون وتفترون، ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ودأبهم في طاعته ليلاً ونهارًا، فقال: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾؛ يعني: الملائكة ﴿لَا يَسْتَكَرِبُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾؛ أي: لا يستنكفون عنها، كما قال: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسَكَرَ فسيحشرهم إليَّ جميعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾؛ أي: لا يتعبون ولا يملون ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهارًا، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال عبد الله بن الحارث بن نوفل: جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرايت قول الله تعالى للملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أما يشغلهم عن التسييح الكلام والرسالة والعمل، فقال: فمن هذا الغلام؟ فقالوا: من بني عبد المطلب، قال: فقبل رأسي ثم قال: يا بني إنه جعل لهم التسييح كما جعل لكم النفس، أليس تتكلم وأنت تتنفس وتمشي وأنت تتنفس؟ [الطبري ١٧/١٢ - ١٣].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (٢٣).

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾؛ أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؛ أي: لا يقدرُونَ على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله ندًا وعبدوها معه، ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفست السموات والأرض، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ﴾؛ أي: في السموات والأرض ﴿لَفَسَدَتَا﴾ كقوله تعالى:

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال هاهنا: ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾؛ أي: عما يقولون أن له ولداً أو شريكاً ﷻ وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

وقوله: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾؛ أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وكبريائه وعلوه وحكمته وعدله ولطفه، ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾؛ أي: وهو سائل خلقه عما يعملون كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهِنَّ أجمعِينَ﴾ (٩٢) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥).

يقول تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾؛ أي: دليلكم على ما تقولون ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ﴾؛ يعني: القرآن ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾؛ يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ كما قال: ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاطَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفترة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (٢٦) ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٨) ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٢٩).

يقول تعالى رداً على من زعم أن له تعالى وتقدس ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله فقال: ﴿سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾؛ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.



وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، في آيات كثيرة في معنى ذلك. ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾؛ أي: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ﴾ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَهُ مِثْلِي مِنْ دُونِهِ؛ أي: من ادعى منهم أنه إله من دون الله؛ أي: مع الله ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لَنْ أَشْرَكَ بِحَبْطِ عَمَلِكُ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ عَابِثِهَا مُعِزُّونَ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٣﴾.

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يُعبد معه غيره، أو يُشرك به ما سواه، ألم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً؛ أي: كان الجميع متصلاً ببعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمرت السماء وأنبت الأرض، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: وهم يشاهدون المخلوقات تُحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع المختار القادر على ما يشاء.

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهٗ آيَةٌ تَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرايتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار، وعن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك، قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال ابن عباس: نعم كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً، صدق هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن علمت أنه قد أوتي في القرآن علماً، وقال عطية العوفي: كانت هذه رتقاً لا تمطر فأمرت، وكانت هذه رتقاً لا تنبت فأنبت [الطبري ١٩/١٧].

وقال إسماعيل بن أبي خالد: سألت أبا صالح الحنفي عن قوله: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ قال: كانت السماء واحدة ففتق منها سبع سموات، وكان الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين، وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن السماء والأرض متماستين، وقال

سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه، وقال الحسن وقتادة: كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾؛ أي: أصل كل الأحياء منه، وروى الإمام أحمد [٧٩١٩] عن أبي هريرة قال: قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء، قال: (كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ) قال: قلت أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة قال: (أَفْشِ السَّلَامَ، وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ، وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ) [رواه ابن حبان/٥٠٨ بنحوه والحاكم/٧١٧٤ وصحاحه]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جبلاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس؛ أي: تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم عليها قرار، ولهذا قال: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾؛ أي: لئلا تميد بهم، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾؛ أي: ثغراً في الجبال يسلكون فيها طريقاً من قطر إلى قطر ومن إقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة ليسلك الناس فيها من هاهنا إلى هاهنا، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْكَاً﴾؛ أي: على الأرض وهي كالقبة عليها، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِإِثْنَيْنِ وَإِنَّا لَمَوَسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، والبناء هو نصب القبة، كما قال رسول الله ﷺ: (بُني الإسلام على خمس) [البخاري/٨ ومسلم/١٦]؛ أي: خمسة دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهده العرب ﴿مَحْفُوظًا﴾؛ أي: عالياً محروساً أن ينال، وقال مجاهد: مرفوعاً.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ عَائِنِهَا مُعْرِضُونَ﴾ كقوله: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]؛ أي: لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة، ففسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها، ثم قال منبهاً على بعض آياته: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾؛ أي: هذا في ظلامه وسكونه وهذا بضياؤه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ هذه لها نور يخصصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]؛ أي: يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة، قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ لَخُلْدُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٣٥﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ أي: يا محمد ﴿الْخُلْدَ﴾؛ أي: في الدنيا بل ﴿كُلُّ

مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ ﴿٣٦﴾ وَيَتَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿الرحمن: ٢٦، ٢٧﴾، وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات وليس بحي إلى الآن؛ لأنه بشر سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾، وقوله: ﴿أَفَايُنَ مَتَّ﴾؛ أي: يا محمد ﴿فَهُمْ لَخَالِدُونَ﴾؛ أي: يؤملون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كل إلى الفناء، ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾؛ أي: نختبركم بالمصائب تارة وبالنعيم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال ابن عباس: ﴿وَنَبْلُوكُمْ﴾ يقول نبليكم ﴿بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال [الطبري ١٧/٢٥]، وقوله: ﴿وَاللَّيْنَا تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: فنجازيكم بأعمالكم.

﴿وَإِذَا رَأَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الْرَحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِذَا رَأَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ يعني: كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ أي: يستهزئون بك وينتقصونك، يقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ يعنون بهذا الذي يسب آلهتهم ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الْرَحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾؛ أي: وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ ﴿٣٦﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]؛ أي: في الأمور. قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار، من يوم خلق الخلائق، فلما أحيا الروح عينية ولسانه ورأسه، ولم يبلغ أسفله، قال: يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس. وروى ابن أبي حاتم عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُهْبِطَ مِنْهَا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا مُؤْمِنٌ يُصَلِّي - وَقَبَضَ أَصَابِعَهُ يَقْلُلُهَا - فَسَأَلَ اللَّهُ خَيْرًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ)، قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفت تلك الساعة، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة [رواه الحاكم/ ١٠٣٠، وأصله عند مسلم/ ٨٥٤]، وهي التي خلق الله فيها آدم، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [وأصله في «الصحيحين» وغيرهما].

والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ

عَجَلَ؛ لَأَنَّهُ تَعَالَى يَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ، يُؤْجَلُ ثُمَّ يَعْجَلُ، وَيَنْظُرُ ثُمَّ لَا يُؤْخِرُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾؛ أَي: نَقَمِي وَاقْتِدَارِي عَلَى مَنْ عَصَانِي ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُورُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾.

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمَشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ أَيْضًا بِوُقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ، تَكْذِيبًا وَكُفْرًا وَاسْتِعْجَادًا، فَقَالَ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُورُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾؛ أَي: لَوْ تَيَقَّنُوا أَنَّهُمَا وَاقِعَةٌ بِهِمْ لَا مُحَالَةٌ لَمَا اسْتَعْجَلُوا بِهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ حِينَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴿لَهُمْ مِنْ قُوَّتِهِمْ ظُلٌّ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلٌّ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قُوَّتِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿حِينَ لَا يَكْفُورُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ فَالْعَذَابُ مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾؛ أَي: لَا نَاصِرَ لَهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾؛ أَي: تَأْتِيهِمُ النَّارُ بَغْتَةً؛ أَي: فَجَاءَةً، ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾؛ أَي: تَذَعَّرَهُمْ، فَيَسْتَسْلِمُونَ لَهَا حَائِرِينَ وَلَا يَدْرُونَ مَا يَصْنَعُونَ، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾؛ أَي: لَيْسَ لَهُمْ حِيلَةٌ فِي ذَلِكَ، ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾؛ أَي: وَلَا يُؤْخَرُ عَنْهُمْ ذَلِكَ سَاعَةً وَاحِدَةً.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤١) قُلْ مَن يَكْلُوكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾.

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرُسُولِهِ عَمَّا آذَاهُ بِهِ الْمَشْرِكُونَ مِنَ الْاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ يَعْنِي: مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي كَانُوا يَسْتَعْبِدُونَ وَقُوعَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَاصْبِرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْفُرْسَيْنِ﴾ [الأنعام: ٣٤]. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى نِعْمَتَهُ عَلَىٰ عِبِيدِهِ فِي حِفْظِهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَكَلَامَتِهِ لَهُمْ بِعَيْنِهِ الَّتِي لَا تَنَامُ، فَقَالَ: ﴿قُلْ مَن يَكْلُوكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾؛ أَي: بِدَلِ الرَّحْمَنِ بِمَعْنَى غَيْرِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾؛ أَي: لَا يَعْتَرِفُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، بَلْ يَعْرِضُونَ عَنْ آيَاتِهِ وَأَلَاءِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا﴾ اسْتَفْهَامُ إِنكَارٍ وَتَقْرِيعٍ وَتَوْبِيخٍ؛ أَي: أَلَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ وَتَكْلُؤُهُمْ غَيْرَنَا؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَوَهُمُوا، وَلَا كَمَا زَعَمُوا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أَي: هَذِهِ الْآلِهَةُ الَّتِي اسْتَدْنُوا إِلَيْهَا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَي:

يجارون [الطبري ٣١/١٧]، وقال قتادة: لا يصحبون من الله بخير، وقال غيره: يمنعون.

﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [٤٤] قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [٤٧].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم متعوا في الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء، ثم قال واعظاً لهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة الرعد وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، وقال الحسن البصري: يعني بذلك: ظهور الإسلام على الكفر، والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾؛ يعني: بل هم المغلوبون الأردلون.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾؛ أي: إنما أنا مبلغ عن الله ما أُنذركم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ أي: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعترفن بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدنيا، وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾؛ أي: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ) [البخاري/ ٦٣٠٤ ومسلم/ ٢٦٩٤].

وروى الإمام أحمد [٦٩٩٤] عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِّنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سِجِلًا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمْتُكَ كَتَبْتَنِي الْحَافِظُونَ؟

قَالَ: لَا يَا رَبِّ، قَالَ: أَفَلَاكَ عُذْرٌ، أَوْ حَسَنَةٌ؟ قَالَ: فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرِجُ لَهُ بِطَاقَةً فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَظْلُمُ، قَالَ: فَتَوَضَّعَ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، قَالَ: وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ورواه الترمذي [٢٦٣٩] وابن ماجه [٤٣٠٠]، وقال الترمذي: حسن غريب [وصححه جماعة من أهل العلم].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٥٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ قال مجاهد: يعني: الكتاب، وقال أبو صالح: التوراة، وقال قتادة: التوراة حلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل، وقال ابن زيد: يعني: النصر، وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية تشتمل على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يُحْصَلُ نوراً في القلوب، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية، ولهذا قال: ﴿الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: تذكيراً لهم وعظة، ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ كقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]. ﴿وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾؛ أي: خائفون وجلون، ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾؛ أي: أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور؟

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَافِظُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادَةً ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل؛ أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣].

والمقصود هاهنا أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل؛ أي: من قبل ذلك، وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾؛ أي: وكان أهلاً لذلك، ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَافِظُونَ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيته من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله تعالى، فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَافِظُونَ﴾؛ أي: معتكفون على

عبادتها. ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبْدِينَ﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: الكلام مع آبائكم الذي احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، فلما سفّه أحلامهم وضلل آباءهم واحترق آلهتهم ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أم محققاً فيه، فإننا لم نسمع به قبلك. ﴿قَالَ بَلْ زَكَّيْتُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾؛ أي: ربكم الذي لا إله غيره، وهو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَتَتْ فَأَعَلَتْ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَشَتُّوهُمْ إِنَّ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ .

ثم أقسم الخليل قسمًا أسمع به بعض قومه ليكيدن أصنامهم؛ أي: ليحرصن على أذهابهم وتكسيهم بعد أن يولوا مدبرين؛ أي: إلى عيدهم، وكان لهم عيد يخرجون إليه، قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه: يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض، وقال: إني سقيم فجعلوا يمشون عليه وهو صريع فيقولون: مه، فيقول: إني سقيم، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾ فسمعه أولئك، وقال عبد الله بن مسعود: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم، وقد كان بالأمس، قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ فسمعه ناس منهم [ذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٦/ ١٨١].

وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾؛ أي: حطامًا كسرها كلها، إلا كبيرًا لهم؛ يعني: إلا الصنم الكبير عندهم، كما قال: ﴿فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ صَرِيحًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٩٣]، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: في صنيعه هذا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾؛ أي: قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم: سمعنا فتًى؛ أي: شابًا، يذكُرهم يقال له: إبراهيم. قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًا إلا شابًا ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

وقوله: ﴿قَالُوا فَأَنَّى يُدْعَىٰ عَلَىٰ أَغْنَىٰ النَّاسِ﴾؛ أي: على رؤوس الأشهاد في الملاء الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يتبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام، التي لا تدفع عن نفسها ضرراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟ ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا؛ يعني: الذي تركه لم يكسره ﴿فَتَلَوْهُمْ إِنَّ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم؛ لأنه جماد.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لَمْ يَكْذِبْ غَيْرَ ثَلَاثٍ: ثُنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ قَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩] - قَالَ - وَبَيْنَا هُوَ يَسِيرُ فِي أَرْضِ جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَّارَةِ وَمَعَهُ سَارَةٌ، إِذْ نَزَلَ مِنْزَلاً فَأَتَى الْجَبَّارَ رَجُلٌ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِأَرْضِكَ رَجُلٌ مَعَهُ امْرَأَةٌ أَحْسَنُ النَّاسِ، فَأَرْسَلْ إِلَيْهِ فَجَاءَ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنْكَ؟ قَالَ: أُخْتِي. قَالَ: فَادْهَبْ فَأَرْسِلْ بِهَا إِلَيَّ، فَانْطَلَقَ إِلَى سَارَةِ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ قَدْ سَأَلَنِي عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكَ أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبْنِي عِنْدَهُ، فَإِنَّكَ أُخْتِي فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ، فَانْطَلَقَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَلَمَّا أَنْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ فَرَأَاهَا أَهْوَى إِلَيْهَا، فَتَنَّاوَلَهَا، فَأَخَذَ أَخْذًا شَدِيدًا فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضْرُكَ، فَدَعَتْ لَهُ، فَأَرْسَلَ فَأَهْوَى إِلَيْهَا، فَتَنَّاوَلَهَا فَأَخَذَ بِمِثْلِهَا أَوْ أَشَدَّ، فَفَعَلَ ذَلِكَ الثَّلَاثَةَ فَأَخَذَ فَذَكَرَ مِثْلَ الْمَرْتِنِ الْأُولَيْنِ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ فَلَا أَضْرُكَ، فَدَعَتْ لَهُ فَأَرْسَلَ، ثُمَّ دَعَا أَذْنَى حُجَّابِهِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ، وَلَكِنَّكَ أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ، أَخْرِجْهَا وَأَعْطِهَا هَاجِرَ، فَأَخْرِجَتْ وَأَعْطِيَتْ هَاجِرَ، فَأَقْبَلَتْ، فَلَمَّا أَحَسَّ إِبْرَاهِيمُ بِمَجِيئِهَا، انْفَتَلَ مِنْ صَلَاتِهِ، وَقَالَ: مَهَيْم؟ قَالَتْ: كَفَى اللَّهُ كَيْدَ الْكَافِرِ الْفَاجِرِ، وَأَخْدَمَنِي هَاجِرَ) [البخاري/ ٣١٧٩ بلفظ قريب ومسلم بنحوه/ ٢٣٧١].

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿١٩﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٢٠﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: في ترككم لها مهملة لا حافض عندها، ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾؛ أي: ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾. قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾. وقال السدي: ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾؛ أي: في الفتنة، وقال ابن زيد: أي: في الرأي [الطبري ٤٢/١٧]، وقول قتادة أظهر في المعنى؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً، ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا



ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَفْعَلُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾؛ أي: إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر، فلم تعبدونها من دون الله؟ ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل، فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣].

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٦٨) ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧٠).

لما دحضت حجّتهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملّكهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾، فجمعوا حطبًا كثيرًا جدًّا، قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض فتندر إن عوفيت أن تحمل حطبًا لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في جوبة من الأرض وأضرموها نارًا، فكان لها شر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل، فلما ألقوه قال: حسبي الله ونعم الوكيل، كما رواه البخاري [٤٢٨٧] عن ابن عباس أنه قال: حسبي الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكَ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقال سعيد بن جبیر [كما روى الطبري ٤٤/١٧] - ويروى عن ابن عباس أيضًا - قال: لما ألقى إبراهيم، جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: لم يبق نار في الأرض إلا طفئت، وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أحد يومئذ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه.

وعن علي بن أبي طالب [كما روى الطبري ٤٤/١٧] ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: لا تضريه، وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله سبحانه قال: وسلامًا لأذى إبراهيم برّدها [رواه ابن أبي حاتم/١٧٢٣٦]، وعن الضحاك قال: صنعوا له حظيرة من حطب جزل، وأشعلوا فيه النار من كل جانب، فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى أخمدها الله، قال: ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق، فلم يصبه منها شيء غير ذلك، وقال السدي: كان معه فيها ملك الظل.

وعن أبي هريرة قال: إن أحسن شيء قال أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار: وجده يرشح جبينه، قال عند ذلك: نعم الرب ربك يا إبراهيم [الطبري ٤٤/١٧]، وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوزغ [الطبري ٤٥/١٧]، وروى ابن أبي حاتم عن مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت: دخلت على عائشة، فرأيت في بيتها رمحًا، فقلت: يا أم

المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاع، إن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ دَابَّةً إِلَّا تُطْفِئُ النَّارَ، غَيْرَ الْوَزْغِ، فَإِنَّهُ كَانَ يَنْفُخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ)، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله [ورواه أحمد/ ٢٤٥٧٨ والنسائي/ ٣٨١٤ وصححه الألباني]، وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾؛ أي: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك، وقال عطية العوفي: لما ألقى إبراهيم في النار، جاء ملكهم لينظر إليه، فطارت شرارة فوقعت على إبهامه، فأحرقتة مثل الصوفة.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧١) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٧٢) ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ (٧٣) ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَرِيكَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَلَسِقِينَ﴾ (٧٤) ﴿وَادْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥).

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار قومه وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها، كما قال أبي بن كعب في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الشام، وكذا قال أبو العالية أيضاً، وقال قتادة: كان بأرض العراق، فأنجيا إلى الشام، وكان يقال للشام عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد في الشام، وما نقص من الشام زيد في فلسطين [الطبري ٤٦/١٧]، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم ﷺ، وبها يهلك المسيح الدجال.

وقال كعب الأحبار في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ إلى حران، وقال ابن عباس: إلى مكة، ألا تسمع إلى قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦] [الطبري ٤٧/١٧].

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال عطاء ومجاهد: عطية وقال ابن عباس، وقاتدة والحكم بن عتيبة: النافلة ولد الولد؛ يعني: أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة، ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾؛ أي: الجميع أهل خير وصلاح، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾؛ أي: يُقْتَدَى بِهِمْ، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾؛ أي: يدعون إلى الله بإذنه، ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، ﴿وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾؛ أي: فاعلين لما يأمرهم الناس به، ثم عطف بذكر لوط، وكان قد آمن بإبراهيم، واتبعه وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فَنَادَى لَهُ لُوطُ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فاتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه إلى سدوم وأعمالها، فخالفوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودمر عليهم، كما قص

خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز، ولهذا قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ۖ﴾ (٧٦) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ .

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۖ﴾ (٧٦)  
وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ﴾ (٧٧) .

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَ الصَّارِعُ﴾ [الفسر: ١٠]، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۖ﴾ (٧٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ۖ﴾ ؛ أي: الذين آمنوا به، كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] .

وقوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ؛ أي: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله ﷻ فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يقصدون لأذاه ويتواصون قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل على خلافه، وقوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ ؛ أي: ونجيناه وخلصناه منتصرًا من القوم ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ؛ أي: أهلكهم الله بعامته، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحدًا، كما دعا عليهم نبيهم .

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۖ﴾ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۖ﴾ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ۖ﴾ (٨٠) وَسَلَّيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ۖ﴾ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُّ لَهُ وَيَعْمَلُوكَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ۖ﴾ (٨٢) .

قال ابن عباس: النفس الرعي، وقال شريح والزهري وقتادة: النفس لا يكون إلا بالليل، زاد قتادة: والهملُ بالنهار [الطبري ٥٣/١٧]، وعن ابن مسعود في قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال: كرم قد أنبت عناقيده فأفسدته، قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله، قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعته الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحباها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الطبري ٥١/١٧] وكذا روي عن ابن عباس، ونحوه عن مسروق، وهكذا قال شريح ومجاهد وقتادة وابن زيد وغير واحد .

وقال عامر [الشعبي]: جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما: إن شاة هذا قطعت غزلاً لي،

فقال شريح: نهارًا أم ليلاً؟ فإن كان نهارًا فقد برئ صاحب الشاة، وإن كان ليلاً فقد ضمن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ﴾ الآية [الطبري ٥٢/١٧].

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ روى ابن أبي حاتم أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاها الحسن فبكى، فقال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد بلغني أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة، فقال الحسن البصري: إن فيما قص الله من نبي داود وسليمان ﷺ والأنبياء حكمًا يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود، ثم قال: - يعني: الحسن -: إن الله اتخذ على الحكام ثلاثًا: لا يشتركون به ثمنًا قليلًا، ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحدًا، ثم تلا: ﴿يُنَادُواوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤] [رواه ابن عساكر في تاريخه ٢٦/١٠].

قلت: أما الأنبياء ﷺ، فكلهم معصومون مؤيدون من الله ﷻ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت في «صحيح البخاري» [٦٩١٩، بلفظ قريب] عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ) فهذا الحديث يرد نصًا ما توهمه إياس من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار، والله أعلم.

وفي «السنن»: (الْقَضَاءُ ثَلَاثَةٌ: قَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، وَقَاضِيَانِ فِي النَّارِ: رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ حَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِخِلَافِهِ، فَهُوَ فِي النَّارِ) [النسائي/٥٩٢٢ وأبو داود/٣٥٧٣ وابن ماجه/٢٣١٥ والترمذي/١٣٢٢، وإسناده صحيح].

وقوله: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترتَّم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويبًا، ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جدًا، فوقف واستمع لقراءته، وقال: (لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مَزَامِيرَ آلِ دَاوُدَ) قال: يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرًا [البخاري/٤٧٦١ نحوه ومسلم/٧٩٣ كذلك].

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾؛ يعني: صنعة الدروع، قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح: وهو أول من سردها حلقًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ ١٠: أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرَدِ [سبأ: ١٠، ١١]؛ أي: لا توسع الحلقة فتقلق المسمار ولا تغلظ المسمار فتقذ الحلقة، ولهذا قال: ﴿لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾؛ يعني: في القتال ﴿فَهَلْ أَتَمْتُمْ شُكْرُكُمْ﴾؛ أي: نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود، فعلمه ذلك من أجلكم.

وقوله: ﴿وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾؛ أي: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿تَجْرِي بِأَمْرِوَءٍ إِلَى

الْأَرْضَ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا؛ يعني: أرض الشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيول والجمال والخيام والجند ثم يأمر الريح أن تحمله، فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وحشمه، قال الله تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبا: ١٢].

قال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم كالجبل، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفرس من ذوات الأجنحة فيرتفع حتى يصعد على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء، وهو مطأطئ رأسه ما يلتفت يمينا ولا شمالا، تعظيما لله ﷻ، وشكرا لما يعلم من صغر ما هو فيه في ملك الله ﷻ، حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه.

وقوله: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾؛ أي: في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك، ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾؛ أي: غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بَنَاءُ وَعَوَاصٍ﴾ (٧) ﴿وَأَخْرَيْنَ مُفْرَيْنَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]، وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾؛ أي: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق وإن شاء حبس، ولهذا قال: ﴿وَأَخْرَيْنَ مُفْرَيْنَ فِي الْأَصْفَادِ﴾.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٣) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَاهُ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٤).

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام، ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد ومنازل مرضية، فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، يقال: بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله ﷻ، حتى عافه الجليس، وأفرّد في ناحية من البلد، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره، ويقال: إنها احتاجت، فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبي ﷺ: (أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا مَثْلَ). يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابةٌ زِيدَ فِي بَلَائِهِ (رواه أحمد/ ١٤٨١، والترمذي/ ٢٣٩٨، وقال: حسن صحيح). وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك، وقال يزيد بن ميسرة [كما روى أبو نعيم في الحلية ٢٣٩/٥]: لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق شيء له، أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الذي أحسنت إليّ، أعطيتني المال والولد فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرغت قلبي، فليس يحول بيني وبينك شيء، ولو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت حسدني، قال: فلقي إبليس من ذلك منكرا. قال: وقال أيوب عليه السلام: يا رب إنك أعطيتني

المال والولد، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك، وأنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها، وأقول لنفسي: يا نفس إنك لم تخلقي لوطء الفراش ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك.

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب عليه السلام أخوان، فجاء يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط، فقال: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَبْتَ لَيْلَةَ قَطْ شِبْعَانَ وَأَنَا أَعْلَمُ مَكَانَ جَائِعٍ، فَصَدَّقَنِي، فَصَدَّقَ مِنَ السَّمَاءِ وَهُمَا يَسْمَعَانِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ يَكُنْ لِي قَمِيصَانِ قَطْ، وَأَنَا أَعْلَمُ مَكَانَ عَارٍ، فَصَدَّقَنِي، فَصَدَّقَ مِنَ السَّمَاءِ وَهُمَا يَسْمَعَانِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ بَعِزْتُكَ، ثُمَّ خَرَّ سَاجِداً، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَعِزْتُكَ لَا أَرْفَعُ رَأْسِي أَبَدًا حَتَّى تَكْشِفَ عَنِّي، فَمَا رَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّى كَشَفَ عَنْهُ [ابن أبي شيبة/ ٣٥٥٤٨، وروى نحوه عن نوف البكالي].

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى أيوب قد رددت عليك أهلك ومالك، ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قرباناً، واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك.

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لَمَّا عَافَى اللَّهُ أَيُّوبَ، أَمْطَرَ عَلَيْهِ جَرَادًا مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيَجْعَلُهُ فِي نَوْبِهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: يَا أَيُّوبُ، أَمَا تَشْبَعُ؟ قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَنْ يَشْبَعُ مِنْ رَحْمَتِكَ) أصله في «الصحيحين» [رواه الحاكم/ ٤١١٦] وقال: على شرط البخاري ولم يخرجاه].

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ قد تقدم عن ابن عباس أنه قال: ردوا عليه بأعيانهم، وكذا روي مثله عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن وقتادة.

وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب إن أهلك لك في الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم؟ قال: لا بل اتركهم لي في الجنة، فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا، وعن أبي عمران الجوني عن نوف البكالي قال: أوتي أجرهم في الآخرة وأعطى مثلهم في الدنيا. قال: فحدثت به مُطَرِّقًا، فقال: ما عرفت وجهها قبل اليوم، وكذا روي عن قتادة، والسدي وغير واحد من السلف، والله أعلم.

قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾؛ أي: فعلنا به ذلك رحمة من الله به ﴿وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء أنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك.

﴿وَأَسْمِعِمْ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦).

وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مريم، وكذا

إدريس عليه السلام، وأما ذو الكفل، فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي، وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم، وقال مجاهد: رجل صالح غير نبي، تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه وقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمي ذا الكفل.

قال ابن عباس: كان قاض في بني إسرائيل فحضره الموت فقال: من يقوم مقامي على أن لا يغضب؟ قال: فقال رجل: أنا، فسمي ذا الكفل، وعن مجاهد نحوه [الطبري ١٧/٧٥].

وهكذا روي عن عبد الله بن الحارث، ومحمد بن قيس وأبي حنيفة الأكبر وغيرهم من السلف نحوه.

وعن أبي موسى الأشعري قال: ما كان ذو الكفل نبياً ولكن كان في بني إسرائيل رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة، فسمي ذا الكفل [الطبري ١٧/٧٥].

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

هذه القصة مذكورة هنا وفي سورة الصافات وفي سورة «ن»، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية نينوى، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله ﷻ وجأروا إليه، ورجت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَا ءَامَنُوا كُشِفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]؛ أي: وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله سبحانه حوتاً يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً وإنما بطنك تكون له سجناً.

وقوله: ﴿وَدَا التُّونَ﴾؛ يعني: الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة، وقوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَضَّبًا﴾ قال الضحاك لقومه: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: نضيق عليه في بطن الحوت، يروى نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك وغيرهم، واختاره ابن جرير [٧٩/١٧] واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال عطية العوفي: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: نقضي عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قدر وقدّر بمعنى واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]؛ أي: قُدِرَ. ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل [الطبري ٨٠/١٧]، وكذا روي عن ابن عباس، وعمرو بن ميمون، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والضحاك، والحسن، وقتادة، وقال سالم بن أبي الجعد: ظلمة حوت في بطن حوت آخر في ظلمة البحر [الطبري ٨٠/١٧]، قال ابن مسعود، وابن عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره، فعند ذلك وهنالك قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [روى الطبري نحوه ٨١/١٧].

وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَيَّنَّا لَهُ مِنَ الْغَمِّ﴾؛ أي: أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿وَكَذَلِكَ نُشِجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء، روى الإمام أحمد [١٤٦٢] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: مررت بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد، فسلمت عليه، فملاً عينيه مني ثم لم يرد علي السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء، مرتين قال: لا وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أنني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملاً عينيه مني ثم لم يرد علي السلام، قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك أن لا تكون رددت علي أخيك السلام؟ قال: ما فعلت، قال سعد: قلت بلى حتى حلف وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة، قال سعد: فأنا أنبتك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال: (مَنْ هَذَا؟ أَبُو إِسْحَاق؟) قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: (فَمَهْ؟) قلت: لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك، قال: (نَعَمْ، دَعْوَةُ ذِي التُّونِ، إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ) [ورواه الترمذي/٣٥٥٥ والنسائي/١٠٤٩٢ في اليوم والليلة ورواه الحاكم/١٨٦٢ وصححه ووافقه الذهبي].



﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً، وقد تقدمت القصة مبسطة في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضاً، وهاهنا أخصر منهما ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾؛ أي: خفية عن قومه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾؛ أي: لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾؛ أي: امرأته، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر: كانت عاقراً لا تلد فولدت، وقال عطاء: كان في لسانها طول، فأصلحها الله، وفي رواية: كان في خلقها شيء فأصلحها الله، وهكذا قال محمد بن كعب والسدي [الطبري ٨٣/١٧]، والأظهر من السياق الأول.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: في عمل القربات وفعل الطاعات ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثوري: رغباً فيما عندنا ورهباً مما عندنا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ قال ابن عباس: أي: مصدقين بما أنزل الله، وقال مجاهد: مؤمنين حقاً، وقال أبو العالية: خائفين، وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً، وعن مجاهد أيضاً: متواضعين، وقال الحسن، وقتادة، والضحاك: متذللين لله ﷻ، وكل هذه الأقوال متقاربة، وعن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر ﷺ، فقال: أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، وتُتَنُوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله ﷻ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ [البیهقي في شعب الإيمان/١٠٥٩٣].

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ زَوْجِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

هكذا قرَنَ تعالى قصة مريم وابنها عيسى ﷺ، بقصة زكريا وابنه يحيى ﷺ، فيذكر أولاً قصة زكريا ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك موطنه لهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر، هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم، وهاهنا ذكر قصة زكريا ثم أتبعها بقصة مريم بقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ يعني: مريم ﷺ، كما قال في سورة التحريم [١٢]: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ زَوْجِنَا﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢) ﴿وَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَهٍ إِلَّا رَجَعُونَ﴾ (٩٣) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِلَآئًا لَهُمْ كَتَبُونَ﴾ (٩٤).

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ يقول: دينكم دين واحد [الطبري ٨٥/١٧ وذكره البخاري تعليقاً عن قتبية ١٧٦٥/٤] وقال الحسن البصري في هذه الآية يبين لهم ما يتقون وما يأتون، ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾؛ أي: سنتكم سنة واحدة، فقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾: إن واسمها، وأمتكم خبر إن؛ أي: هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم، وقوله: ﴿أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ نصب على الحال، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ كما قال: ﴿يَتَأَيَّمُوا الرُّسُلَ كُلُّوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٩١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]، وقال رسول الله ﷺ: (نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ) [البخاري/٣٢٥٩ ومسلم/٢٣٦٥ نحوه]؛ يعني: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله: ﴿وَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب، ولهذا قال: ﴿كُلَّ إِلَهٍ إِلَّا رَجَعُونَ﴾؛ أي: يوم القيامة، فيجازى كل بحسب عمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: قلبه مصدق وعمله صالحاً ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]؛ أي: لا يُكْفَرُ سعيه، وهو عمله بل يُشكر فلا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا لَهُمْ كَاتِبُونَ﴾؛ أي: يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء.

﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥) ﴿حَقَّ إِذَا فَتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦) ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِتَوِيلِنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٩٧).

يقول تعالى: ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرَبَةٍ﴾ قال ابن عباس: وجب [ذكره البخاري تعليقاً ٢٤٣٨/٦]؛ يعني: قدراً مُقَدَّراً أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة، هكذا صرح به ابن عباس، وأبو جعفر الباقر، وقتادة وغير واحد، وفي رواية عن ابن عباس: لا يتوبون، والقول الأول أظهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَقَّ إِذَا فَتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ قد قدمنا أنهم من سلالة آدم ﷺ، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث؛ أي: أبي الترك، والترك شُرذمة منهم تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين، وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَفُتِحَ فِي السُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمَاعًا [الكهف: ٩٨، ٩٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿حَقَّ إِذَا

فُنِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٥﴾؛ أي: يسرعون في المشي إلى الفساد، والحدب: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو صالح، والثوري وغيرهم، وهذه صفتهم في حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك ﴿وَلَا يَنْتَظِرُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذي يعلم غيب السموات والأرض لا إله إلا هو.

رأى ابن عباس صبياناً ينزو بعضهم على بعض يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج مأجوج ومأجوج [الطبري ٨٨/١٧]، وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية.

منها ما رواه الإمام أحمد [١١٧٤٩] عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾، فَيَغْشَوْنَ النَّاسَ، وَيَنْحَازُ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ إِلَى مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ، وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ، وَيَشْرَبُونَ مِياهَ الْأَرْضِ، حَتَّى أَنْ بَعْضُهُمْ لَيَمُرُّ بِالنَّهْرِ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهِ حَتَّى يَتْرَكُوهُ يَبَسًا، حَتَّى أَنْ مَنْ بَعْدَهُمْ لَيَمُرُّ بِذَلِكَ النَّهْرِ فَيَقُولُ: قَدْ كَانَ هَهُنَا مَاءٌ مَرَّةً، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا أَحَدٌ فِي حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ، قَالَ قَائِلُهُمْ: هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ، قَدْ فَرَعْنَا مِنْهُمْ، بَقِيَ أَهْلُ السَّمَاءِ. قَالَ: ثُمَّ يَهْزُ أَحَدُهُمْ حَرْبَتَهُ، ثُمَّ يَرْمِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ إِلَيْهِ مُخْتَضَبَةً دَمًا؛ لِلْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ ﷻ دُودًا فِي أَعْنَاقِهِمْ كَنَفِ الْجَرَادِ الَّذِي يَخْرُجُ فِي أَعْنَاقِهِ، فَيُضْبِحُونَ مَوْتَى لَا يَسْمَعُ لَهُمْ حِسٌّ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: أَلَا رَجُلٌ يَشْرِي لَنَا نَفْسَهُ، فَيَنْظُرُ مَا فَعَلَ هَذَا الْعَدُوُّ؟ قَالَ: فَيَتَجَرَّدُ رَجُلٌ مِنْهُمْ مُحْتَسِبًا نَفْسَهُ، قَدْ أَوطَنَهَا عَلَى أَنَّهُ مَقْتُولٌ، فَيَنْزِلُ فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى، يَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَيُنَادِي: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَلَا أَبْشِرُوا، إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَيُسَرِّحُونَ مَوَاشِيَهُمْ، فَمَا يَكُونُ لَهَا رَعْيٌ إِلَّا لِحَوْمَتِهِمْ، فَتَشْكُرُ عَنْهُمْ كَأَحْسَنِ مَا شَكَرْتَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ النَّبَاتِ أَصَابَتْهُ قَطٌّ)، ورواه ابن ماجه [٤٠٧٥] بنحوه، وقال البوصيري: إسناده صحيح.

وروى الإمام أحمد أيضًا [١٧٦٦٦] عن النواس بن سميان الكلبي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فحفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا فسألناه فقلنا يا رسول الله: ذكرت الدجال الغداة فحفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال: (غَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفُنِي عَلَيْكُمْ، فَإِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَكُلْ أَمْرِي حَاجِبُ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَإِنَّهُ شَابٌ جَعْدٌ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِيَةٌ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ خَلَّةَ بَيْنِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاتَ يَمِينًا وَشِمَالًا يَا عِبَادَ اللَّهِ انْبُتُّوا) - قلنا: يا رسول الله، مَا لُبُّهُ فِي الْأَرْضِ؟ قال: (أَرْبَعِينَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشْهَرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ) قلنا: يا رسول الله فذاك اليوم الذي هو كسنة، أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: (لَا أَقْدِرُوا لَهُ قَدْرَهُ) قلنا: يا رسول الله فما إسرعه في الأرض؟ قال (كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرْتُهُ الرِّيحُ)، قال: (فَيَمُرُّ بِالْحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطَرُ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، وَتَرْوَحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ وَهِيَ أَطْوَلُ مَا كَانَتْ ذُرَى، وَأَمَدُهُ خَوَاصِرَ، وَأَسْبَغُهُ ضُرُوعًا، وَيَمُرُّ بِالْحَيِّ

فَيَدْعُوهُمْ فَيَرْدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَتَّبِعُهُ أَمْوَالُهُمْ، فَيُضْبِحُونَ مُمْلَحِينَ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْءٌ، وَيَمُرُّ بِالْخَرْبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكُمْ، فَتَتَّبِعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّحْلِ) - قال: (وَيَأْمُرُ بِرَجُلٍ فَيَقْتُلُ، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ رَمِيَّةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيَقْبِلُ إِلَيْهِ يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ، فَيَبْنِمَا هُمَ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ ﷺ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ، شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى أَجْنَحَةِ مَلَكَينَ، فَيَتَّبِعُهُ فَيَذَرُكُهُ، فَيَقْتُلُهُ عِنْدَ بَابٍ لَدَى الشَّرْقِيِّ) - قال: (فَيَبْنِمَا هُمَ كَذَلِكَ، إِذْ أَوْحَى اللَّهُ ﷻ إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ: أَنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا مِنْ عِبَادِي لَا يَدَانِ لَكَ بِقِتَالِهِمْ، فَحَوِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ ﷻ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فَيَرْغَبُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ ﷻ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَعْفًا فِي رِقَابِهِمْ، فَيُضْبِحُونَ فَرَسَى، كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، فَيَهْبِطُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ بَيِّنًا إِلَّا قَدْ مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ ﷻ، فَيُرْسِلُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ)، قال ابن جرير: فحدثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب أو غيره قال: فتطرحهم بالمهبل، قال ابن جابر: فقلت يا أبا يزيد، وأين المهبل؟ قال: مطلع الشمس. قال: (وَيُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنُ مِنْهُ بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرَكَهَا كَالزَّلْفَةِ، وَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْتِي ثَمَرَتِكَ، وَدُرِي بَرَكَتِكَ)، قال: (فَيَوْمَئِذٍ يَأْكُلُ النَّفَرُ مِنَ الرُّمَانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقُحْفُفِهَا، وَيُبَارِكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّى إِنَّ اللَّفْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِتَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّفْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ تَكْفِي الْفَخْدَ، وَالشَّاةُ مِنَ الْغَنَمِ تَكْفِي أَهْلَ الْبَيْتِ)، قال: (فَيَبْنِمَا هُمَ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ ﷻ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ أَبْطَهِمَ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُسْلِمٍ) - أو قال: (كُلُّ مُؤْمِنٍ - وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ تَهَارُجَ الْحَمِيرِ، وَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ)، انفراد بإخراجه مسلم [٢٩٣٧] دون البخاري. والأحاديث في هذا كثيرة جدًا والآثار عن السلف كذلك.

وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾؛ يعني: يوم القيامة إذا وجدت هذه الأحوال والزلازل، أزفت الساعة واقتربت فإذا كانت وقعت، قال الكافرون: هذا يوم عسر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾؛ أي: يقولون يا ويلنا ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾؛ أي: في الدنيا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ (٩٨) لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آيَةً لَّوَدَّهَا مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَنُنَلِّقُهُمُ الْمَلَكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣).

يقول تعالى مخاطبًا لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأوثان:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن عباس: أي: وقودها؛ يعني: كقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦]، وقال ابن عباس أيضًا: شجر جهنم، وفي رواية قال: حطب جهنم بالزنجية، وقال مجاهد، وعكرمة، وقتادة: حطبها، وقال الضحاك: ما يرمى به فيها، وكذا قال غيره، والجميع قريب [هذه الأقوال بأسانيدنا عند الطبري ٩٤/١٧].

وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾؛ أي: داخلون ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾؛ يعني: لو كانت هذه الأصنام التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار، ولما دخلوها ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ أي: العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]، والزفير خروج أنفاسهم، والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال عكرمة: الرحمة، وقال غيره: السعادة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم، فنجاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لا يَسْمَعُونَ حَاسِسًا؛ أي: حريقها في الأجساد.

قال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ فأولئك أولياء الله يَمْرُونَ عَلَى الصِّرَاطِ مَرًّا هُوَ أَسْرَعُ مِنَ الْبَرْقِ، ويبقى الكفار فيها جثيًا، فهذا مطابق لما ذكرناه، وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عزيز والمسيح، وقال ابن عباس: نزلت في عيسى ابن مريم وعزير عليه السلام، وكذا قال عكرمة، والحسن، وابن جريج، ومجاهد، وقال الضحاك: عيسى، ومريم، والملائكة، والشمس، والقمر، وكذا روي عن سعيد بن جبير، وأبي صالح وغير واحد.

عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ قال المشركون: فالملائكة وعزير وعيسى يعبدون من دون الله فنزلت: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ الآلهة التي يعبدون ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ قيل: المراد بذلك الموت، رواه عبد الرزاق عن عطاء، وقيل: المراد النفخة في الصور، قاله ابن عباس، وأبو سنان سعيد بن سنان الشيباني، واختاره ابن جرير في «تفسيره» [٩٩/١٧]، وقيل: حين يؤمر بالعبد إلى النار، قاله الحسن البصري، وقيل: حين تطبق النار على أهلها، قاله سعيد بن جبير، وابن جريج، وقيل: حين يذبح الموت بين الجنة والنار، قاله أبو بكر الهذلي.

وقوله: ﴿وَنُلْقِيهِمُ الْمَلِكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ يعني: تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ أي: قابلوها ما يسركم.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٠٤)

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقد روى البخاري عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضَيْنِ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ) [وروى مسلم نحوه/ ٢٧٨٧]، وقوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قيل: المراد بالسجل الكتاب، وقيل: المراد بالسجل هاهنا ملك من الملائكة، قال ابن عمر في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ السجل: ملك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبها نوراً، وروي عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين أن السجل ملك، وقال السدي في هذه الآية: السجل: مَلَكٌ موكل بالصحف، فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل، فطواه ورفعاه إلى يوم القيامة.

والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير [١٧/١٠٠]؛ لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب؛ أي: على الكتاب بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّاهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصفات: ١٠٣]؛ أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ يعني: هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع؛ لأنه من جملة وعد الله الذي لا يُخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، وروى الإمام أحمد [٢٠٩٦] عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة: فقال: (إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ ﷻ حِفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) وذكر تمام الحديث، أخرجاه في «الصحاحين» [البخاري/ ٤٣٤٩ ومسلم/ ٢٨٦٠]، وعن ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ قال: نُهْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ كَمَا كَانَ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥) **إِنْ فِي هَذَا لَبَلَاغٌ لِقَوْمٍ عَكِيدِينَ** (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثته الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن

لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾. قال الأعمش: سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ فقال الزبور: التوراة والإنجيل والقرآن، وقال مجاهد: الزبور الكتاب، وقال ابن عباس، والشعبي، والحسن، وقتادة وغير واحد: الزبور الذي أنزل على داود، والذكر التوراة، وعن ابن عباس: الزبور القرآن، وقال سعيد بن جبير: الذكر الذي في السماء، وقال مجاهد: الزبور الكتب بعد الذكر والذكر أم الكتاب عند الله، واختار ذلك ابن جرير رحمته الله [١٧/١٠٣]، وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول، وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور الكتب التي نزلت على الأنبياء، والذكر أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك، وقال ابن عباس: أخبر الله ﷻ في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون، وقال ابن عباس أيضاً: ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قال: أرض الجنة [الطبري ١٧/١٠٤]، وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والشعبي، وقتادة، والسدي [وغيرهم]، وقال أبو الدرداء: نحن الصالحون، وقال السدي: هم المؤمنون.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاءً لِقَوْمٍ عَكِيدٍ﴾؛ أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً: لمنفعة وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان، وشهوات أنفسهم.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين؛ أي: أرسله رحمة لهم كلهم فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ الْفَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وقال تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيْءِءَاذَانِهِمْ وَقُرْءٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُّونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وروى مسلم في «صحيحه» [٢٥٩٩] عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين. قال: (إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لَعْنًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً).

وروى الإمام أحمد [٢٣٧٥٧] عن عمرو بن أبي قرة الكندي قال: كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ، فجاء حذيفة إلى سلمان، فقال سلمان: يا حذيفة إن رسول الله ﷺ كان يغضب فيقول ويرضى فيقول لقد علمت أن رسول الله ﷺ خطب فقال: (أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي سَبَبْتُهُ فِي غَضَبِي أَوْ لَعَنْتُهُ لَعْنَةً، فَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ آدَمَ، أَغَضِبُ كَمَا يَغْضَبُونَ، وَإِنَّمَا بَعَثَنِي اللَّهُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، فَاجْعَلْهَا صَلَاةً عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، ورواه أبو داود [٤٦٥٩]، وله شاهد عند مسلم [٢٦٠١]، فإن قيل: فأى رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير [١٧/١٠٦]، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

قال: من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٨) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ (١٠٩) ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ (١١٠) ﴿وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (١١١) ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (١١٢).

يقول تعالى أمراً رسولاً صلواته وسلامه عليه أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: متبعون على ذلك منقادون له. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾؛ أي: تركوا ما دعوتهم إليه ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾؛ أي: أعلمتكم أنني حرب لكم، كما أنكم حرب لي، بريء منكم كما أنتم برآء مني، كقوله: ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِن قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْصِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]؛ أي: ليكن علمك وعلمهم بنذ العهد على السواء، وهكذا هاهنا ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾؛ أي: أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك. وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؛ أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده، ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾؛ أي: إن الله يعلم الغيب جميعه ويعلم ما يُظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم، وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل، وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين. قال ابن جرير [١٠٨/١٧]: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى، وحكاه عون عن ابن عباس، والله أعلم. ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾؛ أي: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق. قال قتادة: كانت الأنبياء ﷺ يقولون: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك، وقوله: ﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: على ما يقولون ويفترون من الكذب ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.





## تفسير سورة الحج

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها، وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة، أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم؟ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١، ٢].

فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة، وقال علقمة: قبل الساعة، وروي عن الشعبي وإبراهيم وعبيد بن عمير نحو ذلك.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال كائن يوم القيامة في العرصات، بعد القيام من القبور، واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث:

منها ما رواه الإمام أحمد [١٩٩١٥] عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما دنوا حوله قال: (أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَاكَ؟ يَوْمَ يُنَادَىٰ آدَمُ ﷺ، فَيُنَادِيهِ رَبُّهُ ﷻ، فَيَقُولُ: يَا آدَمُ، ابْعَثْ بَعَثَكَ إِلَى النَّارِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ) قال: فألبس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: (أَبْشِرُوا وَاعْمَلُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا كَثُرَتْهُمَا يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَمَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ) قال: فسرى عنهم، ثم قال: (اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ، أَوِ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ) وهكذا رواه الترمذي [٣١٦٨٣] والنسائي في

كتاب «التفسير» [١١٣٤٠] من سننهما، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وبما رواه البخاري [٤٤٦٤] عند تفسير هذه الآية [وكذا مسلم/٢٢٢] عن أبي سعيد قال: قال النبي ﷺ: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ دُرِّيَّتِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ - أَرَاهُ قَالَ - تِسْعِمَائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا، وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ، وَتَرَى النَّاسَ سُكْرَى وَمَا هُمْ بِسُكْرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وَجُوهُهُمْ، قَالَ النبي ﷺ: (مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعِمَائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعُونَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ). فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: (ثُلُثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ) فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: (شَطْرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ) فَكَبَّرْنَا.

والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جدًا لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: أمر عظيم، وخطب جليل، وطارق مפתع، وحادث هائل، وكائن عجيب، والزلال: هو ما يحصل للنفس من الرعب والفرع، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا كَيْفَ أَبْتَلِي الْمُؤْمِنِينَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]، ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ هذا من باب ضمير الشأن، ولهذا قال مفسرًا له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾؛ أي: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه تذهش عنه في حال إرضاعها له، ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ ولم يقل مرضع، وقال: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾؛ أي: عن رضيعها قبل فطامه، وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾؛ أي: قبل تمامه لشدة الهول ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكْرَى﴾ وقرئ «سُكْرَى»؛ أي: من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سُكْرَى ﴿وَمَا هُمْ بِسُكْرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾.

يقول تعالى ذامًا لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضًا عما أنزل الله على أنبيائه متبعًا في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مرید من الإنس والجن، وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: علم صحيح ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ قال مجاهد: يعني: الشيطان؛ يعني: كتب عليه كتابة قدرية أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ؛ أي: اتبعه وقلده ﴿فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾؛ أي: يضلّه في

الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المولم المزعج المفلق، وعن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، وكذلك قال ابن جريج.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْتُكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّئُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِي أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾؛ أي: في شك ﴿مِّنَ الْبَعْثِ﴾ وهو المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْتُكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾؛ أي: أصل برئه لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم ﷺ ﴿ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ﴾؛ أي: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يومًا كذلك يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يومًا، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقىها وقد صارت ذات شكل وتخطيط، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ﴾؛ أي: كما تشاهدونها ﴿لِّئُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقىها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ﴾ قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق، فإذا مضى عليها أربعون يومًا وهي مضغة، أرسل الله تعالى ملكًا إليها فنفخ فيها الروح وسواها كما يشاء الله ﷻ من حسن وقبح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد، كما ثبت في «الصحيحين» من حديث الأعمش عن ابن مسعود قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وهو الصادق المصدوق: (إِن خُلِقَ أَحَدُكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: يَكْتُبُ عَمَلَهُ وَأَجَلَهُ وَرِزْقَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ) [البخاري/٧٠١٦ واللفظ له، ومسلم/٢٦٤٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾؛ أي: ضعيفًا في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله، ثم يعطيه الله القوة شيئًا فشيئًا، ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار،

ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لِنَبْلُوَهُمْ أَشَدَّكُمْ﴾؛ أي: تتكامل القوى، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَوِّفُ﴾؛ أي: في حال شبابه وقواه، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ﴾ وهو الشيخوخة والهَرَم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الحَرَف وضعف الفكر، ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقوله: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي الفحلة التي لا ينبت فيها شيئاً، وقال قتادة: غبراء متهشمة. وقال السدي: ميتة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾؛ أي: فإذا أنزل الله عليها المطر، اهتزت؛ أي: تحركت بالنبات، وحييت بعد موتها، وربت؛ أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾؛ أي: حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ﴾؛ أي: الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى﴾؛ أي: كما أحيا الأرض الميت وأنبت منها هذه الأنواع ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخَيِّ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]. ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾؛ أي: كائنة لا شك فيها ولا مرية، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾؛ أي: يعيدهم بعدما صاروا في قبورهم رمماً، ويوجدتهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَّى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٠] والآيات في هذا كثيرة.

روى الإمام أحمد [١٦٢٣٩] وأبو داود، وابن ماجه عن أبي رزين العقيلي قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ قال: (أَمَرْتُ بِأَرْضٍ مِنْ أَرْضِكَ مُجْدَبَةٍ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِهَا مُخَصَّبَةً؟) قال: نعم. قال: (كَذَلِكَ الشُّورُ) [وصححه ابن القيم في «الزاد»].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (٨) ثَانِي عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ (١٠).

لما ذكر تعالى حال الضلال الجُهل المقلدين في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَبِتَوْبِهِ كُلِّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]، ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾؛ أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى، وقوله: ﴿ثَانِي عَطْفُهُ﴾ قال

ابن عباس وغيره: مستكبراً عن الحق إذا دعي إليه، وقال مجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم: لاوي عنقه وهي رقبته [الطبري ١٧/١٢١]؛ يعني: يُعْرِضُ عما يُدْعَى إليه من الحق استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ حَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]؛ أي: تميله عنهم استكباراً عليهم.

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: هذه لام العاقبة؛ لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل، ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جيلناه على هذا الخلق الذي يجعله ممن يضل عن سبيل الله، ثم قال تعالى: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَّاهُ اللهُ المذلة في الدنيا وعاقبة فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر همّه ومبلغ علمه ﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [٩] ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ؛ أي: يقال له هذا تقريراً وتوبيخاً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وعن الحسن قال: بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرة لرواه ابن أبي حاتم/ ٤٥٩٢ وابن أبي شيبة/ ٣٤١٥١.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا نَفْعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَكَيْسُ الْعَشِيرِ ﴿١٣﴾

قال مجاهد وقتادة وغيرهما: ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ على شك، وقال غيرهم: على طرف [الطبري ١٧/١٢٣]، ومنه حرف الجبل؛ أي: طرفه؛ أي: دخل في الدين على طرف فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر، وروى البخاري [٤٤٦٥] عن ابن عباس قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ونُتِجَت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تُنْتِج خيله قال: هذا دين سوء، وعن ابن عباس أيضاً [كما روى الطبري ١٧/١٢٢]: كان أحدهم إذا قدم المدينة وهي أرض وبيثة، فإن صح بها جسمه ونُتِجَت فرسه مهرًا حسنًا وولدت امرأته غلاماً رضي به، واطمأن إليه، وقال: ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً، وإن أصابته فتنة، والفتنة البلاء؛ أي: وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً، وذلك الفتنة، وهكذا ذكر قتادة والضحاك، وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر [الطبري ١٧/١٢٣]، وقال مجاهد في قوله: ﴿أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾؛ أي: ارتد كافراً.

وقوله: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾؛ أي: فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُمِينُ﴾؛ أي: هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة، وقوله: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ﴾؛ أي: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾، وقوله: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾؛ أي: ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن، وقوله: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ قال مجاهد: يعني: الوثن؛ يعني: بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى؛ يعني: ولياً وناصرًا، ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر، واختار ابن جرير [١٢٥/١٧] أن المراد لبئس ابن العم والصاحب من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، وقول مجاهد إن المراد به الوثن أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ١٤

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَعِيطُ﴾ ١٥ ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ ١٦

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدًا ﷺ في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب؛ أي: بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾؛ أي: سماء بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ يقول: ثم ليختنق به [الطبري ١٧/١٢٧]، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة وغيرهم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾؛ أي: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمدًا من السماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه إن قدر على ذلك، وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم، فإن المعنى من كان يظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ ١٦ ﴿يَوْمَ لَا يَفْعَلُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، ولهذا قال: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَعِيطُ﴾. قال السدي: يعني: من شأن محمد ﷺ، وقال عطاء الخراساني:

فليَنظُر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾؛ أي: القرآن ﴿ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾؛ أي: واضحات في لفظها ومعناها، وحجة من الله على الناس، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾؛ أي: يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أما هو فلحكيمته ورحمته وعدله وعلمه وقهره لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالصَّرِيَّ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٧).

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين، والنصارى والمجوس والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره، فإنه تعالى يفصل بينهم يوم القيامة، ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم وما تكن ضمائرهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (١٨).

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَنْفِيوْنَ ظِلَالَهُ عَنِ الْأَيْمَنِ وَالْأَسْمَآئِلِ سُجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]، وقال هاهنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطيور ﴿وَمِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عبدت من دون الله فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وفي «الصحاحين» عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: (أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟). قلت: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قال: (فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ، ثُمَّ تُسْتَأْمَرُ فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ) [البخاري/ ٣٠٢٧ بنحوه ومسلم/ ١٥٩ بلفظ قريب]، وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس، ولا قمر إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعها، وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمال.

وقوله: ﴿وَالدَّوَابُّ﴾؛ أي: الحيوانات كلها، وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد [١٥٦٨٨] أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر، فرب مركوبة خير وأكثر ذكراً لله تعالى من ركبها [ورواه أبو داود وصححه أحمد شاكر].

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾؛ أي: يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾؛ أي: ممن امتنع وأبى واستكبر ﴿وَمَن يَهِنَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ. أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ، فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ، فَلِيَ النَّارُ) رواه مسلم [٨١]، وروى أبو داود [١٤٠١]، وابن ماجه [١٠٥٧] عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ، أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان [وله] شواهد يشد بعضها بعضاً.

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْتَعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

ثبت في «الصحيحين» عن أبي ذر: أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر [البخاري/٣٧٥١ ومسلم/٣٠٣٣]، وروى البخاري [٣٧٤٧] عن علي بن أبي طالب قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. وقال قتادة في قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم. فأفلق الله الإسلام على من ناوأه، وأنزل ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، وكذا روي عن ابن عباس، وقال قتادة أيضاً: مُصَدِّقٌ وَمَكْذَبٌ، وقال مجاهد وعطاء في هذه الآية: هم المؤمنون والكافرون.

وقال عكرمة: هي الجنة والنار، قالت النار: اجعلني للعقوبة، وقالت الجنة: اجعلني للرحمة، وقول مجاهد وعطاء: إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله ﷻ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن، ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ﴾؛ أي: فصلت لهم مقطعات من نار، قال سعيد بن جبیر: من نحاس، وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي. ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾؛ أي: إذا صب على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة، وقال سعيد بن جبیر: هو النحاس المذاب، أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر وغيرهم، وكذلك تدوب جلودهم، وقال ابن عباس وسعيد: تساقط.



وروى ابن جرير [١٧/١٣٤] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الْحَمِيمَ لِيُصَبَّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، فَيَنْفَذَ الْحُمْجَمَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ، حَتَّى يَبْلُغَ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ الصَّهْرُ، ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ) ورواه الترمذي [٢٥٨٢]، وقال: حسن صحيح، [وفي إسناده دراج أبو السمح]، وقال عبد الله بن السري: يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تَكَرَّهه، قال: فيرفع مَقْمَعَةً معه فيضرب بها رأسه، فيُفْرِغ دماغه، ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَلَمْ يَمْلِكْ مِنْ حَمِيدٍ﴾ قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قال سلمان: النار سوداء مظلمة لا يضيء لها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾، وقال زيد بن أسلم: بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون، وقال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة وإن الأيدي لموثقة، ولكن يرفعهم لها وتردهم مقامعها، وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٢٣) ﴿وَهُدُودًا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُودًا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ (٢٤).

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار عياداً بالله من حالهم وما هم فيه من العذاب والتكال والحرق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: تتخرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين أرادوا ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من الحلية ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾؛ أي: في أيديهم، كما قاله النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: (تَبْلُغُ الْحَلِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ) [رواه مسلم/٢٥٠]، وقال كعب الأحبار: إن في الجنة ملكاً لو شئت أن أسميه لسميته يصوغ لأهل الجنة الحلي منذ خلقه الله إلى يوم القيامة لو أبرز قلب منها - أي: سوار منها - لرد شعاع الشمس كما ترد الشمس نور القمر.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير إستبرقه وسُنْدَسه، كما قال: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُصْرٌ وَإِسْتَرْقٌ وَحُلُورٌ أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا﴾ (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرْجَاءَ وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا [الإنسان: ٢١، ٢٢]، وفي «الصحیح»: (لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلَا الدِّيْبَاجَ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ مَنْ لَبَسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ) [البخاري/٥٤٩٤ نحوه ومسلم/٢٠٦٩ من دون كلمة الديباج]. قال عبد الله بن الزبير: من لم يلبس

الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة [البخاري/٥٤٩٥]، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يروعون به، يقال لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾؛ أي: إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسده إليهم كما جاء في الحديث الصحيح: (إِنَّهُمْ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ) [رواه مسلم/٢٨٣٥]، وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾؛ أي: القرآن، وقيل: لا إله إلا الله وقيل: الأذكار المشروعة، ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾؛ أي: الطريق المستقيم في الدنيا وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنَكُفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يَبْظُلِرْ نَذْفُهُ مِنْ عَذَابِ إِلِيرٍ﴾.

يقول تعالى منكرًا على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه، وفي هذه الآية دليل على أنها مدنية، كما قال في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ النَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أي: ومن صفتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام؛ أي: يصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر، وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنَكُفِ فِيهِ وَالْبَادِ﴾؛ أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعًا سواء لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه ﴿سَوَاءً الْعَنَكُفِ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكنهاها، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَنَكُفِ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام، وقال مجاهد: ﴿سَوَاءً الْعَنَكُفِ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل، وكذا قال أبو صالح وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله [انظر الطبري ١٧/١٣٧]، وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف، وأحمد بن حنبل حاضر أيضًا، فذهب الشافعي ﷺ إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتوَجَّر، واحتج بحديث أسامة بن زيد قال: قلت يا رسول الله أتزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: (وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ؟) ثم قال: (لَا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ، وَلَا الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ) وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين» [البخاري/٦٣٨٣ ومسلم/١٦١٤]، وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارًا بمكة، فجعلها سجنًا، بأربعة آلاف درهم [ذكره البيهقي/١٠٩٦٢]، وبه قال طاوس وعمر بن دينار، وذهب إسحاق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا توجر، وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهويه بما روي عن عبد الله بن

عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها، وكان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم، وأن عمر بن الخطاب كان ينهى عن أن تُبَوَّب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج في عرصاتها، فكان أول من بوب داره سهيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرنى يا أمير المؤمنين إنى كنت امرأً تاجرًا، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لى ظهري، قال: فلك ذلك إذا [رواه عبد الرزاق في مصنفه/ ٩٢١٠]، وقال عمر بن الخطاب: يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبوابًا لينزل البادي حيث يشاء [رواه عبد الرزاق في مصنفه/ ٩٢١١]، وتوسط الإمام أحمد فيما نقله صالح ابنه قال: تملك وتورث ولا تؤجر جمعًا بين الأدلة، والله أعلم.

**وقوله:** ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نُدْقُهُ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ﴾ قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هاهنا زائدة، كقوله: ﴿تَبْتُ بِالْذِّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]؛ أي: تنبت الدهن، وكذا قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ﴾ تقديره إلحادًا، والأجود أنه ضمن الفعل هاهنا معنى «يُهِمُّ»، ولهذا عده بالباء فقال: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ﴾؛ أي: يهتم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار: **وقوله:** ﴿يُظْلَمِ﴾؛ أي: عامدًا قاصدًا أنه ظلم ليس بمتأول، كما قال ابن عباس: هو التعمد، وقال أيضًا: بشرك، وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله، وكذا قال قتادة وغير واحد، وعن ابن عباس: هو أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة أو قتل، فتظلم من لا يظلمك وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم [الطبري ١٧/ ١٤٠]، وقال مجاهد: بظلم: يعمل فيه عملًا سيئًا، وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي في الشر إذا كان عازمًا عليه وإن لم يوقعه [الطبري ١٧/ ١٤٠]. قال عبد الله بن مسعود: لو أن رجلًا أراد فيه إلحاد بظلم وهو بعدن أبين، أذاقه الله من العذاب الأليم [الطبري ١٧/ ١٤١]، وعن مجاهد: إلحاد فيه لا والله، وبلى والله، وعن عبد الله بن عمرو مثله، وقال سعيد بن جبیر: شتم الخادم ظلم فما فوقه، وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ﴾ قال: تجارة الأمير فيه، وعن ابن عمر: بيع الطعام بمكة إلحاد، وقال حبيب بن أبي ثابت: المحتكر بمكة [الطبري ١٧/ ١٤٠]، وكذا قال غير واحد.

وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُوِّلُ﴾ [الفيل: ٤ - ٥]؛ أي: دمرهم وجعلهم عبرة ونكالًا لكل من أراد بسوء، ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (يَغْزُو هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ خُسِفَ بِأُولِهِمْ وَأَخْرَجَهُمُ) الحديث [البخاري/ ٢٠١٢ بلفظ قريب، وروى عنه مسلم/ ٢٨٨٣].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِيكُ مِنْ كُلِّ فُجٍّ عَمِيقٍ﴾.

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به في البقعة التي أسست من أول يوم على

توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت؛ أي: أرشده إليه وسلمه له وأذن له في بناءه، واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله، كما ثبت في «الصحاحين» عن أبي ذر، قلت: يا رسول الله أي مسجد وُضِعَ أول؟ قال: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ). قلت: ثم أي؟ قال: (بَيْتُ الْمَقْدِسِ). قلت: كم بينهما؟ قال: (أَرْبَعُونَ سَنَةً) [البخاري/٣١٨٦ ومسلم/٥٢٠، كلاهما بلفظ: المسجد الأقصى]، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَرَا بَيْنَ اللَّطَائِفِينَ وَالْعَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى هاهنا: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِي﴾؛ أي: ابنه على اسمي وحدي ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ قال قتادة ومجاهد: من الشرك ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾؛ أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل بقعة من الأرض سواها، ﴿وَالْعَافِينَ﴾؛ أي: في الصلاة، ولهذا قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفي الحرب وفي النافلة في السفر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾؛ أي: ناد في الناس بالحج، داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذكر أنه قال: يا رب وكيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبي قُبَيْس، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حَجَرٍ وَمَدَرٍ وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك. هذا مضمون ما روي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف [الطبري ١٤٤/١٧]، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ﴾ قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً؛ لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وشدة عزمهم، والذي عليه الأكثر أن الحج راكباً أفضل، اقتداء برسول الله ﷺ فإنه حج راكباً مع كمال قوته ﷺ.

وقوله: ﴿يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ﴾؛ يعني: طريق، وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾؛ أي: بعيد. قاله مجاهد، والسدي، وقتادة وغير واحد [الطبري ١٤٦/١٧]، وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم حيث قال في دعائه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ (٢٨) ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُرَهُمْ وَلِيَبْطَلُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (٢٩).

قال ابن عباس: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدن، والذبائح والتجارات، وكذا قال مجاهد وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة [الطبري ١٤٧/١٧] كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، عن ابن عباس: الأيام المعلومات أيام العشر، وروي مثله عن أبي موسى الأشعري، ومجاهد، وقتادة، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك، وعطاء الخراساني، وإبراهيم النخعي [انظر الطبري ١٤٨/١٧]، وهو مذهب الشافعي والمشهور عن أحمد بن حنبل.

وروى البخاري [٩٢٦] عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: (مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ) قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: (وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ، يَخْرُجُ يَخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ)، وقال البخاري: وكان ابن عمر، وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما [روى البخاري ذلك تعليقاً عن عمر رضي الله عنه ٣٣٠/١].

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في «صحيح مسلم» [١١٦٢ بنحوه] عن أبي قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال: (أَحْسِبْ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْآتِيَةَ)، ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله وبالجمله، فهذا العشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، وفضله كثير على عشر رمضان الأخير؛ لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه، وقيل: ذلك أفضل لاشتماله على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالي ذاك أفضل، وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثانٍ: في الأيام المعلومات: قال ابن عباس: الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده، ويروى هذا عن ابن عمر وإبراهيم النخعي، وإليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه.

قول ثالث: كان ابن عمر يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات: يوم النحر، ويومان بعده، والأيام المعدودات: ثلاثة أيام بعد يوم النحر، هذا إسناد صحيح إليه، وقاله السدي، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس [ورواه الطبري عنه ٢/٣٠٤]، ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾؛ يعني: ذكر الله عند ذبحها.

قول رابع: أنها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده، وهو مذهب أبي حنيفة، وقال زيد بن أسلم: المعلومات يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾؛ يعني: الإبل والبقر والغنم كما فصلها تعالى في سورة الأنعام ﴿ثُمَّ نَبِئَهُ أَزْوَاجَهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٣]، وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ﴾ استدلل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي، وهو قول غريب، والذي عليه الأكثر أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بَدَنَةٍ بَبْضَعَةٍ فتطبخ، فأكل من لحمها وحسا من مرقها [رواه مسلم/١٢١٨]. قال مالك: أَجِبْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ أَضْحِيَّتِهِ؛ لأن الله يقول: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وقال الليث مثل ذلك، وقال إبراهيم: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل [الطبري ١٧/١٦٦]، وروي عن مجاهد وعطاء نحو ذلك.

وهذا اختيار ابن جرير في «تفسيره»، واستدل من نصر القول بأن الأضاحي يتصدق منها بالنصف بقوله في هذه الآية: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ﴾ فجزأها نصفين: نصف للمضحي ونصف للفقراء، والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له وثلث يهديه وثلث يتصدق به، لقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ﴾ [الحج: ٣٦]، وقوله: ﴿أَمْرَ الْفَقِيرِ﴾ قال عكرمة: هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس، وهو الفقير المتعفف، وقال مجاهد: هو الذي لا يبسط يده، وقال قتادة: هو الزَّيْن، وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير، وقوله: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال ابن عباس: وهو وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ونحو ذلك، وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، وقال ابن عباس أيضًا: التفت: المناسك [انظر الطبري ١٧/١٤٩]، وقوله: ﴿وَلْيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني: نحر ما نذر من أمر البدن، وقال مجاهد: ﴿وَلْيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ﴾ نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج، وعنه قال: الذبائح، وقال أيضًا: كل نذر إلى أجل وقال عكرمة ﴿وَلْيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ﴾ قال: حجهم، وقال سفيان: نذر الحج، فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه: الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة وعرفة والمزدلفة ورمي الجمار على ما أمروا به [الطبري ١٧/١٥٠]، وروي عن مالك نحو هذا.

وقوله: ﴿وَلْيَبْتَطِفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال مجاهد: يعني: الطواف الواجب يوم النحر، وقال أبو حمزة: قال لي ابن عباس: أتقرأ سورة الحج؟ يقول الله تعالى: ﴿وَلْيَبْتَطِفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت.

قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت، وفي «الصحيحين» عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف إلا أنه خفف عن المرأة الحائض [البخاري/١٦٦٨ ومسلم/١٣٢٨].

وقوله: ﴿وَالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصرت

بهم النفقة، ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنَّهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة، وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال: لأنَّه أول بيت وضع للناس، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وعن عكرمة أنه قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنَّه أعتق يوم الغرق زمان نوح، وقال خصيف: إنما سمي بالبيت العتيق؛ لأنَّه لم يظهر عليه جبار قط. وقال مجاهد: أعتق من الجبابة أن يسلطوا عليه، وكذا قال قتادة، وقال ابن الزبير: إنما سمي البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابة [الطبري ١٧/ ١٥١ - ١٥٢ والترمذي/ ٣١٧٠].

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنَعَمُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَطَهُ الظُّيُورُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما لفاعلها من الثواب الجزيل. ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾؛ أي: ومن يجتنب معاصيه، ومحارمه ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾؛ أي: فله على ذلك خير كثير، فكما على فعل الطاعات ثواب كثير، كذلك على تلك المحرمات، قال مجاهد في قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ قال: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها، وكذا قال ابن زيد.

وقوله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنَعَمُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: أحللنا لكم جميع الأنعام وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: من تحريم ﴿الْمَيْتَةِ وَالْدَمِّ وَلَحْمِ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَيْغِرٍ اللَّهُ بِهِ وَالْمُنْحَنَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة، وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ «من» ها هنا لبيان الجنس؛ أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلَّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور، وفي «الصحيحين» عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: (أَلَا أُنبِئُكُمْ بِكَبِيرِ الْكِبَائِرِ؟) قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: (الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ - وكان متكئًا فجلس، فقال: - أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ)، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت [البخاري/ ٥٦٣١ ومسلم/ ٨٧ نحوه].

وقال ابن مسعود: تُعَدِّلُ شهادة الزور الإشراك بالله، ثم قرأ هذه الآية [روى أحمد نحوه مرفوعاً للنبي ﷺ/ ١٨٩١٨].

وقوله: ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ﴾؛ أي: مخلصين له الدين منحرفين عن الباطل قصدًا إلى الحق، ولهذا

قال: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾، ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى، فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: سقط منها ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ﴾؛ أي: تقطعه الطيور في الهواء، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾؛ أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه، ولهذا جاء في حديث البراء: (إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا تَوَفَّتْهُ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ، وَصَعِدُوا بِرُوحِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَلَا تُفْتَحُ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، بَلْ تُطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا مِنْ هُنَاكَ) [وهو صحيح، ورواه أحمد بمعناه مطولاً/١٨٦٣٧].

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى تُمْرَّ عَلَيْهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿٢٣﴾.

يقول تعالى: هذا ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ﴾؛ أي: أوامره ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال ابن عباس: تعظيمها استسمانها واستحسانها، وروى البخاري [١٦٢٦] عن أنس أن رسول الله ﷺ ضحى بكيشين أملحين أقرنين، وعن علي رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وأن لا نضحى بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء. رواه أحمد [٨٥١]، وأهل السنن [النسائي/٤٤٦٢، والبيهقي/١٨٨٨٢، والترمذي/١٤٩٨]، وصححه الترمذي ولهم عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ أن نضحى بأعضب القرن والأذن [وهو صحيح، رواه الحاكم/١٧١٩ وابن خزيمة/٢٩١٣]، وقال سعيد بن المسيب: العضب: النصف فأكثر، وعند الشافعي أن الأضحية بذلك مجزئة لكن تكره، وقال الإمام أحمد: لا تجزئ الأضحية بأعضب القرن والأذن لهذا الحديث، وقال مالك: إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزئ وإلا أجزأ، والله أعلم.

وأما المقابلة فهي التي قطع مقدم أذنها، والمدابرة من مؤخر أذنها، والشرقاء هي التي قطعت أذنها طوياً، قاله الشافعي، وأما الخرقاء فهي التي خرقت السمة أذنها خرقاً مُدَوَّراً، والله أعلم، وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: (أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَضَاحِيِّ: الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوْرَهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا، وَالْعَرَجَاءُ الْبَيِّنُ ظَلْعُهَا، وَالْكَسِيرَةُ الَّتِي لَا تُنْقِي). رواه أحمد [١٨٥٣٣] وأهل السنن [النسائي/٤٤٥٩ وابن ماجه/٣١٤٤ والبيهقي/١٨٨٧٧ والترمذي/١٤٩٧]، وصححه الترمذي، وهذه العيوب تنقص اللحم لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فهذا لا تجزي التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث، واختلف قول الشافعي في المريضة مرضاً يسيراً على قولين، فهذه العيوب كلها مانعة من الإجزاء، فإن طرأ العيب بعد تعيين الأضحية، فإنه لا يضر عند الشافعي خلافاً لأبي حنيفة، وقال ابن عباس: البدن من شعائر الله، وقال محمد بن أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والحلق والبدن من شعائر الله، وقال ابن عمر: أعظم الشعائر: البيت.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾؛ أي: لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها، وقال مجاهد في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: الركوب اللبن والولد، فإذا سميت بدنة أو هدياً ذهب ذلك كله، وكذا قال عطاء والضحاك، وقتادة، وعطاء



الخراساني وغيرهم، وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت في «الصحيحين» عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال: (ارْكَبْهَا) قال: إنها بدنة. قال: (ارْكَبْهَا، وَبَحَكَ) في الثانية أو الثالثة [رواه البخاري بلفظ: ويلك/ ١٦٠٤] وكذلك عند مسلم/ [١٣٢٢]، وفي رواية لمسلم [١٣٢٤]، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ارْكَبْهَا بِالْمَعْرُوفِ إِذَا لَبِثْتَ إِلَيْهَا) وقوله: ﴿ثُمَّ مَحِلَّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؛ أي: محل الهدى وانتهاءه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥]، وقال ابن عباس: كل من طاف بالبيت فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلَّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْيَهُكُمُ إِلَهٌُ وَحْدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾.

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل، وعن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ قال: عيداً، وقال عكرمة: ذبيحاً، وقال زيد بن أسلم: إنها مكية، لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها، وقوله: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ﴾ كما ثبت في «الصحيحين» عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسَمَّى وكَبَّرَ ووضع رجله على صفاحهما [البخاري/ ٥٢٣٨ ومسلم/ ١٩٦٦]، وقوله: ﴿فَالْيَهُكُمُ إِلَهٌُ وَحْدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾؛ أي: معبودكم واحد، وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾؛ أي: أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته، ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك وقتادة: المتواضعين، وقال السدي: الوجلين، وقال عمرو بن أوس: ﴿الْمُخْبِتِينَ﴾: الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقال الثوري: المطمئنين الراضين بقضاء الله المستسلمين له، وأحسن ما يفسر بما بعده، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: خافت منه قلوبهم ﴿وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾؛ أي: من المصائب، قال الحسن البصري: والله لتَصْبِرُنَّ أو لتَهْلِكُنَّ. ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾؛ أي: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ أي: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهلهم وأقاربهم وأرقائهم وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله.

﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهُمْ لَكُمْ مِنَ الشَّعَائِرِ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣٦).

يقول تعالى ممتناً على عباده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها

تُهدى إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يهدى إلى بيته الحرام، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا اشْهَرُوا الْحَرَامَ وَلَا اِهْدُوا وَلَا اَلْقَلْبِدَ﴾ الآية [المائدة: ٢]، قال عطاء في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعِيرٍ اللَّهُ﴾ قال: البقرة والبعير، وكذا روي عن ابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصري، وقال مجاهد: وإنما البدن من الإبل.

قلت: أما إطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين، أصحابهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح في الحديث، ثم جمهور العلماء على أنه تجزئ البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي، البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾؛ أي: ثواب في الدار الآخرة، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ يَوْمَ النَّحْرِ عَمَلًا أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هِرَاقَةٍ دَمٍ، وَإِنَّهُ لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأُظْلَافِهَا وَأَشْعَارِهَا، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ، قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ، فَطَبِّئُوا بِهَا نَفْسًا). رواه ابن ماجه [٣١٢٦]، والترمذي وحسنه [١٤٩٣]، وقال سفيان الثوري: كان أبو حازم يستدين ويسوق البُذْن، ف قيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول لكم: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع، وقال إبراهيم النخعي: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً﴾ قال ابن عباس: قياماً على ثلاث قوائم، معقولة يدها اليسرى، يقول: باسم الله والله أكبر، اللَّهُمَّ منك ولك، ونحوه عن مجاهد والضحاك، وفي «الصحيحين» عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أناخ بدنته وهو ينحرها فقال: ابعثها قياماً مقيدة، سنة أبي القاسم ﷺ، وقال طاوس والحسن وغيرهما «فاذكروا اسم الله عليها صوافي»؛ يعني: خالصة لله ﷻ، وعن ابن زيد نحوه، وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ قال مجاهد: يعني: سقطت إلى الأرض، وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان، وعن ابن عباس: نحرته، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ماتت، وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس، ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرته حتى تموت وتبرد حركتها، وفي «صحيح مسلم» [١٩٥٥]: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلْيُحَدِّثْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِخْ ذَبِيحَتَهُ).

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال بعض السلف: قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر بإباحة، وقال مالك: يستحب ذلك، وقال غيره: يجب، وهو وجه لبعض الشافعية، واختلفوا في المراد بالقانع والمعتَر، فعن ابن عباس: القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته، والمعتَر الذي يتعرض لك ويلتم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل، وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القرظي، وقال ابن عباس أيضاً: القانع: المتعفف، والمعتَر: السائل، وهذا قول قتادة، وإبراهيم النخعي، ومجاهد في رواية عنه، وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم، والحسن البصري وغيرهم: القانع: هو الذي يَنْعُغُ إليك ويسألك، والمعتَر: الذي يعتريك يتضرع ولا يسألك،

وهذا لفظ الحسن، وقال سعيد بن جبیر: القانع هو السائل، وبه قال ابن زيد، وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذي يطوف، والمعتر: الصديق والضيف الذي يزور، وهو رواية عن ابنه عبد الله بن زيد أيضًا، وعن مجاهد أيضًا: القانع: جارك الغني الذي يبصر ما يدخل بيتك، والمعتر: الذي يعتريك من الناس، وعن عكرمة: القانع: أهل مكة، واختار ابن جرير أن القانع: هو السائل؛ لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر: من الاعتراء وهو الذي يتعرض لأكل اللحم، وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجزأ ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال للناس: (إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنِ ادِّخَارِ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ، فَكُلُوا وَادِّخِرُوا مَا بَدَا لَكُمْ) [رواه الترمذي بنحوه/١٥١٠]، وفي رواية: (فَكُلُوا وَادِّخِرُوا وَتَصَدَّقُوا) [الموطأ/١٠٣٠]، وفي رواية: (فَكُلُوا وَأَطْعِمُوا وَتَصَدَّقُوا) [رواه مسلم/١٩٧١]. والقول الثاني: أن المضحي يأكل النصف ويتصدق بالنصف، لقوله في الآية المتقدمة: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]، ولقوله في الحديث: (فَكُلُوا وَادِّخِرُوا وَتَصَدَّقُوا)، فإن أكل الكل، فقليل: لا يضمن شيئاً، وبه قال ابن سريج من الشافعية، وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها، وقيل: يضمن نصفها، وقيل: ثلثها، وقيل: أدنى جزء منها، وهو المشهور من مذهب الشافعي.

مسألة: عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ عَجَلَهُ لِأَهْلِهِ، لَيْسَ هُوَ مِنَ النَّسِكِ فِي شَيْءٍ) أخرجاه [البخاري/٩٢٥ ومسلم/١٩٦١ بنحوه]، فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء: إن أول وقت ذبح الأضاحي إذا طلعت الشمس يوم النحر ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين، زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك لما جاء في «صحيح مسلم» [بمعناه/١٩٦١]: (وَأَنْ لَا تَذْبَحُوا حَتَّى يَذْبَحَ الْإِمَامُ)، وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوهم فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر، إذ لا صلاة عيد تشرع عنده لهم، وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام، والله أعلم، ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده، وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار لتيسر الأضاحي عندهم، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبیر، وقيل: يوم النحر ويوم بعده للجميع، وقيل: ويومان بعده، وبه قال الإمام أحمد، وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعي لحديث جبیر بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: (أَيَّامُ التَّشْرِيقِ كُلُّهَا ذَبْحٌ) [رواه أحمد/١٦٧٩٨، وابن حبان/٣٨٥٤، وله طرق وشواهد يتقوى بها].

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالى: من أجل هذا ﴿سَخَرْنَاهَا لَكُمْ﴾؛ أي: ذللناها لكم، وجعلناها منقاداً لكم خاضعة، إن شئتم ركبتهم، وإن شئتم حلبتم، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (٦١)

وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ [يس: ٧١ - ٧٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٣٧﴾.

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرزاق لا يناله شيء من لحومها ولا دماؤها، فإنه تعالى هو الغني عما سواه، وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قربانهم، ونضحوا عليها من دماؤها، فقال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾، كما جاء في «الصحيح»: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) [رواه مسلم/٢٥٦٤]، وجاء في الحديث: (إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتَقَعَ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ السَّائِلِ، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعَ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ) كما تقدم في الحديث، رواه ابن ماجه [الجزء الثاني من الحديث/٣١٢٦] والترمذي [مثله/١٤٩٣]، وحسنه عن عائشة مرفوعاً، فمعناه أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ﴾؛ أي: من أجل ذلك سخر لكم البدن. ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ﴾؛ أي: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ويرضاه ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: وبشر يا محمد المحسنين؛ أي: في عملهم القائمين بحدود الله المتبعين ما شرع لهم المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه ﷻ.

مسألة: وقد ذهب أبو حنيفة، ومالك، والثوري إلى القول بوجوب الأضحية على من ملك نصائباً، وزاد أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضاً، وقال ابن عمر: أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحى، رواه الترمذي [١٥٠٧ وحسنه]، وقال الشافعي وأحمد: لا تجب الأضحية بل هي مستحبة، وقد تقدم أنه عليه الصلاة والسلام ضحى عن أمته، فأسقط ذلك وجوبها عنهم، وقال أبو سريحة: كنت جارا لأبي بكر وعمر، فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما، وقال بعض الناس: الأضحية سنة كفاية، إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة أو بيت، سقطت عن الباقيين؛ لأن المقصود إظهار الشعار، وقد روى الإمام أحمد [٢٠٧٥٠]، وأهل السنن [الترمذي/١٥١٨، وأبو داود/٢٧٨٨، وابن ماجه/٣١٢٥] وحسنه الترمذي عن مخنف بن سليم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات: (عَلَى كُلِّ أَهْلٍ بَيْتٍ فِي كُلِّ عَامٍ أَضْحَاةٌ وَعَتِيرَةٌ، هَلْ تَدْرُونَ مَا الْعَتِيرَةُ؟ هِيَ الَّتِي تَدْعُونَهَا الرَّجْبِيَّةُ) [وحسنه الألباني].

وأما مقدار سن الأضحية فقد روى مسلم [١٩٦٣] عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: (لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً، إِلَّا أَنْ يَعْسُرَ عَلَيْكُمْ، فَتَذْبَحُوا جَذْعَةً مِنَ الضَّأْنِ).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكّلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار، وكيد الفجار، ويحفظهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾؛ أي: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود لا يفي بما قال، والكفر: الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِإِنْفِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصُّلُوعُ وَبِيعَ وَصَلَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة، وقال غير واحد من السلف: هذه أول آية نزلت في الجهاد، واستدلّ بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية، وروى ابن جرير [١٧٢/١٧] عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبينهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن. قال ابن عباس: فأنزل الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِإِنْفِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال، ورواه الإمام أحمد [١٨٦٥] وزاد: هي أول آية نزلت في القتال، ورواه الترمذي [٣١٧١] والنسائي في «التفسير» [٤٢٩٢] من سننهما وقال الترمذي: حديث حسن.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾؛ أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمَوْهُمْ فَشَدُّوا أَلْوَاكَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوًا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ (٤) ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ (٥) ﴿وَيُؤْتِيهِمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ [محمد: ٤-٦]، والآيات في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وقد فعل، وإنما شرع الله الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً فلو أمر المسلمين وهم أقل من العشر بقتال الباقيين لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفاً وثمانين، قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي، يعنون أهل منى، ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: (إني لم أؤمر بهذا) فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شذر مذر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومَعْقَلًا يلجؤون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك،

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق؛ يعني: محمداً وأصحابه ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾؛ أي: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له، وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر، وأما عند المشركين فإنه أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١]، وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون في بناء الخندق ويقولون:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا  
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَا قَيْنَا  
إِنَّ الْأَلَىٰ قَدْ بَغَّوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

فيوافقهم رسول الله ﷺ ويقول معهم آخر كل قافية، فإذا قالوا: إذا أرادوا فتنة أبينَا. يقول: «أَبَيْنَا» يمد بها صوته [معناه في «الصحاح» البخاري/٣٨٧٨ ومسلم/١٨٠٣]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: لولا أنه يدفع بقوم عن قوم، ويكف شرَّ أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض ولأهلك القوي الضعيف. ﴿هَلَكَمَتْ صَوَائِعُ﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية وغيرهم، وقال قتادة: هي معابد الصابئين، وفي رواية عنه: صوامع المجوس، وقال مقاتل بن حيان: هي البيوت التي على الطرق ﴿وَبِيعُ﴾ وهي أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، وهي للنصارى أيضاً، قاله أبو العالية، وقتادة، والضحاك، وابن صخر وغيرهم، وحكي عن مجاهد وغيره أنها كنائس اليهود، وحكى السدي عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس اليهود، ومجاهد إنما قال: هي الكنائس [انظر الطبري ١٧/١٧٦]، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَصَلُّوا﴾ قال العوفي عن ابن عباس: الصلوات الكنائس [انظر الطبري ١٧/١٧٦] وكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة: إنها كنائس اليهود، وهم يسمونها صَلُوتًا، وحكى السدي عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس النصارى، وقال أبو العالية وغيره: الصلوات معابد الصابئين، وقال مجاهد: الصلوات مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق، وأما المساجد فهي للمسلمين، وقوله: ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ فقد قيل: الضمير في قوله يذكر فيها عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات، وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً، وقال ابن جرير: الصواب لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب، وقال بعض العلماء: هذا ترقُّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد وهي أكثر عُمَارًا وأكثر عبادًا وهم ذوو القصد الصحيح.

وقوله: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْهُمْ وَيُنِيبَتْ أَقْدَامُكُمْ﴾ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَالْضَّلَّ أَعْمَلُهُمْ [محمد: ٧، ٨]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً، وبعزته لا يقهره قاهر، بل كل

شيء ذليل لديه فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْثَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٦) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (٧٧) ﴿وَأَنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧١ - ١٧٣].

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٤١).

قال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال الصباح بن سودة الكِنْدِي: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، ثم قال: ألا إنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المستكرهة، ولا المخالف سرها علانيتها، وقال عطية العوفي: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، وقال زيد بن أسلم: ﴿وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ (٤٢) ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٤٦).

يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَكَذَّبَ مُوسَى﴾؛ أي: مع ما جاء به من الآيات البينات ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾؛ أي: أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أي: فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟! وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وبين إهلاك الله له أربعون سنة، وفي «الصحيحين» [البخاري/٤٤٠٩] ومسلم/٢٥٨٣ عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ) ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، ثم قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾؛ أي: كم من قرية أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾؛ أي: مكذبة لرسولها ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقوفها؛ أي: قد خربت وتعطلت حواضرها ﴿وَيَبْرٌ مَعْطَلَةٌ﴾؛ أي: لا يستقى منها، ولا يردُّها أحد بعد كثرة وارديها

والازدحام عليها ﴿وَقَصِّرْ مَشِيدًا﴾ قال عكرمة: يعني: المبيض بالجص [الطبري ١٧/١٨٠]، وروي عن علي بن أبي طالب، ومجاهد، وعطاء [وغيرهم] نحو ذلك، وقال آخرون: هو المُشِف المرتفع، وقال آخرون: المشيد المنيع الحصين، وكل هذه الأقوال متقاربة ولا منافاة بينها، فإنه لم يَحْمِ أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: بأبدانهم وبفكرهم أيضًا، وذلك كافٍ كما قال ابن أبي الدنيا في كتاب التفكير والاعتبار: عن مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران ﷺ أن يا موسى اتخذ نعلين من حديد وعصا، ثم سَحَّ في الأرض، ثم اطلب الآثار والعبر، حتى يتخرق النعلان وتنكسر العصا، وقال ابن أبي الدنيا: قال بعض الحكماء: أحى قلبك بالمواعظ، ونوره بالفكر، وموته بالزهد، وقوه باليقين، وذلله بالموت، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر وفُحْش تقلب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب من كان قبله، وسِرَّ في ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا، وأين حلُّوا وعمَّ انقلبوا؛ أي: فانظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنتكال، ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾؛ أي: فيعتبرون بها، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾؛ أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر.

﴿وَيَسْتَعِجْلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾  
﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٤٨).

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَيَسْتَعِجْلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾؛ أي: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقوله: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾؛ أي: الذي قد وعد من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه، وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ أي: هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء وإن أجل وأملى، ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ روى ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ، خَمْسِمِائَةِ عَامٍ) ورواه الترمذي [٢٣٥٤]، والنسائي [٥٨٧٦] بلفظ: [أربعين عامًا]، وقال الترمذي: حسن صحيح، وعن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض، وبه قال مجاهد وعكرمة، ونص عليه أحمد بن حنبل [١٠٧٤١] في كتاب



الرد على الجهمية، وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

﴿قُلْ يَتَىٰهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَتَىٰهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم، بين يدي عذاب شديد، وليس إلي من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم، قال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ قال مجاهد: يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ، وكذا قال عبد الله بن الزبير: مثبطين [ابن أبي حاتم/ ١٧٢٣٠]، وقال ابن عباس: مراغمين. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وهي النار الحارة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها، أجازنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة العرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، [وكل طرقها] مراسلات ومنقطعات، والله أعلم، وقد ساق البغوي في تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما بنحو من ذلك، ثم سأل هاهنا سؤالاً: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس من ألطفها أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن ﷺ، والله أعلم.

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته، وقد تعرض القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ فِي كتاب الشفاء لهذا، وأجاب عنه، وقوله: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ هذا فيه تسلية له صلوات الله وسلامه عليه، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء. قال البخاري: قال ابن عباس: ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته، وقال مجاهد: ﴿إِذَا تَمَنَّيَ﴾؛ يعني: إِذَا قَالَ، ويقال: أُمْنِيَّتُهُ قراءته، قال البغوي [٢٩٣/٣] وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿تَمَنَّيَ﴾؛ أي: تلا وقرأ كتاب الله ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾؛ أي: فِي تِلَاوَتِهِ، وقال الضحاك: ﴿إِذَا تَمَنَّيَ﴾ إِذَا تَلَا. قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام، وقوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ حقيقة النسخ لغة الإزالة والرفع، قال ابن عباس: أي: فيبطل الله ﷻ ما ألقى الشيطان، وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته [الطبري ١٧/١٩٠]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾؛ أي: بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: فِي تَقْدِيرِهِ وَخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، لَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، ولهذا قال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾؛ أي: شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح من عند الله، وإنما كان من الشيطان. قال ابن جريج: ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم المنافقون، ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم المشركون. وقال مقاتل بن حيان: هم اليهود.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: فِي ضَلَالٍ وَمُخَالَفَةٍ وَعِنَادٍ بَعِيدٍ؛ أي: من الحق والصواب، ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾؛ أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والمؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم، ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾؛ أي: يصدقوه وينقادوا له، ﴿فَتُخَيِّتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: تخضع وتذل له قلوبهم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَا فِي الدُّنْيَا فِيرْشُدُهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ، وَيُوفِّقُهُمْ لِمُخَالَفَةِ الْبَاطِلِ وَاجْتِنَابِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ يَهْدِيهِمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ الْمُوَصِّلَ إِلَى دَرَجَاتِ الْجَنَاتِ، وَيُزَحِّجُهُمْ عَنِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَالدَّرَكَاتِ.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيضَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾ الْمَلَأَ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ بِحُكْمٍ بَيْنَهُمْ فَأَلْذِيكَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِيتٌ ٥٧﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار: إنهم لا يزالون فِي مَرِيضَةٍ فِي مَرِيضَةٍ؛ أي: فِي شَكٍّ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ [١٩٢/١٧]، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ، وَابْنُ زَيْدٍ: مِنْهُ أَيُّ مِمَّا أَلْقَى الشَّيْطَانُ ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: فَجْأَةً، وَقَالَ قَتَادَةُ: بَغَتْ الْقَوْمُ أَمْرُ اللَّهِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ قَوْمًا قَطُّ إِلَّا عِنْدَ سَكْرَتِهِمْ وَغَرَّتِهِمْ وَنَعْمَتِهِمْ، فَلَا تَغْتَرُوا بِاللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَغْتَرُ بِاللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الفاستقون، وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ غَيْرٍ﴾ قال أبي بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير [١٧/١٩٣]، قال عكرمة، ومجاهد في رواية عنهما: هو يوم القيامة، لا ليل له، وكذا قال الضحاك، والحسن البصري [١٧/١٩٣]، وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أُوعِدُوا به لكن هذا هو المراد، ولهذا قال: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَخْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ كقوله: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاحة: ٤]، وقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم، ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾؛ أي: لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: كفرت قلوبهم بالحق وجحدوا به، وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ أي: صاغرين.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَلَا يَرْبِكُ اللَّهُ لَهُمْ خَيْرُ الْرِزْقَيْنِ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ عَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن مخرج مهاجرًا في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلبًا لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلان، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرة لدين الله ثم قتلوا؛ أي: في الجهاد، أو ماتوا؛ أي: حتف أنفسهم؛ أي: من غير قتال على فرسهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ أي: ليُجَرِّينَ عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الْرِزْقَيْنِ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾؛ أي: الجنة كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٥٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال هاهنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ ثم قال: ﴿لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾؛ أي: بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك ﴿حَلِيمٌ﴾؛ أي: يحلم ويغفر لهم الذنوب، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه، فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حي عند ربه يرزق، والأحاديث في هذا كثيرة، وأما من تُوَفِّي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه وعظيم إحسان الله إليه. روى ابن أبي حاتم عن شَرَحْبِيل بن السَّمُط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمر بي



سواه؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس ﷻ عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أُنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٦٣) ﴿لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ﴾ (٦٤) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٥) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُم إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ (٦٦).

وهذا أيضاً من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل الرياح فتثير سحاباً فيمطر على الأرض الجُزْرَ التي لا نبات فيها، وهي هامة يابسة سوداء ممحلة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥].

وقوله: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ الفاء هاهنا للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه، وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾؛ أي: عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، ولا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: ﴿يَبْنِيْ إِيَّاهَا إِنْ تَكُ مُثَقَّالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمُوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]، وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: مُلْكُهُ جميع الأشياء، وهو غني عما سواه وكل شيء فقير إليه، عبد لديه، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: من حيوان وجماد وزروع وثمار، كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الحج: ١٣]؛ أي: من إحسانه وفضله وامتنانه، ﴿وَالْفَلَكَ تَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾؛ أي: بتسخيره وتسييره؛ أي: في البحر العجاج، وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها بريح طيبة، ورفق وتؤدة فيحملون فيها ما شأوا من بضائع ومنافع من بلد إلى بلد وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك مما يحتاجون إليه ويريدونه، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾؛ أي: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: مع ظلمهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُم إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾، كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُم ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، ومعنى الكلام: كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُم﴾؛ أي: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يُذكر، فأوجدكم ﴿ثُمَّ

يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ؛ أي: يوم القيامة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾؛ أي: جحود.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَّيْ هَٰذَا مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦٧) وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾.

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكًا، قال ابن جرير: يعني: لكل أمة نبي منسكًا، قال: وأصل المنسك في كلام العرب: هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه إما لخير أو شر. قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها، فإن كان كما قال، يكون المراد بقوله: فلا ينزع عنك في الأمر؛ أي: هؤلاء المشركين، وإن كان المراد لكل أمة جعلنا منسكًا جعلًا قدرًا كما قال: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُوَ مُوَلِّيًا﴾ [البقرة: ١٤٨] ولهذا قال هاهنا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾؛ أي: فاعلوه، فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق؛ أي: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق، ولهذا قال: ﴿وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَّيْ هَٰذَا مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود، وهذا كقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَأَذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٧].

وقوله: ﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨]، ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. وهذه كقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٧٠).

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى عليم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في «صحيح مسلم» [٢٦٥٣] عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)، وفي السنن [رواه أبو داود/ ٤٧٠٠] والبيهقي/ ٢٠٦٦٤ والترمذي/ ٣٣١٩ من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: (أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ. فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ

كَائِنْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ [وصححه الألباني]، وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه يسير لديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾  
 ﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُفَرْتُمْ مِنْ ذَلِكَ أَلَمْ تَكُونُوا أَقْدَرُ عَلَى أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾  
 ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمُسِيرُ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً؛ يعني: حجة، كقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ولهذا قال ههنا: ﴿مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾؛ أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه، وإنما هو أمره تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾؛ أي: من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال، ثم قال: ﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾؛ أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾؛ أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴿قُلْ﴾؛ أي: يا محمد لهؤلاء ﴿أَفَأَنْتُمْ كُفَرْتُمْ مِنْ ذَلِكَ أَلَمْ تَكُونُوا أَقْدَرُ عَلَى أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم.

وقوله: ﴿وَيَسَّ الْمُسِيرُ﴾؛ أي: وبئس النار مقيلاً ومنزلاً ومرجعاً، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿يَتَّخِذُهَا النَّاسُ صُورًا مَثَلًا فَلَا تَسْمَعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾  
 ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها ﴿يَتَّخِذُهَا النَّاسُ صُورًا مَثَلًا﴾؛ أي: لما يعبد الجاهلون بالله المشركون به ﴿فَلَا تَسْمَعُوا لَهُ﴾؛ أي: أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾؛ أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك، كما روى

الإمام أحمد [٩٠٧١] عن أبي هريرة مرفوعاً قال: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا مِثْلَ خَلْقِي ذَرَّةً، أَوْ ذُبَابَةً، أَوْ حَبَّةً)، وأخرجاه في «الصحيحين» [رواه البخاري/٥٦٠٩ ومسلم/٢١١١، وليس فيه ذكر الذبابة]. ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ﴾؛ أي: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنفذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿ضَعُفَكَ الطَّلَبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ قال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب، واختاره ابن جرير [٢٠٣/١٧]، وهو ظاهر السياق، وقال السدي وغيره: الطالب العابد، والمطلوب الصنم [البغوي ٢٩٨/٣]، ثم قال: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ﴾؛ أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ أي: هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: قد عز كل شيء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾.

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره، ومن الناس لإبلاغ رسالته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾؛ أي: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾؛ أي: يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، كما قال: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٧٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ [الجن: ٢٦، ٢٧]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُولَ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكُعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾.

اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هي مشروع السجود فيها، أم لا؟ على قولين، وقد قدمنا عند الأولى حديث: (فُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ بِسَجْدَتَيْنِ)



[الحاكم في المستدرک/ ٨٠٥]. وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾؛ أي: بأموالكم وألستكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقوله: ﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ﴾؛ أي: يا هذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾؛ أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعاً، وفي السفر تُقصر إلى اثنتين، وفي الخوف يصلحها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث، [عند البخاري/ ٩٠٠]، وتصلي رجلاً وركباً مستقبلي القبلة وغير مستقبلها، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط لعذر المرض، فيصلحها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات، ولهذا قال ﷺ: ﴿بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ﴾ [رواه أحمد/ ٢٢٣٤٥، حسنه الحافظ في الفتح]، وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن: (بَشْرًا وَلَا تُنْفَرًا، وَيَسْرًا وَلَا تُعَسِّرًا) [متفق عليه]، والأحاديث في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾؛ يعني: من ضيق.

وقوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال ابن جرير: نصب على تقدير ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾؛ أي: من ضيق بل وسعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم، قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير الزموا ملة أبيكم إبراهيم.

قلت: وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الآية [الأنعام: ١٦١]، وقوله: ﴿هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ قال ابن عباس: [يعني] الله ﷻ، وكذا قال مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسدي، ومقاتل بن حيان، وقتادة.

قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر، ﴿وَفِي هَذَا﴾؛ يعني: القرآن، وكذا قال غيره.

قلت: وهذا هو الصواب؛ لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء يتلى على الأحرار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِي هَذَا﴾، وقد روى النسائي [٨٨٦٦] عند تفسير هذه الآية عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جَنِّي جَهَنَّمَ). قال رجل: يا رسول الله ﷺ وإن صام وصلى؟ قال: (نَعَمْ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، فَادْعُوا بِدَعْوَةِ اللَّهِ النَّبِيِّ سَمَّاكُمْ بِهَا الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ) [رواه الترمذي/ ٢٨٦٣] وقال: حسن صحيح غريب، ولهذا قال: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾؛ أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾؛ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها، فلهذا تقبل

شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بَلَّغَتْهُمْ رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك.

وقوله: ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ؛ أي: قابلوها هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض وطاعة ما أوجب وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من ماله في السَّنة للضعفاء والمحاويج.

وقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ ؛ أي: استعينوا به، وتوكلوا عليه وتأيدوا به ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ ؛ أي: حافظكم وناصركم على أعدائكم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ؛ يعني: نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء. قال وهيب بن الورد: يقول الله تعالى: ابن آدم اذكرني إذا غضبت، أذكرك إذا غضبت، فلا أُمَحِّقْكَ فيمن أُمَحِق، وإذا ظَلَمْتَ فاصبر وارض بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. رواه ابن أبي حاتم [٥٣٨٨]، والله تعالى أعلم.



## تفسير سورة المؤمنون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوحِهِمْ خَفِضُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

روى النسائي في «تفسيره» [١١٣٥٠] عن يزيد بن بابتوس قال: قلنا لعائشة أم المؤمنين: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، حتى انتهت إلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ [ورواه الحاكم/ ٣٤٨١ وصححه ووافقه الذهبي، وأوله عند مسلم].

وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد، وأبي العالية وغيرهم: لما خلق الله جنة عدن وغرسها بيده نظر إليها وقال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [رواه أبي شيبه ٣٤٠٨٧]. قال كعب الأحبار: لما أعد لهم من الكرامة فيها [الطبري ١/١٨]، وقال أبو العالية: فأنزل الله ذلك في كتابه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ قال ابن عباس: خائفون ساكنون، وكذا روي عن مجاهد، والحسن، وقتادة، والزهري [الطبري ٤/١٨]، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الخشوع خشوع القلب، وكذا قال إبراهيم النخعي، وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح، وقال ابن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم، وقال محمد بن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مُصَلِّاه، فإن كان قد اعتاد النظر فليغمض، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [١٤٠٦٩] والنسائي [في المجتبى/ ٣٩٤٠] عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه

قال: (حُبَّ إِلَيَّ الطَّيِّبُ وَالنِّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ) [وإسناده حسن].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: عن الباطل، وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم، والمعاصي كما قاله آخرون، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النُصْب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿وَعَاثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٩) ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (٥) ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (٦) ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾؛ أي: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم أو ما ملكت أيمانهم من السراي، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (٦) ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾؛ أي: غير الأزواج والإماء ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾؛ أي: المعتدون.

وقد استدلل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (٥) ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾؛ أي: إذا أؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ) [البخاري/ ٣٣ ومسلم/ ٥٩]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ أي: يواظبون عليها في مواقيتها، كما قال ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله؟ قال: (الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا). قلت: ثم أي؟ قال: (بِرُّ الْوَالِدَيْنِ). قلت: ثم أي؟ قال: (الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أخرجاه في الصحيحين [البخاري/ ٥٠٤ ومسلم/ ٨٥].

وقال ابن مسعود ومسروق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ يعني: في مواقيت الصلاة، وكذا قال أبو الضحى وعلقمة بن قيس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها، وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ: (اسْتَقِيمُوا وَلَكِنْ تَحْضُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ

أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ) [رواه أحمد/ ٢٢٤٣٢، والحاكم/ ٤٤٧، وصححه الألباني]، ولما وصفهم الله تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [١٢] الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وثبت في «الصحيح» [البخاري/ ٢٦٣٧] أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ).

وقال مجاهد: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ قال: ما من عبد إلا وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيُبنى بيته الذي في الجنة، ويُهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيُهدم بيته الذي في الجنة، ويُبنى بيته الذي في النار، وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك، فالمؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم ﷻ، بل أبلغ من هذا أيضًا، وهو ما ثبت في «صحيح مسلم» [٢٧٦٧] عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: (يَجِيءُ نَاسٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَيَغْفِرُهَا اللَّهُ لَهُمْ، وَيَضَعُهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى).

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وكقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقد قال مجاهد، وسعيد بن جبير: الجنة بالرومية هي الفردوس، وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوسًا إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [١٢] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا الْعَلَقَةَ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْعِظْمَ فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْوِيكُمْ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْوِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعُوثٌ ﴿١٦﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم ﷺ خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون، وقال ابن عباس: ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ قال: من صفوة الماء، وقال مجاهد: من سلالة؛ أي: من مني آدم [الطبري ٧/١٨]، وقال ابن جرير: إنما سُمِّيَ آدم طينًا؛ لأنه مخلوق منه، وقال قتادة: استُلِّ آدم من الطين، وهذا أظهر في المعنى وأقرب إلى السياق، فإن آدم ﷺ خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمإ المسنون، وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ عَائِنِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وروى الإمام أحمد [١٩٥٩٧] عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قُبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَالْأَبْيَضُ،

وَبَيَّنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ، وَبَيَّنَ ذَلِكَ)، وقد رواه أبو داود [٤٦٩٣]، والترمذي [٢٩٥٥]، وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ فُسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿[السجدة: ٧، ٨]؛ أي: ضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ (٢٢) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾؛ يعني: الرحم مُعَدٌ لذلك مهياً له ﴿إِنْ قَدَرِ مَعْلُومٍ﴾ (٢٣) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿[المرسلات: ٢٢، ٢٣]؛ أي: مدة معلومة وأجل معين حتى استحکم وتثقل من حال إلى حال وصفة إلى صفة، ولهذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّظْفَةَ عِلْقَةً﴾؛ أي: ثم صَبَرْنَا النطفة علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة، قال عكرمة: وهي دم. ﴿فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مَضْغَةً﴾ وهي قطعة كالْبَضْعَة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ﴿فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عِظْمًا﴾؛ يعني: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها.

وقرأ آخرون: ﴿فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عِظْمًا﴾ قال ابن عباس: وهو عظم الصلب، وفي «الصحيح» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿كُلُّ جَسَدٍ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجَبُ الذَّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرْكَبُ﴾ [البخاري نحوه/٤٦٥١ ومسلم/٢٩٥٥]. ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾؛ أي: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾؛ أي: ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إذا أتمت النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكاً فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾؛ يعني: نفخنا فيه الروح، وروي عن أبي سعيد الخدري أنه نفخ الروح، قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾؛ يعني: به الروح، وكذا قال مجاهد، والحسن، والسدي، وابن زيد [وغيرهم]، واختاره ابن جرير [٩/١٨].

وعن ابن عباس أيضاً: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾؛ يعني: ننقله من حال إلى حال إلى أن خرج طفلاً، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هَرَمًا، وعن قتادة والضحاك نحو ذلك، ولا منافاة فإنه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع في هذه التنقلات والأحوال، والله أعلم. روى الإمام أحمد في «مسنده» [٣٦٢٤] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وهو الصادق المصدق: (إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مَضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَهَلْ هُوَ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيُخْتَمَ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيُخْتَمَ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا) أخرجه [البخاري/

وقال عبد الله بن مسعود: إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر، فتمكث أربعين يوماً، ثم تتحدّر في الرحم فتكون علقة [الطبري ١٦٩/٣]، وروى الإمام أحمد أيضاً [٤٤٣٨] عن عبد الله قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي، فقال: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، قال: فجاءه حتى جلس، فقال: يا محمد مم يخلق الإنسان؟ فقال: (يَا يَهُودِي، مِنْ كُلِّ يُخْلَقُ، مِنْ نُطْفَةِ الرَّجُلِ وَمِنْ نُطْفَةِ الْمَرْأَةِ، فَأَمَّا نُطْفَةُ الرَّجُلِ فَنُطْفَةٌ غَلِيظَةٌ مِنْهَا الْعَظْمُ وَالْعَصَبُ، وَأَمَّا نُطْفَةُ الْمَرْأَةِ فَنُطْفَةٌ رَقِيْقَةٌ مِنْهَا اللَّحْمُ وَالدَّمُ) فقام اليهودي فقال: هكذا كان يقول من قبلك. [وله شاهد عند البزار يتقوى به فهو حسن].

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾؛ يعني: حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السّوي الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾؛ يعني: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾؛ يعني: النشأة الآخرة ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]؛ يعني: يوم المعاد، وقيام الأرواح إلى الأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفى كل عامل عمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (١٧)

لما ذكر تعالى خلق الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وهكذا في أول ﴿الْمَرْ﴾ السجدة التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في صبيحة يوم الجمعة في أولها خلق السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد.

وقوله: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾؛ قال مجاهد يعني: السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال ها هنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾؛ أي: ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما في وغره، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ أَرْضٍ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَكُّهٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَسَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلَيْنِ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِزَّةً شُفِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تُعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر؛ أي: بحسب الحاجة لا كثيرًا فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلًا فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى.

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾؛ أي: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والبحار والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجًا لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض بل ينجر على وجهها لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذبًا، فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار فيسقى به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتطهرون منه وتنتظفون، فله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؛ يعني: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات؛ أي: بساتين وحدائق ذات منظر حسن.

وقوله: ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؛ أي: فيها نخيل وأعناب، وهذا ما كان يألّف أهل الحجاز ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره.

وقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَكُّهٌ كَثِيرٌ﴾؛ أي: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١]، وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر تقديره تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَسَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ﴾؛ يعني: الزيتون، والطور هو الجبل، وقال بعضهم: إنما يسمى طورًا إذا كان فيه شجر، فإن عري عنها سمي جبلًا لا طورًا، والله أعلم، وطور سيناء، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ﷺ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون، وقوله: ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره تنبت الدهن كما في قول العرب: ألقى فلان بيده؛ أي: يده، وأما على قول من يضمن الفعل، فتقديره تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن، ولهذا قال: ﴿وَصَبْغٍ﴾؛ أي: آدم، قاله قتادة، ﴿لِلْأَكْلَيْنِ﴾؛ أي: فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، كما روى عبد بن حميد في «مسنده» [١٣] و«تفسيره» عن



عمر أن رسول الله ﷺ قال: (اِئْتَدِمُوا بِالزَّيْتِ وَادَّهِنُوا بِهِ، فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) ورواه الترمذي [١٨٥١ بلفظ: كلوا] وابن ماجه [٣٣١٩، ويتقوى بحديث أبي أسيد عند أحمد فهو حسن].

وقوله: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّئَلَّا تُكْفِرُوا بِمَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴿ يذكر تعالى ما جعل لخلقها في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم، ويأكلون من حلماتها ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها، ويحملونها الأحمال الثقيل إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلَاغِهِ إِلَّا نَفْسُ النَّفْسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرِيضُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله، وانتقامه ممن أشرك به وكذب رسله، ﴿فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أي: ألا تخافون من الله في إشراككم به؟ فقال الملأ وهم السادة والأكابر منهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون: يترفع عليكم، ويتعظم بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم، فكيف أوحى إليه دونكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾؛ أي: لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً ما سمعنا بهذا؛ أي: ببعثه البشر في آبائنا الأولين، يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية.

وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾؛ أي: مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي ﴿فْتَرِيضُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾؛ أي: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَدْ كُنْتَ كَذِبًا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ أَنْ يَخْلَعُوا أَسْفُلًا وَأَعْلَىٰ ﴿٢٦﴾ وَجَاءَ أَمْرُنَا وَفَكَرَ التَّائِبُونَ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِ فَقُلِ الْخُذْ لِلَّهِ الذِّكْرَ تَجْتَنِّي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أُنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه يستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ [القمر: ١٠] وقال هاهنا: ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا

كَذَّبُونُ ﴿ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِصُنْعَةِ السَّفِينَةِ وَإِحْكَامِهَا ، وَأَنْ يَحْمَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ؛ أَيْ : ذَكَرًا وَأُنْثَى مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالشُّمَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَأَنْ يَحْمَلَ فِيهَا أَهْلَهُ ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أَيْ : مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنَ اللَّهِ بِالْهَلَاكِ ، وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ أَهْلِهِ كَابَنِهِ وَزَوْجَتِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ ؛ أَيْ : عِنْدَ مَعَايِنَةِ أَنْزَالِ الْمَطَرِ الْعَظِيمِ لَا تَأْخُذْنِكَ رَافَةُ بِقَوْمِكَ وَشَفَقَةٌ عَلَيْهِمْ ، وَطَمَعٌ فِي تَأْخِيرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ، فَإِنِّي قَدْ قَضَيْتُ أَنَّهُمْ مُغْرَقُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ .

وقوله : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ السَّلَامُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلِّ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ ﴿ ١٢ ﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿ ١٣ ﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿ [الزخرف : ١٢ - ١٤] . وقد امتاز نوح ﷺ هذا ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ ؛ أَيْ : إِنْ فِي هَذَا الصَّنِيعِ وَهُوَ إِنْجَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَإِهْلَاكُ الْكَافِرِينَ آيَاتٍ ؛ أَيْ : لِحُجْجًا وَاضِحَاتٍ عَلَى صَدَقِ الْأَنْبِيَاءِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنَّهُ تَعَالَى فَاعِلٌ لِّمَا يَشَاءُ قَادِرٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وقوله : ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ ؛ أَيْ : لِمُخْتَبَرِينَ لِلْعِبَادِ بِإِرْسَالِ الْمُرْسَلِينَ .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ ﴿ ٣١ ﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴿ ٣٢ ﴾ أَفَلَا تَنْفَقُونَ ﴿ ٣٣ ﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَاتَّوَفَّيْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿ ٣٤ ﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَرِيرُوتَ ﴿ ٣٥ ﴾ أَعِيدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنَّكُمْ تُخْرِجُونَ ﴿ ٣٦ ﴾ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿ ٣٧ ﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حِكْمَانَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿ ٣٨ ﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿ ٣٩ ﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿ ٤٠ ﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّیُصْحَبَنَّ نَدِیمَیْنِ ﴿ ٤١ ﴾ فَلَاخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ ٤٢ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين ، قيل : المراد بهم عاد ، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم ، وقيل : المراد بهؤلاء ثمود لقوله : ﴿ فَلَاخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾ وأنه تعالى أرسل فيهم رسولاً منهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فكذبوه وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم ، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري ، وكذبوا بقاء الله في القيامة وأنكروا المعاد الجسماني وقالوا : ﴿ أَعِيدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنَّكُمْ تُخْرِجُونَ ﴾ ﴿ ٣٥ ﴾ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ؛ أَيْ : بَعِيدَ بَعِيدَ ذَلِكَ ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ أَيْ : فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالنَّذَارَةِ وَالْإِخْبَارِ بِالْمَعَادِ ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ ٣٨ ﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ؛ أَيْ : اسْتَفْتَحْ عَلَيْهِمُ الرِّسُولَ وَاسْتَنْصِرْ رَبَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَأَجَابَ دَعَاءَهُ ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّیُصْحَبَنَّ نَدِیمَیْنِ ﴾ ؛ أَيْ :

بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصَّارِص العاصف القوي الباردة ﴿تَذِمُّرٌ كُلٌّ مِّنْ رَّيْحٍ فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾؛ أي: صرعى هلكى كغثاء السيل، وهو الشيء الحقيق التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه. ﴿فَبَعَدَ الْفُؤُورَ الظَّالِمِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]؛ أي: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ (٤٦) مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدَ الْفُؤُورَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ .

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾؛ أي: أممًا وخلائق ﴿مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾؛ يعني: بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ، وعلمه قبل كونهم أمة بعد أمة. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَتْرًا﴾ قال ابن عباس؛ يعني: يتبع بعضهم بعضًا [الطبري ٢٣/١٨]، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾؛ يعني: جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَحْزَنُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وقوله: ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾؛ أي: أهلكناهم كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾؛ أي: أخبارًا وأحاديث للناس كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَفَنَاهُمْ كُلَّ مَرْفَةٍ﴾ [سبا: ١٩]، فبعدا لقوم لا يؤمنون.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ .

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى ﷺ وأخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج الدامغات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة، فيها أحكامه وأوامره ونواهي، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامه بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصِكَايَرٍ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ أنه جعلهما آية للناس؛ أي: حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى.

وقوله: ﴿وَأَوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال ابن عباس: الربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة.

قال ابن عباس: وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يقول ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾؛ يعني: ماء ظاهراً، وقال مجاهد: ربوة مستوية، وقال سعيد بن جبير ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: استوى الماء فيها، وقال مجاهد، وقتادة: ﴿وَمَعِينٍ﴾ الماء الجاري، ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة: من أي أرض الله هي؟ قال سعيد بن المسيب: هي دمشق [الطبري ٢٦/١٨ وتاريخ دمشق ٢٠٤/١]، وروي عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك، وعن ابن عباس قال: أنهار دمشق [تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٠٤/١]، وقال مجاهد: ﴿وَأَوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: عيسى ابن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها، وقال أبو هريرة: هي الرملة من فلسطين [الطبري ٢٦/١٨].

وأقرب الأقوال في ذلك ما روي عن ابن عباس قال: المعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿فَدَجَلْ رَيْبُكَ نَحْيَكَ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] [الطبري ٢٦/١٨]، وكذا قال الضحاك وقتادة: هو بيت المقدس، فهذا والله أعلم هو الأظهر؛ لأنه المذكور في الآية الأخرى والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١) ﴿وَلَنْ هَذِهِ أُمْتُكُمْ أُمَّةٌ وَجِدَّةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٥٢) ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحُونَ﴾ (٥٣) ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٥٤) ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ﴾ (٥٥) ﴿سُبَّاحٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٦).

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء ﷺ بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالةً ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً. قال الحسن البصري في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه، وقال سعيد بن جبير والضحاك ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾؛ يعني: الحلال، وعن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل: كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه، وفي «الصحيح»: (مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا رَعَى

الْغَنَمَ) قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: (نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطٍ لِأَهْلِ مَكَّةَ) [البخاري/ ٢١٤٣]، وفي «الصحيح»: (أَنَّ دَاوُدَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ) [الطبراني في الأوسط/ ١١٨٣]، وقد ثبت في «صحيح مسلم» [١٠١٥]، و«جامع الترمذي» [٢٩٨٩]، و«مسند الإمام أحمد» [٨٣٣٠] واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ)، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب فأني يستجاب لذلك، وقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، وقوله: ﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾؛ أي: الأمم الذين بُعث إليهم الأنبياء ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾؛ أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾؛ أي: في غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَلْكَفَيْنَا أَمَلَهُمْ زُبُرًا﴾ [الطارق: ١٧].

وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ ضَارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥]، لقد أخطؤوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً، ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، قال قتادة في قوله: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ ضَارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال: مكرَ والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾؛ أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمناء ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا﴾ [التحریم: ١٢]؛ أي: أيقنت أن ما كان، إنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله

فهو إن كان أمرًا فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْا لَا يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ بَدَنُهُمْ وَأُغْوِيََتْ أَفْسَاهُمْ وَأُفْسِدَتْ دِينُهُمْ﴾؛ أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحّدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفاء له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾؛ أي: يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصرُوا في القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما روى الإمام أحمد [٢٥٧٤٦] عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله ﷻ؟ قال: (لَا يَا بِنْتُ الصَّدِيقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ ﷻ) وهكذا رواه الترمذي [٣١٧٥] وابن أبي حاتم [والحاكم/٣٤٨٦] وصححه ووافقه الذهبي، وهكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والحسن البصري في تفسير هذه الآية. وقد قرأ آخرون هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾؛ أي: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، والمعنى على القراءة الأولى، وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر؛ لأنه قال: ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ فجعلهم من السابقين، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتصدين أو المقصرين، والله أعلم.

﴿وَلَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ (١٧) ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ (١٨) ﴿لَا تَحْشَرُوا الْيَوْمَ إِنَّا كُم مِّنَّا لَا تَنْصُرُونَ﴾ (١٩) ﴿فَذَ كَأَن تَأْتِيكُمُ الْغَيْمُ فَتُكَنَّمُ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْكَبُونَ﴾ (٢٠) ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ (٢١).

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها؛ أي: إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء، ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾؛ يعني: كتاب الأعمال، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين، ثم قال منكرًا على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ﴾؛ أي: في غفلة وضلالة ﴿مِّنْ هَذَا﴾؛ أي: القرآن الذي أنزله على رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَهُمْ أَعْمَلُ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ قال ابن عباس: ﴿وَهُمْ أَعْمَلُ﴾؛ أي: سيئة من دون ذلك؛ يعني: الشرك ﴿هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ قال: لا بد أن يعملوها، وكذا روي عن مجاهد، والحسن وغير ذلك، وقال آخرون: ﴿وَهُمْ أَعْمَلُ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾؛ أي: قد كُتِبَ عليهم أعمالٌ سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لِتَحَقَّ عليهم كلمة العذاب، وروي نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ظاهر قوي

حسن، وقد قدمنا في حديث ابن مسعود [المتفق عليه]: (فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا) [البخاري/ ٦٢٢١ ومسلم/ ٢٦٤٣].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾؛ يعني: حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾؛ أي: يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ مِنْ مَنَاصِرَ﴾ [ص: ٣].

وقوله: ﴿لَا تَجْتَرُوا يَوْمَ الْيَوْمِ إِنَّكُمْ مِنْهُ لَا تَصُرُونَ﴾؛ أي: لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتكم أو سكتكم، لا محيد ولا مناص ولا وزر لزم الأمر ووجب العذاب، ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَادِي عَلَيْكُمْ فَاكْفُرُوا بَلْ لَّيْسَ بِكُفْرَانِكُمْ أَغْفِيَكُمْ أَنْتُمْ بِتِلْكَ الْآيَاتِ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [ص: ١٢].

وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمَرَ تَهْجُرُونَ﴾ في تفسيره قولان. أحدهما: أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكباراً عليه، واحتقاراً له ولأهله، فعلى هذا الضمير في «به» فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحرم بمكة، دُفُوا؛ لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام. والثاني: أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. والثالث: أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون، فكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء، وقيل المراد بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾؛ أي: بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به، كما روى النسائي من التفسير في سننه عن ابن عباس أنه قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمَرَ تَهْجُرُونَ﴾ فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهلهم ﴿سِمَرَ﴾ قال: كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه [رواه الحاكم بنحوه/ ٣٤٨٧].

﴿أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُكْرُونَ﴾ (٦٩) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ (٧٠) ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٧١) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَبْرًا فَخَرَّجَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٧٢) ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٣) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنُكَ﴾ (٧٤) ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥).

يقول تعالى منكرًا على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف لا سيما آبائهم الذين

ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضي عنهم، وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَذَبُّوا أَلْقَوْلَ﴾ إِذَا وَالله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ولكنهم أخذوا بما تشابه منه فهلكوا عند ذلك. ثم قال منكراً على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾؛ أي: أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانتها التي نشأ بها فيهم؛ أي: أفقدرون على إنكار ذلك والمباهة فيه، ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك إن الله بعث فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته، [جزء من حديث طويل جداً رواه أحمد/ ٢٢٥٥١ وهو صحيح]، وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم، وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك.

**وقوله:** ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقول القرآن؛ أي: افتراه من عنده أو أن به جنوناً لا يدري ما يقول، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يُطاق ولا يُدافع، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين ولهذا قال: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾. يحتمل أن تكون هذه جملة حالية؛ أي: في حالة كراهة أكثرهم للحق ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة والله أعلم.

**وقوله:** ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ قال مجاهد وأبو صالح والسدي: الحق هو الله ﷻ، والمراد: لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن؛ أي: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ثم قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢]، ففي هذا كله تبیین عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه، تعالى وتقدس، فلا إله غيره ولا رب سواه. ثم قال: ﴿بَلْ أَلِينَهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾؛ أي: القرآن ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

**وقوله:** ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَيْرًا﴾ قال الحسن: أجراً، وقال قتادة: جُعلاً ﴿فَخَرَجَ رَجُلٌ خَيْرٌ﴾؛ أي: أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧]، **وقوله:** ﴿وَلِيَاكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنُكَ لِمُلْكَانَ، فقعد أحدهما عند رجله، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس



مفازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة، فقال: أرايتم إن أوردتكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم وأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ قالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني، قال: فقالت طائفة: صدق والله لتتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه [قال الهيثمي: إسناده حسن].

**وقوله:** ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَفُّنَهُمْ﴾؛ أي: لعادلون جائرون منحرفون، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها، وقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوءُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون ولو كان كيف يكون، قال ابن عباس: كل ما فيه «لو» فهو مما لا يكون أبداً.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ﴾ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾؛ أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ﴾؛ أي: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على غيهم وضلالهم ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾؛ أي: ما خشعوا ﴿وَمَا يَضُرُّهُمْ﴾؛ أي: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا قَضَرُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز - يعني: الوبر والدم - فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ﴾ [رواه الطبري ٤٥/١٨ والحاكم ٣٤٨٨/١ وصححه وابن حبان/ ٩٦٧]، وكذا رواه النسائي [١١٢٠٢]، وأصله في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا، فقال: (اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبَعَ يُوسُفُ) [البخاري/ ٤٤٩٦]، ومسلم/ ٢٧٩٨ بنحوه].

وروى ابن أبي حاتم عن وهب بن عمر بن كيسان قال: حبس وهب بن منبه فقال له رجل

من الأبناء: ألا أنشدك بيتًا من شعر يا أبا عبد الله؟ فقال وهب: نحن في طرف من عذاب الله، والله يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضِرُّهُمْ﴾ قال: وصام وهب ثلاثًا متواصلة، فقليل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله؟ قال: أحدث لنا فأحدثنا؛ يعني: أحدث لنا الحبس فأحدثنا زيادة عبادة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾؛ أي: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم، ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهي العقول والفهوم التي يدركون بها الأشياء ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه الفاهر في برئه الخليفة وذره لهم في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيرًا ولا كبيرًا، ولا ذكرًا ولا أنثى، ولا جليلًا ولا حقيرًا، إلا أعاده كما بداه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: يحيي الرمم ويميت الأمم، ﴿وَلَهُ انْخِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾؛ أي: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما، كقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء، ثم قال مخبرًا عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨٤) قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لِنَبْعُثُ فِيهِمْ؟ يعني: يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ يعنون أن الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم، وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله إخبارًا عنهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا تَحَرَّةً﴾ (٨٥) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (٨٦) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (٨٧) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (٨٨) [النازعات: ١١ - ١٤].

﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَكِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقَرُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠).

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا الله هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول

للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً ولا يملكون شيئاً ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فقال: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾؛ أي: من مالها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمار وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ؛ أي: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لا تذكرون أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرزاق لا غيره.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: مَنْ هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم؛ يعني: الذي هو سقف المخلوقات، كما جاء في الحديث: (ما السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا بَيْنَهُنَّ وَمَا فِيهِنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَإِنَّ الْكُرْسِيَّ بِمَا فِيهِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْعَرْشِ كَيْتِلْكَ الْحَلْقَةُ فِي تِلْكَ الْفَلَاةِ) [جزء من حديث طويل رواه ابن حبان/٣٦١]، وقال ابن عباس: إنما سمي عرشاً لارتفاعه، وقال كعب الأحبار: إن السموات والأرض في العرش كالقنديل المعلق بين السماء والأرض، وقال مجاهد: ما السموات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: العرش لا يُقَدَّرُ قدره أحد، وفي رواية: إلا الله ﷻ، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: الكبير، وقال في آخر السورة ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]؛ أي: الحسن البهي، فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو والحسن الباهر، ولهذا قال من قال إنه من ياقوتة حمراء، وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه [الطبراني في الكبير/٨٨٨٦].

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِوُكُمْ﴾؛ أي: إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به.

﴿قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: بيده الملك ﴿مَنْ مِّنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]؛ أي: متصرف فيها وكان رسول الله ﷺ يقول: (لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ) [كما ورد في كثير من الأحاديث، ومثله حديث البخاري/٦٢٥٧]، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: (لَا وَمُقَلَّبِ الْقُلُوبِ) [البخاري/٦٢٤٣]، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف ﴿وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُكْرِئُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً، لا يُخَفَّرُ في جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه لثلاث يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُكْرِئُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه، الذي لا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: ﴿لَا يُسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾؛ أي: سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾؛ أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره

مع اعترافكم وعلمكم بذلك، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِالْحَقِّ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ﴿وَأَنْتُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ أي: في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١) ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٩٢).

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، فقال: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: لو قُدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود، والمُشاهد أن الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط ببعضه البعض في غاية الكمال ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: ٣]، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلوا بعضهم على بعض، والمتكلمون ذكروا هذا المعنى، وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا الإمكان إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكناً؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾؛ أي: عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشرك علواً كبيراً. ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾؛ أي: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقولون الظالمون والجاحدون.

﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا زُيِّنَ لِي مَا يُوعَدُونَ﴾ (٩٣) ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٩٤) ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُزِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ (٩٥) ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦) ﴿قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (٩٧) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (٩٨).

يقول تعالى أمراً نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿رَبِّ إِنَّمَا زُيِّنَ لِي مَا يُوعَدُونَ﴾؛ أي: إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك، فلا تجعلني فيهم كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٢١٦٢] والترمذي [٣٢٣٥] وصححه: (وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً، فَتَوَقَّيْ إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُزِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾؛ أي: لو شئنا لأريناك ما نحل بهم

من النقم والبلاء والمحن، ثم قال تعالى مرشدًا له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه، ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِلَايَ هِيَ أَحْسَنُ النَّيْتَةِ﴾ وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَدْفَعْ بِلَايَ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤) وَمَا يُلْقِلْهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِلْهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ أمره الله أن يستعيد من الشياطين؛ لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف.

وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾؛ أي: في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور، ولهذا روى أبو داود [١٥٥٢] أن رسول الله ﷺ كان يقول: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَدْمِ وَمِنَ الْغَرَقِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِيَ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ) (وهو صحيح بطرقه)، وروى الإمام أحمد [٦٦٩٦] عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع: (بِسْمِ اللَّهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ)، قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيرًا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه، ورواه أبو داود [١٠٦٠١]، والترمذي [٣٥٢٨]، والنسائي [١٠٦٠١]، وقال الترمذي: حسن غريب.

﴿حَقًّا إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾.

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴿١٠٠﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْوَعْدُ﴾ - إلى قوله: - ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون.

وقوله ها هنا: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ كلا حرف ردع وزجر؛ أي: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أي: لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله كلا؛ أي: لأنها كلمة؛ أي: سؤاله الرجوع ليعمل صالحًا هو كلام منه وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحًا، وكان يكذب في مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩) لَعَلَّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قال: فيقول الجبار: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة: إذا سمعت الله يقول: كلا فإنما يقول: كذبت، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ﴾ قال: كان العلاء بن زياد يقول: لِيُنْزِلَ أَحَدَكُمْ نَفْسَهُ أَنَّهُ قَدْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله تعالى، وقال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمانة الكافر المفرط فاعملوا بها، ولا قوة إلا بالله، وعن محمد بن كعب القرظي نحوه، وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: إذا وضع - يعني: الكافر - في قبره فيرى مقعده من النار، قال: فيقول: رب ارجعون أتوب وأعمل صالحًا، قال: فيقال: قد عمرت ما كنت معمراً، قال: فيضيق عليه قبره، قال: فهو كالمنهوش ينام ويفزع، تهوي إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها.

وروى أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ويل لأهل المعاصي من أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أو دهم، حية عند رأسه وحية عند رجله يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه [رواه أحمد بنحوه/ ٢٥٢٣٠]، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى: ﴿وَمِن رَّأْيِهِمْ بَرَزَخُ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّأْيِهِمْ﴾؛ يعني: أمامهم، وقال مجاهد: البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة، وقال محمد بن كعب: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم [الطبري ٥٣/١٨]، وقال أبو صخر: البرزخ المقابر لا هم في الدنيا ولا هم في الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون، وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّأْيِهِمْ بَرَزَخُ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال تعالى: ﴿مِن رَّأْيِهِمْ جَهَنَّمَ﴾ [الجاثية: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِن رَّأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء في الحديث (فَلَا يَزَالُ مُعَذَّبًا فِيهَا)؛ أي: في الأرض [رواه الترمذي/ ١٠٧١ وقال حسن غريب].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ﴾ (١٠١) ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٠٣) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١٠٤).

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لا تنفع الأنساب يومئذٍ ولا يرثي والد لولده ولا يلوي عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيٌّ حِمِيًّا﴾ [المعارج: ١٠، ١١]؛ أي: لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُعَرَّفُ الْكُذِبُ مِنْ أَجْهِهِ﴾ (٢٤) وَأَمَّا وَابْنُ ﴿٢٥﴾ وَصَحْبُهُ وَابْنُ ﴿٢٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُفْتِيهِ [عبس: ٣٤ - ٣٧]، وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين، ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجيئ فليأخذ

حقه: قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصدق ذلك في كتاب الله قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فُتِحَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [رواه ابن أبي حاتم والطبري ٨٩/٥].

وروى الإمام أحمد [١٨٩٥٠ بنحوه] عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، يَقْبِضُنِي مَا يَقْبِضُهَا، وَيَسْطُرُنِي مَا يَسْطُرُهَا، وَإِنَّ الْأَنْسَابَ تَنْقُطُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا نَسَبِي وَسَبَبِي وَصِهْرِي)، وهذا الحديث له أصل في «الصحيحين» [البخاري/٣٥١٠ ومسلم/٢٤٤٩]، وروى الإمام أحمد [١١١٥٤] عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: (مَا بَالُ رِجَالٍ يَقُولُونَ: إِنَّ رَحِمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا تَنْفَعُ قَوْمَهُ؟ بَلَى، وَاللَّهِ إِنَّ رَحِمِي مَوْصُولَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنِّي أَبْهَأُ النَّاسَ قَرِطٌ لَكُمْ، إِذَا جِئْتُمْ) قال رجل: يا رسول الله، أنا فُلَانُ ابْنِ فُلَانٍ، وَقَالَ أَخُوهُ: أَنَا فُلَانُ ابْنِ فُلَانٍ فَأَقُولُ لَهُمْ: (أَمَّا النَّسَبُ فَقَدْ عَرَفْتُ، وَلَكِنِّكُمْ أَحَدَنْتُمْ بَعْدِي وَارْتَدَدْتُمْ الْفَهْقَرَى) [ورواه الحاكم/٦٩٥٨ بنحوه وصححه]، وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضي الله عنه أنه لما تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أما والله ما بي إلا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كُلُّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ فَإِنَّهُ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا سَبَبِي وَنَسَبِي)، رواه الطبراني [في الكبير/٢٦٣٣] والبخاري [٢٧٤] والهيثم بن كليب والبيهقي [١٣١٧١]، والحافظ الضياء في «المختارة» [١٠١] وذكر أنه أصدقها أربعين ألفاً إعطاماً وإكراماً رضي الله عنه.

وقوله: ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة، وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾؛ أي: ثقلت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ أي: خابوا وهلكوا وباؤوا بالصفقة الخاسرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾؛ أي: ما كانوا فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون. ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَتَغْنَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني: عابسون، وقال عبد الله بن مسعود: ألم تر إلى الرأس المشيط الذي قد بدا أسنانه وفلصت شفتاه [الطبري ٥٦/١٨]، وروى الإمام أحمد [١١٨٥٤] عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: (تَشْوِيهِ النَّارِ فَتَقْلُصُ شَفَتُهُ الْعُلْيَا حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَخْرِجِي شَفَتَهُ السُّفْلَى حَتَّى تَبْلُغَ سُرَّتَهُ)، ورواه الترمذي [٢٥٨٧، بلفظ: تضرب سرتة]، وقال: حسن غريب.

﴿أَلَمْ تَكُنْ تَكُنْ عَائِيَتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (١٠٧).

هذا تقرير من الله تعالى لأهل النار وتوبيخ لهم على ما ارتكبوه من الكفر والمحارم التي

أوبقتهم في ذلك، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، وأزلت شبهكم، ولم يبق لكم حجة، كما قال تعالى: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾؛ أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فضللنا عنها ولم نرزقها، ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾؛ أي: رُدنا إلى الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قال: ﴿فَاعْرِفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ - إلى قوله: - ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١، ١٢]؛ أي: لا سبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

﴿قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْنَاهُمْ سَخِرَاءً حَتَّىٰ أَتَوْكُم بِذِكْرٍ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَآرِضُونَ ﴿١١١﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار، يقول: ﴿أَخْسُوا فِيهَا﴾؛ أي: امكثوا فيها صاغرين أذلاء، ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾؛ أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي. قال ابن عباس: ﴿أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه، وروى ابن أبي حاتم [١٤٠٤٧] عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما، ثم يرد عليهم إنكم ماكثون، قال: هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك، ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١٠٩) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧] قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم ﴿أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: والله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم، قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق.

ثم قال تعالى مذكرا لهم بذنوبهم في الدنيا وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٠٩) فَاتَّخَذْنَاهُمْ سَخِرَاءً؛ أي: فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي ﴿حَتَّىٰ أَتَوْكُم بِذِكْرٍ﴾؛ أي: حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحَكُونَ﴾؛ أي: من صنعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (١٠٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ [المطففين: ٢٩، ٣٠]؛ أي: يلمزونهم استهزاء، ثم أخبر تعالى عما جازى به أوليائه وعباده الصالحين، فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾؛ أي: على أذاكم لهم واستهزائكم بهم ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْفَآرِضُونَ﴾؛ أي: جعلتهم هم الفاترين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار.



﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَاذِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾؛ أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا ﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَاذِينَ﴾؛ أي: الحاسنين ﴿قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لما آثرتم الفاني على الباقي ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيئ ولا استحققتهم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا.

وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾؛ أي: أظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: لا تعودون في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]؛ يعني: هملاً.

وقوله: ﴿فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾؛ أي: تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم؛ أي: حسن المنظر بهيئ الشكل.

روى ابن أبي حاتم [١٤٠٦٩] أن آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحُرم جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن عذاب الله غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافداً بباقي وقليلًا بكثير وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون من بعدكم الباقيين حتى تُردُّون إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تُشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ﷻ، قد قضى نحبه وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير مُمهَّد ولا مُوسَّد، قد فارق الأحباب وباشر التراب، وواجه الحساب، مُرتَهَن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم، فاتقوا الله قبل انقضاء موثيقه ونزول الموت بكم، ثم جعل طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره، وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان

له ؛ أي: لا دليل له على قوله، فقال: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ؛ أي: الله يحاسبه على ذلك، ثم أخبر ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ؛ أي: لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة، وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالفخر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال.



## تفسير سورة النور

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَنْتَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

يقول تعالى: هذه ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا﴾ فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾. قال مجاهد وقتادة: أي: بينا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود. ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَنْتَ﴾؛ أي: مفسرات واضحات ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع، فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكرًا وهو الذي لم يتزوج، أو محصنًا وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل، فأما إذا كان بكرًا لم يتزوج، فإن حده مائة جلدة كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يُغْرَبَ عامًا عن بلده عند جمهور العلماء خلافًا لأبي حنيفة رحمته الله، فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام: إن شاء غرب وإن شاء لم يغرب، وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٢٥٤٩] واللفظ له ومسلم/١٦٩٧] عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في الأعرابييين اللذين أتيا رسول الله ﷺ: فقال أحدهما: يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيقًا - يعني: أجيرًا - على هذا، فزني بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا أَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، الْوَلِيدَةُ وَالْغَنَمُ رَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ - لِرَجُلٍ مِّنْ أَسْلَمَ - إِلَى امْرَأَةٍ هَذَا، فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَأَرْجُمُهَا)، فغدا عليها فأعترفت فرجمها، ففي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكرًا لم يتزوج، فأما إذا كان محصنًا فإنه يرجم كما روى الإمام مالك [نحوه/١٥٠٦]، عن ابن عباس أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال

والنساء، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف، أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٦٤٤٢ ومسلم/١٦٩١] وهذه قطعة منه فيها مقصودنا ها هنا .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن كثير بن الصلت قال: كنا عند مروان وفينا زيد [بن ثابت] فقال زيد: كنا نقرأ: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»، قال مروان: ألا كتبتهما في المصحف؟ قال: ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب، فقال: أنا أشفيكم من ذلك، قال: قلنا فكيف؟ قال جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: فذكر كذا وكذا وذكر الرجم، فقال: يا رسول الله اكتب لي آية الرجم، قال: (لَا أَسْتَطِيعُ الْآنَ) هذا أو نحو ذلك، وقد رواه النسائي [٧١٤٨]، وطرق الحديث متعددة، ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة فنسخ تلاوتها وبقي حكمها معمولاً به .

وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة، وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لما زنت مع الأجير، ورجم رسول الله ﷺ ماعزًا والغامدية، وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلداهم قبل الرجم، وإنما وردت الأحاديث الصحاح المتعددة الطرق والألفاظ بالاعتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد، ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وإليه ذهب أبو حنيفة، ومالك، والشافعي رحمهم الله، وذهب الإمام أحمد رَحِمَهُمُ اللَّهُ إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية، والرجم للسنة، كما رُوِيَ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لما أتى بشرًا حة، وكانت قد زنت وهي محصنة، فجلدها يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، فقال: جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ، وقد روى الإمام أحمد [٢٢٧١٨]، ومسلم [١٦٩٠] عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: (خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبُكَرُ بِالْبُكَرِ، جُلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَالنَّيْبُ بِالنَّيْبِ، جُلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾؛ أي: في حكم الله؛ أي: لا ترحمواهما وترأفوا بهما في شرع الله، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على إقامة الحد، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد، فلا يجوز له ذلك. قال مجاهد: إقامة الحدود إذا رُفِعَتْ إلى السلطان، فتقام ولا تعطل، وكذا روي عن سعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وقد جاء في الحديث: (تَعَاوُوا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَمَا بَلَغْنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجِبَ) [رواه أبو داود/٤٣٧٦، والنسائي/٧٣٧٣ وصححه الألباني]، وفي الحديث الآخر: (لِحَدِّ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ، خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا) [رواه أحمد/٨٧٢٣ والنسائي/٧٣٩٢، وحسنه الألباني]، وقيل المراد: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ فلا تقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المأثم، وليس المراد الضرب المبرح.

قال الشعبي: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال: رحمة في شدة الضرب. وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرح، وقال سعيد بن أبي عروبة، عن حماد بن أبي سليمان: يجلد القاذف وعليه ثيابه والزاني تخلع ثيابه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ فقلت: هذا في

الحكم؟ قال: هذا في الحكم والجلد؛ يعني: في إقامة الحد وفي شدة الضرب، وروى ابن أبي حاتم [١٤٠٩٥] عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجلها، قال نافع: أراه قال وظهرها، قال: قلت: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال: يا بني ورأيتني أخذتني بها رأفة إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جلدها في رأسها، وقد أوجعت حين ضربتها.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أي: فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى، وشددوا عليه الضرب ولكن ليس مبرحاً ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جُلدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريراً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضوراً. قال الحسن البصري: يعني: علانية، وعن ابن عباس قال: الطائفة الرجل فما فوقه، وقال مجاهد: الطائفة رجل إلى ألف، وكذا قال عكرمة، ولهذا قال أحمد: إن الطائفة تصدق على واحد، وقال عطاء بن أبي رباح: اثنان، وبه قال إسحاق بن راهويه، وكذا قال سعيد بن جبير: يعني: رجلين فصاعداً، وقال الزهري: ثلاثة نفر فصاعداً.

وعن الإمام مالك قال: الطائفة أربعة نفر فصاعداً؛ لأنه لا يكفي شهادة في الزنا دون أربعة شهداء فصاعداً، وبه قال الشافعي، وقال ربيعة: خمسة، وقال الحسن البصري: عشرة وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين؛ أي: نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً، وروى ابن أبي حاتم [١٤١٠٧] عن نصر بن علقمة قال: ليس ذلك للفضيحة، إنما ذلك ليُدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة؛ أي: لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية، أو مشركة لا ترى حرمة ذلك، وكذلك ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ﴾؛ أي: عاص بزناه ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ لا يعتقد تحريمه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قال: ليس هذا بالنكاح، إنا هو الجماع لا يزني بها إلا زان أو مشرك، وهذا إسناده صحيح عنه، وقد روي عن مجاهد، وعروة بن الزبير، ومقاتل بن حيان وغير واحد نحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: تعاطيه والتزويج بالبغايا، أو تزويج العفاف بالرجال الفجار، وروى أبو داود الطيالسي [٢٦٥] بنحو يرفعه عن ابن عباس قال: حرم الله الزنا على المؤمنين [ابن أبي حاتم/١٤١٥٢]، وقال قتادة ومقاتل بن حيان: حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا [ابن أبي حاتم/١٤١٥٣]، وتقدم في ذلك فقال: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]، وقوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ الآية [المائدة: ٥]، ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله إلى أنه

لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وروى الإمام أحمد [٦٤٨٠] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها: أم مهزول كانت تسافح وتشتري له أن تنفق عليه قال: فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها قال: فقرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [ورواه الحاكم/٢٧٠١ وصححه ووافقه الذهبي].

وروى ابن أبي حاتم [١٤١٣٣] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يَنْكِحُ الزَّانِي الْمَجْلُودَ إِلَّا مِثْلَهُ)، وهكذا أخرجه أبو داود [وأحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي].

فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج، كما روى الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمته الله [١٤١٢٠] أن رجلاً قال لابن عباس: إني كنت ألم بامرأة أتت منها ما حرم الله ﷻ علي، فرزقني الله ﷻ من ذلك توبة، فأردت أن أتزوجها، فقال أناس: إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، فقال ابن عباس: ليس هذا في هذا، انكحها فما كان من إثم فعلي، وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة، كما روى ابن أبي حاتم [١٤١٣٤] عن سعيد بن المسيب قال: ذكر عنده ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ قال: كان يقال نسختها الآية التي بعدها ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، قال: كان يقال الأيامي من المسلمين، وهكذا رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «الناسخ والمنسوخ»، ونص على ذلك أيضاً الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا قَبْلُوهَا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾.

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة، وهي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المَقْدُوف رجلاً فكذلك يجلد قاذفه أيضاً، وليس في هذا نزاع بين العلماء، فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله، رُدَّ عنه الحد، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا قَبْلُوهَا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، فأوجب على القاذف، إذا لم يقيم البينة على صحة ما قال، ثلاثة أحكام: أحدها: أن يجلد ثمانين جلدة. الثاني: أنه ترد شهادته أبداً. الثالث: أن يكون فاسقاً ليس يعدل لا عند الله ولا عند الناس.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الآية، واختلف العلماء في هذا الاستثناء. هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة؟ أما الجلد فقد ذهب وانقضى سواء تاب أو أصر ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف، فذهب الإمام مالك وأحمد والشافعي

إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق، ونص عليه سعيد بن المسيب سيد التابعين، وجماعة من السلف أيضًا. وقال الإمام أبو حنيفة: إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط، فيرتفع الفسق بالتوبة، ويبقى مردود الشهادة أبدًا، وممن ذهب إليه من السلف القاضي شريح وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبيرة ومكحول وعبد الرحمن بن زيد بن جابر، وقال الشعبي والضحاك: لا تقبل شهادته وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْوَجَ أَرْبَعِ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته، وتعرّس عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله ﷻ وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدعي عليها بما رماها به، فيحلّقه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين؛ أي: فيما رماها به من الزنا ﴿وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فإذا قال ذلك، بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحرمت عليه أبدًا، ويعطيها مهرها ويتوجه عليها حد الزنا، ولا يُدْرَأُ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين؛ أي: فيما رماها به ﴿وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، ولهذا قال: ﴿وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ﴾؛ يعني: الحد ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه.

ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون فيه من الضيق، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: لخرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾؛ أي: على عباده، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه، وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية، وذكر سبب نزولها وفيمن نزلت فيه من الصحابة.

فقد روى الإمام أحمد [٢١٣١] عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُنَّ مِائَتِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ [النور: ٤] قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار رضي الله عنه: أهلكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ؟) فقالوا: يا رسول الله: لا نلّمه فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا، وما طلق امرأة له قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيظه. فقال سعد:

والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وأنها من الله، ولكنني قد تعجبت أني لو وجدت لكاءً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرکه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته - قال: فما لبثوا إلا يسيراً - حتى جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فجاء من أرضه عشاء، فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني جئت على أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه، واجتمعت عليه الأنصار وقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادَةَ الآن، يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً، وقال هلال: يا رسول الله فإني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به، والله يعلم إني لصادق، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي، وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تَرَبُّد وجهه؛ يعني: فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا بِحُكْمِ رَبِّهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ الآية، فسُري عن رسول الله ﷺ فقال: (أُبَشِّرُ يَا هَلَالُ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا) فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي ﷻ، فقال رسول الله ﷺ: (أَرْسِلُوا إِلَيْهَا) فأرسلوا إليها فجاءت، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما، فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، فقال هلال: والله يا رسول الله لقد صدقت عليها، فقالت: كذب، فقال رسول الله ﷺ: (لَا عُنَا بَيْنَهُمَا) فقبل لهلال: اشهد، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كانت الخامسة قيل له: يا هلال اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فقال: والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها، فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم قيل للمرأة: اشهدی أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، وقيل لها عند الخامسة: اتقي الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف، ثم قالت: والله لا أفضح قومي، فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب، ولا يرمى ولدها، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، وقضى أن لا بيت لها عليه ولا قوت لها من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها، ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

هذه العشر آيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله ﷻ لها ولنبه صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض رسول الله ﷺ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ



عَصَبَةٌ مِّنْكُمْ؟ أَي: جماعة منكم؛ يعني: ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به، وجوزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن، وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة.

روى الإمام أحمد [٢٥٦٦٤] عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أفرغ بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة رضي الله عنها: فأفرغ بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل فقامت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري، فإذا عقْد لي من جَزَع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتصمت عقدي، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أنني فيه، قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهلبهن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العُلُقَة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة اليهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيمنت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناى فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي، ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش، فأدلى فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأيته، وقد كان يراني قبل أن يضرب على الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمت المدينة فاشتكت حين قدمناها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يربيني في وجعي أنني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: (كَيْفَ تَبْكِينَ؟) فذلك الذي يربيني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نهقت، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئسما قلت تسبين رجلاً شهد بدرًا؟ فقالت: أي هنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم، ثم

قال: (كَيْفَ تَيْكُم؟) فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس به؟ فقالت: أي بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا، فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، قالت: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه له من الود، فقال أسامة: يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: (أَيُّ بَرِيرَةٍ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيكَ مِنْ عَائِشَةَ؟) فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمرًا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجبن أهلها فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: (يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي)، فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال: أنا أعذرک منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من أخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا بأمرک، قالت: فقام سعد بن عباد وهو سيد الخزرج وكان رجلًا صالحًا، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عباد: كذبت! لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتناور الحيان: الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالتق كبدی، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي، فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: (أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيِّرُوكَ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهُ ثُمَّ تَوْبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ). قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعی حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي أجيبني عني رسول الله ﷺ فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أحفظ كثيرًا من القرآن، والله لقد عرفت، أنكم قد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر

في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت بأمر الله يعلم أني بريئة لتصدقني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبِّرْ جَبِيلٌ وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا نَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله تعالى مبرئي براءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله في أمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سُري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: (أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللَّهُ ﷻ فَقَدْ بَرَأَكَ). قالت: فقالت لي أُمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ﷻ هو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ العشر آيات كلها، فأنزل الله هذه الآيات في براءتي قالت: فقال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْكُلُ أُولُوا الْقَرْبَى مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ﴾ - إلى قوله: - ﴿أَلَا يُحِثُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري، فقال: (يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتَ أَوْ رَأَيْتِ؟) فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك. أخرجه البخاري [٢٥١٨] ومسلم [٢٧٧٠] في «صحيحهما».

فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾؛ أي: بالكذب والبهت والافتراء ﴿عُصْبَةٌ﴾؛ أي: جماعة منكم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾؛ أي: يا آل أبي بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة لسان صدق في الدنيا، ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتهاء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه، وعنهما وهي في سياق الموت، قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك، ونزلت براءتك من السماء. [رواه البخاري/٤٤٧٦].

وقوله: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾؛ أي: لكل من تكلم في هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ قيل: ابتدأ به، وقيل: الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: على ذلك، ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي ابن سلول قُبِّحَ الله تعالى

ولعنه، وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث، وقال ذلك مجاهد وغير واحد، وقيل: المراد به حسان بن ثابت، وهو قول غريب.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيئ، وما ذكر من شأن الإفك فقال: ﴿لَوْلَا﴾؛ يعني: هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾؛ أي: ذلك الكلام الذي رُميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾؛ أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى.

وقوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾؛ أي: هلا ظنوا الخير فإن أم المؤمنين أهله وأولى به. هذا ما يتعلق بالباطن، ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: بألسنتهم ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين رابكة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا لو قدر خفية مستورًا، فنعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعوننة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة، قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا﴾؛ أي: هلا ﴿جَاءَهُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على ما قالوه ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يشهدون على صحة ما جاءوا به ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾؛ أي: في حكم الله كاذبون فاجرون.

﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَكُورٌ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿لَمَسَكُورٌ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من قضية الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه، كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي ابن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقًا مشروطًا بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجع عليه.

ثم قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي: يرويه بعضكم عن

بعض [ذكره البخاري عن مجاهد تعليقاً ١٧٧٨/٤]، يقول هذا سمعته من فلان، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا، وقرأ آخرون: ﴿إِذْ تَلَقُّونَهُ بِالْسِّنِّ﴾، وفي «صحيح البخاري» [٤٤٧٥] عن عائشة أنها كانت تقرأها كذلك، وتقول: هو من وَلَقَّ القول؛ يعني: الكذب الذي يستمر صاحبه عليه، تقول العرب: وَلَقَّ فلان في السير: إذا استمر فيه، والقراءة الأولى أشهر وعليها الجمهور، ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة.

وقوله: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾؛ أي: تقولون ما لا تعلمون.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾؛ أي: تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً، ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل! فإن الله ﷻ يغار لهذا، وهو ﷻ لا يقدر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشا وكلا، ولما لم يكن ذلك، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، وفي «الصحيحين»: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يَدْرِي مَا تَبْلُغُ، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) [البخاري بنحوه/٦١١٢ وكذلك مسلم/٢٩٨٨ وفي رواية: (لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا) [البخاري/٦١١٣].

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(١٦)</sup>  
يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ<sup>(١٧)</sup> وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ آلَايَتٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ<sup>(١٨)</sup>.

هذا تأديب آخر بعد الأول الأمر بظن الخير؛ أي: إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة فأولى ينبغي الظن بهم خيراً، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك، ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك وسوسة أو خيالاً، فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّنِي عَمَّا حَدَّثْتُ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ). أخرجه في «الصحيحين» [البخاري/٦٢٨٧، ومسلم/١٢٧ كلاهما بنحوه]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾؛ أي: ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليته خليله.

ثم قال تعالى: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾؛ أي: ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً؛ أي: فيما يستقبل، فلماذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه، وتعظمون رسوله ﷺ، فأما من كان متصفاً بالكفر فذاك حكم آخر. ثم قال تعالى: ﴿وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ آلَايَتٌ﴾؛ أي: يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدريّة، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عليم بما يصلح عباده، حكيم في شرعه وقدره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٩).

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيء، فقام بذهنه شيء منه وتكلم به، فلا يكسر منه ولا يشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾؛ أي: بالحد، وفي الآخرة بالعذاب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فَرُدُّوا الأمور إليه ترشدوا، وروى الإمام أحمد [٢٢٤٥٥] عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: (لَا تُؤْذُوا عِبَادَ اللَّهِ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، طَلَبَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ) [وله شاهد عند مسلم من حديث أبي هريرة].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٠) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢١).

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه. ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾؛ يعني: طرائقه ومسالكه وما يأمر به ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها، قال ابن عباس: ﴿خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾ عمله. وقال عكرمة: نزغاته [ابن أبي حاتم/١٥٠٦]، وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان، وقال أبو مجلز: النذور في المعاصي من خطوات الشيطان [الطبري ٧٧/٢]، وقال مسروق: سأل رجل ابن مسعود فقال: إني حرمت أن أكل طعاماً وسماء، فقال: هذا من نزغات الشيطان، كَفَّرَ عن يمينك وكل. وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده: هذا من نزغات الشيطان، وأفتاه أن يذبح كبشاً.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي رافع قال: غضبت على امرأتي فقالت: هي يومًا يهودية ويومًا نصرانية، وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك، فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من نزغات الشيطان، وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهي يومئذ أफقه امرأة بالمدينة، وأتيت عاصم بن عمر فقال مثل ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾؛ أي: لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكي النفوس من شركها، وفجورها وذنسها، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه، لما حَصَلَ أحد لنفسه زكاة ولا خيراً ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: من خلقه، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغيّ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾؛ أي: سميع لأقوال عبادہ ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال.

﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلْ﴾؛ أي: لا يحلف ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾؛ أي: الطُّول والإحسان ﴿وَالسَّعَةِ﴾؛ أي: الجدة ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين، وهذا في غاية الترقق والعطف على صلة الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾؛ أي: عما تقدم منهم من الإساءة والأذى؟ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم، وهذه الآية نزلت في الصديق ﷺ حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثه بنافعة بعدما قال في عائشة ما قال، كما تقدم في الحديث، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه - شرع تبارك وتعالى - وله الفضل والمنة، يعطف الصديق على قريبه ونسيبه وهو مسطح بن أثاثه، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ﷺ، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها، وضرب الحد عليها، وكان الصديق ﷺ معروفاً بالمعروف، له الفضل والأيدى على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك تغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، في مقابلة ما كان، قال: والله لا أنفعه بنافعة أبداً، فلهذا كان الصديق هو الصديق ﷺ وعن ابنته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات - خُرُج مخرج الغالب - المؤمنات فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق ﷺ، وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورمها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما: أنهم كهي، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة، فقد روى ابن أبي حاتم [١٤٢٨٥] عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ قال: نزلت في عائشة خاصة، وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة، وليس الحكم خاصًا بها، وإن كان الحكم يعمها كغيرها، ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله، والله أعلم، وقال الضحاك وأبو الجوزاء وسلمة بن نُبَيْط: المراد بها أزواج النبي خاصة دون غيرهن من النساء [الطبري ١٨/١٠٤].

وروى ابن جرير [١٨/١٠٤] عن ابن عباس أنه: فسر سورة النور، فلما أتى على هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية، قال: في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ، وهي مبهمة وليست لهم توبة، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ - إلى قوله: - ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ الآية [النور: ٤ - ٥]، قال: فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة، قال: فهم بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور، فقوله وهي مبهمة؛ أي: عامة في تحريم قذف كل محصنة ولعنته في الدنيا والآخرة، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا في عائشة ومن صنع مثل هذا أيضًا اليوم في المسلمات فله ما قال الله تعالى ولكن عائشة كانت إمام ذلك.

وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح، ويعضد العموم ما رواه ابن أبي حاتم [١٤٢٨٤] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ) قيل: وما هن يا رسول الله؟ قَالَ: (الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ) أخرجه في «الصحيحين» [البخاري/ ٢٦١٥ ومسلم/ ٨٩].

وقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ روى ابن أبي حاتم [٥٣٤٨] عن ابن عباس قال: إنهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا: تعالوا حتى نجحد فيجحدون، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتُمون الله حديثًا.

وروى ابن أبي حاتم [١٤٣٠١] عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: (أَتَذَرُونِمْ أَضْحَكُ؟) قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجْرِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: لَا أُجِيزُ عَلَيَّ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ عَلَيْكَ شُهودًا، فَيُخْتَمُ عَلَيْهِ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي فَنَنْطِقْ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يَخْلِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكَنَ كُنْتُ أَتَّضِلُ). وقد رواه مسلم [٢٩٦٩] والنسائي [١١٦٥٣]، وقال قتادة: ابن آدم، والله إن عليك لشهودًا غير متهمة في بدنك، فراقبهم واتق الله في سرّك وعلاانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظلمة عنده ضياء، والسر عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِيهَهُمْ الْحَقَّ﴾ قال ابن عباس: ﴿دِيهَهُمْ؟﴾ أي: حسابهم وكل ما في



القرآن دينهم؛ أي: حسابهم، وكذا قال غير واحد، ثم إن قراءة الجمهور بنصب الحق على أنه صفة لدينهم، وقرأ مجاهد بالرفع على أنه نعت الجلالة.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾؛ أي: وعده ووعدته وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول. والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول.

قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك، وهكذا روي عن مجاهد والشعبي والحسن البصري [وغيرهم]، واختاره ابن جرير [١٠٦/١٨]، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبته أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والتزاهة منهم، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وهذا أيضًا يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم؛ أي: ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعًا ولا قدرًا، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾؛ أي: هم بُعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾؛ أي: بسب ما قيل فيهم من الكذب، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: عند الله في جنات النعيم، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

روى ابن أبي حاتم [١٤٣١٣] عن يحيى بن الجزار قال: جاء أسير بن جابر إلى عبد الله [بن مسعود]، فقال: لقد سمعت الوليد بن عقبة تكلم اليوم بكلام أعجبني، فقال عبد الله: إن الرجل المؤمن يكون في قلبه الكلمة غير الطيبة تتجلجل في صدره ما يستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل عنده يتلها فيضمها إليه، وإن الرجل الفاجر يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل الذي عنده يتلها فيضمها إليه ثم قرأ عبد الله: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ تَرْتَجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩).

هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين وذلك في الاستئذان، أمرهم أن لا يدخلوا

بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا؛ أي: يستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له وإلاّ انصرف، كما ثبت في «الصحيح» أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعت؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: (إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا، فَلَمْ يُؤْذَنَ لَهُ، فَلْيَنْصَرِفْ). فقال عمر: لتأتيني على هذا بيينة وإلا أوجعتك ضرباً، فذهب إلى ملاٍ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك فقال: ألّهاني عنه الصفق بالأسواق [البخاري/ ٥٨٩١ ومسلم نحوه/ ٢١٥٣].

وروى الإمام أحمد [١٢٤٢٩] عن أنس أو غيره أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال: (السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ) فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً. ورد عليه سعد ثلاثاً ولم يسمعه فرجع النبي ﷺ واتبعه سعد فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، ما سلمت تسليمه إلا وهي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أسمعك، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة، ثم أدخله البيت فقرب إليه زيباً فأكل نبي الله، فلما فرغ قال: (أَكَلْ طَعَامَكُمْ الْأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَأَفْطَرَ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ). ورواه أبو داود [٥١٨٥ بنحوه] والنسائي [١٠١٥٧ نحوه وسنده صحيح].

ثم ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره، وفي «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لَوْ أَنَّ أُمَّراً أَطْلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَخَذَفْتُهُ بِحَصَاةٍ، فَفَقَأْتُ عَيْنَهُ، مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ) [البخاري/ ٦٤٩٣ ومسلم/ ٢١٥٨ واللفظ له]، وأخرج الجماعة عن جابر قال: أتيت النبي ﷺ في دَيْنٍ كان على أبي فدققت الباب، فقال: (مَنْ ذَا؟) فقلت: أنا، قال: (أَنَا أَنَا) كأنه كرهه [البخاري/ ٥٨٩٦ واللفظ له، ومسلم/ ٢١٥٥]، وإنما كره ذلك؛ لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يُفَصِّحَ باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بـ (أنا)، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس بالمأمور به في الآية، وقال ابن عباس: الاستئناس: الاستئذان، وكذا قال غير واحد.

وروى الإمام أحمد [١٥٤٦٣] عن كَلْدَةَ بن الحنبل أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح، والنبي ﷺ بأعلى الوادي، قال: فدخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن، فقال ﷺ: (ارْجِعْ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟) وذلك بعدما أسلم صفوان، ورواه أبو داود [٥١٧٦] والترمذي [٢٧١٠] والنسائي [٦٧٣٥]، وقال الترمذي: حسن غريب، وروى أبو داود [٥١٧٧] عن رَبِيعٍ قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو في بيته، فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: (اخرُجْ إِلَى هَذَا فَعَلِّمُهُ الاسْتِئْذَانَ، فَقُلْ لَهُ: قُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟) فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم أَدْخُلْ؟ فأذن له النبي ﷺ، فدخل [وإسناده صحيح].

وعن ابن مسعود قال: عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم [الطبري ١٨/١١٠]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاث آيات جحدن الناس. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَدُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، قال: ويقولون إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتًا. قال: والإذن كله قد جحدته الناس. قال: قلت: أستأذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد؟ قال: نعم. فرددت عليه ليرخص لي فأبى، فقال: تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا، قال: فاستأذن قال: فراجعته أيضًا. فقال: أتحب أن تطيع الله؟ قلت: نعم، قال: فاستأذن [الطبري ١٨/١١١]، وقال طائوس: ما من امرأة أكره إلي أن أرى عورتها من ذات محرم، قال: وكان يشدد في ذلك، وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أيستأذن الرجل على امرأته قال: لا [الطبري ١٨/١١١] وهذا محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها، وروى أبو جعفر بن جرير [١٨/١١٢] عن زينب رضي الله عنها، قالت: كان عبد الله [بن مسعود] إذا جاء من حاجة فأنتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه، إسناده صحيح.

وقال مجاهد: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾، قال: تنحنحوا أو تنخّموا، وعن الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله أنه قال: إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه، ولهذا جاء في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ: أنه نهى أن يطرُق الرجل أهله طروقًا - وفي رواية - ليلاً يَتَخَوْنَهُمْ، وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهارًا، فأناخ بظاهرها، وقال: (انْتَظِرُوا حَتَّى نَدْخُلَ عِشَاءً؛ - يَعْنِي: آخِرَ النَّهَارِ - حَتَّى تَمْتَشِطَ الشَّعْثَةَ وَتَسْتَجِدَّ الْمُغِيبَةَ) [البخاري/٤٩٤٩ ومسلم/٧١٥ كلاهما بلفظ قريب].

وقال قتادة في قوله: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ هو الاستئذان ثلاثًا، فمن لم يؤذن له فيهم فليرجع، أما الأولى فليسمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا، ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغال، والله أولى بالذر.

وقال مقاتل بن حيان: كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه، ويقول: حييت صباحًا وحييت مساءً، وكان ذلك تحية القوم بينهم، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول: قد دخلت، فيشق ذلك على الرجل ولعله يكون مع أهله فغير الله ذلك كله في ستر وعفة، وجعله نقيًا نزهًا من الدنس والقذر والدن، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾، وهذا الذي قاله مقاتل: حسن، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ يعني: الاستئذان خير لكم؛ بمعنى: هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾؛ أي: إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ﴿فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم أزكى لكم وأطهر ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وقال قتادة: قال بعض المهاجرين لقد طلبتُ

عمري كله هذه الآية، فما أدركتها أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي ارجع، فأرجع وأنا مغتبط لقوله: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اتَّجِعُوا فَاتَّجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وقال سعيد بن جبیر: لا تقفوا على أبواب الناس.

وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد، إذا كان له متاع فيها بغير إذن، كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى. قال ابن عباس: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ ثم نسخ واستثنى، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ وكذا روي عن عكرمة والحسن البصري، وقال آخرون: هي بيوت التجار ومنازل الأسفار، وبيوت مكة وغير ذلك، واختار ذلك ابن جرير وحكاه عن جماعة، والأول أظهر، والله أعلم، وقال زيد بن أسلم: هي بيوت الشعر.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعاً، كما رواه مسلم في «صحيحه» عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري. وفي «الصحيح» عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرَفَاتِ) قالوا: يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: (إِنْ أَبَيْتُمْ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ) قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ فقال: (غَضُّ الْبَصَرِ، وَكُفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ) [البخاري/ ٥٨٧٥ ومسلم ٢١٢١].

وفي «صحيح البخاري» [٦١٠٩ بلفظ قريب]: (مَنْ يَكْفُلْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَكْفُلْ لَهُ الْجَنَّةَ)، ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، كما قال بعض السلف: النظر سهم سم إلى القلب، فلذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٢٩]، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث في «مسند أحمد» و«السنن» [النسائي/ ٨٩٧٢ وأبو داود/ ٤٠١٧ وابن ماجه/ ١٩٢٠ والبيهقي/ ٩١٠]: (أَحْفَظْ عَوْرَتَكَ، إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ) [وهو صحيح أخرجه الحاكم/ ٧٣٥٨]. ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾؛ أي: أظهر لقلوبهم وأنقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته، ويروى: في قلبه.

وقد روى الإمام أحمد [٢٢٣٣٢] عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إِلَى مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ (أَوَّلَ مَرَّةٍ) ثُمَّ يَغْضُ بَصَرَهُ، إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلَاوَتَهَا) وروى هذا

مرفوعاً عن ابن عمر وحذيفة وعائشة رضي الله عنهم، ولكن في أسانيدها ضعف إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وفي «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنَ الزَّانَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزَنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظْرُ، وَزَنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَزَنَا الْأَذْنَيْنِ الْاسْتِمَاعُ، وَزَنَا الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ، وَزَنَا الرَّجْلَيْنِ الْخُطْيُ، وَالنَّفْسُ تَمْنَى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ). رواه البخاري [٥٨٨٩] تعليقاً، ومسلم [٢٦٥٧] مسنداً بنحو ما تقدم، وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره إلى الأُمرد، وحرمة طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيراً جداً.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الذَّكَرِ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣١).

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات، وَغَيْرَةٍ مِنْهُ لَأَزْوَاجِهِنَّ، عبادته المؤمنين، وتمييزاً لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات.

فقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾؛ أي: عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن، ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً، واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود [٤١١٢] والترمذي [٢٧٧٨] عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعدما أُمِرْنَا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ: (اِحْتَجَبَا مِنْهُ)، فقلت: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: (أَوْ عَمِيَا وَإِنْ أَنْتُمَا أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِي)، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة كما ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملت ورجعت [رواه البخاري/ ٩٤٤ ومسلم/ ٨٩٢].

وقوله: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ قال سعيد بن جبير: عن الفواحش، وقال قتادة وسفيان: عما لا يحل لهن، وقال مقاتل: عن الزنا، وقال أبو العالية: كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا إلا هذه الآية ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أن لا يراها أحد.

وقوله: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾؛ أي: لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه، قال ابن مسعود: كالرداء والثياب؛ يعني: على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المِقْنَعَةِ التي تُجَلَّلُ ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب، فلا حرج عليها فيه لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها وما لا يمكن إخفاؤه، وقال بقول ابن مسعود الحسن، وابن سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيم النخعي وغيرهم.

وقال ابن عباس: وجهها وكفيها والخاتم، وروي عن ابن عمر، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبي الشعثاء، والضحاك، وإبراهيم النخعي وغيرهم نحو ذلك، وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال عبد الله [بن مسعود]: الزينة القرط والدُمْلُجُ والخَلْخَالُ والقِلَادَةُ [الطبراني في «الكبير»/٩١١٦]، وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال: الزينة زينتان: فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب [ابن أبي حاتم/١٤٣٩٤]، وقال الزهري: لا يبدین لهؤلاء الذين سَمَّى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر وأما عامة الناس فلا يبدین منها إلا الخواتم.

وقال الزهري أيضاً: الخاتم والخلخال، ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند الجمهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في «سننه» [٤١٠٤] عن خالد بن دريك، عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رفاق فأعرض عنها، وقال: (يَا أَسْمَاءُ، إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتْ الْمَحِيضَ لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يُرَى مِنْهَا إِلَّا هَذَا) وأشار إلى وجهه وكفيه، لكن قال أبو داود، وأبو حاتم الرازي: هذا مرسل؛ خالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾؛ يعني: المقانع يعمل لها صَنَفَات ضاربات على صدور النساء لتواري ما تحتها من صدرها وترايبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذَيْنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ والخمر: جمع خمار وهو ما يخمر به؛ أي: يغطى به الرأس وهي التي تسميها الناس المقانع.

قال سعيد بن جبير: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ﴾ وليشدن ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾؛ يعني: على النحر والصدر فلا يرى منه شيء وروى البخاري [٤٤٨٠] عن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطن فاختمرن بها.

وقوله: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾؛ أي: أزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزینتها ولكن من غير تبرج، وقال الشعبي وعكرمة في هذه الآية: لم يذكر العم ولا الخال؛ لأنهما ينعنان لأبنائهما ولا تضع خمارها عند العم والخال،

فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره.

وقوله: ﴿أَوْ نِسَاءَهُنَّ﴾؛ أي: تظهر بزینتها أيضًا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لثلاث تصفهن لرجالهن، وذلك وإن كان محذورًا في جميع النساء إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد، فإنهن لا يمنعن من ذلك مانع وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتتجزر عنه، وقد قال رسول الله ﷺ: (لَا تُبَاشِرُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ، تَنْتَعُثُ لِرَوْحِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا) أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٤٩٤٢]، وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة: أما بعد، فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك فإنه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها [البهقي/١٣٣٢١]، وقال مجاهد: نساؤهن المسلمات ليس المشركات من نسائهن، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي المشركة [البهقي/١٣٣٢٢ نحوه]، وعن ابن عباس قال: هن المسلمات لا تبدیه ليهودية ولا نصرانية وهو النحر والقرط والوشاح وما لا يحل أن يراه إلا محرم.

وعن مجاهد قال: لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أَوْ نِسَاءَهُنَّ﴾ فليست من نسائهن، وعن مكحول وعبادة بن نسي أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة، وعن عطاء قال: لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ بيت المقدس كان قوابل نسائهم اليهوديات والنصرانيات، فهذا إن صح فمحمول على حال الضرورة أو أن ذلك من باب الامتهان، ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولا بد، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ قال ابن جرير: يعني: من نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها، وإن كانت مشركة؛ لأنها أمتها، وإليه ذهب سعيد بن المسيب، وقال الأكثرون: بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء.

وروى الإمام أحمد [٢٦٥١٦] عن أم سلمة، ذكرت أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا كَانَ لِأَحَدَاكُنَّ مَكَاتِبٌ، وَكَانَ لَهُ مَا يُؤَدِّي، فَلْتَحْتَجِبْ مِنْهُ) ورواه أبو داود [برقم: ٣٩٢٨]، والترمذي [١٢٦١] وقال: [حسن صحيح]. وقوله تعالى: ﴿أَوْ النَّبِيعَاتِ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾؛ يعني: كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء، وهم مع ذلك في عقولهم وله وخوث، ولا هم لهم إلى النساء ولا يشتهونهن، قال ابن عباس: هو المغفل الذي لا شهوة له، وقال مجاهد: هو الأبله، وقال عكرمة: هو المخنث [الطبري/١٨/١٢٣]، وكذلك قال غير واحد من السلف، وروى الإمام أحمد [٢٦٥٣٣] عن أم سلمة أنها قالت: دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث، وعندها أخوها عبد الله بن أبي أمية، والمخنث يقول لعبد الله: يا عبد الله، إن فتح الله عليكم الطائف غداً فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، قال: فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة: (لَا يَدْخُلَنَّ هَذَا عَلَيْكَ) أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٤٠٦٩ ومسلم/٢١٨٠].

وقوله: ﴿أَوْ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾؛ يعني: لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك: فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهماً، أو قريباً منه، بحيث

يعرف ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسناء، فلا يمكن من الدخول على النساء، وقد ثبت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِيَّاكُمْ وَالذُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ) قيل: يا رسول الله، أفرأيت الحمؤ؟ قال: (الْحَمُّوُ الْمَوْتُ) [البخاري/ ٤٩٣٤ واللفظ له، ومسلم/ ٢١٧٢].

وقوله: ﴿وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوته، ضربت برجلها الأرض، فيعلم الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستورا فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتتم الرجال طيبها، فقد روى أبو عيسى الترمذي [٢٧٨٦]، وأبو داود [٤١٧٣]، والنسائي [٩٤٢٢]، عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: (كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا)؛ يعني: زانية [واللفظ للترمذي]، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ومن ذلك أيضا أنهم ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج. روى أبو داود [٥٢٧٢] عن أبي أسيد الأنصاري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله ﷺ للنساء: (اسْتَأْخِرْنَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْفَقْنَ الطَّرِيقَ، عَلَيْكُنَّ بِحَافَاتِ الطَّرِيقِ)، فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به [وصحه الألباني].

وقوله: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى عنه، والله تعالى هو المستعان.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَى مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمُ وَإِمَائِكُمُ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ ۝٣٢﴾ وَلَيْسَتَّعِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمُ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۚ وَءَاتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمُ وَلَا تَكْرَهُوا فَنَبَيْتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ خَصْمًا ۖ فَلْيَبْغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٣٤﴾.

اشتملت هذه الآيات الكريمات على جمل من الأحكام المحكمة، والأوامر المبرمة، فقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَى مِنكُمُ﴾ إلى آخره، هذا أمر بالتزويج، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه، واحتجوا بظاهر قوله ﷺ: (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ



وَجَاءَ). أخرجه في «الصحيحين» [البخاري/٤٧٧٩؛ مسلم/١٤٠٠]، وقد جاء في «السُّنَن» من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: (تَزَوَّجُوا، تَوَالِدُوا، تَنَاسَلُوا، فَإِنِّي مَبَاهٍ بِكُمْ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [البهقي: ١٣٢٥٣ نحوه والنسائي/٥٣٤٢ وأبو داود/٢٠٥٠ وحسنه الحافظ ابن حجر]. الأيامي: جمع أيَم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها، وللرجل الذي لا زوجة له، وسواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما، حكاه الجوهري عن أهل اللغة، يقال: رجل أيَم وامرأة أيَم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال ابن عباس: رغبتهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى، وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى، وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح [الطبري ١٢٦/١٨].

يقول الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وعن عمر بنحوه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثَلَاثَةٌ حَقَّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمُ: النَّكَاحُ يُرِيدُ الْعَفَافَ، وَالْمَكَاتِبُ يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالْغَارِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ) رواه الإمام أحمد [٧٤١٠]، والترمذي [١٦٥٥]، والنسائي [٥٠١٤]، وابن ماجه [٢٥١٨]، والحاكم/٢٦٧٨ وقال: صحيح على شرط مسلم، وقد زوج النبي ﷺ ذلك الرجل الذي لم يجد إلا إزاره، ولم يقدر على خاتم من حديد، ومع هذا فزوجه بتلك المرأة وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما معه من القرآن، والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله.

وقوله: ﴿وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام كما قال ﷺ: (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ. وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ)، وهذه الآية مطلقة، والتي في سورة النساء أخص منها وهي قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ - إلى قوله: - ﴿وَأَنْ تَصْرِبُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٥]؛ أي: صبركم عن تزويج الإماء خير لكم؛ لأن الولد يجيء رقيقاً ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قال عكرمة في قوله: ﴿وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا﴾ قال: هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة فلينظر في ملكوت السموات والأرض حتى يغنيه الله.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَابَوْهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب، لا أمر تحتم وإيجاب، بل السيد مخير إذا طلب منه عبده الكتابة، إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكتبه، وقال الشعبي: إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكتبه، وكذا قال عطاء بن أبي رباح ومقاتل بن حيان والحسن البصري، وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ما طلب أخذاً بظاهر هذا الأمر.

وقال البخاري [بروي تعليقاً ٩٠٢/٢]: وقال روح عن ابن جريج قلت لعطاء: أوجب علي إذا علمت له مالاً أن أكاتبه، قال: ما أراه إلا واجباً، وقال عمرو بن دينار: قلت لعطاء: أتأثره عن أحد؟ قال: لا، ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنساً المكاتبه، وكان كثير المال فأبى، فانطلق إلى عمر رضي الله عنه، فقال: كاتبه، فأبى فضربه بالدرة، وبتلو عمر رضي الله عنه ﴿فَكَاتِبُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فكاتبه، وعن الضحاك قال: هي عزمة، وهذا هو القول القديم من قولي الشافعي، وذهب في الجديد إلا أنه لا يجب لقوله عليه السلام: (لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطَيْبٍ مِنْ نَفْسِهِ) [رواه البيهقي/١١٣٢٥ وغيره بإسناد صحيح]، وقال مالك: الأمر عندنا أنه ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكاتب عبده، قال مالك: وإنما ذلك أمر من الله تعالى وإذن منه للناس وليس بواجب، وكذا قال الثوري، وأبو حنيفة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، واختار ابن جرير [١٢٧/١٨] قول الوجوب لظاهر الآية.

وقوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال بعضهم: أمانة، وقال بعضهم: صدقاً، وقال بعضهم: مالاً، وقال بعضهم: حيلة وكسباً، وقوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ اختلف المفسرون فيه، فقال بعضهم: معناه اطرحوا لهم من الكتابة بعضها، ثم قال بعضهم: مقدار الربع، وقيل: الثلث، وقيل: النصف، وقيل: جزء من الكتابة من غير حد. وقال آخرون: بل المراد من قوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكوات، وهذا قول الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبيه، ومقاتل بن حيان، واختاره ابن جرير، وقال إبراهيم النخعي: حث الناس عليه مولاه وغيره، وكذا قال بريدة بن الحصيب الأسلمي وقتادة، وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب، وعن عمر: أنه كاتب عبداً له يكنى أبا أمية، فجاء بنجمله حين حل فقال: يا أبا أمية اذهب فاستعن به في مكاتبتك، فقال: يا أمير المؤمنين، لو تركته حتى يكون من آخر نجم؟ قال: أخاف أن لا أدرك ذلك، ثم قرأ: ﴿فَكَاتِبُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ عليه السلام [البيهقي/٢١٤٦٠] قال عكرمة: كان أول نجم أدي في الإسلام.

وكان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئاً من أول نجومه مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته، ولكنه إذا كان في آخر مكاتبته وضع عنه ما أحب، وقال ابن عباس أيضاً: ضعوا عنهم في مكاتبتهم [الطبري/١٨/١٣٠]، وكذا قال مجاهد، وعطاء، والقاسم بن أبي بزة، وعبد الكريم بن مالك الجَزَرِيُّ والسدي، وقال محمد بن سيرين: كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته.

وقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ﴾ كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سب نزول هذه الآية الكريمة، فيما ذكره غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق، فإنه كان له إماء، فكان يكرههن على البغاء طلباً لخراجهن، ورغبة في أولادهن ورياسة منه فيما يزعم.

فعن جابر في هذه الآية، قال: نزلت في أمة لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها: مُسَيِّكَة،

كان يكرهها على الفجور، وكانت لا بأس بها فتأبى، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [رواه مسلم/١٤٥٢٢].

وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، وقوله: ﴿لِيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: من خراجهن ومهورهن وأولادهن، وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام، ومهر البغي، وحلوان الكاهن [رواه مسلم بمعناه/١٥٦٨].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: لهن كما تقدم في الحديث عن جابر، وقال ابن عباس: فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم، وإثمهن على من أكرههن [الطبري ١٨/١٣٣] وكذا قال مجاهد، وعطاء الخراساني، والأعمش، وقتادة، وقال الحسن في هذه الآية: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال: لهن والله. لهن والله، وعن الزهري قال: غفور لهن ما أكرهن عليه، وعن زيد بن أسلم قال: غفور رحيم للمكرهات، وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال: (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ) [رواه ابن ماجه/٢٠٤٣، وهو حديث حسن].

ولما فصل تعالى هذه الأحكام وبينها قال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ مُبِينَاتٍ﴾؛ يعني: القرآن فيه آيات واضحة مفسرات، ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ﴾؛ أي: خبراً عن الأمم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]. ﴿وَمَوْعِظَةً﴾؛ أي: زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: لمن اتقى الله وخافه، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفة القرآن: فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وهو الفضل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٥).

قال ابن عباس: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هادي أهل السموات والأرض، وقال مجاهد، وابن عباس أيضاً: يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما، وعن أنس بن مالك قال: إن الله يقول: نوري هادي، واختار هذا القول ابن جرير [١٨/١٣٥]، وعن أبي بن كعب قال: هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره، فضرب الله مثله فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور من آمن به. قال: فكان أبي بن كعب يقرأها: «مثل نور من آمن به»، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره، وهكذا قرأها ابن عباس: «نور من آمن بالله»، وقرأ بعضهم: «الله نور السموات والأرض»، وهكذا قرأها الضحاك [الطبري ١٨/١٣٦].

وقال السدي في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فبنوره أضواء السموات والأرض. وفي «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: (اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قِيَمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِنْ فِيهِنَّ) الحديث [البخاري/٦٩٥٠]، وعن ابن مسعود قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور العرش من نور وجهه [الطبراني في «الكبير»/٨٨٨٦].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ في هذا الضمير قولان أحدهما: أنه عائد إلى الله ﷻ؛ أي: مثل هداه في قلب المؤمن قاله ابن عباس رضي الله عنه ﴿كَيْشْكُورَةٍ﴾، والثاني: أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام تقديره: مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]، فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف. فقلوه: ﴿كَيْشْكُورَةٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، ومحمد بن كعب وغير واحد: هو موضع الفتيلة من القنديل [ابن أبي حاتم/١٤٥٦٣] هذا هو المشهور، ولهذا قال بعده: ﴿فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ وهو الذبالة التي تضيء، وقال ابن عباس في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَيْشْكُورَةٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ وذلك أن اليهود قالوا لمحمد ﷺ: كيف يخلص نور الله من دون السماء؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره، فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَيْشْكُورَةٍ﴾ والمشكاة: كوة في البيت، قال: وهو مثل ضربه الله لطاعته فسمى الله طاعته نوراً ثم سماها أنواعاً شتى، وقال مجاهد: الكوة بلغة الحبشة، وزاد غيره فقال: المشكاة الكوة التي لا منفذ لها، وعن مجاهد: المشكاة الحداث التي يعلق بها القنديل [الطبري ١٨/١٤٠]، والقول الأول أولى، وهو: أن المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل ولهذا قال: ﴿فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ وهو النور الذي في الذبالة، قال أبي بن كعب: المصباح النور، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره، وقال السدي: هو السراج ﴿الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾؛ أي: هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية، وقال أبي بن كعب وغير واحد: وهي نظير قلب المؤمن. ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ قال أبي بن كعب: كوكب مضيء، وقال قتادة: مضيء مبين ضخيم. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾؛ أي: يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾؛ أي: ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ولا في غربيها فيتقلص عنها الفء قبل الغروب، بل هي في مكان وسط، تفرعه الشمس من أول النهار إلى آخره فيجيء زيتها صافياً معتدلاً مشرقاً، وعن ابن عباس قال: هي شجرة بالصحراء لا يظلمها شجر، ولا جبل، ولا كهف، ولا يوارىها شيء وهو أجود لزيتها [ابن أبي حاتم/١٤٥٩٩]، وبنحوه قال عكرمة ومجاهد، وقال سعيد بن جبيرة: هو أجود الزيت. قال: إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تصيبها بالغداة والعشي فتلك لا تعد شرقية ولا غربية، وقال السدي: ليست بشرقية يحوزها المشرق ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ولكنها على رأس جبل أو في صحراء

تصيبها الشمس النهار كله. وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ أنها في وسط الشجر ليست بادية للمشرق ولا للمغرب.

وعن أبي بن كعب قال: هي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت ولا إذا غربت، قال: فكذلك هذا المؤمن قد أجبر من أن يصيبه شيء من الفتن، وقد يتلى بها فيثبته الله فيها، فهو بين أربع خلال، إن قال صدق، وإن حكم عدل، وإن ابتلي صبر، وإن أعطي شكر، فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات [رواه ابن أبي حاتم/١٤٥٩٦]، وعن سعيد بن جبيرة قال: هي وسط الشجر لا تصيبها الشمس شرقاً ولا غرباً [ابن أبي حاتم/١٤٥٩٨]، وقال عطية العوفي: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قال: هي شجرة في موضع من الشجر يرى ظل ثمرها في ورقها، وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما كذلك: ليست شرقية ليس فيها غرب، ولا غربية ليس فيها شرق، ولكنها شرقية غربية [ابن أبي حاتم/١٤٦٠٣]، وقال محمد بن القرظي: هي القبلية، وقال زيد بن أسلم: الشام، وقال الحسن البصري: لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية، ولكنه مثل ضربه الله لنوره.

وقال ابن عباس: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ قال: رجل صالح ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قال: لا يهودي ولا نصراني [رواه الطبراني في «الكبير» عن ابن عمر/١٣٢٢٦].

وأولى هذه الأقوال القول الأول، وهو أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس تفرعه من أول النهار إلى آخره ليكون ذلك أصفى لزيته وألطف كما قال غير واحد ممن تقدم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: لضوء إشراق الزيت.

وقوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: بذلك إيمان العبد وعمله [الطبري ١٣٩/١٨]، وقال مجاهد والسدي: يعني: نور النار ونور الزيت، وقال أبي بن كعب: فهو يتقلب في خمسة من النور: فكلامة نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة [الطبري ١٣٨/١٨]. وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: حدثني عن قول الله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قال: يكاد محمد ﷺ يبين للناس وإن لم يتكلم أنه نبي [ابن أبي حاتم/١٤٦١٣]، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء، وقال السدي في قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قال: نور النار ونور الزيت، حين اجتماعاً أضاء، ولا يضيئ واحد بغير صاحبه كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعاً، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه.

وقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يرشد الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٦٦٤٤] عن عبد الله بن عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ، فَمَنْ أَصَابَ يَوْمَئِذٍ مِنْ نُورِهِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَاهُ ضَلَّ. فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ ﷻ) [وصححه أحمد شاكر].

وقوله تعالى: ﴿وَضَرْبُ اللَّهِ الْأَمْثَلُ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾ لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداة في قلب المؤمن ختم الآية بقوله: ﴿وَضَرْبُ اللَّهِ الْأَمْثَلُ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال.

روى الإمام أحمد [١١١٤٥] عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدٌ فِيهِ مِثْلُ السَّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفٌ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ. فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ، سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيْمَانٌ وَنِفَاقٌ، وَمِثْلُ الْإِيْمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبُقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمِثْلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْفَرْحَةِ يَمُدُّهَا الْفَيْحُ وَالْدَّمُ، فَأَيُّ الْمَدَتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ) إسناده جيد ولم يخرجوه.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْأَصْوَالِ﴾ (٣٦) رِجَالٌ لَا لُتْهِمْ تَحَرَّةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٨).

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاج الصافية المتوقد من زيت طيب، وذلك كالقنديل، ذكر محلها وهي المساجد، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض وهي بيوته التي يعبد فيها ويُوَحَّدُ فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾؛ أي: أمر الله تعالى بتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها؛ كما قال ابن عباس في هذه الآية الكريمة: نهى الله سبحانه عن اللغو فيها، وكذا قال عكرمة والضحاك ونافع بن جبير وغيرهم من علماء التفسير.

وقال قتادة: هي هذه المساجد، أمر الله سبحانه ببنائها ورفعها، وعمارتها وتطهيرها، وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول: مكتوب في التوراة ألا إن بيوتي في الأرض المساجد وإنه من تَوْضاً فأحسن وضوءه ثم زارني في بيتي أكرمه وحق على المزور كرامة الزائر، رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره [١٤٦٣٦]، وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطيبها وتبخيرها، وذلك له محل مفرد يذكر فيه وقد كتبت في ذلك جزءاً على حدة، والله الحمد والمنة، ونحن بعون الله تعالى نذكرها هنا طرفاً من ذلك إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان، فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ). أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/ ٤٣٩ ومسلم/ ٥٣٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيب. رواه أحمد [٢٦٤٢٩] وأهل السنن [أبو داود/ ٤٥٥ والترمذي/ ٥٩٤ وابن ماجه/ ٧٥٩] إلا النسائي، [وصححه

ابن حبان/١٦٣٤]، وقال البخاري [تعليقاً/١٧١/١]: قال عمر: ابن للناس ما يكنهم، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس، وعن بريدة أن رجلاً أشد في المسجد فقال: من دعا إلى الجمل الأحمر فقال النبي ﷺ: (لَا وَجَدْتُ، إِنَّمَا بُنِيَ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَ لَهُ) (رواه مسلم [٥٦٩]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَتَّاعُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقُولُوا: لَا أَرَبَّحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ، فَقُولُوا: لَا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْكَ) (رواه الترمذي [١٣٢١] وقال: حسن غريب).

ولا يشهر فيه بسلاح، ولا ينبض فيه بقوس، ولا ينثر فيه نبل، لما يخشى من إصابة بعض الناس به، لكثرة المصلين فيه، ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر أحد بسهام أن يقبض على نصالها، لئلا يؤذي أحداً، كما ثبت ذلك في الصحيح [البخاري/٤٤١/٤٤١ ومسلم/٢٦١٥]، وينهى عن المرور باللحم النيئ فيه لما يخشى من تقاطر الدم منه، كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلوّث، ولا يضرب فيه حد، أو يقتصر، لما يخشى من إيجاد النجاسة فيه من المضروب أو المقطوع، ولا يتخذ سوقاً، لما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه، فإنه إنما بني لذكر الله والصلاة فيه كما قال النبي ﷺ لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد: (إِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا، إِنَّمَا بُنِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ فِيهَا)، ثم أمر بسجل من ماء فأهريق على بوله [البخاري/٥٧٧٧ بنحوه ومسلم/٢٨٥]، وتجنب المساجد المجانين، والخصومات، ورفع الأصوات، لما روى البخاري [٤٥٨] عن السائب بن يزيد الكندي قال: كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال: اذهب فائتني بهذين فجئته بهما فقال: من أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالوا: من أهل الطائف. قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ.

ويؤمر بتبخيرها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ، وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن ابن عمر أن عمر كان يجمر مسجد رسول الله ﷺ كل جمعة. إسناده حسن لا بأس به والله أعلم، وقد ثبت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ قال: (صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تَضَعُفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوْقِهِ، خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وَضُوءَهُ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تَصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلَاةٍ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، وَلَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا انتَظَرَ الصَّلَاةَ) [البخاري/٦٢٠ ومسلم/٦٤٩].

والمستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى، وأن يقول كما ثبت [في سنن أبي داود/٤٦٦] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد يقول: (أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) (قال: أقط قال: نعم) قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان: حفظ مني سائر اليوم. [حديث حسن].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلْيَقُلْ:

اللَّهُمَّ اغْصِنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) رواه ابن ماجه [٧٧٣] وابن خزيمة [٤٥٢]، وابن حبان [٢٠٤٧] في «صحيحهما»، [ولبعضه شواهد عند مسلم/٧١٣].

وقوله: ﴿وَيَذْكُرْ فِيهَا اسْمَهُ﴾؛ أي: اسم الله كقوله: ﴿يَبْقَىٰ ءَادَمُ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]، قال ابن عباس: ﴿وَيَذْكُرْ فِيهَا اسْمَهُ﴾؛ يعني: يتلى فيها كتابه.

وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾؛ أي: في البكرات والعشيَّات، والآصال: جمع أصيل هو آخر النهار، وقال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن هو الصلاة، وقال ابن عباس: يعني: بالغدو: صلاة الغداة؛ ويعني: بالآصال: صلاة العصر، وهما أول ما افترض الله من الصلاة، فأحب أن يذكرهما وأن يذكر بهما عباده، وكذا قال الحسن والضحاك: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾؛ يعني: الصلاة [الطبري ١٨/١٤٦]، ومن قرأ من القراء: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ بفتح الباء من ﴿يُسَبِّحُ﴾ على أنه مبني لما لم يسم فاعله وقف على قوله: ﴿وَالْآصَالِ﴾ وقفًا تامًّا، وابتدأ بقوله: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ بُحْرَةً وَلَا بُيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وكأنه مفسر للفاعل المحذوف، وأما على قراءة من قرأ: ﴿يُسَبِّحُ﴾ بكسر الباء فجعله فعلًا وفاعله: ﴿رِجَالٌ﴾ فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل؛ لأنه تمام الكلام، فقوله: ﴿رِجَالٌ﴾ فيه إشعار بهمهمهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية التي بها صاروا عُمَّارًا للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه كما قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن لما رواه أبو داود [٥٧٠] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا) [وله شاهد بمعناه عند أحمد من حديث أم سلمة، وأم حميد امرأة أبي حميد الساعدي].

هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال بشرط أن لا تؤذي أحدًا من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب، كما ثبت في «الصحيح» عن عبد الله بن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَمْتَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ) [البخاري/٨٥٨ ومسلم/٤٤٢]، وقد ثبت في «صحيح مسلم» [٤٤٣] عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: (إِذَا شَهِدْتُ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلَا تَمَسِّي طَبِيًّا).

وقوله: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ بُحْرَةً وَلَا بُيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]. يقول تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تُلْهِمُهُمْ بُحْرَةً وَلَا بُيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾؛ أي: يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم، وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا



المسجد فقال ابن عمر: فيهم نزلت: ﴿رَجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا بَحْرٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ رواه ابن أبي حاتم [١٤٦٤٧]، وابن جرير.

وروى ابن أبي حاتم [١٤٦٤٨] عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: إني قمت على هذا الدرج أبايع عليه، أربح كل يوم ثلاثمائة دينار، وأشهد الصلاة في كل يوم في المسجد، أما إني لا أقول إن ذلك ليس بحلال، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله فيهم: ﴿رَجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا بَحْرٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وكذا قال سعيد بن أبي الحسن والضحاك: لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها [ابن أبي حاتم/١٤٦٤٩]، وقال مطر الوراق: كانوا يبيعون ويشترون، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة.

وقال ابن عباس: ﴿لَا لَّهُمْ فِيهَا بَحْرٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ يعني: عن الصلاة المكتوبة، وكذا قال مقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، وقال السدي: عن الصلاة في جماعة، وقال مقاتل بن حيان: لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة وأن يقيموها كما أمرهم الله، وأن يحافظوا على مواقيتها وما است حفظهم الله فيها.

وقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾؛ أي: يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار؛ أي: من شدة الفزع وعظمة الأهوال، كقوله: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَلْزَامِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ [غافر: ١٨]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقوله ههنا: ﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾؛ أي: هؤلاء من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم، وقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾؛ أي: يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال هاهنا: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وعن ابن مسعود أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحدًا واحدًا، فكلهم لم يشربه؛ لأنه كان صائمًا، فتناوله ابن مسعود فشربه؛ لأنه كان مفطرًا، ثم تلا قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ رواه النسائي.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفْبِقِعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار، كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين: نارياً ومائياً، وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين: مائياً ونارياً، وقد تكلمنا على كل منهما في موضعه بما أغنى عن إعادته، والله الحمد والمنة، فأما الأول من هذين المثلين، فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى

في القيعان من الأرض من بعد كأنه بحر طام، والقيعة: جمع قاع كجار وجيرة، والقاع أيضًا: واحد القيعان، كما يقال: جار وجيران، وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة، وفيه يكون السراب، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار، وأما الآل فإنما يكون أول النهار، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء فقصدته ليشرب منه، فلما انتهى إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً وأنه قد حصل شيئاً، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قبل، إما لعدم الإخلاص أو لعدم سلوك الشرع، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال هاهنا: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوَفَّيْنَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وهكذا روي عن أبي بن كعب وابن عباس، ومجاهد، وقتادة وغير واحد.

وفي «الصحيحين» [البخاري/٧٠٠١ ومسلم/١٨٣] أنه يقال يوم القيامة لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله. فيقال: كذبتُم ما اتخذ الله من ولد، ماذا تبغون؟ فيقولون: يا رب عطشنا فاسقنا، فيقال: ألا ترون؟ فتمثل لهم النار كأنها سرابٌ يحطم بعضها بعضاً، فينطلقون فيتهافتون فيها، وهذا المثل مثال لذوي الجهل المركب، فأما أصحاب الجهل البسيط وهم المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون، فمثلهم كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمْتُمْ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ﴾ قال قتادة: هو العميق ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾؛ أي: لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط، المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده، ولا يدري أين يذهب، بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب؟ قال معهم. قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري.

وقال ابن عباس رضي الله عنه [كما روى الطبري ١٨/١٥٠] ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾؛ يعني: بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهي كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقال أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فهو يتقلب في خمسة من الظلم فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار، وقال السدي والربيع بن أنس نحو ذلك أيضًا، وقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾؛ أي: من لم يهده الله فهو هالك جاهل، حائر، كافر، كقوله: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥] فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نورًا، وعن إيماننا نورًا، وعن شمائلنا نورًا، وأن يعظم لنا نورًا.

﴿لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢).

يخبر تعالى أنه يسبحه من في السموات والأرض؛ أي: من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ

إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴿٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله: ﴿وَالطَّيْرُ صَفَّتْ﴾؛ أي: في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدنا إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة، ولهذا قال: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾؛ أي: كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله ﷻ، ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، فهو الحاكم المتصرف الذي لا معقب لحكمه وهو الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: يوم القيامة، فيحكم فيه بما يشاء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَلَيْهِمْ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، فهو الخالق المالك، له الحكم في الدنيا والآخرة، وله الحمد في الأولى والآخرة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرِجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقُلُّ اللَّهُ الْتَلَّ وَالنَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾.

يذكر تعالى أنه بقدرته يسوق السحاب أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإزجاء ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾؛ أي: يجمعه بعد تفرقه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾؛ أي: متراكماً؛ أي: يركب بعضه بعضاً ﴿فَتَرَى الْوَدَّكَ﴾؛ أي: المطر ﴿يَخْرِجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾؛ أي: من خَلَلِهِ، وكذا قرأها ابن عباس والضحاك. قال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قمماً، ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله اللوايح فتلقح السحاب. رواه ابن أبي حاتم [١٤٧٠٩]، وابن جرير [٢٠/١٤] رحمهما الله.

وقوله: ﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾؛ معناه: أن في السماء جبال برَد ينزل الله منها البرد. وقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾؛ أي: بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد، فيكون قوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ رحمة لهم، ﴿وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: يؤخر عنهم الغيث، ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾؛ أي: بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نشر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم، ويصرفه عن من يشاء؛ أي: رحمة بهم.

وقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾؛ أي: يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته، وقوله: ﴿يَقُلُّ اللَّهُ الْتَلَّ وَالنَّهَارُ﴾؛ أي: يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيراً ويقصر الذي كان طويلاً، والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾؛ أي: لدليلاً على عظمته تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وما بعدها من الآيات الكريمات.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٥).

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالحية وما شاكلها، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات، ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: بقدرته؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦).

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحُكْم والحِجْم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولى الأبواب والبصائر والنهي، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَلَنْ يَكُنَ لَهُمُ الْخُفْيُ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ (٤٩) ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٥٠) ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥١) ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٥٢).

يخبر تعالى: عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بألسنتهم: ﴿ءَأَمَنَا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؛ أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وهذه كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ - إلى قوله: ﴿رَأَيْتَ الْمُتَفَقِّهِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

وقوله: ﴿وَلَنْ يَكُنَ لَهُمُ الْخُفْيُ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾؛ أي: وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مطيعين، وهو معنى قوله: ﴿مُذْعِنِينَ﴾، وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ ليروج باطله ثم، فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه، ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ الآية؛ يعني: لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب

مرض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأياً ما كان فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم وما هو منطوق عليه من هذه الصفات.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور تعالى الله ورسوله عن ذلك، ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: سمعنا وطاعة، ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب، فقال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: فيما أمراه به، وترك ما نهياه عنه، ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل، وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾؛ يعني: الذين فازوا بكل خير وأمنا من كل شر في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٥٤).

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ: لئن أمرتهم بالخروج في الغزو ليخرجن، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُفْسِمُوا﴾؛ أي: لا تحلفوا، وقوله: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ قيل: معناه طاعتكم طاعة معروفة؛ أي: قد علمت طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتكم كذبتهم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانٍ عَنْهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ الآية [المنافقون: ٢]، فهم من سجيبتهم الكذب حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرَّفُونَ﴾ [الحشر: ١١، ١٢].

وقيل: المعنى في قوله: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾؛ أي: ليكن أمركم طاعة معروفة؛ أي: بالمعروف من غير حلف ولا إقسام، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف، فكونوا أنتم مثلهم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي، فالحلف وإظهار الطاعة والباطن بخلافه وإن راج على المخلوق، فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى، لا يروج عليه شيء من التدليس، بل هو خبير بضمائر عباده وإن أظهرها خلافها، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾؛ أي: اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾؛ أي: إبلاغ

الرسالة وأداء الأمانة، ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾؛ أي: من قبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه، ﴿وَأَنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [الشورى: ٥٣].

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرد: ٤٠]. قال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له شعيا أن قم في بني إسرائيل، فأني سأطلق لسانك بوحى، فقام فقال: يا سماء اسمعي ويا أرض أنصتي، فإن الله يريد أن يقضي شأنًا ويدبر أمرًا هو منفذه، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة، والآجام في الغيطان، والأنهار في الصحارى، والنعمة في الفقراء، والملك في الرعاة، ويريد أن يبعث أميًا من الأميين ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه، أبعته بشيرًا ونذيرًا، لا يقول الخنى، أفتح به أعينًا عميًا وأذنانًا صُمًّا وقلوبًا غلفًا، وأسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقته، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به من الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأعرف به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فئامًا من الناس عظيمًا من الهلكة، وأجعل أمة خير أمة أخرجت للناس، يأمرهم بالمعروف، وينهون عن المنكر، موحدون مؤمنون مخلصين مصدقين بما جاءت به رسلي، رواه ابن أبي حاتم [١٤٧٥٨ والطبري ١٥/٢٤].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْنََاءَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمة خلفاء الأرض؛ أي: أئمة الناس والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلهم من بعد خوفهم من الناس أمنًا وحكمًا فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمنة، فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية وهو المقوقس، وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أضحمة ﷺ وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلم شعث ما وهى بعد موته ﷺ، وأطد جزيرة العرب ومهداها، وبعث

الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ففتحوا طرفاً منها، وقتلوا خلقاً من أهلها، وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة رضي الله عنه ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليقهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله رحمته واختار له ما عنده من الكرامة.

ومنَّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً، لم يدُر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله، وتمَّ في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهان غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام، وانحدر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سبَّته مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن، ولهذا ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَلْتُ مَلِكًا أَمَنِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا) [رواه مسلم/٢٨٨٩]، فها نحن نقول فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله فنسأل الله الإيمان به وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا.

روى الإمام مسلم بن الحجاج [١٨٢١] عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمْ أَثْنَا عَشَرَ رَجُلًا) ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني، فسألت أبي: ماذا قال رسول الله ﷺ؟ فقال: قال: (كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ)، ورواه البخاري أيضاً [٦٧٩٦]، وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من جود اثني عشرة خليفة عادلاً وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر، فإن كثيراً من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شيء، فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش يلون فيعدلون، وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين، بل يكون وجودهم في الأمة متتابعاً ومتفرقاً، وقد وجد منهم أربعة على الولاء وهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنه، ثم كانت بعدهم فترة، ثم وجد منهم ما شاء الله، ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى، ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ، وكنيته كنيته، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً.

وقد روى الإمام أحمد [٩٣٧]، وأبو داود [٣٣٨٢]، والترمذي [٢٢٢٦]، والنسائي [٨١٥٥] كلهم بألفاظ مختلفة] عن سفينة مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا عَضُوضًا) [صحيح]، وقال بعض السلف: خلافة أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما حق في كتاب الله، ثم تلا هذه الآية.

وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ - إلى قوله: - ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وقوله: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كما قال تعالى عن موسى ﷺ أنه قال لقومه: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِدُّوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَرِيدٌ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ٥) وَنَمُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ الآيتين [الفصل: ٥، ٦].

وقوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم حين وفد عليه: (أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ؟) قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها. قال: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُثَبِّتَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ أَحَدٍ، وَلَتَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كَسْرَى بْنِ هُرْمَزٍ) قلت: كسرى بن هرمز، قال: (نَعَمْ، كَسْرَى بْنُ هُرْمَزٍ، وَلَيُذِلَّنَّ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ)، قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها [رواه البخاري/ ٣٤٠٠ واللفظ لأحمد/ ١٨٢٨٦].

وروى الإمام أحمد [٢١٢٥٨] عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: (بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّاءِ وَالرُّفْعَةِ، وَالْدِّينِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمِنْ عَمَلٍ مِنْهُمْ عَمَلٌ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ) [حسن].

وقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال: بينا أنا رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل، قال: (يَا مُعَاذُ). قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: ثم سار ساعة، ثم قال: (يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ). قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: (يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ). قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: (هَلْ تَذَرِي مَا حَقَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ؟) قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا). قال: ثم سار ساعة، ثم قال: (يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ). قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: (فَهَلْ تَذَرِي مَا حَقَّ الْعِبَادُ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟) قال: قلت الله ورسوله أعلم. قال: (فَإِنَّ حَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ) أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/ ٥٦٢٢ واللفظ له ومسلم/ ٣٠].

وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ أي: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد فسق عن أمر ربه، وكفى بذلك ذنباً عظيماً، فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله ﷻ وأطوعهم لله، كان نصرهم بحسبهم وأظهروا كلمة الله في المشارق



والمغارب، وأيدهم تأييدًا عظيمًا، وتحكموا في سائر العباد والبلاد، ولما قصّر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في «الصحيحين» من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ) [البخاري/ ٦٨٨١ ومسلم/ ١٩٢٠].

﴿وَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ .

يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بإقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ؛ أي: سالكين وراعه فيما به أمرهم، وتاركين ما عنه زجرهم، لعل الله يرحمهم بذلك، ولا شك أن من فعل هذا، أن الله سيرحمه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾؛ أي: لا تظن يا محمد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: خالفوك وكذبوك ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: لا يعجزون الله، بل الله قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب، ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ﴾؛ أي: في الدار الآخرة ﴿لَيْسَ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: بس المال مآل الكافرين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَذِنُوا كَمَا اسْتَذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ .

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض، وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدُمهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال: الأول: من قبل صلاة الغداة؛ لأن الناس إذ ذاك يكونون نيامًا في فرشهم، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ﴾؛ أي: في وقت القيلولة؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾؛ لأنه وقت النوم، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال، ولهذا قال:

﴿تِلْكَ عَوْرَتُ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدُهَا﴾؛ أي: إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال، فلا جناح عليكم في تمكينكم من ذلك إياهم ولا عليهم إن رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال؛ لأنه قد أذن لهم في الهجوم؛ ولأنهم طوافون عليكم؛ أي: في الخدمة وغير ذلك، ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم، ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل [٢٢٦٨٩]، وأهل السنن [النسائي/٦٣ وأبو داود/٧٥ والبيهقي/١٠٩٢ والدارقطني/٢٢] أن النبي ﷺ قال في الهرة: (إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسَةٍ؛ إِنَّهَا مِنَ الطَّوَافِينَ عَلَيْكُمْ أَوْ الطَّوَافَاتِ) [وقال الترمذي/٩٢ حسن صحيح]، ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء وكان عمل الناس بها قليلاً جداً، أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس.

وقال موسى بن أبي عائشة: سألت الشعبي عن قوله: ﴿لَيْسَتْ بِنَجَسَةٍ لَّيْنٍ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾؟ قال: لم تنسخ. قلت: فإن الناس لا يعملون بها. فقال: الله المستعان [الطبري/١٨/١٦٢].

وروى ابن أبي حاتم [١٤٧٨٧] عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان في الثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن، فقال ابن عباس: إن الله ستر يحب السترة. كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم، ولا حِجَال في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمة في حجره وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله، ثم جاء الله بعد بالستور، فبسط الله عليهم الرزق، فاتخذوا الستور واتخذوا الحِجَال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به، وهذا إسناده صحيح إلى ابن عباس، ورواه أبو داود [٥١٩٢]، ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ يعني: إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث، إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال؛ يعني: بالنسبة إلى أجانهم وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث.

قال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير: إذا كان الغلام رباعياً، فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال، وهكذا قال سعيد بن جبير، وقال في قوله: ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ يعني: كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه.

وقوله: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، والضحاك، وقتادة: هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد، ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾؛ أي: لم يبق لهن تشوف إلى الزواج ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾؛ أي: ليس عليها من الحرج في التستر كما على غيرها من النساء.

روى أبو داود [٤١١١] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ الآية [النور: ٣١] فنسخ واستثنى من ذلك ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾. قال ابن مسعود في قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ قال: الجلباب أو الرداء وكذلك روي

عن ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، والحسن وغيرهم [الطبري ١٨/١٦٦]، وقال أبو صالح: تضع الجلباب وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار.

وقال سعيد بن جبير وغيره في قراءة عبد الله بن مسعود ﴿أَنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيَابِهِنَّ﴾ وهو الجلباب من فوق الخمار [ابن أبي حاتم/١٤٤٠٨]، فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره بعد أن يكون عليها خمار صفيق، وقال سعيد بن جبير: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ يقول: لا يتبرجن بوضع الجلباب ليرى ما عليهن من الزينة [ابن أبي حاتم/١٤٨٥١].  
وقوله: ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفَنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾؛ أي: وترك وضعهن لثيابهن، وإن كان جائزاً خير وأفضل لهن ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَفَاحِهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَاةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

اختلف المفسرون رحمهم الله في المعنى الذي لأجله رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض هاهنا، فقال عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنها: نزلت في الجهاد، وجعلوا هذه الآية هاهنا كالتي في سورة الفتح، وتلك في الجهاد لا محالة؛ أي: إنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم، وكما قال تعالى في سورة براءة: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٩١]، وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لِيْتَهِمَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَاعْيَنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الْأَدَمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢] وقيل: المراد هاهنا أنهم كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعمى؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات، وربما سبقه غيره إلى ذلك، ولا مع الأعرج؛ لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جلسه، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره، فكروا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية، رخصة في ذلك، وهذا قول سعيد بن جبير ومقسم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ إنما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ، وتضمن هذا بيوت الأبناء؛ لأنه لم ينص عليهم، ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه، وقد جاء في «المسند» [عند أحمد/٦٩٠٢] و«السنن» [ابن ماجه/٢٢٩٢ والبيهقي/١٥٥٢٦] من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ)، وقوله: ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ - إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاحِهُ﴾ هذا ظاهر، وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام

أحمد بن حنبل في المشهور عنهما، وأما قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ فقال سعيد بن جبير والسدي: هو خادم الرجل من عبد وقهرمان، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يذهبون في النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمّنائهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه، فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء، فأنزل الله ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ [رواه ابن أبي حاتم/ ١٤٨٧٥، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

وقوله: ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾؛ أي: بيوت أصدقاؤكم وأصحابكم، فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك، وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه.

وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ قال ابن عباس في هذه الآية: لما أنزل الله ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ - إلى قوله -: ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ وكانوا أيضًا بأنفون ويتخرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم في ذلك، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ وقال قتادة: كان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل.

وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ قال سعيد بن جبير، والحسن البصري، وقاتادة، والزهري: يعني فليسلم بعضكم على بعض، وقال أبو الزبير: سمعت جابر بن عبد الله يقول: إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة، قال: ما رأيته إلا يوجبه [الطبري ١٧٣/١٨]، وعن ابن طاوس أنه كان يقول: إذا دخل أحدكم بيته فليسلم، قال ابن جريج: قلت لعطاء: أواجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم؟ قال: لا، ولا أثر وجوبه عن أحد، ولكن هو أحب إلي وما أدعه إلا ناسيًا [الطبري ١٧٣/١٨].

وقال مجاهد: إذا دخلت المسجد فقل: السلام على رسول الله، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين [الطبري ١٧٤/١٨]، وقال قتادة: إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنه كان يؤمر بذلك، وحدثنا أن الملائكة ترد عليه [الطبري ١٧٤/١٨].

وقوله: ﴿يَحْيَىٰ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَهُ طَيْبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لما ذكر تعالى ما في هذه السور الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة، نبه تعالى عباده على أنه يبين لعباده الآيات بيانًا شافيًا ليتدبروها ويتعقلوها.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٦٢).

وهذا أيضًا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك، أمرهم الله تعالى أن لا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء، ولهذا قال: ﴿فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ﴾، وقد روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا أَنْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ فَلْيُسَلِّمْ، فَلْيَسِتِ الْأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الْآخِرَةِ) وهكذا رواه الترمذي [٢٧٠٦]، والنسائي [١٠٢٠١]، وقال الترمذي: حديث حسن.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوْأَدَّاءُ فليَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣).

قال ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم، فنهاهم الله ﷻ عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ، قال: فقولوا يا نبي الله، يا رسول الله [ابن أبي حاتم/١٤٩٢٤]، وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقال قتادة: أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ، وأن يُجَلَّ وأن يعظم وأن يُسَوَّدَ، وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ يقول: لا تسموه إذا دعوتهم يا محمد ولا تقولوا يا ابن عبد الله، ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله يا رسول الله [ابن أبي حاتم/١٤٩٢٨].

وقال زيد بن أسلم: أمرهم الله أن يشرفوه. هذا قول: وهو الظاهر من السياق، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رِعْسًا﴾ [البقرة: ١٠٤]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ - إلى قوله: - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [الحجرات: ٢-٥]، فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته.

والقول الثاني: أي: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعوا عليكم فتهلكوا، حكاها ابن أبي حاتم عن ابن عباس، والحسن البصري، وعطية العوفي، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوْأَدَّاءُ﴾ قال مقاتل بن حيان: هم المنافقون كان

يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة، ويعني بالحديث الخطبة، فيلذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ في يوم الجمعة بعدما يأخذ في الخطبة، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي ﷺ فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي ﷺ يخطب بطلت جمعته، وقال السدي: كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم، وقال قتادة: لوأذا عن نبي الله وعن كتابه، وقال سفيان: من الصف، وقال مجاهد: ﴿لَوْأذًا﴾ خلافاً.

**وقوله:** ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾؛ أي: عن أمر رسول الله ﷺ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِلَ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، كما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) [البخاري تعليقاً ٧٥٣/٢ ومسلم ١٧١٨]؛ أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً. ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَّاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ اللَّاتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجِزُهُنَّ وَيَغْلِبُنَّهُ وَيَتَّقِحْنَ فِيهَا - قال: - فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي وَتَفْتَحِمُونَ فِيهَا) أخرجه في «الصحيحين» [البخاري/ ٦١١٨ واللفظ لمسلم/ ٢٢٨٤].

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيَنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ وقد للتحقيق، كما قال قبلها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْأذًا﴾، كقول المؤذن تحقيقاً وثبوتاً: قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، فقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: هو عالم به، مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَنِيِّ الرَّحِيمِ﴾ - إلى قوله: - ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]؛ أي: هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

**وقوله:** ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: ويوم ترجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿فَيَنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا﴾؛ أي: يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير، كما قال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ بِيَوْمِهِ بِمَا قَدَّمَ وَآخَرَ﴾ [القيامة: ١٣]، ولهذا قال ها هنا: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيَنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والحمد لله رب العالمين ونسأله التمام.

## تفسير سورة الفرقان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾ .

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ ﴿١﴾ فِيمَا يَنْزِيلُهُ بَاسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ الآية [الكهف: ١، ٢]، وقال هاهنا: ﴿تَبَارَكَ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ نَزَلَ فَعَلَ من التكرار، والتكرار كقولهِ: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل منجماً مفصلاً، آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سور، وهذا أشد وأبلغ وأشدّ اعتناء بمن أنزل عليه، كما قال في أثناء هذه السورة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ ﴿٢٦﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣]، ولهذا سماه هاهنا الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال، والغى والرشاد، والحلال والحرام.

وقوله: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ هذه صفة مدح وثناء؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ٤١]، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾؛ أي: إنما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المُحْكَم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، الذي جعله فرقاناً عظيماً إنما خصه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء، كما قال ﷺ: (بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ) [رواه مسلم/٥٢١]، وقال: (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي) فذكر منهن أنه (كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) [البخاري/٣٢٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَكَايُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية [الأعراف: ١٥٨]؛ أي: الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض

الذي يقول للشيء كن فيكون وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا قال هاهنا: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك، ثم أخبر أنه خلق ﴿كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ فَعْدِيرًا﴾؛ أي: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره.

﴿وَآخِذُوا مِنْ دُونِهِ عَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾.

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء، المالك لأزمة الأمور، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فكيف يملكون لعباديتهم؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾؛ أي: ليس لهم من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه إلى الله ﷻ الذي هو يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافًا وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، فهو الله الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي لا ولد ولا والد له ولا عدل ولا نديد، ولا وزير، ولا نظير، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِعُ الْأُولِيُّ أَمْ لَا﴾ ﴿أَكْتَنَبَهَا فِيهِ ثَمَلِي عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾؛ أي: كذب ﴿افْتَرَاهُ﴾؛ يعنون النبي ﷺ ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾؛ أي: واستعان على جمعه بقوم آخرين، فقال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾؛ أي: فقد افتروا هم قولاً باطلاً، هم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون.

﴿وَقَالُوا أَسْطِطِعُ الْأُولِيُّ أَمْ لَا﴾؛ يعنون: كتب الأوائل؛ أي: استنسخها ﴿فَهِيَ ثَمَلِي عَلَيْهِ﴾؛ أي: تقرأ عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: في أول النهار وآخره، وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نوحاً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه، ونزاهته وبره وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بُعث الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا



له العداوة ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وثاروا فيما يقذفونه به، فتارةً من إفكهم يقولون: ساحر، وتارةً يقولون: شاعر، وتارةً يقولون: مجنون، وتارةً يقولون: كذاب، وقال الله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]، وقال تعالى في جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج ماضياً ومستقبلاً ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾؛ أي: الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ دعاء لهم إلى التوبة وإخبار لهم بأن رحمته واسعة وأن حلمه عظيم وأن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم وفجورهم وكفرهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِثٌ ثَلَاثًا وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٧٢] أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه. والله عَفُورٌ رَحِيمٌ [المائدة: ٧٣، ٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة.

﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (٧) ﴿أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (٨) ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (٩) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيجعلُ لَكَ قُصُورًا﴾ (١٠) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (١١) ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ (١٢) ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (١٣) ﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجَدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ (١٤).

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم للحق بلا حجة، وإنما تعللوا بقولهم: ﴿مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾؛ يعنون؛ كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾؛ أي: يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ يقولون: هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه، وهذا كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم، ولهذا قالوا: ﴿أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾؛ أي: كنز ينفق منه ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾؛ أي: تسير معه حيث سار، وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة في ترك ذلك وله الحجة البالغة ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾.

قال الله تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلُ فَضَلُّوا﴾؛ أي: جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك من قولهم ساحر، مسحور، مجنون، كذاب، شاعر، وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك، ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا﴾ عن طريق الهدى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى، فإنه ضال حيثما توجه؛ لأن الحق واحد ومنهجه متحد يُصَدِّقُ بعضه بعضًا.

ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه لو شاء لآتاه خيراً مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ فُصُورًا﴾ قال مجاهد: يعني في الدنيا، قال: وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرًا، كبيرًا كان أو صغيرًا [الطبري ١٨/١٨٦].

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾؛ أي: إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيبًا وعنادًا لا أنهم يطلبون ذلك تبصرًا واسترشادًا بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾؛ أي: أَرَصَدْنَا ﴿لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾؛ أي: عذابًا أليمًا حارًّا لا يطاق في نار جهنم. وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾؛ أي: جهنم ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ يعني: في مقام المحشر. قال السدي: من مسيرة مائة عام ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ [ابن أبي حاتم/١٥٠٠]؛ أي: حنقًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ [الملك: ٧، ٨]؛ أي: يكاد يفصل بعضها عن بعض من شدة غيظها على من كفر بالله.

قال أبو وائل: خرجنا مع عبد الله بن مسعود، ومعنا الربيع بن خيثم، فمروا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، ونظر الربيع بن خيثم إليها، فتمايل الربيع ليسقط، فمر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه، قرأ هذه الآية: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ فصعق؛ يعني: الربيع، وحملوه إلى أهل بيته، فرابطه عبد الله إلى الظهر، فلم يُفِقْ ﷺ [ابن أبي حاتم/١٥٠١].

قال ابن عباس: إن الرجل ليجر إلى النار فتزوي وتنقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: ما لك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي، وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك، فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدي، وإن الرجل ليجر إلى النار فتشقق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعرير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف، وهذا إسناده صحيح [رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣/٢٩٢، والديلمي في «الفردوس»/٧٢٩].

وقال عبيد بن عمير: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خرَّ لوجهه ترتعد فرائضه، حتى إن إبراهيم ﷺ ليجثو على ركبتيه ويقول: رب لا أسألك اليوم إلا نفسي. وقوله: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ﴾ قال عبد الله بن عمرو: مثل الزُّج في الرمح؛ أي: من ضيقه. وقوله: ﴿مُقَرَّبِينَ﴾ قال أبو صالح: يعني مكتفين ﴿دَعُوا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾؛ أي: بالويل والحسرة والخيبة ﴿لَا نَدْعُوا آلِيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا﴾.

عن ابن عباس قال: لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً، وادعوا ويلاً كثيراً [الطبري ١٨/١٨٨]، وقال

الضحاك: الثبور: الهلاك، والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿وَلَيْكَ لِأُتُنُكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]؛ أي: هالكا.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾.

يقول تعالى: يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال أولئك الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم، فلتقاهم بوجه عبوس وبغيظ وزفير، ويلقون في أماكنهم الضيق مقرنين لا يستطيعون حراكًا ولا استنصارًا ولا فكاكًا مما هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدنا الله المتقين من عباده، التي أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيرًا على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها ﴿هُمُ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبدًا دائمًا سرمداً، لا ييغون عنها حولاً، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾؛ أي: لا بد أن يقع وأن يكون كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: ﴿وَعْدًا مَسْئُولًا﴾؛ أي: وعدًا واجبًا.

وقال ابن عباس: فسألوا الذي وعدهم وتنجزوه، وقال محمد بن كعب القرظي: إن الملائكة تسأل لهم ذلك ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ [غافر: ٨]، وقال أبو حازم: إذا كان يوم القيامة، قال المؤمنون: ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا، فأنجز لنا ما وعدتنا، فذلك قوله: ﴿وَعْدًا مَسْئُولًا﴾.

وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النار، ثم التنبيه على حال أهل الجنة، كما ذكر تعالى في سورة الصافات حال أهل الجنة وما فيها من النضرة والحبور، ثم قال: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّوْقِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٨].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءِآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُزِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبادة من دون الله من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال مجاهد: عيسى والعزيز والملائكة ﴿فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾؛ أي: فيقول تبارك وتعالى للمعبودين: أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِيمَى إِلَهَيْنِ مِنْ

دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴿١١٧﴾، ولهذا قال تعالى مخبراً عما يُجيب به المعبودون يوم القيامة: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ ﴿١١٨﴾ قرأ الأكثرون بفتح النون من قوله: ﴿نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُوا لِي إِنَّا كُرُّ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١١٩﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، وقرأ آخرون: ﴿ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء﴾ [الطبري ١٨/١٩١]؛ أي: ما ينبغي لأحد أن يعبدنا فإنما عبيد لك فقراء إليك، وهي قريبة المعنى من الأولى. ﴿وَلَكِنْ مَنَعْتُهُمْ وِءَابَاءَهُمْ﴾؛ أي: طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر؛ أي: نسوا ما أنزلته إليهم على السنة رسلك، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ قال ابن عباس: أي: هلكى [ابن أبي حاتم/١٥٠٣٣]، وقال الحسن البصري والزهري: أي: لا خير فيهم [الطبري ١٨/١٩٠].

وقال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾؛ أي: فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وقوله: ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾؛ أي: لا يقدرُونَ على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ﴾؛ أي: يشرك بالله ﴿نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴿١٢٢﴾ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين: إنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذية به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة والخوارق الباهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاؤوا به من الله، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٨].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ﴾؛ أي: اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم من يطيع ممن يعصي، ولهذا قال: ﴿أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾؛ أي: بمن يستحق أن يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

[الأنعام: ١٢٤]، ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به، ومن لا يستحق ذلك.  
وقال محمد بن إسحاق: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت،  
ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم وأبتليهم بهم [الطبري ١٨/١٩٥]، وفي «صحيح مسلم» [٢٨٦٥]  
نحوه] عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ: (يَقُولُ اللَّهُ: إِنِّي مُبْتَلِيكَ، وَمُبْتَلٍ بِكَ).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِيٓ  
أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۖ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا  
مَّحْجُورًا ۚ وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنۡ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ حَبَآءً مَّنْثُورًا ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ  
خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۖ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تعنت الكفار في كفرهم، وعنادهم في قولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا  
الْمَلٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: بالرسالة كما تنزل على الأنبياء، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا  
لَنُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ويحتمل أن يكون مرادهم هاهنا ﴿لَوْلَا  
أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ﴾ فنراهم عياناً فيخبرونا أن محمداً رسول الله، كقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ  
وَالْمَلٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الاسراء: ٩٢]، وقد تقدم تفسيرها في سورة سبحان، ولهذا قالوا: ﴿أَوْ نَرَىٰ  
رَبَّنَا﴾ ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾، وقد قال الله تعالى:  
﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَيْهِمُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَلَكَّمْهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ  
اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا﴾؛ أي: هم لا يرون  
الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرونهم لا بشري يومئذٍ لهم، وذلك يصدق على وقت  
الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، والغضب من الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج  
روحه: اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم وظلٍّ من  
يحموم. فتأبى الخروج وتفرق في البدن فيضربونه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّىٰ الَّذِينَ  
كَفَرُوا الْمَلٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ الْقُلَٰلِمُونَ فِي  
عَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلٰٓئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُخْرَجُونَ عَذَابَ  
الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ولهذا قال في هذه  
الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين حال  
احتضارهم، فإنهم يشرون بالخيرات، وحصول المسرات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا  
اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا نَزَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَلٰٓئِكَةَ أَلَّا تُخَافُوا وَلَا تُحْزَنُوا وَابْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ  
(٣٠) نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ  
(٣١) نَزَّلْنَا مِنۡ عَفْوَ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]، وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب: (أَنَّ  
الْمَلٰٓئِكَةَ تَقُولُ لِرُوحِ الْمُؤْمِنِ: اخْرُجِي أَيْتَهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، كُنْتَ تَعْمُرِينَهُ،  
اخْرُجِي إِلَىٰ رُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانَ) [رواه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه/ ٨٧٥٤ وغيره].

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾؛ يعني: يوم القيامة. قاله مجاهد [ابن أبي حاتم ١٥٠٥٥]، والضحاك وغيرهما، ولا منافاة بين هذا وما تقدم، فإن الملائكة في هذين اليومين: يوم الممات ويوم المعاد، تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبّر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذٍ للمجرمين. ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾؛ أي: وتقول الملائكة للكافرين: حرام محرم عليكم الفلاح اليوم، وأصل الحجر: المنع، ومنه يقال: حجر القاضي على فلان إذا منعه التصرف، إما لفلس أو سفه أو صغر أو نحو ذلك، والغرض أن الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائد على الملائكة، هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن وغير واحد واختاره ابن جرير [٣/١٩].

**وقوله تعالى:** ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ وهذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معاً فتكون أبعد من القبول حينئذٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾. قال مجاهد، والثوري: ﴿وَقَدِمْنَا﴾؛ أي: عمدنا، وكذا قال السدي، وبعضهم يقول: أتينا عليه.

**وقوله:** ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ عن علي رضي الله عنه قال: شعاع الشمس إذا دخل في الكوة، وروي مثله عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي، والضحاك وغيرهم، وكذا قال الحسن البصري: هو الشعاع في كوة أحدهم، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع، وقال ابن عباس: هو الماء المهراق، وعن علي أيضاً قال: الهباء رَهَج الدواب، وروي مثله عن ابن عباس أيضاً والضحاك، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم [الطبري ١٦٩/٢٧].

وقال قتادة: أما رأيت يَبِيسَ الشجر إذا ذرته الريح؟ فهو ذلك الورق [ابن أبي حاتم ١٥٠٧٤]، وعن يعلى بن عبيد قال: وإن الهباء الرماد، وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجوز ولا يظلم أحداً إذا إنها لا شيء بالكلية، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

**وقوله تعالى:** ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وذلك لأن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات والغرفات الآمات، فهم في مقام أمين حسن المنظر طيب المقام ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦]، وأهل النار يصيرون إلى الدرجات السافلات، والحسرات المتتابعات، وأنواع العذاب والعقوبات ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]؛ أي: بسئس المنزل منظرًا، وبئس المقيل مقامًا، ولهذا قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾؛ أي: بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا

ما نالوا، وصاروا إلى ما صاروا إليه، بخلاف أهل النار فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي لهم دخول الجنة والنجاة من النار، فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء، وأنه لا خير عندهم بالكلية، فقال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾. قال ابن عباس: إنما هي ضحوة فيقول أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقل أعداء الله مع الشياطين مقرنين [ابن أبي حاتم/١٥٠٨٠].

وقال سعيد بن جبیر: يفرغ الله من الحساب نصف النهار، فيقول أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [ابن أبي حاتم/١٥٠٨١]، وقال عكرمة: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وهي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر إذا انقلب الناس إلى أهلهم للقبولة، فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة فكانت قبولتهم في الجنة، وأطعموا كبد حوت فأشبعهم ذلك كلهم، وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [ابن أبي حاتم/١٥٠٨٢].

وقال عمرو بن الحارث: إن سعيداً الصواف حدثه أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وأنهم ليقبلون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالسَّعْيِ وَنَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَالْوَقْتُ تَنْزِيلًا﴾ (٢٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا ﴿وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٦) يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ (٢٧) وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿﴾ (٢٩).

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفتطرها، وانفراجها بالغمام وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء. قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقد قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (١٥) وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿﴾ (١٦) وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴿﴾ [الحاقة: ١٥ - ١٧]، قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك [الطبري ١٩/١٧]، وقال بكر بن عبد الله: إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم، شخصت إليه أبصارهم، ورجفت كلاًهم في أجوافهم، وطارت قلوبهم من مقرها من صدورهم إلى حناجرهم [الطبري ١٩/٧].

وقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وفي «الصحیح»: (أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَطْوِي السَّمَوَاتِ بِمِمينِهِ، وَيَأْخُذُ الْأَرْضِينَ بِيَدِهِ الْأُخْرَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدِّيَانُ، أَيَنْ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟ أَيَنْ الْجَبَّارُونَ؟ أَيَنْ الْمُتَكَبِّرُونَ) [البخاري/٤٥٣٤ ومسلم/٢٧٨٧]، وقوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾؛ أي: شديدًا صعبًا؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل، كما قال تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٦١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩، ١٠]، فهذا حال الكافرين في ذلك اليوم، وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ الآية [الأنبياء: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ، وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه، وسلك طريقًا أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفًا، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي مُعيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٢﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٦٣﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ الآيات [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]، فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعض على يديه قائلًا: ﴿يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٦٣﴾ يَوَلَّيْتَنِي لَمَّ اتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا﴾؛ يعني: من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرهما. ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ وهو القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾؛ أي: بعد بلوغه إلي، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾؛ أي: يُحَذِّله عن الحق ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٦٤﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٥﴾ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٦٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وذلك أن المشركين كانوا لا يُصْغُونَ للقرآن ولا يسمعون، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغظ والكلام في غيره حتى لا يسمعه، فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضًا من هجرانه، وترك الإيمان به، وترك تصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتنال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره، من هجرانه، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يسخطه، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: كما حصل لك يا محمد في



قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضية؛ لأن الله جعل لكل نبي عدوًّا من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣]، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾؛ أي: لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة، وإنما قال: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾؛ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن لثلا يهتدي أحد به، وتغلب طريقتهم طريقة القرآن، فلهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۚ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [٣٣] الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَصْلُ سَبِيلًا﴾ [٣٤].

يقول تعالى مخبرًا عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعينهم، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحى إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجمًا في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به، كقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَىٰ النَّاسِ عَلَىٰ مَكُتٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ولهذا قال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ قال قتادة: بيّناه تبيينًا [ابن أبي حاتم/١٥١٣٧]، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وفسرناه تفسيرًا [الطبري ١١/١٩].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾؛ أي: بحجة وشبهة ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾؛ أي: ولا يقولون قولًا يعارضون به الحق، إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم.

قال ابن عباس: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾؛ أي: بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الآية؛ أي: إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم. ثم في هذا اعتناء كبير لشرف الرسول ﷺ، حيث كان يأتيه الوحي من الله ﷻ بالقرآن صباحًا ومساءً، وليلاً ونهارًا، سفرًا وحضرًا، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله تعالى، وقد جمع الله للقرآن الصفتين معًا، ففي الملاء الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجمًا بحسب الوقائع والحوادث، وروى أبو عبد الرحمن النسائي [١١٦٨٩] عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾،

وقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْتَهُ لِتَفْقَرَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكَثٍ وَأَنزَلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وفي «الصحيح» عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: (إِنَّ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ قَادِرٌ أَنْ يُمَشِّيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [البخاري بلفظه/ ٤٤٨٢ ومسلم/ ٢٨٠٦]، وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة وغير واحد من المفسرين والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَذِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنَا عَلَىٰ الْغُرَّةِ النَّاتِي أَنُطِرَ مَطَرُ السَّوَاءِ أَفَكُم يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ﷺ من مشركي قومه ومن خالفه، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله، فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً؛ أي: نبياً مؤازراً، فكذبهما فرعون وجنوده ف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً ﷺ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل، إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾ ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ﷻ، ويحذرهم نقمه فما آمن معه إلا قليل، ولهذا أغرقهم الله جميعاً ولم يبق منهم أحداً، ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾؛ أي: عبرة يعتبرون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعْيَبَهَا أُذُنٌ وَعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]؛ أي: وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لُجج البحار، لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الغرق، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره.

وقوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ قد تقدم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة، كسورة الأعراف بما أغنى عن الإعادة، وأما أصحاب الرس، فقال ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود، وقال عكرمة: أصحاب الرس بفلج، وهم أصحاب يس. وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة، وعن ابن عباس قال: بئر بأذربيجان، وعن عكرمة: الرس بئر رسوا فيها نبيهم؛ أي: دفنوه بها.

واختار ابن جرير [١٤/١٩] أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾؛ أي: وأمّا بين أضعاف من ذكر أهلكناهم كثيرة، ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾؛ أي: بينا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة، كما قال قتادة: وأزحنا الأعدار عنهم ﴿وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا﴾؛ أي: أهلكنا إهلاكًا، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، والقرن هو الأمة من الناس، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢]، وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة، وقيل: بمائة. وقيل: بثمانين، وقيل: أربعين، وقيل: غير ذلك، والأظهر أن القرن هم الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهم قرن ثانٍ، كما ثبت في «الصحاحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (خَيْرُ الْقُرُونِ قُرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) الحديث [البخاري/٢٥٠٩ ومسلم/٢٥٣٣ كلاهما بنحوه].

﴿وَلَقَدْ أَنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرُ السَّوءِ﴾؛ يعني: قرية قوم لوط، وهي سدوم التي أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التي من سجيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]، ولهذا قال: ﴿أَفَكَمْ يَكُفِّرُوا بِكْرَنَاهَا﴾؛ أي: فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول وبمخالفتهم وأمر الله ﷻ ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ شُعُورًا﴾؛ يعني: المارين بها من الكفار لا يعتبرون؛ لأنهم لا يرجون نشورًا؛ أي: معادًا يوم القيامة.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَنْخَذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ إِنَّ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رآوه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَاكَ كَفَرُوا إِنْ يَنْخَذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا﴾ [الأنبياء: ٣٦] يعنونه بالعيب والنقص. وقال هاهنا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَنْخَذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾؛ أي: على سبيل التنقيص والازدراء قبحهم الله، كما قال: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَآمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي﴾ [الرعد: ٣٢]، وقوله: ﴿إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا﴾؛ يعنون أنه كاد يشينهم عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها. قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

ثم قال تعالى لنبية منبهاً له أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال، فإنه لا يهديه أحد إلا الله. ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾؛ أي: مهما استحسّن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه، كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿أَفَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، ولهذا قال ها هنا: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك

الأول [ابن أبي حاتم/ ١٥١٩٩]، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ الآية؛ أي: هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

من هاهنا شرع ﷺ في بيان الأدلة الدالة على قدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ قال ابن عباس، وابن عمر، ومسروق، ومجاهد، والحسن، والسدي وغيرهم: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس [الطبري ١٩/ ١٨] ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾؛ أي: دائماً لا يزول، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضَبْإٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُعْهِمُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ أي: لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف، فإن الضد لا يعرف إلا بضده، وقال قتادة، والسدي: دليلاً تتلوه وتتبعه حتى تأتي عليه كله.

وقوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾؛ أي: الظل. وقيل: الشمس ﴿يَسِيرًا﴾؛ أي: سهلاً، قال ابن عباس: سريعاً، وقال مجاهد: خفياً. وقال السدي: قبضاً خفياً حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه، وقال أيوب بن موسى: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قليلاً قليلاً [انظر الطبري ١٩/ ٢٠].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾؛ أي: يلبس الوجود، كما قال: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَشَتْ﴾ [الليل: ١]. ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾؛ أي: قاطعاً للحركة لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش، فإذا جاء الليل وسكن، سكنت الحركات فاستراحت، فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾؛ أي: ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَرَكٌ بَدَى رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا وَنُشْفِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنَاسِيًا كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات؛ أي:

بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمُّ الأرض، ومنها ما يلقي السحاب ليمطر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾؛ أي: آلة يتطهر بها كَالسَّحُورِ والوقود وما جرى مجراه، وعن ثابت البناني قال: دخلت مع أبي العالية في يوم مطير، وطرق البصرة قدرة، فصلى فقلت له، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ قال: طهره ماء السماء [ابن أبي حاتم/ ١٥٢٤٢]، وعن سعيد بن المسيب قال: أنزله الله ماء طاهراً لا ينجسه شيء، وعن أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله أتتوضأ من بئر بضاعة، وهي بئر يلقى فيها التبن ولحوم الكلاب؟ فقال: (إِنَّ الْمَاءَ طَهُورٌ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ) رواه الشافعي [ص ١٦٥] وأحمد [١١٨٣٣] وصححه، وأبو داود [٦٦٦]، والترمذي [٦٦] وحسنه، والنسائي [٣٢٦] في «المجتبى».

وعن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشباً أو في البحر لؤلؤة، وقال غيره: في البرُّ وفي البحر دُرٌّ.

وقوله تعالى: ﴿لَنُخَوِّئَنَّهُ بِهَ بَلَدَةً مَّيِّتًا﴾؛ أي: أرضاً قد طال انتظارها للغيث، فهي هامة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، ﴿وَشَقَّيْنَهُمَا مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِيًّا كَثِيرًا﴾؛ أي: وليشرب منه الحيوان من أنعام، وأناسيٌّ محتاجين إليه غاية الحاجة، لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ إِلَيْهِ مِنَ بَعْدِ مَا فَتَنَّاوُا وَيَسْتُرُ رَحْمَتُهُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾؛ أي: أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب يمر على الأرض وتعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى، فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدقاً، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة. قال ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهما: ليس عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الطبري ١٩/ ٢٢]؛ أي: ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات، أو ليذكر من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه، فيقلع عما هو فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ قال عكرمة: يعني: الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا، وهذا الذي قاله عكرمة كما صح في الحديث المخرج في «صحيح مسلم» [٧٧] عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل: (أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرَّنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَاكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرَّنَا بِنُوءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَاكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ).

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ ٥١ ﴿فَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَهْدَهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ٥٢ ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ ٥٣ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ ٥٤ .

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ يدعوهم إلى الله ﷻ، ولكننا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغهم القرآن ﴿لَا نُنْذِرُكَ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأُلْتَأَزُّ مَوْعِدُهُمْ﴾ [هود: ١٧]، ﴿وَلَنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿فَلَّ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِيَّيْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وفي «الصحيحين»: (بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ) وفيهما: (وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) [البخاري نحوه/٤٢٧ ومسلم/٥٢١]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَهْدَهُمْ بِهِ﴾؛ يعني: القرآن، قاله ابن عباس: ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] .

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾؛ أي: خلق المائين: الحلو والمِلْح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزلال، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير [٢٤/١٩]، وهذا الذي لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات، والله ﷻ إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس، فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض، بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأرضيهم .

وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾؛ أي: مالح مَرُّ زعاق لا يستساغ، وذلك كالبهار المعروفة في المشارق والمغارب: البحر المحيط وما يتصل به من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تتموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايته الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة، ثم تشرع في النقص، فأجرى الله ﷻ - وهو ذو القدرة التامة - العادة بذلك، فكل هذه البحار الساكنة، خلقها الله ﷻ مالحة لئلا يحصل بسببها نتن الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان، ولما كان ماؤها مالحاً، كان هواؤها صحيحاً وميتتها طيبة، ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر: أنتوضأ به؟ فقال: (هُوَ الطَّهْرُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ) . رواه الأئمة مالك [٤١] والشافعي [ص٧]، وأحمد [٨٧٢٠]، وأهل السنن بإسناد جيد [النسائي/٥٨ وأبو داود/٨٣ وابن ماجه/٣٨٦ والترمذي/٦٩] .

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾؛ أي: بين العذب والمالح ﴿بَرْزًا﴾؛ أي: حاجزاً وَحِجْرًا مَحْجُورًا؛ أي: مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر، كقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزٌ لَا يَتَغَيَّانِ ٢٠ فَيَايَا آءِ آءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢١]، وقوله

تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَدًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۖ أَوَّلُهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾؛ أي: خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسواه وعدله، وجعله كامل الخلقة ذكرًا أو أنثى، كما يشاء، ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسب، ثم يتزوج فيصير صهرًا، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات، وكل ذلك من ماء مهين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۚ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۚ﴾ ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَٰهًا مِّن دُونِ اللَّهِ سَبِيلًا ۚ ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ آلِهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيَحْيِي مَحْمَدٍ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا ۚ ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَيْرًا ۚ ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۚ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا، بلا دليل قادم إلى ذلك، بل بمجرد الآراء والتشهي والأهواء، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم، ويعادون الله ورسوله والمؤمنين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾؛ أي: عونًا في سبيل الشيطان على حزب الله وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُم يَبْصُرُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]؛ أي: آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصرًا، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم، ويذُبُّون عن حوزتهم، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله وللمؤمنين في الدنيا والآخرة.

قال مجاهد: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ قال: يظاهر الشيطان على معصية الله، يعينه [ابن أبي حاتم/١٥٢٨٢]. وقال سعيد بن جبیر: عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك [ابن أبي حاتم/١٥٢٨٠]، وقال زيد بن أسلم: مواليًا، ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾؛ أي: بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين، مبشرًا بالجنة لمن أطاع الله، ونذيرًا بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى، ﴿لَمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْقِيَهُ﴾ [التكوير: ٢٨]، ﴿إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَٰهًا مِّن دُونِ اللَّهِ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقًا ومنهجًا يقتدي فيها بما جئت به.

ثم قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ آلِهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾؛ أي: في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبدًا، الذي هو ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، الدائم الباقي السرمدي الأبدي الحي القيوم ورب كل شيء ومليكه، اجعله ذخرًا وملجأً،

وهو الذي يُتَوَكَّلُ عليه ويفزع إليه، فَإِنَّهُ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ وَمُظْفِرُكَ، كما قال تعالى: ﴿يَتَابِعُهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَسَيِّحٌ بِحَمْدِهِ﴾؛ أي: اقرن بين حمده وتسييحه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ) [رواه أبو داود/ ٨٧٧، والحاكم/ ١٩٦٩ وصححه]؛ أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

وقوله: ﴿وَكَفَى بِهِ يَذُوبٍ عَبَادِهِ خَيْرًا﴾؛ أي: لعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: هو الحي الذي لا يموت، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه، الذي خلق بقدرته السموات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾؛ أي: يدبر الأمر، ويقضي الحق، وهو خير الفاصلين.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَشَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾؛ أي: استعلم عنه من هو خير به عالم به، فاتبعه واقتد به، وقد عُلم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى، فما قاله فهو الحق، وما أخبر به فهو الصدق، وهو الإمام المُحَكَّم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب رد نزاعهم إليه، فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق، وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله، كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَردُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ أي: صدقاً في الإخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي، ولهذا قال تعالى: ﴿فَشَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾.

قال مجاهد: في قوله: ﴿فَشَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ قال: ما أخبرك من شيء فهو كما أخبرك، وكذا قال ابن جريج [الطبري ٢٨/١٩]. وقال شمر بن عطية: هذا القرآن خير به، ثم قال تعالى منكراً على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ أي: لا نعرف الرحمن، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب: (اكتب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ [رواه البخاري/ ٢٥٨١، ومسلم/ ١٧٨٣]، ولهذا أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ أي: هو الله وهو الرحمن، وقال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ أي: لا نعرفه ولا نقر به ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا نَأْمُرُنَا؟﴾؛ أي: لمجرد قولك ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويُفَرِّدونه بالإلهية، ويسجدون



له، وقد اتفق العلماء رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها.

﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

يقول تعالى مجدداً نفسه ومعظماً على جميل ما خلق في السماوات من البروج، وهي الكواكب العظام في قول مجاهد وسعيد بن جبير وأبي صالح والحسن وقتادة [ابن أبي حاتم/ ١٥٣١١]، وقيل: هي قصور في السماء للحرس [ابن أبي حاتم/ ١٥٣٠٩]، يروى هذا عن علي وابن عباس، ومحمد بن كعب، وإبراهيم النخعي، وسليمان بن مهران الأعمش، وهو رواية عن أبي صالح أيضاً، والقول الأول أظهر. اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس، فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبا: ١٣]، ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾؛ أي: مشرقاً مضيئاً بنور آخر ونوع وفن آخر، غير نور الشمس، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾؛ أي: يخلف كل واحد منهما صاحبه، يتعاقبان لا يفتران، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾؛ أي: جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له ﷻ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل، وقد جاء في الحديث الصحيح: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيُتُوبَ مُسِيئُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيُتُوبَ مُسِيئُ اللَّيْلِ) [رواه مسلم/ ٢٧٥٩]، وقال ابن عباس: من فاته شيء من الليل أن يعمل، أدركه بالنهار، أو من النهار أدركه بالليل، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحسن، وقال مجاهد وقتادة: خليفة؛ أي: مختلفين؛ أي: هذا بسواده وهذا بضياؤه.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾.

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾؛ أي: بسكينة ووقار، كقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ الآية [الإسراء: ٣٧]، فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعاً ورياء،

فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صَبَبٍ، وكأنما الأرض تطوى له، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً، فقال: ما بالك أنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة، وإنما المراد بالهَوْنُ ها هنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: (إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتَوْهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأَتَوْهَا وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأْتِمُوا) [البخاري/٦١٠ ومسلم/٦٠٣ كلاهما بنحوه].

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ قال: إن المؤمنين قوم ذُلُّ، ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض، وإنهم والله أصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس، ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لم يتعزَّ بعزاء الله، تقطع نفسه على الدنيا حشرات، ومن لم ير الله نعمة إلا في مطعم أو في مشرب، فقد قل علمه وحَصُرَ عذابه [ابن أبي حاتم/١٥٣٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾؛ أي: إذا سَفِه عليهم الجاهل بالسيئ، لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلماً، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ الآية [القصاص: ٥٥]، وروى الإمام أحمد [٢٣٧٩٦] عن النعمان بن مقرن المزني قال: قال رسول الله ﷺ، وسب رجل رجلاً عنده، قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السلام، فقال رسول الله ﷺ: (أَمَا إِنَّ مَلِكًا بَيْنَكُمَا يَذُبُّ عَنْكَ، كُلَّمَا شَتَمَكَ هَذَا قَالَ لَهُ: بَلْ أَنْتَ وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ، وَإِذَا قُلْتَ لَهُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: لَا بَلْ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ). إسناده حسن، ولم يخرجوه.

وقال مجاهد: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾؛ يعني: قالوا سداذاً، وقال سعيد بن جبیر: ردوا معروفاً من القول. وقال الحسن البصري: حلماً لا يجهلون، وإن جُهِل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل [١٥٣٥٧]، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾؛ أي: في طاعته وعبادته، كما قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿٧﴾ وَلَا نَاصِرَ لَهُمْ يَسْتَفِرُّونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ أي: ملازماً دائماً.

ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه، فليس بغرام، وإنما الغرام الملازم ما دامت السموات والأرض، وكذا قال سليمان التيمي، وقال محمد بن كعب القرظي: ما نُعْمُوا في الدنيا، إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه، فأغرمهم فأدخلهم النار. ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ أي: بئس المنزل منظرًا، وبئس المقيـل مقامًا.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾؛ أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال الحسن البصري: ليس في النفقة في سبيل الله سرف. قال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله تعالى، فهو سرف [البغوي ٢/ ١٣٦]. وقال غيره: السرف النفقة في معصية الله ﷻ.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

روى الإمام أحمد [٣٦١٢] عن عبد الله بن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر؟ قال: (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقَكَ) قال: ثم أي؟ قال: (أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ) قال: ثم أي؟ قال: (أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ) قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية، وقد أخرجه البخاري ومسلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: ﴿أَثَامًا﴾: واد في جهنم، وقال عكرمة: أودية في جهنم يعذب فيها الزناة، وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد، وقال قتادة: نكالا، كنا نحدث أنه واد في جهنم، وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول: يا بني، إياك والزنا، فإن أوله مخافة وآخره ندامة [الطبري ١٩/ ٤٤]، وقال السدي: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ جزاء، وهذا أشبه بظاهر الآية، وبهذا فسر به بما بعده مبدلاً منه، وهو قوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي: يكرر عليه ويغلظ ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾؛ أي: حقيراً ذليلاً، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾؛ أي: جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ في الدنيا إلى الله ﷻ من جميع ذلك، فإن الله يتوب عليه. (وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء) ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣]، فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة، فتحمل على من لم يتب؛ لأن هذه مقيدة بالتوبة، ثم قد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل، كما ذكر مقررًا من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب، فقبل الله توبته، وغير ذلك من الأحاديث).

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ في معنى قوله: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قولان:

أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات. قال ابن عباس: هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك، فحوّلهم إلى الحسنات، فأبدلهم

مكان السيئات الحسنات، وروي عن ابن عباس [كما روى ابن أبي حاتم/ ١٥٤٣١] أنه كان يُنشد عند هذه الآية:

**بُدِّلْنَ بَعْدَ حَرِّهِ خَيْرًا وَبَعْدَ طَوْلِ النَّفْسِ الْوَجِيفًا**

يعني: تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها، وقال عطاء بن أبي رباح: هذا في الدنيا، يكون الرجل على هيئة قبيحة ثم يبدله الله بها خيراً، وقال سعيد بن جبير: أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الله، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات، وقال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وأبدلهم بالفجور إحصاناً، وبالكفر إسلاماً، وهذا قول أبي العالية، وفتادة وجماعة آخرين.

**والقول الثاني:** أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذلك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار، فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه، فإنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته، كما ثبتت السنة بذلك، وصحت به الآثار المروية عن السلف رحمهم الله تعالى، وهذا سياق الحديث. روى الإمام أحمد [٢١٥٣٠] عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنِّي لَأَعْرِفُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنَ النَّارِ، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا إِلَى الْجَنَّةِ: يُؤْتَى بِرَجُلٍ فَيَقُولُ: نَحْوَا كِبَارَ ذُنُوبِهِ وَسَلُّوهُ عَنْ صِغَارِهَا، قَالَ: فَيَقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا، وَكَذَا، وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا، وَكَذَا، كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَيَقَالُ: فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا) قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، انفرد بإخراجه مسلم [١٨٦]، وعن سلمان قال: يعطى الرجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها، فإذا سيئاته، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات، وقال علي بن الحسين زين العابدين: ﴿بُدِّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ في الآخرة، وعن سعيد بن المسيب مثله.

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلاً أو حقيراً، كبيراً أو صغيراً، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾؛ أي: فإن الله يقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]؛ أي: لمن تاب إليه.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٧٦) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا سُومًا وَغَمًّا (٧٢) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٦).

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور، قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام، وقيل: الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل، وقال محمد ابن الحنفية: هو اللهو

والغناء، وقال أبو العالية، وطاوس، ومحمد ابن سيرين، والضحاك، والربيع بن أنس وغيرهم: هي أعياد المشركين، وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخنا، وقال الزهري: شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه، كما جاء في الحديث: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَجْلِسُ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ) [رواه الحاكم/ ٧٧٧٩، ورواه الترمذي/ ٢٨٠١ وقال: حسن غريب]، وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾؛ أي: شهادة الزور، وهي الكذب متعمداً على غيره، كما في «الصحيحين» عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: (أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟) ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسول الله. قال: (الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ) وكان متكئاً، فجلس فقال: (أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ)، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت [البخاري/ ٢٥١١ ومسلم/ ٨٧ نحوه]، والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور؛ أي: لا يحضرونه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾؛ أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾.

**وقوله:** ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ وهذه أيضاً من صفات المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يُقصر عما كان عليه بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، فقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾؛ أي: بخلاف الكافر؛ أي: الذي إذا ذكر بآيات الله، فاستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى.

وقال مجاهد: لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئاً [ابن أبي حاتم/ ١٥٤٧٦]، وقال الحسن البصري رحمه الله: كم من رجل يقرأها ويخر عليها أصم أعمى، وقال قتادة: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم والله قوم عقلوا عن الله وانتفعوا بما سمعوا من كتابه، وعن ابن عون قال: سألت الشعبي قلت: الرجل يرى القوم سجوداً ولم يسمع ما سجدوا، أيسجد معهم؟ قال: فتلا هذه الآية: يعني أنه لا يسجد معهم؛ لأنه لم يتدبر آية السجود، ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح بين.

**وقوله:** ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾؛ يعني: الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له، وقال ابن عباس: يعنون من يعمل بطاعة الله فتقرُّ به أعينهم في الدنيا والآخرة [الطبري/ ١٩/ ٥٢]. (قال عكرمة: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين). (وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال: أن يُرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً أو ولد أو أختاً أو حميماً مطيعاً لله ﷻ) [رواه البخاري تعليقاً بنحوه ١٧٨٣/٤]. قال ابن جريج: يعبدونك فيحسنون عبادتك

ولا يجرون علينا الجرائر، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام.

وروى الإمام أحمد [٢٣٨٦١] عن جبير بن نفير قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت، فاستغضب المقداد، فجعلت أعجب؛ لأنه ما قال إلا خيراً، ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيبه الله عنه لا يدري لو شاهده كيف يكون فيه؟ والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبههم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها نبياً من الأنبياء في فترة جاهلية، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل، وفرق بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده أو أخاه كافراً وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان، يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وإنها التي قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

وقوله: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال ابن عباس، والحسن، والسدي، وقتادة، والربيع بن أنس: أئمة يقتدى بنا في الخير، وقال غيرهم: هداة مهتدين، ودعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً، وأحسن مآباً، ولهذا ثبت في «صحيح مسلم» [١٦٣١] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ عِلْمٍ يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ بَعْدَهُ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ).

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا كَسَبُوا وَيُلَاقَوْنَ فِيهَا نَجِيَّةً وَسَلَامًا﴾ (٧٥) خَلِيدٌ  
فِيهَا حَسَنَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ  
يَكُونُ لِرَأْمَا ﴿٧٧﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من هذه الصفات الجميلة، والأقوال والأفعال الجليلة، قال بعد ذلك كله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ يوم القيامة ﴿الْغُرْفَةَ﴾ وهي الجنة، قال أبو جعفر الباقر، وسعيد بن جبير، والضحاك، والسدي: سميت بذلك لارتفاعها ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: على القيام بذلك ﴿وَيُلَاقَوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿نَجِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي: يُبْتَدَرُونَ فيها بالتحية والإكرام، وَيُلَاقَوْنَ فيها التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

وقوله: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين لا يظعنون ولا يموتون، ولا يزولون عنها، ولا ييغون

عنها حولًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ الآية [هود: ١٠٨].

**وقوله:** ﴿حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ أي: حسنت منظرًا وطابت مقيلاً ومنزلًا، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾؛ أي: لا يبالى ولا يكثرث بكم إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلًا، وقال مجاهد وعمر بن شعيب: ما يفعل بكم ربي، وقال ابن عباس في قوله: ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ يقول: لولا إيمانكم، وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حبه إلى المؤمنين.

**وقوله:** ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أيها الكافرون ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِرَآئِكُمْ﴾؛ أي: فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم؛ يعني: مقتضىً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر، كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمد بن كعب القرظي، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي وغيرهم، وقال الحسن البصري: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِرَآئِكُمْ﴾؛ أي: يوم القيامة [انظر هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ٥٦/١٩]، ولا منافاة بينهما.



## تفسير سورة الشعراء

وهي مكية

ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها سورة الجامعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسّر﴾ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهٖ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩).

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة.

وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾؛ أي: هذه آيات القرآن المبين؛ أي: البين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل، والغي والرشاد.

وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ﴾؛ أي: مهلك ﴿نَفْسَكَ﴾؛ أي: مما تحرص عليهم وتحزن عليهم ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ عَآثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، وعطية، والضحاك، والحسن وغيرهم ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ﴾؛ أي: قاتل نفسك [ابن أبي حاتم/١٥٥٢٦].

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾؛ أي: لو نشاء لأنزلنا آية تضطربهم إلى الإيمان قهراً، ولكن لا نفعل ذلك، لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، فنفذ قدره، ومضت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، ثم قال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهٖ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: فقد كذبوا بما جاءهم من الحق، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ثم نبه تعالى على



عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه، الذين اجترؤوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم من زروع وثمار وحيوان.

روي عن الشعبي أنه قال: الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لثيم [البغوي ٣/ ٣٨١] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾؛ أي: دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره، وارتكبوا نهيه.

وقوله: ﴿وَلَنْ رَيْكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿الرَّحِيمُ﴾؛ أي: بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله ويُنظره، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، قال أبو العالية وقتادة، والربيع بن أنس، ومحمد بن إسحاق: العزيز في نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره [ابن أبي حاتم/ ٢٢٠٤ نحوه]، وقال سعيد بن جبير: الرحيم بمن تاب إليه وأناب.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْفَقِيمَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَا يَبْقَوْنَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُ فِيْنَا وَلِيدًا وَلِئِثْنَا مِنَّا مِنْ عَمْرِكَ سِنَّينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَنِي الَّذِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝٢٠ فَفَرَّرْتَ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝٢٢﴾.

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ﷺ حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ أَنْتَ الْفَقِيمَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَا يَبْقَوْنَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۝١٤﴾ هذه أَعذار سأل الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٥، ٣٦].

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾؛ أي: بسبب قتل ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر. ﴿قَالَ كَلَّا﴾؛ أي: قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك كقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ - أي: برهانا - ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [الفصص: ٣٥]. ﴿فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أَسْمَعُ وَارَىٰ [طه: ٤٦]؛ أي: إنني معكما بحفظي ونصري. ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]؛ أي: كل منا أرسل إليك، ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ أي: أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله

المؤمنون وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين، فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون هنالك بالكلية، ونظر إليه بعين الازدراء، فقال: ﴿أَلَمْ تُزَيِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ١٨ ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ ؛ أي: أما أنت الذي ربيناه فينا وفي بيتنا وعلى فراشنا وغذينا، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلاً، ووجدت نعمتنا عليك، ولهذا قال: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ؛ أي: الجاحدين. قاله ابن عباس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير [الطبري ١٩/٦٦]، ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا﴾ ؛ أي: في تلك الحال ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ﴾ ؛ أي: قبل أن يوحى إلي وينعم الله علي بالرسالة والنبوة.

قال ابن عباس رضي الله عنه، ومجاهد، وقتادة، والضحاك وغيرهم ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ﴾ ؛ أي: الجاهلين [الطبري ١٩/٦٧]. قال ابن جريج: وهي كذلك في قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفَكُمُ فَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ؛ أي: انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك فإن أطعته سلمت، وإن خالفته عطبت. ثم قال موسى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنَىٰ إِسْرَءِيلَ﴾ ؛ أي: وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدمًا تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيك، أفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؛ أي: ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٣ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ٢٤ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ٢٥ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٦ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ٢٧ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ ٢٨ .

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وطغيانه وجحوده في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [الفصص: ٢٨]، ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون فلما قال له موسى: إني رسول رب العالمين. قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ ٤٩ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]، ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط، فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ؛ أي: خالق جميع ذلك ومالكة والمتصرف فيه، وإلهه لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما

يحتوي عليه الجوى، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾؛ أي: إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة، فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلاً لهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿أَلَا تَسْتَعِينُونَ﴾؛ أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه أن لكم إلهًا غيري؟ فقال لهم موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾؟؛ أي: خالقكم وخالق آبائكم الأولين، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه.

﴿قَالَ﴾؛ أي: فرعون لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾؛ أي: ليس له عقل في دعواه أن ثم ربًا غيري. ﴿قَالَ﴾؛ أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إن كنتم تعقلون؛ أي: هو الذي جعل المشرق مشرقًا وتطلع منه الكواكب، والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب: ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقًا، فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغربًا والمغرب مشرقًا، كما قال تعالى عن: ﴿الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى ﷺ، فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

﴿قَالَ لِيْنِ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾.

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال، فقال: ﴿لِيْنِ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ فعند ذلك قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: ببرهان قاطع واضح ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ؛ أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم، وفم كبير، وشكل هائل مزعج ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾؛ أي: من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾؛ أي: تتلأأ كقطعة من القمر، فبادر فرعون بشقائه إلى التكذيب والعناد، فقال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: بارع في السحر، فروج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به، فقال: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ الآية؛ أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه،

ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا علي فيه ماذا أصنع به؟ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الدَّيْنِ حَشِيرِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ يَا تُؤَكُّ بِكُلِّ سَحَارٍ عَلِيمٍ؛ أي: أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت، وتكون لك النصرة والتأييد، فأجابهم إلى ذلك، وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك ليجتمع الناس في صعيد واحد، ولتظهر آيات الله وبراهينه على الناس في النهار جهرة.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَبْنِئَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِجَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعَزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْفَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ .

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى ﷺ والقبط في سورة الأعراف، وفي سورة طه، وفي هذه السورة، وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجهها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصُوفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، ولهذا لما جاء السحرة وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك من أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخيلاً في ذلك، وكان السحرة جمعاً كثيراً وجماً غفيراً، واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿لَعَلَّنَا نَبْنِئَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ ولم يقولوا تتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾؛ أي: إلى مجلس فرعون، وقد ضربوا له وطاقاً، وجمع خدمه وحشمه وأمرائه، ووزرائه ورؤساء دولته وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا؛ أي: هذا الذي جمعتنا من أجله، فقالوا: ﴿إِنَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾؛ أي: وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي، فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، وقد اختصر هذا هاهنا، فقال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِجَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعَزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ وهذا كما يقوله الجهلاء من العوام إذا فعلوا شيئاً هذا بثواب فلان، وقد ذكر الله تعالى في سورة الأعراف أنهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١٧٧]، وقال في سورة طه: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَلِّ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ - إلى قوله: - ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٦ - ٦٩]، وقال هاهنا: ﴿فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾؛ أي: تخطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً. قال الله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ - إلى قوله: - ﴿رَبِّ

مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١١٨﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١٢٢] وكان هذا أمراً عظيماً جداً، وبرهاناً قاطعاً للعدو، وحجة دامغة، وذلك أن الذي استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا، قد غلبوا وخضعوا، وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، سجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحاً جريئاً، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوة الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعددهم ويقول: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدِكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَيْدِكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعَالِمُونَ لَا تُفْطِنَ أَيْدِيكُمْ وَأَنْتُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا تُصَلِّتُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

تهددهم فلم يقطع ذلك فيهم، وتوعددهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم، من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، إلا أن يكون الله قد أيده به، وجعله له حجة على صدق ما جاء به من ربه، ولهذا لما قال لهم فرعون: ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا عليّ في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم فإنني أنا الحاكم المطاع ﴿إِنَّهُ لَكَيْدِكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل.

ثم توعددهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾؛ أي: لا حرج، ولا نبالي به ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾؛ أي: المرجع إلى الله ﷻ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا﴾؛ أي: ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بسبب أننا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان، فقتلهم كلهم.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِيَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَتَيْنِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايُطُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

لما طال مقام موسى ﷺ ببلاد مصر، وأقام بها حُجَجَ الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله تعالى موسى ﷺ أن يخرج بني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، ففعل موسى ﷺ ما أمره به ربه ﷻ، خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً.

فلما أصبحوا وليس في ناديتهم داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون، واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين؛ أي: من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجّاب، ونادى فيهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾؛ يعني: بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾؛ أي: لطائفة قليلة ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَغَاطُونَ﴾؛ أي: كل وقت يصل منهم إلينا ما يغطينا ﴿وَأَنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ﴾؛ أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وإنني أريد أن أستأصل شأفتهم، وأبهد خضراءهم، فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُوْنُزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق، والملك والجاه الوافر في الدنيا ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا أَلَيَّ بَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ٦٠ ﴿فَلَمَّا تَرَوْهُمَا جَمْعًا قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ﴾ ٦١ ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ٦٢ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ٦٣ ﴿وَأَرْزَلْنَا نَمَّ الْأَخْرِينَ﴾ ٦٤ ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ٦٥ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ﴾ ٦٦ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ٦٧ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ أَعَزُّهُ الرَّحِيمُ﴾ ٦٨.

ذكر غير واحد من المفسرين أن فرعون خرج في جحفل عظيم وجمع كبير، وهو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾؛ أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، وهو طلوعها، ﴿فَلَمَّا تَرَوْهُمَا جَمْعًا﴾؛ أي: رأى كل من الفريقين صاحبه، فعند ذلك ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر، فصار أمامهم البحر وقد أدركهم فرعون بجنوده، فلهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَمَذْكُونٌ﴾ ٦١ ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾؛ أي: لا يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير هاهنا بكم، وهو ﷻ لا يخلف الميعاد، وكان هارون عليه السلام في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون، وموسى عليه السلام في الساقة، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون، يقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله هاهنا أمرك ربك أن تسير؟ فيقول: نعم، فاقترع فرعون وجنوده ولم يبق إلا القليل، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر، فضربه وقال: انفلق بإذن الله.

وقال قتادة: أوحى الله تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع، فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب، ولا يدري من أي جانب يضربه موسى، فلما انتهى إليه موسى، قال له فتاه يوشع بن نون: يا نبي الله أين أمرك ربك ﷻ؟ قال: أمرني أن أضرب

البحر، قال: فاضربه. [وروي نحوه عن ابن إسحاق [في الطبري ٢٧٦/١]، وذكر غير واحد أنه كناه، فقال: انفلق عليّ أبا خالد بحول الله].

قال الله تعالى: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: كالجبل الكبير [في الطبري ١/٢٧٦]، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومحمد بن كعب والضحاك وقتادة وغيرهم، وقال عطاء الخراساني: هو الفَجّ بين الجبلين، وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقًا لكل سبط طريق [الطبري ٨٠/١٩]، وزاد السدي: وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء كالحيطان، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته، فصار يبسا كوجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى﴾ [طه: ٧٧]، وقال في هذه القصة: ﴿وَأَزَلَفْنَا نَمَّ الْآخَرِينَ﴾؛ أي: هنالك. قال ابن عباس، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسدي: ﴿وَأَزَلَفْنَا﴾؛ أي: قربنا من البحر فرعون وجنوده، وأدنيناهم إليه. ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾؛ أي: أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينه، فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾؛ أي: في هذه القصة وما فيها من العجائب والتأييد لعباد الله المؤمنين، لدلالة وحكمة بالغة، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسيره.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عِزًّا ﴿٧١﴾ قَالِ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَبْغُونَكُمُ أَوْ يَصْطُرُونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالِ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، أمر الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ أن يتلوه على أمته ليقصدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله، فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشده من قبل؛ أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله ﷻ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عِزًّا﴾؛ أي: مقيمين على عبادتها ودعائها ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ (٧٢) أَوْ يَبْغُونَكَ أَوْ يَصْطُرُونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾؛ يعني: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئًا من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يُهرعون، فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: إن كانت هذه الأصنام شيئًا ولها تأثير، فلتخلص إلي بالمساءة، فإني عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها، وهذا كما قال تعالى مخبرًا عن نوح عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية [يونس: ٧١]، وقال هود عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَآشَدُّوْا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي

جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]، وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨١].

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٩) ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٠) ﴿وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجْبِينِ﴾ (٨١) ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢).

يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾؛ أي: هو الخالق الذي قَدَّرَ قدرًا، وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدر له، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾؛ أي: هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المُنَزَّل، وأنزل الماء وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقًا للعباد، وأنزل الماء عذبًا زلالًا يسقيه مما خلق أنعامًا وأناسي كثيرًا.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقته، ولكن أضافه إلى نفسه أدبًا، كما قال تعالى آمراً للمصلي أن يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦) ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] إلى آخر السورة، فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى، والغضب حذف فاعله أدبًا، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، ولهذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾؛ أي: إذا وقعت في مرض، فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه، ﴿وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجْبِينِ﴾؛ أي: هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾؛ أي: هو الذي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعال لما يشاء.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣) ﴿وَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤) ﴿وَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٨٥) ﴿وَأَغْفِرْ لَائِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩).

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتیه ربه حكماً. قال ابن عباس: هو العلم لروى البغوي نحوه [٣٩٠/٣]، وقال عكرمة: اللب، وقال مجاهد: القرآن، وقال السدي: النبوة.

وقوله: ﴿وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾؛ أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: (اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى) قالها ثلاثاً. [البخاري/٣٤٦٧ ومسلم/٢٤٤٤].



وقوله: ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾؛ أي: واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به، ويُفتدى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨ - ١١٠].

قال مجاهد وقتادة: ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾؛ يعني: الثناء الحسن [ابن أبي حاتم/ ١٥٧١٢]. قال مجاهد: كقوله: ﴿وَأَيَّتَهُ أَجَرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلِئِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، قال ليث بن أبي سليم: كل ملة تحبه وتتولاه، وكذا قال عكرمة، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾؛ أي: أنعم عليّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم.

وقوله: ﴿وَأَعْفِرْ لِي﴾ كقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وهذا مما رجّع عنه إبراهيم ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقد قطع الله تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال: ﴿فَكَذَّكَانَتْ لَكُمْ أَسْوَأُ حَسَنَةٍ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ - إلى قوله: - ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [المتنحة: ٤].

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: أجرني من الخزي يوم القيامة ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم.

روى البخاري [٣١٧٢] عن أبي هريرة مرفوعاً: (يَلْقَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَرْزَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَىٰ وَجْهِهِ أَرْزَ قَتَرَةٍ وَغَبْرَةٍ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لَا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَىٰ مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رَجُلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ)، والذخ هو الذكر من الضباع، كأنه حول أزر إلى صورة ذبيح متلطح بعدرته فيلقى في النار كذلك.

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿وَلَا بَنُونَ﴾؛ أي: ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً، ولا ينفع يومئذٍ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ أي: سالم من الدنس والشرك. قال ابن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعني يشهد أن لا إله إلا الله، وقال مجاهد، والحسن وغيرهما: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ يعني: من الشرك. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب المنافق مريض، قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] [البغوي: ٣/ ٣٩٠]. قال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب الخالي من البدعة، المطمئن على السُنَّة [البغوي: ٣/ ٣٩٠].

﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمَنَاقِبِ ٩٠﴾ وَبَرَزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَتَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٩٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ٩٣ فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ٩٤ وَجُنُودٌ إِيَّائِهِمْ أَجْمَعُونَ ٩٥ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ٩٦ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٩٧ إِذْ سُؤِيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٩٨ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ٩٩ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ١٠١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٢ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٠٤﴾.

﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ﴾؛ أي: قربت وأدنت من أهلها يوم القيامة مزخرفة لمزينة لناظرها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا، وعملوا لها عملها في الدنيا.

﴿وَبَرَزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾؛ أي: أظهرت وكُشِف عنها، وبدت منها عُنُقٌ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب إلى الحناجر، وقيل لأهلها تقريرًا وتوبيخًا: ﴿أَتَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ٩٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ؟؛ أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله، من تلك الأصنام والانداد تغني عنكم اليوم شيئًا، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون.

وقوله: ﴿فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ قال مجاهد: يعني: فذهَبُوا فيها. وقال غيره: كبوا فيها، والكاف مكررة، كما يقال صرصر [الطبري ٨٨/١٩]، والمراد أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك، ﴿وَجُنُودٌ إِيَّائِهِمْ أَجْمَعُونَ﴾؛ أي: ألقوا فيها عن آخرهم. ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ٩٦ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٩٧ إِذْ سُؤِيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ؛ أي: يقول الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعًا، فهل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار؟ ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٩٧ إِذْ سُؤِيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ؛ أي: نجعل أمرم مطاعًا كما يطاع أمركم رب العالمين، وعبدناكم مع رب العالمين ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ قال بعضهم: يعني: من الملائكة كما يقولون: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وكذا قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ؛ أي: قريب.

قال قتادة: يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحًا نفع، وأن الحميم إذا كان صالحًا شفع [الطبري ٨٩/١٩]. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، والله تعالى يعلم أنهم لو رُدَّهم إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة (ص) ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد آية؛ أي: لدلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْفُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾﴾ .

هذا إخبار من الله ﷻ عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، وهو أول رسول بُعث إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، بعثه الله ناهياً عن ذلك، ومحذراً من وبيل عقابه، فكذبته قومه، فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى، ونزل الله تعالى تكذيبهم له بمنزلة تكذيبهم جميع الرسل، فلماذا قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْفُونَ﴾؟ أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؟ أي: إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني الله به، أبلغكم رسالة ربي ولا أزيد فيها ولا أنقص منها، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الآية؛ أي: لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أذكر ثواب ذلك عند الله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني الله به واتممني عليه.

﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ .

يقولون: أنؤمن لك، وتنبعك وتتساوى في ذلك بهؤلاء الأراذل، الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا، ولهذا ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: وأي شيء يلزميني من اتباع هؤلاء لي؟ ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه، لا يلزميني التنبع عنهم والبحث والفحص، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وأكل سرائرهم إلى الله ﷻ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ويتابعوه، فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: إنما بعثت نذيراً، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وكنت منه، سواء كان شريعاً أو ضيعاً.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَاجْعَلْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ اغْرِقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ .

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم، يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾؛ أي: لئن لم تنته عن دعوتك إيانا إلى دينك، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾؛ أي: لنرجمنك، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قَوْمِي

كَذَّبُونَ ﴿١٢٧﴾ فَانْفَعْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴿١٢٨﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ ﴿١٢٩﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١٣٠﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٣١﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِّرَ ﴿١٣٢﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٣٣﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [القمر: ١٠ - ١٤]، وَقَالَ هَا هُنَا: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاقِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿١٣٤﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٣٥﴾ وَالْمَشْحُونُ هُوَ الْمَمْلُوءُ بِالْأَمْتَعَةِ وَالْأَزْوَاجِ الَّتِي حَمَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ؛ أَي: أَنْجَيْنَا نُوحًا وَمَنْ اتَّبَعَهُ كُلَّهُمْ، وَأَغْرَقْنَا مَنْ كَفَرَ بِهِ وَخَالَفَ أَمْرَهُ كُلَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٧﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٨﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٩﴾ فَانْقُرُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٠﴾ وَمَا أَسْتَأْذِنُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ أَتَنْتَبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٣٢﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٣﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴿١٣٤﴾ فَانْقُرُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٥﴾ وَانْقُرُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٧﴾ وَحَنَّتِ وَعَبُودُ ﴿١٣٨﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٩﴾.

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام، أنه دعا قومه عادًا، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريبًا من بلاد حضرموت، متاخمة لبلاد اليمن، وكانوا بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَآدَامُكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصِطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدائرة، والأموال والجنات والعيون والأنهار، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله هودًا إليهم رجلًا منهم رسولًا وبشيرًا ونذيرًا، فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه، فقال لهم كما قال نوح لقومه إلى أن قال: ﴿أَتَنْتَبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ اختلف المفسرون في الريح بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، يبنون هناك بنيانًا محكمًا هائلًا باهرًا، ولهذا قال: ﴿أَتَنْتَبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَايَةً﴾؛ أي: معلمًا بناء مشهورًا، ﴿تَعْبَثُونَ﴾؛ أي: وإنما تفعلون ذلك عبثًا لا لاحتياج إليه بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبينهم عليه السلام ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتاع للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة. ثم قال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ قال مجاهد: والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد، وفي رواية عنه: بروج الحمام [ابن أبي حاتم/١٥٨١٣]. وقال قتادة: هي مأخذ الماء. قال قتادة: وقرأ بعض الكوفيين: «وتتخذون مصانع كأنكم خالدون» [الطبري/١٩/٩٦]، وفي القراءة المشهورة ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾؛ أي: لكي تقيموا فيها أبدًا وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم، وروى ابن أبي حاتم رحمه الله [١٥٨٤٠] أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنأدى: يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم

قال: ألا تستحيون، ألا تستحيون، تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، وبينون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غرورًا، وأصبح جمعهم بورًا، وأصبحت مساكنهم قبورًا، ألا إن عادًا ملكت ما بين عدن وعُمان خيالًا وركابًا، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟.

وقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَارِينَ﴾؛ أي: يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾؛ أي: اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم. ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم، فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣٦) ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ﴾ (١٣٧) ﴿وَحَنَّتِ وَعْيُونِ﴾ (١٣٨) ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: إن كذبتهم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع فيهم.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْآوَعِظِينَ﴾ (١٣٩) ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٤٠) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (١٤١) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ (١٤٢) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٤٣) ﴿وَلَأَنَّ رِبِّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٤٤).

يقول تعالى مخبرًا عن جواب قوم هود له بعدما حذرهم وأنذرهم، ورغبهم ورهبهم، وبين لهم الحق ووضحه: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْآوَعِظِينَ﴾؛ أي: لا نرجع عما نحن عليه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣]، وهكذا الأمر، فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِي كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ قرأ بعضهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ بفتح الخاء وتسكين اللام [الطبري ٩٧/١٩]. قال ابن مسعود، وابن عباس، وعلقمة، ومجاهد: يعنون ما هذا الذي جئنا به إلا أخلاق الأولين، كما قال المشركون من قريش: ﴿وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: ٥]، وقرأ آخرون: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ بضم الخاء واللام، يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾. قال ابن عباس: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول: دين الأولين. وقاله عكرمة وعطاء الخراساني، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير [٩٧/١٩].

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾؛ أي: فاستمروا على تكذيب نبي الله هود وعناده، فأهلكهم الله، وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا عاتية؛ أي: ريحًا شديدة الهبوب، ذات برد شديد جدًّا، فكان سبب إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ (١) ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦، ٧]، وهم عاد الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠]، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح. ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ الذين كانوا يسكنون العمد، ومن زعم أن إرم مدينة، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب، وليس لذلك أصل أصيل، ولهذا قال: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ﴾

[الفجر: ٨]؛ أي: لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال: التي لم يبن مثلها في البلاد، وقال: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِعَائِدِنَا يُجَادُونَ﴾ [فصلت: ١٥]، وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ الآية.

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْغُلَامِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ .

وهذا إخبار من الله ﷻ عن عبده ورسوله صالح ﷺ، أنه بعثه إلى قومه ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر، التي بين وادي القرى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة، وقد قدمنا في سورة الأعراف [عند الآيات ٧٣ - ٧٨] الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام، فوصل إلى تبوك ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك، وكانوا بعد عاد وقبل الخليل ﷺ، فدعاهم نبيهم صالح إلى الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه، وأخبرهم أنه لا يتبغي بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ﷻ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم، فقال:

﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هَهِئْنَا ءَمِينِينَ﴾ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحُّتُونَ مِنْ آلِجَالٍ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥٠﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥١﴾ .

يقول لهم واعظاً لهم، ومحذرهم أياهم نقم الله أن تحل بهم، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة وجعلهم في أمن من المحذورات، وأنبت لهم من الجنات، وفجر لهم من العيون الجاريات، وأخرج لهم من الزروع والثمرات، ولهذا قال: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ وعن ابن عباس: أنيع وبلغ، فهو هضيم، وعنه أيضاً: هضيم: معشبة، وعنه كذلك: إذا رطب واسترخى، وروي عن أبي صالح نحو هذا [ابن أبي حاتم/١٥٨٤٥].

وقال أبو العلاء: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: هو المذنب من الرطب [يعني: أرطب أوله أو آخره]، وقال مجاهد: هو الذي إذا كُبس تهشم وتفتت وتناثر، وقال مجاهد: حين يطلع تقبض عليه فتهشمه، فهو من الرطب الهضيم، ومن اليابس الهشيم، تقبض عليه فتهشمه، وقال عكرمة وقتادة: الهضيم الرطب اللين، وقال الضحاك: إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضه بعضاً، فهو هضيم، وقال الحسن البصري: هو الذي لا نوى له، وقال أبو صخر: ما رأيت الطلع حين يُشق عنه الكم؟ فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض، فهو الهضيم [الطبري/١٩/١٠٠].

وقوله: ﴿وَتَنَحُّتُونَ مِنْ آلِجَالٍ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني: حاذقين [ابن أبي

حاتم/١٥٨٥٦، وفي رواية عنه: شريهين أشرين، وهو اختيار مجاهد وجماعة [الطبري ١٩/١٠١]، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً ويطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكنها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم، ولهذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾؛ أي: أقبلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبده وتوحيده وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٥٦) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ؛ يعني: رؤساءهم وكبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَشَايَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لَنَا شَرِبٌ وَلَكُمَّ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَسْهَوْهَا إِسْوَءٌ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَمَقَرُّهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩).

يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم ﷻ أنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ قال مجاهد، وقتادة: يعنون من المسحورين [ابن أبي حاتم/١٥٨٦٤]، وروي عن ابن عباس: ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾؛ يعني: من المخلوقين [الطبري ١٩/١٠٢]؛ أي: الذين لهم سُحُور، والسحر هو الرثة. والأظهر في هذا قول مجاهد، وقتادة أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك، ثم قالوا: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾؛ يعني: فكيف أوحى إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿أَلَمْ يَلْقَ الْكَاذِبُ عَلَيْنَا مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ (١٥) سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْآخِرِ [القمر: ٢٥، ٢٦]. ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، وقد اجتمع ملؤهم، وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة عندهم ناقة عُشْرَاء من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهد والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به، فأعطوه ذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى، ثم دعا الله ﷻ أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عُشْرَاء على الصفة التي وصفوها، فأمن بعضهم وكفر أكثرهم، ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لَنَا شَرِبٌ وَلَكُمَّ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾؛ يعني: ترد ماءكم يوماً، ويوماً تردونه أنتم ﴿وَلَا تَسْهَوْهَا إِسْوَءٌ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر، ترد الماء وتأكل الورق والمرعى، وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم، تمالؤوا على قتلها وعقرها، ﴿فَمَقَرُّهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، وأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام، وهو لوط وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها التي أهلكتها الله بها، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور متاخمة لجبال بيت المقدس، بينها وبين بلاد الكرك والشوبك، فدعاهم إلى الله تعالى أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله، من إتيان الذكور دون الإناث، ولهذا قال تعالى:

﴿آتَاوُنَا الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسايتهم اللاتي خلقهن الله لهم، ما كان جوابهم له إلا أن قالوا: ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَه يَلُوطُ﴾؛ أي: عما جئنا به ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾؛ أي: ننفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَظْهَرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمررون على ضلالتهم، تبرأ منهم وقال: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾؛ أي: المبغضين، لا أحبه ولا أرضى به، وإني بريء منكم، ثم دعا الله عليهم فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: كلهم ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ﴾ وهي امرأته، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومه، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وهود، وكذا في الحجر حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتوا إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ - إلى قوله - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.

هؤلاء - يعني: أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من



أنفسهم وإنما لم يقل هاهنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ فقطع نسبة الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً، ومن الناس من لم يفتن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيباً عليه السلام بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم. وروى أبو القاسم البغوي (٣/٣٦٩) عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الرَّيِّ﴾ [ق: ١٢] قوم شعيب. وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ [ق: ١٤] قوم شعيب، والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهما أمة واحدة.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَىٰ ﴿١٨٤﴾.

يأمرهم الله تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾؛ أي: إذا دفعتم للناس فكمّلوا الكيل لهم، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصاً، وتأخذوه إذا كان لكم تاماً وافياً، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ والقسطاس هو الميزان. قال مجاهد: القسطاس المستقيم هو العدل بالرومية [ابن أبي حاتم/١٥٩٠٦]، وقال قتادة: القسطاس العدل.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾؛ أي: لا تُنقصوهم أموالهم، ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ يعني: قطع الطريق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ [الأعراف: ٨٦].

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَىٰ﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ﴾ [الصافات: ١٢٦]. قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وسفيان بن عيينة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالْجِلَّةَ الْأُولَىٰ﴾ يقول: خلق الأولين [الطبري ١٩/١٠٩] وقرأ ابن زيد: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلاً كَثِيراً﴾ [يس: ٦٢].

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَافًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾.

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها، تشابهت قلوبهم حيث قالوا: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ يعنون من المسحورين كما تقدم ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ

نَظْنُكَ لِمَنِ الْكَذِبِينَ؟ أَي: تتعمد الكذب فيما تقوله لا أن الله أرسلك إلينا ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال الضحاك: جانبًا من السماء [ابن أبي حاتم/١٥٩٢٢]، وقال قتادة: قطعًا من السماء [ابن أبي حاتم/١٥٩٢٣]، وقال السدي: عذابًا من السماء، وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ إلى أن قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ فَيَمْلَأُوا﴾ [الإسراء: ٩٠، ٩٢]، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾. ﴿قَالَ رَبِّ اعْلَمْ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به، وهو غير ظالم لكم، وهكذا وقع بهم جزاء كما سألوا جزاء وفاقا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَّوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله ﷻ جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام، لا يَكْنَهُم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلمتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها، أرسل الله تعالى عليهم منها شرًّا من نار ولهبًا ووهجًا عظيمًا، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَعْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة، وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٩٤] وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَصَلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾. وها هنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه ﴿فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَّوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلمهم منه شيء، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابة، فانطلق إليها أحدهم فاستظل بها فأصاب تحتها بردًا وراحة، فأعلم بذلك قومه فأتوها جميعًا فاستظلوا تحتها فأججت عليهم نارًا [رواه الطبراني بنحو ٤٨/١٤]، وهكذا روي عن عكرمة وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة وغيرهم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: بعث الله إليهم الظلة حتى إذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة وأحمى عليهم الشمس، فاحترقوا [الحاكم/٤٠٧٧]، وقال محمد بن كعب القرظي: إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة، فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كاليوم ظلًّا أطيب ولا أبرد من هذا، هلموا أيها الناس، فدخلوا جميعًا تحت الظلة، فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا جميعًا، ثم تلا محمد بن كعب: ﴿فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَّوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [ابن أبي حاتم/١٥٩٢٩].

وقال يزيد الباهلي: سألت ابن عباس عن هذه الآية قال: بعث الله عليهم رعدًا وحرًا شديدًا، فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا البيوت، فدخل عليهم أجواف البيوت، فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هربًا إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة فأظلمت من الشمس، فوجدوا لها بردًا ولذة، فنأدى بعضهم بعضًا حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم نارًا. قال ابن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب عظيم [الطبري ١٩/١١٠] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ؛ أي: العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَاتَّبِعْهُ﴾ [١٩٢] ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَاتَّبِعْهُ﴾ [١٩٣] ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَاتَّبِعْهُ﴾ [١٩٤] بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿وَلَقَدْ﴾؛ أي: القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُجَدِّدٍ﴾ الآية. ﴿لَنْزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: أنزله الله عليك وأوحاه إليك ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل عليه السلام، قاله غير واحد من السلف ابن عباس، ومحمد بن كعب، وقتادة، وعطية العوفي، والسدي، والضحاك، والزهري، وابن جريج [الطبري ١٩/١١٢]، وهذا مما لا نزاع فيه. قال الزهري: وهذه كقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]. ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾؛ أي: نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملاء الأعلى ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمد سالمًا من الدنس والزيادة والنقص ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾؛ أي: لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له.

وقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾؛ أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك، أنزلناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بينًا واضحًا ظاهرًا، قاطعًا للعدو، مقيمًا للحجة دليلًا إلى المحجة.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَاتَّبِعْهُ﴾ [١٩٦] ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَاتَّبِعْهُ﴾ [١٩٧] ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَاتَّبِعْهُ﴾ [١٩٨] بَعْضُ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٩﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٠﴾.

يقول تعالى: وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيبًا في ملته بالبشارة بأحمد: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَبَشِيرًا بِرَسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، والزبر هاهنا هي الكتب، وهي جمع زبور، وكذلك الزبور وهو كتاب داود، وقال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي التَّوْبِ﴾ [الفر: ٥٢]؛ أي: مكتوب عليهم في صحف الملائكة، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ﴾

عَلَّمُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ؟ أَي: أَوَ لَيْسَ يَكْفِيهِمْ مِنَ الشَّاهِدِ الصَّادِقِ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّ الْعُلَمَاءَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَجِدُونَ ذِكْرَ هَذَا الْقُرْآنِ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي يَدْرُسُونَهَا، وَالْمُرَادُ الْعُدُولُ مِنْهُمْ، الَّذِينَ يَعْتَرِفُونَ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَبْعَثِهِ وَأُمَّتِهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَسُلَمَانَ الْفَارِسِيِّ عَمَّنْ أَدْرَكَهُ مِنْهُمْ وَمَنْ شَاكَلَهُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوءًا عِنْدَهُمْ فِي الْتَوَارِثِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَخْبِرًا عَنْ شِدَّةِ كُفْرِ قَرِيشٍ وَعِنَادِهِمْ لِهَذَا الْقُرْآنِ: أَنَّهُ لَوْ نَزَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَعَاجِمِ مِمَّنْ لَا يَدْرِي مِنَ الْعَرَبِيَّةِ كَلِمَةً، وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ بَيَانَهُ وَفَصَاحَتَهُ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٦٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٦٩﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠٤﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٥﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٦﴾ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٧﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٨﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٩﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ ﴿٢١٠﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذَرُونَ ﴿٢١١﴾ ذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١٢﴾﴾.

يَقُولُ تَعَالَى: كَذَلِكَ سَلَكْنَا التَّكْذِيبَ وَالْكَفْرَ وَالْعِنَادَ؛ أَي: أَدْخَلْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾؛ أَي: بِالْحَقِّ ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾؛ أَي: حَيْثُ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ، ﴿فَيَأْتِيَهُمْ﴾؛ أَي: عَذَابُ اللَّهِ ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾؛ أَي: يَتِمْنُونَ حِينَ يَشَاهِدُونَ الْعَذَابَ أَنْ لَوْ أَنْظَرُوا قَلِيلًا لَيَعْمَلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا﴾ - إِلَى قَوْلِهِ: - ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، فَكُلُّ ظَالِمٍ وَكَافِرٍ إِذَا شَاهَدَ عَقُوبَتَهُ نَدِمَ نَدَمًا شَدِيدًا، هَذَا فَرَعُونَ لَمَّا دَعَا عَلَيْهِ الْكَلِيمُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]، فَآتَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي فَرَعُونَ، فَمَا آمَنَ حَتَّى رَأَى الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ: - ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ تَكْذِيبًا وَاسْتِبْعَادًا: اثْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٨﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٩﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ﴾؛ أَي: لَوْ أَخْرَانَاهُمْ وَأَنْظَرْنَاهُمْ بَرَهَةً مِنَ الزَّمَانِ وَإِنْ طَالَ، ثُمَّ جَاءَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ أَي شَيْءٌ يَجْدِي عَنْهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النِّعَمِ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: ٤٦]، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: (يُؤْتَى بِالْكَافِرِ فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَعِيمًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى

بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟  
فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ) [رواه مسلم/٢٨٠٧ بنحوه].

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله في خلقه أنه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإنذار لهم، وبعثة الرسل إليهم، وقيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ ﴿٢١٨﴾ ذَكَرْنَاهُمْ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١٩﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿٢٢٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢٢١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُولُونَ ﴿٢٢٢﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾. ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه: أنه ما ينبغي لهم؛ أي: ليس هو من بُغيتهم ولا من طلبتهم؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه نور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ أي: ولو انبغى لهم ما استطاعوا ذلك، ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته، لما وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله؛ لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشبه الأمر، وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُولُونَ﴾ كما قال تعالى مخبراً عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلْتَئِتَةً حَرَّاسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَآنَ يَجِدُ لَهُمْ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨-١٠].

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ ﴿٢٢٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢٢٤﴾ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢٢٧﴾ الَّذِي يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ لِّمَنْ يَشَاءُ وَيُنْزِلُ فِي السَّجَدِينَ ﴿٢٢٨﴾ وَتَقَلُّبِكَ فِي الْمَجَالِكِ وَتَنْزِيلِكَ فِي الْغَمَامِ ﴿٢٢٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٣٠﴾.

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أن من أشرك به عذبه. ثم قال تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين؛ أي: الأدينين إليه، وأنه لا يُخَلِّصُ أحداً منهم إلا إيمانه بربه ﷻ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه، ولهذا قال: ﴿إِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي فرد من أجزائها، كما قال تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَنْذَرْنَا عَنْ آبَائِهِمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦]، وقال تعالى: ﴿لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ [مريم: ٩٧]، وقال: ﴿لِنُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، كما قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وفي «صحيح مسلم» [١٥٣]: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ،

يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ)، وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة فقد روى الإمام أحمد [٢٨٠٢] عن ابن عباس قال: لما أنزل الله ﷻ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، أتى النبي ﷺ الصفا، فصعد عليه، ثم نادى: (يَا صَبَاحَاهُ)، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: (يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي لُؤَيٍّ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ، صَدَقْتُمُونِي؟) قالوا: نعم. قال: (فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ) فقال أبو لهب: تَبًّا لَكَ سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] ورواه البخاري [٤٤٩٢] ومسلم [٢٠٨] بنحوه.

وروى الإمام أحمد [٢٥٠٨٨] عن عائشة قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: (يَا فَاطِمَةُ ابْنَةُ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ ابْنَةُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ) [أخرجه مسلم/٢٠٥].

ولم يكن أحد في بني هاشم إذ ذاك أشد إيمانًا وإيقانًا وتصديقًا لرسول الله ﷺ من علي عليه السلام، ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ ثم كان بعد هذا - والله أعلم - دعاؤه الناس جهرة على الصفا، وإنذاره لبطون قريش عمومًا وخصوصًا، حتى سمي من سمي من أعمامه وعماته وبناته لينبه بالأدنى على الأعلى؛ أي: إنما أنا نذير والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَزِيِّ الرَّحِيمِ﴾؛ أي: في جميع أمورك، فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعل كلمتك.

وقوله: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾؛ أي: هو معتن بك كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]. قال ابن عباس: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾؛ يعني: إلى الصلاة [ابن أبي حاتم/١٦٠٢٠]، وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده [ابن أبي حاتم/١٦٠٢١]. وقال الضحاك: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾؛ أي: من فراشك أو مجلسك [ابن أبي حاتم/١٦٠٢٣]. وقال قتادة: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ﴾ قائمًا وجالسًا وعلى حالاتك [ابن أبي حاتم/١٦٠٢٥].

وقوله: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ قال قتادة: في الصلاة يراك وحدك، ويراك في الجمع، وهذا قول عكرمة وعطاء الخراساني والحسن البصري، وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

﴿هَلْ أَنْبَيْتُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلَ السَّيْطَانُ﴾ ﴿٢٢١﴾ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَذِبُوكَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾.

يقول تعالى مخاطبًا لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس حقًا، وأنه شيء

افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رثي من الجان، فنزه الله ﷻ جناب رسوله عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم أمين عظيم، وأنه ليس من قبل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة، ولهذا قال الله: ﴿هَلْ أُتِيتُكُمْ؟﴾ أي: أخبركم ﴿عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: كذوب في قوله، والأثيم؛ أي: الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان، وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضًا كذبة فسقة.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾؛ أي: يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، كما روى البخاري [٤٤٢٤] عن أبي هريرة قال: إن النبي ﷺ قال: (إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَانَتْهَا سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرْقُونَ السَّمْعَ، وَمُسْتَرْقُونَ السَّمْعَ، هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةً كَذِبَةً، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيَصْدُقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ).

وقوله: ﴿وَالشُّعْرَاءَ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني: الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن [ابن أبي حاتم/١٦٠٤٩]، وكذا قال مجاهد، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ قال ابن عباس: في كل لغو يخوضون، وعن ابن عباس أيضًا: في كل فن من الكلام، وكذا قال مجاهد وغيره، وقال الحسن البصري: قد والله رأينا أوديتهم التي يهيمون فيها مرة في شتمة فلان، ومرة في مدحة فلان، وقال قتادة: الشاعر يمدح قومًا بباطل، ويذم قومًا بباطل. وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ قال ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه [الطبري ١٩/١٢٨]، وهذا الذي قاله ابن عباس ﷺ هو الواقع في نفس الأمر، ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله: فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حدًا: هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون؟ على قولين. وقد ذكر الزبير بن بكار في كتاب «الفكاهة»، أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، استعمل النعمان بن عدي بن نضلة على ميسان من أرض البصرة، وكان يقول الشعر، فقال:

فَإِنْ كُنْتُ نَذْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي      وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَثَلَّمِ  
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ      تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسِقِ الْمُتَهَدَّمِ

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال: إي والله إنه ليسوؤني ذلك. فلما قدم على عمر بكتفه بهذا الشعر، فقال: والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط، وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني. فقال عمر: أظن ذلك، ولكن والله لا تعمل لي عملاً أبدًا وقد قلت ما قلت [ذكر القصة ابن هشام في سيرته ٥/١٢]، فلم يذكر أنه حده على الشراب، وقد ضمنه شعره؛ لأنهم

يقولون ما لا يفعلون، ولكن ذمه عمر رضي الله عنه ولا مه على ذلك وعزله به، ولهذا جاء في الحديث: (لَأَنْ يَمْتَلِيَّ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا، يَرِيَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيَّ شِعْرًا) [البخاري/٥٨٠٢ ومسلم/٢٢٥٨]، والمراد من هذا أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر؛ لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤١﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٣﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٣].

**وقوله:** ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال ابن عباس، وقتادة وزيد بن أسلم وغير واحد: إن هذا استثناء مما تقدم. ولا شك أنه استثناء يدخل فيه من كان متلبسًا من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله، ثم تاب وعمل صالحًا، وذكر الله كثيرًا في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وامتنح الإسلام وأهله في مقابلة ما كذب بدمه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قيل: معناه ذكروا الله كثيرًا في كلامهم، وقيل: في شعرهم، وكلاهما صحيح مكفر لما سبق.

**وقوله:** ﴿وَأَنصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قال ابن عباس: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين، وكذا قال قتادة وغير واحد، وهذا كما ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال لحسان: (اهْجُئْهُمْ أَوْ قَالَ: هَاجِئْهُمْ، وَجَبْرِيلُ مَعَكَ)، وروى الإمام أحمد عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: إن الله ﷻ قد أنزل في الشعراء ما أنزل، فقال: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ) [رواه أحمد/٢٧٢١٨ وغيره، وقال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح].

**وقوله:** ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]، وفي «الصحيح» لمسلم [٢٥٧٨ بنحوه] أن رسول الله ﷺ قال: (إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾؛ يعني: من الشعراء وغيرهم، وقيل: المراد بهم أهل مكة، والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم. كما روى ابن أبي حاتم [١٦٠٨٤] عن عائشة رضي الله عنها قالت: كتب أبي في وصيته سطرين: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا، حين يؤمن الكافر وينتهي الفاجر ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه، وإن يجر ويدل فلا أعلم الغيب، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.





## تفسير سورة النمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ ١ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝﴾ ٢ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝﴾ ٣ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ ۝﴾ ٤ ﴿وَإِنَّكَ لَللْقَى الْقُرْآنِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝﴾ ٥ .

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور، وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَتُ﴾؛ أي: هذه آيات ﴿الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ﴾؛ أي: بين واضح ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به، وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وآمن بالدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقَرْ﴾ الآية [فصلت: ٤٤]، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾؛ أي: يكذبون بها ﴿رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: حسنا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم، وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية [الأنعام: ١١٠]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ﴾؛ أي: ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر.

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَللْقَى الْقُرْآنِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾؛ أي: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد قال قتادة: ﴿لَلْقَى﴾؛ أي: لتأخذ ﴿الْقُرْآنِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾؛ أي: من عند حكيم عليم؛ أي: حكيم في أمره ونهيه، عليم بالأمور: جليلها وحقيرها، فخبيره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيَكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَإَتِيَكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسِيٰٓ إِنَّهُۥ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُتَلَفُزٌ مَّا تَأْتِي جَانٌّ وَلَّىٰ مُدِرًّا وَلَمْ يَعْصَبْ يَمْوَسِيٰٓ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي ثَمَجٍ مَّا تَأْتِي إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفِثْتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى ﷺ، كيف اصطفاه الله وكلمه ونجاه وأعطاه من الآيات العظيمة، وابتعثه إلى فرعون وملئه، فجحدها بها وكفروا، واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾؛ أي: اذكر حين سار موسى بأهله فأضل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فأنس من جانب الطور ناراً؛ أي: رأى ناراً تتأجج وتضطرم، فقال: ﴿لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيَكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾؛ أي: عن الطريق ﴿أَوْ بَإَتِيَكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾؛ أي: تستدفئون به، وكان كما قال. فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيماً حيث انتهى إليها والنار تضطرم في شجرة خضراء لا تزداد النار إلا توفداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه، فإذا نورها متصل بعنان السماء. قال ابن عباس وغيره: لم تكن ناراً، وإنما كانت نوراً يتوهج، فوقف موسى متعجباً مما رأى، فنودي أن بورك من في النار. قال ابن عباس؛ أي: قدس. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: من الملائكة، قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة.

وروى ابن أبي حاتم [١٦١٢٣] عن أبي عبيدة، عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يُخَفِّضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ) [وفي رواية]: (وَحِجَابُهُ النُّورُ أَوْ النَّارُ، لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتِ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَذْرَكَهُ بَصَرُهُ). ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وأصل الحديث مخرج في «صحيح مسلم» [١٧٩]، وقوله: ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم المبين لجميع المخلوقات، ولا تكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات.

وقوله: ﴿يَمْوَسِيٰٓ إِنَّهُۥ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أقواله وأفعاله، ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر وسرعة الحركة، ولهذا قال

تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ والجنان ضرب من الحيات أسرع حركة وأكثره اضطراباً، وفي الحديث: (نَهَى عَنْ قَتْلِ جِنَّانِ الْبُيُوتِ) [رواه البخاري/٣١٣٥]، فلما عاين موسى ذلك ﴿وَكَلَّ مُدْبِرًا وَكَرَّ يَعْقِبُ﴾؛ أي: لم يلتفت من شدة فرقه، ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾؛ أي: لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطفيك رسولاً.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيئ ثم أقلع عنه، ورجع وتاب وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، والآيات في هذا كثيرة جداً، وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان.

وقوله: ﴿فِي يَسْعَ عَائِنَتْ﴾؛ أي: هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن وأجعلهن برهاناً لك ﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ إِنَّهُمْ كَافُوا فَيَقِينُ﴾، وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى يَسْعَ عَائِنَةٍ يَبَيِّنُ﴾ [الإسراء: ١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَاتَيْنَا مُبْصِرَةً﴾؛ أي: بينة واضحة ظاهرة ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾؛ أي: في ظاهر أمرهم ﴿وَاسْتَقْبَلَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾؛ أي: علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾؛ أي: ظلماً من أنفسهم سجيّة ملعونة، وعلواً؛ أي: استكباراً عن اتباع الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ عِلْمًا مَّنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَّخِذُهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَنَبَسَرَهُمْ صَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي رَحْمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه: داود وابنه سليمان عليهما السلام، من النعم الجزيلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾؛ أي: في الملك والنبوة، وليس المراد وراثته المال، إذ لو كان

كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لداود مائة امرأة، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله: (نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ) [رواه البخاري/٢٩٢٦].

وقوله: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضًا، وهذا شيء لم يُعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله، ومن زعم من الجهلة والرّاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود، كما قد يتفوه به كثير من الناس، فهو قول بلا علم، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة، ولهذا قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: مما يحتاج إليه الملك ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: الظاهر البين لله علينا.

وقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾؛ أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يكف أولهم على آخرهم لثلاثا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له. قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة يردون أولها على آخرها لثلاثا يتقدموا في المسير كما يفعل الملوك اليوم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾؛ أي: حتى إذا مر سليمان ﷺ بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأَيَّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، ففهم ذلك سليمان ﷺ منها ﴿فَنَبَّسَهُ صَاحِبًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي﴾؛ أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾؛ أي: عملاً تحبه وترضاه ﴿وَأَدْخُلْنِي رَحْمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾؛ أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿٢١﴾.

قال ابن عباس وغيره [كما روى ابن أبي حاتم بنحوه/١٦٢١٢]: كان الهدهد مهندساً يدل سليمان ﷺ على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه، فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، فنزل سليمان ﷺ يوماً بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره، ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ حدث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجل من الخوارج يقال له: نافع بن الأزرق وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قف يا ابن عباس غلبت اليوم، قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ويحثو على الفخ تراباً، فيجيء

الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي، فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول رددت على ابن عباس لما أحبته، ثم قال له: ويحك إنه إذا نزل القدر عمي البصر وذهب الحذر، فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً [الطبري ١٩/١٤٤ بنحوه].

وقوله: ﴿لَاَعْدِبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال ابن عباس: يعني: نتف ريشه، وكذا قال غير واحد من السلف [الطبري ١٩/١٤٥]. وقوله: ﴿أَوْ لَاَذْبَحَنَّ﴾؛ يعني: أقتله، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بعذر بين واضح.

﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ حِطُ بِهِ﴾ وَحِثُّكَ مِنْ سَيِّئِ بَنِي يَفِينَ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى: ﴿فَمَكَتْ﴾ الهدهد ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ أي: غاب زماناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ حِطُ بِهِ﴾؛ أي: اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿وَحِثُّكَ مِنْ سَيِّئِ بَنِي يَفِينَ﴾؛ أي: بخبر حق يقين، وسبأ هم حمير وهم ملوك اليمن، ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ. وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾؛ يعني: سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللائي. قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم البناء محكم، وكان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه ومثلها من غربه، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها فيسجدون لها صباحاً ومساءً، ولهذا قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾؛ أي: عن طريق الحق ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾؛ أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها، وقرأ بعض القراء [وهو الكسائي]: «ألا يا اسجدوا لله» [الطبري ١٩/١٥٠] جعلها ألا الاستفتاحية، ويا للنداء، وحذف المنادى تقديره عنده ألا يا قوم اسجدوا لله.

وقوله: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يعلم كل خبيثة في السماء والأرض [ابن أبي حاتم/١٦٢٦٨]، وكذا قال مجاهد، وقتادة وغير واحد، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خبء السموات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق، المطر من السماء والنبات من الأرض [ابن أبي حاتم/١٦٢٧٣]، وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاصة ما ذكره ابن عباس وغيره من أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلها.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ أي: يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، وهذا كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ

وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿الرعد: ١٠﴾، وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: هو المدعو الله، وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه، ولما كان الهدهد داعيًا إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له نهى عن قتله، كما رواه الإمام أحمد [٣٠٦٧] وابن ماجه [٣٢٢٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والضرد» وإسناده صحيح.

﴿قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (٢٧) أَذْهَبَ يَكْتَنِي هَذَا فَالْفَهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَتَايَأُ آلْمُلُوكُ إِلَيَّ أَلْفِي إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُوِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾.

يخبر تعالى عن قيل سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: ﴿قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾؛ أي: صدقت في إخبارك هذا ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ في مقاتلتك لتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿أَذْهَبَ يَكْتَنِي هَذَا فَالْفَهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ فحملة، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلو التي كانت تختلي فيها بنفسها فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية، فتحيرت مما رأت وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُوِي مُسْلِمِينَ فجمعت عند ذلك كبراء دولتها، ثم قالت لهم: ﴿يَتَايَأُ آلْمُلُوكُ إِلَيَّ أَلْفِي إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ تعني بكرمه ما رآته من عجيب أمره كون طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدبًا، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام، وأنه لا قبل لهم به، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ﴾ قال قتادة: يقول لا تجبروا علي ﴿وَأُتُوِي مُسْلِمِينَ﴾ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا علي وأتوني مسلمين [الطبري ١٩/١٥٣]. قال ابن عباس: موحدين، وقال سفيان بن عيينة: طائعين [ابن أبي حاتم/١٦٣١٢].

﴿قَالَتْ يَتَايَأُ آلْمُلُوكُ أَفْتُوِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوَّلُوا قُوَّةٍ وَأَوَّلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾.

لما قرأت عليهم كتاب سليمان، استشارتهم في أمرها، ولهذا قالت: ﴿يَتَايَأُ آلْمُلُوكُ أَفْتُوِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾؛ أي: حتى تحضرون وتشيروا. ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوَّلُوا قُوَّةٍ وَأَوَّلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: منوا إليها بعددهم وعددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾؛ أي: ليس بنا بأس إن شئت أن تقصديه وتحاربيه، فما لنا عاقبة

عنه، وبعد هذا فالأمر إليك، مري فينا برأيك نمثله ونطيعه، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه، ولهذا قالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾. قال ابن عباس: أي: إذا دخلوا بلدًا غنوةً أفسدوه [ابن أبي حاتم/١٦٣٢٤]؛ أي: خربوه ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً﴾؛ أي: وقصدوا من فيها من الولاة والجنود فأهانوهم غاية الهوان إما بالقتل أو بالأسر. قال ابن عباس: قالت بلقيس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً﴾، قال الرب ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ثم عدلت إلى المهادنة والمخادعة، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [روى ابن أبي حاتم نحوه/١٦٣٢٨]؛ أي: سأبعث إليه بهدية تليق بمثله وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجًا نحمله إليه في كل عام، وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا ءَاتَيْنَهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (٣٦) ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٣٧).

ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك، والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب، والظاهر أن سليمان ﷺ، لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه، وقال منكراً عليهم: ﴿أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ؟﴾ أي: أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم؟ ﴿فَمَا ءَاتَيْنَهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُم﴾؛ أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه، ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾؛ أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة، فلما رأت رسلها ذلك، قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا [ابن أبي حاتم/١٦٣٣٩].

﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: بهديتهم ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾؛ أي: لا طاقة لهم بقتالهم ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً﴾؛ أي: ولنخرجهم من بلدتهم أذلة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾؛ أي: مهانون مدحورون، فلما رجعت إليها رسلها بهديتها وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان ناوية متابعته في الإسلام، ولما تحقق سليمان ﷺ قدومهم عليه، فرح بذلك.

﴿قَالَ يَتَابِعُهَا أَلَمْؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣٨) ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (٣٩) ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٤٠).

قال يزيد بن رومان: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد والله عرفت ما هذا

بملك، وما لنا به من طاقة، وبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعوننا إليه من دينك، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يديه فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الْمَلُؤُا أَيْتِي بِعَرْشِيَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [ابن أبي حاتم/١٦٣٦١].

وقال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جائية وكان قد ذكر له عرشها. فكره أن يأخذها بعد إسلامهم، وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم، فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الْمَلُؤُا أَيْتِي بِعَرْشِيَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [ابن أبي حاتم/١٦٣٥٩] وهكذا قال عطاء الخراساني والسدي، وزهير بن محمد ﴿قَالَ عَفْرِتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال مجاهد: أي: مارد من الجن [ابن أبي حاتم/١٦٣٦٦]. ﴿أَنَاْ أَيْنَاكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال ابن عباس: يعني: قبل أن تقوم من مجلسك، وقال السدي وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام، من أول النهار إلى أن تزول الشمس. ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ قال ابن عباس [الطبري/١٩/١٦٢]: أي: قوي على حمله أمين على ما فيه من الجوهر، فقال سليمان عليه الصلاة والسلام: أريد أعجل من ذلك. ومن هاهنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك، وسخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه. هذا وقد حجبتة بالأغلاق والأقفال والحفظة، فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك، ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان [رواه النسائي/١٠٩٩٤]، وكذا قال يزيد بن رومان، وكان صديقًا يعلم الاسم الأعظم.

وقوله: ﴿أَنَاْ أَيْنَاكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؛ أي: ارفع بصرك وانظر، مد بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك، قال وهب بن منبه: امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به، فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى [الطبري/١٩/١٦٤]. قال مجاهد: قال يا ذا الجلال والإكرام، فلما عين سليمان وملؤه ذلك، ورآه مستقرًا عنده ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾؛ أي: هذا من نعم الله علي ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾؛ أي: ليختبرني ﴿أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾؛ أي: هو غني عن العباد وعبادتهم كريم؛ أي: كريم في نفسه وإن لم يعبد أحد فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وفي «صحيح مسلم» [٢٥٧٧]: ﴿يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِّنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِّنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا﴾.



﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدَىٰ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٤١) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (٤٢) ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٤٣) ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٤).

لما جيء سليمان ﷺ بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها فقال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدَىٰ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ قال ابن عباس: نزع منه فصوصه ومرافقه [ابن أبي حاتم/ ١٦٤٠٩]، وقال مجاهد: أمر به فغير ما كان أحمر فجعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر، وما كان أخضر جعل أحمر، غير كل شيء عن حاله [ابن أبي حاتم/ ١٦٤١٠]، وقال عكرمة: زادوا فيه ونقصوا. ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾؛ أي: عرض عليها عرشها وقد غير ونكر وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته، وإن غير وبدل ونكر، فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾؛ أي: يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قال مجاهد يقوله سليمان.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ هذا من تمام كلام سليمان ﷺ في قول مجاهد وسعيد بن جبير رحمهما الله؛ أي: قال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وهي كانت قد صدها؛ أي: منعها من عبادة الله وحده ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد حسن. وقاله ابن جرير أيضًا. ثم قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون في قوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾ ضمير يعود إلى سليمان أو إلى الله ﷻ وتقديره ومنعها ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: صدها عن عبادة غير الله ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾ وذلك أن سليمان ﷺ أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيمًا من قوارير؛ أي: من زجاج، وأجري تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه.

وأصل الصرح في كلام العرب هو القصر، وكل بناء مرتفع، قال الله ﷻ: ﴿إِنْ شِئْتُمْ لَنَعْنِيَ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ لوزيره هامان: ﴿أَبْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَتْلُعَ﴾ الآية [غافر: ٣٦ - ٣٧]، والممرد المبني بناء محكمًا أملس ﴿مِنْ قَوَارِيرَ﴾؛ أي: زجاج، وتمريد البناء تمليسه، والغرض أن سليمان ﷺ اتخذ قصرًا عظيمًا منيفًا من زجاج لهذه الملكة ليربها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله ﷻ وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾؛ أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾.

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ أي: متابعة لدين سليمان في عبادته الله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ نَسْتَعِجِلُونَ بِالْسَيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمَن مَعَكَ قَالَ طَعْتِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ٤٧﴾.

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال مجاهد: مؤمن وكافر كقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ أَنْقِلُونَا أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ نَسْتَعِجِلُونَ بِالْسَيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾؛ أي: لم تدعون بحضور العذاب، ولا تطلبون من الله رحمته، ولهذا قال: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمَن مَعَكَ﴾؛ أي: ما رأينا على وجهك ووجه من اتبعك خيراً، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه. قال مجاهد: تشاءموا بهم، وهذا كما قال الله تعالى إخباراً عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقال هؤلاء: ﴿أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمَن مَعَكَ قَالَ طَعْتِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: الله يجازيكم على ذلك ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ قال قتادة: تبتلون بالطاعة والمعصية [أبي حاتم/١٦٤٦٣] والظاهر أن المراد بقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾؛ أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال.

﴿وَكَاثَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ٥١﴾ فَبَلَكَ بُيُوتَهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥٢﴾ وَأَبْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ ٥٣﴾.

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة وهموا بقتل صالح أيضاً، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلةً، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك، فقال تعالى: ﴿وَكَاثَ فِي الْمَدِينَةِ﴾؛ أي: مدينة ثمود ﴿سَعَةُ رَهْطٍ﴾؛ أي: تسعة نفر ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾

وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود؛ لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم. قال ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة [الطبري ١٩/١٧٢]؛ أي: الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قببحهم الله ولعنهم، وقد فعل ذلك.

وعن عطاء بن أبي رباح قال: كانوا يقرضون الدراهم [ابن أبي حاتم/١٦٤٦٩]؛ يعني: أنهم كانوا يأخذون منها وكأنهم كانوا يتعاملون بها عددًا كما كان العرب يتعاملون، وعن سعيد بن المسيب أنه قال: قُطِعَ الذهب والورق من الفساد في الأرض، والغرض أن هؤلاء الكفرة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض، بكل طريق يقدرُونَ عليها.

**وقوله تعالى:** ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾؛ أي: تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح ﷺ، فكادهم الله وجعل الدائرة عليه، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين، وعن ابن عباس: هم الذين عقروا الناقة، قالوا حين عقروها: نبئت صالحًا وأهله وقومه فنقتلهم، ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئًا، وما لنا به من علم فدمرهم الله أجمعين [الطبري ١٩/١٧٢].

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: لما عقروا الناقة قال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث، وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف؛ أي: غار هناك ليلاً فقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ففرغنا منهم، فبعث الله عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم، ولا يدرون ما فعل بقومهم، فعذب الله هؤلاء هاهنا، وهؤلاء هاهنا، وأنجى الله صالحًا ومن معه ثم قرأ: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾ فَبِئْسَ الْيُسُودَ الَّذِي كَانَتْ تَكْتُمُ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُولٍ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنْ الْغَايِبِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط ﷺ أنه أنذر قومه نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ أي: يرى بعضكم بعضًا، وتأتون في ناديكُم المنكر ﴿أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُولٍ﴾؛ أي: لا تعرفون شيئًا لا طبعًا ولا شرعًا كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَ

مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿١٦٥﴾ وَيَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَيْبُكُمْ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].  
﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَبْطِهُرُونَ﴾؛ أي: يتخرجون من فعل ما تفعلون، ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم، فعزموا على ذلك، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، قال الله تعالى: ﴿فَأَنبَجْنَاهُ وَآهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَذَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾؛ أي: من الهالكين مع قومها؛ لأنها كانت ردةً لهم على دينهم وعلى طريقتهم، في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله ﷺ لا كرامة لها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾؛ أي: حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيعد، ولهذا قال: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾؛ أي: الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار فخالفوا الرسول وكذبوه وهموا بإخراجه من بينهم.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ أَمَنْ خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ ۚ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٦٠﴾.

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم وهم رسله وأنبيأؤه الكرام، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره: إن المراد بعباده الذين اصطفى، هم الأنبياء [ابن أبي حاتم/١٦٤٩٦]، وقال الثوري والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم أجمعين، وروي نحوه عن ابن عباس [ابن أبي حاتم/١٦٤٩٥]، ولا منافاة فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأخرى، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد، وما أحل بأعدائه من الخزي والنيكال والفقر، أن يحمده على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى. ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال: ﴿أَمَنْ خَلَقَ السَّمَكُوتَ﴾؛ أي: خلق تلك السموات بارتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، وخلق الأرض في استفالها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار، والأشجار والثمار والبحار، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ أي: جعله رزقاً للعباد ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾؛ أي: بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾؛ أي: منظر حسن ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾؛ أي: لم

تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها، وإنما يقدر على ذلك الخالق، المستقل بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]؛ أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يُفرد بالعبادة مَنْ هو المتفرد بالخلق والرزق، ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾؛ أي: إله مع الله يعبد، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضًا أنه الخالق الرازق.

ومن المفسرين من يقول معنى قوله: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾؛ أي: إله مع الله فعل هذا وهو يرجع إلى معنى الأول؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثم أحد فعل هذا معه، بل هو المتفرد به، فيقال: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير؟ وقوله هاهنا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ ﴿أَمَّنْ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره أَمَّنْ يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿لَهُ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ثم قال في آخر الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾؛ أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦١).

يقول تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾؛ أي: قارة ساكنة لا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهادًا لا تتزلزل ولا تتحرك. ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا﴾؛ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جبالًا شامخة ترسي الأرض وتثبتها، لئلا تميد بهم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾؛ أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزًا؛ أي: مانعًا يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾؛ أي: فعل هذا، أو يعبد على القول الأول والآخر؟ وكلاهما متلازم صحيح ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: في عبادتهم غيره.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢).

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا

دَعَاهُ؛ أَي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾؛ أَي: يُخلف قرنًا لقرن قبلهم وخلفًا لسلف، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]؛ أَي: قومًا يخلف بعضهم بعضًا كما قدمنا تقريره، وهكذا هذه الآية: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾؛ أَي: أمة بعد أمة، وجيلًا بعد جيل، ولو شاء لأوجد لهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب، ولا يميت أحدًا حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فكانت تضيق عليهم الأرض، وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثّرهم غاية الكثرة، ويذرّاهم في الأرض، ويجعلهم قرونًا بعد قرون، وأمّا بعد أمم، حتى ينقضي الأجل، ثم يقيم القيامة ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾؛ أَي: يقدر على ذلك، أو إله مع الله يعبد؟ وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك ﴿فَلَيْلًا مَا نَذْكُرُون﴾؛ أَي: ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٣].

يقول: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾؛ أَي: بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]. ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؛ أَي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدين الأزلين القنطين، ﴿أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٤].

أَي: هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣]. ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أَي: بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض، فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركًا فيسلكه ينابيع في الأرض، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والشمار والأزاهير وغير ذلك من ألوان شتى، ولهذا قال: ﴿أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾؛ أَي: فعل هذا. وعلى القول الآخر يعبد ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما تدعون من عبادة آلهة أخرى، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٦٥) ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (٦٦).

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع؛ أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله ﷻ فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة.

وروى ابن أبي حاتم [١٦٥٣٥] عن عائشة رضي الله عنها، قالت: من زعم أنه يعلم - تعني النبي ﷺ - ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾. وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن أناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والدميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب، وقضى الله تعالى أنه لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون. رواه ابن أبي حاتم [١٦٥٣٦] وهو كلام جليل متين صحيح.

وقوله: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾؛ أي: انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها. قال ابن عباس: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾؛ أي: غاب، وقال قتادة: يُجْهَلُهُمْ ربهم، يقول: لم ينفذ لهم إلى الآخرة علم، هذا قول. وعن ابن عباس: «بل أدرك علمهم في الآخرة» حين لم ينفع العلم [ابن أبي حاتم/١٦٥٤١]، وبه قال عطاء الخراساني والسدي؛ أي: إن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك. وعن الحسن، أنه كان يقرأ: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ﴾ قال: اضمحل علمهم في الدنيا حين عاينوا الآخرة [ابن أبي حاتم/١٦٥٤٠].

وقوله: ﴿هُم فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ عائد على الجنس، والمراد الكافرون، كما قال تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ تَجْعَلُ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨]؛ أي: الكافرون منكم، وهكذا قال هاهنا: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾؛ أي: شاكون في وجودها ووقوعها ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾؛ أي: في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَيْنَا لِمُخْرَجُونَ﴾ (٦٧) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (٧٠).

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين: أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد

صيرورتها عظامًا ورفاتًا وترابًا، ثم قال: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: ما زلنا نسمع بهذا نحن وآبائنا ولا نرى له حقيقة ولا وقوعًا، وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا﴾ يعنون ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ﴿إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: أخذه قوم عمن قبلهم من كتبهم يتلقاه بعض عن بعض وليس له حقيقة، قال الله تعالى مجيبًا لهم عما ظنوه من عدم المعاد: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: المكذبين بالرسول وبما جاء وهم به من أمر المعاد وغيره كيف حلت بهم نقم الله وعذابه ونكاله، ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته. ثم قال تعالى مسلماً لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: المكذبين بما جئت به وتذهب نفسك عليهم حسرات، ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾؛ أي: في كيدك، ورد ما جئت به فإن الله مؤيدك وناصرك ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي سَتَعْمَلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥).

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال الله مجيباً لهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي سَتَعْمَلُونَ﴾ قال ابن عباس: أن يكون قرب لكم بعض الذي تستعجلون، وهكذا قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسدي [ابن أبي حاتم/ ١٦٥٦١]، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]، وإنما دخلت اللام في قوله: ﴿رَدْفٌ لَكُمْ﴾؛ لأنه ضَمَّنْ معنى عَجَل لكم، كما قال مجاهد في رواية عنه ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ﴾ عَجَل لكم.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾؛ أي: في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: يعلم السرائر كما يعلم الظواهر، ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]. ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه، فقال: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: وما من شيء ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ مَدِيرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١).

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبيّنات والفرقان: إنه



يقص على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غلّوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد الله ورسله الكرام، عليه أفضل الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكُدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: هدى لقلوب المؤمنين به ورحمة لهم في العمليات، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: في انتقامه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: في جميع أمورك، وبلغ رسالة ربك ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾؛ أي: أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ﴾؛ أي: لا تسمعهم شيئاً ينفعهم، فذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة وفي آذانهم وقر الكفر، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَسْمَعُ الْأَعْمَىٰ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿٨﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيَ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة، الخاضع لله ولما جاء عنه على السنة الرسل ﷺ.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٨٢﴾

في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يخرج الله لهم دابة من الأرض، فتكلم الناس على ذلك، قال ابن عباس والحسن، وقتادة ويروى عن علي رضي الله عنه: تكلمهم كلاماً [الطبري ١٦/٢٠]؛ أي: تخاطبهم مخاطبة، وقال ابن عباس في رواية: تجرحهم، وعنه رواية قال: كلاً تفعل يعني هذا وهذا، وهو قول حسن ولا منافاة، والله أعلم.

وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة، فقد روى الإمام أحمد [١٦١٨٩] بلفظ قريب عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة، فقال: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالذَّخَانُ، وَالذَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَالذَّجَالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خُسُوفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخُسُوفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخُسُوفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَسُوقُ أَوْ تَحْشُرُ النَّاسَ، تَبَيَّتْ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا)، وهكذا رواه مسلم وأهل السنن.

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ ضُحًى، وَآيَتُهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَيْهَا فَلَا أُخْرَىٰ عَلَىٰ أَثَرِهَا).

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: الدَّجَالُ،

وَالدُّخَانَ، وَذَابَةَ الْأَرْضِ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَأَمَرَ الْعَامَّةَ وَخُويصَّةَ أَحَدِكُمْ).

﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَازًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَظْفِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة، وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله ﷻ ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا، تقيعاً وتوبيخاً وتحقيراً، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾؛ أي: من كل قوم وقرن فوجاً؛ أي: جماعة ﴿مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ كما قال تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْرَجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قال ابن عباس ؓ: يدفعون [الطبري ١٧/٢٠]. وقال قتادة: وَزَعَةٌ تَرْدُ أولهم على آخرهم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يساقون ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ [ابن أبي حاتم/ ١٦٦١٤]؛ أي: أوقفوا بين يدي الله ﷻ في مقام المساءلة ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَازًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم! فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٨٣﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]، فحينئذٍ قامت عليهم الحجة، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به، كما قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْفِقُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يُؤْنَسُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَظْفِقُونَ﴾؛ أي: بهتوا فلم يكن لهم جواب؛ لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية، ثم قال تعالى منها على قدرته التامة، وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذي لا محيد عنه، ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: فيه ظلام تسكن حركاتهم بسببه، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم.

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾؛ أي: منيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُّ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَفْنَىٰ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالْسَيِّئَةِ فَكُنْتِ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور، وهو كما جاء في الحديث: (قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ) [رواه الترمذي ٢٤٣٠] وحسنه وصححه الحاكم [٣٦٣١] ووافقه الذهبي، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع

ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء، فيفرع من في السموات ومن في الأرض ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وهم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون. روى مسلم [٢٩٤٠] عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (يَخْرُجُ الدَّجَالُ فِي أُمَّتِي فَيَمُكُّ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَعْتَبُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةٌ بَنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ. ثُمَّ يَمُكُّ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيْمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ، فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتِمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْتَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رَزَقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ. ثُمَّ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِنَا وَرَفَعَ لِنَا. وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ قَالَ: الظِّلُّ، فَتَنْتَبِثُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، وَفَقُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ، قَالَ: فَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ، وقوله: أصغى لينا ورفع لينا. الليت هو صفحة العنق؛ أي: أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدًا، فهذه نفخة الفرع، ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنثَى ذَخِيرٍ﴾؛ أي: صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢].

وقوله: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾؛ أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب؛ أي: تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ أَسْمَاءُ مَوْرًا﴾ ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠].

وقوله: ﴿صَنَّ اللَّهُ﴾؛ أي: يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ أي: أثنى كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾؛ أي: هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر، فيجازيهم عليه.

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ قال زين العابدين: هي لا إله إلا الله [رواه إسحاق بن راهويه في «مسنده» مرفوعاً/٥٤٢]، وقد بين تعالى في المكان الآخر أن له عشر أمثالها. ﴿وَهُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمٍ إِيمَانُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفِرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾؛ أي: من لقي الله مسيئًا لا حسنة له، أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه، ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ». وقال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو هريرة رضي الله عنه، وأنس بن مالك، وزيد بن أسلم، والزهري، والحسن [وغيرهم] في قوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾؛ يعني: بالشرك [ابن أبي حاتم/ ٨١٧١].

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١) ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَعَرَفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣).

يقول تعالى مخبراً رسوله وأمرأ له أن يقول: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا﴾، وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَلَدِ﴾ (٢) الَّتِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ [قريش: ٣، ٤]. وقوله: ﴿الَّتِي حَرَّمَهَا﴾؛ أي: الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدرًا بتحريمه لها، كما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [البخاري/ ٣٠١٧ ومسلم/ ١٣٥٣]. وقوله: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من باب عطف العام على الخاص؛ أي: هو رب هذه البلدة ورب كل شيء ومليكه ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له. وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾؛ أي: على الناس أبلغهم إياه؛ أي: أنا مبلغ ومنذر، ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾؛ أي: لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخلصوا من عهدتهم، وحساب أممهم على الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَالنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَعَرَفُونَهَا﴾؛ أي: الله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإعذار إليه، ولهذا قال: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَعَرَفُونَهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿سَرُّبِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بل هو شهيد على كل شيء.



## تفسير سورة القصص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّرَ ١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّبُ بَنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِي نَكَرَ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرَى فِرْعَوْنَ وَهَمْلَكَ وَنُؤَدَّهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة، وقوله: ﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذه ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾؛ أي: الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور، وعلم ما قد كان وما هو كائن. وقوله: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك حاضر. ثم قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: تكبر وطغى، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾؛ أي: أصنافاً قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته.

وقوله: ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾؛ يعني: بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أحسن الأعمال، ويكُدُّهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي يكون هلاكه وذهاب دولته على يديه، وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسون من قول إبراهيم الخليل ﷺ، حين ورد الديار المصرية، فبشر إبراهيم ﷺ ولده أنه سيولد من صلبه من يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل ولن ينفع حذر من قدر، ولكل أجل كتاب، ولهذا قال: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِي نَكَرَ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ - إلى قوله -: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ وقد فعل تعالى ذلك بهم. أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قَدَرِ الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري، بل نفذ حكمه وجرى قلمه بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفاً من الولدان، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك، وغذاؤه من طعامك وأنت تربيته وتدلله وتتفداه، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه،

لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ كَأَلْفَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْقَطْعَةُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَّنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتْ أَمْرَأْتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَئِكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٩﴾﴾

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل، خافت القبط أن يفني بني إسرائيل، فيُلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة، فقالوا لفرعون: إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم وغلمانهم لا يعيشون. ونسأؤهم لا يمكن أن يَمُنَّ بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك، فأمر بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، فولد هارون ؑ في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك، وقوابل يَدُرْنَ على النساء، فمن رأيتها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يَقْبَلُهَا إلا نساء القبط، فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلامًا دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا، قَبَّحَهُم الله تعالى، فلما حملت أم موسى به ؑ لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفتن لها الدايات ولكن لما وضعته ذكرًا ضاقت به ذرعًا، وخافت عليه خوفًا شديدًا وأحبته حبًّا زائدًا، وكان موسى ؑ لا يراه أحد إلا أحبه، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩]. فلما ضاقت به ذرعًا، ألهمت في سرها، وألقي في خلدها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ كَأَلْفَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتًا ومهدت فيه مهدًا، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر وربطته بحبل عندها، فلما كانت ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعت في ذلك التابوت وأرسلته في البحر، وذهلت عن أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجواري فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتن عليها في فتحه دونها، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلمها، ولهذا قال: ﴿فَالْقَطْعَةُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ قال محمد بن إسحاق وغيره: اللام هنا لام العاقبة، لا لام التعليل؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق، فإنه تبقى اللام للتعليل؛ لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوًّا لهم وحزنًا فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَّنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ وقد روي

عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق: وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحزن، قال الله تعالى: ﴿وَرَبِّيَ فِرْعَوْنُ وَهَمَنَنْ وَحُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] وقتلتم أنتم لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً وناصرًا، والله تعالى يقول: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

وقوله: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾؛ يعني: أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه، وتحببه إلى فرعون، فقالت: ﴿قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ فقال فرعون: أما لك فنعم، وأما لي فلا. فكان كذلك، وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه، وقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه. وقولها: ﴿أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا﴾؛ أي: أرادت أن تتبناه، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٧) وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَصِيبٌ (١٨) فَرَدَدْتُهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٩).

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً؛ أي: من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى، قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصري وغيرهم [الطبري ٢٠/٣٥]. ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾؛ أي: إن كادت من شدة حزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد، لولا أن الله ثبتها وصبرها، قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ؛ أي: أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعي ما يقال لها، فقالت لها: ﴿قُصِّيهِ﴾؛ أي: اتبعي أثره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد، فخرجت لذلك ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ قال ابن عباس: عن جانب [ابن أبي حاتم/١٦٧٢٥]. وقال مجاهد: عن بعد [ابن أبي حاتم/١٦٧٢٧].

وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده [ابن أبي حاتم/١٦٧٣١]، وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك واستطلقته منه، عرضوا عليه المراضع التي في دارهم فلم يقبل منها ثدياً، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك، فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها. قال الله تعالى: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: تحريماً قدرياً، وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه؛ ولأن الله تعالى جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه، وهي آمنة بعد ما كانت

خائفة، فلما رأتهم أخته حائرين فيمن يرضعه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُوتٌ﴾ قال ابن عباس: فلما قالت ذلك، أخذوها وشكّوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظُورَة الملك ورجاء منفعتهم، فأرسلوها، فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم، ذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى امرأة الملك، فاستدعت أم موسى وأحسنّت إليها، وأعطتها عطاءً جزيلاً، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه، فأبت عليها وقالت: إن لي بعلًا وأولادًا، ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والصلات والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى بولدها قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً، في عز وجه ورزق دارٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾؛ أي: به ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾؛ أي: عليه ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: فيما وعدها من رده إليها وجعله من المرسلين، فحينئذٍ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعًا وشرعًا.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: حكّم الله في أفعاله وعواقبها المحموده، التي هي المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس، وعاقبته محموده في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَانَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) .

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى ﷺ، ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى، آتاه الله حكماً وعِلْماً. قال مجاهد: ؛ يعني: النبوة [الطبري ٤٢/٢٠] ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدّر له من النبوة والتكليم: قضية قتله ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين، فقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ عن ابن عباس: وذلك بين المغرب والعشاء [ابن أبي حاتم/١٦٧٥٨]، وعن ابن عباس [أيضاً]: كان ذلك نصف النهار [الطبري ٤٤/٢٠]، وكذا قال سعيد بن جبيرة وعكرمة والسدي وقتادة. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾؛ أي: يتضاربان ويتنازعان ﴿هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾؛ أي: إسرائيلي ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾؛ أي: قبطي، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، فاستغاث الإسرائيلي بموسى ﷺ، فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس، فعمد إلى



القبطي ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ قال مجاهد: فوكزه؛ أي: طعنه بجُمُع كفه [ابن أبي حاتم/ ١٦٧٦٦]. ﴿فَفَضَّنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: كان فيها حتفه فمات ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾؛ أي: بما جعلت لي من الجاه والمنعة ﴿فَلَنْ أَكُونُ ظَاهِرًا﴾؛ أي: معينا ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: الكافرين بك، المخالفين لأمرك.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَصْرَهٗ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِهُ﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيُّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن موسى ﷺ لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾؛ أي: من معرة ما فعل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾؛ أي: يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر فمر في بعض الطرق، فإذا ذلك الذي استصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر، فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر، فقال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَعَوِيُّ مُبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر الغواية كثير الشر، ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوره أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك، فقال يدفع عن نفسه: ﴿يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى ﷺ، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فألقاها عنده، فعلم فرعون بذلك، فاشتد حنقه، وعزم على قتل موسى، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى إِنَّكَ أَلَمَّا يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِتَقْتُلُوهُ فَأَخْرَجَ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّصِيحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ .

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ فسبق إلى موسى، فقال له: ﴿إِنَّكَ أَلَمَّا يَأْتِمُرُونَ بِكَ﴾؛ أي: يتشاورون فيك ﴿لِتَقْتُلُوهُ فَأَخْرَجَ﴾؛ أي: من البلد ﴿إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّصِيحِينَ﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَى حَتَّى يُصْدِرَ الزَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ .

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره، خرج من مصر وحده، ولم

يألف ذلك، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة، ﴿فَرَجَّ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾؛ أي: يتلفت ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: من فرعون وملئه. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾؛ أي: أخذ طريقًا سالكا، فرح بذلك ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أي: الطريق الأقوم، ففعل الله به ذلك. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾؛ أي: ولما وصل إلى مدين وورد ماءها، وكان لها بئر ترده رعاء الشاء ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ﴾؛ أي: جماعة ﴿يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾؛ أي: تكفكان غنمها أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لثلا يؤذيا، فلما رآهما موسى ﷺ رق لهما، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا؟﴾؛ أي: ما خبركما لا تردان مع هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يَصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾؛ أي: لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى، قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ روى أبو بكر بن أبي شيبة [٣١٨٤٢] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن موسى ﷺ لما ورد ماء مدين، وجد عليه أمة من الناس يسقون قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ فحدثته، فأنى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا حتى رويت الغنم، وإسناده صحيح.

**وقوله تعالى:** ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا، وقوله: ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ قال ابن عباس، وابن مسعود، والسدي: جلس تحت شجرة [الطبري ٥٨/٢٠].

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ آتِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَتَّبِعُ اسْتَجْرَهُ إِنَّكِ خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَجْدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

لما رجعت المرأتان سريعًا بالغنم إلى أبيهما، أنكر مجيئهما سريعًا، فسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى ﷺ، فبعث إحدهما إليه، قال الله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾؛ أي: مشي الحرائر، وروى ابن أبي حاتم [١٨٣٢٢] عن عمر رضي الله عنه أنه قال: جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع خراجة ولاجة، وإسناده صحيح. قال الجوهرى: السلفع من الرجال الجسور، ومن النساء الجريئة السليطة، ومن النوق الشديدة. ﴿قَالَتْ إِنَّكِ آتِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلبًا مطلقًا لثلا يوهم ريبة، بل قالت: ﴿إِنَّكِ آتِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾؛ يعني: ليشبك ويكافئك على سقيك لغنمنا. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾؛

أي: ذكر له ما كان من أمره، ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يقول: طب نفساً، فقد خرجت من مملكتهم، فلا حُكم لهم في بلادنا، ولهذا قال: ﴿نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو؟ على أقوال؛ أحدها: أنه شعيب النبي ﷺ الذي أرسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد. وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب. وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب. وقال آخرون. كان شعيب قبل زمان موسى ﷺ بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٌ بِكُمْ يَبْعِدُ﴾ [هود: ٨٩]، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل ﷺ بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى ﷺ مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة، كما ذكره غير واحد، وما قيل إن شعيباً عاش مدة طويلة، إنما هو - والله أعلم - احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾؛ أي: قالت إحدى ابنتي هذا الرجل لأبيها: ﴿يَتَأَبَتِ اسْتَجِرَّةُ﴾؛ أي: لرعية الغنم. قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وغير واحد: لما قالت: ﴿إِنِّي خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجِرَّتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلفت علي الطريق فاحذني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه [الطبري ٦٤/٢٠].

قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَاتَيْنِ﴾؛ أي: طلب إليه هذا الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين.

وقوله: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجِرَنِي ثَمَنِي حِجَّةً فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾؛ أي: على أن ترعى غنمي ثمانين سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي الثمان كفاية ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عَلَيْكَ سَكِينَةً إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ أي: لا أشاقك ولا أؤذيك ولا أماريك.

وقوله تعالى إخباراً عن موسى ﷺ: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين، فإن أتممت عشراً فمن عندي فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط، ولهذا قال: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ﴾؛ أي: فلا حرج علي.

روى البخاري [٢٥٣٨] عن سعيد بن جبير قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة؛ أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت على ابن عباس فسألته، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ ءَاسَىٰ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْوِسَّ ۖ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَّ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْجُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَلِكَ بُرْهَانُكَ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ .

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أن موسى ﷺ قضى أتم الأجلين وأوفاهما، وقد يستفاد هذا أيضًا من الآية الكريمة من قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾؛ أي: الأكمل منهما، والله أعلم. وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلاً، فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئاً، فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك إذ ﴿ءَاسَىٰ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾؛ أي: رأى ناراً تضيء له على بعد ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾؛ أي: حتى أذهب إليها ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾؛ أي: قطعة منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾؛ أي: تندفثون بها من البرد، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾؛ أي: من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرم في شجر خضراء في لحف الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتاً في أمرها، فناداه ربه ﴿مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿أَن يَمْوِسَّ ۖ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: الذي يكلمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء لا إله غيره، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه.

وقوله: ﴿وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ﴾؛ أي: التي في يدك كما قرره على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوِسَّ﴾ ﴿٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَىٰ غَنِيٍّ وَلِيَّ فِيهَا مَثَرُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٧، ١٨]، والمعنى أما هذه عصاك التي تعرفها ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَبَّةٌ سَعِيٌّ﴾ [طه: ٢٠] فعرف وتحقق أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء: كن فيكون، وقال هاهنا: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾؛ أي: تضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾؛ أي: في حركتها السريعة مع عظم خلقتها، واتساع فمها، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعها، فتتحدر في فيها، فعند ذلك ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ أي: ولم يكن يلتفت؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك، فلما قال الله له: ﴿يَمْوِسَّ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ

مِنَ الْأَمِينِ ﴿٣٣﴾ رجع فوقف في مقامه الأول، ثم قال الله تعالى له: ﴿أَسَلُّكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ﴾؛ أي: إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها، فإنها تخرج تتلألاً كأنها قطعة قمر، ولهذا قال: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾؛ أي: من غير برص.

وقوله: ﴿وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قال مجاهد: من الفزع، وقال قتادة: من الرعب [الطبري ٧٣/٢٠]، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير [٧٣/٢٠]: مما حصل لك من خوفك من الحية، والظاهر أن المراد أعم من هذا، وهو أنه أمره ﷺ إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهي يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يديه على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده أن يَخَفَ إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وقوله: ﴿فَذَنْبُكَ بُرْهَنَانِ مِنَ رَبِّكَ﴾؛ يعني: إلقاء العصا وجعلها حية تسعى وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، دليلان قاطعان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، ولهذا قال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾؛ أي: وقومه من الرؤساء والأتباع ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾؛ أي: خارجين عن طاعة الله، مخالفين لدينه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنْشِئُ عُصْدَكَ بِأَخِيكَ وَجَنَعُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّنَّا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون، الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾؛ يعني: ذلك القبطي ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾؛ أي: إذا رأوني ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وذلك أن موسى ﷺ كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة حين خيّر بينها وبين التمرة أو الدرّة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، فحصل فيه شدة في التعبير، ولهذا قال: ﴿وَأَحْلَلْتُ عُقْدَةً مِن لِسَانِي﴾ (٣٤) يَقْفَهُوا قَوْلِي (٣٨) وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونُ أَخِي (٢٠) أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى (٢١) وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي [طه: ٢٧ - ٣٢]؛ أي: يؤنسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم، وهو القيام بأعباء الرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد، ولهذا قال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾؛ أي: وزيراً ومقوياً لأمرى، يصدقني فيما أخبر به عن الله ﷻ؛ لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد، ولهذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

وقال محمد بن إسحاق ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾؛ أي: يبين لهم عني ما أكلمهم به، فإنه يفهم عني ما لا يفهمون، فلما سأل ذلك موسى قال الله تعالى: ﴿سَنُنْشِئُ عُصْدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [ابن أبي حاتم/ ١٦٩٠٧]؛ أي: سنقوي أملك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبياً معك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]، ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على

هارون عليه السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله رسولاً معه إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى في حق موسى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِبَاءً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلْ لَكُمْ سُلْطَانًا﴾؛ أي: حجة قاهرة ﴿فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله، ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، ووجه ابن جرير على أن المعنى: ونجعل لكم سلطاناً فلا يصلون إليكم، ثم يتبدئ فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا الْغَالِبِينَ﴾ تقديره أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا، ولا شك أن هذا المعنى صحيح، وهو حاصل من التوجيه الأول.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧).

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة، والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله تعالى من توحيده واتباع أوامره، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك، وأيقنوا أنه من عند الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهة، فقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾؛ أي: مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾؛ يعنون: عبادة الله وحده لا شريك له، يقولون: ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى، فقال موسى عليه السلام مجيباً لهم: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾؛ يعني: مني ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾؛ أي: النصر والتأييد تعالى، لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ؛ أي: المشركون بالله.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْتَمُنَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً كَذَبُوا إِلَى النَّكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُصْرُونَ (٤١) وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢).

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافتراءه في دعواه الإلهية لنفسه القبيحة لعنه الله، كما

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالالهية، فأجابوه إلى ذلك بقله عقولهم، ولهذا قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾.

وقوله: ﴿فَأَوْفِدَ لِي يَهْمَنُّ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى﴾؛ أي: أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين، ليتخذ له آجرًا لبناء الصرح، وهو القصر المنيف الرفيع العالي، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ آتِنِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ وكذلك زين لفرعون سوء عمله، وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب ﴿[غافر: ٣٦، ٣٧]، وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ أي: في قوله: إن ثم ربًا غيري، لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع، فإنه قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

وقوله: ﴿وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنِئِنَّا لَا يُرْجَعُونَ﴾؛ أي: طغوا وتجبروا، وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (١٢) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلْمُرْصِدِ﴾ [الفجر: ١٣، ١٤]، ولهذا قال ها هنا: ﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُنُودُهُ فَنَبَذَتْهُمْ فِي الْبَرِّ﴾؛ أي: أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤) ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ﴾؛ أي: لمن أخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ أي: فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولًا بذل الآخرة.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾؛ أي: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على السنة المؤمنين، كما أنهم في الدنيا ملعونون على السنة الأنبياء وأتباعهم كذلك ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ قال قتادة [كما روى الطبري ٧٩/٢٠]: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ السَّيِّئُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٣).

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾؛ يعني: أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤَفَّفَاتُ بِالنَّاحِيَةِ﴾ (١) ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩، ١٠]، وروى ابن جرير [٨٠/٢٠] عن أبي سعيد الخدري قال: ما أهلك الله قومًا بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض، غير

أهل القرية الذين مسحوا قردة بعد موسى، ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾، وقوله: ﴿بَصَايِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ أي: من العمى والغي، وهدى إلى الحق ورحمة؛ أي: إرشادًا إلى العمل الصالح ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (٤٥) ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧).

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كان سامعه شاهد لما تقدم، وهو رجل أُمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]؛ أي: وما كنت حاضراً لذلك، ولكن الله أوحاه إليك، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه، وقال هاهنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إحياء الله إليه وتكليمه له ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾؛ يعني: ما كنت بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لذلك ولكن الله ﷻ أوحى إليك ذلك، ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حُجَجَ الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين

وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾؛ أي: وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾؛ أي: ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك للناس رسولاً.

وقال قتادة: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾: موسى. وقوله: ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به، رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله ﷻ. ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾؛ أي: وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة، وليقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير.



﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كِفْرٍ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُتَّبَعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول: أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ، قالوا على وجه التعنت والعناد: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾؛ يعنون: - والله أعلم - من الآيات مثل العصا واليد، وتنقص الزروع والثمار، مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، التي أجراها الله تعالى على يدي موسى ﷺ، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا لهما: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفَنَّا عَمَّا وَصَدَّكَ عَلَيْهِ آبَاءُنَا وَنَكُونَ لَكُمُ الْكِبَرِيَّةَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]، وقال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾؛ أي: تعاوننا ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كِفْرٍ﴾؛ أي: بكل منهما كافرون. قال مجاهد [الطبري: ٨٥/٢٠]: أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك، فقال الله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ قال: يعني موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم ﴿تَظَاهَرَا﴾؛ أي: تعاوننا وتناصرنا وصدق كل منهما الآخر؟ وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين، وعن ابن عباس ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ قال: يعنون موسى ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم، وهذا رواية عن الحسن البصري [ابن أبي حاتم/١٦٩٥٥].

وأما من قرأ: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ فقال ابن عباس: يعنون التوراة والقرآن، وكذا قال عاصم الجندي والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. قال السدي: يعني: صدق كل واحد منهما الآخر. وقال عكرمة: يعنون التوراة والإنجيل، واختاره ابن جرير [٨٤/٢٠]. وقال الضحاك وقتادة: الإنجيل والقرآن، والله ﷻ أعلم بالصواب، والظاهر على قراءة ﴿سِحْرَانِ﴾ أنهم يعنون التوراة والقرآن؛ لأنه قال بعده: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَبَعُهُ﴾ وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩١، ٩٢]، وقال ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى. [أخرجه البخاري/٣]، وقد علم بالضرورة لدوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى، وهو التوراة التي قال الله فيها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ

شُهُدَاءٌ ﴿[المائدة: ٤٤]، والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة، ومُجَلًّا لبعض ما حُرِّمَ على بني إسرائيل، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾؛ أي: فإن لم يجيبوك عما قلت لهم، ولم يتبعوا الحق ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُنْعَمُونَ أَهْوَاءُ هُمْ﴾؛ أي: بلا دليل ولا حجة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدَىٰ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي: بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ قال مجاهد: فصلنا لهم القول. وقال السدي: بينا لهم القول [الطبري ٨٧/٢٠]، وقال قتادة: يقول تعالى: أخبرهم كيف صنع بمن مضى، وكيف هو صانع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. قال مجاهد وغيره ﴿وَصَّلْنَا لَهُمْ﴾؛ يعني: قريشاً [الطبري ٨٨/٢٠]، وهذا هو الظاهر.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا يُنَالُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيِّئَةُ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا سَكِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُنَّ أَعْمَلُنَا سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَهِيلِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن العلماء الألباء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]. قال سعيد بن جبير: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم: ﴿يَسْ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢] حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا يُنَالُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾؛ يعني: من قبل هذا القرآن كنا مسلمين؛ أي: موحدين مخلصين لله مستجيبين له. قال الله: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾؛ أي: هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني، يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم بالثاني ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾؛ أي: على اتباع الحق، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس، وقد ورد في «الصحيح» من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ آمَنَ بِي، وَعَبْدٌ مَّمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوْلَاهُ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَّةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَرَوَّجَهَا) [البخاري/ ٢٨٤٩ ومسلم/ ١٥٤ كلاهما بنحوه].

وقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيِّئَةُ﴾؛ أي: لا يقابلون السيئ بمثلها، ولكن يعفون ويصفحون ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ أي: ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات. وقوله: ﴿وَإِذَا سَكِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾؛ أي: لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم، بل كما

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. ﴿وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِينَ﴾؛ أي: إذا سفه عليهم سفیه وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب، ولهذا قال عنهم إنهم قالوا: ﴿لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِينَ﴾؛ أي: لا نريد طريق الجاهلين ولا نجبها.

قال محمد بن إسحاق في «السيرة» [فيما رواه عنه ابن هشام ٢/٢٣٧]: وقد سألت الزهري عن هذه الآيات فيمن أنزلن؟ قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه عليهم السلام والآيات اللاتي في سورة المائدة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَّيْسِيَتْ وَزُهْرَانَا﴾ - إلى قوله: - ﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّبَّيْجَ الْهَدَىٰ مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَيِّئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ إِنَّكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾؛ أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وهذه الآية أخص من هذا كله، فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، وقد ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٣٦٧١ ومسلم/٢٥] أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حباً طبعياً لا شريعياً، فلما حضرته الوفاة وحان أجله، دعاه رسول الله ﷺ إلى الدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، والله الحكمة التامة.

وقوله: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبَّيْجَ الْهَدَىٰ مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِن نَّبَّيْجَ الْهَدَىٰ مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾؛ أي: نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا، قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿أَوْلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾؛ يعني: هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل؛ لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحرَمَ معظم آمن منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابَعُوا الحق؟ وقوله: ﴿يُجَيِّئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾؛ أي: من عندنا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكُوتُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥٨) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْبُلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩).

يقول تعالى مُعَرِّضًا بأهل مكة في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾؛ أي: طغت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، ولهذا قال تعالى: ﴿فَبَلَكَ مَسْكُوتُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم. وقوله: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾؛ أي: رجعت خرابًا ليس فيها أحد.

ثم قال تعالى مخبرًا عن عدله وأنه إنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ وهي مكة ﴿رَسُولًا يَنْبُلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي وهو محمد ﷺ المبعوث من أم القرى، رسول إلى جميع القرى من عرب وعجم، كما قال تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْنُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى؛ لأنه رسول إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها، وثبت في «الصحيحين» عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: (بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ) [مسلم/٥٢١] ولهذا ختم به النبوة والرسالة، فلا نبي من بعده ولا رسول، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة، وقيل: المراد بقوله: ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا﴾؛ أي: أصلها وعظمتها.

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٠) ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٦١).

يقول تعالى مخبرًا عن حقارة الدنيا، وما فيها من الزينة الدنيئة، والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال رسول الله ﷺ: (وَاللَّهُ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ، إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ) [رواه مسلم/٢٨٥٨].

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة. وقوله: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ يقول: أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعدته ووعدته، فهو ممتع في الحياة الدنيا أيامًا قلائل ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ قال مجاهد، وقتادة: من المعذنين [الطبري ٩٧/٢٠].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ أَذْعَوْا شُرَكَاءَكُمْ فَذَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّيْنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُغْلِقِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد، هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقرير والتهديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَبُّكُمْ مَا خَوْلَتْكُمْ وَلَا ظُهُورُكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾؛ يعني: الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووههم فاتبعوهم ثم تبرءوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْذَرُوا مِنْ دُوبِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا هُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ أَذْعَوْا شُرَكَاءَكُمْ﴾؛ أي: ليخلصوكم مما أنتم فيه، كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾؛ أي: وتيقنوا أنهم صاترون إلى النار لا محالة.

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم، وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك، ومن نبيك، وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري [كما روى أبو داود بمعناه/٤٧٥٣]، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت؛ لأن من كان في هذه أعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾. قال مجاهد: فعميت عليهم الحجج، فهم لا يتساءلون بالأنساب.

وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾؛ أي: في الدنيا ﴿فَغَسَّيْنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُغْلِقِينَ﴾؛ أي: يوم القيامة وعسى من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنه لا محالة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْاَحْمَدُ فِي الْاَوَّلَى وَالْاٰخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب، فقال:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾؛ أي: ما يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خیرها وشرها بيده، ومرجعها إليه.

وقوله: ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخِيَرَةُ﴾ نفى على أصح القولين، وقد اختار ابن جرير [١٠٠/٢٠] وما بعدها أن ﴿مَا﴾ هاهنا بمعنى «الذي» تقديره: ويختار الذي لهم فيه خيرة، وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح. والصحيح أنها نافية، كما نقله ابن أبي حاتم [١٧٠٥٣] عن ابن عباس وغيره أيضًا. فإن المقام في بيان انفراد تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئًا.

ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: يعلم ما تكن الضمائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر. وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: هو المنفرد بالإلهية، فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾؛ أي: في جميع ما يفعله هو المحمود عليه، لعدله وحكمته ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾؛ أي: الذي لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿وَالِإِيَّاهُ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: جميعكم يوم القيامة، فيجزى كل عامل بعمله من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تَصْبِرُونَ﴾ (٧٢) ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣).

يقول تعالى ممتًا على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار، اللذين لا قوام لهم بدونهما، وبين أنه لو جعل الليل دائمًا عليهم سمرمدًا إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولسئمت النفوس، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾؛ أي: تبصرون به وتستأنسون بسببه ﴿أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾. ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سمرمدًا؛ أي: دائمًا مستمرًا إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال، ولهذا قال: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾؛ أي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أَمْ لَا تَصْبِرُونَ﴾ (٧٢) ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾؛ أي: خلق هذا وهذا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾؛ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: في النهار بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَرَّ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، والآيات في هذا كثيرة.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

وهذا أيضًا نداء ثانٍ على سبيل التوبيخ والتفريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب تعالى على رؤوس الأشهاد فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ أي: في دار الدنيا. ﴿وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قال مجاهد: يعني: رسولاً [الطبري ١٠٤/٢٠]. ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾؛ أي: على صحة ما ادعيتموه من أن الله شركاء، ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾؛ أي: لا إله إلا غيره، فلم ينطقوا ولم يحيروا جواباً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم.

﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ بَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَايَيْنَاهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنْ مَفَاحَهُ لَنُؤَا بِالْعَصْبَةِ أُولَىٰ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ قال: كان ابن عمه [ابن أبي حاتم/ ١٧٧٠٤]، وهكذا قال إبراهيم النخعي وقتادة، وابن جريج وغيرهم، وقال قتادة بن دعامة: كنا نُحَدِّثُ أَنَّهُ كَانَ ابْنُ عَمِّ مُوسَىٰ، وَكَانَ يُسَمَّى الْمُنُورَ لِحَسَنِ صَوْتِهِ بِالتَّوْرَةِ، وَلَكِنْ عَدُو اللَّهِ نَافِقٌ كَمَا نَافِقُ السَّامِرِيِّ، فَأَهْلَكَهُ الْبَغْيُ لكَثْرَةِ مَالِهِ.

وقوله: ﴿وَأَيَّيْنَاهُ مِنَ الْكُفْرِ﴾؛ أي: من الأموال ﴿مَا إِنْ مَفَاحَهُ لَنُؤَا بِالْعَصْبَةِ أُولَىٰ الْقُوَّةِ﴾؛ أي: لِيُثْقِلَ حَمْلُهَا الْفِتَامَ مِنَ النَّاسِ لكَثَرَتِهَا. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾؛ أي: وعظه صالح قومه، فقالوا على سبيل النصيح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني: المرحين. وقال مجاهد: يعني: الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم [انظر هذه الأقوال عند الطبري ١١١/٢٠].

وقوله: ﴿وَابْتَغَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات، التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: مما أباح الله فيها من المأكَل والمشارب والملابس والمساكن والمنالك. ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: أحسن إلى خلقه، كما أحسن هو إليك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض، وتسيء إلى خلق الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن قُرُونٍ مِّنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٧٨).

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين أرشده إلى الخير، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾؛ أي: أنا لا أفتر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأنني أستحقه، ولمحبته لي، فتقديره إنما أُعْطِيَتْهُ لعلم الله فيّ أنني أهل له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتُهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩]؛ أي: على علم من الله بي. قال الله تعالى راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن قُرُونٍ مِّنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾؛ أي: قد كان من هو أكثر منه مالاً، وما كان ذلك عن محبة منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: لكثرة ذنوبهم. قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ على خير عندي، وقال السدي: على علم أنني أهل لذلك [ابن أبي حاتم/ ١٧١٢٥].

وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فإنه قال في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قال: لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، وقرأ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن قُرُونٍ مِّنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه يقول: لولا أنه يستحق ذلك لما أعطي [ابن أبي حاتم/ ١٧١٢٤].

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّغْنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَهَا إِلَّا الْآصِفِيُّونَ﴾ (٨٠).

يقول تعالى مخبراً عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمل باهر، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي قالوا: ﴿بَلِّغْنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ أي: ذو حظ وافر من الدنيا، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم: ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾؛ أي: جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون. وقوله: ﴿وَلَا يُلْقَهَا إِلَّا الْآصِفِيُّونَ﴾ قال السدي: وما يلقي الجنة إلا الصابرون، كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم. قال ابن جرير: وما يلقي هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة وكأنه جعله من كلام الله ﷻ وإخباره بذلك.



﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ﴾ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكُنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكُنَّ اللَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٢).

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في «صحيح البخاري» [٥٤٥٣] أن رسول الله ﷺ قال: (بَيْنَا رَجُلٌ يَجْرُ إِزَارُهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ﴾؛ أي: ما أغنى عنه ماله ولا خدمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله به، ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾؛ أي: الذين لما رأوه في زينته قالوا: ﴿يَكُنَّ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩] أصبحوا يقولون: ﴿وَيَكُنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع، ويخفف ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة.

﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾؛ أي: لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا، كما خسف به؛ لأننا وددنا أن نكون مثله. ﴿وَيَكُنَّ اللَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾؛ يعنون: أنه كان كافراً، ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، وقد اختلف النحاة في معنى قوله: ﴿وَيَكُنَّ﴾، فقال بعضهم: معناه «ويلك اعلم أن»، ولكن خفت فقليل: «ويك» ودل فتح «أن» على حذف «اعلم»، وهذا القول ضعفه ابن جرير، والظاهر أنه قوي، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة، والكتابة أمر اصطلاحى، والمرجع إلى اللفظ العربي، والله أعلم، وقيل معناها: ألم تر أن، قاله قتادة. وقيل معناها: «وي» للتعجب أو للتنبيه، «وكأن» بمعنى أظن. قال ابن جرير [١٢١/٢٠]: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة: إنها بمعنى ألم تر أن.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤).

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض؛ أي: ترفعاً على خلق الله وتعاضماً عليهم ولا فساداً فيهم، كما قال عكرمة: العلو: التجبر، وقال سعيد بن جبير: العلو: البغي. وقال ابن جريج: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ تعظماً وتجبراً ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ عملاً بالمعاصي [الطبري ١٢١/٢٠].

وقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾؛ أي: ثواب الله خير من حسنة العبد، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة، فهذا مقام الفضل، ثم قال: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠] وهذا مقام العدل.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنِّي رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ عَابِتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨).

يقول تعالى أمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾؛ أي: افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ أي: إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وعن ابن عباس: لرادك إلى الجنة، ثم سائلك عن القرآن، وقال أبو سعيد مثلها، وعن ابن عباس [أيضاً] قال: إلى يوم القيامة [الطبري ١٢٤/٢٠]، ورواه مالك عن الزهري، وعن ابن عباس [أيضاً]: إلى الموت، وروى البخاري [٤٤٩٥] عن ابن عباس قال: إلى مكة.

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارةً برجوعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ، وفسر ابن عباس تارةً أخرى بالموت، وتارةً بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارةً بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين: الإنس والجن.

وقوله: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم: ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾؛ أي: ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنِّي رَبِّكَ﴾؛ أي: إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾؛ أي: معيناً ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ ولكن فارقههم وخالفهم ﴿وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ عَابِتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾؛ أي: لا تتأثر لمخالفتهم لك وصددهم الناس عن طريقك، فإن الله مؤيد دينك ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان، ولهذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا تليق العبادة إلا له، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته. وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَسَبَقَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وهكذا قوله هاهنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾؛ أي: إلا إياه، وقد ثبت في «الصحيح» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ) [البخاري/٣٦٢٨ ومسلم/٢٢٥٦].

وقال مجاهد، والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾؛ أي: إلا ما أريد به وجهه، وحكاه البخاري في «صحيحه» [تعليقاً ١٧٨٨/٤] كالمقرر له.

وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية إلا ذاته تعالى، فإنه الأول والآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء. وقوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾؛ أي: الملك والتصرف، ولا معقب لحكمه ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: يوم معادكم، فيجزىكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.



## تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ استفهام إنكار، ومعناه أن الله ﷻ لا بد أن يتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: (أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ، يُتْلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي الْبَلَاءِ) [رواه الترمذي/٢٣٩٨ بنحوه]، وهذه الآية كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾؛ أي: الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه، والله ﷻ يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مجمع عليه عند أئمة السُّنَّة والجماعة، وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله: ﴿إِلَّا لَنَعْلَمَنَّ﴾ [البقرة: ١٤٣] إلا لنرى وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم، ولهذا قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا﴾؛ أي: يفوتونا ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: بشس ما يظنون.

﴿٥﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾؛ أي: في الدار الآخرة، وعمل الصالحات ورجا ما

عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملاً موفراً، فإن ذلك كائن لا محالة؛ لأنه سميع الدعاء، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦]؛ أي: فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله تعالى غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يوماً من الدهر سيف، ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم، ومع بره وإحسانه بهم، يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أن يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال ههنا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ (٩).

يقول تعالى أمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق، ومع هذه الوصية بالإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾؛ أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فأياك وإياهما، فلا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إلي يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب؛ أي: حباً دينياً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾.

روى الترمذي [٣١٨٩] عند تفسير هذه الآية عن سعد [بن أبي وقاص] قال: نزلت في أربع آيات، فذكر قصة، وقال: قالت أم سعد: أليس الله قد أمرك بالبر؟ والله لا أطمع طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهاً، فأنزل الله ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية، وهذا الحديث رواه مسلم أيضاً [١٧٤٨].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بالسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾. قال ابن عباس؛ يعني: فتنته أن يرتد عن دينه إذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ [الطبري ١٣٢/٢٠]. وكذا قال غيره من علماء السلف، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]. ثم قال: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾؛ أي: ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد، وفتح ومغانم، ليقول هؤلاء لكم: إنا كنا معكم؛ أي: كنا إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ يُكْرِمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ فَكُلُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ تَسْتَحِذُوا عَلَيْنَا وَتَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: أو ليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم، وإن أظهرها لكم الموافقة.

وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾؛ أي: وليختبرن الله الناس بالضرء والسرء، ليميز هؤلاء من هؤلاء، من يطيع الله في الضراء والسرء، ومن يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِّنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْرَوْنَ ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا، ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ﴾؛ أي: آثامكم - إن كانت لكم آثام في ذلك - علينا وفي رقابنا، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في رقبتي، قال الله تكذيباً لهم: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِّنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ أي: فيما قالوه إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، ﴿وَلَيْنَدْعُ مَثْقَلَةً إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم

يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم، وأوزاراً آخر بسبب من أضلوا من الناس، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، وفي «صحيح [مسلم/٢٦٧٤]»: (مَنْ دَعَا إِلَى هَذِي كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً).

وقوله: ﴿وَلَيْسَتَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْرُوتُونَ﴾؛ أي: يكذبون ويختلقون من البهتان.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾.

هذه تسليية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ، يخبره عن نوح ﷺ أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق وإعراضاً عنه وتكديباً له، وما آمن معه منهم إلا قليل، ولهذا قال: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ أي: بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوك ويكبتهم، ويجعلهم أسفل السافلين.

قال ابن عباس: بعث نوح وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا [رواه الحاكم مرفوعاً/٤٠٠٥].

وقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ﴾؛ أي: الذين آمنوا بنوح ﷺ، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً في سورة هود. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: وجعلنا تلك السفينة باقية إما عينها، كما قال قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق، كيف أنجاهم من الطوفان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُو فِي الْخَارِجَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعْيِبًا أَدْنَ وَعَيْةً﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]، وقال ها هنا: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ وهذا من باب التدرج من الشخص إلى الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]؛ أي: وجعلنا نوعها رجوماً، فإن التي يرمى بها ليست هي زينة للسماء، ولهذا نفاظر كثيرة، وقال ابن جرير: لو قيل إن الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ عائد إلى العقوبة لكان وجهها، والله أعلم.

﴿وَإِذْ هَمَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمُورٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَغِ أَلْمِيقُ ۖ﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم، لا مُسدي لها غيره، فقال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة. ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتوها آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم. هكذا روي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والسدي، وروي عن ابن عباس: وتخلقون إفكاً؛ أي: تنحتونها أصناماً، وبه قال مجاهد في رواية، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغيرهم، واختاره ابن جرير رحمته الله [١٣٧/٢٠]، وهي لا تملك لكم رزقاً ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ولهذا قال: ﴿فَابْتَغُوا﴾؛ أي: فاطلبوا ﴿عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾؛ أي: لا عند غيره، فإن غيره لا يملك شيئاً، ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾؛ أي: كلوا من رزقه واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله.

وقوله: ﴿وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمُورٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَغِ أَلْمِيقُ﴾؛ يعني: إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرصوا أن تكونوا من السعداء.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَابَتِ إِلَهُهُ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه يسير لديه. ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السموات وما



فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُدْئِي اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ثم قال تعالى: ﴿فَلْيَسْبِرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر مهما فعل فعدل؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، ﴿وَالِلَّهِ تُقْلُبُونَ﴾؛ أي: ترجعون يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: لا يعجزه أحد من أهل سمواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، وكل شيء فقير إليه، وهو الغني عما سواه. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ؛ أي: جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿أُولَئِكَ يَسْأَلُونَ مِنْ رَحْمَتِي﴾؛ أي: لا نصيب لهم فيها ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: موجه في الدنيا والآخرة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٥).

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم، ودفعهم الحق بالباطل: أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان، وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال قوة ملكهم، وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، وحَوَّطُوا حولها، ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء، ولم توقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق، ثم قذفوه فيها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً، فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وسخا بولده للقربان، وجعل ماله للضيفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان.

وقوله: ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ﴾؛ أي: سلمه منها، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول لقومه مقررًا لهم وموبخًا على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا، صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا. وهذا على قراءة من نصب مودة بينكم على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع؛ فمعناه: إنما

اتخاذكم هذا يُحْصِلْ لكم المودة في الدنيا فقط ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ينعكس هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضًا وشنآنًا، ف ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: تتجاهدون ما كان بينكم ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال: ﴿وَمَا أَوْنَكُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾؛ أي: ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار وما لكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله، وهذا حال الكافرين، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك.

﴿فَأَمَّا لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٢٧﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم أنه آمن له لوط، يقال: إنه ابن أخي إبراهيم، يقولون هو: لوط بن هاران بن آزر؛ يعني: ولم يؤمن به من قومه سواء، وسارة امرأة إبراهيم الخليل، لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد في الصحيح أن إبراهيم حين مر على ذلك الجبار فسأل إبراهيم عن سارة ما هي منه، فقال: أختي، ثم جاء إليها فقال لها: إني قد قلت له إنك أختي فلا تكذبيني، فإنه ليس على وجه الأرض أحد مؤمن غيري وغيرك، فأنت أختي في الدين. وكأن المراد من هذا - والله أعلم - أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك، فإن لوطًا ؑ آمن به من قومه، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي.

وقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ يحتمل عود الضمير في قوله: ﴿وَقَالَ﴾ على لوط؛ لأنه هو أقرب المذكورين، ويحتمل عوده إلى إبراهيم، قال ابن عباس والضحاك، وهو المكنى عنه بقوله: ﴿فَأَمَّا لَهُ لُوطٌ﴾؛ أي: من قومه. ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: له العزة ولسوله وللمؤمنين به، الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدريّة والشرعية.

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾؛ أي: أنه لما فارق قومه، أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي، وولد له ولد صالح في حياة جده، ولذلك قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]؛ أي: زيادة، كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]؛ أي: يولد لهذا الولد ولد في حياتكما، تقرر به أعينكما.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ هذه خلعة سنية عظيمة، مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله للناس إمامًا، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم ؑ إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملئهم مبشرًا بسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم

العرب العرباء من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه. وقوله: ﴿وَعَايَنْتُهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلِئِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ أي: جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني، والمنزل الرّحّب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والشّناء الجميل، فكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة وغيرهم [الطبري ١٤٤/٢٠]، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]؛ أي: قام بجميع ما أمر به وكمل طاعة ربه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَايَنْتُهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلِئِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨) ﴿أَيْنَكُمْ لَأَنْتَوْنَ الرِّجَالُ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتَوْنَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرُ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٩) قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٣٠).

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام، أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسله، ويقطعون السبيل؛ أي: يقفون في طرق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ﴿وَتَأْتَوْنَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرُ﴾؛ أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ، قاله مجاهد، ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون، قالته عائشة رضي الله عنها والقاسم [الطبراني في «الكبير» ٢١٥٤/١]، ومن قائل: كانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك يصدر عنهم وكانوا شراً من ذلك.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣١) قَالَ إِنِّي فِيهَا لَوَطٌّ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَهُمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٣٥).

لما استنصر لوط عليه السلام بالله تعالى عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم عليه السلام في

هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رآهم لا همة لهم إلى الطعام، نكّهم وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة، وكانت حاضرة، فتعجبت من ذلك كما تقدم بيانه في سورة هود والحجر، فلما أخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع لعلهم ينظرون لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣٦) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ؛ أَي: من الهالكين؛ لأنها كانت تماثلهم على كفرهم وبغيهم، ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان، فلما رآهم كذلك ﴿سَمِعَ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذَرًّا﴾؛ أَي: اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه وإن لم يضيفهم خشي عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ (٣٧) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجُلًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك، وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾؛ أَي: واضحة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُفِّرُوا عَنْهُمْ مُصِيبِينَ﴾ (٣٧) وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَاخْتَذَهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثَمِينَ﴾ (٣٧).

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام، أنه أئذ قومه أهل مدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ قال بعضهم: معناه واخشوا اليوم الآخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [المتحنة: ٦]. وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها [أى: بالفساد] والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم، وقد تقدمت قصتهم مبسطة في سورة الأعراف وهود والشعراء. وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثَمِينَ﴾ قال قتادة: ميتين.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُورُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِكِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسول كيف أبادهم، فعاد قوم هود عليه السلام، وكانوا يسكنون الأحقاف، وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، وتمر عليها كثيراً، وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وفرعون ملك مصر في زمن موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى ورسوله ﷺ ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾؛ أي: كانت عقوبته بما يناسبه ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر شديدة البرد، عاتية الهبوب جداً، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم، وتقتلعهم من الأرض، فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشده، فيبقى بدنًا بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وهم ثمود، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوه سواء بسواء، ومع هذا استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أحمدت الأصوات منهم والحركات ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى، ومشى في الأرض مرحاً، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنوده عن آخرهم أغرقوا في صيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾؛ أي: فيما فعل بهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَهُ أَبْيُوتَ لَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم، إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك

يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها.  
ثم قال تعالى متوعدًا لمن عبد غيره وأشرك به، إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال  
ويعلم ما يشكون به من الأنداد، وسيجزئهم وصفهم، إنه حكيم عليم. ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ  
الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾؛ أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون  
في العلم المتضلعون منه.

وعن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني؛ لأنني  
سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [حلية  
الأولياء] لأبي نعيم ٩٥/٥.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٤) ﴿أَتَلُمَّا مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ  
مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ  
أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٤٥).

يقول تعالى مخبرًا عن قدرته العظيمة أنه خلق السموات والأرض بالحق؛ يعني: لا على  
وجه العبث واللعب. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لدلالة واضحة على أنه  
تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية. ثم قال تعالى أمرًا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن،  
وهو قراءته وإبلاغه للناس: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ  
اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ يعني: أن الصلاة تشتمل على شيئين: ترك الفواحش والمنكرات؛ أي: إن  
مواظبتها تحمل على ترك ذلك.

فقد روى الإمام أحمد [٩٧٧٧] عن أبي هريرة، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن  
فلانًا يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، فقال: (إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ) [قال الهيثمي في «المجمع»: رجاله  
رجال الصحيح].

وتشتمل الصلاة أيضًا على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر، ولهذا قال تعالى:  
﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ أي: أعظم من الأول ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾؛ أي: يعلم جميع  
أعمالكم وأقوالكم، وقال أبو العالية: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون  
فيها شيء من هذه الخصال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص  
يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه.

وعن ابن عباس: ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه، أكبر من ذكركم  
إياه، وروي أيضًا عن ابن مسعود وأبي الدرداء، وسلمان الفارسي وغيرهم، واختاره ابن جرير  
[١٥٦/٢٠].

﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي  
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُمَّ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦).

قال قتادة وغير واحد [كما ذكر صاحب «فتح الباري» ٣١٥/١٣]: هذه الآية منسوخة بآية السيف،

ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف. وقال آخرون: بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَخَدِّ لَهُمُ بِالْقِيَمَةِ أَحْسَنَ﴾ الآية [النحل: ١٢٥]، وهذا القول اختاره ابن جرير [٢/٢١]، وحكاه عن ابن زيد.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ أي: حادوا عن وجه الحق، وعَمُوا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدل إلى الجلال ويقاثلون بما يمنعهم ويردعهم. قال مجاهد: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم من أداء الجزية. وقوله: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ﴾؛ يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نقدم على تكذيبه؛ لأنه قد يكون حقًا، ولا على تصديقه فلعلة أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملًا معلقًا على شرط أن يكون منزلاً لا مبدلاً ولا مؤولاً.

روى البخاري [٤٢١٥] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَالْهَذَا إِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ). ثم ليعلم أن أكثر ما يحدثون به كذب وبهتان؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل، وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحًا.

روى ابن جرير [٣/٢١] عن عبد الله بن مسعود قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال، وروى البخاري [٦٩٢٩] عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث، تقرؤونه محضًا لم يُشَبَّ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلًا يسألكم عن الذي أنزل عليكم.

وروى البخاري [٢٦٧٩/٦] عن معاوية [أنه] ذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب. قلت: معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد؛ لأنه يحدث عن صحف يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة؛ لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَزَبْتَ الْمُبْطُلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (٤٩).

قال ابن جرير: يقول الله تعالى: كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل،

كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب، وهذا الذي قاله حسن. وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنَهُمْ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾؛ أي: الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأشباههما.

وقوله: ﴿وَمَنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾؛ يعني: العرب من قريش وغيرهم ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾؛ أي: ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾؛ أي: قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وهكذا كان رسول الله ﷺ لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفًا بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم، ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه ﷺ كتب يوم الحديبية: (هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ) [البخاري/٢٥٥٢]، فإنما حملة على ذلك رواية في «صحيح البخاري» [٢٥٥٢]: ثم أخذ فكتب، وهذه محمولة على الرواية الأخرى: ثم أمر فكتب، ولهذا اشتهر النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه، وإنما أراد الباجي فيما يظهر، أنه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنه كان يحسن الكتابة، كما قال ﷺ إخباراً عن الدجال: (مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ) [البخاري/١٤٨٠] وفي رواية (ك ف ر، يَقْرُوهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ) [البخاري نحوه/٣١٧٧ ومسلم/٢٩٣٣ بلفظ: كل مسلم]، وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا﴾؛ أي: تقرأ ﴿مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ لتأكيد النفي ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾، تأكيد أيضًا، وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَلَبُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقوله: ﴿إِذَا لَازَنَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ أي: لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس، فيقول: إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة ﴿وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُنْزِلَ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الفرقان: ٦]، وقال ها هنا: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾؛ أي: هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمرًا ونهيًا وخبرًا، يحفظه العلماء يسره الله عليهم حفظًا وتلاوة وتفسيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وقال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا) [رواه البخاري/٤٦٩٦].

واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابًا، ولا تخطه بيمينك آيات بينات



في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب، ونقله عن قتادة ابن جريح، وحكى الأول عن الحسن البصري فقط.

قلت: وهو الذي روي عن ابن عباس، وقاله الضحاك وهو الأظهر والله أعلم، وقوله: ﴿وَمَا يَحْكُمُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: ما يكذب بها ويردها إلا الظالمون؛ أي: المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۚ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٥٢﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما أتى صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن هذا سهل عليه يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۖ وَءَاتَيْنَا نُمُودَ النَّافَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقوله: ﴿وَأِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: إنما بعثت نذيراً لكم بين النذارة، فعلي أن أبلغكم رسالة الله. ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقولهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم به، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم، الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أُمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إن في هذا القرآن لرحمة؛ أي: بياناً للحق، وإزاحة للباطل، وذكرى بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل

القاطعات. ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: لا تخفى عليه خافية ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ أي: يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا، ويقابلهم على ما صنعوا من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، سيجازيهم على ذلك إنه حكيم عليم.

﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٣﴾  
 ﴿يَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ  
 تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٥﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم، ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه. ثم قال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٣﴾ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين؛ أي: يستعجلون بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي. وقوله: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ، وهذا عذاب معنوي على النفوس.

﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩﴾ وَكَأَنِّ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦٠﴾.

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرين فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، ولهذا قال: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليؤمنوا على دينهم هناك، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يشرب المطهرة.

ثم قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: لنسكنهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن، يصرفونها حيث

شَاؤُوا، ﴿خَلْدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ما كثرين فيها أبداً لا يبعثون عنها حولاً ﴿يَعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾؛ أي: على دينهم، وهاجروا إلى الله وناذبوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده وتصديق مواعده.

قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم. ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، ولهذا قال: ﴿وَكَايَ مَنْ دَابَّتْ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾؛ أي: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لغد ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾؛ أي: الله يفيض لها رزقها على ضعفها ويسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء. قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾  
 اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ اللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِ ﴿١١﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَالْحَيَا بِهِ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾  
 ﴿١٢﴾

يقول تعالى مقررًا أنه لا إله إلا هو؛ لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم، ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقر وهو العليم بما يصلح كلا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك، فلم يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تليبتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾  
 ﴿١٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَاُ اللَّهُ مُخْصِيْنَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْمَعُوا فُسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾  
 ﴿١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها هو ولعب ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ﴾؛ أي: الحياة الدائمة الحق التي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد.

وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى، ثم أخبر تعالى عن

المشركين أنهم عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائماً ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْدِينِ﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿فَلَمَّا نَجَّيْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة؛ لأنهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييذه إياهم لذلك فهي لام التعليل، وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرًا﴾ [القصص: ٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَنْخَظِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٩).

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمة، الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً، وقوله: ﴿أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد ﴿وَبَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وكفروا بنبي الله وعبيده ورسوله، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقتلوه، وأخرجوه من بين أظهرهم، ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم بيد، ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم أنافهم وأذل رقابهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾؛ أي: لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله، فقال: إن الله أوحى إليه، ولم يوح إليه شيء، ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر، والثاني مكذب، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يعني: الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؛ أي: لنبصرنهم سبلنا؛ أي: طرقنا في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في حديث جبريل لما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال: (أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ) قال: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) [رواه مسلم/٨].



## تفسير سورة الروم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي ضِعِّ  
 سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ  
 مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا  
 يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾ ۝

نزلت هذه الآيات حين غلب ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة  
 وأقاصي بلاد الروم، واضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة  
 طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي. روى الإمام أحمد [٢٧٧٠] عن ابن عباس رضي الله عنهما في  
 قوله تعالى: ﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ۝ قال: غُلِبَتْ وَغَلِبَتْ. قال: كان  
 المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون  
 أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذكر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر  
 لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (أَمَّا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ) فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل  
 بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتكم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلاً  
 خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ، فقال: (أَلَا جَعَلْتَهَا إِلَى دُونِ الْعَشْرِ).  
 ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله: ﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ  
 غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي ضِعِّ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾  
 يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ ورواه الترمذي [٣١٩٣] والنسائي [١١٣٨٩]،  
 وقال الترمذي: حسن غريب.

قال عبد الله [بن مسعود]: خمس قد مضين، الدخان، واللزام، والبطشة، والقمر، والروم،  
 أخرجه [البخاري/٤٥٤٨ ومسلم/٢٧٩٨].

وقد روي نحو هذا مرسلًا عن جماعة من التابعين مثل عكرمة والشعبي، ومجاهد، وقتادة،  
 والسدي، والزهري وغيرهم.

ولنتكلم عن كلمات هذه الآيات الكريمة، فقوله تعالى: ﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ قد تقدم  
 الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة. وأما الروم فهم من سلالة  
 العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم بنو الأصفر، وكانوا

على دين اليونان، واليونان كانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له قيصر، فكان أول من دخل في دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطنس، وأمه مريم كانت قد تنصرت قبله، فدعته إلى دينها، واجتمعت به النصارى وتناظروا في زمانه، واختلفوا اختلافاً كثيراً منتشراً متشتتاً لا ينضبط، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا، فوضعوا لقسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحقيرة، ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحرير وتحليل، وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وغيرَوا دين المسيح ﷺ، وزادوا فيه ونقصوا منه، وصلوا إلى المشرق، واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير، واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعائين، وجعلوا له الباب، وهو كبيرهم، ثم البتاركة، ثم المطارنة، ثم الأساقفة والقساوسة، ثم الشماسية، وابتدعوا الرهبانية، وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية، يقال: إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة، وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب، وبنى أمه القمامة، وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك.

ثم حدث بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف، ثم النسطورية أصحاب نسطورا، وهم فرق وطوائف كثيرة، كما قال رسول الله ﷺ: (إِنَّهُمْ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً) [الطبراني في «الكبير»/١٠٣٥٧]، والحديث صحيح له طرق عدة. والغرض أنهم استمروا على النصرانية، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل، فثأره كسرى ملك الفرس وملك البلاد كالعراق وخراسان والري وجميع بلاد العجم، وهو سابور ذو الأكتاف، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وله رياسة العجم، وحماقة الفرس، وكانوا مجوسًا يعبدون النار. والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده، فقهره وكسره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية، فحاصره بها مدة طويلة، حتى ضاقت عليه، ولم يقدر كسرى على فتح البلد، لحصانتها؛ لأن نصفها من ناحية البر، ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك، فلما طال الأمر، دبر قيصر مكيدة، ورأى في نفسه خديعة، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصلحه عليه ويشترط عليه ما شاء، فأجابه إلى ذلك، وطلب منه أموالاً عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا، فطاوعه قيصر وأوهمه أن عنده جميع ما طلب، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشره، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال: إني خارج في أمر قد أبرمته في جند قد عينته من جيشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول، فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها، فأنتم بالخيار: إن شئتم استمررتم على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري، فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيًّا، ولو غبت عشرة أعوام، فلما خرج من القسطنطينية خرج في جيش متوسط، وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع، فركب

قيصر من فوره وسار مسرعاً حتى انتهى إلى بلاد فارس، فعاث في بلادهم قتلاً لرجالها ومن بها من المقاتلة، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن وهي كرسي مملكة كسرى، فقتل من بها وأخذ جميع أمواله، وأسر نساءه وحريمه، وحلق رأس ولده وركبه على حمار، وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة، وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخذ، فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله تعالى، واشتد حنقه على البلد، فاشتد في حصارها بكل ممكن، فلم يقدر على ذلك، فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون، التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها، فلما علم قيصر بذلك، احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها وهو أنه أرصد جنده عند فم المخاضة، وركب في بعض الجيش، وأمر بأحمال من التبن والبر والروث فحملت معه، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعداً، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال في النهر، فلما مرت بكسرى ظن وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك، فركبوا في طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض، فخاضوا وأسرعوا السير، ففاتوا كسرى وجنوده، ودخلوا القسطنطينية، فكان ذلك يوماً مشهوداً عند النصارى، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون، لم يحصلوا على بلاد قيصر، وبلادهم قد خربت الروم، وأخذوا حواصلهم، وسبوا ذرارهم، ونساءهم، فكان هذا من غلب الروم لفارس، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم، وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز، وقال مجاهد: كان ذلك في الجزيرة، وهي أقرب بلاد الروم من فارس، فالله أعلم.

ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهي تسع، فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع.

**وقوله تعالى:** ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾؛ أي: من قبل ذلك ومن بعده. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ﴾؛ أي: للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى، وهم المجوس، وكانت نصر الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء، كابن عباس، والثوري، والسدي وغيرهم، وقال الآخرون: بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية [الطبري ١٩/٢١]. قاله عكرمة والزهري وقتادة وغيرهم.

والأمر في هذا سهل قريب، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين، فلما انتصرت الروم على فارس، فرح المؤمنون بذلك؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾ - إلى قوله - ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى هاهنا: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

**وقوله:** ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: في انتصاره وانتقامه من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين. **وقوله:** ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾؛ أي: هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أننا سننصر الروم

على فارس، وعد من الله حق؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: بحكم الله في كونه، وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل.

وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾؛ أي: أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري: والله ليلبغ من أحدهم بدنياء أن يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلي. وقال ابن عباس في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾؛ يعني: الكفار يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال [الطبري ٢١/٢٣].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (٨) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٩) ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوَاءُ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٠).

يقول تعالى منبهاً على التفكير في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾؛ يعني: به النظر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، فيعلموا أنها ما خلقت باطلاً بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾. ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم ونجاة من صدقهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين، ولهذا قال: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: كانت الأمم الماضية أشد منكم أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه وعمروا فيها أعماراً طوالاً، فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ﴾؛ أي: فيما أحل بهم من العذاب والنكال ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوَاءُ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أي: كانت السوأي عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. هذا توجيه ابن جرير [٢١/٢٥]، ونقله عن ابن عباس



وقتاده، ورواه ابن أبي حاتم عنهما، وعن الضحاک بن مزاحم، وهو الظاهر - والله أعلم - لقوله: ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؛ أي: كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله. ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ قال ابن عباس: يئأس المجرمون، وقال مجاهد: يفتضح المجرمون [البغوي ٤٧٨/٣]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾؛ أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم. ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾ قال قتادة: هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها؛ يعني: أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين، فذلك آخر العهد بينهما، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة: ينعمون. وقال يحيى بن أبي كثير: يعني: سماع الغناء، والحبرة أعم من هذا [الطبري ٢٨/٢١].

﴿فَسَبَّحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾.

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء، وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه. ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد، فقال تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض. ثم قال: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ فالعشاء هو شدة الظلام، والإظهار قوة الضياء، فسبحان خالق هذا وهذا.

وقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وهذه الآيات المتتابة الكريمة يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها، ليدل خلقه على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. وقوله: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ﴾

بِهَيْجٍ - إلى قوله: - ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ - ٧]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١).

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته، أنه خلق أباكم آدم من تراب، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تصور فكان علقه، ثم مضغة، ثم صار عظاماً شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بيني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، وله فكرة وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، ولهذا قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾.

وروى الإمام أحمد [١٩٥٩٧] عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قُبْضَةٍ قُبْضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ)، ورواه أبو داود [٤٦٩٣] والترمذي [٢٩٥٥]، وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾؛ أي: خلق لكم من جنسكم إنثاءً يكن لكم أزواجاً ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]؛ يعني: بذلك حواء، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر، ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إنثاهم من جنس آخر إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الإئتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة وهي المحبة، ورحمة وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتة لها أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ السِّنِّينَ وَالْوَنُكْمِ﴾ (٢٢) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَابُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٢٣).

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خلق

السموات في ارتفاعها واتساعها، وشفوف أجرامها، وزهرة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات، والأرض في انخفاضها وكثافتها، وما فيها من جبال وأودية وبحار، وقفار وحيوان وأشجار.

وقوله: ﴿وَأَخْلَفَ السِّنِّكُمْ﴾؛ يعني: اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء روم، وهؤلاء بربر، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بني آدم، واختلاف ألوانهم، فجميع أهل الأرض منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان، وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام ظاهراً كان أو خفياً يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه أخرى، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَاسِكُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَإِنِّعَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ؛ أي: ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم في الليل والنهار، فهي تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار وهذا ضد النوم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: يعون.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (٢٥).

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمتها أنه ﴿يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ أي: تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة أو صواعق متلفة، وتارة ترجون وميضه وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه، ولهذا قال: ﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿أَهْزَنْتَ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ﴾ [الحج: ٥]، وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ثم قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين يقول: لا والذي تقوم السماء والأرض بأمره؛ أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بُدلت الأرض غير الأرض والسموات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنَّ لَيْسَ لَنَا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَنِينٌ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: ملكه وعبيده ﴿كُلُّ لَهُ قَنِينٌ﴾؛ أي: خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ قال ابن عباس: يعني: أيسر عليه، وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هينة، وكذا قال عكرمة وغيره وروى البخاري [٤٦٩١] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)، وقال آخرون: كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء، فعن ابن عباس: كل عليه هين، وكذا قاله الربيع بن خثيم، ومال إليه ابن جرير.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال قتادة: مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره، وقال مثل هذا ابن جرير. وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه، الحكيم في أقواله وأفعاله شرعاً وقدرًا، وعن محمد بن المنكدر في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّلَكٍ أَيْمَنُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَن تَرَوْهُ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مِّنْ أَضَلِّ اللَّهِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّلَكٍ أَيْمَنُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَن تَرَوْهُ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال. قال أبو مجلز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذاك، كذلك الله لا شريك له، والمعنى أن أحدكم يأنف من ذلك، فكيف تجعلون الله الأنداد من خلقه.

ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره

سفهاً من أنفسهم وجهلاً ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: المشركون ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أي: في عبادتهم الأنداد بغير علم ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾؛ أي: فلا أحد يهديهم إذا كتب الله إضلالهم ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾؛ أي: ليس لهم من الله منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٣٢).

يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، التي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمُ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وفي الحديث: (إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ) [رواه مسلم/٢٨٦٥]، فالله تعالى فطر خلقه على الإسلام، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية والنصرانية والمجوسية.

وقوله: ﴿لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيكون خبراً بمعنى الطلب، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهو معنى حسن صحيح، وقال آخرون: هو خبر على بابه، ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلية المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك، ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وقتادة، وابن زيد [وغيرهم] في قوله: ﴿لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾؛ أي: لدين الله [الطبري ٤١/٢١]، وقال البخاري [في الترجمة ١٧٩٢/٤]: قوله: ﴿لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ لدين الله، الدين والفطرة: الإسلام.

وروى البخاري [١٢٩٢] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا عَلَى الْفُطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسَانِهِ، كَمَا تُنتِجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءَ؟) ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيِّمُ﴾. وفي معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيِّمُ﴾؛ أي: التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فهذا لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن زيد، وابن جريج: أي: راجعين إليه. ﴿وَاتَّقُوهُ﴾؛ أي: خافوه وراقبوه، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي الطاعة العظيمة، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه. روى ابن جرير [٤٠/٢١]،

عن يزيد بن أبي مريم قال: مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث وهن من المنجيات: الإخلاص، وهي الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر: صدقت.

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾؛ أي: لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم؛ أي: بدلوه وغيروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وقرأ بعضهم: فارقوا دينهم؛ أي: تركوه وراء ظهورهم، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضًا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في «مستدركه» [٤٤٤] أنه سئل رسول الله ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال: (مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي) [ورواه الترمذي/٢٦٤١ بمعناه وقال: حسن صحيح].

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَنْكُمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطراب يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختبار يشركون بالله ويعبدون معه غيره. وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال بعضهم: والله لو توعدني حارس دَرْبٍ لخفت منه، فكيف والمتوعد هاهنا هو الذي يقول للشيء: كن فيكون. ثم قال منكراً على المشركين فيما اختلقوه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان ﴿أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾؛ أي: حجة ﴿فَهُوَ يَنْكُمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: ينطق ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهام إنكار؛ أي: لم يكن لهم شيء من ذلك.

ثم قال: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمة الله ووفقه، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر. وقال: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]؛ أي: يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١]؛ أي: صبروا في الضراء

وعملوا الصالحات في الرخاء. كما ثبت في «صحيح [مسلم/٢٩٩٩]»: (عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ).

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَكَانَ ذَا الْقَرْيَةِ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنُ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى أمراً بإعطاء ذي ﴿الْقَرْيَةِ حَقَّهُ﴾؛ أي: من البر والصلة، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه أو له شيء لا يقوم بكفايته، ﴿وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾؛ أي: النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة. ثم قال: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾؛ أي: من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله، بهذا فسرهُ ابن عباس، وقتادة والشعبي [وغيرهم]، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قاله الضحاك، واستدل بقوله: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدر: ٦]؛ أي: لا تعط العطاء تريد أكثر منه.

وقال ابن عباس: الربا رباءان: فربا لا يصح؛ يعني: ربا البيع، وربا لا بأس به وهو هدية الرجل يريد فضلها، وأضعافها، ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾؛ أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء، كما في «الصحيح»: (وَمَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِّنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِبَيْمِينِهِ، فَيَرْبِّيَهَا لِصَاحِبِهَا، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوهُ أَوْ فَصِيلَهُ، حَتَّى تَصِيرَ التَّمْرَةُ أَكْظَمَ مِنْ أَحَدٍ) [رواه البخاري بالفاظ قرية/٦٩٩٣].

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾؛ أي: هو الخالق الرزاق، يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع، ولا بصر، ولا قُوَى، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك والرياش واللباس والمال والأموال والمكاسب.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾؛ أي: بعد هذه الحياة، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: يوم القيامة، وقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ﴾؛ أي: الذين تعبدونهم من دون الله ﴿مَن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله ﷻ هو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء

والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة، ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تعالى وتقدس وتنزه وتعظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾.

قال ابن عباس، وعكرمة، والسدي وغيرهم: المراد بالبر هاهنا: الفياضي، وبالبحر الأمصار والقرى [الطبري ٤٩/٢١]، وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة: البحر: الأمصار والقرى، ما كان منها على جانب نهر، وقال آخرون: بل المراد بالبر هو البر المعروف، وبالبحر هو البحر المعروف، وقال زيد بن رفيع: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾؛ يعني: انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابه، وعن مجاهد قال: فساد البر قتل ابن آدم، وفساد البحر أخذ السفينة غصباً.

وقال عطاء الخراساني: المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى، وبالبحر جزائره، والقول الأول أظهر وعليه الأكثرون، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق في «السيرة»: أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة، وكتب له ببحره [رواه أحمد/٢٣٦٥٢]؛ يعني: ببلده، ومعنى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾؛ أي: بأن النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي، وقال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، ولهذا جاء في الحديث: (لَحْدٌ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا) [رواه ابن ماجه/٢٥٣٨ بنحوه والطبراني في «التاريخ الكبير» ٢٢٢٩ وهو حسن]. والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم عن تعاطي المحرمات، وإذا ارتكبت المعاصي كان سبباً في محاق البركات من السماء والأرض، ولهذا إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية، وهو تركها، فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض: أخرجي بركاتك، فيأكل من الرمانة الفئام من الناس، ويستظلون بقحفها، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير، ولهذا ثبت في «الصحيح»: (إِنَّ الْفَاجِرَ إِذَا مَاتَ تَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ، وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ) [رواه البخاري بنحوه/٦١٤٧].

وقوله: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾؛ أي: ليتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه لهم ومجازاة على صنيعهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلكم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾؛ أي: فانظروا ماذا حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.



﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ بِمَهْدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

يقول تعالى أمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾؛ أي: يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ﴾؛ أي: يتفرون، فريق في الجنة وفريق في السعير، ولهذا قال: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ بِمَهْدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: يجازيهم مجازاة الفضل، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور.

﴿وَمَنْ آتَيْنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَتٍ وَلِيَذِّقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِيَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِيَبْنِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرسال الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها، ولهذا قال: ﴿وَلِيَذِّقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد ﴿وَلِيَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ﴾؛ أي: في البحر وإنما سيرها بالريح، ﴿وَلِيَبْنِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: في التجارات والمعاش والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى. ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أممهم به من الدلائل الواضحات، ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هو حق أوجب على نفسه الكريمة تكراً وتفضلاً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِئِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُعْجَى الْمُوتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ

فَنُزِّلُ سَحَابًا ﴿٥٢﴾ إِمَّا مِنَ الْبَحْرِ، أَوْ مِمَّا يَشَاءُ اللَّهُ ﴿٥٣﴾ ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ؛ أَي: يُمِدُّه فيكثره ويُنميه، ينشئ سحابة ترى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقلاً مملوءة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَتْهُ لِيَكْدِرَ مِيتَرٌ﴾ - إلى قوله: - ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وكذلك قال هاهنا: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَنُزِّلُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾، قال مجاهد، وقتادة وأبو عمرو بن العلاء ومطر الوراق: يعني: قطعاً [الطبري ٥٤/٢١]، وقال الضحاك: متراكماً، وقال غيره: أسود من كثرة الماء، تراه مدلهماً ثقيلاً قريباً من الأرض.

وقوله: ﴿فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ ؛ أَي: فترى المطر وهو القطر، يخرج من بين ذلك السحاب ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ؛ أَي: يفرحون لحاجتهم بنزوله عليهم ووصوله إليهم.

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر، كانوا قنطين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم، جاءهم على فاقة، فوقع منهم موقعاً عظيماً، وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ فقال ابن جرير [٥٤/٢١]: هو تأكيد، وحكاة عن بعض أهل العربية. وقال آخرون: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ ؛ أَي: الإنزال ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾، ويحتمل أن يكون معنى الكلام أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله أيضاً قد فات عندهم نزوله وقتاً بعد وقت، فترقبوه في إبانته فتأخر، ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط، فبعدما كانت أرضهم مقشعة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ ؛ يعني: المطر ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَمْرَاتِ الْمَوْتِ﴾ ؛ أَي: إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾، يقول: ولئن أرسلنا ريحاً يابسة على الزرع الذي زرعه ونبت وشب واستوى على سوقه، فرأوه مصفراً؛ أي: قد اصفرَّ وشرع في الفساد لظلوا من بعده؛ أي: بعد هذا الحال، يكفرون؛ أي: يجحدون ما تقدم من النعم. كقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ - إلى قوله: - ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٧].

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أُمَّدَّيْنِ﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَدِيٍّ أَلْمَعِي عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾.

يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدائها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مُدبرون عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن

الحق وردهم عن ضلالتهم بل ذلك إلى الله، فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه، ولهذا قال: ﴿إِنْ سَمِعَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]. وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم، حتى قال عمر: يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا؟ فقال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ) [البخاري/ ٢٧٥٧ ومسلم/ ٢٨٧٤]، وتأولته عائشة على أنه قال: (إِنَّهُمْ الْآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ حَقٌّ) [رواه البخاري/ ٣٧٥٩]. وقال قتادة: أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقيعاً وتوبيخاً ونقمة.

والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً: (مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا، فَيَسْلُمُ عَلَيْهِ، إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ، حَتَّى يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ) [رواه الديلمي في «الفردوس» عن عائشة/ ٦٠٥٥].

وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له، إذا انصرفوا عنه [متفق عليه].

وقد شرع السلام على الموتى، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال، وقد علم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا: (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَآحِقُونَ، يَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَفْدِمِينَ مِنَّا وَمُنْكُمْ وَالْمُسْتَأَخِرِينَ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ) [رواه مسلم/ ٩٧٤ نحوه]، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلم الرد، والله أعلم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤).

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال. يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى. ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً، ثم مراهقاً ثم شاباً. وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ ثم يهرم، وهو الضعف بعد القوة. فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللمة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم وأنهم لم يُنظروا حتى يُعذر إليهم. قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾؛ أي: فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ أي: في كتاب الأعمال ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾؛ أي: من يوم خلقتم إلى أن بعثتم ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ أي: اعتذارهم عما فعلوا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَا يَسْتَخْفِنُكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: قد بينا لهم الحق، ووضحنا لهم، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه ﴿وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾؛ أي: لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره، لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ فَاسَادُوا﴾ [الأنعام: ١١٠] ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، ولهذا قال ههنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾؛ أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا يَسْتَخْفِنُكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هُدى يتبع، بل الحق كله منحصر فيه.

وروى الإمام أحمد [١٥٩١٤] عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ، صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم فأوهمهم، فقال: (إِنَّهُ يَلْبَسُ عَلَيْنَا الْقُرْآنُ، فَإِنَّ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الْوُضُوءَ، فَمَنْ شَهِدَ الصَّلَاةَ مَعَنَا فَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ) وإسناده حسن، ومتمنه حسن، وفيه سر عجيب، ونبا غريب، وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوء من اتهم به، فدل ذلك على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام.

## تفسير سورة لقمان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ .

تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة، وهو أنه ﷺ جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا أرحامهم وقرباتهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك لم يراؤوا به، ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكوراً، فمن فعل ذلك كذلك، فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ويتنفعون بسماعه، عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: هو والله الغناء [الطبري ٢١/٦١].

وكذا قال ابن عباس وجابر ومكحول [وغيرهم].

وقال الحسن البصري: نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير، وقال قتادة: والله لعله لا ينفع فيه مالا، ولكن شراؤه استحبابه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضر على ما ينفع. وقيل: أراد اشتراء المغنيات من الجواري، وقال الضحاك: يعني: الشرك، وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله.

وقوله: ﴿يُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله، وعلى قراءة فتح الياء تكون اللام لام العاقبة أو تعليلًا للأمر القدري؛ أي: فُيْضُوا لذلك ليكونوا كذلك. وقوله: ﴿وَيَخِذْهَا هُزُوءًا﴾ قال مجاهد: ويتخذ سبيل الله هُزُوءًا يستهزئ بها. وقال قتادة: يعني: ويتخذ آيات الله هُزُوءًا، وقول مجاهد أولى [الطبري ٦٤/٢١].

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: كما استهانوا بآيات الله وسبيله، أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّى مُّسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا﴾؛ أي: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولى عنها وأعرض وأدبر وتصامم وما به من صمم، كأنه ما يسمعها؛ لأنه يتأذى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ولا أرب له فيها، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: يوم القيامة، يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾؛ أي: يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والنساء والنضرة والسماع، الذي لم يخطر ببال أحد وهم في ذلك مقيمون دائماً لا يظعنون ولا يبعون عنها حولاً. وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾؛ أي: هذا كائن لا محالة؛ لأنه من وعد الله، والله لا يخلف الميعاد؛ لأنه الكريم المنان الفعال لما يشاء القادر على كل شيء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۖ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرَوْهُ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض، وما فيها وما بينهما، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ قال الحسن وقتادة: ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية، وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد [ابن أبي حاتم/١٢٠٩٠]، لها عمد لا ترونها، وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة الرعد بما أغنى عن إعادته، ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا﴾؛ يعني: الجبال أرسى الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها، ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾؛ أي: لئلا تميد بكم.

وقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾؛ أي: وذراً فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها، ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: من كل زوج من النبات كريم؛ أي:

حسن المنظر، وقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾؛ أي: هذا الذي ذكره الله تعالى من خلق السموات والأرض وما بينهما صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك، ولهذا قال: ﴿فَأَرَوْنِي مِمَّا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾؛ أي: مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾؛ يعني: المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿فِي ضَلَالٍ﴾؛ أي: جهل وعمى ﴿مُتِينَ﴾؛ أي: واضح ظاهر لا خفاء به.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (١٢).

اختلف السلف في لقمان: هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني. فعن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان من سودان مصر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة، وقال مجاهد: كان لقمان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً. فهذه الآثار منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبياً، ومنها ما هو مشعر بذلك؛ لأن كونه عبداً قد مسّه الرق ينافي كونه نبياً؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها، لهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة إن صح السند إليه، فإنه رواه ابن جرير [٦٨/٢١]، وابن أبي حاتم عن جابر، عن عكرمة، قال: كان لقمان نبياً، وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم.

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾؛ أي: الفقه في الإسلام، ولم يكن نبياً ولم يوح إليه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾؛ أي: الفهم والعلم والتعبير ﴿إِنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾؛ أي: أمرناه أن يشكر الله ﷻ على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾؛ أي: إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾؛ أي: غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه الغني عما سواه، فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ إِلَىٰ الْصَبْرِ﴾ (١٤) ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثَمَرٍ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٥).

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده، وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، وأنه آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله ولا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ

لَطُمَ عَظِيمٌ؛ أَي: هو أعظم الظلم. روى البخاري [٣٢٤٦] عن عبد الله [ابن مسعود] قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينما لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: (إِنَّهُ لَيْسَ بِذَلِكَ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ: ﴿يَبْنَىٰ لَا شَرَكَ بِاللَّهِ ابْنُ الشِّرْكَ لَظْمٌ عَظِيمٌ﴾). ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن، وقال هاهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ قال مجاهد: مشقة وهن الولد، وقال قتادة: جهداً على جهد.

وقوله: ﴿وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾؛ أَي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوَائِي كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِّمَ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ومن هاهنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه قال في الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصَّلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، ولهذا قال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾؛ أَي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء.

وقوله: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾؛ أَي: إن حرصاً عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً؛ أَي: محسناً إليهما، ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾؛ يعني: المؤمنين، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ روى الطبراني في كتاب العشرة أن سعد بن مالك قال: أنزلت في هذه الآية ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية، قال: كنت رجلاً برّاً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يوماً وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، مكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت. [رواه ابن عساکره في «تاريخه» ٣٣١/٢٠، وسنده حسن].

﴿يَبْنَىٰ إِنَّمَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٦) ﴿يَبْنَىٰ أَقْبَرُ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧) وَلَا تُصَغِّرْ حَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩).

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم، ليمثلها الناس ويقتدوا بها،



فقال: ﴿يَبْنِيْ اِيَّاهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ حَرْدَلٍ﴾؛ أي: إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل، وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله إنها ضمير الشأن والقصة، وعلى هذا رفع مثقال، [وهي قراءة نافع المدني] والأول أولى.

وقوله: ﴿يَأْتِيَهَا اَللّٰهُ﴾؛ أي: أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَاِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ حَرْدَلٍ اَلْيَنَّا بِهَا﴾ الآية [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات والأرض، فإن الله يأتي بها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولهذا قال: ﴿اِنَّ اَللّٰهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ﴾؛ أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت، ﴿خَبِيْرٌ﴾ بديب النمل في الليل البهيم.

ثم قال: ﴿يَبْنِيْ اَقْدِرَ الصَّلَوةِ﴾؛ أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَاَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾؛ أي: بحسب طاقتك وجهدك ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ علم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر.

وقوله: ﴿اِنَّ ذَٰلِكَ مِّنْ عِزِّ اَلْاُمُوْرِ﴾؛ أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور، وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم، ولكن ألن جانبك وابسط وجهك إليهم، قال ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تتكبر فتحقر عباد الله، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك، وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: لا تتكلم وأنت معرض، وكذا روي عن مجاهد، والضحاك، وابن زيد وغيرهم، وقال إبراهيم النخعي: يعني: بذلك التشديد في الكلام، والصواب القول الأول، وقال ابن جرير [٢١/٧٤]: وأصل الصَّعْر: داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها، حتى تلتفت أعناقها عن رؤوسها، فشبه به الرجل المتكبر.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي اَلْاَرْضِ مَرَحًا﴾؛ أي: متكبراً جباراً عنيداً، لا تفعل ذلك يبغضك الله، ولهذا قال: ﴿اِنَّ اَللّٰهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُوْرٍ﴾؛ أي: مختال معجب في نفسه، فخور؛ أي: على غيره.

وقوله: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾؛ أي: امش مقتصدًا مشيًا ليس بالبطيء المتشط، ولا بالسريع المفرد، بل عدلاً وسطاً بين بين. وقوله: ﴿وَأَغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾؛ أي: لا تبالغ في الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال: ﴿اِنَّ اَنْكَرَ اَلْاَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيْرِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير؛ أي: غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى، وهذا التشبيه في هذا بالحمير، يقتضي ذمه غاية الذم؛ لأن رسول الله ﷺ قال: (لَيْسَ لَنَا مِثْلُ السَّوْءِ، الْعَائِدُ فِي هَيْبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُوْدُ فِي قَيْئِهِ) [رواه البخاري/٢٤٧٩].

وقد روى الشيخان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاْحَ الدِّيْكَ فَاسْأَلُوا اَللّٰهَ

مِنْ فَضْلِهِ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهْيَ الْحَمِيرِ فَتَعَوِّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا) [البخاري/٣١٢٧ ومسلم/٢٧٢٩].

فهذه وصايا نافعة جدًا، وهي من قصص القرآن عن لقمان الحكيم، وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة، منها ما رواه الإمام أحمد [٥٦٠٥] عن ابن عمر قال: أخبرنا رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ إِذَا اسْتَوْدَعَ شَيْئًا حِفْظَهُ) [وسنده حسن].

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحب وأمطار وثلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفاً محفوظاً، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله؛ أي: في توحيده وإرساله الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب ماثور صحيح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ﴾؛ أي: مضيء ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾؛ أي: لهؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾؛ أي: على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾؛ أي: لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاؤُهُمْ لَا يَقُولُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]؛ أي: فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُہٗٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنَنْبِئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله؛ أي: أخلص له العمل وانقاد لأمره واتباع شرعه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ أي: في عمله باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾؛ أي: فقد أخذ موثقاً من الله متيناً لا يعذبه ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ﴿٢٢﴾ ومن كفر فلا يحزنك كفره؛ أي: لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله وبما جئت به، فإن قدر الله نافذ فيهم، وإلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا؛ أي: فيجزئهم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافية. ثم قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾؛ أي: في الدنيا ﴿ثُمَّ

نَضَطَّرُهُمْ؛ أَي: نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أَي: فظيع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٧٦﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به أنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له، ولهذا قال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أَي: إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم قال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أَي: هو خلقه وملكه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾؛ أَي: الغني عما سواه. وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٧٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَبِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٨﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: (لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ) [رواه مسلم/٤٨٦]، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾؛ أَي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً وجعل البحر مداداً ومده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْقَالَ لِكَلِمَةٍ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفَذَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، فليس المراد بقوله: ﴿بِمِثْلِهِ﴾ آخر فقط بل بمثله ثم بمثله، ثم بمثله ثم هلمَّ جراً؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته.

قال الحسن البصري: لو جعل شجر الأرض أقلاماً، وجعل البحر مداداً، وقال الله إن من أمري كذا ومن أمري كذا، لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام [الطبري ٤٨/٢١]، وقال قتادة: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفد، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾؛ أَي: لو كان شجر الأرض أقلاماً ومع البحر سبعة أبحر ما كان لتنفذ عجائب ربي وحكمته وخلقته وعلمه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه، حكيم في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه.

وقوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾؛ أي: ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميع هين عليه، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾؛ أي: كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة، ولهذا قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠).

يخبر تعالى أنه ﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾؛ يعني: يأخذ منه في النهار، فيطول ذلك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف، يطول النهار إلى الغاية، ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في الشتاء ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: إلى غاية محدودة، وقيل: إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رضي الله عنه الذي في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: (يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟) قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ، ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ رَبَّهَا فَيُؤْشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ) [البخاري بنحوه/ ٣٠٢٧ ومسلم/ ١٥٩ بنحوه أيضاً].

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠]، ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾؛ أي: إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق؛ أي: الموجود الحق الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل، فإنه الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه؛ لأن كل ما في السموات والأرض جميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾؛ أي: العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، فكل خاضع حقير بالنسبة إليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجُّ كَالظُّلُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَحَتْهُمْ إِلَى الْبَرِّ فِيهِمْ مَقْنَصٌ وَمَا يَحْمَدُ بِمَا بَدَلْنَاهُ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢).

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره؛ أي: بلفظه وتسخيره، فإنه لو

لا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت، ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾؛ أي: من قدرته، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ أي: صبار في الضراء شكور في الرخاء، ثم قال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ﴾؛ أي: كالجبال والغيام، ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]. ثم قال: ﴿فَلَمَّا بَجَدْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَعُنْتُهُمْ مُّقْنَصِدٌ﴾ قال مجاهد: أي: كافر كأنه فسر المقتصد هاهنا بالجاحد، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَجَدْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال ابن زيد: هو المتوسط في العمل، وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله تعالى: ﴿فَعُنْتُهُمْ طَالُمُ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالمقتصد هاهنا هو: المتوسط في العمل، ويحتمل أن يكون مرادًا هنا أيضًا، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمر العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصرًا والحالة هذه والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ فالخَتَّار هو العَدَّار، قاله مجاهد والحسن وقتادة [الطبري ٨٦/٢١]، وزيد بن أسلم: وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والختر: أتم الغدر وأبلغه.

وقوله: ﴿كَفُورٍ﴾؛ أي: جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْفُورُ رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

يقول تعالى منذرًا للناس يوم المعاد، وأمرًا لهم بتقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾؛ أي: لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه. وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه، ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾؛ أي: لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾؛ يعني: الشيطان. قاله ابن عباس [الطبري ١١٦/٢٢]، ومجاهد [رواه عنه البخاري في "صحيحه" ٥/٢٣٦٣]، والضحاك، وقتادة، فإنه يغر ابن آدم ويعدده ويمنيه، وليس من ذلك شيء بل كما قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، ﴿لَا يُخَبِّرُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن يشاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواء، ولكن

إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقيّاً أو سعيداً، علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه، وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخرها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك، وهذه شبهة بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقد وردت السُّنَّة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (انفرد بإخراجه البخاري).

وعن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [متفق عليه].

وقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قال قتادة: أشياء استأثر الله بهن، فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة، أو في أي شهر، أو ليل أو نهار ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلاً أو نهاراً ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، وما هو ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميت غداً، لعلك المصاب غداً ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾؛ أي: ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بر أو سهل أو جبل.

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد عن مطر بن عكّام قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا قَضَى اللَّهُ مِيتَةَ عَبْدٍ بِأَرْضٍ، جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً) ورواه الترمذي، وقال: حسن غريب.



## تفسير سورة السجدة

وهي مكية

روى البخاري عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الْمَ تَنْزِيلُ﴾ السجدة و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَ تَنْزِيلُ﴾ ١ ﴿الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢ ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ ٣ ﴿إِن تُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ٤.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شك فيه ولا مرية أنه نزل ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون: ﴿أَفْتَرْتَهُ﴾؛ أي: اختلقه من تلقاء نفسه ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ لتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ؛ أي: يتبعون الحق.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ٥ ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ٦ ﴿ذَٰلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٧.

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء، فخلق السموات الأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش. وقد تقدم الكلام على ذلك. ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾؛ أي: بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ يعني: أيها العابدون غيره المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو وزير، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الآية [الطلاق: ١٢]، وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا.

قال مجاهد، وقتادة، الضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام وصعوده في مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين، ولهذا قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٥) ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ؛ أي: المدبر لهذه الأمور، الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها، هو العزيز الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، الرحيم بعباده المؤمنين، فهو عزيز في رحمته رحيم في عزته.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٩).

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها، وقال زيد بن أسلم ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قال: أحسن خلق كل شيء كأنه جعله من المقدم والمؤخر. ثم لما ذكر تعالى خلق السموات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان، فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾؛ يعني: خلق أبا البشر آدم من طين، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾؛ أي: يتناسلون كذلك من نطفة من بين صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾؛ يعني: آدم لما خلقه من تراب، خلقاً سوياً مستقيماً ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾؛ يعني: العقول ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله ﷻ، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه ﷻ.

﴿وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ﴾ (١٠) قُلْ يَنفُوكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ وَإِلَيْكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١١).

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: أئنا لنعود بعد تلك الحال؟ يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ﴾. ثم قال: ﴿قُلْ يَنفُوكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ وَإِلَيْكُمْ تُرْجَعُونَ﴾. الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في سورة إبراهيم [آية: ٢٧]، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور [ذكره البغوي ٤٩٩/٣]، قاله قتادة وغير واحد وله أعوان، وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت، قال مجاهد: حُوت له الأرض فجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء [الطبري ٩٨/٢١]، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم.



﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وحالهم حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدي الله ﷻ، حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم؛ أي: من الخجل، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾؛ أي: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿اسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ إِنَّا نَادَيْنَاكُمْ أَنِ ابْعَثْ خُلَفَاءَكُمْ فِي أَرْبَابِكُمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [مريم: ٣٨]، وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار يقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾؛ أي: إلى الدار الدنيا ﴿تَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ أي: قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون بآيات الله ويخالفون رسله، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُقْفَوْنَ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْتَوَّينِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال هاهنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]. ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: من الصنفين فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك، ﴿فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؛ أي: يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ: ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿إِنَّا نَسِينَكُمْ﴾؛ أي: سنعاملكم معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَسْأَلُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]. وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بسبب كفركم وتكذيبكم.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: إنما يصدق بها ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾؛ أي: استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، ثم قال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾؛ يعني: بذلك قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة، قال

مجاهد، والحسن: يعني: بذلك قيام الليل [أبو داود ١٣/٢١]، وعن أنس، وعكرمة، وقتادة [وغيرهم]: هو الصلاة بين العشاءين، وعن أنس أيضًا: هو انتظار صلاة العتمة، وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة وصلاة الغداة في جماعة. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ أي: خوفًا من وبال عقابه، وطمعًا في جزيل ثوابه ﴿وَمِمَّا زَكَّاهُمْ يَتُفَتِّحُونَ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ، كما قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَثْلُو كِتَابَهُ إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعُ  
يَبِيتُ بُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

وروى الإمام أحمد [٣٩٤٩] عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: (عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ نَارَ مِنْ وَطْأَتِهِ وَلِحَافِهِ، وَمِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحَبِّهِ إِلَى صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ رَبُّنَا: أَبَا مَلَأْتُكَنِي، انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، نَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَوِطْأَتِهِ، وَمِنْ بَيْنِ حَيِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي. وَرَجُلٌ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ فَأَنْهَزْمُوا، فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْفِرَارِ، وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى أَهْرَبَ دَمُهُ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ لِلْمَلَائِكَةِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي، حَتَّى أَهْرَبَ دَمُهُ). وهكذا رواه أبو داود [٢٥٣٦]، وسنده جيد.

وروى الإمام أحمد [٢٢٠٦٩] عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال [له]: (أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿نَسْجَافِ جُؤُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، حَتَّى بَلَغَ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾). رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لما أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاقا، فإن الجزاء من جنس العمل. قال الحسن: أخفى قوم عملهم، فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر.

وروى البخاري [٤٥٠٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، دُخْرًا مِنْ بَلَهٍ مَا أَطْلَعْتُمْ عَلَيْهِ) ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وروى مسلم في «صحيحه» [١٨٩] عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: سأل موسى رضي الله عنه ربه ﷻ: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله، ومثله فقال في الخامسة، رضيت ربي، فيقول: هذا

لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتتهت نفسك ولذت عينك، فيقول: رضيت رب. قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصادقه من كتاب الله ﷻ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِيقَنَّ هُم مِّنَ الْعَذَابِ الَّذِي دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله، بمن كان فاسقاً؛ أي: خارجاً عن طاعة ربه، مكذباً لرسله إليه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾؛ أي: عند الله يوم القيامة، ولهذا فصل حكمهم فقال: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها وهي الصالحات ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾؛ أي: التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿نُزُلًا﴾؛ أي: ضيافة وكرامة ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾؛ أي: خرجوا عن الطاعة ﴿فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾، كقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية [الحج: ٢٢]. قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم، والملائكة تقمعهم. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ دُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾؛ أي: يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً.

وقوله: ﴿وَلَنَذِيقَنَّ هُم مِّنَ الْعَذَابِ الَّذِي دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني: بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتهما، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه [الطبري ١٠٨/٢١]، وروي مثله عن أبي بن كعب والحسن، والضحاك، وعلقمة [وغيرهم]، وقال البراء بن عازب، ومجاهد، وأبو عبيدة: يعني: به عذاب القبر [حلية الأولياء ٤/٢٠٦]. وروى النسائي عن عبد الله [بن مسعود]: ﴿وَلَنَذِيقَنَّ هُم مِّنَ الْعَذَابِ الَّذِي دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: سنون أصابتهم [رواه الطبري عن إبراهيم النخعي ١١٠/٢١].

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد [٢١٢١١] عن أبي بن كعب في هذه الآية قال: المصيبات والدخان قد مضيا والبطشة واللزام، ورواه مسلم [٢٧٩٨] موقوفاً نحوه، وعند البخاري [٤٥٤٨] عن ابن مسعود نحوه. وقال عبد الله بن مسعود أيضاً في رواية عنه: العذاب الأدنى ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر [الحاكم بمعناه ٣٥٥١]، وكذا قال زيد بن أسلم. قال السدي وغيره: لم

يبقى بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير، فأصيبوا أو غرموا، ومنهم من جمع له الأمران.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾؛ أي: لا أظلم ممن ذكّره الله بآياته وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها. قال قتادة رحمته الله: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرّة، وأعوز أشد العوز، ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾؛ أي: سأنقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب، وهو التوراة، وقوله: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ قال قتادة: يعني به: ليلة الإسراء. وعن ابن عباس قال: قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أسري به.

وروى الطبراني [١٢٧٥٨] عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قال: جعل موسى هدى لبني إسرائيل، وفي قوله: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ قال: من لقاء موسى ربه وَجَّجَ. [وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾؛ أي: الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: لما كانوا صابرين على أوامر الله، وترك نواهيهِ وزواجره، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ثم لما بدلوا وحرفوا، سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالح ولا اعتقاد صحيحاً، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ قال قتادة: لما صبروا عن الدنيا [الطبري ١١٣/٢١ نحوه]. وكذلك قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامي عن الدنيا. قال وكيع: قال سفيان: لا بد للدين من العلم، كما لا بد للجسد من الخبز. وسئل سفيان عن قول علي عليه السلام [كما روى ابن أبي شبة بنحوه: ٢٠٤٣٩]: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾، قال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً. قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الجاثية: ١٦]، كما قال هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: من الاعتقادات والأعمال.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢٦) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٧).

يقول تعالى: أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسول ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مریم: ٩٨]، ولهذا قال: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾؛ أي: هؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين، فلا يرون فيها أحدا ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، كما قال: ﴿فَلْيَكُنْ لَهُمْ خَاوِيَةً يُمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾؛ أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبرا ودلائل متظاهرة. ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: أخبار من تقدم كيف كان أمرهم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته، ولهذا قال: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾ وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرْزًا﴾ [الكهف: ٨]؛ أي: يبسا لا تنبت شيئا، وليس المراد من قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست هي المقصودة وحدها.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٨) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا [عبس: ٢٤]، ولهذا قال ههنا: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقال عكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدي، وابن زيد: الأرض الجرز التي لا نبات فيها، وهي مغبرة [الطبري ١١٥/٢١].

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ هُمْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبَ فِيهَا مِّنَ الْعِوَيْنِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الآيات [يس: ٣٣ - ٣٥].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠).

يقول تعالى مخبرا عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعادا وتكذيبا وعنادا ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾؛ أي: متى تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتا تُدال علينا ويُنتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين

خائفين ذليلين، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾؛ أي: إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الأخرى: ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل كقوله: ﴿فَأَفْتَحَ بَنِي وَيَسَّيْنَهُمْ فَتَحًا﴾ [الشعراء: ١١٨].

ثم قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾؛ أي: أعرض عن هؤلاء المشركين، وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وانظر فإن الله سينجز لك ما وعدك وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾؛ أي: أنت منتظر وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر، وسترى أنت عاقبة صبرك عليه وعلى أداء رسالة الله، في نصرتك وتأيدك، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.



## تفسير سورة الأحزاب

وهي مدنية

روى عبد الله ابن الإمام أحمد [٢١٢٤٥] عن زُرِّ قال: قال لي أبي بن كعب: كَأَيِّنْ تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَحْزَابِ أَوْ كَأَيِّنْ تَعْدُهَا؟ قَالَ: قُلْتُ ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ آيَةً، فَقَالَ: قَطْ لَقَدْ رَأَيْتَهَا وَإِنَّهَا لَتَعَادِلُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَقَدْ قَرَأْنَا فِيهَا الشَّيْخَ وَالشَّيْخَةَ إِذَا زَنِيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ، نَكَالًا مِنْ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ، وَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهَا قُرْآنٌ ثُمَّ نَسَخَ لَفْظُهُ وَحُكْمُهُ أَيْضًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝﴾

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى، وقد قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، مخافة عذاب الله، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾؛ أي: لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أي: فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله، ولهذا قال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: من قرآن وسنة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ أي: فلا تخفى عليه خافية، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: في جميع أمورك وأحوالك ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: وكفى به وكيلًا لمن توكل عليه وأُناب إليه.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾

يقول تعالى موطئًا قبل المقصود المعنوي أمرًا حسيًا معروفًا، وهو أنه كما لا يكون للشخص

الواحد قلبان في جوفه ولا تصير زوجته التي يظهر منها بقوله أنت علي كظهر أمي أمّا له، كذلك لا يصير الدّعي ولدا للرجل إذا تبناه فدعاه ابنا له، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ كقوله: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة ﷺ مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة، فكان يقال له زيد بن محمد، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ كما قال في أثناء السورة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال ههنا: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾؛ يعني: تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنا حقيقيا، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان. ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ قال سعيد بن جبير: ﴿يَقُولُ الْحَقَّ﴾؛ أي: العدل، وقال قتادة: ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾؛ أي: الصراط المستقيم.

وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش، كان يقال له ذو القلبين، وأنه كان يزعم أن له قلبين كل منهما بعقل وافر، فأنزل الله تعالى هذه الآية ردّا عليه. هكذا روي عن ابن عباس، وقاله مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقاتدة، واختاره ابن جرير [١١٨/٢١].

وروى عبد الرزاق عن الزهري في قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ قال: بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ضرب له مثل: يقول ليس ابن رجل آخر ابنك، وكذا قال مجاهد، وقاتدة، وابن زيد أنها نزلت في زيد بن حارثة ﷺ، وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير [رواه في «تحفة الأحوذى» عن عبد الرزاق ٤٤٩/٩]، والله ﷻ أعلم.

وقوله: ﴿أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب وهم الأدعياء، فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط، روى البخاري [٤٥٠٤] عن عبد الله بن عمر قال: إن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، ما كُنَّا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه في الخلوة بالمحارم وغير ذلك، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة: يا رسول الله إنا كنا ندعو سالما ابنا، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل علي وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئا، فقال ﷺ: (أَرَضِعِي تَحْرُمِي عَلَيْهِ) الحديث [رواه مسلم/١٤٥٣]، ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعي، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة، وقال: ﴿لِيَكُنَّ لَا يَكُونَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقال في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، احترازا عن زوجة الدعي فإنه ليس من الصلب، فأما الابن من الرضاعة فممنزلة ابن الصلب شرعا، بقوله ﷺ في «الصحيحين»: (يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ) [البخاري/٢٥٠٢]



ومسلم/١٤٤٥]. فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحبیب، فليس مما نهى عنه في هذه الآية بدليل ما رواه مسلم [٢١٥١] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا بُني). وقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم؛ أي: عوضاً عما فاتهم من النسب، ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء لزيد: (أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا) [رواه البخاري ٢٥٥٢]. وقد جاء في الحديث: (مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلَمُهُ، كَفَرَ) [رواه البخاري/٤٠٧١ بلفظ قريب]. وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد في التبري من النسب المعلوم، ولهذا قال: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾. ثم قال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾؛ أي: إذا نسبتهم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمهم، كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى آمراً عباده أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وثبت في «صحيح مسلم» [١٢٦] أن رسول الله ﷺ قال: (قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ).

وقال ها هنا: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾؛ أي: وإنما الإثم على من تعمد الباطل، وفي القرآن المنسوخ: (فَإِنَّهُ كُفِّرُ بِكُمْ أَنْ تَرْعَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ) [البخاري/٦٤٤٢ ومسلم/٦٢ كلاهما بنحوه]. وفي الحديث الآخر: (ثَلَاثٌ فِي النَّاسِ كُفْرٌ: الطَّغْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّبَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ) [رواه مسلم/٦٧، ولم يذكر الاستسقاء].

﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾.

قد علم الله تعالى شفقة رسوله على أمته ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مقدماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وفي «الصحيح» أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: (لَا يَا عُمَرُ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ) فقال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي، فقال ﷺ: (الآن يَا عُمَرُ) [البخاري/٦٢٥٧]، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

وروى البخاري [٢٢٦٩] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَفْرُؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَا لَا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَإِنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيعًا، فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ).

وقوله: ﴿وَأَرْوَجَهُمْ أُمَّهُتَهُمْ﴾؛ أي: في الحرمة والاحترام، والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع.

وقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ أي: في حكم الله ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾؛ أي: القربات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قرباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ (رواه البخاري/٦٣٦٦)، وكذا قال سعيد بن جبير وغيره من السلف والخلف.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيَّ أُولِيَايَكُم مَّعْرُوفًا﴾؛ أي: ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية، وقوله: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾؛ أي: هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدل ولا يغير، قاله مجاهد وغير واحد، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٧) لَيْسَ لِلْكَافِرِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨).

يقول الله تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى، وإبلاغ رسالته والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام، وقد صرح بذكرهم أيضاً في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فذكر الفاتح، والخاتم، ومن بينهما على الترتيب، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم.

وقد قيل: إن المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الذر من صلب آدم عليه الصلاة والسلام، كما [روي] عن أبي بن كعب قال: ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم؛ يعني: ذريته، وأن فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: رب لو سويت بين عبادك، فقال: إني أحببت أن أشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور، وخصوصاً بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ

وَمِنْكَ وَمِنْ تُوجٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴿الطبري ١١٥/٩﴾ وهذا قول مجاهد أيضًا، وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ العهد.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ قال مجاهد: المبلغين المؤدين عن الرسل. وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾؛ أي: من أممهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: موجعا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَخِطُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم وهزمه إيام عام الخندق، في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور، وقال موسى بن عقبة وغيره: كانت في سنة أربع، وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرًا من أشرف يهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشرف قريش وألبوهم على حرب النبي ﷺ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة، فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضًا، وخرجت قريش ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم، أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات، وجاء المشركون فنزلوا قريبًا من أحد، ونزلت طائفة منهم أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وهم نحو سبعمائة، فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوهم إلى نحو العدو، والخندق حفير يحجب الخيالة والرجال أن تصل إليهم، وجعل النساء والذراري في أطام المدينة، وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل، فذهب إليهم حيي بن أخطب النضري اليهودي، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعظم الخطب واشتد الأمر، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَٰذَا لِكِ الْبُتْلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزَلُوا زَلَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]، ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريبًا من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ود العامري وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية، ركب ومعه فوارس، فاقتحموا الخندق وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه، فلم يبرز إليه أحد، فأمر عليًا رضي الله عنه فخرج إليه فتجاولا ساعة ثم قتله علي رضي الله عنه، فكان علامة على النصر.

ثم أرسل الله ﷻ على الأحزاب ريحًا شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء، ولا تَوَقَّدَ لهم نار ولا يقر لهم قرار، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا﴾. قال مجاهد: وهي الصبا، ويؤيده الحديث الآخر: (نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ عَادًا بِالدَّبُورِ) [البخاري/ ٩٨٨ ومسلم ٩٠٠].

وروى ابن جرير [١٢٧/٢١] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أرسلني خالي ابن مظعون رضي الله عنه ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة، فقال: ائتنا بطعام ولحاف، قال: فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي وقال: (مَنْ أَتَيْتَ مِنْ أَصْحَابِي فَمُرْهُمْ بِرَجْعُوا) قال: فذهبت والريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ قال: فما يلوي أحد منهم عنقه، قال: وكان معي ترس لي، فكانت الريح تضربه علي، وكان فيه حديد، قال: فضرته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي فأبعدها إلى الأرض.

وقوله: ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إلي، فيجتمعون إليه، فيقول: النجاء، النجاء، النجاء، لما ألقى الله ﷻ في قلوبهم من الرعب.

وقد روى مسلم [١٧٨٨] عن حذيفة بن اليمان قال: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديد وقر، فقال رسول الله ﷺ: (أَلَا رَجُلٌ يَأْتِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، يَكُونُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟)، فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية ثم الثالثة مثله، ثم قال ﷺ: (يَا حَذِيفَةُ، قُمْ فَأَتِنَا بِخَبَرِ مِنَ الْقَوْمِ)، فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال: (اِئْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذَعْرَهُمْ عَلَيَّ)، قال: فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهمًا في كبد قوسي وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: (لَا تَذَعْرَهُمْ عَلَيَّ)، ولو رميته لأصبته، قال: فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله ﷺ، ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أصبحت قال رسول الله ﷺ: (قُمْ يَا نَوْمَانُ).

وقوله: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾؛ أي: الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ هم بنو قريظة ﴿وَإِذْ رَاغَتِ الْأَبْصُرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾؛ أي: شدة الخوف والفرع ﴿وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ قال ابن جرير: ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين، وأن الله سيفعل ذلك. وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وَإِذْ رَاغَتِ الْأَبْصُرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق، حتى قال مُعَتَّب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يبعثنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط [ذكره الطبري ١٣١/٢١].

وقال الحسن في قوله ﷻ: ﴿وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾. ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه سيستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهر على الدين كله ولو كره المشركون.

﴿هَٰذَاكَ أَتَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ۝ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَّهَلَّ يَتَّهَلَّ لَكُم مَّا فَارِجُوعًا وَيَسْتَنْزِلُونَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيُّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝﴾

يقول الله تعالى مخبرًا عن ذلك الحال، حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالًا شديدًا، فحينئذٍ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في نفوسهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أما المنافق فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة تنفس بما يجده من الوسواس في نفسه، لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال. وقوم آخرون قالوا كما قال الله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَّهَلَّ يَتَّهَلَّ لَكُم مَّا فَارِجُوعًا﴾؛ يعني: المدينة.

وقوله: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾؛ أي: هاهنا يعنون عند النبي ﷺ في مقام المراقبة، ﴿فَارِجُوعًا﴾؛ أي: إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿وَيَسْتَنْزِلُونَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ النَّبِيُّ﴾ عن ابن عباس: قالوا: بيوتنا نخاف عليها السرقة، وكذا قال غير واحد [الطبري ١٣٦/٢١]؛ يعني: اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة؛ أي: ليس دونها ما يحجبها من العدو، فهم يخشون عليها منهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾؛ أي: ليست كما يزعمون ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾؛ أي: هربًا من الزحف.

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَفْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَنفَقُوا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ۝ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُ لَهُ الْإِنْدَرُ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۝ قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُّونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة، ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعًا، وهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع. هكذا فسرهما قتادة وعبد الرحمن بن زيد، وابن جرير [١٣٦/٢١]، وهذا ذم لهم غاية الذم. ثم قال تعالى يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف أن لا يولوا الأدبار ولا ينفروا من الزحف، ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾؛ أي: وإن الله تعالى سيسألهم عن ذلك العهد لا بد من ذلك، ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم، بل ربما كان ذلك سببًا في تعجيل أخذهم غرة، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: بعد هربكم وفراركم ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُّونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ أي: ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨)  
 أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ  
 فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ  
 أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٩).

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب، والفائلين لإخوانهم؛  
 أي: أصحابهم وعُشْرَانَهُمْ ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار، وهم مع  
 ذلك لا ﴿يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨) أَشْحَةً عَلَيْكُمْ؛ أي: بخلاء بالمودة والشفقة عليكم. وقال  
 السدي: ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: في الغنائم، ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ  
 كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾؛ أي: من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من  
 القتال ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ﴾؛ أي: فإذا كان الأمن تكلموا كلامًا بليغًا  
 فصيحًا عاليًا، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك.  
 وقال ابن عباس: ﴿سَلَفُوكُمْ﴾؛ أي: استقبلوكم، وقال قتادة: أما عند الغنيمة فأشج قوم،  
 وأسوأه مقاسمة: أعطونا أعطونا، قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق  
 [الطبري ١٤١/٢١]، وهم مع ذلك أشحّة على الخير؛ أي: ليس فيهم خير قد جَمَعُوا الجبن  
 والكذب وقلة الخير، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ  
 يَسِيرًا﴾؛ أي: سهلًا هينًا عنده.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ  
 يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُنُلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢٠).

وهذا أيضًا من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور، ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾، بل هم  
 قريب منهم وإن لهم عودة إليهم ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ  
 عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾؛ أي: ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة،  
 بل في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم، ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُنُلُوا  
 إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلًا لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف  
 يقينهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا  
 وَكَلَّمَ رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا  
 زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (٢٢).

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا  
 أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسّي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومجاهدته

وانتظاره الفرج من ربه ﷺ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ولهذا قال تعالى للذين تنزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ، ولهذا قال: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعد الله لهم، وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. قال ابن عباس وقتادة [كما روى الطبري ١٤٤/٢١]: يعنون قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ أي: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَسَلِيمًا﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قال جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص، ومعنى قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾؛ أي: ذلك الحال والضيق والشدة ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله ﴿وَسَلِيمًا﴾؛ أي: انقياداً لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٢٤).

لما ذكر ﷺ عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ﴾ قال بعضهم: أجله. وقال البخاري [١٧٩٥/٤]: عهده وهو يرجع إلى الأول. ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾؛ أي: وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدلوه. روى البخاري [٤٥٠٦] عن زيد بن ثابت قال: لما نسخنا المصحف فَقَدْتُ آيَةً من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﷺ، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾. روى الإمام أحمد [١٣٠٣٨] عن ثابت قال: قال أنس: عمي أنس بن النضر ﷺ سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبَ عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرَيْنَ الله ﷻ ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد فاستقبل سعد بن معاذ ﷺ، فقال له أنس ﷺ: يا أبا عمرو أين؟ واهما لريح الجنة إني أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قتل ﷺ، قال: فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمتي الربيع ابنة النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه، قال: فنزلت هذه الآية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾

فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿١٩٠٣﴾ قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه، وفي أصحابه عليه السلام، ورواه مسلم [١٩٠٣].

قال مجاهد في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ قال: عهده، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ قال يوماً فيه قتال فيصدق في اللقاء، وقال الحسن: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾؛ يعني: موته على الصدق والوفاء، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك، ومنهم من لم يبدل تبديلاً، وكذا قال قتادة وابن زيد، وقال بعضهم، نحبه نذره.

وقوله: ﴿وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾؛ أي: وما غيروا عهدهم، وبدلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا: ﴿إِنِّيؤْتَنَا عَورَةً وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُوكَ إِلَّا ذَبْرًا﴾ [الأحزاب: ١٣ و١٥].

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: إنما يختبر عباده بالخوف والزلال ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، فهذا علم بالشيء بعد كونه، وإن كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده، ولهذا قال هاهنا: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾؛ أي: بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظةهم عليه ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه، وعذابه، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا، إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان، ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هي الغالبة لغضبه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، فسلط عليهم هواء فرق شملهم كما كان سبب اجتماعهم من الهوى، وهم أخلاط من قبائل شتى أحزاب وآراء، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعاتهم، وردهم خائبين خاسرين بغیظهم وحنقهم، لم ينالوا خيراً لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول ﷺ بالعداوة وهمهم بقتله واستئصال جيشه، ومن همّ بشيء وصدق همه بفعله، فهو في الحقيقة كفعله.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾؛ أي: لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم، بل كفى الله وحده، ونصر عبده، وأعز جنده، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدُهُ، وَنَصَرَ عَبْدُهُ، وَأَعَزَّ جُنْدُهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا



شَيْءٍ بَعْدَهُ) أخرجاه [البخاري/ ٣٨٨٨ ومسلم/ ٢٧٢٤] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. [مع اختلاف في اللفظ]، وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: (اللَّهُمَّ مَنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ، اهْزِمْهُمْ وَزَلِّزْلَهُمْ) [البخاري/ ٢٧٧٥ ومسلم/ ١٧٤٢]. وفي قوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون بل غزاهم المسلمون في بلادهم. كما روى الإمام أحمد [١٨٣٣٥] عن سليمان بن صرد قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: (الآن نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَا)، وهكذا رواه البخاري [٣٨٨٤] في «صحيحه». وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا غَزِيرًا﴾؛ أي: بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيراً، وأعز الله الإسلام وأهله، وصدق وعده ونصر رسوله وعبده، فله الحمد والمنة.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِبِهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۖ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهُا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝﴾

قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ونزلوا على المدينة، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، وكان ذلك بسفارة حيي بن أخطب النضري لعنه الله، دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وقال له فيما قال: ويحك قد جئتكم بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحابيشها، وغطفان وأتباعها، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه، فقال له كعب: بل والله أتيتني بذل الدهر، ويحك يا حيي إنك مشؤوم، فدعنا منك، فلم يزل حتى أجابه، واشترط له حيي إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن، فيكون له أسوتهم، فلما نقضت قريظة، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جداً، فلما أيده الله تعالى ونصره وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنها، إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجراً بعمامة، فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال ﷺ: (نَعَمْ). قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة، فإن الله تعالى أمرني أن أزلزل عليهم، فنهض رسول الله ﷺ من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال ﷺ: (لَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرْيِظَةَ) فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلى بعضهم في الطريق وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ، إلا تعجيل السير، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة، فلم يُعْنَفْ واحداً من الفريقين، وتبعهم رسول الله ﷺ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. ثم نالهم رسول الله ﷺ وحاصروهم خمسا وعشرين

ليلة، فلما طال عليهم الحال، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه؛ لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك، كما فعل عبد الله بن أبي ابن سلول في مواليه بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ، فظن هؤلاء أن سعدًا سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك، ولم يعلموا أن سعدًا رضي الله عنه كان قد أصابه سهم في أكحله أيام الخندق، فكواه رسول الله ﷺ وأنزله في قبة المسجد ليعوده من قريب، وقال سعد رضي الله عنه فيما دعا به: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَأَفْجِرْهَا، وَلَا تَمْنِنِي حَتَّى تُقَرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فاستجاب الله دعاءه، وقَدَّرَ عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلبًا من تلقاء أنفسهم، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطؤوا له عليه، جعل الأوس يلوذون به ويقولون: يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم، ويرفقونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال ﷺ: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فعرفوا أنه غير مستبقيهم، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: (قُومُوا إِلَيَّ سَيِّدُكُمْ) فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظامًا وإكرامًا واحترامًا له في محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم، فلما جلس قال له رسول الله ﷺ: (إِنْ هَؤُلَاءِ - وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ - قَدْ نَزَّلُوا عَلَيَّ حُكْمَكَ، فَأَحْكُمْ فِيهِمْ بِمَا شِئْتَ) فقال ﷺ: وحكمي نافذ عليهم؟ قال ﷺ: (نَعَمْ). قال وعلى من في هذه الخيمة؟ قال: (نَعَمْ). قال وعلى من هاهنا وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله، وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالًا وإكرامًا وإعظامًا، فقال له رسول الله ﷺ: (نَعَمْ). فقال ﷺ: إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذريتهم وأموالهم. فقال له رسول الله ﷺ: (لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ)، ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فحُدَّتْ في الأرض، وجيء بهم مكتفين، فضرب أعناقهم وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، وسبى من لم يُثبت منهم مع النساء وأموالهم، [وأصل هذه القصة في الصحيح، وروى بعضها الطبري ١٥٣/٢١]، وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة، الذي أفردناه موجزًا، والله الحمد والمنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمُ﴾؛ أي: عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ يعني: بني قريظة من اليهود من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آبائهم الحجاز قديمًا طمعًا في اتباع النبي الأمي الذين يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]، فعليهم لعنة الله.

وقوله: ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾؛ يعني: حصونهم، كذا قال مجاهد، وقتادة، والسدي وغيرهم، ومنه سمي صياصي البقر، وهي قرونها؛ لأنها أعلى شيء فيها. ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وهو الخوف؛ لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب النبي ﷺ، وليس من يعلم كمن لا يعلم، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزّوا في الدنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلب النفال، وانشمر المشركون ففازوا بصفقة المغبون، فكما راموا العز ذلوا، وأرادوا استئصال المسلمين

فاستؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة والأسراء هم الأصاغر والنساء.

روى الإمام أحمد [١٩٤٤٠] عن عطية القرظي قال: عرضت على النبي ﷺ يوم قريظة، فشكوا في، فأمر بي النبي ﷺ أن ينظروا هل أنبت بعد، فنظروا فلم يجدوني أنبت، فخلي عني وألحقني بالسبي، وكذا رواه أهل السنن كلهم، وقال الترمذي [١٥٨٤]: حسن صحيح. وقوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾؛ أي: جعلها لكم ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطَافُوهَا﴾ قيل: خيبر، وقيل: مكة، رواه مالك عن زيد بن أسلم وقيل: فارس والروم، وقال ابن جرير يجوز أن يكون الجميع مرادًا. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَلَئِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن - رضي الله عنهن وأرضاهن - الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة. روى البخاري [٢٣٣٦] عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: (إِنِّي ذَاكِرٌ لِّكَ أَمْرًا، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَسْتَعْجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبُوبِكَ)، وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه. قالت: ثم قال: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾) إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستمري أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

وروى الإمام أحمد [١٤٥٥٥] عن جابر رضي الله عنه قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس، والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر رضي الله عنه، فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فدخلوا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ﷺ ساكت، فقال عمر رضي الله عنه: لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة أنفاً فوجأت عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: (هُنَّ حَوْلِي يَسْأَلْنِي النَّفَقَةَ) فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها، وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، قال: وأنزل الله ﷻ الخيار، فبدأ بعائشة رضي الله عنها فقال: (إِنِّي أَذْكُرُ لِكَ أَمْرًا مَا أَحِبُّ أَنْ تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبُوبِكَ) قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ الآية، قالت

عائشة رضي الله عنها: أفيك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله تعالى ورسوله، وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت، فقال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنَّفًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُسِيرًا، لَا تَسْأَلُنِي أَمْرًا مِنْهُنَّ عَمَّا اخْتَرْتُ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا) انفراد بإخراجه مسلم [١٤٧٨] دون البخاري. قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة: خمس من قریش: عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة، وأم سلمة رضي الله عنهن، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيي النضرية وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن وأرضاهن جميعًا [الطبري ١٥٧/٢١].

﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتُ مِنْكُنَّ فِيْ فَحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۖ وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَّلَ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۖ﴾

يقول الله تعالى واعظًا نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة - قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهي النشوز وسوء الخلق، - وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبُنَّ عَلَيْكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلطًا صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع، ولهذا قال: ﴿مَنْ يَأْتُ مِنْكُنَّ فِيْ فَحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾. قال زيد بن أسلم: في الدنيا والآخرة، وعن مجاهد مثله. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ أي: سهلًا هينًا، ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي: يطع الله ورسوله ويستجب ﴿نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾؛ أي: في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسَنُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ۚ إِنَّ اتَّقِيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۖ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۖ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۖ﴾

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال تعالى مخاطبًا لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقین الله ﷻ كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة، ثم قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال السدي وغيره: يعني: بذلك ترفيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾؛ أي: دغل

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم؛ أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؛ أي: الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: (لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ، وَلْيَخْرُجْنَ وَهُنَّ ثَفَلَاتٌ) [أخرجه البخاري/ ٨٥٨ ومسلم/ ٤٤٢ وأبو داود/ ٥٦٥ واللفظ له]، وفي رواية: (وَيُبَيِّتُهُنَّ خَيْرٌ لَّهُنَّ) [٥٦٧].

وروى البزار [وابن حبان/ ٥٥٩٩] عن عبد الله [بن مسعود]، عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الْمَرْأَةَ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ، وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ بَرُوحَةَ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا). رواه الترمذي [١١٧٣]، وقال: حسن غريب. وروى البزار [٢٠٦٣] وأبو داود [٥٧٠] عن النبي ﷺ قال: (صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي مَخْدِعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا). وإسناده جيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية. وقال قتادة: يقول: إذا خرجتن من بيوتكن - وكانت لهن مشية وتكسر وتغنَّج - فنهى الله تعالى عن ذلك [الطبري ٤/٢٢]، وقال مقاتل بن حيان: والتبرج أنها تلقي الخمار على رأسها، ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج.

وروى ابن جرير [٤/٢٢] عن ابن عباس [أنه] تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صباحاً، وفي النساء دمامة، وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة، وإن إبليس لعنه الله أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام، فأجر نفسه منه فكان يخدمه، فاتخذ إبليس شيئاً من مثل الذي يُزمر فيه الرعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من حوله فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فيتبرج النساء للرجال، قال: ويتزين الرجال لهن، وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصباحتهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن فنزلوا معهن، وظهرت الفاحشة فيهن، فهو قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾.

وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح. وروى ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادي

في السوق ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة، وقال عكرمة: من شاء باهله أنها نزلت في شأن أزواج النبي ﷺ، فإن كان المراد أنهم كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن ففيه نظر، فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك:

[منها ما] رواه ابن جرير [٦/٢٢] عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة رضي الله عنها: خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مرطٌ مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن رضي الله عنه فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ورواه مسلم [٢٤٢٤].

وروى مسلم [٢٤٠٨] عن حصين بن سبرة، عن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى خُمًا، بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ووعظ وذكر ثم قال: (أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوْشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأَجِيبُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثِقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالتُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ)، فحث على كتاب الله ﷻ ورغب فيه، ثم قال: (وَأَهْلُ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي) ثلاثاً، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِّمِ الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عَقِيل وآل جعفر وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال: نعم.

ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَكُنْ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾؛ أي: واعملن بما ينزل الله على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة. قاله قتادة وغير واحد، واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها أولاهن بهذه النعمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه [رواه البخاري]، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية.

وروى السدي [كما روى الطبري عنه ٨/٢٢] عن أبي الديلم قال: قال علي بن الحسن رضي الله عنهما لرجل من الشام: أما قرأت في الأحزاب ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؟ فقال: نعم، ولأنتم هم؟ قال: نعم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾؛ أي: بلطفه بكن، بلغتن هذه المنزلة، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك أعطاكم ذلك وخصكن بذلك. قال ابن جرير رضي الله عنه: واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله تعالى على ذلك واحمدنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾؛ أي: ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة، وهي السنة. خبيراً بكن إذ

اختاركن لرسوله، وقال قتادة: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي يَوْمِئِذٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ قال: يمتن عليهن بذلك، وقال عطية العوفي: يعني: لطيفًا باستخراجها خبيرًا بموضعها، رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روي عن قتادة.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْخَافِظِينَ وَالْخَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٣٥).

روى الإمام أحمد [٢٦٦١٧]، والنسائي [١١٤٠٥]، وابن جرير [١٠/٢٢] عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكرُ في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، وأنا أسرح شعري، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرة من حجر بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد فإذا هو يقول عند المنبر: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾) إلى آخر الآية.

فقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، وفي «الصحيحين»: (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ) [البخاري/٢٣٤٣ ومسلم/٥٧] فسلبه الإيمان ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه كما قرناه في أول شرح البخاري.

وقوله: ﴿وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ﴾ القنوت هو الطاعة في سكون، قال تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَنِيتُ عَائَةَ أَتَيْتُ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، فالإسلام بعده مرتبة يرتقى إليها، ثم القنوت ناشئ عنهما. ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ هذا في الأقوال، فإن الصدق خصلة محمودة، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أماره على النفاق، ومن صدق نجا، (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا) [البخاري/٥٧٤٣ ومسلم/٢٦٠٧]، والأحاديث فيه كثيرة جدًا.

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ هذه سَجِيَّةُ الثَّبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة وتَلْقَى ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى؛ أي: أصعبه في أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه وهو صدق السجية وثباتها. ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ الخشوع: الطمأنينة، والوقار، والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته، كما في الحديث: (اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) [البخاري/٥٠].

ومسلم/ ٨ نحوه]. ﴿وَالْمَصَدِّقِينَ وَالْمَصَدِّقَاتِ﴾ الصدقة هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء، الذين لا كسب لهم ولا كاسب يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحساناً إلى خلقه، وقد ثبت في «الصحيحين»: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ) فذكر منهم: (وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالَهُ مَا تُنْفِقَ يَمِينَهُ) [البخاري/ ١٣٥٧ ومسلم/ ١٠٣١]. والأحاديث في الحث عليها كثيرة جداً. ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾، قال سعيد بن جبير: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله تعالى: ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾، ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة، كما قال رسول الله ﷺ: (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنَ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ) [البخاري/ ٧٧٨ ومسلم/ ١٤٠٠]، ناسب أن يذكر بعده ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾؛ أي: عن المحارم والمآثم إلا عن المباح كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَفَظُونَ﴾ ٥٠ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٥١﴾ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

وقوله: ﴿وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّكِرَاتِ﴾ روى ابن أبي حاتم، وأبو داود [١٣٠٩]، والنسائي [١١٤٠٦]، وابن ماجه [١٣٣٥] عن أبي سعيد الخدري قال: إن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّيَا رَكَعَتَيْنِ، كُتِبَا تِلْكَ اللَّيْلَةُ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ) [وسنده صحيح].

وروى الإمام أحمد [٩٣٢١] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ). قالوا: وما المفردون؟ قال ﷺ: (الذَّاكِرُونَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ) [وإسناده صحيح]. وقوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم أي: أن الله تعالى قد أعد لهم؛ أي: هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجرًا عظيمًا وهو الجنة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ ٥١.

عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضي الله عنه فاستنكفت منه وقالت: أنا خير منه حسبًا، وكانت امرأة فيها حدة، فأُنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية كلها، وهكذا قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل بن حيان إنها نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاة زيد بن حارثة رضي الله عنه، فامتنعت ثم أجابت [الطبري ١١/٢٢].

وهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد هنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٥٩].



[٦٥]، ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٣٧).

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ﷺ أنه قال لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه وهو الذي أنعم الله عليه؛ أي: بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: بالعتق من الرق، وكان سيداً كبير الشأن جليل القدر حبيباً إلى النبي ﷺ يقال: له الحب، ويقال: لابنه أسامة الحب بن الحب، وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية، وأمها أمة بنت عبد المطلب، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ) قال الله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ ذكر ابن أبي حاتم، وابن جرير هاهنا آثاراً عن بعض السلف رضي الله عنهم، أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردنا.

وقد روى البخاري [٤٥٠٩] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن هذه الآية ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة رضي الله عنهما، وروى ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين في قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ قال: الله أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال: (اتَّقِ اللَّهَ، وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ)، وروى عن السدي أنه قال نحو ذلك.

وروى ابن جرير [١٣/٢٢] عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لو كنتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكنتم ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [وأصله في «الصحیح»].

وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ الوطر هو الحاجة والأرب؛ أي: لما فرغ منها وفارقها، وزوجناكها، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله ﷻ بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد، ولا مهر، ولا شهود من البشر.

وروى الإمام أحمد [١٣٠٤٨] عن أنس رضي الله عنه قال: لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: (اذهب فاذكروها علي) فانطلق حتى أتاه وهي تُحَمَّرُ عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي ﷻ، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، ورواه مسلم [١٤٢٨].

وقد روى البخاري [٦٩٨٤] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات. وقوله: ﴿لَيْكَلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾؛ أي: إنما أبحننا لك تزويجها، وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة رضي الله عنه، فكان يقول له زيد بن محمد، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ - إلى قوله تعالى: - ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤، ٥] ثم زاد ذلك بياناً وتأكيذاً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها، لما طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه، ولهذا قال تعالى في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] ليحترز من الابن الدعي، فإن ذلك كان كثيراً فيهم. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾؛ أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحثمه وهو كائن لا محالة، كانت زينب رضي الله عنها في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾.

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾؛ أي: فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب رضي الله عنها التي طلقها دعيه زيد بن حارثة رضي الله عنه. وقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا ردٌّ على من توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾؛ أي: وكان أمره الذي يقدره كائن لا محالة وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿الَّذِينَ يُلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾  
﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

يمدح تبارك وتعالى ﴿الَّذِينَ يُلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها ﴿وَيَخْشَوْنَ﴾؛ أي: يخافونه ولا يخافون أحداً سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾؛ أي: وكفى بالله ناصراً ومعيناً، وسيد الناس في هذا المقام بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ، فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها، وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿قُلْ يَتَابِعُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام

بها بعده أصحابه ﷺ، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسره وعلايته، فرضي الله عنهم وأرضاهم. ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون، فנסأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم.

وروى الإمام أحمد [١١٢٧٣] عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَخْفَرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرًا لَلَّهِ فِيهِ مَقَالٌ ثُمَّ لَا يَقُولُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَقُولَ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: رَبِّ، خَشِيتُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: فَأَنَا أَحَقُّ أَنْ يُخْشَى) ورواه ابن ماجه [٤٠٠٨]، وقال البوصيري: إسناده صحيح.

وقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ نهى تعالى أن يقال بعد هذا زيد بن محمد؛ أي: لم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فإنه ﷺ لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة ﷺ، فماتوا صغاراً وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً رضيعاً، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم، وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين، فمات في حياته ﷺ ثلاث، وتأخرت فاطمة ﷺ حتى أصيبت به ﷺ، ثم مات بعده لسته أشهر.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَرَ النَّبِيِّنَّ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ كقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأخرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة ﷺ. روى الإمام أحمد [١٣٨٥١] عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنَّبُوَّةَ قَدْ انْقَطَعَتْ، فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيٍّ) قال: فشق ذلك على الناس، فقال: (وَلَكِنَّ الْمُبَشِّرَاتِ) قالوا: يا رسول الله وما المبشرات؟ قال: (رُؤْيَا الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ، وَهِيَ جُزْءٌ مِّنْ أَجْزَاءِ النَّبُوَّةِ) ورواه الترمذي [٢٢٧٢]، وقال: صحيح غريب.

وروى أبو داود الطيالسي [١٧٨٥] عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ، فَكَانَ مَن دَخَلَهَا فَتَنَظَرَ إِلَيْهَا قَالَ: مَا أَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ هَذِهِ اللَّبَنَةِ! فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبَنَةِ، خِمْ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ ﷺ)، ورواه البخاري [٣٣٤٢].

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخِمْ بِي النَّبِيُّونَ)، والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ورسوله ﷺ في السُّنَّةِ المتواترة عنه أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادَّعى هذا المقام بعده فهو كذاب وأفاك دجال ضال مضل، ولو

تمخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرى الله ﷻ على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذي لب وفهم أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله، وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها، وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرؤن بمعروف ولا ينهؤن عن منكر إلا على سبيل الاتفاق أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُتْبِكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]، وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرؤن به وينهؤن عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم ما دامت الأرض والسموات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ نَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَقُومَتِ السُّلُوكُ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب، وجميل المآب. روى الإمام أحمد [٢١٧٥٠] عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (أَلَا أُتْبِكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَرْكَأَهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرَ لَّكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرَ لَّكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟) قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: (ذِكْرُ اللَّهِ ﷻ) [ورواه الحاكم في «المستدرک»/ ١٨٢٥ وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي].

وروى الإمام أحمد [١٧٧١٦] عن عبد الله بن بسر قال: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال ﷺ: (مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ)، وقال الآخر: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فمروني بأمر أتشبث به، قال ﷺ: (لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ). وروى الترمذي [٣٣٧٥] وابن ماجه [٣٧٩٣/ آخره]، وقال الترمذي: حديث حسن غريب. [رجاله رجال مسلم].

وروى الإمام أحمد [٧٠٩٣] عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ، إِلَّا رَأَوْهُ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [قال الهيثمي في «المجمع»: رجاله رجال الصحيح]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدًا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإن الله تعالى لم يجعل له حدًا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على تركه،

فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، بالليل والنهار في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال. وقال: ﴿وَسِيحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته. والأحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله تعالى كثيرة جدًا، وفي هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من ذلك، وقد صنف الناس في الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائي والمعمري وغيرهما، ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك كتاب «الأذكار» للشيخ محيي الدين النووي رحمته الله.

وقوله: ﴿وَسِيحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: عند الصباح والمساء، كقوله ﷻ: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨]. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ هذا تهيج إلى الذكر؛ أي: أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال النبي ﷺ: (يَقُولُ اللَّهُ: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ) [البخاري/٦٩٧٠ ومسلم/٢٦٧٥]، والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاها البخاري عن أبي العالية، وقال غيره: الصلاة من الله الرحمة. ورد بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وقد يقال: لا منافاة بين القولين، والله أعلم.

وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله: ﴿الَّذِينَ يَمُوتُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ﴾ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ [غافر: ٧ - ٩]. وقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: بسبب رحمته بكم وثناؤه عليكم ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصّرهم الطريق الذي ضل عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياعهم من الطعام، وأما رحمته بهم في الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار وما ذاك إلا لمحبتهم لهم ورأفته بهم.

وروى الإمام أحمد [١٢٠٣٧] عن أنس رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه رضي الله عنهم، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني، ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار، قال فحَفَضَهُمْ رسول الله ﷺ وقال: (لَا، وَاللَّهِ لَا يُلْقِي حَبِيبُهُ فِي النَّارِ). إسناده على شرط الصحيحين، وفي «صحيح البخاري» [٥٦٥٣ بنحوه] عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيًا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: (أَتَرُونَ هَذِهِ تُلْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟) قالوا: لا. قال رسول الله ﷺ: (فَوَاللَّهِ، اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا).

وقوله: ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَقُومُهُمْ سَلَامٌ﴾ الظاهر أن المراد - والله أعلم - تحييتهم، أي من الله تعالى يوم يلقونه سلام أي يوم يسلم عليهم كما قال ﷻ: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضًا بالسلام يوم يلقون الله في الدار الآخرة، واختاره ابن جرير.

قلت: وقد يستدل له بقوله تعالى: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾؛ يعني: الجنة وما فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناجك والملاد والمناظر، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (٤٦) ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا اللَّهُ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ (٤٧) ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٤٨).

روى الإمام أحمد [٦٦٢٢] عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وجزرًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ، لَسْتَ بِقَطْ، وَلَا غَلِيظَ وَلَا سَحَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ، بَأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَفْتَحَ بِهَا أَغْنِيًا عُمِيًّا، وَأَدَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وقد رواه البخاري [٢٠١٨].

وقوله: ﴿شَهِدًا﴾؛ أي: لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] كقوله: ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾؛ أي: بشيرًا للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيرًا للكافرين من وبيل العقاب، وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾؛ أي: داعيًا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾؛ أي: وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشرافها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند. وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾؛ أي: لا تطعهم وتسمع منهم في الذي يقولونه ﴿وَدَعِ أَذْنَهُمْ﴾؛ أي: اصفح وتجاوز عنهم، وكل أمرهم إلى الله تعالى، فإن فيه كفاية لهم، ولهذا قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّنَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّوَهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٤٩).

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن

آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده أو في الوطء أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده إلا في هذه الآية، فإنه استعمل في العقد وحده لقوله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها.

وقوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ خرج مخرج الغالب إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتانية في ذلك بالاتفاق، وقد استدل ابن عباس رضي الله عنه وسعيد بن المسيب، والحسن البصري وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح، لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله، وهذا مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل، وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى، وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق، فعندهما متى تزوجها طلقت منه، واختلفا فيما إذا قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة، وقال أبو حنيفة رحمته الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية.

وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا طَلَّاقَ لِابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ). رواه أحمد [٦٧٦٩]، وأبو داود [٢١٩٠]، والترمذي [١١٨١]، وابن ماجه [٢٠٤٧]، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب، والمسيب مطلق، ويراد به الوطء.

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء، أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها، فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشرًا، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضًا.

وقوله: ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ، وَعَلَى الْقَمَرِ قَدَرُهُ، مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وفي «صحيح البخاري» [٤٩٥٧] عن سهل بن سعد، وأبي أسيد رضي الله عنه قالوا: إن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها، فكانها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين. قال ابن عباس رضي الله عنه: إن كان سمي لها صداقًا فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمي لها صداقًا فأمتعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل [الطبري ١٩/٢٢].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾

يقول تعالى مخاطباً نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن وهي الأجور هاهنا، كما قاله مجاهد وغير واحد. وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونسأ وهو نصف أوقية، فالجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان، فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمئة دينار وإلا صفية بنت حيي، فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها، كذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها، رضي الله عنهن أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾؛ أي: وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم ﷺ، وكانتا من السراي ﷺ. وقوله: ﴿وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ﴾ هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط، فإن النصراري لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصراري، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت وهذا شنيع فظيع، وإنما قال: ﴿وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ﴾ فوحد لفظ الذكر لشرفه وجمع الإناث لنقصهن كقوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، ﴿يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وله نظائر كثيرة.

وقوله: ﴿الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾ روى ابن أبي حاتم [١٧٧٢١] عن أم هانئ قالت: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾ قالت: فلم أكن أحل له، ولم أكن ممن هاجر معه كنت من الطلقاء، ورواه الترمذي في جامعه، [برقم: ٣٢١٤، وقال: حسن صحيح]. وهكذا قال أبو رزين وقتادة إن المراد من هاجر معه إلى المدينة، وفي رواية عن قتادة ﴿الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾؛ أي: أسلمن.

وقوله: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾؛ أي: ويحل لك يا أيها النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك، وهذه الآية توالى فيها شرطان، كقوله تعالى إخباراً عن نوح ﷺ أنه قال لقومه: ﴿وَلَا يَفْعَلُوا نِصَحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].



وروى الإمام أحمد [٢٢٩٠١] عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: (هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُصَدِّقُهَا بِإِيَّاهُ؟) فقال: ما عندي إلا إزارِي هذا، فقال رسول الله ﷺ: (إِنْ أُعْطِيَتْهَا إِزَارُكَ جَلَسْتَ لَا إِزَارَ لَكَ، فَالْتَمَسْ شَيْئًا) فقال: لا أجد شيئاً، فقال: (الْتَمَسْ وَلَوْ خَاتِماً مِنْ حَدِيدٍ) فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: (هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟) قال: نعم سورة كذا وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له النبي ﷺ: (زَوِّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ) أخرجاه [البخاري/٤٨٢٩ ومسلم/١٤٢٥ بنحوه].

واللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير، وروى ابن أبي حاتم، وابن جرير [٢٣/٢٢]، عن ابن عباس قال: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له؛ أي: أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به؛ لأنّه مردود إلى مشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَ خَالِصَةً﴾؛ أي: إن اختار ذلك. وقوله: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال عكرمة؛ أي: لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً، وكذا قال مجاهد، والشعبي وغيرهما؛ أي: أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ في بَرُوع بنت واشق لما فوضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصدّق مثلها لما توفي عنها زوجها [رواه الترمذي/١١٤٥ وصححه]، والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ، فأما هو عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها؛ لأن له أن يتزوج بغير صدّق ولا ولي، ولا شهود، كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها، ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال أبي بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وابن جرير [٢٤/٢٢]: أي: من حصرهم في أربع نسوة حرائر، وما شأوا من الإماء واشترط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿تُرْجَى مِنْ نَشَاءٍ مِثْنٍ وَتُقْوَى إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ وَمِنْ أَنْبَغَيْتٍ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْزَيْنَ وَرِضَاكِ بِمَا آيَلَتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ (٥١).

روى الإمام أحمد [٢٥٢٩٠] عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تُعَيِّرُ النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صدّق؟ فأنزل الله ﷻ ﴿تُرْجَى﴾

مَنْ نَشَأَ مِنْهُنَّ وَتَوَيَّ إِلَيْكَ مَنْ نَشَأَ ﴿٥٢﴾ الآية، قالت: إني أرى ربك يسارع لك في هواك، ورواه البخاري [٤٨٢٣]، فدل هذا على أن المراد بقوله: ﴿تُرْجَى﴾؛ أي: تؤخر ﴿مَنْ نَشَأَ مِنْهُنَّ﴾؛ أي: من الواهبات أنفسهن ﴿وَتَوَيَّ إِلَيْكَ مَنْ نَشَأَ﴾؛ أي: من شئت قبلتها ومن شئت رددتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضًا بالخيار بعد ذلك، إن شئت عدت فيها فأويتها، ولهذا قال: ﴿وَمِنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿تُرْجَى مَنْ نَشَأَ مِنْهُنَّ وَتَوَيَّ إِلَيْكَ مَنْ نَشَأَ﴾؛ أي: من أزواجك لا حرج عليك أن تترك القسم لهن، فتقدم من شئت وتؤخر من شئت، وتجمع من شئت وتترك من شئت، هكذا يروى عن ابن عباس، والحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لهن، ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ﷺ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة.

وروى البخاري [٤٥١١] عن مُعَاذَةَ عن عائشة أن رسول الله ﷺ: كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية ﴿تُرْجَى مَنْ نَشَأَ مِنْهُنَّ وَتَوَيَّ إِلَيْكَ مَنْ نَشَأَ وَمِنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول إن كان ذلك إلي فإني لا أريد يا رسول الله أن أؤثر عليك أحداً، فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القسم، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء، اللاتي عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم، وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، وفيه جمع بين الأحاديث، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدَّى أَنْ نَفَرَ أَغْيُثُنَّ وَلَا يَحْزَبَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾؛ أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أن تقسم لهن اختياراً منك، لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به، وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمتك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه، كما روى الإمام أحمد [٢٥١٥٤] وأصحاب السنن عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: (اللَّهُمَّ هَذَا فِعْلِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تُلْمَنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ)، وزاد أبو داود [٢١٣٤] بعد قوله: (فَلَا تُلْمَنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ)؛ يعني: القلب، وإسناده صحيح، ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً﴾؛ أي: بضمائر السرائر ﴿حَلِيماً﴾؛ أي: يحلم ويغفر.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ ﴿٥٣﴾.

ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وابن جرير وغيرهم، أن هذه

الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهن على حسن صنعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن، وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء فلا حرج عليه فيهن، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنّة لرسول الله ﷺ عليهن.

روى الإمام أحمد [٢٥٦٩٣] عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء، ورواه الترمذي [٣٢١٦] والنسائي [٥٣١٤] في سننهما [وسنده صحيح].

وقال آخرون: بل معنى الآية ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾؛ أي: من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك، اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك وبنات العم والعمت والخال والخالات والواهة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك، وهذا مروي عن أبي بن كعب، ومجاهد في رواية عنه، وعكرمة والضحاك في رواية، وأبي رزين في رواية عنه، وأبي صالح، والحسن، وقتادة في رواية، والسدي وغيرهم.

واختار ابن جرير رحمه الله: أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعاً، وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف، فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا ولا منافاة، والله أعلم. ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روي أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها! وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح، ولكن لا يحتاج إلى ذلك، فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته وأنه لا يستبدل بهن غيرهن، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال، فالله أعلم، فأما قضية سودة ففي الصحيح عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها وهي سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النساء: ١٢٨]، وأما قضية حفصة فروى أبو داود [٢٢٨٣] والنسائي [٥٧٥٥]، وابن ماجه [٢٠١٦]، وابن حبان في «صحيحه» [٤٢٧٥] عن عمر أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها، وإسناده قوي. وعن ابن عمر قال: دخل عمر على حفصة وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك، إنه قد كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً، ورجاله على شرط «الصحيحين» [ذكره الضياء في «المختارة»/ ٢٢١ وابن حبان/ ٤٢٧٦].

وقوله: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْبَجَكَ خُسْنُهُنَّ﴾ فنهاه عن الزيادة عليهن أو طلاق واحدة منهن، واستبدال غيرها بها، إلا ما ملكت يمينه.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرِ  
إِنَّهُ وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِذِكْرِ إِنْ ذَلِكَ كَانَ  
يُؤْذَى النَّبِيِّ فَيَسْتَحْيَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيَ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ  
وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا  
أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ  
تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

هذه آية الحجاب وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما ثبت ذلك في «الصحيحين» [البخاري/٣٩٣ ومسلم/٢٣٩٩ بمعناه] عنه أنه قال: وافقت ربي صلى الله عليه وسلم في ثلاث، [وذكر منها]: قلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب، وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزینب بنت جحش، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة في قول قتادة والواقدي وغيرهما، وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى وخليفة بن خياط أن ذلك كان في سنة ثلاث، فالله أعلم.

وروى البخاري [٤٥١٣] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا، فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقي الحجاب بيني وبينه فأنزل الله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرِ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ الآية.

**فقوله:** ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذن كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِيَّاكُمْ وَالْدُخُولَ عَلَى النِّسَاءِ) [البخاري/٤٩٣٤ ومسلم/٢١٧٢]، ثم استثنى من ذلك فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرِ إِنَّهُ﴾ قال مجاهد، وقتادة وغيرهما: أي: غير متحينين نضجه واستواءه، أي: لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه، وهذا دليل على تحريم التطفيل وهو الذي تسميه العرب الضيفن، وقد صنف الخطيب البغدادي في ذلك كتاباً في ذم الطفيليين، وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ وفي «صحيح مسلم» [١٤٢٩] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُجِبْ، عُرْسًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ)، وأصله في «الصحيحين»، وفي «الصحيح» أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أَهْدَيْتُ إِلَيَّ كُرَاعَ لَقَبِلْتُ، فَإِذَا فَرَعْتُمْ مِنَ الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ فَخَفُّوا عَنْ أَهْلِ

الْمَنْزِلَ، وَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ) [البخاري/٢٤٢٩ نحوه] ولهذا قال: ﴿وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ﴾؛ أي: كما وقع لأولئك نفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجِ مِنْكُمْ﴾، وقيل: المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه ﷺ حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجِ مِنْ أَحَدٍ﴾؛ أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾؛ أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن، فلا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب، وروى ابن أبي حاتم [والنسائي ١١٤١٩] عن عائشة قالت: كنت أكل مع النبي ﷺ حيساً في قعب، فمر عمر فدعاه فأكل، فأصابته إصبعة إصبعي، فقال: حس، أو: أوه، لو أطاع فيكن ما رأته عيني، فنزل الحجاب [وسنده حسن]. ﴿ذَلِكَ أَطْهَرُ لِقَائِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾؛ أي: هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم، واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته: هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره والحالة هذه نزاعاً، والله أعلم.

وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خُفُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾؛ أي: مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله يعلمه، فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

لما أمر تعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور عند قوله: ﴿وَلَا يُدْرِكُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ إلى آخرها [النور: ٣١]، وفيها زيادات على هذه، وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته.

روى ابن جرير [٤٢/٢٢] عن داود عن الشعبي وعكرمة في قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ﴾ الآية، قلت: ما شأن العم والخال لم يذكر؟ قالوا: هما ينعتانها لأبنائهما وكرها أن تضع

خمارها عند خالها وعمها . [وقد أذن النبي ﷺ لعائشة أن يدخل عليها عمها من الرضاعة كما في «الصحيحين» برقم: ٤٨١٥].

وقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُهُنَّ﴾؛ يعني: بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات . وقوله: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾؛ يعني به: أرقاءهن من الذكور والإناث كما تقدم التنبيه عليه وإيراد الحديث فيه، [انظر: «تفسير النور»: ٣١]. قال سعيد بن المسيب: إنما يعني به الإمام فقط، وقوله: ﴿وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾؛ أي: واخشينه في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية فراقبن الرقيب .

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. ﴿٥٦﴾

قال البخاري [١٨٠٢/٤]: قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء، وقال ابن عباس: يصلون: يبركون، هكذا علقه البخاري عنهما، وقال أبو عيسى الترمذي [٤٨٥]: وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم، قالوا: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار .

والمقصود من هذه الآية أن الله ﷻ أخبر عباده بمنزلة عبده ونبهه عنده في الملاء الأعلى بأنه يشني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي جميعاً .

وقد أخبر ﷻ بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿٥٦﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥٧﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴿٥٨﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٣]، وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه، فمنها ما روى البخاري [٣١٩٠] عند تفسير هذه الآية، عن كعب بن عجرة قال: قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: (قُولُوا: اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ، بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) .

ومعنى قولهم أما السلام عليك فقد عرفناه هو الذي في التشهد، الذي كان يعلمهم إياه كما كان يعلمهم السورة من القرآن، وفيه السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .

وروى البخاري [٤٥٢٠] أيضاً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله هذا السلام، فكيف نصلي عليك؟ قال: (قُولُوا: اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ)، وفي رواية: (عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ) .

وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير، فإن تركه لم تصح صلاته، وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يشنع على

الإمام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة، ويزعم أنه قد تفرد بذلك، وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطابي وغيرهم فيما نقله القاضي عياض عنهم، وقد تعسف هذا القائل في رده على الشافعي، وتكلف في دعواه الإجماع في ذلك، وقال ما لم يحط به علماً، فإننا قد رويناه وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ في الصلاة، كما هو ظاهر الآية، ومفسر بالحديث عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود، وأبو مسعود البدرى وجابر بن عبد الله، ومن التابعين: الشعبي، وأبو جعفر الباقر، ومقاتل بن حيان، وإليه ذهب الشافعي لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيراً فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي، وبه قال إسحاق بن راهويه والفقهاء الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المالكي رحمهم الله، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوه.

والغرض أن الشافعي رَضِيَ اللهُ لِقَوْلِهِ بِوَجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة سلفاً وخلفاً كما تقدم، والله الحمد والمنة، فلا إجماع على خلافه في هذه المسألة لا قديماً ولا حديثاً، والله أعلم. ومما يؤيد ذلك الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد [٢٣٩٨٢]، وأبو داود [١٤٨١]، والترمذي [٣٤٧٧]، وصححه، والنسائي وابن خزيمة [٧١٠]، وابن حبان [١٩٦٠] في «صحيحيهما» عن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجد الله ولم يصل على النبي، فقال رسول الله ﷺ: (عَجَلْ هَذَا). ثم دعاه فقال له أو لغيره: (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ اللَّهِ ﷻ، وَالتَّائِبِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ).

وروى الإمام أحمد [٢١٢٨٠] عن أبي بن كعب قال: قال رجل: يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك؟ قال: (إِذَنْ يَكْفِيكَ اللَّهُ مَا أَهَمَّكَ مِنْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ) [وسنده حسن]. وروى مسلم [٤٠٨] عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا).

وروى الترمذي [٣٥٤٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ. وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ، ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَذْرَكَ عَنْدهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ)، وقال: حسن غريب.

وهذا الحديث دليل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ كما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحلي، وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس، بل تستحب، نقله الترمذي عن بعضهم، ويتأيد بالحديث الذي رواه أحمد [٩٨٤٢] والترمذي [٣٣٨٠] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تَرَةٌ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وقد روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ من غير وجه.

وحكي عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - في العمر مرة واحدة امتثالاً لأمر الآية. ثم هي مستحبة في كل حال، وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة. قال: وقد حكى الطبري أن محملاً الآية على الندب، وادعى فيه الإجماع. قال: ولعله فيما زاد على المرة، والواجب فيه مرة كالشهادة له بالنبوة، وما زاد على ذلك فمندوب مُرَغَّب فيه من سُنَنِ الإسلام وشعار أهله.

قلت: وهذا قول غريب، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة، فمنها واجب ومنها مستحب على ما نبينه.

فمنه بعد النداء للصلاة للحديث الذي رواه مسلم [٣٨٤] عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إِذَا سَمِعْتُمْ مُؤَذِّنًا فَقُولُوا مِثْلَمَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ).

ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه للحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٦٤٥٩] عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم، وقال: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ)، وإذا خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ) [صحيح بشواهده].

وأما الصلاة عليه ﷺ في الصلاة، فقد قدمنا الكلام [على وجوبها] في التشهد الأخير ومن ذهب إلى ذلك من العلماء، منهم الشافعي وأحمد رحمهما الله، وأما التشهد الأول فلا يجب فيه قولاً واحداً وهل تستحب؟ على قولين للشافعي، ومن ذلك الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنائز، فإن السُّنَّة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب، وفي الثانية يصلي على النبي ﷺ، وفي الثالثة يدعو للميت، وفي الرابعة يقول: اللَّهُمَّ لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده.

روى الشافعي رحمه الله [في مسنده ص ٣٥٩] عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن السُّنَّة في الصلاة على الجنائز أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرّاً في نفسه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ويخلص الدعاء للجنائز، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها، ثم يسلم سرّاً في نفسه. ورواه النسائي عن أبي أمامة نفسه، وهذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح، ورواه إسماعيل القاضي عن سعيد بن المسيب، ومن ذلك في صلاة العيد: روى إسماعيل القاضي عن علقمة أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة، خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد فقال لهم: إن هذا العيد قد دنا فكيف التكبير فيه؟ قال عبد الله: تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة وتحمد ربك، وتصلي على النبي ﷺ ثم تدعو وتكبر وتفتل مثل ذلك، ثم تكبر وتفتل مثل ذلك، ثم تكبر وتفتل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ، ثم تدعو وتكبر وتفتل مثل ذلك ثم تركع، فقال حذيفة وأبو موسى: صدق أبو عبد الرحمن، إسناده صحيح.



ومن ذلك أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ روى الترمذي [٤٨٦] عن عمر بن الخطاب قال: الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك.

ومن أكد ذلك دعاء القنوت لما رواه أحمد [١٧٢٣]، وأهل السنن [الترمذي/٤٦٤ وأبو داود/١٤٢٥ والنسائي/١٤٤٢]، وابن خزيمة [١٠٩٥]، وابن حبان [٩٤٥]، والحاكم [٤٨٠١] من حديث أبي الجوزاء عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: (اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ) [الحديث]، وزاد النسائي في سننه - بعد هذا - (وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ).

ومن ذلك أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة، روى الإمام أحمد [١٦٢٠٧]، وأبو داود [١٠٤٧] عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَفْضَلَ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ) قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أَرَمْتَ؟ يعني: وقد بليت، قال: (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ)، وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والنووي في «الأذكار».

وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ)، فهذا جائز بالإجماع وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم، فقال قائلون: يجوز ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وبقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وبقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وبحديث: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى) أخرجه في «الصحيحين» [البخاري/١٤٢٦ ومسلم/١٠٧٢]، وقال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفرد غير الأنبياء بالصلاة؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: قال أبو بكر صلى الله عليه أو قال علي صلى الله عليه، وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: قال محمد عز وجل، وإن كان عزيزاً جليلاً؛ لأن هذا من شعار ذكر الله ﷻ. وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم، ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى، وهذا مسلك حسن.

وقال آخرون: لا يجوز ذلك؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم، فلا يقتدى بهم في ذلك، والله أعلم. ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم، أو الكراهة التنزيهية، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال، حكاها الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب «الأذكار». ثم قال: والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه؛ لأنه شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم، والمكروه هو ما ورد فيه نهي مقصود.

قلت: وقد غلب في عبارة كثير من النساخ للكتب أن يفرد علي رضي الله عنه بأن يقال ﷺ من دون

سائر الصحابة أو كرم الله وجهه، وهذا وإن كان معناه صحيحًا، لكن ينبغي أن يُساوى بين الصحابة في ذلك، فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه رضي الله عنهم أجمعين.

قال النووي: إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول: «صلى الله عليه» فقط، ولا «عليه السلام» فقط، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ فالأولى أن يقال: صلى الله عليه وسلم تسليمًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾.

يقول تعالى متهددًا ومتوعدًا من آذاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك، وآذى رسوله بعب أو بنقص، عيادًا بالله من ذلك. قال عكرمة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نزلت في المصوّرين، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، أَقْلَبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ) [البخاري/٥٤٩؛ ومسلم/٢٢٤٦]، ومعنى هذا: أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا، فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله ﷻ فنهى عن ذلك. هكذا قرره الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من العلماء رحمهم الله.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حُيي بن أخطب [ابن أبي حاتم/١٧٧٣]، والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ومن آذاه فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا﴾؛ أي: ينسبون إليهم ما هم برّاء منه لم يعملوه ولم يفعلوه، ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ وهذا هو البهت البين أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برّاهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم، فإن الله ﷻ قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبدًا.

وروى أبو داود [٤٨٧٤] عن أبي هريرة أنه قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: (ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ). قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ)، وهكذا رواه الترمذي [١٩٣٤]، وقال: حسن صحيح.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٩﴾ لَّيْنٌ لَّمْ يَنْهَ الْمُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ٦٠ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُقِفُوا أُحْذَوْا وَقَتَلُوا نَقْتِيلًا ٦١ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ٦٢﴾.

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ تسليمًا أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبن ليميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء، والجلباب هو الرداء فوق الخمار. قاله ابن مسعود، والحسن البصري، وسعيد بن جببر وغير واحد وهو بمنزلة الإزار اليوم. قال الجوهري: الجلباب الملحفة، قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلًا لها:

تَمْشِي النُّسُورُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشْيَ الْعَذَارَى عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيبُ

قال ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدن عينا واحدة، وقال محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن قول الله ﷻ: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى، وقال عكرمة: تغطي ثغرة نحرها بجلابها تدنيه عليها، وروى ابن أبي حاتم [برقم/١٧٧٨٧، والبخاري] عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها [أبو داود بنحوه/٤١٠٢].

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ﴾؛ أي: إذا فعلن ذلك عُرفن أنهن حرائر، لسن بإماء ولا عواهر. قال السدي: كان ناس من فساد أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة يتعرضون للنساء وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن فكان أولئك الفساق يتبعون ذلك منهن، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا: هذه حرة فكفوا عنها، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا: هذه أمة فوثبوا عليها، وقال مجاهد: يتجلبن فيعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾؛ أي: لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك. ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ قال عكرمة وغيره: هم الزناة هاهنا [ابن أبي شبة/٣٥٦١٧، والطبري/٤٧/٢٢] ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾؛ يعني: الذين يقولون: جاء الأعداء، وجاءت الحروب، وهو كذب واقتراء، لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي لنسلطنك عليهم [ابن أبي حاتم/١٧٧٩٧]، وقال قتادة: لنحرقنك بهم، وقال السدي: لنعلمنك بهم. ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾؛ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ مدة قريبة ﴿مَلْعُونِينَ﴾ مطرودين مبعدين، ﴿أَيْنَمَا تُقِفُوا﴾؛ أي: وجدوا ﴿أُحْذَوْا﴾ لذلتهم وقتلتهم ﴿وَقَتَلُوا نَقْتِيلًا﴾. ثم قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على

نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه، أن أهل الإيمان يسלטون عليهم ويقهرونهم ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾؛ أي: وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (١٣)  
 إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَلَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٥﴾  
 يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِنَا ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿١٨﴾.

يقول تعالى مخبراً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أنه لا علم له بالساعة، وإن سأله الناس عن ذلك، وأرشده أن يرد علمها إلى الله ﷻ كما قال الله تعالى في سورة الأعراف وهي مكية وهذه مدنية، فاستمر الحال في رد علمها إلى الذي يقيمها، لكن أخبره أنها قريبة بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ كما قال: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾؛ أي: في الدار الآخرة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾؛ أي: ماكثين مستمرين، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها، ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ أي: وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه. ثم قال: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾؛ أي: يسحبون في النار على وجوههم وتلوى وجوههم على جهنم يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) يَتَوَلَّى لَيَتَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ وقال طاوس، (سادتنا): يعني: الأشراف، (وكبراءنا): يعني: العلماء؛ أي: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسول واعتقدنا أن عندهم شيئاً، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ بعض القراء بالباء الموحدة، وقرأ آخرون بالثاء المثلثة وهما قريباً المعنى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ (٦٩).

روى البخاري [٣٢٢٣] عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ رَجُلًا حَيًّا سَتِيرًا، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءً مِنْهُ، فَأَذَاهُ مِنْ أَذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا:

مَا يَسْتَرْ هَذَا التَّسْتَرُ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ فِي جِلْدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أَذْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ، أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى ﷺ، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَخَلَعَ ثِيَابَهُ عَلَى حَجَرٍ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثُوبِي حَجَرٌ، ثُوبِي حَجَرٌ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ غُرْبَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ﷻ، وَأَبْرَاهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الْحَجَرُ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا - قَالَ -: فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.

وقوله: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾؛ أي: له وجاهة وجاه عند ربه ﷻ. قال الحسن البصري: كان مستجاب الدعوة عند الله، وقال غيره من السلف: لم يسأل الله شيئًا إلا أعطاه، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله ﷻ، وقال بعضهم: من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه فأجاب الله سؤاله، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧١) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧٢).

يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقولوا ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ أي: مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم؛ أي: يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها. ثم قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وذلك أنه يجاز من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم.

قال عكرمة: القول السديد: لا إله إلا الله [الطبري ٥٣/٢٢]. وقال غيره: السديد: الصدق، وقال مجاهد: هو السداد، وقال غيره: هو الصواب والكل حق [الطبري ٥٣/٢٢].

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٣).

قال ابن عباس: يعني: بالأمانة: الطاعة، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطقنها. فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الطبري ٥٤/٢٢]، وقال ابن عباس [أيضًا]: الأمانة: الفرائض [الطبري ٥٤/٢٢]، عرضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم، فكروها ذلك، وأشفقوا من غير معصية،

ولكن تعظيماً لدين الله أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾؛ يعني: غرّاً بأمر الله.

وقال مجاهد، والحسن البصري وغير واحد: إن الأمانة هي الفرائض، وقال آخرون: هي الطاعة، وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة أوتمنت على فرجها [الطبري ٥٥/٢٢]، وقال قتادة: الأمانة الدين والفرائض والحدود، وقال بعضهم: الغسل من الجنابة [ابن أبي شبة ٣٤٧٦٩]، وقال زيد بن أسلم: الأمانة ثلاثة: الصلاة والصوم والاعتسار من الجنابة، وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها بل متفقة وراجعة إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عُوقِبَ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله وبالله المستعان.

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٣٣٠٣] عن حذيفة رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ، حَدَّثَنَا (أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جِذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ). ثم حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الْأَمَانَةِ فَقَالَ: (يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ كَجَمْرِ دَحْرَجَتْهُ عَلَى رِجْلِكَ، تَرَاهُ مُتَبَرِّجًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ). قَالَ: (ثُمَّ أَخَذَ حَصَى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ)، قَالَ: (فَيُصِحُّ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ لَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجَلْدُهُ وَأَظْرَفُهُ وَأَعْقَلُهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أَبَالِي أَيْكُمُ بَايَعْتُ، إِنْ كَانَ مُسْلِمًا لَيَرُدَّنِي عَلَيَّ دِينُهُ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لَيَرُدَّنِي عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا الْيَوْمُ فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ مِنْكُمْ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا)، وأخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/ ٦١٣٢ ومسلم/ ١٤٣ بنحوه].

وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة، روى عبد الله بن المبارك في كتاب «الزهدي» [٢١٣] عن حُناَس بن سحيم أو قال: جبلة بن سحيم، قال: أقبلت مع زياد بن حُدَيْر من الجابية فقلتُ في كلامي: لا والأمانة، فجعل زياد يبكي ويبكي فظننتُ أني أتيت أمرًا عظيمًا، فقلتُ له: أكان يكره هذا؟ قال: نعم، كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشدَّ النهي. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه أبو داود [٣٢٥٣] عن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا) [رواه ابن حبان في «صحيحه» برقم: ٤٣٦٣، وسنده صحيح].

وقوله تعالى: ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾؛ أي: إنما حمل ابن آدم الأمانة وهي التكليف، ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله، ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسله، ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ أي: وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

## تفسير سورة سبا

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة: أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، ولهذا قال ههنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره. ثم قال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى. وقال: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء، وقال الزهري: خبير بخلقه، حكيم بأمره، ولهذا قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾؛ أي: يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبدور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: من قطر ورزق، وما يعرج فيها؛ أي: من الأعمال الصالحة وغير ذلك، ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾؛ أي: الرحيم بعباده، فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، العفو عن ذنوب عباده التائبين إليه المتوكلين عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في سورة

يونس: ﴿يَسْتَعِثُّونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، والثانية هذه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، والثالثة في سورة التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا عَمِلُوا وَلَئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ثُمَّ لَنُنَبِّئَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، فقوله: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. قال مجاهد وقتادة: لا يعزب عنه لا يغيب عنه [الطبري ٦٠/٢٢]؛ أي: الجميع مندرج تحت علمه، فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت، وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم، ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله: ﴿لَيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [٤] وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ؛ أي: سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ﴾؛ أي: لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقوله: ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا، رأوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ أيضًا: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ العزيز هو: المنيع الجنب الذي لا يُغالب ولا يُمانع، بل قد قهر كل شيء وغلبه، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهو المحمود في ذلك.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مَزْقٍ إِنْكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [٧] أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ شَاءَ نَحْصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [٩].

هذا إخبار من الله ﷻ عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مَزْقٍ﴾؛ أي: تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق ﴿إِنْكُمْ﴾؛ أي: بعد هذا الحال ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك، وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله تعالى أنه قد أوحى إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد، لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون، ولهذا قالوا: ﴿أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ قال الله ﷻ رادًا عليهم: ﴿بَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعموا، ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد، الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿فِي الْعَذَابِ﴾؛ أي:



في الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ عن الحق في الدنيا، ثم قال تعالى منبهاً لهم على قدرته في خلق السموات والأرض، ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ أَي: حيثما توجهوا وذهبوا، فالسمااء مظلة عليهم، والأرض تحتهم، كما قال ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨].

عن قتادة قال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ إنك إن نظرت عن يمينك، أو عن شمالك، أو من بين يديك، أو من خلفك، رأيت السماء والأرض. وقوله: ﴿إِنْ شَأْ خَسَفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسَفَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ﴾؛ أي: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا، ثم قال: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِئٍ﴾ قال قتادة: ﴿مُنْبِئٍ﴾ تائب [ابن أبي حاتم/ ١٧٨٧١]. وقال أيضاً: المنيب المقبل على الله تعالى؛ أي: إن في النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجّاع إلى الله، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها، وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (١١) ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَليحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٢).

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدد والعدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبج به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات، والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات، وفي «الصحیح» أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري ﷺ يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال ﷺ: ﴿لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِرْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ﴾ [البخاري/ ٤٧٦١] ومسلم/ ٧٩٣؛ ومعنى قوله: ﴿أَوْبَىٰ﴾؛ أي: سبحي، قاله ابن عباس، ومجاهد وغير واحد، والتأويب في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها.

وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ قال الحسن البصري، وقتادة، والأعمش وغيرهم: كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط [الطبري ٦٦/٢٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتٍ﴾ وهي الدروع قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح.

﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود ﷺ في تعليمه صنعة الدروع وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ لا تُدَقُّ المسمار فيقلق في الحلقة، ولا تُعَلِّظُه

فيفصمها، واجعله بقدر، وهكذا روي عن قتادة وغير واحد، وقال ابن عباس: السرد: جَلَقَ الحديد [ابن أبي حاتم/ ١٧٨٧٥].

وقوله: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾؛ أي: في الذي أعطاكم الله تعالى من النعم ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى علي من ذلك شيء.

﴿وَلَسَلِمَنَّ الرَّيْحُ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَلْجَوَابٍ وَقُدُورٍ رَّاسِيتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود، عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له، تحمل بساطه غدوها شهر ورواحها شهر. قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق، فينزل باصطرخ يتغذى بها، ويذهب رائحًا من اصطرخ فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطرخ شهر كامل للمسرّع، وبين إصطرخ وكابل شهر كامل للمسرّع.

وقوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ قال ابن عباس، وقاتدة، والسدي، وزيد بن أسلم، وغير واحد: القطر: النحاس. قال قتادة: وكانت باليمن. قال السدي: وإنما أسيئت له ثلاثة أيام [هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ٦٩/٢٢].

وقوله: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِذْنِ رَبِّهِ﴾؛ أي: وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه؛ أي: بقدره وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنيات وغير ذلك ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾؛ أي: ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وهو الحريق.

وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ﴾ أما المحارب فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدرة، وقال مجاهد: المحارب بانيان دون القصور. وقال الضحاك: هي المساجد، وقال قتادة: هي القصور والمساجد، وقال ابن زيد: هي المساكن. وأما التماثيل، فقال عطية العوفي والضحاك والسدي: التماثيل الصور. قال مجاهد: وكانت من نحاس، وقال قتادة: من طين وزجاج [هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ٧٠/٢٢]. وقوله: ﴿وَجَفَانٍ كَلْجَوَابٍ وَقُدُورٍ رَّاسِيتٍ﴾ الجواب جمع جابية، وهي الحوض الذي يجبي فيه الماء، وعن ابن عباس عليه السلام ﴿كَلْجَوَابٍ﴾؛ أي: كالجوبة من الأرض. وعنه [أيضًا]: كالحياض، وكذا قال مجاهد، والحسن، والضحاك وغيرهم، والقُدُور الراسيات؛ أي: الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها، كذا قال مجاهد والضحاك وغيرهما. وقوله: ﴿أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾؛ أي: وقلنا لهم: اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا، وشكرًا مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية، كما قال الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً بِيَدِي، وَلِسَانِي، وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّجًا

قال أبو عبد الرحمن الحُبلي: الصلاة شكر والصيام شكر، وكل خير عمله لله وَبِحَسْبِ شُكْرٍ، وأفضل الشكر الحمد، وعن محمد بن كعب القرظي قال: الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح. وهذا لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولاً وعملاً. عن ثابت البناني، قال: كان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، فغمرتهم هذه الآية ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، وفي «الصحاحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِنَّ أَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا. وَلَا يَفِرُ إِذَا لَاقَى) [البخاري/١٠٧٩ ومسلم/١٠٥٩ بنحوه].

وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ إخبار عن الواقع.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَ تَبَيَّنَ لِإِنِّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾.

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه، وهي منسأته، كما قال ابن عباس رضي الله عنه، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغير واحد: مدة طويلة نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض، وهي الأرضة، ضعفت وسقطت إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦)﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ (١٧)﴾.

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والفرق في البلاد، شذر مذر، كما سيأتي إن شاء الله تعالى تفصيله وبيانه قريباً وبه الثقة.

روى الإمام أحمد [٢٩٠٠] عن ابن عباس: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ: ما هو أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال ﷺ: (بَلْ هُوَ رَجُلٌ، وَلَدَ لَهُ عَشْرَةٌ، فَسَكَنَ الْيَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَبِالشَّامِ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ، فَأَمَّا الْيَمَانِيُّونَ: فَمَذْحِجٌ، وَكِندَةُ، وَالْأَزْدُ، وَالْأَشْعَرِيُّونَ، وَأَنْمَارٌ، وَحِمِيرٌ. وَأَمَّا الشَّامِيَّةُ: فَلَحْمٌ، وَجُدَامٌ، وَعَامِلَةٌ، وَغَسَّانٌ)، وإسناده حسن.

ومعنى قوله: (فَتَيَّامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَتَشَاءَمَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ)؛ أي: بعدما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم، منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نرح عنها إلى غيرها، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبليْن، وتجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقدام فبنوا بينهما سدًا عظيمًا محكمًا، حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبليْن، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة، أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار، وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطاف لكثرتِه ونضجِه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب، ويعرف بسد مأرب، وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم، ليوحده ويعبده، كما قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ ثم فسرها بقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾؛ أي: من ناحيتي الجبليْن والبلدة بين ذلك، ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾؛ أي: غفور لكم إن استمررتُم على التوحيد.

وقوله: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾؛ أي: عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله، كما قال هدهد سليمان: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (٢٢) ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٢ - ٢٤].

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ قيل: المراد بالعرم المياه، وقيل: الوادي، وقيل: الجُرْد، وقيل: الماء الغزير، فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع، حكى ذلك السهيلي، وذكر غير واحد منهم ابن عباس، ووهب بن منبه، وقتادة والضحاك: إن الله وَجَّلَ لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض يقال لها الجُرْد نقبته. وقال قتادة وغيره: الجُرْد هو الخُلْد، نقبت أسافله حتى إذا ضعف ووهى، وجاءت أيام السيول، صدم الماء البناء فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبليْن عن يمين وشمال، فبيست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراساني والحسن، وقتادة، والسدي: وهو الأراك. ﴿وَأَثَلِ﴾ قال ابن عباس: هو الطَّرْفَاء، وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء، وقيل: هو السَّمُر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَشَقَىٰ مِنَ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السِّدْر قال: ﴿وَشَقَىٰ مِنَ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾. فهذا الذي صار أمر تَيْنِكَ الجنتيْن إليه بعد الثمار النضيجة، والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق

وعدولهم عنه إلى الباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ كَفُورًا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ﴾؛ أي: عاقبتهم بكفرهم. قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور [الطبري ٢٢/٨٣]، وقال الحسن البصري نحوه، وقال طاوس: لا يناقش إلا الكفور، وعن ابن خيرة، وكان من أصحاب علي رضي الله عنه، قال: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة، قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من يُغصه إياها.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث أن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا وقيل في قرية وببيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء، وكذا قال أبو مالك، وقال مجاهد، والحسن، وزيد بن أسلم والسدي وغيرهم: يعني: قرى الشام، يعنون أنهم كانوا يسIRON من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة.

وقال ابن عباس: القرى التي باركنا فيها بيت المقدس، وعنه أيضًا: هي قرى عربية بين المدينة والشام. ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾؛ أي: بينة واضحة، يعرفها المسافرون، يقولون في واحدة وببيتون في أخرى، ولهذا قال: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾؛ أي: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾؛ أي: الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهارًا. ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وقرأ آخرون: ﴿بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [الطبري ٢٢/٨٥]، وذلك أنهم بطروا هذه النعمة كما قاله ابن عباس، والحسن وغير واحد، وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم ما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنْ وسلوى وما يشتهون من مأكَل ومشارب وملابس مرتفعة، ولهذا قال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال في حق هؤلاء: ﴿وَزَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ أي: بكفرهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ﴾؛ أي: جعلناهم حديثًا للناس وسمراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ أي: إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النعمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام، لعلهم

ودلالة لكل عبد صبار على المصاب شكور على النعم، وفي «صحيح مسلم» [٢٩٩٩]: (عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنَّ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ)، وكان مطرف يقول: نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿٢١﴾.

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قال ابن عباس وغيره: هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم، ثم قال: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنِ أَنْخَرَتَنِي إِلَى يَوْمِ الْفَلِئِمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ قال ابن عباس: أي: من حجة، وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعضاً ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأمانى، دعاهم إليها فأجابوه. وقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾؛ أي: إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فَيُحَسِّنُ عِبَادَةَ رَبِّهِ ﴿وَعَلَى فِي الدُّنْيَا مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ﴾؛ أي: بحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢) وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾.

بَيَّنَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَرِيكَ لَهُ، بَلْ هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْأَمْرِ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ مُشَارِكٍ وَلَا مُنَازِعٍ، وَلَا مُعَارَضٍ، فَقَالَ: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: من الآلهة التي عبدت من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾؛ أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة، ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾؛ أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه، قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ من عون يعينه بشيء.

ثم قال: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾؛ أي: لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجتري أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولهذا ثبت في «الصحيحين» من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله تعالى أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء، قال: (فَأَسْجُدُ لِلَّهِ تَعَالَى فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي، وَيَفْتَحَ عَلَيَّ بِمَحَامِدٍ لَا أُحْصِيهَا الْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ تَسْمَعُ، وَسَلِّ تَعَطَّهُ وَاشْفَعْ تُشَفِّعُ) الحديث بتمامه [البخاري بألفاظ قريبة/ ٦١٩٧ ومسلم/ ١٩٣].

وقوله: ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ وهذا أيضًا مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي، قاله ابن مسعود رضي الله عنه ومسروق وغيرهما. ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: زال الفرع عنها، قال ابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهما والحسن [وغيرهم] [كما ذكر الطبري ٩٠/٢٢] في قوله عليه السلام: ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾. يقول: جُلِّيَ عن قلوبهم، فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضًا ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾؛ أي: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

وقال آخرون: بل معنى قوله: ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾؛ يعني: المشركين عند الاحتضار ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة قالوا: ماذا قال ربكم؟ ف قيل لهم: الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا. قال مجاهد: ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ كشف عنها الغطاء يوم القيامة، وعن الحسن نحوه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾؛ يعني: ما فيها من الشك. قال: فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانهم وما كان يضلهم، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ قال: وهذا في بني آدم هذا عند الموت، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار، وقد اختار ابن جرير القول الأول: أن الضمير عائد على الملائكة، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار، ولنذكر منها طرفًا يدل على غيره:

روى البخاري [٤٥٢٢] عند تفسير هذه الآية الكريمة في «صحيحه» عن أبي هريرة قال: إن نبي الله ﷺ قال: (إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرَقُّ السَّمْعِ، وَمُسْتَرَقُّ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةً

كَذِبَةٌ، فيقال: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيَصْدُقَ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ).

وروى الإمام أحمد [١٨٨٢] عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه، فرمى بنجم فاستنار، فقال ﷺ: (مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا كَانَ مِثْلُ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟) قالوا: كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم. قال: فقال رسول الله ﷺ: (فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتٍ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاةٍ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَسْتَخِيرُ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يُلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ، فَيَقُولُ الَّذِينَ يُلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ، وَيُخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ سَمَاءً؛ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْخَبَرُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ، وَتَخْطُفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيُرْمُونَ، فَمَا جَاؤُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَفْرُقُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ) وقد أخرجه مسلم في (صحيحه) [٢٢٢٩].

وقد روي عن ابن عباس، وقتادة أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إحياء الله تعالى إلى محمد ﷺ بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى عليه الصلاة والسلام، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى مقررًا تفرده بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية أيضًا، فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض؛ أي: بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره.

وقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى. قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين والله ما نحن وإياهم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد. وقال عكرمة وزيد بن أبي مريم: معناها إنا نحن لعلى هدى وإنكم لفي ضلال مبين.

وقوله: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ معناه: التبري منهم؛ أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيدة وإفراد العبادة له، فإن أجبتهم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتهم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ



لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾.

وقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾؛ أي: يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد، ثم يفتح بيننا بالحق؛ أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصر والسعادة الأبدية، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور.

وقوله: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾؛ أي: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً وصيرتموها له عدلاً. ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس له نظير، ولا شريك. ولهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾؛ أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء وغلبت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، تعالى وتقدس.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾  
 وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ ﴿٣٠﴾.

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليماً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ أي: إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ أي: تبشر من أطاعك بالجنة وتنذر من عصاك بالنار. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

قال محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾؛ يعني: إلى الناس عامة. وقال قتادة في هذه الآية: أرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله أطوعهم لله ﷻ.

وقد ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٣٢٨ ومسلم/٥٢١ بنحوه] عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَايَّمَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً)، وفي «صحيح [مسلم/٥٢١]» أن رسول الله ﷺ قال: (بُعِثْتُ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ). قال مجاهد: يعني: الجن والإنس، وقال غيره: يعني: العرب والعجم، والكل صحيح.

ثم قال ﷻ مخبراً عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذه الآية كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الآية [الشورى: ١٨]، ثم قال: ﴿قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ﴾؛ أي: لكم ميعاد مؤجل معدود محدد لا يزداد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة، ولا يقدم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُؤْمِنَ بِهِذَا الْقُرْآنَ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَحْمَلَ لَهُ أَثْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم، وبما أخبر به من أمر المعاد، ولهذا قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُؤْمِنَ بِهِذَا الْقُرْآنَ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ومخبراً عن مواقفهم الدليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحتاجهم: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعُوا﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم قاداتهم وساداتهم ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لولا أنتم تصدونا لكننا اتبعنا الرسل وأما بما جاؤونا به. فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾؛ أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرَمِينَ﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ﴾؛ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلاً نهاراً، وتؤمنونا وتخبروننا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب.

قال قتادة: ﴿بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يقول: بل مكرهم بالليل والنهار، وكذا قال زيد بن أسلم. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَحْمَلَ لَهُ أَثْدَادًا﴾؛ أي: نظراء وآلهة معه وتقيمون لنا شبهاً وأشياء من المحال تصلوننا بها ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾؛ أي: الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه. ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إنما نجازيكم بأعمالكم كل بحسبه للقادة عذاب بحسبهم وللأتباع بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءٌ أَضْعَفُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ .

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ وأمرًا له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبره بأنه ما بعث نبياً

في قرية إلا كذبه مترفوها، واتبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦]، وقال ههنا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ أي: نبي أو رسول ﴿إِلَّا قَال مُتْرَفُوهُمْ﴾ وهم أولو النعمة والرياسة، قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر. ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾؛ أي: لا نؤمن به ولا نتبعه.

وقال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها: وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم؟ فرعمت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل. [أخرجه البخاري].

وقال تعالى إخباراً عن المترفين المكذبين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾؛ أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة وهيئات لهم ذلك قال الله: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ ضَارِعُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥]، ولهذا قال تعالى ها هنا: ﴿قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾؛ أي: ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ولا اعتنائنا بكم. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) ورواه مسلم، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾؛ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَصْغَفَ بِمَا عَمِلُوا﴾؛ أي: تضاعف لهم الحسنه بعشر أمثالها، إلى سبعمائه ضعف ﴿وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ ءَامِنُونَ﴾؛ أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى من كل شر يحذر منه.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾؛ أي: يسعون في الصد عن سبيل الله، واتباع الرسل والتصديق بآياته ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾؛ أي: جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم.

وقوله: ﴿قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾؛ أي: بحسب ما له في ذلك من الحكمة يبسط على هذا من المال كثيراً، ويضيق على هذا ويقتصر عليه رزقه جداً، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]؛ أي: كما هم متفاوتون في الدنيا هذا فقير مدقع، وهذا غني موسّع عليه، فكذلك هم في الآخرة هذا في العُرفات في أعلى الدرجات، وهذا في العُمرات في أسفل الدرجات، وأطيب الناس في الدنيا كما قال ﷺ: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّهَ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ) رواه مسلم [١٠٥٤].

وقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾؛ أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به

وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُ آدَمَ أَنْفَقَ، أَنْفَقَ عَلَيْكَ) [البخاري/٤٤٠٧ ومسلم/٩٩٢]. وفي الحديث: أن ملكين يصيحان كل يوم يقول أحدهما: (اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْسِيكَ تَلْفًا)، ويقول الآخر: (اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا) [البخاري/١٣٧٤ ومسلم/١٠١٠].

وقال مجاهد: لا يتأولن أحدكم هذه الآية ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه، فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

يخبر تعالى أنه يُقرِّع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة: ﴿أَهْتُولَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾؛ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، كما قال في سورة الفرقان: ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءَ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُبْغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨]، وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَنَكَ﴾؛ أي: تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنْتَ وَلَيْسْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾؛ أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾؛ يعنون: الشياطين؛ لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِنَّ مُؤْمِنُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]. قال الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾؛ أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشداذكهم وكرْبكم، اليوم لا يملكون لكم نفعًا ولا ضرًا، ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: يقال لهم ذلك تقريبًا وتوبيخًا.

﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَنْتَبِ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا فِكْ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٤﴾ وَمَا ءَايَتُهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٥﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا ءَايَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب؛ لأنهم كانوا إذا تنادى عليهم آياته بينات يسمعونها غَضَّةً طرية من لسان رسوله ﷺ ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ءَابَاؤُكُمْ﴾؛ يعنون: أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول

عندهم باطل. عليهم وعلى آبائهم لعائن الله ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا فِكْ مُفَرَّى﴾؛ يعنون: القرآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾؛ أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يودّون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكننا أهدى من غيرنا، فلما من الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه.

ثم قال: ﴿وَكَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من الأمم ﴿وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس ؓ: أي من القوة في الدنيا. وكذلك قال قتادة والسدي وابن زيد، ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أي: فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ وَفَرَدَيٌّ ثُمَّ تَنَفَّكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٤٦).

يقول تبارك وتعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: ﴿إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَحْدَةٍ﴾؛ أي: إنما أمركم بوحدة وهي ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ وَفَرَدَيٌّ ثُمَّ تَنَفَّكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾؛ أي: تقوموا قياماً خالصاً لله ﷻ من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضهم بعضاً هل بمحمد من جنون، فينصح بعضهم بعضاً ﴿ثُمَّ تَنَفَّكُوا﴾؛ أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك، ولذا قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ وَفَرَدَيٌّ ثُمَّ تَنَفَّكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ هذا معنى ما ذكره مجاهد ومحمد بن كعب والسدي، وقتادة وغيرهم، وهذا هو المراد من الآية.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ روى البخاري [٤٥٢٣] عندها عن ابن عباس قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: (يَا صَبَاحَاهُ) فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ، أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟) قالوا: بلى، قال ﷺ: (فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ). فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا. فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤٧) ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ﴾ (٤٨) ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩) ﴿قُلْ إِنْ ضَلَّكُمُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُمْ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَوْفٌ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (٥٠).

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾؛ أي: لا أريد منكم جعلاً ولا عطاء على أداء رسالة الله إليكم، ونصحي إياكم وأمركم بعبادة الله ﷻ ﴿إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﷻ وهو على كل شيء شهيد؛ أي: عالم بجميع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم وما أنتم عليه.

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ

مِنْ عِبَادِهِ ﴿غافر: ١٥﴾؛ أي: يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض.

وقوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾؛ أي: جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهب الباطل وزهق واضمحل، كقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعن الصنم بسية قوسه، ويقرأ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ رواه البخاري [٤٤٤٣] ومسلم [١٧٨١]؛ أي: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي﴾؛ أي: الخير كله من عند الله، وفيما أنزله ﷺ من الوحي والحق المبين، فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه. وقوله: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾؛ أي: سميع لأقوال عباده قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَافُوسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۚ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۚ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ ۝﴾

يقول تبارك وتعالى: ولو ترى يا محمد إذ فرغ هؤلاء المكذبون يوم القيامة، فلا قوت؛ أي: فلا مفر لهم ولا ملجأ ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: لم يمكنوا أن يمعنوا في الهرب، بل أخذوا من أول وهلة. قال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم، وقال مجاهد وعطية العوفي وقتادة: من تحت أقدامهم، وعن ابن عباس، والضحاك: يعني: عذابهم في الدنيا. وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني: قتلهم يوم بدر، والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة، وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذكر متصلاً بذلك. ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾؛ أي: يوم القيامة يقولون آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَافُوسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد.

قال مجاهد: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَافُوسُ﴾ قال: التناول لذلك [الطبري ١١٠/٢٢]، وقال الزهري: التناوش تناولهم الإيمان وهم في الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا، وقال الحسن البصري: أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد، وقال ابن عباس: طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه، وليس بحين رجعة ولا توبة، وكذا قال محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل. ﴿وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال زيد بن أسلم: بالظن.

قلت: كما قال تعالى: ﴿رَجُمَا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢]، فتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: ساحر، وتارة يقولون: مجنون. إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد ويقولون: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُصْتَفِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]. قال قتادة: يرجمون بالظن، لا بعث ولا جنة ولا نار.

وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال الحسن البصري والضحاك وغيرهما: يعني: الإيمان، وقال السدي: هي التوبة، وهذا اختيار ابن جرير رَحِمَهُمُ اللَّهُ [١١٢/٢٢]، وقال مجاهد: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من هذه الدنيا، من مال وزهرة وأهل، وروي نحوه عن ابن عمر، وابن عباس، والربيع بن أنس، وهو قول البخاري [١٨٠٣/٤] وجماعة، والصحيح أنه لا منافاة بين القولين، فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة فمنعوا منه.

وقوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ [غافر: ٨٤، ٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾؛ أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب، قال قتادة: إياكم والشك والريبة، فإن من مات على شك بُعِثَ عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.



## تفسير سورة فاطر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَتِلْكَ وَرَبُّكَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

قال ابن عباس: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أنا بدأتها [الطبري ١٥٩/٧]. فقال ابن عباس أيضًا: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: بديع السموات والأرض، وقال الضحاك: كل شيء في القرآن فاطر السموات والأرض فهو: خالق السموات والأرض.

وقوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾؛ أي: بينه وبين أنبيائه ﴿أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾؛ أي: يطرون بها ليلغوا ما أمروا به سريعًا ﴿مَّتَنَّىٰ وَتِلْكَ وَرَبُّكَ﴾؛ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب [رواه البخاري]، ولهذا قال: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء، وقال الزهري، وابن جريج: حسن الصوت.

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).

يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي ولما منع. روى الإمام أحمد [١٨١٨٣] عن المغيرة بن شعبة قال: إني سمعت رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ). أخرجه [الباري/ ٥٩٧١ ومسلم/ ٥٩٣]، وثبت في «صحيح مسلم» [٤٧٧] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مَلَأَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، وَمَلَأَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، اللَّهُمَّ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُنَّا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ



مِنْكَ الْجَدُّ)، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، ولهذا نظائر كثيرة. وكان أبو هريرة إذا مُطروا يقول: مطرنا بنوء الفتح، ثم يقرأ هذه الآية: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَ تُؤْفَكُونَ﴾.

يبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه مستقل بالخلق والرزق، فذلك فليفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فكيف تؤفكون [أي: تصرفون] بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِلَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٤﴾ ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ ﴿٥﴾ ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿٦﴾.

يقول تبارك وتعالى: وإن يكذبوك يا محمد هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة، فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم ﴿وَلِلَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾؛ أي: وسنجزئهم على ذلك أوفر الجزاء. ثم قال تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾؛ أي: المعاد كائن لا محالة ﴿فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾؛ أي: العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم، فلا تتلهاوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية ﴿وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ وهو الشيطان قاله ابن عباس؛ أي: لا يفتنكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته، فإنه غرار كذاب أفك، وهذه الآية كالأية التي في آخر لقمان ﴿فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]. قال زيد بن أسلم: هو الشيطان.

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾؛ أي: هو مبارز لكم بالعداوة فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾؛ أي: إنما يقصد أن يضللكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين، فنسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والافتقار بطريق رسله، إنه قدير، وبالإجابة جدير، وهذه كقوله: ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧) ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨).

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾؛ أي: لما كان منهم من ذنب ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير. ثم قال: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾؛ يعني: كالكفار والفجار، يعملون أعمالاً سيئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا؛ أي: أفمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة، لا حيلة لك فيه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: بقدره كان ذلك ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾؛ أي: لا تأسف على ذلك، فإن الله حكيم في قدره، إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْتُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الشُّرُورُ﴾ (٩) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُورُثُ﴾ (١٠) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١١).

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، كما في أول سورة الحج ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك فإن الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها، أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً، فتنبت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض، ولهذا جاء في «الصحیح»: ﴿كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجَبُ الذَّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرْكَبُ﴾ [رواه البخاري/٤٦٥١ بنحوه]، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ الشُّرُورُ﴾.

وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ أي: من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى، فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعاً، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْضَوْنَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنِئْتُمْ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]. قال مجاهد: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ بعبادة الأوثان ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، وقال قتادة: أي: فليتعزز بطاعة الله عز وجل.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾؛ يعني: الذكر والتلاوة والدعاء، قاله غير واحد من السلف، وروى ابن جرير [١٢٠/٢٢] عن عبد الله بن مسعود [قال]: إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تبارك الله، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه، ثم صعد بهن إلى

السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا واستغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه الرحمن ﷻ، ثم قرأ عبد الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

وقوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال ابن عباس: الكلم الطيب: ذكر الله، يصعد به إلى الله ﷻ، والعمل الصالح: أداء فرائضه، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله، فكان أولى به، وقال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب، وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، والضحاك، والسدي وغير واحد، وقال إياس بن معاوية القاضي: لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام. وقال الحسن وقتادة: لا يقبل قولٌ إلا بعمل [هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ١٢١/٢٢].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وشهر بن حوشب: هم المراءون بأعمالهم؛ يعني: يَمْكُرُونَ بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى، وهم بُعْضَاءُ إلى الله ﷻ يراءون بأعمالهم، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المشركون، والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى، ولهذا قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ أي: يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهي، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل يكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾؛ أي: ابتداء خلق أبيكم من تراب، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾؛ أي: ذكرًا وأنثى، لطفًا منه ورحمة أن جعل لكم أزواجًا من جنسكم لتسكنوا إليها.

وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾؛ أي: هو عالم بذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يَغِيظُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: ٨].

وقوله: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾؛ أي: ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه، وهو عنده في الكتاب الأول ﴿وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ الضمير عائد على الجنس لا على العين؛ لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس قال ابن جرير [١٢٢/٢٢]: وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه؛ أي: هو ونصف ثوب آخر، وروي عن ابن عباس: ليس أحد قضيت له طول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له، وإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالحق العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله: ﴿وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يقول: كل ذلك في كتاب عنده، وهكذا قال الضحاك بن مزاحم.

وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ قال: ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام، وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة وآخر يموت حين يولد فهذا هذا. وقال مجاهد [كما روى عنه ابن أبي حاتم/١٧٩٥٦]: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾

إِلَّا فِي كِتَابٍ؛ أي: في بطن أمه يكتب له ذلك، لم يخلق الخلق على عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر هو أنقص من عمره، وكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ، وقال بعضهم: بل معناه ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾؛ أي: ما يكتب من الأجل ﴿وَلَا يُقْضَىٰ مِنْ عُمرِهِ﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً، الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتاب. نقله ابن جرير عن أبي مالك، وإليه ذهب السدي، وعطاء الخراساني، واختار ابن جرير الأول، وهو كما قال [٢٢/١٢٢].

وروى النسائي [١١٤٢٩] عند تفسير هذه الآية الكريمة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبَسِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحْمَةً)، وقد رواه البخاري [١٩٦١]، وكذلك رواه مسلم [٢٥٥٧].

وقوله: ﴿ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي: سهل عليه، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته، فإن علمه شامل للجميع، لا يخفى عليه شيء.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِتَبْنُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٢٢].

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة وخلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زعاقاً مرة، ولهذا قال: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾؛ أي: مر. ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾؛ يعني: السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كما قال ﷻ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ﴾ [٢٢] فَإِنَّ آيَةَ آيَةٍ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ [الرحمن: ٢٢، ٢٣].

وقوله: ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ﴾؛ أي: تمخره وتشقه بحيزومها، وهو مقدمها المُسَنَّم الذي يشبه جَوْجُو الطير وهو صدره، وقال مجاهد: تمخر الريح السفن، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام. وقوله: ﴿لِتَبْنُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: تشكرون ربكم على تسخيرهم لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ورحمته.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [٢٣] إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [١٤].

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخير الليل بظلامه، والنهار بضياءه،

ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾؛ أي: والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات، بأضوائهن أجرام السموات، الجميع يسرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديرًا من عزيز عليم. ﴿كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى يوم القيامة ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رُكُّكُمْ﴾؛ أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره ﴿وَالَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾؛ أي: من الأصنام والأنداد ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم: القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة؛ أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير.

ثم قال: ﴿إِنْ نَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾؛ يعني: الآلهة التي تدعونها من دون الله؛ لأنها جماد لا أرواح فيها، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾؛ أي: لا يقدرون على ما تطلبون منها، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾؛ أي: يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقوله: ﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾؛ أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها. قال قتادة: يعني: نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَيْهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

يخبر تعالى بغناه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه وتذللها بين يديه، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾؛ أي: هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشعره، وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع، ولهذا قال: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿وَلَنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَيْهَا﴾؛ أي: وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾؛ أي: وإن كان قريباً إليها حتى ولو كان أباهاً أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٢﴾ وَأُخُوهُ وَأُخُوهُ ﴿٢٣﴾ وَصَجِيهٍ وَبَنِيهِ ﴿٢٤﴾ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

ثم قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أي: إنما يتعظ بما جئت به

أولو البصائر والنهي، الخائفون من ربهم، الفاعلون ما أمرهم به ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾؛ أي: ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: وإليه المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، وسيجزى كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ١٩ ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ ٢٠ ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ ٢١ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ٢٢ ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ٢٣ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ٢٤ ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ٢٥ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ٢٦ .

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينها فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء وللكافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿أَوْمِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْوَ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]، فالمؤمن بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى أصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسوم والحميم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها. ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾؛ أي: كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصبروتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم.

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾؛ أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ أي: بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾؛ أي: وما من أمة خلعت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾؛ أي: الواضح البين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم؛ أي: بالعقاب والنكال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أي: فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً.

﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها من أصفر وأحمر وأبيض وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَوِّدٌ وَجَعَلْتُ مِنَ الْغَنَبِ وَرَعًا وَيَجْعَلُ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنَفْضٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾؛ أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق وهي الجُدَد جمع جُدَّة، مختلفة الألوان أيضاً قال ابن عباس رضي الله عنه: الجدد: الطرائق، وكذا قال أبو مالك والحسن، وقتادة، والسدي، ومنها غرابيب سود. قال عكرمة: الغرابيب، الجبال الطوال السود، وكذا قال أبو مالك، وعطاء الخراساني، وقتادة، وقال ابن جرير [١٣١/٢٢]: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا: أسود غريب.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾؛ أي: كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب، وهو كل ما دب على القوائم، والأنعام، من باب عطف الخاص على العام كذلك هي مختلفة أيضاً، فالناس منهم حُبُوش في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَأَخْلَفَ السِّنِّيَكُمْ وَالْوَيْكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون فيه من هذا اللون وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ولهذا قال تعالى بعد هذا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾؛ أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير [الطبري ١٣٢/٢٢]، وعن ابن عباس [أيضاً] قال: العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً، وأحل حلاله وحرم حرامه، وحفظ وصيته وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله [رواه الدارمي بنحوه/٣٣٣]، وقال سعيد بن جبیر: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله ﷻ، وقال الحسن البصري: العالم من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية [ابن أبي حاتم/١٧٩٧٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به، ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانية، ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾؛ أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾؛ أي: ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾؛ أي: لذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم. كان مطرف رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراءة.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد من الكتاب وهو القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: من الكتب المتقدمة يصدقها كما شهدت هي له بالتبويه، وأنه منزل من رب العالمين. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾؛ أي: هو خبير بهم بصير بمن يستحق ما يفضل به على من سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات وجعل منزلة محمد صلوات الله وسلامه عليه فوق جميعهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

قال ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال: هم أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه، ورثهم الله تعالى كل كتاب أنزله، فظالمهم يُغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب [الطبري/٢٢/١٣٣].



وعن ابن عباس [أيضاً]: «السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب» [الطبراني في «الكبير»/ ١١٤٥٤]، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعه محمد ﷺ، وهكذا روي عن غير واحد من السلف أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير، وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ولا من المصطفين الوارثين الكتاب.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ» قال: هو الكافر [ابن أبي حاتم/ ١٧٩٨٦]، وبه قال عكرمة أيضاً، وعن مجاهد في قوله تعالى: «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ» قال: هم أصحاب المشأمة، وقال زيد بن أسلم والحسن، وقتادة: هو المنافق، ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتادة: وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها [الطبري ١٣٥/٢٢].

والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهذا اختيار ابن جرير، كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً.

فقد روى الإمام أحمد [٢١٧٧٥] عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قَالَ اللَّهُ: «ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكَتَبَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ»، فَأَمَّا الَّذِينَ سَبَقُوا فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَأَمَّا الَّذِينَ اقْتَصَدُوا فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُحَاسِبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا، وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُحْبَسُونَ فِي طُولِ الْمَحْشَرِ، ثُمَّ هُمْ الَّذِينَ تَلَفَاهُمْ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، فَهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ» (٣٢) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) [وإسناده حسن].

روى ابن جرير [١٣٤/٢٢] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: إن هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله ﷻ: ما هؤلاء؟ وهو أعلم تبارك وتعالى فتقول الملائكة: هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئاً، فيقول الرب ﷻ: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي وتلا عبد الله ﷺ هذه الآية: «ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكَتَبَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا» الآية.

وقال كعب الأحبار [كما روى الطبري ١٣٤/٢٢]: إن الظالم لنفسه من هذه الأمة والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: «ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكَتَبَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» «جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا» - إلى قوله ﷻ: - «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ» قال: فهؤلاء أهل النار.

وعن أبي إسحاق السبيعي في هذه الآية قال: أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج. وإذا تقرر هذا، فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة.

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

يخبر تعالى أن مأوى هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورشوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة، جنات عدن؛ أي: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على الله ﷻ ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ كما ثبت في «صحيح [مسلم/٢٥٠]» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ). ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا، فأباحه الله تعالى لهم في الدار الآخرة، وثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ) [البخاري/٥٤٩٥ ومسلم/٢٠٧٣].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وهو الخوف من المحذور، أزاحه عنا وأرحنا مما كنا نخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قال ابن عباس وغيره: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات ﴿الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومنه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك، كما ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: (لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ) قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: (وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ) [مسلم/٢٨١٦]. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾؛ أي: لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء، والنَّصَب واللُّغُوب كل منهما يستعمل في التعب، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم، أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، والله أعلم، فمن ذلك أنهم كانوا يدبُّون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة قال الله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال السعداء، شرع في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]، وثبت في «صحيح مسلم» [١٨٥] أن رسول الله ﷺ قال: (أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيُونَ). قال تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُومُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فهم في

حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، ﴿لَا يُضْنَى عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٦) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ [الزخرف: ٧٤، ٧٥]، وقال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]، ثم قال: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾؛ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾؛ أي: ينادون فيها يجأرون إلى الله ﷻ بأصواتهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾؛ أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون، فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (١١) ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا [غافر: ١١]، ١٢؛ أي: لا يجيبكم إلى ذلك لأنكم كنتم كذلك، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتهم عنه، ولهذا قال ههنا: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ﴾؛ أي: أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟ وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد هاهنا، فروي عن علي بن الحسين زين العابدين أنه قال: مقدار سبع عشرة سنة.

وقال قتادة: اعلّموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نغتر بطول العمر قد نزلت هذه الآية ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ﴾ وإن فيهم لابن ثمانين عشرة سنة، وكذا قال أبو غالب الشيباني، وقال وهب بن منبه: عشرين سنة، وقال الحسن: أربعين سنة، وقال مسروق: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة، فليأخذ حذره من الله ﷻ، وروى ابن جرير [١٤١/٢٢] عن ابن عباس قال: العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم أربعون سنة، وهذا القول هو اختيار ابن جرير، ثم روي عن ابن عباس قال: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ﴾ ستون سنة، فهذه الرواية أصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضاً، لما ثبت في ذلك من الحديث كما سنورده، لا كما زعمه ابن جرير من أن الحديث لم يصح في ذلك؛ لأن في إسناده من يجب التثبت في أمره، وقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال في قوله: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ﴾ ستون سنة.

وروى الإمام البخاري [٦٠٥٦] في كتاب «الرقاق» من صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَعْذَرَ اللَّهُ ﷻ إِلَى أَمْرِي أَخْرَجَ عُمرُهُ حَتَّى بَلَغَهُ سِتِينَ سَنَةً).

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث. روى الحسن بن عرفة رضي الله عنه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتَيْنِ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقْلَهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ)، وهكذا رواه الترمذي [٣٥٥٠]، وابن ماجه [٤٢٣٦] جميعاً في كتاب «الزهد» عن الحسن بن عرفة، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، [وقال الحاكم/٣٥٩٨: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي]. وقد ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثاً وستين سنة [البخاري/٣٦٨٩]، وقيل: ستين، وقيل: خمساً وستين، والمشهور الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَحَآءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنه وعكرمة، وأبي جعفر الباقر عليه السلام، وقتادة، وسفيان بن عيينة أنهم قالوا: يعني: الشيب وقال السدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: به رسول الله ﷺ، وقرأ ابن زيد ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأَوَّلِ﴾ [النجم: ٥٦]، وهذا هو الصحيح عن قتادة، وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر، وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾؛ أي: فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم، فما لكم اليوم ناصر ينقذك مما أنتم فيه من العذاب والنعال والأغلال.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْنًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٣٩).

يخبر تعالى بعلمه غيب السماوات والأرض، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وما تنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله، ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يخلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾؛ أي: فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْنًا﴾؛ أي: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين، فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله، ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤١).

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: من الأصنام والأنداد ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾؛ أي: ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قطمير. وقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: أم أنزلنا عليهم كتابًا بما يقولون من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك، ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾؛ أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وأمانيتهم التي تمنوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور.

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾؛ أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾؛ أي: لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك

حليم غفور؛ أي: يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر ويُنظر ويُؤجل ولا يعجل، ويستتر آخرين ويغفر، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

يخبر تعالى عن قريش والعرب، أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾؛ أي: من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل، قاله الضحاك وغيره كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿٤٢﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً فَمَن أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾؛ أي: ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم، ثم بين ذلك بقوله: ﴿اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾؛ أي: ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾؛ أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم.

قال محمد بن كعب القرظي [كما روى ابن أبي حاتم/ ١٨٠٢٠]: ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به: من مكر أو بغى أو نكث، وتصديقها في كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَيْكُمْ أَنفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]. وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾؛ يعني: عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسوله ومخالفتهم أمره ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾؛ أي: لا تغير ولا تبدل، بل هي جارية كذلك في كل مكذب. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾؛ أي: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ [الرعد: ١١]، ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد، والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَا كُنَ يُؤَخِّرُهُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة: سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فخلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النعم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعُدَد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئًا، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر

ربك؛ لَأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَعْبُزُهُ شَيْءٌ إِذَا أَرَادَ كُونَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾؛ أَي: عَلِيمٌ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ قَدِيرٌ عَلَى مَجْمُوعِهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكْنَا عَلَى ظَهْرِهَا مِّنْ دَابَّةٍ﴾؛ أَي: لَوْ أَخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لَأَهْلَكَ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ وَمَا يَمْلِكُونَهُ مِنْ دَوَابٍ وَأَرْزَاقٍ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ [١٨٠١٩] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ [بْنِ مَسْعُودٍ] قَالَ: كَادَ الْجُعْلُ أَنْ يَعْذِبَ فِي جَحْرِهِ بِذَنْبِ ابْنِ آدَمَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكْنَا عَلَى ظَهْرِهَا مِّنْ دَابَّةٍ﴾، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسَّيِّدِي فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا تَرَكْنَا عَلَى ظَهْرِهَا مِّنْ دَابَّةٍ﴾؛ أَي: لَمَّا سَقَاهُم الْمَطَرُ فَمَاتَتْ جَمِيعُ الدَّوَابِّ، ﴿وَلَا يَكُن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَّكَ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾؛ أَي: وَلَكِنْ يُنْظَرُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيَحَاسِبُهُمْ يَوْمَئِذٍ، وَيُوفِّي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، فَيَجَازِي بِالثَّوَابِ أَهْلَ الطَّاعَةِ وَبِالْعِقَابِ أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا تَعْبَادُهُ بَصِيرًا﴾.



## تفسير سورة يس

وهي مكية

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة، وروي عن ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وسفيان بن عيينة أن يس بمعنى يا إنسان، وقال سعيد بن جبیر: هو كذلك في لغة الحبشة، وقال زيد بن أسلم: هو اسم من أسماء الله تعالى [الطبري ١٤٨/٢٢].

﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ ؛ أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ؛ أي: على منهج ودين قويم وشرع مستقيم ﴿نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ؛ أي: هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به مُنْزَل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٢﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ ؛ يعني: بهم العرب، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم. وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته ﷺ عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ قال ابن جرير: لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله ولا يصدقون رسله.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلًا فَلَمْ يَأْتِ الْآذِقَانِ فَهُمْ مَّقْمَحُونَ﴾ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٩﴾ وَسَاءَ عَلَيْهِمْ أَلَّذِي تَزِدُّهُمْ أَمْرًا لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿١٢﴾ .

يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة

من جُعل في عنقه غُلٌّ، فَجَمَعَ يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه فصار مَقْمَحًا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ والمقمح: هو الرافع رأسه، ولما كان الغُلُّ إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق، اكتفى بذكر العنق عن اليدين، وعن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلًا فَبِهِ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ قال: هو كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]؛ يعني بذلك: أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يسطوها بخير، وقال مجاهد: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ قال: رافعو رؤوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم، فهم مغلولون عن كل خير.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ قال مجاهد: عن الحق ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال: عن الحق فهم يترددون، وقال قتادة: في الضلالات، وقوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾؛ أي: أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾؛ أي: لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصون إليه، وقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] ثم قال: من منعه الله تعالى لا يستطيع [ابن أبي حاتم: ١٨٠٣٥].

وقوله: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: قد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به، وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾؛ أي: إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم ﴿وَحَتَّىٰ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: حيث لا يراه أحد إلا الله، يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعله ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾؛ أي: لذنبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: كبير واسع حسن جميل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾؛ أي: يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار، الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧].

وقوله: ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾؛ أي: من الأعمال، وفي قوله: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم فنجزهم على ذلك أيضًا إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، كقوله ﷺ: (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا) رواه مسلم [١٠١٧].

وقال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاذَرْتَهُمْ﴾ قال: ما أورثوا من الضلالة، وهذا القول هو اختيار البغوي.

والقول الثاني: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية، قال مجاهد [أيضًا]: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ أعمالهم ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ﴾ قال: خطاهم بأرجلهم، وكذا قال الحسن وقاتدة، وقال قتادة: لو كان الله ﷻ مغفلًا شيئًا من شأنك يا ابن آدم أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار،



ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تعالى أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليفعل، وقد وردت في هذا المعنى أحاديث [منها ما]:

روى الإمام أحمد [١٤٦٠٦] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: (إِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ؟) قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك، فقال ﷺ: (يَا بَنِي سَلَمَةَ، دِيَارُكُمْ تَكْتَبُ أَثَارُكُمْ، وَدِيَارُكُمْ تَكْتَبُ أَثَارُكُمْ)، وهكذا رواه مسلم [٦٦٥].

وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب، فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين هاهنا هو أم الكتاب، قاله مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وكذا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ [الأنبياء: ١٧١]؛ أي: بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٦٩].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى: واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ قال ابن عباس وكعب الأحمري ووهب بن منبه: إنها مدينة أنطاكية وكان بها ملك يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل، فكذبهم، وهكذا روي عن بريدة بن الحصيب، وعكرمة، وقتادة، والزهري أنها أنطاكية [الطبري ١٥٥/٢٢]، وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية بما سنذكره بعد تمام القصة إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾؛ أي: بادروهما بالكذب ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾؛ أي: قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث. ﴿فَقَالُوا﴾؛ أي: لأهل تلك القرية ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾؛ أي: من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له، قاله أبو العالية، وزعم قتادة: أنهم كانوا رسل المسيح ﷺ إلى أهل أنطاكية [ذكره الطبري ١٥٥/٢٢] والبخاري في «تفسيره» [٧/٤] ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾؛ أي: فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا أوحى إلينا مثلكم، ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة، وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٢١].

[٦]، فاستعجبوا من ذلك وأنكروه، ولهذا قال هؤلاء: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ سَمَاءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا كَذِبُونَ﴾ (١٥) قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَا إِيَّاكَ لَعَلَّكُم تَرْسَلُونَا؛ أي: أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار. ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا فستعلمون غيب ذلك، والله أعلم.

﴿قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨) قَالُوا طَّيَّرَكُم مَّعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (١٩).

فعند ذلك قال لهم أهل القرية: ﴿إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ﴾؛ أي: لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا. وقال قتادة: يقولون إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم [الطبري ١٥٧/٢٢]، وقال مجاهد: يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها. ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قال قتادة: بالحجارة، وقال مجاهد: بالشم. ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: عقوبة شديدة، فقالت لهم رسلهم: ﴿طَّيَّرَكُم مَّعَكُمْ﴾؛ أي: مردود عليكم، كقوله تعالى في قوم صالح ﴿أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمَنُ مَعَكَ قَالَ طَّيَّرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧]، وقال قتادة ووهب بن منبه؛ أي: أعمالكم معكم. وقوله: ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾؛ أي: من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا، بل أنتم قوم مسرفون، وقال قتادة: أي: إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا بل أنتم قوم مسرفون.

﴿وَجَاءَ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَنْفَوْرُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٠) ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢١) ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٢) ﴿أَتَأْتِذُّ مِنْ دُونِهِ ۚ ءَالِهَةٌ إِنْ يُرَدِّدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ (٢٣) ﴿إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّيِّنٍ﴾ (٢٤) ﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ (٢٥).

عن ابن عباس رضي الله عنه وكعب الأحبار ووهب بن منبه: إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى؛ أي: لينصرهم من قومه، قالوا: وهو حبيب، وكان يعمل الجريز وهو الحبال وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة. ﴿قَالَ يَنْفَوْرُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾؛ أي: على إبلاغ الرسالة ﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ أي: وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: يوم المعاد، فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿أَتَأْتِذُّ مِنْ دُونِهِ ۚ ءَالِهَةٌ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿إِنْ يُرَدِّدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾؛ أي: هذه الآلهة التي تعبدونها

من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء فلا كاشف له إلا هو، وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني مما أنا فيه ﴿إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: إن اتخذتها آلهة من دون الله.

**وقوله:** ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ عن ابن عباس، وكعب ووهب: يقول لقومه: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي كفرتم به ﴿فَاسْمِعُونِ﴾؛ أي: فاسمعوا قولي. ويحتمل أن يكون خطابه للرسل، وقد حكاه ابن جرير [١٦٠/٢٢] فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إني آمنت بربكم واتبعتكم، وهذا القول الذي حكاه عن هؤلاء أظهر في المعنى، والله أعلم، وعن ابن عباس وكعب ووهب: فلما قال ذلك، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه، وقال قتادة: جعلوا يرمونه بالحجارة وهو يقول: اللَّهُمَّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا به حتى أقعصوه، وهو يقول كذلك، فقتلوه رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

عن ابن مسعود: أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُهُ من دبره [الطبري ١٦١/٢٢]، وقال الله له: ﴿قِيلَ ادْخُلِ﴾ فدخلها فهو يرزق منها قد أذهب الله عنه سُقْمَ الدنيا وحزنها ونَصَبُها، وقال مجاهد: قيل لحبيب النجار: ادخل الجنة، وذلك أنه قتل فوجبت له، فلما رأى الثواب ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً لا تلقاه غاشاً. لما عاين ما عاين من كرامة الله ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله له [الطبري ١٦١/٢٢]. وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠] وبعد مماته في قوله: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

وقال أبو مجلز: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ بإيماني بربي وتصديقي المرسلين، ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصاً على هداية قومه.

**وقوله:** ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه، غضباً منه تبارك وتعالى عليهم؛ لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه، ويذكر تعالى أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أبسر من ذلك، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾؛ أي: ما كثرناهم بالجموع، الأمر كان أبسر علينا من ذلك ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ قال: فأهلك الله تعالى ذلك الملك، وأهلك أهل أنطاكية، فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم

باقية [الطبري ٢٣/٢]، وقيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾؛ أي: وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكتناهم بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم، وقيل: المعنى في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: من رسالة أخرى إليهم، قاله مجاهد، وقاتدة. قال ابن جرير [٢٣/٢]: والأول أصح؛ لأن الرسالة لا تسمى جنداً. قال المفسرون: بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام، فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون عن آخرهم لم تبق بهم روح تتردد في جسد، وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، كما نص عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره، وفي ذلك نظر من وجوه:

أحدها: أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله ﷻ، لا من جهة المسيح ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ - إلى أن قالوا - ﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [يس: ١٤ - ١٧]، ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح ﷺ، والله تعالى أعلم، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

الثاني: أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصاري إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بتركة، وهن: القدس؛ لأنها بلد المسيح، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية؛ لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهبان، ثم رومية؛ لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأوطده، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله وأنه أهلكتهم بصيحة واحدة أخدمتهم، والله أعلم.

الثالث: أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخدري رحمه الله وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣]، فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً، أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله ﷻ أعلم.

﴿يَحْزَنُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَإِن كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿٢٢﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿يَحْزَنُهُ عَلَى الْعِبَادِ﴾؛ أي: يا ويل العباد، وقال قتادة: ﴿يَحْزَنُهُ

عَلَى الْعِبَادِ؛ أَي: يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله، وفرطت في جنب الله، ومعنى هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله، فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أَي: يكذبونه ويستهزئون به ويجحدون ما أرسل به من الحق.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾؛ أَي: ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧]، وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلاً منهم أنهم يعودون إلى الدنيا، كما كانوا فيها، فرد الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾؛ أَي: وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرا وشرا، ومعنى هذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لِيُؤْفِقَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [هود: ١١١]، وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف، فمنهم من قرأ: ﴿وَإِنْ كُلًّا لَمَّا﴾ بالتخفيف فعنده أن ﴿إِنْ﴾ للإثبات، ومنهم من شدد: «لَمَّا» وجعل إن نافية، ولما بمعنى إلا، تقديره وما كل إلا جميع لدينا محضرون، ومعنى القراءتين واحد، والله أعلم.

﴿وَأَيُّهُمُ لَّمَّمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٢٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِمَّنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾.

يقول تعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ لَّمَّمُ﴾؛ أَي: دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾؛ أَي: إذا كانت ميتة هامة لا شيء فيها من النبات، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال: ﴿أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾؛ أَي: جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾؛ أَي: جعلنا فيها أنهارا سارحة في أمكنة يحتاجون إليها لياكلوا من ثمره، لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها.

وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أَي: وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم لا بسعيهم ولا بحولهم وقوتهم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: ولذا قال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أَي: فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، واختار ابن جرير [٢٢] / ٤ - بل جزم به، ولم يحك غيره إلا احتمالا - أن «ما» في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾؛ بمعنى: الذي تقديره لياكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم؛ أَي: غرسوه ونصبوه. ثم قال:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾؛ أي: من زروع وثمار ونبات ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال جلَّتْ عظمته: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَأَيُّ لَهِمُّ أَيْلٌ سَلَخٌ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤٠).

يقول تعالى: ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة، خلق الليل والنهار هذا بظلامه وهذا بضياؤه، وجعلهما يتعاقبان يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال تعالى: ﴿يُعْشَىٰ أَيْلٌ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حِينًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَأَيُّ لَهِمُّ أَيْلٌ سَلَخٌ مِنْهُ النَّهَارُ﴾؛ أي: نصرمه منه، فيذهب فيقبل الليل، ولهذا قال: ﴿إِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾. وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ في معنى قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قولان: أحدهما: أن المراد مستقرها المكاني، وهو تحت العرش. روى البخاري [٤٥٢٤] عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال ﷺ: (يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: (فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّىٰ تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾).

[وفي رواية] عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: (أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: (فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّىٰ تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنُ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنُ فَلَا يُؤْذَنُ لَهَا، وَيُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾) [البخاري/٣٠٢٧].

وقيل: المراد بمستقرها هو انتهاء سيرها، وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجها، ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الحضيض.

والقول الثاني: أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها، وهو يوم القيامة، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزماني. قال قتادة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾؛ أي: لوقتها ولأجل لا تعدوه، وقيل: المراد أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها، ثم تنتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو، وقرأ ابن مسعود، وابن عباس: «والشمس تجري لا مستقر لها» [البغوي ١٣/٤]؛ أي: لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً، لا تفتقر ولا تقف، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣]؛ أي: لا يفتران ولا يقفان إلى يوم

القيامة ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾؛ أي: الذي لا يخالف ولا يُمانع ﴿الْعَلِيمِ﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك وقتنه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس، كما قال: ﴿فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وهكذا ختم آية حم السجدة بقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

ثم قال: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾؛ أي: جعلناه يسير سيرًا آخر يستدل به على مضي الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار، كما قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَاجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ الآية [يونس: ٥]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصَرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَةٌ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]، فجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفًا وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وجعل سلطانها بالنهار فهي كوكب نهار، وأما القمر فقدرة منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلًا قليل النور، ثم يزداد نورًا في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً وإن كان مقتبسًا من الشمس حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم. قال ابن عباس: وهو أصل العذق، وقال مجاهد: العرجون القديم؛ أي: العذق اليابس؛ يعني: ابن عباس أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى، وكذا قال غيرهما.

وقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعده، ولا يُقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا، وإذا هب سلطان هذا جاء سلطان هذا، وقال الحسن: ذلك ليلة الهلال، وقال أبو صالح: لا يدرك هذا ضوء هذا ولا هذا ضوء هذا [ابن أبي حاتم/١٨٠٨٢]. وقال عكرمة: يعني: أن لكل منهما سلطانًا! فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل.

وقوله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يقول: لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل، وقال الضحاك: لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من هاهنا، وأومأ بيده إلى المشرق، وقال مجاهد: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يطلبان حثيثين ينسلخ أحدهما من الآخر، والمعنى في هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلبًا حثيثًا.

وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾؛ يعني: الليل والنهار والشمس والقمر، كلهم يسبحون؛ أي: يدورون في فلك السماء، قاله ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، وقال ابن عباس وغير واحد من السلف: في فلكة كفلكة المغزل، وقال مجاهد: الفلك كحديدة الرّحى أو كفلكة المغزل، لا يدور المغزل إلا بها، ولا تدور إلا به.

﴿وَعَايَةُ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ .

يقول تبارك وتعالى: ودلالة لهم أيضًا على قدرته تبارك وتعالى تسخير البحر ليحمل السفن، فمن ذلك بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام غيرهم، ولهذا قال: ﴿وَعَايَةُ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: آباءهم ﴿فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾؛ أي: في السفينة الموقرة المملوءة من الأمتعة والحيوانات، التي أمره الله تبارك وتعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين. قال ابن عباس: المشحون الموقر، وكذا قال سعيد بن جبير، والشعبي، وقتادة، والسدي، وقال الضحاك، وقتادة، وابن زيد: وهي سفينة نوح ﷺ [انظر: الطبري ٩/٢٣].

وقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ عن ابن عباس: يعني: بذلك الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها [الطبري ١٠/٢٣]، وكذا قال مجاهد، وقتادة في رواية، وعبد الله بن شداد وغيرهم، وقال السدي في رواية: هي الأنعام، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها [الطبري ١٠/٢٣]، وكذا قال أبو مالك، والضحاك، وقتادة، وأبو صالح، والسدي أيضًا، ويقوي هذا المذهب في المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارِيَةِ﴾ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَاءَ آذُنٍ وَعِيَةً ﴿١٢﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

وقوله: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾؛ يعني: الذين في السفن ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾؛ أي: فلا مغيث لهم مما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾؛ أي: مما أصابهم ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ وهذا استثناء منقطع تقديره ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر، ونُسَلِّمُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، ولهذا قال: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى وقت معلوم عند الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ عَايَةٍ مِنْ عَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال مجاهد: من الذنوب [الطبري ١٢/٢٣]، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمِّنكم من عذابه، وتقدير كلامه: أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه، واكتفى عن ذلك بقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ عَايَةٍ مِنْ عَايَاتِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: على التوحيد وصدق الرسل ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: إذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاييج من المسلمين ﴿قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: قالوا لمن أمرهم من



المؤمنين بالإتفاق محاجين لهم فيما أمرهم به: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَلْطَعَمَهُ﴾؛ أي: هؤلاء الذين أمرتمونا بالإتفاق عليهم لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: في أمركم لنا بذلك.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾.

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]، قال الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾؛ أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع، ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعاشهم يختصمون ويتشاجرون على عاداتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله ﷻ إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدّها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتها ورفع ليتاً - وهي صفحة العنق - يسمع الصوت من قبل السماء، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾؛ أي: على ما يملكونه، الأمر أهم من ذلك ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك نفخة البعث.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٥١) قَالُوا يَوَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُخْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَلْبِسْهُمْ نُفُوسَ شَيْئًا وَلَا تَحْزَنُوا إِنْ مَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾.

هذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ والنَّسْلَان: هو المشي السريع كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِصُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]. ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾؛ يعنون: قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم؛ لأنّه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. قال أبي بن كعب رضي الله عنه ومجاهد، والحسن وقتادة: ينامون نومة قبل البعث. قال قتادة: وذلك بين النفختين، فلذلك يقولون من بعثنا من مرقدنا، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون، قاله غير واحد من السلف: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾، وقال الحسن: إنما يجيبهم بذلك الملائكة، ولا منافاة إذ الجمع ممكن، والله أعلم [١٦/٢٣].

وقال عبد الرحمن بن زيد: الجميع من قول الكفار. نقله ابن جرير، واختار الأول، وهو

أصح، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَبُولْنَا هَذَا يَوْمَ الْآزِينِ﴾ ﴿٥٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ [الصفات: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ كقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿٥٢﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿٥٣﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]؛ أي: إنما نأمرهم أمراً واحداً، فإذا الجميع محضرون، ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾؛ أي: من عملها ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ ﴿٥٤﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هَلُمَّ فِيهَا فَكِكُهُمْ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٦﴾ سَلَّمٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾.

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات، فنزلوا في روضات الجنات، أنهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم. قال الحسن البصري وإسماعيل بن أبي خالد: في شغل عما فيه أهل النار من العذاب، وقال مجاهد: ﴿فِي شُغْلٍ فَكِكُهُونَ﴾؛ أي: في نعيم معجبون؛ أي: به، وكذا قال قتادة، وقال ابن عباس: فاكهون؛ أي: فرحون [الطبري ١٩/٢٣]. قال عبد الله بن مسعود، وابن عباس ؓ وسعيد بن المسيب، والحسن [وغيرهم]: شغلهم افتضاض الأبقار [الطبري ١٨/٢٣].

وقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ قال مجاهد: وحلائلهم، ﴿فِي ظِلِّ﴾؛ أي: في ظلال الأشجار ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِهُونَ﴾. قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، والحسن [وغيرهم]: ﴿الْأَرَائِكِ﴾ هي السرر تحت الحجال [الطبري ٢٠/٢٣ وابن أبي شبة بنحوه/٣٤٠٨٨]. وقوله: ﴿هَلُمَّ فِيهَا فَكِكُهُمْ﴾؛ أي: من جميع أنواعها ﴿وَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾؛ أي: مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ. وقوله: ﴿سَلَّمٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ قال ابن عباس: فإن الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة، وهذا الذي قاله ابن عباس كقوله تعالى: ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَقُومُهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

﴿وَأَمَّا يَوْمَ الْآزَمَةِ﴾ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِلاَ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا بمعنى يميزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُبْفَرُونَ﴾ [الروم: ١٤]. وقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ هذا تقرير من الله تعالى للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتكم غير

ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا﴾ يقال: جبلاً بكسر الجيم وتشديد اللام، ويقال: جبلاً بضم الجيم والباء وتخفيف اللام، ومنهم من يسكن الباء، [وكلها قراءات سبعة]. والمراد بذلك: الخلق الكثير، قاله مجاهد، وقتادة، والسدي، وسفيان بن عيينة.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعُدُّوكم إلى اتباع الشيطان.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٣) أَصْلُهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتُمْ يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَبَقُوا مِصْرًا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة وقد برزت الجحيم لهم تقيعاً وتوبيخاً: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ أي: هذه التي حذرتكم الرسل، فكذبتموهم ﴿أَصْلُهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذَّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣ - ١٥]، وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترموا في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت.

روى ابن أبي حاتم [١٤٣٠١] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال ﷺ: (أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟) قلنا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: (مِنْ مُجَادِلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: لَا أُجِيرُ عَلَى إِلَّا شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي، فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِبًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. فَتَنْطِقُ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بَعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَمَنْ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ)، وقد رواه مسلم [٢٩٦٩].

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتُمْ يُبْصِرُونَ﴾ قال ابن عباس في تفسيرها: يقول: ولو شاء لأضللناهم عن الهدى، فكيف يهتدون؟ وقال مرة: أعيناهم: وقال الحسن البصري: لو شاء الله لطمس على أعينهم فجعلهم عمياً يترددون، وقال السدي: لو شاء أعيننا أبصارهم، وقال مجاهد، وأبو صالح، وقتادة والسدي: فاستبقوا الصراط؛ يعني: الطريق، وقال ابن زيد: يعني: بالصرط هاهنا الحق، فأنى يبصرون وقد طمسنا على أعينهم، وعن ابن عباس [أيضاً]: ﴿فَأَنْتُمْ يُبْصِرُونَ﴾ يقول: لا يبصرون الحق.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَاتَتِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أهلكناهم، وقال السدي: يعني: لغيرنا خلقهم، وقال الحسن البصري وقتادة: لأفعدهم على أرجلهم، ولهذا قال تعالى:

﴿فَمَا أَسْتَظِلُّوا مُضِيًّا﴾؛ أي: إلى أمام ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى وراء بل يلزمون حالاً واحداً لا يتقدمون ولا يتأخرون.

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾.

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره، رد إلى الضعف بعد القوة، والعجز بعد النشاط، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْغَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، والمراد من هذا - والله أعلم - الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم، ثم صيرورتهم إلى الشيبه، ثم إلى الشيخوخة ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا محيد عنها، وهي الدار الآخرة.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ يقول تعالى: مخبراً عن نبيه محمد ﷺ أنه ما علمه الشعر ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾؛ أي: ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جبلته، ولهذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم بل إن أنشده زحفه أو لم يتمه.

وثبت في «الصحيحين» [البخاري/ ٢٦٨٢ ومسلم/ ١٨٠٣] أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، ولكن تبعاً لقول أصحابه رضي الله عنهم، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون:

لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا      وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا  
فَأَنْزِلْ سَكِينَةً عَلَيْنَا      وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا  
إِنَّ الْأَلَى قَدْ بَغَاوَا عَلَيْنَا      إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ويرفع ﷺ صوته بقوله أبيناً ويمدها، وقد روي هذا بزحاف في «الصحيح» أيضاً، وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحو العدو:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ      أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

[البخاري/ ٢٧٠٩ ومسلم/ ١٧٧٦].

لكن قالوا: هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه، وكذلك ما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/ ٢٦٤٨ ومسلم/ ١٧٩٦] عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غار، فنكبت أصبعه، فقال:

هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِضْبَعُ دَمِيَّتٍ      وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعراً ولا ينبغي له، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كهانة، ولا مفتعل، ولا سحر يؤثر، كما

تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجاهل، وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً.

وروى أبو داود [٥٠٠٩] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: (لَأَنْ يَمْتَلِي جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِي شِعْرًا)، وإسناده على شرط الشيخين، ولم يخرجاه [بل أخرجه البخاري عن ابن عمر/ ٥٨٠٢ مسلم عن سعد/ ٢٢٥٨].

على أن الشعر فيه ما هو مشروع، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة وأمثالهم وأضرابهم رضي الله عنهم أجمعين، ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ومنهم أمية بن أبي الصلت، وقد أنشد بعض الصحابة [من شعره] للنبي ﷺ مائة بيت يقول عقب كل بيت: «هيه»؛ يعني: يستطعمه، فيزيده من ذلك [رواه مسلم/ ٢٢٥٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾؛ يعني: محمداً ما علمه الله الشعر، ﴿وَمَا يَلْبِغِي لَهُ﴾؛ أي: وما يصلح له ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: ما هذا الذي علمناه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَفُرْقَانٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره، ولهذا قال: ﴿لِنُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾؛ أي: لينذر هذا القرآن البين كل حي على وجه الأرض، كقوله: ﴿لَا تُنْذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلْبِغُ﴾ [الأنعام: ١٩]، وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة، كما قال قتادة: حي القلب حي البصر، وقال الضحاك؛ يعني: عاقلاً ﴿وَيَحَقِّقُ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: هو رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ قال قتادة: مطيقون؛ أي: جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بغير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، وذاك ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بغير أو أكثر لसार الجميع بسير الصغير.

وقوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾؛ أي: منها ما يركبون في الأسفار ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ إذا شأوا ونحروا واجتزرروا ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾؛ أي: من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴿وَمَشَارِبٌ﴾؛ أي: من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ونحو ذلك، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره، ولا يشكرون به غيره؟.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَخْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم

تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾؛ أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها بل هي أضعف من ذلك وأقل وأحق وأدحر، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَمَّمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ﴾ قال مجاهد: يعني: عند الحساب يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة، محضرة عند حساب عابديها، ليكون ذلك أبلغ في خزيهم، وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم، وقال قتادة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾؛ يعني: الآلهة ﴿وَهُمْ لَمَّمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ﴾ والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً، إنما هي أصنام، وهكذا قال الحسن البصري، وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير رحمته الله [٢٩/٢٣].

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾؛ أي: تكذيبهم لك وكفرهم بالله ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: نحن نعلم جميع ما هم فيه، وسنجزئهم وصفهم ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً، ولا صغيراً ولا كبيراً، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعَظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُنْفَذُونَ ﴿٨٠﴾ .

قال مجاهد وعكرمة، وعروة بن الزبير، والسدي، وقاتدة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم، وهو يفتنه ويذريه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: (نعم، يُمِيتُكَ اللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ يُيَعِّتُكَ، ثُمَّ يُحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ)، ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ إلى آخرهن [رواه ابن جرير ٢٣/٣١، عن مجاهد، وقاتدة، ورواه الحاكم/٣٦٠٦ على شرط الشيخين].

وروى ابن أبي حاتم [١٨١٢٦]، وابن جرير [٣١/٢٣] عن ابن عباس قال: إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتنه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيعحي الله هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: (نعم، يُمِيتُكَ اللَّهُ ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ). قال: ونزلت الآيات من آخر يس [وإسناده صالح].

وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أو العاص بن وائل أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث، والألف واللام في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ﴾ للجنس يعم كل منكر للبعث.

﴿أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتداء خلق الإنسان من سلاله من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُ مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾

[المرسلات: ٢٠، ٢٢]، وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]؛ أي: من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته. كما روى الإمام أحمد [١٧٨٧٦] عن بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ، أن رسول الله ﷺ: بصق يوماً في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال رسول الله ﷺ: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُ آدَمَ، أَتَى تُعْجُرْنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بَرْدِكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَوَيْدٌ، فَجَمَعْتُ وَمَنْعْتُ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي قُلْتُ: أَتَصَدَّقُ وَأَتَى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟) ورواه ابن ماجه [برقم: ٢٧٠٧] قال البوصيري: صحيح ورجاله ثقات]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْزِي الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؛ أي: استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه، وأن الله تعالى خلقه من العدم، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَشْأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهب وأين تفرقت وتمزقت.

روى الإمام أحمد [٢٣٤٠١] عن رُبْعِي قَالَ: قال عقبة بن عمرو لحذيفة: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته ﷺ يقول: (إِنْ رَجُلًا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَلَمَّا أَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا جَزَلًا، ثُمَّ أَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا، حَتَّى إِذَا أَكَلْتُ لَحْمِي وَخَلَصْتُ إِلَى عَظْمِي فَامْتَحِشْتُ، فَخَذُّوْهَا فَذَرُوهَا فِي الْيَمِّ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، فَغَفَرَ اللَّهُ ﷻ لَهُ) فقال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته يقول ذلك وكان نباشاً، وقد أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/ ٣٢٦٦ ومسلم/ ٢٧٥٦ بنحوه].

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾؛ أي: الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خَضْرَاءَ نَضْرًا ذا ثمر ونيع، ثم أعاده إلى أن صار حطَبًا يابسًا توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء. قال قتادة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ يقول: الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه، وقيل: المراد بذلك سَرْحَ المَرْخِ والعَفَّارِ، ينبت في أرض الحجاز، فيأتي من أراد قَدْحَ نارٍ وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتولد النار من بينهما، كالزناد سواء، وروي هذا عن ابن عباس رضيهما الله عنهما.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾  
 ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿فَسَبِّحْنَا الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾.

يقول تعالى مخبراً منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت والأرضين السبع، وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار، وما بين ذلك،

ومرشدًا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال هاهنا: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم، قاله ابن جرير [٣٢/٢٣].

**وقوله:** ﴿فَسُبْحَنَّ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تنزيهه وتقديسه وتبرئته من السوء للحي القيوم، الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه يرجع العباد يوم المعاد، فيجازي كل عامل بعمله وهو العادل المتفضل؛ ومعنى قوله: ﴿فَسُبْحَنَّ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كقوله ﴿قُلْ مَنْ يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، فالملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورحموت، ورهبة ورهبوت، وجبر وجبروت، ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد، والملكوت هو عالم الأرواح، والصحيح الأول، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم.





## تفسير سورة الصافات

وهي مكية

روى النسائي [٩٠٠] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات [سند صحيح].

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١﴾ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ۝٢﴾ فَالْتَلَيْتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥﴾ .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ وهي الملائكة ﴿فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا﴾ هي الملائكة ﴿فَالْتَلَيْتِ ذِكْرًا﴾ هي الملائكة، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنه، والسدي، وقتادة [وغيرهم]، قال قتادة: الملائكة صفوف في السماء.

وقد روى مسلم [٤٣٠] عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَلَا تَصْفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةَ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟) قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: (يَتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ)، وقال السدي وغيره معنى قوله: ﴿فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا﴾ أنها تزجر السحاب، وقال الربيع بن أنس ﴿فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا﴾: ما زجر الله عنه في القرآن، وكذا [قال] زيد بن أسلم.

﴿فَالْتَلَيْتِ ذِكْرًا﴾ قال السدي: الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَالْمَلَكُوتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ عُدًّا أَوْ نُذْرًا [المرسلات: ٥، ٦]، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق وتغرب من المغرب، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدالتها عليه، وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْغَرْبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]؛ يعني: في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿إِنَّا زَيْنَا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا زَيْنَةَ الْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَا الْأَعْلَى وَيَقْدِفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾ تُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ .

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿زَيْنَةَ الْكَوَاكِبِ﴾ فالكواكب

السيارة والثواب يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف فتضيء لأهل الأرض كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، وقوله: ﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره وحفظناها حفظًا ﴿مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾؛ يعني: المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أناه شهاب ثاقب فأحرقه، ولهذا قال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ لَّا أَعْلَى﴾؛ أي: لثلاث يصلوا إلى الملاء الأعلى وهي السموات ومن فيها من الملائكة إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدره، ولهذا قال: ﴿وَيُقَذَّرُونَ﴾؛ أي: يرمون ﴿مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾؛ أي: من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿دُحُورًا﴾؛ أي: رجماً يدحرون به ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ﴿وَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ أي: في الدار الآخرة لهم عذاب موجه مستمر كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾؛ أي: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقبها إلى الذي تحته ويلقبها الآخر إلى الذي تحته فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾؛ أي: مستنير، وستأتي إن شاء الله تعالى الأحاديث الواردة مع الآثار في هذا المعنى عند قوله تعالى إخباراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا﴾ (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمَعُ آلَانَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا [الجن: ٨، ٩].

﴿فَاسْتَفْقِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (١١) ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (١٢) ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ (١٣) ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ (١٤) ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥) ﴿وَإِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمْبَعُونَ﴾ (١٦) ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا أَلْوَلُونَ﴾ (١٧) ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ﴾ (١٨) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (١٩).

يقول تعالى: فسئل هؤلاء المنكرين للبعث أيما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ فإنهم يُقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا كما قال ﴿بَلْ﴾: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]. ثم بين أنهم خلقوا من شيء ضعيف فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ قال مجاهد، وسعيد بن جبير والضحاك: هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض [الطبري ٤٣/٢٣]، وقال ابن عباس، وعكرمة: هو اللزج، وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد، وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾؛ أي: بل عجب يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك.

قال قتادة: عجب محمد ﷺ وسخر ضلال بني آدم [ابن أبي حاتم/١٨١٥٢]. ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾؛ أي: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قال مجاهد، وفتادة: يستهزئون ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا﴾

سِحْرٌ مُّبِينٌ؛ أي: إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين، ﴿أَوَّادًا مِنَّا وَكَفَّارًا وَعَظَمًا﴾ ﴿١٦﴾ أَوَّادًا أَتَوْنَا الْأَوَّلُونَ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾؛ أي: قل لهم يا محمد نعم تبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون ترابًا وعظامًا ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾؛ أي: حقيقرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾؛ أي: إنما هو أمر واحد من الله ﷻ، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا يَوْمَئِذٍ هَذَا بَوْمٌ الْأَيُّومِ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٢١﴾ أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ آلِيَوْمٍ مُّسْتَسْمِعُونَ ﴿٢٦﴾ .

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم، ﴿وَقَالُوا يَوْمَئِذٍ هَذَا يَوْمُ الْأَيُّومِ﴾ فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ . وهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم ولهذا قال تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال النعمان بن بشير ﷺ؛ يعني: بأزواجهم أشباههم وأمثالهم، وكذا قال ابن عباس، والسدي، وأبو العالية، وزيد بن أسلم [وغيرهم]، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: إخوانهم، وعن عمر أيضًا قال: أشباههم، قال: يجيء صاحب الزنا مع أصحاب الزنا وأصحاب الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر [الطبري ٤٦/٢٣].

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ أي: من الأصنام والأنداد تحشر معهم في أماكنهم. وقوله: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم، وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾؛ أي: قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدنيا كما قال ابن عباس؛ يعني: احبسوهم إنهم محاسبون، وقال عثمان بن زائدة: إن أول ما يسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾؟ أي: كما زعمتم أنكم جميع منتصر ﴿بَلْ هُمْ آلِيَوْمٍ مُّسْتَسْمِعُونَ﴾؛ أي: منقادون لأمر الله لا يخالفونه ولا يحددونه عنه.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَاقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَبْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُونَ ءَالِهَتَنَا لِيَأْخُذَ بَعْضُنَا مَبْجُونٌ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ .

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة كما يتخاصمون في دركات النار،

﴿فَيَقُولُ الضَّعِيفَتَا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَابُونَ عَنَّْا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ۖ﴾ (٤٧)  
 قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعَبَادِ ﴿غافر: ٤٧، ٤٨﴾. قالوا لهم  
 ها هنا: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال ابن عباس يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا؛  
 لأننا كنا أذلاء وكنتم أعزاء، وقال مجاهد: يعني: عن الحق، الكفار تقوله للشياطين، وقال  
 قتادة: قالت الإنس للجن: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال: من قبل الخير فتنهونا عنه  
 وتبطئونا عنه، وقال السدي: تأتوننا عن اليمين من قبل الحق وتزينون لنا الباطل وتصدوننا عن  
 الحق، وقال الحسن في قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾؛ إي والله يأتيه عند كل خير يريده  
 فيصده عنه، وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير ورددتمونا عن الإسلام والإيمان  
 والعمل بالخير الذي أمرنا به، وقال يزيد الرشك: من قبل لا إله إلا الله، وقال خُصيف:  
 يعنون: من قبل ميامنهم، وقال عكرمة: من حيث نأمنكم.

وقوله: ﴿قَالُوا بَلْ لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما  
 تزعمون بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ﴾؛  
 أي: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ﴾؛ أي: بل كان فيكم طغيان  
 ومجاوزة للحق فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءكم به الأنبياء وأقاموا لكم الحجج  
 على صحة ما جاؤوكم به فخالتموهم. ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ۖ﴾ (٢١) ﴿فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾  
 يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله أنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة  
 ﴿فَأَعْوَيْنَكُمْ﴾؛ أي: دعوناكم إلى الضلالة ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾؛ أي: فدعوناكم إلى ما نحن فيه،  
 فاستجبتم لنا، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبَعْتُمُ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ أي: الجميع في النار كل  
 بحسبه ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۖ﴾ (٢٢) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾؛ أي: في الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ  
 يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون. روى ابن أبي حاتم [١٨١٧١] عن  
 أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،  
 فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ) وأنزل الله تعالى  
 في كتابه العزيز وذكر قوماً استكبروا فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾  
 [رواه مسلم/ ٢٠ دون نزول الآية].

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَآ هَآئِنَا لِشَاعِرٍ مُّجْنُونٍ﴾؛ أي: نحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول  
 هذا الشاعر المجنون؛ يعنون: رسول الله ﷺ قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم: ﴿بَلْ جَاءَ  
 بِالْحَقِّ﴾؛ يعني: رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع ما شرعه الله له من الإخبار والطلب،  
 ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة،  
 وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره كما أخبروا ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾  
 الآية [فصلت: ٤٣].

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَّهٌ ﴿٤٢﴾ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٣﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٤٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٥﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ﴿٢﴾﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [العصر: ١-٣]، ولهذا قال ها هنا: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾؛ أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله تعالى من التضعيف.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ قال قتادة والسدي: يعني الجنة. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَكَّهٌ﴾؛ أي: متنوعة ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾؛ أي: يُحْدَمُونَ ويرزقون ويرفَهون وينعمون ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٤٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدُنُّ مَخْلُودُونَ ﴿٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧-١٩]، فنه الله ﷻ خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا من صداع الرأس ووجع البطن - وهو الغول - وذهابها بالعقل جملة فقال ها هنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾؛ أي: بخمر من أنهار جارية لا يخافون انقطاعها. قال زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء؛ أي: لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم. وقوله: ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾؛ أي: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك. وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾؛ يعني: لا تؤثر فيهم غولاً وهو وجع البطن قاله مجاهد، وقاتدة، وابن زيد كما تفعله خمر الدنيا، وقيل: المراد بالغول ها هنا: صداع الرأس، وروي عن ابن عباس، وقال قتادة: هو صداع الرأس ووجع البطن، وعنه وعن السدي: لا تغتال عقولهم، وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى، والصحيح قول مجاهد: إنه وجع البطن. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم وكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، والحسن وغيرهم [انظر: الطبري ٥٤/٢٣]، وعن ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر والصداع والقيء والبول، فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال [ابن أبي حاتم/١٨١٧٧]، كما ذكر في سورة الصافات.

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾؛ أي: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن عباس رضي الله عنهما وزيد بن أسلم وقاتدة والسدي وغيرهم، وقوله: ﴿عِينٌ﴾؛ أي: حسان الأعين.

وقيل: ضخام الأعين وهو يرجع إلى الأول وهي النجلاء العيناء فوصف عيونهن بالحسن والعفة، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ أَلْفُ عَيْنٍ﴾، وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان. قال ابن عباس رضي الله عنه: اللؤلؤ المكنون [ابن أبي حاتم/ ١٨١٨٠ والطبري ٢٢/ ٥٧]، وقال الحسن: يعني: مصون لم تمسه الأيدي، وقال سعيد بن جبير: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾؛ يعني: بطن البيض، وقال عطاء الخراساني: هو السحاء الذي يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة [ابن أبي حاتم/ ١٨١٨٤]، وقال السدي: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: بياض البيض حين ينزع قشره واختاره ابن جرير لقوله: ﴿مَّكْنُونٌ﴾ قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش وتناولها الأيدي بخلاف داخلها والله أعلم.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٥٠ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ ٥١ ﴿يَقُولُ أَتَيْتَكَ لِمَنِ الْمَصْدَقِينَ﴾ ٥٢ ﴿إِنَّمَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا إِنَّمَا لِمَدْيُونٍ﴾ ٥٣ ﴿قَالَ هَلْ أُنتُمْ مُّطْلَعُونَ﴾ ٥٤ ﴿فَاطْلَعَ قَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ٥٥ ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَتُرَدِّينِ﴾ ٥٦ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ ٥٧ ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَرِينَ﴾ ٥٨ ﴿إِلَّا مَوْلَانَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾ ٥٩ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ٦٠ ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ ٦١ ﴿

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون؛ أي: عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا وماذا كانوا يعانون فيها، وذلك من حديثهم على شراهم واجتماعهم في تنادمهم وعشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر والخدم بين أيديهم يسعون ويجيؤون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال مجاهد: يعني: شيطاناً، وعن ابن عباس: هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا [الطبري ٥٩/٢٣]، ولا تنافي بين كلام مجاهد، وابن عباس رضي الله عنه فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان وكلاهما متعاونان، ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ ٥١ ﴿يَقُولُ أَتَيْتَكَ لِمَنِ الْمَصْدَقِينَ﴾؛ أي: أنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعني: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والعناد، ﴿إِنَّمَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا إِنَّمَا لِمَدْيُونٍ﴾ قال مجاهد، والسدي: لمحاسبون، وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي: لمجزيون بأعمالنا وكلاهما صحيح. ﴿قَالَ هَلْ أُنتُمْ مُّطْلَعُونَ﴾؛ أي: مشرفون. يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة: ﴿فَاطْلَعَ قَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، والسدي [وغيرهم]: يعني: في وسط الجحيم، وقال الحسن البصري: في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد. ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَتُرَدِّينِ﴾ يقول المؤمن مخاطباً للكافر: والله إن كدت لتهلكني لو أطعته ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾؛ أي: ولولا فضل الله عليّ لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت، محضر

معك في العذاب ولكنه تفضل عليّ ورحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلَيْنِ﴾ ٥٨ ﴿إِلَّا مَوَلَّنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ هذا من كلام المؤمن مغبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة لا موت فيها ولا عذاب، ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوُ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ﴾.

عن ابن عباس ؓ في قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩]، قال: ﴿هَنِيئًا﴾؛ أي: لا يموتون فيها، فعندها قالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلَيْنِ﴾ ٥٨ ﴿إِلَّا مَوَلَّنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾، وقال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلَيْنِ﴾ ٥٨ ﴿إِلَّا مَوَلَّنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ قيل لهم: لا. قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوُ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ﴾، وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة، وقال ابن جرير [٦٢/٢٣]: هو من كلام الله تعالى، ومعناه لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة.

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ ٦٢ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ ٦٣ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ٦٤ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ ٦٥ ﴿فَلَيْتَهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ ٦٦ ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوًّا مِنْ حِمِيمٍ﴾ ٦٧ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ ٦٨ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ ٦٩ ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُرْعَوْنَ﴾ ٧٠.

يقول الله تعالى: أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مأكّل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾؛ أي: التي في جهنم، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة كما قال بعضهم، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر يقال له الزقوم، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَاطُ الْكَذِبُونَ﴾ ٥١ ﴿لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنَ زُقُومٍ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢].

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ غذيت من النار ومنها خلقت. وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جهل لعنه الله: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه [ينظر: الطبري ٦٣/٢٣].

قلت: ومعنى الآية إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختباراً نخبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الزُّبْرَىٰ الَّتِي آرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَعْلُومَةُ فِي الْقُرْآنِ وَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: أصل منبتها في قرار النار ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ تبشيع لها وتكريه لذكرها، وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛

لأنَّه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر، وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا كُفُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾.

ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع فإنَّهم ليضطرون إلى الأكل منها؛ لأنَّهم لا يجدون إلا إياها وما هو في معناه كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦٦﴾ لَا يَسْنُونَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ جُوعٌ﴾ [الغاشية: ٦٦، ٧].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوًّا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: يعني: شرب الحميم على الزقوم، وقال في رواية عنه: مزجاً من حميم. وقال غيره: يمزج لهم الحميم بصديد وغساق مما يسيل من فروجهم وعيونهم [الطبري ٢٣/٦٥]. وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾؛ أي: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لآلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَاثِنٌ﴾ [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا فتادة هذه الآية عند هذه الآية وهو تفسير حسن قوي.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَفْوَءُ آبَاءِهِمْ ضَالِّينَ﴾؛ أي: إنما جازيناهم بذلك؛ لأنَّهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قال مجاهد: شبيهة بالهرولة، وقال سعيد بن جبيرة: يسفهون.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرون بأس الله ويحذرونهم سطوته ونقمته ممن كفر به وعبد غيره وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم فأهلك المكذبين ودمرهم ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم ولهذا قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَحْنُ أَهْلُهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَزَكَّيْنَاهُ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعا ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾؛ أي: فلنعم المجيبون له ﴿وَنَحْنُ أَهْلُهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو التكذيب والأذى ﴿وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ﴾ قال ابن عباس: لم



تبق إلا ذرية نوح عليه السلام، وعن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح عليه السلام ثلاثة: سام ويافث وحام، وولد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاثة فولد سام العرب وفارس والروم، وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وولد حام القبط والسودان والبربر، وروي عن وهب بن منبه نحو هذا والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ قال ابن عباس: يذكر بخير، وقال مجاهد: يعني: لسان صدق للأنبياء كلهم، وقال قتادة والسدي: أبقي الله عليه الثناء الحسن في الآخرين، وقال الضحاك: السلام والثناء الحسن. وقوله: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ مفسر لما أبقي عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى نجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك. ثم قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: المصدقين الموحدين الموقنين ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾؛ أي: أهلكناهم فلم تبق منهم عين تطرف ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿وَإِذْ قَالَ لِأَبْنَيْهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿أَفَبِكُمْ أَلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾.

قال ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَ لِأَبْنَيْهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ يقول: من أهل دينه، وقال مجاهد: على منهاجه وسنته. [الطبري ٦٩/٢٣]، ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: شهادة أن لا إله إلا الله، وعن عوف: قلت لمحمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور [ابن أبي حاتم/١٥٧٣٣]. وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعائناً.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبْنَيْهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد، ولهذا قال: ﴿أَفَبِكُمْ أَلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال قتادة: يعني: ما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِنَّهْمَ فَقَالَ﴾ ﴿٩١﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿قَالَ﴾ ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحُسُونَ﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿فَإَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿٩٨﴾.

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك، ليقم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزعج خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بالهتهم فيكسرهما فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم؛ يعني: قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما

يلهمهم به فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ أي: ضعيف، فأما الحديث الذي رواه ابن جرير [٧١/٢٣] ها هنا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، غَيْرَ ثَلَاثِ كَذَبَاتٍ: ثُنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ، قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وَقَوْلُهُ فِي سَارَةِ: هِيَ أُخْتِي) [ورواه البخاري/٣١٧٩ ومسلم/٢٣٧١ بنحوه]، فهو حديث مخرج في «الصحيح» و«السنن» من طرق ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله حاشا وكلا، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث: (إِنَّ فِي الْمَعَارِضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكُذِبِ) [رواه البيهقي/٢٠٦٣١ عن عمران وصحح وقفه].

قال سفيان في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ يعني: طعين، وكانوا يفرون من المطعون، فأراد أن يخلو بألهمتهم، وقال ابن عباس: فقالوا له وهو في بيت آلهمتهم: اخرج فقال: إني مطعون فتركوه مخافة الطاعون [الطبري ٧٠/٢٣]، وقيل: أراد ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ أي: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى، وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم فأرادوه على الخروج فاضطجع على ظهره وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وجعل ينظر في السماء فلما خرجوا أقبل إلى آلهمتهم فكسرها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾؛ أي: إلى عيدهم ﴿فَرَّغَ إِلَهُ إِلَهُهُمْ﴾؛ أي: ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبرك لهم فيه، قال السدي: دخل إبراهيم عليه السلام إلى بيت الآلهة، فإذا هم في بهو عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً وضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع وقد بركت الآلهة في طعامنا أكلناه، فلما نظر إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَطْعَمُونَ؟ وقوله: ﴿فَرَّغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا يَالْمِينَ﴾ قال الفراء: معناه مال عليهم ضرباً باليمين، وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضرباً باليمين، وإنما ضربهم باليمين؛ لأنها أشد وأنكى ولهذا تركهم جزاءً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون كما تقدم في سورة الأنبياء تفسير ذلك، وقوله ها هنا: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرُؤُونَ﴾ قال مجاهد وغير واحد [الطبري ٥٢/٢٤]؛ أي: يسرعون، فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعييبهم، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾؛ أي: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية فيكون تقدير الكلام خلقكم وعملكم، ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي» تقديره والله خلقكم والذي تعملونه وكلا القولين متلازم، والأول أظهر لما رواه البخاري في كتاب أفعال العباد عن حذيفة مرفوعاً قال: (إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتُهُ) [وذكره ابن عساكر في «تاريخه» ٥٢/٩٣، ورواه الحاكم/٨٥]، فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر فقالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم وأعلى حجته ونصرها ولهذا قال تعالى: ﴿فَارْزُقُوهُمْ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَبْنَؤُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَتَّبِعْهُ إِذْ يَمُرُّ بِالْزُّبْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٤﴾ فَدَّعَىٰ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَنَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَوَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَتَوَكَّنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه بعدما نصره الله تعالى على قومه وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ؛ يعني: أولاداً مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم، قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد لإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيداً، وفي نسخة أخرى بكره فأقحموا ها هنا كذباً وبهتاناً إسحاق ولا يجوز هذا؛ لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا إسحاق؛ لأنه أبوهم وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا وحيدك بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة، وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: وحيد إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار، وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بغلام حلِيم، وذكر أنه الذبيح ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ﴾ [الحجر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]؛ أي: يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل، وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأن الله تعالى قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً، وإسماعيل وصف ها هنا بالحلم؛ لأنه مناسب لهذا المقام.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ﴾؛ أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه وقد كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد فاران وينظر في

أمرهما وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك والله أعلم، وعن ابن عباس رضي الله عنه، ومجاهد، وزيد بن أسلم وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾؛ يعني: شب وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل [روى الحاكم معناه ٣٦١٢]، ﴿فَكَالَ يُبْنَىٰ إِيَّائِي أَتَىٰ فِي الْمَوْتِ أَتَىٰ أَذْبَحَكَ فَأَنْظَرْ مَاذَا فَرَّوْا﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي ثم تلا هذه الآية. وقد روى ابن أبي حاتم [برقم/ ١٨٢٣١]، والطبراني في «الكبير» [١٢٣٠٢] عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ فِي الْمَنَامِ وَحْيٌ) [سند صحيح]، وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه. ﴿فَقَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾؛ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله ﻋَﻠَﻴْهِ، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۖ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾؛ أي: فلما شهدا وذكر الله تعالى إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت وقيل: أسلما: يعني: استسلما وانقادا، إبراهيم امتثل أمر الله تعالى، وإسماعيل طاعة الله وأبيه قاله مجاهد، وقتادة، والسدي وغيرهم، ومعنى ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾؛ أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، والضحاك، وقتادة: أكبه على وجهه.

وقوله تعالى: ﴿وَوَدَّيْنَهُ أَنْ يَأْتِيَهُمَا ۖ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّبُوبَا﴾؛ أي: قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح، وذكر السدي وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ذلك ﴿قَدْ صَدَّقَتِ الرُّبُوبَا﴾، وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافاً لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء وإنما كان المقصود من شرعه أولاً إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى منقاداً لطاعته ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ الَّذِي وَقَّ﴾ [النجم: ٣٧]، وقوله: ﴿وَوَدَّيْنَهُ بِذِي عَظِيمٍ﴾ عن علي رضي الله عنه قال: بكبش أبيض أعين أقرن. وقال ابن عباس: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً، وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحر، وعن عكرمة أن ابن عباس كان أفتى الذي جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه، فأمره بمائة من الإبل، ثم قال بعد ذلك: لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشاً فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَوَدَّيْنَهُ بِذِي عَظِيمٍ﴾

عَظِيمٌ ﴿ وَالصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ أَنَّهُ فُذِي بَكِشٍ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَنبِجٍ عَظِيمٍ﴾ قَالَ: وَعُلٌّ، وَعَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا فُذِي إِسْمَاعِيلَ ﷺ إِلَّا بَتِيسٍ مِنَ الْأَرْوَى، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ [١٦٦٨٨] عَنْ صَفِيَّةِ بِنْتِ شَيْبَةَ قَالَتْ: أَخْبَرْتَنِي امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي سَلِيمٍ وَلَدَتْ عَامَةً أَهْلَ دَارِنَا - أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ - وَقَالَتْ مَرَّةً: أَنَّهُ سَأَلَتْ عَثْمَانَ لِمَ دَعَاكَ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنِّي كُنْتُ رَأَيْتُ قَرْنِي الْكَبْشِ، حِينَ دَخَلْتُ الْبَيْتَ، فَتَسَبَّيْتُ أَنْ أَمْرَكَ أَنْ تُخَمَّرَهُمَا، فَخَمَّرَهُمَا، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ شَيْءٌ يَشْغُلُ الْمُصَلِّي) [إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ]، وَهَذَا دَلِيلٌ مُسْتَقِلٌّ عَلَى أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنْ قَرِيشًا تَوَارَثُوا قَرْنِي الْكَبْشِ الَّذِي فُذِيَ بِهِ إِسْمَاعِيلُ خَلْفًا عَنْ سَلَفٍ وَجِيلاً بَعْدَ جِيلٍ إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ.

وقد حكى البغوي القول بأنه إسحاق عن عمر، وعلي، وابن مسعود، والعباس ﷺ ومن التابعين عن كعب الأحبار وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، وعطاء، ومقاتل، والزهري، والسدي قال: وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس.

قال ابن إسحاق [كما ذكر عنه الفاكهي في «أخبار مكة» ٥/١٢٧]: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنه إسماعيل وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ويقول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] يقول: بابن وابن ابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الله الموعود بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل، وقال ابن أبي حاتم [١٨٢٣٨]: وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل ﷺ. قال: وروي عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي جعفر محمد بن علي، وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل. وقال البغوي في «تفسيره» [٣٣/٤] وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، والسدي، والحسن البصري، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس وحكاها أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء.

وقوله: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق وقد ذكرت في سورتي هود والحجر، وقوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة؛ أي: سيصير منه نبي من الصالحين.

عن ابن عباس قال: بشر به حين ولد وحين نبئ [ابن أبي حاتم/١٨٢٤٥]، وعن قتادة [ابن أبي حاتم/١٨٢٤٧] قال: بعدما كان من أمره لما جاد الله تعالى بنفسه وقال الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾، وقوله: ﴿وَبَشِّرْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِيتٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَتُوحُّ أَحْطَ إِسْلَمٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِ وَمَنْ مَعَهُ وَأُمُّهُمْ سَمِعَتْهُمْ ثُمَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكُنُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد عليه في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء واستعمالهم في أخس الأشياء، ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله ﷻ على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيكَةً﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال ها هنا: ﴿وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ؛ أي: في الأقوال والأفعال ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ﴾؛ أي: أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً وثناء حسناً ثم فسره بقوله تعالى: ﴿سَلَّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾.

﴿وَلَئِنْ إِيَّاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْأَخْرَبِ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ إِيَّاسَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

قال قتادة ومحمد بن إسحاق: يقال إِيَّاس هو إدريس، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إِيَّاس هو إدريس، وكذا قال الضحاك.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أي: ألا تخافون الله ﷻ في عبادتكم غيره ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي: بَعْلًا؛ يعني: ربًّا. قال عكرمة، وقتادة: وهي لغة أهل اليمن [الطبري ٩١/٢٣]، وقال زيد بن أسلم: هو اسم صنم كان يعبداه أهل مدينة يقال لها بعلبك غربي دمشق [ابن أبي حاتم/١٨٢٥٢]. وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه.

وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾؛ أي: أتعبدون صنمًا ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: للعذاب يوم الحساب ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾؛ أي: الموحدين منهم، وهذا استثناء منقطع من مثبت، وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْأَخْرَبِ﴾؛ أي: ثناء جميلاً ﴿سَلَّمْ عَلَىٰ إِيَّاسَ﴾ كما يقال في إسماعيل وإسماعيلين، ويقال ميكال، وميكائيل وميكائين، وطور سيناء، وطور سينين وهو موضع واحد وكل هذا سائغ، وقرأ آخرون: «سلام على آل ياسين»؛ يعني:

آل محمد ﷺ، وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ قد تقدم تفسيره، والله أعلم.

﴿وَإِنَّ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنُفَرِّقُهُمْ مُصِيبِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومه، فإن الله تعالى أهلكتهم بأنواع من العقوبات وجعل محللتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا لَنُفَرِّقُهُمْ مُصِيبِينَ﴾ (١٣٧) وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾؛ أي: أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِئْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّدَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَتَأَمَّنُوا فَمَزَّجْنَاهُمُ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾.

قد تقدمت قصة يونس عليه الصلاة والسلام في سورة الأنبياء، وفي «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى) [البخاري/٣٢٣٢ ومسلم/٢٣٧٧]، ونسبه إلى أمه. وفي رواية قيل: إلى أبيه، وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال ابن عباس: هو الموقر؛ أي: المملوء بالأمّعة ﴿فَسَاهَمَ﴾؛ أي: قارع ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾؛ أي: المغلوبين، وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب وأشرفوا على الغرق فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقي في البحر لتخف بهم السفينة فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات وهم يضمنون به أن يلقي من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك، وأمر الله تعالى حوتاً من البحر الأخضر أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام، فلا يَهْشِمُ له لحماً، ولا يكسر له عظماً، فجاء ذلك الحوت وألقى يونس عليه السلام نفسه فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها، ولما استقر يونس في بطن الحوت حسب أنه قد مات ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي فقام فصلى في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس، واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام قاله قتادة. وقيل: سبعة قاله جعفر الصادق، وقيل: أربعين يوماً قاله أبو مالك، وعن الشعبي: التقمه ضحى وقذفه عشية، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك الحاكم/٤١٢٦].

وقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) لَلِئْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ قيل: لولا ما تقدم له

من العمل في الرخاء. قاله الضحاک بن قيس، وأبو العالية، ووهب بن منبه، وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير [الطبري ٩٩/٢٣ - ١٠٠]، وفي حديث عن ابن عباس: (تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَّةِ) [الحاكم/٦٣٠٣]. وقال ابن عباس، والضحاک، والسدي، والحسن [وغيرهم]: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾؛ يعني: المصلين، وقيل المراد: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ هو قوله: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، قاله سعيد بن جبیر وغيره.

**وقال تعالى:** ﴿فَبَدَّلَ اللَّهُ﴾؛ أي: ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال ابن عباس وغيره: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾؛ أي: ضعيف البدن، قال ابن مسعود رضي الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال السدي: كهيئة الصبي حين يولد وهو المنفوس، وقاله ابن عباس، وابن زيد أيضاً.

﴿وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، ووهب بن منبه، والسدي، وقتادة وغير واحد: اليقطين هو القرع [الطبري ١٠٣/٢٣]، وقال سعيد بن جبیر: كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين، وفي رواية عنه: كل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين.

**وقوله تعالى:** ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ عن ابن عباس قال: إنما كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام بعدما نبذه الحوت، وقال مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت [الطبري ١٠٤/٢٣].

**قلت:** ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به، وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون.

**وقوله:** ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس في رواية عنه: بل يزيدون وكانوا مائة وثلاثين ألفاً، وعنه: مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً، وعنه: مائة ألف وبضعة وأربعين ألفاً، والله أعلم، وقال سعيد بن جبیر: يزيدون سبعين ألفاً، وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف، وسلك ابن جرير ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿إِذَا فُجِّئُ مِنْهُمْ يُخَشِّونَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك بل أزيد.

**وقوله:** ﴿فَنَامُوا﴾؛ أي: فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام جميعهم ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى وقت آجالهم، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].



﴿فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ (١٤٩) ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (١٥٠) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ (١٥١) ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَلَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٥٢) ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (١٥٣) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٥٤) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٥) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥٦) ﴿فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٥٧) ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (١٥٨) ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٥٩) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٦٠).

يقول تعالى منكرًا على هؤلاء المشركين في جعلهم لله تعالى البنات سبحانه ولهم ما يشتهون؛ أي: من الذكور؛ أي: يودّون لأنفسهم الجيد ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]؛ أي: يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين، يقول تعالى: فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم، ولهذا قال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾؛ أي: سلهم على سبيل الإنكار عليهم ﴿الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ كقوله: ﴿الْكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ (١٦١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾؛ أي: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم؟ كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنَّبُ شَهَدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]؛ أي: يسألون عن ذلك يوم القيامة، وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾؛ أي: من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ﴾ (١٥١) ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾؛ أي: صدر منه الولد ﴿وَلَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولاً جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً، وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله، وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم. ثم قال منكرًا عليهم: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾؛ أي: أي شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين؟ كقوله: ﴿أَفَأَصْفَنَاكُمْ رِئْصَكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ما لكم عقول تدبرون بها ما تقولون ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٥) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: حجة على ما تقولونه، ﴿فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب مُنْزَلٍ مِنَ السَّمَاءِ عَنْ اللَّهِ أَنَّهُ اتَّخَذَ مَا تَقُولُونَهُ، فَإِنْ مَا تَقُولُونَهُ لَا يُمْكِنُ إِسْنَادُهُ إِلَى عَقْلِ، بَلْ لَا يُجَوِّزُهُ الْعَقْلُ بِالْكَلِيَّةِ.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى فسأل أبو بكر رضي الله عنه فمن أمهاتهن، قالوا: بنات سرّوات الجن [الطبري ١٠٨/٢٣]، كذا قال قتادة، وابن زيد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾؛ أي: الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافتراءهم وقولهم الباطل بلا علم، وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان.

وقوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾؛ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد وعما يصفه

به الظالمون الملحدون علواً كبيراً. وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير في قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائد إلى الناس جميعهم ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل.

﴿فَإِنَّكَ وَمَا عَبَدُونَ﴾ (١٦١) مَا أَنتَ عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾.

يقول تعالى مخاطباً للمشركين: ﴿فَإِنَّكَ وَمَا عَبَدُونَ﴾ (١٦١) مَا أَنتَ عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ؛ أي: ما ينقاد لمقالكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا من هو أضل منكم ممن ذُري للنار، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنَافِلٍ﴾ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مِنْ أُفْكٍ ﴿الذاريات: ٨، ٩﴾؛ أي: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل، ثم قال تعالى مُنْزَهَاً لِلْمَلَكَةِ مِمَّا نَسَبُوا إِلَيْهِمْ مِنَ الْكُفْرِ بِهِمْ وَالْكَذْبِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾؛ أي: له موضع مخصوص في السموات ومقامات العبادة لا يتجاوزه ولا يتعداه، وقال ابن مسعود رضي الله عنه [كما روى الطبراني في «الكبير»/٩٠٤٢]: إن في السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماء، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ وكذا قال سعيد بن جبير.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾؛ أي: نقف صفوفًا في الطاعة، وقال أبو نضرة: كان عمر رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال: أقيموا صفوفكم استوتوا قياماً يريد الله تعالى بكم هدي الملائكة ثم يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ تأخر يا فلان تقدم يا فلان ثم يتقدم فيكبر. وفي «صحيح مسلم» [٥٢٢] عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِداً، وَتُرْبَتُهَا طَهُوراً) الحديث.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾؛ أي: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه، وقال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد رضي الله عنه ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ الملائكة تسبح الله ﷻ [الطبري ١١٢/٢٣].

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ﴾ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ؛ أي: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِبْذَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، ولهذا قال ها هنا: ﴿فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم ﷻ وتكذيبهم رسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَكُفَّارٌ لَّهُمُ الْمَنُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِيُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: تقدم في الكتاب الأول أن العقابة للرسول وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَكُفَّارٌ لَّهُمُ الْمَنُورُونَ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِيُونَ﴾؛ أي: تكون لهم العقابة. وقوله جلا وعلا: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: اصبر على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل، فإننا سنجعل لك العقابة والنصرة والظفرة.

وقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ﴾؛ أي: أنظرهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال على مخالفتك وتكذيبك، ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ﴾ ثم قال ﴿يَكُنْ﴾: ﴿أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ أي: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم، فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضًا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾؛ أي: فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم. قال السدي: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِبِهِمْ﴾؛ يعني: بدارهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾؛ أي: فبئس ما يصبحون؛ أي: بئس الصباح صباحهم، ولهذا ثبت في «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه قال: صَبَّحَ رسول الله ﷺ خيبر فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس فقال النبي ﷺ: (الله أَكْبَرُ، خَرَبْتُ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ) [البخاري/٣٤٤٧ ومسلم/١٣٦٥]. وقوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك.

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨١﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٢﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٣﴾﴾.

ينزه تبارك وتعالى نفسه ويقدها ويرثها عما يقول له الظالمون المكذبون المعتدون - تعالى وتنزهه وتقده عن قولهم علواً كبيراً - ولهذا قال: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾؛ أي: ذي العزة التي لا تُرام ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: عن قول هؤلاء المعتدين المفترين ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه

والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن، ولهذا قال: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾.



## تفسير سورة ص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ  
فَنَادَوْا وَلَا تَجِئْ مِنْ مَنَاصِرٍ (٣) .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا، وقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾؛ أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم في المعاش والمعاد، قال الضحاك في قوله: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ كقوله: ﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]؛ أي: تذكيركم، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير [١١٩/٢٣]، وقال ابن عباس وسعيد بن جبیر، وابن عیینة والسدي [وغيرهم]: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ ذي الشرف؛ أي: ذي الشأن والمكانة، ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار، واختلفوا في جواب هذا القسم فقال بعضهم: هو قوله: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ [ص: ١٤] وقال قتادة: جوابه ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ﴾ واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ﴾؛ أي: إن في هذا القرآن لذكرًا لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزِّ﴾؛ أي: استكبار عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقٍ﴾؛ أي: مخالفة له ومعاندة ومفارقة، ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسول وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾؛ أي: من أمة مكذبة ﴿فَنَادَوْا﴾؛ أي: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله، وليس ذلك بمجدٍ عنهم شيئًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢]؛ أي: يهربون ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣]. روى أبو داود الطيالسي [والحاكم/٣٦١٩] عن ابن عباس في قول الله: ﴿فَنَادَوْا وَلَا تَجِئْ مِنْ مَنَاصِرٍ﴾ قال: ليس بحين نداء ولا نزو ولا فرار، وعن ابن عباس [أيضًا]: ليس بحين مغاث، وعنه [أيضًا]: نادوا النداء حين لا ينفعهم، وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء. [وعن محمد بن كعب نحوه]، وقال مجاهد: ﴿فَنَادَوْا وَلَا تَجِئْ مِنْ مَنَاصِرٍ﴾ ليس بحين فرار ولا إجابة، وقد روي نحو هذا عن سعيد بن جبیر، وزید بن أسلم والحسن [وغيرهم].

وهذه الكلمة وهي «لات» هي «لا» التي للنفي، زیدت معها «التاء» كما تزداد في «ثم»،

فيقولون: «ثمت»، «ورب» فيقولون: «ربت»، والوقف عليها، وقرأ الجمهور بنصب «حين»، تقديره: وليس الحين حين مناص. وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَحِثُّوا فِي الْأَيَّامِ الَّتِي لَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنَ الْبَعْثِ﴾؛ أي: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ (١) ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٢) ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصِبُوا عَلَىٰ إِلَهِتِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ (٣) ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْلَاقٌ﴾ (٤) ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ﴾ (٥) ﴿أَمْ عَنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ (٦) ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ (٧) ﴿جُنُدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (٨).

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة الرسول بشراً: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾؛ أي: بشر مثلهم ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ (١) ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾؛ أي: أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك، قبحهم الله تعالى، وتعجبوا من ترك الشرك بالله فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٢) ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وهم سادتهم وكبرائهم قائلين: ﴿إِنْ آمَسُوا﴾؛ أي: استمروا على دينكم ﴿وَاصِبُوا عَلَىٰ إِلَهِتِهِمْ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد.

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ قال ابن جرير [١٢٦/٢٣] إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولسنا مجيئه إليه.

روى أبو جعفر بن جرير [١٢٥/٢٣] عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته، فبعثت إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال فخشى أبو جهل لعنه الله إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب: أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟ قال وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله ﷺ فقال: (يَا عَمَّ إِنَّي أُرِيدُهُمْ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ! يَقُولُونَهَا تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ وَتُوَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجَزِيَّةُ)، ففزعوا لكلمته ولقوله فقال القوم: كلمة واحدة! نعم وأبيك عسراً، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال ﷺ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ﴾ [ورواه أحمد/٢٠٨ والنسائي/٨٧٦٩ والترمذي/٣٢٣٢ وابن أبي حاتم/١٨٣٢٦، وقال الترمذي: حسن].

وقولهم: ﴿مَا سَعَيْنَا هَذَا فِي الْآخِرَةِ﴾؛ أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعوننا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة.

قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: يعنون دين قريش [ينظر: الطبري ١٢٧/٢٣]. وقال محمد بن كعب والسدي: يعنون النصرانية، وعن ابن عباس: يعني: النصرانية قالوا: لو كان هذا القرآن حقاً أخبرتنا به النصارى. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا آخِلُقُ﴾ قال مجاهد، وقتادة: كذب، وقال ابن عباس: تخرص. وقولهم: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾؛ يعني: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، قال الله تعالى: ﴿أَمْهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ لَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَيعَشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]، ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلة عقلهم، في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: ﴿بَلْ لَمَّا يَدُوُّوا عَذَابٍ﴾؛ أي: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته، سيعلمون غيب ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعاء، ثم قال تعالى مبيناً أنه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذي يعطي من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء فلا يهديه أحد من بعد الله، وأن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطمير، ولهذا قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾؛ أي: العزيز الذي لا يرام جنبه الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ ثُلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾؛ أي: إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب. قال ابن عباس رضي الله عنه، ومجاهد، وقتادة وغيرهم: يعني: طرق السماء، وقال الضحاك: فليصعدوا إلى السماء السابعة [الطبري ١٢٩/٢٣].

ثم قال: ﴿جُنُدًا هُنَالِكَ مَهْرُومًا مِنَ الْأَحْزَابِ﴾؛ أي: هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكتبون كما كتبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٧﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٨﴾ إِنْ كُلِّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ﴿١٩﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوْاقِ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد تقدمت قصصهم مبسطة في أماكن متعددة، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾؛ أي: كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ولهذا قال: ﴿إِنْ كُلِّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ﴾ فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسول، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر.

وقوله: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ قال زيد بن أسلم: أي: ليس لها مثنوية؛ أي: ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها؛ أي: قد اقتربت ودنت وأزفت وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله ﷻ.

وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِتْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القبط هو الكتاب، وقيل: هو الحظ والنصيب، قال ابن عباس ﷻ، ومجاهد، والحسن وغير واحد: سألوا تعجيل العذاب، وقال ابن جرير [٢٣/١٣٤]: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا، وهذا الذي قاله جيد وعليه يدور كلام الضحاك وإسماعيل بن أبي خالد، والله أعلم. ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾.

﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّنَّا لَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ ﴿٢٠﴾.

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود ﷺ أنه كان ذا أيد، والأيد: القوة في العلم والعمل. قال ابن عباس، والسدي، وابن زيد: الأيد: القوة، وقرأ ابن زيد ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطاعة، وقال قتادة: أعطي داود ﷺ قوة في العبادة، وفقهاً في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه ﷺ كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصَّيَامِ إِلَى اللَّهِ ﷻ صِيَامُ دَاوُدَ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى) [البخاري/١٠٧٩ ومسلم/١١٥٩]، وأنه كان أواباً، وهو الرجاء إلى الله ﷻ في جميع أموره وشؤونه.

وقوله: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾؛ أي: أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: ﴿يَجِبَالُ أَوَّي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠]، وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعة إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقرعة الزبور لا يستطيع الذهاب بل يقف في الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعاً له.

قال تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾؛ أي: محبوسة في الهواء ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾؛ أي: مطيع يسبح تبعاً له، وقال سعيد بن جبير وقتادة، وزيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾؛ أي: مطيع.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾؛ أي: جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك، قال مجاهد:



كان أشد أهل الدنيا سلطاناً، وقال السدي: كان يحرسه في كل يوم أربعة آلاف.  
 وقوله: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد؛ يعني: الفهم والعقل والفتنة، وقال مرة: الحكمة والعدل، وقال مرة: الصواب، وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه، وقال السدي: النبوة.  
 وقوله: ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾ قال شريح القاضي والشعبي: فصل الخطاب الشهود والأيمان، وقال قتادة: شاهدان على المدعي، أو يمين المدعى عليه، هو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء والرسل أو قال المؤمنون والصالحون وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي، وقال مجاهد، والسدي: هو إصابة القضاء وفهمه، وقال مجاهد أيضاً: هو الفصل في الكلام وفي الحكم، وهذا يشمل هذا كله وهو المراد واختاره ابن جرير [١٤٠/٢٣]، وقال الشعبي: فصل الخطاب: «أما بعد».

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصَمِ إِذْ سَارُوا بِالْحَرَابِ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِيَ نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيمِكَ إِلَيْنَا نَعِيمُهُ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قد ذكر المفسرون ها هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضاً.

وقوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ إنما كان ذلك؛ لأنه كان في محرابه وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب؛ أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما، وقوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾؛ أي: غلبني يقال عز يعز: إذا قهر وغلب، وقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ قال ابن عباس: أي: اختبرناه، وقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾؛ أي: ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾ ويحتمل أنه ركع أولاً، ثم سجد بعد ذلك، ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾؛ أي: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة رضي الله عنهم في سجدة «ص» هل هي من عزائم السجود؟ على قولين الجديد من مذهب الشافعي رحمته الله أنها ليست من عزائم السجود بل هي سجدة شكر، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد [٣٣٨٧] عن ابن عباس أنه قال في السجدة في «ص» ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها، ورواه البخاري [١٠١٩].

وروى البخاري [٤٥٢٩] عند تفسيرها عن العوام قال: سألت مجاهداً عن سجدة «ص» فقال:

سألت ابن عباس من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فكان داود عليه السلام ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به فسجدها داود عليه الصلاة والسلام فسجدها رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾؛ أي: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله ﷻ بها، وحسن مرجع وهو الدرجات العاليات في الجنة لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في «صحيح [مسلم/١٨٢٧]: (الْمُقْسِطُونَ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينُ الَّذِينَ يُقْسِطُونَ فِي أَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا).

﴿يَبْدَأُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

هذه وصية من الله ﷻ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. روى ابن أبي حاتم عن إبراهيم أبي زرعة وكان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهته، فقلت: يا أمير المؤمنين أقول؟ قال: قل في أمان، قلت: يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام، إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ثم توعد في كتابه فقال: ﴿يَبْدَأُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية.

وقال عكرمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ هذا من المقدم والمؤخر لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا. وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب [ينظر: الطبري ١٥٢/٢٣]، وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، والله أعلم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٧٧)  
﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٧٨)  
﴿كَذَّبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذْبَرُوا ءَايَتِهِ وَلِيَذْكُرُوا الْآلَاءَ﴾ (٧٩).

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحده، ثم يجمعهم ليوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: الذين لا يرون عبثاً ولا معاداً، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾؛ أي: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم، ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمن والكافر، فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾؛ أي: لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر،

وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء، ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والماخذ العقلية الصريحة، قال: ﴿كَتَبْنَا لَهُ الْكِتَابَ أَنْ يَلْقَىٰ فِي الْآخِرَةِ مِثْقَالًا ذَرَّةً مِنْ الْحَسَنَاتِ﴾ [٢٣] ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والماخذ العقلية الصريحة، قال: ﴿وَلْيَسِّرْ لَهُ الْيُسْرَىٰ﴾ [٢٤] أي: ذوو العقول وهي الأبواب جمع لب وهو العقل.

قال الحسن البصري: والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [٢٥] إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْخِثَاءُ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٢٧﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان؛ أي: نبياً كما قال: ﴿وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]؛ أي: في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله: ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ثناء على سليمان عليه السلام بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْخِثَاءُ﴾؛ أي: إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات. قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرף حافر الرابعة، والجياد السراع وكذا قال غير واحد من السلف، وروي عن إبراهيم التيمي قال: كانت الخيل التي شغل سليمان عليه الصلاة والسلام عشرين ألف فرس فقهرها. وقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب وذلك ثابت في «الصحيحين» من غير وجه [البخاري/ ٣٨٨٥ ومسلم/ ٦٢٢٧]، ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والخيل تراد للقتال، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسابقة والمضايقة، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع، ولا سجود كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح تستر وهو منقول عن مكحول والأوزاعي وغيرهما والأول أقرب؛ لأنه قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

قال الحسن البصري: قال: لا، والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت وكذا قال قتادة، وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقبيها بالسيوف، وقال ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقبيها حباً لها، وهذا القول اختاره ابن جرير [١٥٦/٢٣] قال: لأنه

لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك ما لا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها، وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ولهذا لما خرج عنها الله تعالى عوضه الله ﷻ ما هو خير منها وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر فهذا أسرع وخير من الخيل. روى الإمام أحمد [٢٠٧٨٥] عن أبي قتادة، وأبي الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا: أتينا على رجل من أهل البادية فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله ﷻ وقال: (إِنَّكَ لَا تَدْعُ شَيْئًا اتَّقَاءَ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ) [قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّبِينَ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾؛ أي: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والحسن وغيرهم: يعني: شيطاناً ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾؛ أي: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبتهته.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ قال بعضهم: لا ينبغي لأحد من بعدي؛ أي: لا يصلح لأحد أن يسلبني بعدي كما كان من قضية الجسد الذي ألقى على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله وهذا هو ظاهر السياق من الآية وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ.

روى البخاري [٤٤٩] عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ عِفْرِيئاً مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتْ عَلَى الْبَارِحَةِ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ فَأَمَكَّنِي اللَّهُ مِنْهُ وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾).

وقوله: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ قال الحسن البصري: لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضباً لله ﷻ عوضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر.

وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾؛ أي: حيث أراد من البلاد. وقوله: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾؛ أي: منهم من هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها، ﴿وَأَخْرَجِينَ

مُفَرِّقِينَ فِي الْأَصْفَادِ؛ أَي: موثقون في الأغلال والأكبال، ممن قد تَمَرَّد وعصى وامتنع من العلم وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى.

وقوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أَي: هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك؛ أَي: مهما فعلت فهو جائز لك احكم بما شئت فهو صواب، وقد ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ لما خُيِّر بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذي يفعل ما يؤمر به وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله تعالى به - وبين أن يكون نبياً ملكاً يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام فقال له: تواضع، فاختار المنزلة الأولى؛ لأنها أرفع قدراً عند الله ﷻ وأعلى منزلة في المعاد، وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا والآخرة، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا نبه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾؛ أَي: في الدار الآخرة.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَتَى مَسَيِّئَ الشَّيْطَانِ بُضْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخَذْ بِيَدِكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه السلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق في جسده مَعْرُزُ إبرة سليماً سوى قلبه، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله تعالى ورسوله، فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدور وتم الأجل المقدر تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين فقال: ﴿أَتَى مَسَيِّئَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وفي هذه الآية الكريمة قال: ﴿أَتَى مَسَيِّئَ الشَّيْطَانِ بُضْبٍ وَعَذَابٍ﴾، قيل: بنصب في بدني، وعذاب في مالي وولدي فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله، ففعل فأنبع الله تعالى عيناً وأمره أن يغتسل منها فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً، ولهذا قال تعالى: ﴿أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

روى ابن جرير [١٦٧/٢٣]، وابن أبي حاتم عن أنس بن مالك عليه السلام: أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَبِثَ بِهِ بِلَاؤُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ كَانَا مِنْ أَحْصَى إِخْوَانِهِ بِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ. قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ، فَيَكْشِفُ مَا بِهِ فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ

أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمْرٌ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ تَعَالَى، فَأَرْجِعْ إِلَى بَيْتِي فَأَكْفُرْ عَنْهُمَا، كَرَاهِيَةً أَنْ يَذْكُرَا اللَّهَ تَعَالَى إِلَّا فِي حَقِّ، قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ يَدَيْهِ حَتَّى يَبْلُغَ فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهِمَا فَأَوْحَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَالْتَفَتَتْ تَنْظُرُ فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا وَقَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَهُوَ عَلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيُّ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا الْمُبْتَلَى، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا. قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ، قَالَ: وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ، أَنْدَرُ الْقَمْحِ وَأَنْدَرُ لِلشَّعِيرِ فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى سَحَابَتَيْنِ فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَعَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ وَأَفْرَعَتْ الْأُخْرَى فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ حَتَّى فَاضَ). هذا لفظ ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ [قال الهيثمي في «المجمع»: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح].

وروى الإمام أحمد [٨١٤٤] عن أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَحْتَوِي فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: بَلَى يَا رَبِّ وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ). انفرد بإخراجه البخاري [٣٢١١]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ قال الحسن وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾؛ أي: به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ﴿وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة، وقوله: ﴿وَحُدِّ بِيدِكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته. قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة، وقيل: لغير ذلك من الأسباب فلما شفاه الله ﷻ وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله ﷻ أن يأخذ ضغثًا وهو الشِّمْرَاخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد برّت يمينه وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْتُهُ صَابِرًا نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾؛ أي: رجاء منيب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقد استدلل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل في الأيمان وغيرها، وأخذوا بمقتضاها ومنعت طائفة أخرى من الفقهاء من ذلك وقالوا: لم يثبت أن الكفارة كانت مشروعة في شرع أيوب ﷺ، فلذلك رخص له في ذلك وقد أغنى الله هذه الأمة بالكفارة.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (٤٥) ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (٤٦) ﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَنِ الْمَصْطَفَيْنَ الْآخِيَارِ﴾ (٤٧) ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْآخِيَارِ﴾ (٤٨) هَذَا ذِكْرٌ.

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾؛ يعني: بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة، قال ابن عباس: ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾ يقول: أولي القوة، ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ يقول: الفقه في الدين، وقال مجاهد: ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾؛ يعني: القوة في طاعة الله تعالى، والأبصار؛ يعني: البصر في الحق [ينظر: الطبري ١٧٠/٢٣]، وعن قتادة والسدي: [نحوه].

وقوله: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قال مجاهد: أي: جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هم غيرها، وقال السدي: ذكرهم للآخرة وعملهم لها. [وعن مالك بن دينار، وعطاء الخراساني نحوه]، وقال سعيد بن جبير: يعني: بالدار الجنة يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها، وقال قتادة: كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها، وقوله: ﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَنِ الْمَصْطَفَيْنَ الْآخِيَارِ﴾؛ أي: لمن المختارين المجتبيين الأخيار، فهم أخيار مختارون.

وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْآخِيَارِ﴾ قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾؛ أي: هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، قال السدي: يعني: القرآن العظيم.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ (٤٩) ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ (٥٠) ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِكُنُهُمْ بِكُنُهُمْ كَثِيرَةً وَشَرَابٍ﴾ (٥١) ﴿وَعِنْدَهُمْ قُصِرَتِ الْأَرْفَافُ زُرَّابٌ﴾ (٥٢) ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٥٣) ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُم مِّن نَّفَادٍ﴾ (٥٤).

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب وهو المرجع والمنقلب، ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾؛ أي: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب، والألف واللام هاهنا بمعنى الإضافة كأنه يقول مفتحة لهم أبوابها؛ أي: إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها. وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ قيل: متربعين على سرر تحت الحجال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُنُهُمْ كَثِيرَةً﴾؛ أي: مهما طلبوا وجدوا، وأحضر كما أرادوا ﴿وَشَرَابٍ﴾؛ أي: من أي أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام ﴿يَأْكُوبُ وَيُأَبْرِقُ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨].

﴿وَعِنْدَهُمْ قُصِرَتِ الْأَرْفَافُ﴾؛ أي: عن غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿زُرَّابٌ﴾؛ أي: متساويات في السن والعمر هذا معنى قول ابن عباس [ذكر عنه البخاري نحوه ١٨٠٨/٤]، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والسدي. ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾؛ أي: هذا الذي

ذكرنا من صفة الجنة التي وعدا لعباده المتقين الذين يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

ثم أخبر تبارك وتعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا انتهاء، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وكقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُوزٍ﴾ [هود: ١٠٨]، والآيات في هذا كثيرة جدًا.

﴿هَذَا وَإِلَى اللَّطِيفِينَ لَشَرٌّ مَثَابٍ ۖ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفُ اللَّهُ إِلَيْهَا ۖ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿هَذَا فَلْيَذوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ۖ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَجَلِهِ أَزْوَاجَ ۖ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَنِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِلَّا فِي سِعَةِ النَّارِ ۖ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمُرْجَأٍ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّعْتُمُوهُمْ لَنَا فَيَنْسِفُ اللَّهُ الْفَرَارَ ۖ﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهِ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ۖ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ۖ﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿أَتَّخَذْتُمْ سِحْرِيًّا أَمْ رَآغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ۖ﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ۖ﴾ ﴿٦٤﴾.

لما ذكر تعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم، فقال: ﴿هَذَا وَإِلَى اللَّطِيفِينَ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله وجميع المخالفون لرسول الله ﴿لَشَرٌّ مَثَابٍ﴾؛ أي: لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾؛ أي: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم، ﴿فَيَنْسِفُ اللَّهُ إِلَيْهَا﴾ ﴿٥٦﴾ هذا فَلْيَذوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾ أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره، وأما العَسَاق فهو ضده وهو البارد الذي لا يستطيع من شدة برده المؤلم، ولهذا قال: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَجَلِهِ أَزْوَاجَ ۖ﴾؛ أي: وأشياء من هذا القبيل: الشيء وضده يعاقبون بها.

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَجَلِهِ أَزْوَاجَ﴾ ألوان من العذاب، وقال غيره: كالزهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوي إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه [الطبري ١٧٩/٢٣].

وقوله: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَنِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِلَّا فِي سِعَةِ النَّارِ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ﴾ [الأعراف: ٣٨]؛ يعني: بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَنِمٌ﴾؛ أي: داخل ﴿مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِلَّا فِي سِعَةِ النَّارِ﴾؛ أي: لأنهم من أهل جهنم. ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمُرْجَأٍ بِكُمْ﴾؛ أي: فيقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَمُرْجَأٍ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّعْتُمُوهُمْ لَنَا﴾؛ أي: أنتم دعوتهم بنا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿فَيَنْسِفُ اللَّهُ الْفَرَارَ﴾؛ أي: فينس المنزل والمستقر والمصير.

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهِ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ كما قال ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]؛ أي: لكل منكم عذاب بحسبه ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ۖ﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿أَتَّخَذْتُمْ سِحْرِيًّا أَمْ رَآغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفقدون رجالًا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة



وهم المؤمنون في زعمهم قالوا: ما لنا لا نراهم معنا في النار. قال مجاهد: هذا قول أبي جهل يقول: ما لي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً وهذا مثل ضرب وإلا فكل الكفار هذا حالهم يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ (١٧) أَخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا؛ أي: في الدار الدنيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ﴾ يسألون أنفسهم بالمحال يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات، وهو قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ يَبْتَنِمُونَ أَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أَدْخِلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٩].

وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَافُ أَهْلَ النَّارِ﴾؛ أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٦٥) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْمَأَ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠).

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر لست كما تزعمون، ﴿وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾؛ أي: هو وحده قد فهر كل شيء وغلبه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾؛ أي: غفار مع عظمتة وعزته. ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياي إليكم ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: غافلون، قال مجاهد، وشريح القاضي، والسدي في قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: القرآن.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملائكة الأعلى؟ يعني: في شأن آدم عليه الصلاة والسلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه في تفضيله عليه، فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٢١٦٢] عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نترأى قرن الشمس فخرج ﷺ سريعاً فثوب بالصلاة فصلّى وتجاوز في صلاته فلما سلم قال ﷺ: (كَمَا أَنْتُمْ عَلَى مَصَافِكُمْ) ثم أقبل إلينا فقال: (إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الْغَدَاةُ، إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَتَنَعْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَقَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي ﷻ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي رَبِّ - أَعَادَهَا ثَلَاثًا - فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيْ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ صَدْرِي فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ. قَالَ: وَمَا الْكَفَّارَاتُ؟ قُلْتُ: نَقْلُ الْأَفْئَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْكِرِيهَاتِ. قَالَ: وَمَا

الدَّرَجَاتُ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلَبْسُ الْكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، قَالَ: سَلْ، قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً بِقَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مُفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ، وقال رسول الله ﷺ: (إِنَّهَا حَقٌّ فَأَدْرُسُوهَا وَتَعَلَّمُوهَا)، فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط وهو في «السُّنَنِ» من طرق، وقال الترمذي [٣٢٣٥]: حسن صحيح، وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن فإن هذا قد فسر، وأما الاختصاص الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا وهو قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُودًا ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُا مَا مَعَكُمْ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الْبَلَاءِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة، وفي أول سورة الأعراف، وفي سورة الحجر، وفي سبحان، والكهف، وها هنا وهي أن الله ﷻ أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشرًا من صلصال من حمإ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكرامًا وإعظامًا واحترامًا وامتنالًا لأمر الله ﷻ. فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ولم يكن منهم جنسًا. كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه ﷻ فيه، وادعى أنه خير من آدم، فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين في زعمه، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك، فأبعده الله ﷻ وأرغم أنفه، وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماه إبليس إعلامًا له بأنه قد أبلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذمومًا مدحورًا إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْتَنِكَ ذَرْبَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقوله: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع الحق الأولى، وفسره مجاهد بأن معناه أنا الحق والحق أقول، وفي رواية

عنه: الحق مني وأقول الحق، وقرأ آخرون بنصبهما. قال السدي: هو قسم أقسم الله به [الطبري ١٨٨/٢٢].

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطونه من عرض الحياة الدنيا، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾؛ أي: وما أزيد على ما أرسلني الله تعالى به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله ﷻ والدار الآخرة. عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود فقال: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله ﷻ قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أخرجاه [البخاري/٤٥٣١].

وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾؛ يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، وعن ابن عباس في قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الجن والإنس، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ يَدٌ وَمَنْ بَلَغْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وكقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وقوله: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ﴾؛ أي: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾؛ أي: عن قريب. قال قتادة: بعد الموت وقال عكرمة: يعني: يوم القيامة، ولا منافاة بين القولين فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة، وقال الحسن: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين [الطبري ١٨٩/٢٣].



## تفسير سورة الزمر

وهي مكية

روى النسائي [١٠٥٤٨] عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر [وسنده صحيح].

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَنَهُ ۚ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝﴾

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده، تبارك وتعالى فهو الحق الذي لا مربة فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ لِنَزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، وقال: ﴿وَالَهُ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، وقال ها هنا: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾؛ أي: المنيع الجنب ﴿الحكيم﴾؛ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عدل، ولهذا قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾؛ أي: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له، وقال قتادة في قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿الطبري ١٩١/٢٣﴾، ثم أخبر عن عبادة الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾؛ أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمور الدنيا فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به. قال قتادة، والسدي، وزيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾؛ أي: ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة [ينظر: الطبري ١٩١/٢٣]، ولهذا كانوا يقولون في تلييتهم إذا حجوا في جاهليتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون قديم الدهر

وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى أفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأنّ هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضي به بل أبغضه ونهى عنه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وأخبر أن الملائكة التي في السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، ﴿فَلَا تَضَرُّوهُمُ اللَّهُ الْأَمْثَالُ﴾ [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزي كل عامل بعمله، ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُوا إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ④ ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾؛ أي: لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه، ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى فقال: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب الشرط ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم.

وقوله: ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾؛ أي: تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي كل شيء عبد لديه فقير إليه، وهو الغني عما سواه، الذي قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ ⑤ ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَنَزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ زَوْجٍ يَخْلُقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ ⑥.

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف فيه يقلب ليله ونهاره ﴿يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾؛ أي: سخرهما يجريان متعاقبين لا يفتران، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، كقوله تبارك وتعالى:

﴿يُعْشَىٰ لَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا﴾ [الأعراف: ٥٤]، هذا معنى ما روي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي وغيرهم [الطبري ١٩٣/٢٣].

وقوله ﴿يَكُنْ﴾: ﴿وَسَحَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى مدة معلومة عند الله تعالى ثم تنقضي يوم القيامة. ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾؛ أي: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب إليه.

وقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ أي: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألستكم وألوانكم من نفس واحدة وهو آدم، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء ﷺ، كقوله: ﴿يَتَأْتِيَا النَّاسَ اتَّفَقًا رَبُّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِةَ أَزْوَاجٍ﴾؛ أي: خلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام: ﴿ثَمَنِةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤]، وقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾؛ أي: قدركم في بطون أمهاتكم ﴿خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يكون أحدهم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروفاً وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾؛ يعني: ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد، وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس ﷺ، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد وغيرهم [الطبري ١٩٦/٢٣]، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾؛ أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿فَأَنِّي تُصْرَفُونَ﴾؛ أي: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يذهب بقولكم؟

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾.

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن نفسه تبارك وتعالى أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وفي «صحيح مسلم» [٢٥٧٧]: (يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَجْتُكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُّلكي شيئاً).

وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾؛ أي: لا يحبه ولا يأمر به ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾؛ أي: يحبه لكم ويزدكم من فضله. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئاً،

بل كل مطالب بأمر نفسه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: فلا تخفى عليه خافية.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾؛ أي: عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا بَلَغَكُمُ الْإِلَٰهَ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوْلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾؛ أي: في حال العافية يشرك بالله، ويجعل له أندادًا. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾؛ أي: قل لمن هذه حالته ومسلكه: تمتع بكفرك قليلاً وهو تهديد شديد ووعد أكيد، كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِثٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

يقول تعالى: أَمَّنْ هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادًا، لا يستون عند الله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال هاهنا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِثٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾؛ أي: في حال سجوده وفي حال قيامه، ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، وليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون. قال ابن مسعود: القانت: المطيع لله ولرسوله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن، والسدي، وابن زيد: آناء الليل: جوف الليل، وقال منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء، وقال الحسن وقتادة: آناء الليل: أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾؛ أي: في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب، ولهذا قال: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾. فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما روى الإمام عبد بن حميد في «مسنده» [١٣٧٠] والترمذي [٩٨٣] عن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له: (كَيْفَ تَحْذُرُ؟) فقال: أرجو وأخاف، فقال رسول الله ﷺ: (لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ ﷻ الَّذِي يَرْجُو، وَأَمْنَهُ الَّذِي يَخَافُهُ) [سنده صحيح].

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أندادًا ليضل عن سبيله ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل.

﴿قُلْ يٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ .

يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قُلْ يٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؛ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم، وقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ قال مجاهد: فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان، وعن عطاء في قوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ قال: إذا دعيتم إلى معصية فاهربوا، ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال لهم إنما يغرف لهم غرفًا، وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزدادون على ذلك، وقال السدي: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ يعني: في الجنة، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال السدي: يعني: من أمته ﷺ.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَمْ يَنْفَعِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وهذا شرط معناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأخرى، ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ وهذا أيضًا تهديد، ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾؛ أي: إنما الخاسرون كل الخسران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي: تفارقوا فلا التقاء لهم أبدًا، سواء ذهب أهلهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور، ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: هذا هو الخسران المبين الظاهر الواضح. ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿لَمْ يَنْفَعِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ كما قال: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنَ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النبوت: ٥٥]، وقوله: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾؛ أي: إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده لينزجروا عن المحارم والمآثم، وقوله: ﴿يٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾؛ أي: اخشوا بأسى وعذابي.



﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾.

قال زيد بن أسلم: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل، وأبي ذر، وسلمان الفارسي [البغوي ٧٥/٤]، والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ثم قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾؛ أي: يفهمونه ويعملون بما فيه. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: ذوو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مَالَهُمْ هُمْ عُرْفُ مِّنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَّيْنَةٌ تَخْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شقي تُقَدَّرُ تُنْقِذُهُ مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله؛ لأنه من يضل الله فلا هادي له ومن يهده فلا مضل له، ثم أخبر عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة، وهي القصور الشاهقة ﴿مِّنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَّيْنَةٌ﴾ طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عالياً.

روى الإمام أحمد [٨٤٥٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ فِي الْجَنَّةِ أَهْلَ الْغُرَفِ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَارِبَ فِي الْأَفْقِ الطَّالِعِ، فِي تَفَاضُلِ أَهْلِ الدَّرَجَاتِ) - فقالوا: يا رسول الله أولئك النبيون؟ فقال ﷺ: (بلى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، وَأَقْوَامٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الرَّسُلَ)، ورواه الترمذي [٢٥٥٦]، وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿تَخْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: تسلك الأنهار بين خلال ذلك، كما يشاؤون وأين أرادوا ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾؛ أي: هذا الذي ذكرنا وعَدَّ وَعَدَهُ الله عباده المؤمنين ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾  
أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى أن أصل الماء من السماء كما قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، وَيُنْبِغُهُ عِيُونًا ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها، ولهذا قال: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَبُوعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ روى ابن أبي حاتم [١٨٣٨٢] عن ابن عباس قال: ليس في الأرض ماء إلا نزل من

السماء ولكن عروق في الأرض تغيره، فذلك قوله: ﴿فَسَلَكَهُ يَنبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذباً فليصعده، وكذا قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبي: أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء، وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾؛ أي: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه؛ أي: أشكاله وطعومه وروائحهم ومنافعه ﴿ثُمَّ يَهِيْجُ﴾؛ أي: بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفرّاً قد خالطه اليبس ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلَاءً﴾؛ أي: ثم يعود يابساً يتحطم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، والشباب يعود شيخاً هرمًا ضعيفاً قد خالطه اليبس، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زرعاً وثماراً، ثم يكون بعد ذلك حطاماً، كما قال تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ سَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾؛ أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟ كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ولهذا قال: ﴿قَوْلٌ لِّفَاسَةٍ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿أَوَلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (١٣).

هذا مدح من الله ﷻ لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِيَ﴾ قال مجاهد: يعني: القرآن كله متشابه مثاني، وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف، وقال الضحاك: مثاني ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى وقال عكرمة والحسن: ثنى الله فيه القضاء، زاد الحسن تكون السورة فيها آية وفي السورة الأخرى آية تشبهها، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مثاني مُرَدَّد، رُدَّد موسى في القرآن، وصالح وهود والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أمكنة كثيرة، وقال ابن عباس: مثاني قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويُرَدُّ بعضه على بعض [ينظر: الطبري ٢٣/٢١٠]، ويُروى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: ﴿مُتَشَبِّهًا مَّثَانِيَ﴾ أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا فهذا من المثاني، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [الانفطار: ١٣، ١٤]، ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثاني؛ أي: في معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً، فهو المتشابه

وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أَمْ الْكِتَابِ وَأَخْرَ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، ذلك معنى آخر.

**وقوله:** ﴿نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه: أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات. الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالقدح المعلى في الدنيا والآخرة.

قال قتادة رحمه الله: ﴿نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله ﷻ بأن تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقال السدي: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: إلى وعد الله، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾؛ أي: هذه صفة من هداه الله ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله ﴿وَمَن يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾.

﴿أَفَمَن يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَاَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْحَزَنَ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦).

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ويُقرع فيقال له ولا مثاله من الظالمين: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، كمن يأتي آمناً يوم القيامة؟ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّبِعِ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَشَىٰ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر.

**وقوله:** ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ يعني: القرون الماضية المكذبة للرسول أهلكتهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق، وقوله: ﴿فَاَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْحَزَنَ

فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا؛ أَي: بِمَا أَنْزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَتَشْفِي الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ، فَلِيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَخَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، وَالَّذِي أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ أَعْظَمُ مِمَّا أَصَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ﴾ (٢٧) ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨) ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩) ﴿إِنَّكَ مِيتٌ وَإِنَّهُمْ مَمِيتُونَ﴾ (٣٠) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُمُونَ﴾ (٣١).

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أَي: بَيْنَا لِلنَّاسِ فِيهِ بَضْرِبِ الْأَمْثَالِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ﴾، فَإِنَّ الْمَثَلَ يُقَرِّبُ الْمَعْنَى إِلَى الْأَذْهَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]؛ أَي: تَعَلَّمُونَهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَقَالَ: ﴿وَلَيْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾؛ أَي: هُوَ قُرْآنٌ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ وَلَا لَبْسَ، بَلْ هُوَ بَيَانٌ وَبَرَهَانٌ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى كَذَلِكَ، وَأَنْزَلَهُ بِذَلِكَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أَي: يَحْذَرُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ وَيَعْمَلُونَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾؛ أَي: يَتَنَازَعُونَ فِي ذَلِكَ الْعَبْدِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُمْ، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾؛ أَي: سَالِمًا ﴿لِرَجُلٍ﴾؛ أَي: خَالِصًا لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؛ أَي: لَا يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا. كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُشْرِكُ الَّذِي يَعْبُدُ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ، وَالْمُؤْمِنُ الْمَخْلُصُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هَذِهِ الْآيَةُ ضَرَبَتْ مَثَلًا لِلْمُشْرِكِ وَالْمَخْلُصِ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْمَثَلُ ظَاهِرًا بَيِّنًا جَلِيًّا، قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أَي: عَلَى إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أَي: فَلِهَذَا يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ.

وقوله: ﴿إِنَّكَ مِيتٌ وَإِنَّهُمْ مَمِيتُونَ﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق ﷺ عند موت الرسول ﷺ حتى تحقق الناس موته.

ومعنى هذه الآية أنكم ستنقلون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله ﷻ، فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين. ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذُكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة، فإنها شاملة لكل المتنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة.

روى الإمام أحمد [١٤٣٤] عن الزبير بن العوام ﷺ قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿إِنَّكَ مِيتٌ وَإِنَّهُمْ مَمِيتُونَ﴾ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُمُونَ قال الزبير ﷺ: أَي

رسول الله، أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال ﷺ: (نَعَمْ لِيَكْرَرَنَّ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يُؤَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقُّهُ). قال الزبير: والله إن الأمر لشديد، ورواه الترمذي [٣٢٣٦]، وقال: حسن صحيح.

وقال ابن عباس ؓ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّمُونَ﴾ يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر.

وقال أبو العالية في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّمُونَ﴾ قال: يعني: أهل القبلة، وقال ابن زيد: يعني: أهل الإسلام وأهل الكفر، وقد قدمنا أن الصحيح العموم والله أعلم.

﴿فَنَنْظُرُ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ؛ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ؛ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٥).

يقول ﷺ مخاطباً المشركين الذين افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى، وادَّعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولداً - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على السنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال: ﴿فَنَنْظُرُ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾؛ أي: لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل كذب على الله، وكذب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق، ولهذا قال متوعداً لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون. ثم قال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ﴾ قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن زيد: الذي جاء بالصدق هو الرسول ﷺ.

وقال السدي: هو جبريل ؑ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾؛ يعني: محمداً ﷺ وقال ابن عباس: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾؛ يعني: رسول الله ﷺ، وعن مجاهد: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة فيقولون: هذا ما أعطيتونا فعملنا فيه بما أمرتمونا، وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين، فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ﴾ هو رسول الله ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال المسلمون: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: اتقوا الشرك.

﴿لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ يعني: في الجنة، مهما طلبوا وجدوا، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

﴿الَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالذِّبِّ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ رَحْمَتَهُ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿الَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وقرأ بعضهم: «عباده»؛ يعني: أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه. وروى ابن حاتم هاهنا عن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (أَفْلَحَ مَنْ هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا، وَقَعَ بِهِ)، ورواه الترمذي [٢٣٤٩]، وقال: صحيح. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالذِّبِّ مِنْ دُونِهِ﴾؛ يعني: المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دونه جهلاً منهم وضلالاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾؛ أي: منيع الجنب لا يضام، من استند إلى جنبه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾؛ يعني: أن المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ رَحْمَتَهُ﴾؛ أي: لا تستطيع شيئاً من الأمر، وذكر ابن أبي حاتم [١٨٣٩٥] هاهنا حديث ابن عباس مرفوعاً: (احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُتْبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَضُرُّوكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُتْبَهُ اللَّهُ لَكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ، جَفَّتِ الصُّحُفُ، وَرُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَاعْمَلْ لِلَّهِ بِالشُّكْرِ فِي الْبَقِيَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [رواه الترمذي بنحوه/٢٥١٦ وقال: حسن صحيح].

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾؛ أي: الله كافي، عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون، كما قال هود عليه السلام حين قال قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَبْنَاكَ بِبَعْضِ آيَاتِنَا يُسْوءُ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكُمْ لَأَشْرِكُونَ بِرَبِّي وَإِنِّي بِمَا تَكْفُرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكْذِبُونَ جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦].

وقوله: ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعد ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾؛ أي: على طريقتي ومنهجي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿وَمَنْ

يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ؛ أَي: في الدنيا ﴿وَيُحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أَي: دائم مستمر لا محيد عنه وذلك يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْتَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٤١) **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴿٤٢﴾.

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾؛ يعني: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾؛ أَي: لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ﴿فَمَنِ اهْتَكَيْتَ فَلِنَفْسِهِ﴾؛ أَي: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِهَا﴾؛ أَي: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾؛ أَي: بموكل أن يهتدوا ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَمَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٦٦) وهو أفاخر فوق عبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠، ٦١]، فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى، ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيه دلالة على أنها تجتمع في الملائ الأعلى، وفي «صحيح البخاري» [٥٩٦١ واللفظ له]، و«مسلم» [٢٧١٤] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا أَوَىٰ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَلْيَنْقُضْهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلْفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتَ جَنِينِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أُمِسَّكَ نَفْسِي فَأَرْحَمْهَا، وَإِنْ أُرْسَلَتْهَا فَأَحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادُكَ الصَّالِحِينَ)، وقال بعض السلف: تقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، ﴿فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ التي قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى. قال السدي: إلى بقية أجلها، وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء ولا يغلط ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣) **قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (٤٤) **وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** (٤٥).

يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله وهم الأصنام والأنداد التي

اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حادهم على ذلك، وهي لا تملك شيئاً من الأمر بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ من الحيوان بكثير، ثم قال: قل: أي: يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه من شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزي كلأ بعمله. ثم قال تعالى ذاماً للمشركين أيضاً: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾؛ أي: إذا قيل لا إله إلا الله ﴿أَشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: اشمازت انقبضت، وقال السدي: نفرت وقال قتادة: كفرت واستكبرت، وقال زيد بن أسلم: استكبرت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات: ٣٥]؛ أي: عن المتابعة والانقياد لها فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر، ولذلك قال: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾؛ أي: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: يفرحون [ينظر: الطبري ١٠/٢٤ وما قبلها].

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤٨).

يقول تبارك وتعالى بعدما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبههم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾؛ أي: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذي خلق السموات والأرض وفطرها؛ أي: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾؛ أي: السر والعلانية، ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: في دنياهم ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم، روى مسلم في «صحيحه» [٧٧٠] عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: (اللَّهُمَّ رَبِّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾؛ أي: ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾؛ أي: الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً، كما قال في الآية الأخرى. ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾؛ أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾؛ أي:



وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٩) ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٥٠) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥١) ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢).

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله ﷻ، وينيب إليه ويدعوه، فإذا خوله نعمة منه بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ أي: لما يعلم الله تعالى من استحقاقي له، ولولا أنني عند الله خصيص لما خَوَّلني هذا، قال قتادة: على علم عندي: على خير عندي. قال الله ﷻ: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعموا بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي، مع علمنا المتقدم بذلك، فهي فتنة؛ أي: اختبار ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون.

﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ﴾؛ أي: من المخاطبين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾؛ أي: كما أصاب أولئك ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لعبراً وحججاً.

﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (٥٤) ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٥٥) ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٥٦) ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥٧) ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨) ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٥٩).

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، مهما كانت وإن كثرت وكانت

مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه. روى البخاري [٤٥٣٢] ومسلم [١٢٢] عن ابن عباس رضي الله عنه أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمدًا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الآية [الفرقان: ٧٠].

[فهذا دال] على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، والآيات في هذا كثيرة جدًا، وفي «الصحيحين» [البخاري ٣٢٨٣ ومسلم/٢٧٦٦] عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث الذي قتل تسعًا وتسعين نفسًا، ثم ندم وسأل عابدًا من عبَاد بني إسرائيل هل له من توبة، فقال: لا، فقتله وأكمل به مائة. ثم سأل عالمًا من علمائهم هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة، ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدها فأتاه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله تعالى أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشير، فقبضته ملائكة الرحمة، وذكر أنه نأى بصدوره عند الموت وأن الله أمر البلدة الخيرة أن تقترب وأمر تلك البلدة أن تتباعد. هذا معنى الحديث وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه، وقال ابن عباس رضي الله عنه: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيزًا ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولًا من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله تعالى، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه، وروى الطبراني عن ابن مسعود قال: إن أعظم آية في كتاب الله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية من القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجًا في سورة الزمر ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، وإن أشد آية في كتاب الله تفويضًا ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ومر عبد الله بن مسعود على قاص، وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر، لم تُقنط الناس؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.

وروى الإمام أحمد [٢٣٥٦٢] عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: قد

كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: (لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللَّهُ ﷻ قَوْمًا يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ)، وأخرجه مسلم [٢٧٤٨].

ثم استحث ﷺ عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾؛ الخ؛ أي: ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿وَمِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ﴾؛ أي: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾؛ أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرعون. ثم قال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾؛ أي: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله ﷻ.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾؛ أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل ساجر مستهزئ غير موقن مصدق.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّكَ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ؛ أي: تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل. قال ابن عباس: أخبر الله سبحانه ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، وقال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّكَ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ فأخبر الله تعالى: أن لو رُدوا لما قدروا على الهدى، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وروى الإمام أحمد [١٠٦٦٠] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةٌ)، قال: (وَكُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي قَالَ فَيَكُونُ لَهُ الشُّكْرُ)، ورواه النسائي [برقم: ١١٤٥٤] وسنده صحيح، ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال الله ﷻ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِيقَاتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١).

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى ههنا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: في دعواهم له شريكاً وولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾؛ أي: بكذبهم وافتراءهم.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ أي: أليست جهنم كافية لهم سجنًا وموئلاً لهم

فيها الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق. روى ابن أبي حاتم عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ الْمُتَكَبِّرِينَ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشْيَاءَ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ، يَغْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا مِنَ النَّارِ فِي وَادٍ يُقَالُ لَهُ بُولْسُ، مِنْ نَارِ الْأَنْيَارِ، وَيُسْقَوْنَ عُصَارَةَ أَهْلِ النَّارِ، وَمِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ) [وروى نحوه الترمذي/٢٤٩٢، وقال: حسن صحيح].

وقوله: ﴿وَيُجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَارِبِهِمْ﴾؛ أي: بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿لَا يَسْهُمُ السُّوءُ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر بل هم آمنون من كل فزع مزحزون عن كل شر مؤملون كل خير.

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾  
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُوْنَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٩﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٠﴾.

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكما والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته. وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: المقاليد هي المفاتيح بالفارسية [ينظر: الطبري ١٣/٢٥]، وكذا قال قتادة، وابن زيد، وسفيان بن عيينة، وقال السدي: أي: خزائن السموات والأرض، والمعنى على كلا القولين أن أزمنة الأمور بيده له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ﴾؛ أي: حججه وبراهينه ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُوْنَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة الألهتهم ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُوْنَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وهذه كقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾؛ أي: أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٢١﴾.

يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء وكل شيء تحت قهره وقدرته، قال مجاهد: نزلت في قريش، وقال السدي: ما عظموه حق تعظيمه، وقال محمد بن كعب: لو

قدروه حق قدره ما كذبوا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره، وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تحريف.

روى البخاري [٤٥٣٣] عند قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء خبر من الأحرار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله ﻻ يجعل السموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلائق على أصبع فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية.

وروى الإمام أحمد [٢٢٦٧] عن ابن عباس قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله ﻻ السماء على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه - كل ذلك يشير بأصابعه - قال فأنزل الله ﻻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية، ورواه الترمذي [٣٢٤٠]، وقال: حسن صحيح غريب.

وروى البخاري [٤٥٣٤] عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يَقْبِضُ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ)، وروى البخاري [٦٩٧٧ بنحوه] عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ)، وقد رواه الإمام أحمد [٥٤١٤] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر: (يَمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ) فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرن به، وقد رواه مسلم [٢٧٨٨].

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، هذه النفخة هي الثانية وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين

حتى يكون آخر من يموت ملك الموت وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخرًا بالديمومة والبقاء ويقول: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾؛ أي: الذي هو واحد وقد قهر كل شيء، وحكم بالفناء على كل شيء، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ بالصور مرة أخرى وهي النفخة الثالثة نفخة البعث، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾؛ أي: أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].

روى الإمام أحمد [٦٥٥٥] عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَىٰ لَهُ، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يُلُوْطُ حَوْضَهُ، فَيَصْعَقُ، ثُمَّ لَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ إِلَّا صُعِقَ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَوْ يُنْزِلُ اللَّهُ مَطَرًا؛ كَأَنَّهُ الطَّلُّ، فَتَنْبُثُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ. ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصفات: ٢٤]، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرَجُوا بَعَثَ النَّارِ، قَالَ: فَيُقَالُ: كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتَسْعِينَ فَيَوْمَئِذٍ تُبْعَثُ الْوِلْدَانُ شَبَابًا، وَيَوْمَئِذٍ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) أخرجه مسلم [٢٩٤٠].

وروى البخاري [٤٦٥١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: (مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ). قالوا: يا أبا هريرة أربعون يومًا؟ قال: أبیت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبیت، قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبیت ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق [ورواه مسلم/٢٩٥٥].

وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾؛ أي: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق تبارك وتعالى للخلائق لفصل القضاء، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوا رسالات الله إليهم ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾؛ أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾؛ أي: من خير وشر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار سواقًا عنيفًا. بزجر وتهديد ووعيد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٣]؛ أي: يدفعون إليها

دفعاً، هذا وهم عطاش ظماء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]، وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي منهم من يمشي على وجهه ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبُكَاءٌ وَصُغًا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كَلَمًا حَبَّتْ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الاسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾؛ أي: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التقرع والتويخ والتنكيل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾؛ أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم، فيقول الكفار لهم: ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿وَلَكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل، كما قال تعالى مخبراً عنهم في الآية الأخرى: ﴿كَلَّمَآ أَلْفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨٦) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١٠]؛ أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]؛ أي: بعداً لهم وخساراً.

وقوله هاهنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب، ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به، ولهذا قال جل وعلا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ما كُتِبَ فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها ﴿فَلَيْسَ مَتَوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ أي: فبئس المصير، بسبب تكبركم في الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه فبئس الحال وبئس المآل.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (٧٦) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٧٧).

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حيث يساقون على النجائب وفدًا إلى الجنة ﴿زُمَرًا﴾؛ أي: جماعة بعد جماعة: المقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف كل زمرة تناسب بعضها بعضاً.

﴿حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا﴾؛ أي: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتصر لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا وَنُفِّوا أذن لهم في

دخول الجنة، وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما فعلوا في العرصات عند استشفاعهم إلى الله ﷻ أن يأتي لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر في المواطن كلها، وقد ثبت في «صحيح مسلم» [١٩٦] عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ)، وفي لفظ لمسلم: (وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَفْرُغُ بَابَ الْجَنَّةِ).

وروى الإمام أحمد [١٢٤٩١] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاسْتَفْتَحَ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. قَالَ: يَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ أَلَّا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ) ورواه مسلم [١٩٧] واللفظ له.

وروى الإمام أحمد [٨١٨٣] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَعَوَّطُونَ فِيهَا، آيَتُهُمْ وَأَمْشَاتُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يَرَى مَخَّ سَاقِيهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ يَسْبَحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا) رواه البخاري [٣٠٧٣] ومسلم [٢٨٣٤] نحوه.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره حتى إذا جاءها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً وتلقيتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالثريب والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سعدوا وطابوا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم، وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل، ومن زعم أن الواو في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ واو الثمانية واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعد النجعة وأغرق في النزاع، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

روى الإمام أحمد [٧٦٢١] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَلِلْجَنَّةِ أَبْوَابٌ ثَمَانِيَةٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ) فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله ما على أحد من ضرورة دعي من أيها دعي فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال ﷺ: (نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ). رواه البخاري [٣٠٨٤] ومسلم [١٠٢٧]، وفيهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، بَابٌ مِنْهَا يُسَمَّى الرِّيَّانُ، لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ).

ذكر سعة أبواب الجنة، نسأل الله من فضله العظيم أن يجعلنا من أهلها:

وفي «الصحيحين» [البخاري/ ٤٤٣٥ بنحوه كذلك مسلم/ ١٩٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة



الطويل: (فَيَقُولُ اللَّهُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِي الْأَبْوَابِ الْأُخْرَى، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمَصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَا بَيْنَ عِضَادَتَيْ الْبَابِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ أَوْ هَجَرَ وَمَكَّةَ)، وفي رواية: (مَكَّةَ وَبُصْرَى)، وفي «صحيح مسلم» [٢٩٦٧] عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال: فيها ولقد ذكر لنا أن ما بين مصرعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام.

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾؛ أي: طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم.

وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾؛ أي: ماكثين فيها أبداً لا يبعثون عنها حولا ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾؛ أي: يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر والعطاء والنعيم المقيم والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾؛ أي: الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام.

وقولهم: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾. قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدي، وابن زيد: أي: أرض الجنة فهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾؛ أي: أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرتنا على عملنا، وفي «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه في قصة المعراج قال النبي ﷺ: (أَدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابُذُ اللَّوْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ) [البخاري/ ٣١٦٤ ومسلم/ ١٦٣].

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِئِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نزل كلاً في المحل الذي يليق به ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد، يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية وقضي الأمر وحكم بالعدل، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾، ثم قال: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: نطق الكون أجمعه - ناطقه وبهيمة - لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد. قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتم بالحمد في قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.



## تفسير سورة غافر

## وهي مكية

وقد كره بعض السلف منهم محمد بن سيرين أن يقال: الحواميم، وإنما يقال: آل حم. قال عبد الله بن مسعود: آل حم ديباج القرآن [ابن أبي شيبه ٣٠٢٨٣]، وقال ابن عباس: إن لكل شيء لباباً، ولباب القرآن آل حم أو قال: الحواميم وقال مسعر بن كدام: كان يقال لهن: العرائس [الدارمي/٣٤٢٢] وروى ذلك كله الإمام أبو عبيد في كتاب فضائل القرآن.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝٣﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا، وقد ورد في الحديث الذي رواه أبو داود [٢٥٩٧]، والترمذي [١٦٨٢] عن المهلب بن أبي صفرة قال: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (إِنْ بَيَّتَ اللَّيْلَةَ فَقُولُوا: حم، لَا يُنْصَرُونَ) وإسناده صحيح.

وقوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾؛ أي: تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم فلا يرام جناحه ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابُه.

وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾؛ أي: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه، وقوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾؛ أي: لمن تمرد وطغى وأثر الحياة الدنيا، وعنا عن أوامر الله تعالى وبغى، وهذه كقوله: ﴿نَبِيٍّ عِبَادِي أَتَىٰ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن ليبقى العبد بين الرجاء والخوف.

وقوله: ﴿ذِي الطَّلَوِّ﴾ قال ابن عباس: يعني: السعة والغنى [ابن أبي حاتم/١٨٤١٩]، وهكذا قال مجاهد، وقتادة، وقال يزيد بن الأصم: يعني: الخير الكثير، وقال عكرمة: ذي المن، وقال قتادة: ذي النعم والفواضل، والمعنى أنه المتفضل على عباده المتطول عليهم بما هم فيه من المن والنعم التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿وإن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا نظير له في جميع صفاته فلا إله ولا رب سواه ﴿إِلَّاهِ الْمَصِيرِ﴾؛ أي: المرجع والمآب فيجازي كل عامل بعمله، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

﴿مَا يُجِدُ لِي فِي عَائِنِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَدِ﴾ ٤ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ٥ ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ٦ .

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَدِ﴾؛ أي: في أموالها ونعيمها وزهرتها، كما قال: ﴿نُمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، ثم قال تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة فيمن سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من كل أمة ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾؛ أي: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله، ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾؛ أي: مآحلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي.

وقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾؛ أي: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ أي: فكيف بلغك عذابي لهم ونكالي لهم، قد كان شديداً موجعاً مؤلماً. قال قتادة: كان شديداً والله.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ أي: كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى؛ لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ٧ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٨ ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ يَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ٩ .

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش ومن حوله من الملائكة بأنهم يسبحون بحمد ربهم؛ أي: يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾؛ أي: خاشعون له أذلاء بين يديه وأنهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام، كانوا يؤمنون

على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت في «صحيح مسلم» [٢٧٣٢]: (إِذَا دَعَا الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِهِ).

ويقولون إذا استغفروا للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾؛ أي: إن رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾؛ أي: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات ﴿وَفِيهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وزحزحهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجه الأليم.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾؛ أي: اجمع بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]؛ أي: ساوينا بين الكل في المنزلة لتقر أعينهم، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني بل رفعنا ناقص العمل فساويناه بكثير العمل تفضلاً منا ومنه.

قال مُطَرِّف بن عبد الله بن الشَّخِير: أنصحُ عباد الله للمؤمنين الملائكة، ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ وأغش عباد الله للمؤمنين الشياطين [أبو نعيم في «الحلية» ٢/٢٠٨]، وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: الذي لا يمانع ولا يغالب، الحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك. ﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: فعلها أو وبالها ممن وقعت منه ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾؛ أي: لطفت به ونجيتته من العقوبة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتُنَبِّئُنَا أَنَّ نَارًا بُدِئَتْ مِنْهَا فَمَلَأْنَا بِهَا جَهَنَّمَ وَلَقَدْ كُنَّا مِنْ أَكْثَرِ الْكَافِرِينَ (١١) ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ الْعَلِيِّ الْأَكْبَرُ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (١٤).

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: إنهم يُنَادُونَ يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظنون، وذلك عندما باشرنا من عذاب الله ما لا قبل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً نادوهم به نداء بأن مقت الله لهم في الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان فيكفرون أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة. قال قتادة: لمقت الله أهل الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان في الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة، وهكذا قال مجاهد، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم [وغيرهم].

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنِي وَأَحْيَيْنَا أَتَيْنِي﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وأبو مالك [الطبري ٢٤/٤٧]، وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية.

والمقصود: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله ﷻ في عرصات القيامة، كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، فلا يجابون. ثم إذا رأوا النار ونظروا إلى ما فيها من العذاب، سألوا الرجعة أشد ما سألوا أول مرة فلا يجابون قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها ومقامعها وأغلالها كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ قَالَ أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]، وفي هذه الآية الكريمة تطفوا في السؤال، وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة، وهي قولهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنِي وَأَحْيَيْنَا أَتَيْنِي﴾؛ أي: قدرتك عظيمة فإنك أحيتنا بعد ما كنا أمواتا ثم أمتنا ثم أحيتنا فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾؛ أي: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا، فإنك قادر على ذلك، لنعمل غير الذي كنا نعمل فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإننا ظالمون، فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا. ثم علل المنع من ذلك بأن سجايكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تمجه وتنفيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾؛ أي: أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدار الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾؛ أي: هو الحاكم في خلقه العادل الذي لا يجور، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء لا إله إلا هو، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾؛ أي: يظهر قدرته لخلقها بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومنشئها، ﴿وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه وروائح وأشكاله وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَذْكُرُ﴾؛ أي: يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾؛ أي: من هو بصير منيب إلى الله ﷻ.

وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾؛ أي: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء وخالفوا المشركين في مسلكتهم ومذهبهم.

وقد ثبت في «صحيح [مسلم/٥٩٤]» عن ابن الزبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ).

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ١٥ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ١٦ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ١٧﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَلَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ٣ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٣، ٤].

وقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، كقوله تعالى: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، ولهذا قال: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ عن ابن عباس: يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيامة حذر الله منه عباده، وقال ابن عباس أيضاً: يلتقي فيه آدم وآخر ولده، وقال قتادة، والسدي، وبلال بن سعد، وسفيان بن عيينة: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، [وعن ابن زيد نحوه، وزاد قتادة: والخالق والخلق]، وقال ميمون بن مهران: يلتقي فيه الظالم والمظلوم، وقد يقال: إن يوم القيامة يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر كما قاله آخرون [تنظر هذه الأقوال بأسانيدھا عند الطبري ٥٠/٢٤].

وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ﴾؛ أي: ظاهرون بادون كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلمهم ولا يسترهم، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾؛ أي: الجميع في علمه على السواء، وقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وفي حديث ابن عمر: أنه تعالى يطوي السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ [أصله في مسلم/٢٧٨٨].

﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾؛ أي: الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسئة واحدة، ولهذا قال: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت في «صحيح مسلم» [٢٥٧٧] عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه ﷻ أنه قال: (يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا - إِلَى أَنْ قَالَ - يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا عَلَيْكُمْ ثُمَّ أُوقِفُكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ أي: يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ .

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿النجم: ٥٧، ٥٨﴾، وقال: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وقوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ﴾ قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، وكذا قال عكرمة، والسدي وغير واحد، ومعنى كاطمين؛ أي: ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]، وقال ابن جريج: ﴿كَظْمِينَ﴾؛ أي: باكين.

وقوله: ﴿مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾؛ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ يخبر ﷺ عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيقها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه ﷺ يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. قال ابن عباس في قوله: ﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسنة أو تمر به وبهم المرأة الحسنة، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غص بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غص، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها.

وقال الضحاك: ﴿حَايَةَ الْأَعْيُنِ﴾ هو الغمز وقول الرجل: رأيت ولم ير. أو لم أر، وقد رأى، وقال ابن عباس: يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة، وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا، وقال السدي: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾؛ أي: من الوسوسة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾؛ أي: يحكم بالعدل، قال ابن عباس: قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسئنة السئنة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [ذكره الضياء في «المختارة» ١٧٤/١٠].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾؛ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾؛ أي: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾؛ أي: سميع لأقوال خلقه بصير بهم فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ .

يقول تعالى: أو لم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة، ﴿وَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: أثروا في الأرض من البنيات والمعالم ما لا يقدر هؤلاء عليه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]؛ أي: ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم، وهي كفرهم برسولهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾؛ أي: وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا وقاهم واق، ثم ذكر علة أخذه إياهم بذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ﴿فَكَفَرُوا﴾؛ أي: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: أهلكهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾؛ أي: ذو قوة عظيمة وبطش شديد وهو ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ أي: عقابه أليم شديد، أعاذنا الله منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُونٍ فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ .

يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العقوبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البيّنات، والدلائل الواضحات، ولهذا قال: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿وَهَمَانَ﴾ وهو وزيره ﴿وَقُرُونٍ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة ﴿فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَّابٌ﴾؛ أي: كذبوه وجعلوه ساحراً مموهاً كذاباً في أن الله أرسله، وهذه كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾ أَنُؤْمِنُ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾؛ أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله أرسله إليهم ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثانٍ من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل. أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية وإلهانة هذا الشعب ولكي يتشاءموا بموسى ﷺ، ولهذا قالوا:



﴿أَوَدَيَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. قال قتادة: هذا أمر بعد أمر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾؛ أي: وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لثلاثا يُنصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ وهذا عَزْمٌ من فرعون لعنه الله تعالى على قتل موسى عليه الصلاة والسلام؛ أي: قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾؛ أي: لا أبالي به، وهذا في غاية الجحد والعناد، وقوله قبحه الله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾؛ يعني: موسى، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مُذَكَّرًا؛ يعني: واعظًا يشفق على الناس من موسى ﷺ.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ﴾؛ أي: لما بلغه قول فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال موسى ﷺ: استجرت بالله وعُذْتُ به من شره وشر أمثاله، ولهذا قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أيها المخاطبون ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾؛ أي: عن الحق مجرم، ﴿لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ﴾، ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قومًا قال: (اللَّهُمَّ، إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ، وَنَذَرُكَ بِكَ فِي نُحُورِهِمْ) [رواه أحمد/ ١٩٧٣٤، وأبو داود/ ١٥٣٧، والحاكم/ ٢٦٢٩، وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي].

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٨) ﴿يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢٩).

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطيًا من آل فرعون. قال السدي: كان ابن عم فرعون ويقال: إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام، واختاره ابن جرير، ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيليًا؛ لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى ﷺ، ولو كان إسرائيليًا لأوشك أن يعاجل بالعقوبة؛ لأنه منهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿يَكْمُوسَىٰ إِبْرَئِيلَ﴾ يَأْتُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ [القصاص: ٢٠]، وقد كان هذا الرجل يكتُم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ فأخذت الرجل غصبة لله ﷻ، وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر كما ثبت بذلك الحديث [رواه أحمد وأبو داود وسنده حسن]، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ اللهم إلا ما رواه البخاري في «صحيحه» [٣٦٤٣] عن عروة بن الزبير قال: قلت

لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة، إذ أقبل عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر ﷺ فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ، ثم قال: ﴿أَفْتُلُونُ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: كيف تقتلون رجلًا لكونه يقول: ربي الله، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾؛ يعني: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه فإن يك كاذبًا فإن الله ﷻ سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يكن صادقًا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقًا فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾؛ أي: لو كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذبًا كما تزعمون، لكان أمره بينًا يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، [و] كانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديدًا ومنهجه مستقيمًا، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله، ثم قال المؤمن محذرًا قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم: ﴿يَقُولُ لَكُمْ أَلَمْ تَكُنْ أَلْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله ﷺ واحذروا نقمة الله إن كذبتُم رسوله ﷺ ﴿فَمَنْ يَضُرَّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾؛ أي: لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئًا من بأس الله إن أردنا بسوء. قال فرعون لقومه رادًا على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾؛ أي: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى ﷺ فيما جاء به من الرسالة، قال الله تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَفِيقْنَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ كذب فيه وافترى وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ورعيته فغشهم وما نصحهم، وكذا قوله: ﴿وَمَا آهِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾؛ أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد، وقد كذب أيضًا في ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩]، وفي الحديث: (مَا مِنْ إِمَامٍ يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٍ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ) [البخاري/ ٦٧٣٢ ومسلم/ ١٤٢] كلاهما بنحوه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنَ يَتَقَوَّمُ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٣٥) ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (٣٦) ﴿وَيَتَقَوَّمُ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾ (٣٧) ﴿يَوْمَ تُولُونُ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٨) ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَلِيَّتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (٣٩) ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (٤٠).

هذا إخبار من الله ﷻ عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال: ﴿إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾؛ أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح، وعاد، وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله وما رده عنهم راد. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾؛ أي: إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿وَيَتَقَوَّمُ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾؛ يعني: يوم القيامة. قال الضحاك: ذلك إذا جيء بهنهم، ذهب الناس هرباً، فقتلهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهِمْ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٣]، وقال قتادة: ينادي كل قوم بأعمالهم، ينادي أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار، أهل النار، وقيل: سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار كما هو مذكور في سورة الأعراف. واختار البغوي وغيره: أنه سمي بذلك لمجموع ذلك، وهو قول حسن جيد، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَوْمَ تُولُونُ مُدْبِرِينَ﴾؛ أي: ذاهبين هاربين ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾؛ أي: ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾؛ أي: من أضله الله فلا هادي له غيره، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَلِيَّتِ﴾؛ يعني: أهل مصر وقد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى، وهو يوسف عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولاً يدعو إلى الله أمة القبط، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوي، ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾؛ أي: يئستم فقلتم طامعين: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾؛ أي: كحالكهم. ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾؛ أي: الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون بالحجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت، ولهذا قال تعالى: ﴿كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

ءَامُتُوا؟ أي: والمؤمنون أيضًا يبغضون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفًا ولا ينكر منكرًا، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ﴾؛ أي: على اتباع الحق ﴿جَبَّارًا﴾، وروي عن عكرمة والشعبي أنهما قالا: لا يكون الإنسان جبارًا حتى يقتل نفسين [ابن أبي حاتم/ ١٦٧٩٠]، وقال أبو عمران الجوني، وقتادة: آية الجبابة القتل بغير حق [ابن أبي حاتم/ ١٦٧٩١].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وعتوه وتمرده وافتراءه في تكذيبه موسى ﷺ، أنه أمر وزيره هامان أن يني له صرحًا، وهو القصر العالي المنيف الشاهق، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي، كما قال: ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَنْهَكُنْ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صِرَاحًا﴾ [الفصص: ٣٨]. وقوله: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ قال سعيد بن جبیر، وأبو صالح: أبواب السموات، وقيل: طرق السموات ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى في أن الله ﷻ أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾؛ أي: بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئًا يتوصل به إلى تكذيب موسى ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: يعني: إلا في خسار [ينظر: الطبري ٦٦/٢٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفٍ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

يقول المؤمن لقومه ممن ترمد وطغى وأثر الحياة الدنيا، ونسي الجبار الأعلى: ﴿يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتَّعُ﴾؛ أي: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل، ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾؛ أي: الدار التي لا زوال لها ولا انتقال منها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال: ﴿مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾؛ أي: واحدة مثلها، ﴿وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفٍ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: لا يتقدر بجزاء بل يشبهه الله ﷻ ثوابًا كثيرًا لا انقضاء له ولا نفاد.

﴿وَنَقُومُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ﴾ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَرِ ۖ﴾ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبِ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۖ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۖ﴾ (٤٣) فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِثَالٍ فِرْعَوْنُ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ﴾ (٤٤) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۖ﴾ (٤٥) أَشَدَّ الْعَذَابِ ۖ﴾ (٤٦).

يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ؛ أي: جاهل بلا دليل ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَرِ﴾؛ أي: هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يقول حقًا. قال السدي، وابن جرير: معنى قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا، وقال الضحاك: لا كذب، وقال ابن عباس: يقول: بلى إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾، وقال السدي: لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة. [وعن مجاهد وقتادة نحوه]، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله: ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: في الدار الآخرة فيجازي كلًّا بعمله، ولهذا قال: ﴿وَأَبِ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ أي: خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾؛ أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتمكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم وتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفع الندم ﴿وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: وأتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأبعدكم ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾؛ أي: هو بصير بهم، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ، وقوله تعالى: ﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه السلام، وأما في الآخرة فبالجنة ﴿وَحَاقَ بِإِثَالٍ فِرْعَوْنُ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وهو الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾؛ أي: أشده ألمًا وأعظمه نكالًا، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور وهي قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

وقال قتادة في قوله: ﴿عُدُّوْا وَعَشِّيْوْا﴾ صباحًا ومساءً ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخًا ونقمة وصغارًا لهم، وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يُعْدَى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة.

وروى الإمام أحمد [٥٩٢٦] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ ﷻ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) أخرجه في (الصحيحين) [البخاري/ ١٣١٣ ومسلم/ ٢٨٦٦].

﴿وَإِذْ يَتَحَاوَنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۖ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ۖ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ (٥٠)﴾

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم، فيقول الضعفاء وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾؛ أي: أطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾؛ أي: قسطًا تحملونه عنا. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾؛ أي: لا نتحمل عنكم شيئًا كفى بنا ما حملنا من العذاب والنكال ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾؛ أي: فقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ لما علموا أن الله سبحانه لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة - وهم كالبوابين لأهل النار - أن يدعوا لهم الله تعالى أن يخفف عن الكافرين ولو يومًا واحدًا من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؟؛ أي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الرسل؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾؛ أي: أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم براء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتكم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾؛ أي: إلا في ذهاب، ولا يتقبل ولا يستجاب.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٥٢ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝٥٤ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۝٥٥ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ ۖ فَاسْتَغِزْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝٥٦﴾.

قد أورد أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى [٧٤/٢٤] عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالاً فقال: قد عُلِمَ أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى فأين النصر في الدنيا ثم أجاب عن ذلك بجوابين: أحدهما: أن يكون الخبر خرج عاماً، والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ في اللغة.

الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، كما فُعلَ بقتلة يحيى وزكريا وشعيا سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح ﷺ من اليهود فسلط الله تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذلّوهم وأظهرهم الله عليهم، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام، وهذه نصره عظيمة وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم، ففي «صحيح البخاري» [٦١٣٧] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ)، ولهذا أهلك الله قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين وأشباهم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق، وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحداً، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً.

قال السدي: لم يبعث الله ﷻ رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها، وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾؛ أي: يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل.

قال مجاهد: الأَشْهَادُ الملائكة، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾. ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ﴾ وهم المشركون ﴿مَعَذَرُهُمْ﴾؛ أي: لا يقبل منهم عذر ولا فدية، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾؛ أي: الإبعاد والطرْد من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهي النار. قاله السدي، بنس المنزل والمقيل، وقال ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾؛ أي: سوء العاقبة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾؛ أي: جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى عليه الصلاة والسلام، وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة ﴿هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهي العقول الصحيحة السليمة.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾؛ أي: يا محمد ﴿إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾؛ أي: وعدناك أنا سنعلي كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد، وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك، وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ﴾ هذا تهيج للأمة على الاستغفار ﴿وَسَيَجْزِيَّ بَحْمَدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾؛ أي: في أواخر النهار وأوائل الليل، ﴿وَالْإِبْكَرِ﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطَانُ أَتْنَهُمْ﴾؛ أي: يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِسَالِفِينَ﴾؛ أي: ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع، ﴿فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ﴾؛ أي: من حال مثل هؤلاء ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾؛ أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان. هذا تفسير ابن جرير.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾  
﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾.

يقول تعالى منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس بداية وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأخرى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخْجِئَ الْمَوْتَ بَلَاءً إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحاف: ٣٣]، وقال هاهنا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد استبعاداً وكفرًا، وقد اعترفوا بما هو أولى. ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾؛ أي: كما



لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار، ﴿فَلَيْسَ لِمَا تَدْعُرُونَ﴾؛ أي: ما أفل ما يتذكر كثير من الناس، ثم قال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ﴾؛ أي: لكائنة وواقعة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا مَنْ أَحَبَّ عباده إليه مَنْ سَأَلَهُ فَأَكْثَرَ سُؤْالَهُ، ويا مَنْ أَبْغَضَ عباده إليه مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ، وليس أحد كذلك غيرك يا رب، وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤْالَهُ      وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وروى الإمام أحمد [١٨٤١٠] عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ)، ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، وهكذا رواه أصحاب السنن، وقال الترمذي [٢٩٦٩]: حسن صحيح.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾؛ أي: عن دعائي وتوحيدي سيدخلون جهنم داخرين؛ أي: صاغرين حقيرين، كما روى الإمام أحمد [٦٦٧٧] عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: (يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُؤْسٌ فَتَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ طَبِئَةِ الْخَبَالِ: عُصَاةُ أَهْلِ النَّارِ) [وسنده حسن].

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (١١) ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (١٢) ﴿كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَحَدِّثُونَ﴾ (١٣) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٤) ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٥).

يقول تعالى ممتناً على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه يستريحون من حركات ترددهم في المعاش بالنهار وجعل النهار مبصراً؛ أي: مضيئاً ليتصرفوا فيه بالأسفار وقطع الأقطار والتمكن من الصناعات، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لا يقومون بشكر نعم الله عليهم، ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد، خالق

الأشياء الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فكيف تعبدون الأصنام التي لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقة منحوتة.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته.

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾؛ أي: جعلها لكم مستقرًا، بساطًا مهادًا تعيشون عليها وتتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها وأرساها بالجبال لثلا تميد بكم، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾؛ أي: سقفا للعالم محفوظا ﴿وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾؛ أي: فخلقكم في أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾؛ أي: من المأكّل والمشارب في الدنيا، فذكر أنه خالق الدار والسكان والأرزاق فهو الخالق الرازق، وقال بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم، ثم قال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: هو الحي أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا نظير له ولا عديل، ﴿فَكَادُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: موحدين له مقربين بأنه لا إله إلا هو الحمد لله رب العالمين، وعن ابن عباس قال: من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين وذلك قوله تعالى: ﴿فَكَادُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [ومثله عن سعيد بن جبیر].

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَرَأْبٍ ثُمَّ مِنْ نَفْسٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ﷻ ينهى أن يُعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان، وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَرَأْبٍ ثُمَّ مِنْ نَفْسٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾؛ أي: هو الذي يخلقكم في هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يتوفى صغيراً، وشاباً، وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَيْكَ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥] وقال ها هنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قال ابن جريج: تتذكرون البعث، ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا

يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ؛ أي: لا يخالف ولا يمانع بل ما شاء كان لا محالة.

﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) إِذِ الْأَغْطَلُ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلِيلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧٦﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٩﴾ ذَلِكَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٨٠﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ويجادلون في الحق بالباطل، كيف تُصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾؛ أي: من الهدى والبيان، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب جل جلاله لهؤلاء كما قال تعالى: ﴿وَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، وقوله: ﴿إِذِ الْأَغْطَلُ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلِيلُ﴾؛ أي: متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم ولهذا قال: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ في الحميم ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ كما قال: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ أي: قيل لهم أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾؛ أي: ذهبوا فلم ينفَعونا ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾؛ أي: جحدوا عبادتهم كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ذَلِكَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾؛ أي: تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير حق، ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ أي: فبئس المنزل والمَقِيلُ الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيدَكَ بِعَظْمٍ الَّذِي نَعْلَمُ أَوْ نَوَقِّتَكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة،

﴿فَكَيْفًا تُربِّيَنكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُ﴾؛ أي: في الدنيا، وكذلك وقع فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبيدوا في يوم بدر، ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ.

وقوله: ﴿أَوْ تَوَفَّتْكَ فَأَلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾؛ أي: فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة، ثم قال تعالى مسلياً له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ كما قال جل وعلا في سورة النساء سواء؛ أي: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسول العاقبة والنصرة، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء [آية: ١٦٤]، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدل على صدقه فيما جاءهم به ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ فينجي المؤمنين، ويهلك الكافرين، ولهذا قال: ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة، والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحث عليها الأرض، والغنم تؤكل ويشرب لبنها والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة، كما فصل وبين في أماكن تقدم ذكرها في سورة الأنعام، وسورة النحل وغير ذلك، ولهذا قال هاهنا: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾؛ أي: حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم، ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾؛ أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسول في قديم الدهر وماذا حل بهم من العذاب الشديد،

مع شدة قواهم، وما آثروه في الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولا رد عنهم ذرة من بأس الله، وذلك لأنَّهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

قال مجاهد: قالوا نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب، وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم [الطبري ٨٩/٢٤]، فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾؛ أي: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: يكذبون ويستبعدون وقوعه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾؛ أي: عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾؛ أي: وحدوا الله وحدهم وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقال العثرات ولا تنفع المَعذرة، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ءَأَمَّنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَّنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ءَأَلْفَنَّا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، وهكذا قال ههنا: ﴿فَلَقَدْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾؛ أي: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب، أنه لا يقبل، ولهذا جاء في الحديث: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ) [رواه الترمذي/ ٣٥٣٧ وحسنه]؛ أي: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة، وعاین الملك فلا توبة حينئذٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.



## تفسير سورة فصلت

وهي مكية

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢﴿ كَتَبْتُ فَصْلَتَهُ ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ فِي ءَاذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ ٥﴾ .

يقول تعالى: ﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؛ يعني: القرآن منزل من الرحمن الرحيم، كقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿كَتَبْتُ فَصْلَتَهُ ءَايَتُهُ﴾؛ أي: بينت معانيه وأحكمت آياته، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: في حال كونه قرآنًا عربيًّا، بينًا واضحًا، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشككة، كقوله: ﴿كَتَبْتُ أَحْكَمَتَ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَّدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]؛ أي: هو معجز من حيث لفظه ومعناه.

وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ أي: تارة يبشر المؤمنين وتارة ينذر الكافرين، ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئًا مع بيانه ووضوحه، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾؛ أي: في غلف مغطاة ﴿وَمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ فِي ءَاذَانِنَا وَقُرْ﴾؛ أي: صمم عما جئتنا به، ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول، ﴿فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ﴾؛ أي: اعمل أنت على طريقتك ونحن على طريقتنا لا نتابعك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٧﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٨﴾ .

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذابين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ لا كما تعبدونه من الأصنام والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة الرسل، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾؛ أي: لسالف الذنوب، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: دمار لهم وهلاك عليهم، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال ابن عباس؛ يعني: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله وكذا قال

عكرمة، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [٩] وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [الشمس: ٩، ١٠]، والمراد بالزكاة هاهنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك، وزكاة المال إنما سميت زكاة؛ لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات، وقال السدي: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [١] الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ؛ أي: لا يؤدون الزكاة، وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة، وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم، وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير [٢٤/ ٩٣] وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة وكان مأموراً به في ابتداء البعثة، كقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير وإنما بين أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعاً بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئاً فشيئاً، والله أعلم، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال مجاهد وغيره: غير مقطوع ولا محسوب ابن أبي حاتم/ ١٩٤٠٦، كقوله: ﴿مُنْكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣]، وكقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُءِ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٩] وَجَعَلَ فِيهَا رِوْاسٍ مِّنْ فَوْقِهَا وَيَرْكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ [١٠] ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ [١١] فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [١٢].

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقتدر على كل شيء فقال: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُءِ أَنْدَادًا﴾؛ أي: نظراء وأمثلاً تعبدونها معه، ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم، وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففصل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختصاص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً؛ لأنها كالأساس، والأصل أن يُبْدَأَ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، فأما قوله: ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ بَنَاهَا﴾ [١٣] رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا [١٤] وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا [١٥] وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا [١٦] أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا [١٧] وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا [١٨] مَتَّعَا لَكُمْ وَلَآئِكُمْ [١٩] [النازعات: ٢٧ - ٣٣]، ففي هذه الآية أن دحي الأرض كان بعد خلق السماء، فأما خلق

الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنه فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من «صحيحه» عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنه: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف علي، قال: **﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾** - إلى قوله - **﴿دَحَاهَا﴾** [النازعات: ٢٧ - ٣٠] فذكر خلق السماء قبل الأرض ثم قال: **﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾** - إلى قوله: - **﴿طَائِعِينَ﴾** فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء قال ابن عباس: خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء، فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودحىها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: دحاهما، وقوله: **﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾** فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلق السموات في يومين.

وقوله: **﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾**؛ يعني: يوم الأحد ويوم الإثنين **﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا﴾**؛ أي: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، وقدر فيها أقواتها وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس؛ يعني: يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع اليومين السابقين أربعة، وقال عكرمة، ومجاهد في قوله: **﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾** جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها، وقال ابن عباس، وقتادة، والسدي في قوله تعالى: **﴿سَوَاءٌ لِلنَّاسِ أَلْيَمُ يَوْمٍ أَوْ أَسْوَأُ﴾**؛ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك، وقال ابن زيد: معناه وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين؛ أي: على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة فإن الله تعالى قدر له ما هو محتاج إليه، وهذا القول يشبه ما ذكره في قوله تعالى: **﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾** [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلم.

وقوله: **﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾** وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض، **﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾**؛ أي: استجبيا لأمري وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين. عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾** قال: قال الله تبارك وتعالى للسموات: أطلعي شمسي وقمري والنجوم، وقال للأرض: شقي أنهارك، وأخرجي ثمارك **﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾**، واختاره ابن جرير رحمته الله.

**﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾**؛ أي: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعاً مطيعين لك، حكاه ابن جرير [٩٩/٢٤] عن بعض أهل العربية، قال: وقيل: تنزيلاً لهن معاملة من يعقل بكلامهما، وقال الحسن البصري: لو أبيا عليه أمره عليه لعذبهما عذاباً يجدان ألمه.

**﴿فَفَضَّنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾**؛ أي: ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين؛ أي: آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة. **﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾**؛ أي: ورتب مقررًا في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو **﴿وَرَبَّانَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصْنُوحٍ﴾** وهي الكواكب المشرقة على أهل الأرض **﴿وَحَفَظًا﴾**؛ أي: حرسًا من الشياطين أن تستمع إلى الملاء الأعلى. **﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾**؛ أي: العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.



﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ (١٣) ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (١٤) ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ﴾ (١٥) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ (١٦) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٧) ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ (١٨).

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئكم به من عند الله تعالى، فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾؛ أي: ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما، ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَهْلَ عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحاف: ٢١]؛ أي: في القرى المجاورة لبلادهم بعث الله إليهم الرسل يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أوليائه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾؛ أي: لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾؛ أي: أيها البشر ﴿كَافِرُونَ﴾؛ أي: لا نتبعكم وأنت بشر مثلنا.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ أي: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؛ أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة، فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها وإن بطشه شديد، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسله، فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت، والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية، لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت شديدة البرد جداً كقوله تعالى: ﴿بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]؛ أي: باردة شديدة وكانت ذات صوت مزعج.

وقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾؛ أي: متتابعات ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]؛ أي: ابتدأوا العذاب في يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليالٍ وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة، ولهذا قال: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾؛ أي: أشد خزيًا لهم، ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ أي: في الآخرة، كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واقٍ يقيهم العذاب ويدراً عنهم النكال.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس عليه السلام وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدي، وابن زيد: بينا لهم، وقال الثوري: دعوناهم. ﴿فَاسْتَجَبُوا أَلْعَمَىٰ عَلَىٰ أَهْلِي﴾؛ أي: بصرناهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام، فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾؛ أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: من التكذيب والجحود. ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾؛ أي: من بين أظهرهم لم يمسه سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم مع نبيهم صالح عليه السلام بإيمانهم وتقواهم لله عز وجل.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ جُودِينَا لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْأَمْعِيْنِ ﴿٢٤﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار، يوزعون؛ أي: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَسُوفُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَدَاكُم﴾ [مريم: ٨٦]؛ أي: عطاشاً.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾؛ أي: وقفوا عليها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يُكْتَم منه حرف.

﴿وَقَالُوا لِمَ جُودِينَا لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾؛ أي: لاموا أعضائهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون. روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم أو تبسم، فقال: (أَلَا تَسْأَلُونِي عَنْ أَيْ شَيْءٍ ضَحَكْتُ؟) قالوا: يا رسول الله، من أي شيء ضحكت؟ قال: (عَجِبْتُ مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: أَيْ رَبِّي، أَلَيْسَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تَظْلِمَنِي؟ قَالَ: بَلَىٰ فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أَقْبَلُ عَلَيَّ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَوْ لَيْسَ كَفَىٰ بِي شَهِيدًا، وَبِالْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ؟) قَالَ: فَيَرُدُّ هَذَا الْكَلَامَ مَرَّارًا. قال: (فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَتَتَكَلَّمُ أَرْكَانُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، عَنْكَ كُنْتُ أَجَادِلُ) [المستدرک/ ٨٧٧٨، وابن أبي حاتم/ ١٨٤٥٤].

وروى ابن أبي حاتم [١٨٠٩٨] عن أبي موسى قال: يدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه ﷻ عمله، فيجحد ويقول: أي رب، وعزتك لقد كتب عليّ هذا الملك ما لم أعمل! فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك؛ أي: رب ما

عملته. قال: فإذا فعل ذلك خُتِمَ على فيه، قال الأشعري: فإني لأحسب أول ما ينطق منه فحذه اليمنى.

وقد تقدم أحاديث وآثار عند قوله تعالى في سورة يس: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٤٦٥]، بما أغنى عن إعادته ها هنا.

وقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾؛ أي: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تكتُمون منا الذي كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ولا تبالون؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ طُنُتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكُمُ؛ أي: هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيرًا مما تعملون هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؛ أي: في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهلكم.

روى الإمام أحمد [٤٠٤٧] عن عبد الله [بن مسعود] قال: كنت مستترًا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وختناه ثقفيان - أو ثقفى وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئًا سمعه كله. قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ - إلى قوله -: ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [ورواه البخاري/٤٥٣٨ ومسلم/٢٧٧٥].

وروى عبد الرزاق [كما روى عنه النسائي/١١٤٦٩] عن بهز بن حكيم عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ قال: (إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ مُقَدَّمًا عَلَىٰ أَفْوَاهِكُمْ بِالْفُتَامِ، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يُبَيِّنُ عَنْ أَحَدِكُمْ فَخْذُهُ وَكَفُّهُ) [وسنده حسن]. قال معمر: وتلا الحسن ﴿وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكُمُ﴾، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: (قَالَ اللَّهُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي عِنْدَ ظَنِّ بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي)، ثم افترَّ الحسن ينظر في هذا، فقال: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساء الظن بالله فأساء العمل، ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ﴾ - إلى قوله -: ﴿وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكُمُ فَاصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الطبري ٢٤/١١٠].

وقوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِن يَسْتَعِثُّوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْثِينَ﴾؛ أي: سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار، لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها، وإن طلبوا أن يستعثبوا ويبدوا أعذارهم فما لهم أعذار ولا تُقال لهم عشرات. قال ابن جرير [٢٤/١١٠]: ومعنى قوله: ﴿وَإِن يَسْتَعِثُّوا﴾؛ أي: يسألوا الرجعة إلى الدنيا فلا جواب لهم، قال: وهذه كقوله تعالى إخبارًا عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ﴿٢٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وقدرته وهو الحكيم في أفعاله، بما قَيَّضَ لَهُمْ من القرناء من شياطين الإنس والجن ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: حَسَّنُوا لَهُمْ أعمالهم في الماضي، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعَشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾؛ أي: كلمة العذاب كما حق على أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾؛ أي: استووا هم وإياهم في الخسار والدمار.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾؛ أي: تواصلوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ولا يتقادوا لأوامره، ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾؛ أي: إذا تلي لا تستمعوا له كما قال مجاهد والغوا فيه؛ يعني: بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله، وعن ابن عباس: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ عيبوه، وقال قتادة: اجحدوا به وأنكروه وعادوه [الطبري ١١٢/٢٤]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذا حال هؤلاء الجهلاء من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. ثم قال تعالى منتصراً للقرآن ومنقماً ممن عاداه من أهل الكفران: ﴿فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ أي: في مقابلة ما اعتمده في القرآن وعند سماعهم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بشر أعمالهم وسيئ أفعالهم ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾.

قال علي رضي الله عنه في قوله: ﴿الَّذِينَ ضَلَّوْنَا﴾ قال إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه [الحاكم/٣٢١٥]، وقال السدي عن علي: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس هو الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول. كما ثبت في الحديث: (مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ) [البخاري/٣١٥٧ ومسلم/١٦٧٧].

وقوله: ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾؛ أي: أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذاباً منا، ولهذا

قالوا: ﴿لَيْكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾؛ أي: في الدرك الأسفل من النار، كما تقدم في الأعراف في سؤال الأتباع من الله تعالى أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم، ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]؛ أي: أنه تعالى قد أعطى كلًّا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا دَشْتُمُوهَا أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ ﴿٣٢﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾؛ أي: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ما تقولون في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ من ذنب فقال: لقد حملتموه على غير المحمل، قالوا ربنا: الله ثم استقاموا فلم يلتفتوا إلى إله غيره [الحاكم/٣٦٤٨]، وكذا قال مجاهد، والسدي وغير واحد.

وعن عكرمة قال: سئل ابن عباس رضي الله عنه أي آية في كتاب الله تبارك وتعالى أرخص؟ قال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال الزهري: تلا عمر رضي الله عنه هذه الآية على المنبر ثم قال: استقاموا والله الله بطاعته ولم يروغوا وروغان الثعالب.

وقال ابن عباس: ﴿اسْتَقَمُوا﴾ على أداء فرائضه، وكذا قال قتادة، وقال أبو العالية: أخلصوا له الدين والعمل.

وقد أخرج مسلم في «صحيحه» [٣٨] عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال ﷺ: ﴿قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ﴾، وذكر تمام الحديث.

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال مجاهد، والسدي، وزيد بن أسلم وابنه: يعني: عند الموت قائلين: ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم: أي: مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين فإننا نخلفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير.

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث. وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً وهو الواقع.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾؛ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم؛ أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسدّدكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور

ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ﴾؛ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهي النفوس وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾؛ أي: مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾؛ أي: ضيافة وعطاء من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر وستر ورحم ولطف.

وروى الإمام أحمد [١٢٠٦٦] عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ). قلنا: يا رسول الله كلنا نكره الموت قال ﷺ: (لَيْسَ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حُضِرَ جَاءَهُ الْبَشِيرُ مِنَ اللَّهِ بِمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ لَقِيَ اللَّهَ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ) قال: (وَإِنَّ الْكَافِرَ - إِذَا حُضِرَ جَاءَهُ بِمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ أَوْ: مَا يُلْقَى مِنَ الشَّرِّ، فَكَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ فَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ)، وهذا حديث صحيح وقد ورد في «الصحيح» [عند البخاري/٦١٤٢ نحوه].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣) وَلَا سَتَوِيَ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَرْتَضِيهِ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: دعا عباد الله إليه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، ففعله لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَدٍّ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر ويأتونه، بل ياتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى، وهذه عامة في كل من دعا إلى الخير وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقيل: المراد بها المؤذنون الصالحاء.

وقالت عائشة: ولهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قالت: فهو المؤذن إذا قال: حي على الصلاة فقد دعا إلى الله، وهكذا قال ابن عمر وعكرمة: إنها نزلت في المؤذنين، وقد ذكر البغوي [١١٤/٤] عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه قال في قوله ﷻ وعمل صالحاً؛ يعني: صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة.

والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية، فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية؛ لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة، حين أراه عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري في منامه فقصه على رسول الله ﷺ، فأمره أن يلقيه على بلال، فإنه أندى صوتاً، كما هو مقرر في موضعه، فالصحيح إذاً أنها عامة، كما قال الحسن البصري: أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فقال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله،

أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال إنني من المسلمين هذا خليفة الله.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾؛ أي: فرق عظيم بين هذه وهذه ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر رضي الله عنه: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وقوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وهو الصديق؛ أي: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادتته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولي لك حميم؛ أي: قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك، ثم قال: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾؛ أي: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم؛ كأنه ولي حميم [ذكره البغوي ١١٥/٤].

وقوله: ﴿وَمَا يَزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾؛ أي: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن، فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه، كفه عنك ورد كيده، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول: (أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ) [رواه أبو داود/٧٧٥ وابن ماجه/٨٠٧ والحاكم/٧٤٩ وصححه]، وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف عند قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) ﴿وَمَا يَزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وفي سورة المؤمنين عند قوله: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦) ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (٩٧) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨].

لكن الذي ذكر في الأعراف أخف على النفس مما ذكر في سورة السجدة؛ لأن الإعراض عن الجاهل وتركه أخف على النفس من الإحسان إلى المسيء فتتولد النفس من ذلك ولا تنقاد له إلا بمعالجة ويساعدها الشيطان في هذه الحال، فتفعل له وتستعصي على صاحبها، فتحتاج إلى مجاهدة وقوة إيمان، فلهذا أكد ذلك ها هنا بضمير الفصل والتعريف باللام فقال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلَيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِتَاءَهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٢٧) ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ (٢٨) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩).

يقول تعالى منبها خلقه على قدرته وأنه الذي لا نظير له، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلَيْلُ وَالنَّهَارُ

وَالشَّمْسُ؛ أَي: إنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضياءه، وهما متعاقبان لا يقرآن، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازلها في فلكه، واختلاف سيره في سمائه ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجُمع والشهور والأعوام، ويتبين حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات. ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبده تحت قهره وتسخيره فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ أَي: لا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾؛ أَي: عن أفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾؛ يعني: الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ كقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾؛ أَي: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾؛ أَي: هامدة لا نبات فيها بل هي ميتة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾؛ أَي: أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (٤١) ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤٢) ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤٣).

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال ابن عباس: الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه، وقال قتادة وغيره: هو الكفر والعناد، وقوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد؛ أَي: إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ أَي: أيستوي هذا وهذا؟ لا يستويان. ثم قال ﴿لَكُمْ مَهْدًا للكفرة﴾: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراساني: وعيد أي من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال الضحاك والسدي وقاتدة: هو القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾؛ أَي: منيع الجنب، لا يرام أن يأتي أحد بمثله ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾؛ أَي: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين، ولهذا قال: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾؛ أَي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود؛ أَي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه، الجميع محمودة عواقبه وغاياته، ثم قال: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قال قتادة، والسدي وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما كُذِّبَتْ فقد كُذِّبُوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك



لك، وهذا اختيار ابن جرير [١٢٦/٢٤] ولم يحك هو ولا ابن أبي حاتم [١٨٤٦١] غيره.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾؛ أي: لمن تاب إليه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَغْجَمِيَ وَعَرَبِيٌّ ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ وَتَوَلَّى كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه في لفظه ومعناه ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنّت، كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨، ١٩٩]، وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنّت والعناد: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَغْجَمِيَ وَعَرَبِيٌّ﴾؛ أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجمي وعربي؟ أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه؟ روي هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد، والسدي وغيرهم، وقيل: المراد بقولهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَغْجَمِيَ وَعَرَبِيٌّ﴾؛ أي: هلا أنزل بعضها بالأعجمي وبعضها بالعربي. هذا قول الحسن البصري وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام «أعجمي» وهو رواية عن سعيد بن جبير وهو في التعنّت والعناد أبلغ [الطبري ١٢٦/٢٤]. ثم قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾؛ أي: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب، ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾؛ أي: لا يفهمون ما فيه ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾؛ أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال مجاهد: يعني: بعيد من قلوبهم. قال ابن جرير: معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول، قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْآذَىٰ يَبْعَثُ بَإِذَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمُّ بِكُمْ عَمًى فَهُمْ لَا يَبْقَوْنَ﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأسمائهم [الطبري ١٢٨/٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ﴾؛ أي: كُذِّبَ وأوذي، ﴿فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْأَعْرَابِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ إلى أجل مسمى بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾؛ أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه، هكذا وجهه ابن جرير وهو محتمل، والله أعلم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءَ قَالُوا ءَاذَنْكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِصٍ ﴿٤٨﴾ .

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾؛ أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾؛ أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾؛ أي: لا يعاقب أحداً إلا بذنب، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه، ثم قال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ أي: لا يعلم ذلك أحد سواه كما قال محمد ﷺ، وهو سيد البشر لجبريل عليه الصلاة والسلام وهو من سادات الملائكة حين سأله عن الساعة -: (مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ) [رواه مسلم/٨]، وكما قال تعالى: ﴿لَا يُحِيطُ بِشَيْءٍ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾؛ أي: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا بِعِلْمِهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال جلّت عظمته: ﴿بِعَلْمِ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءَ﴾؛ أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ ﴿قَالُوا ءَاذَنْكَ﴾؛ أي: أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾؛ أي: ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً، ﴿وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم، ﴿وَوَظَنُوا﴾؛ أي: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَجِصٍ﴾؛ أي: لا محيد لهم عن عذاب الله كقوله تعالى: ﴿وَرَوَّاءَ الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوها وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ (٤٩) وَلَئِنْ أَدْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلْيُنَبِّئَنِّي الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ .

يقول تعالى: لا يَمَلُّ الإنسان من دعاء ربه بالخير، وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك، فإن مسه الشر وهو البلاء أو الفقر ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾؛ أي: يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير. ﴿وَلَئِنْ أَدْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾؛ أي: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة ليقولن: هذا لي إني كنت أستحقه عند ربي ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾؛ أي: يكفر بقيام الساعة؛ أي: لأجل أنه خول نعمة يبطر ويفخر ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾ أَن رَّأَاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿وَلَيْنَ تُجِئْتُ إِلَى رَبِّيَ إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾؛ أي: ولئن كان ثمّ معاد فليُحسِنَ إليّ ربّي، كما أحسن إلي في هذه الدار، يتمنى على الله ﷻ، مع إساءته العمل وعدم اليقين.

قال تعالى: ﴿فَلْيَتَنَبَّأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَيَذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتهدّد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال، ثم قال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا﴾؛ أي: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله ﷻ، كقوله: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ﴾ [الذاريات: ٣٩].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾؛ أي: الشدة ﴿فَذُوَّكَاءَ عَرِيضٍ﴾؛ أي: يطيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: هو ما قل ودل، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحَبِيْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٢) ﴿سَرُّبِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٥٣) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ (٥٤).

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذّبين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾؛ أي: كيف تُروّون حالكم عند الذي أنزله على رسوله؟ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: في كفر وعناد ومشاقة للحق، ومسلّك بعيد من الهدى، ثم قال: ﴿سَرُّبِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: سنظهر لهم دلائلنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، قاله مجاهد، والحسن، والسدي [كما ذكره البغوي ٤/١١٨]: ودلائل في أنفسهم، قالوا: وقعة بدر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حلّت بهم، نصر الله فيها محمداً ﷺ وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه، ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاق والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى، وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حسن وقبيح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره أن يجوزها ولا يتعدها.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ أي: كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَيْكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيقَةٍ مِنَ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: في شك من قيام الساعة، ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعملون له ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هذرٌ لا يعبأون به وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه.

ثم قال تعالى مقررًا أنه على كل شيء قدير وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾؛ أي: المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت علمه وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.



## تفسير سورة الشورى

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَى ۝٢ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۖ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة.

قوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: كما أنزل إليك هذا القرآن، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: في انتقامه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول). قالت عائشة: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ﷺ ليتفصد عرقاً. أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٢ ومسلم/٢٣٣٣] ولفظه للبخاري.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣]، والآيات في هذا كثيرة، وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ وقال ابن عباس ﷺ والضحاك، وقتادة، والسدي، وكعب الأحبار: أي: فرقاً من العظمة، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إعلام بذلك وتنويه به، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؛ يعني: المشركين ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدها عدداً، وسيجزئهم بها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: إنما أنت نذير، والله على كل شيء وكيل.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: واضحا جلياً بيناً، ﴿لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: من سائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة أم القرى؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها، ومن أوجز ذلك وأدله ما رواه الإمام أحمد [١٨٧٣٧] عن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة: (وَاللَّهِ، إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنِّي أَخْرَجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ). هكذا رواه الترمذي [٣٩٢٥]، وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة، وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكَ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّلَاقِ﴾ [التغابن: ٩]؛ أي: يعين أهل الجنة أهل النار.

وروى الإمام أحمد [٦٥٦٣] عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: (أُنْذِرُونِ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟) قلنا لا، إلا أن نخبرنا يا رسول الله. قال ﷺ: للذي في يمينه: (هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بِأَسْمَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، - ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَى آخِرِهِمْ - لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا) ثم قال ﷺ: للذي في يساره: (هَذَا كِتَابُ أَهْلِ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَى آخِرِهِمْ لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا) فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلاي شيء نعمل إن كان هذا الأمر قد فُريغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: (سَدُّوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُحْتَمَلُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيُّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُحْتَمَلُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيُّ عَمَلٍ) ثم قال ﷺ: بيده فقبضها، ثم قال: (فَرَعَ رَبُّكُمْ ﷻ مِنَ الْعِبَادِ) ثم قال باليمينى فنبذ بها فقال: (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ)، ونبذ باليسرى فقال: (فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) وهكذا رواه الترمذي [٢١٤١]، وقال: حسن صحيح غريب.

وروى الإمام أحمد [١٧٦٢٩] عن أبي نضرة قال: إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له أبو عبد الله دخل عليه أصحابه؛ يعني: يزورونه فوجدوه يبكي، فقالوا له: ما يبكيك؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ: (خُذْ مِنْ شَارِبِكَ ثُمَّ أَقْرَهُ حَتَّى تَلْقَانِي)، قال: بلى ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ اللَّهَ قَبْضَ بِيَمِينِهِ قَبْضَةً، وَأُخْرَى بِالْيَدِ الْأُخْرَى، قَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ، وَهَذِهِ لِهَذِهِ وَلَا أَبَالِي). فلا أدري في أي القبضتين أنا [قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح]، وأحاديث القدر في «الصحيح»، و«السنن»، و«المسانيد» كثيرة جداً، منها حديث علي، وابن مسعود، وعائشة، وجماعة جمّة.

وقوله: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق وأضل من يشاء عنه وله الحكمة والحجة البالغة

ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير، ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ، كقوله: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾؛ أي: الحاكم في كل شيء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾؛ أي: أرجع في جميع الأمور.

وقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما وما بينهما ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾؛ أي: من جنسكم وشكلكم، منه عليكم وتفضلاً جعل من جنسكم ذكراً وأنثى، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾؛ أي: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج.

وقوله: ﴿يَذُرُوكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: يخلقكم فيه؛ أي: في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذركم فيه ذكوراً وإنثاً، خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، ونسلًا بعد نسل، من الناس والأنعام، وقال البغوي [١٢١/٤]: يذركم فيه أي في الرحم، وقيل: في البطن، وقيل: في هذا الوجه من الخلقة. قال مجاهد: نسلًا من الناس والأنعام، وقيل: «في» بمعنى «الباء»؛ أي: يذركم به.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؛ أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر [آية: ٦٣]، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء وله الحكمة والعدل التام ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فذكر أول





وقوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾؛ أي: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم.

وقوله: ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: في الحكم كما أمرني الله، وقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾؛ أي: هو المعبود لا إله غيره، فنحن نفر بذلك اختياراً وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً، فله يسجد من في العالمين طوعاً وإجباراً، وقوله: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾؛ أي: نحن برآء منكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ قُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قال مجاهد: أي: لا خصومة [الطبري ١٨/٢٥]. قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف، وهذا مُتَّجِهٌ؛ لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة، وقوله: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾؛ أي: يوم القيامة، كقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٦]، وقوله: ﴿وَالِئِنَّهُ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جُمُوعُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾.

يقول تعالى متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾؛ أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، ﴿جُمُوعُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: باطلة عند الله ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾؛ أي: منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: يوم القيامة، قال ابن عباس، ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعدما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية، وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا: ديننا خير من دينكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالله منكم، وقد كذبوا في ذلك [الطبري ١٩/٢٥]. ثم قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾؛ يعني: الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل والإنصاف، قاله مجاهد، وفتادة [الطبري ٢٠/٢٥]، وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فيه ترغيب فيها وترهيب منها، وتزهيد في الدنيا، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾؛ أي: يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، وإنما يقولون ذلك تكديباً واستبعاداً وكفراً وعناداً ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: خائفون وجُلُون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾؛ أي: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها، وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر في «الصحيح» و«الحسان» و«السنن»، و«المسانيد»، وفي بعض ألفاظه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري وهو في بعض

أسفاره، فناداه فقال: يا محمد، فقال له رسول الله ﷺ نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ: (هَؤُمُ)، فقال له: متى الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: (وَيْحَكَ، إِنَّهَا كَأَنَّكَ، فَمَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟) فقال: حب الله ورسوله، فقال ﷺ: (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَّيْتَ) [البخاري/٥٨١٩ ومسلم/٢٦٣٩ بنحوه]، فقله في الحديث: (الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ) هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾؛ أي: يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها، ﴿لَنُيْضِلَّ بَعِيدٍ﴾؛ أي: في جهل بين؛ لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢).

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحداً منهم، سواء في رزقه البر والفاجر، كقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]، ولها نظائر كثيرة.

وقوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: يوسع على من يشاء، ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: لا يعجزه شيء، ثم قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: عمل الآخرة ﴿نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾؛ أي: نقويه ونعينه على ما هو بصدد، ونكثر نماءه ونجزه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى ما يشاء الله، ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾؛ أي: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا وليس له إلى الآخرة همة البتة بالكلية، حَرَمَهُ اللهُ الْآخِرَةَ، والدنيا إن شاء أعطاه منها وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه ولا هذه، وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، والدليل على هذا أن هذه الآية ها هنا مقيدة بالآية التي في «سبحان» وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يَشْرُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّيِّئَةِ وَالرَّفْعَةِ، وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمِنْ عَمَلٍ مِنْهُمْ عَمَلٌ الْآخِرَةُ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) [رواه أحمد/ ٢١٢٦٠ والحاكم/ ٧٨٦٢ وصححه ووافقه الذهبي].

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾؛ أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأقوال الفاسدة، وقد ثبت في «الصحيح» [عند البخاري/ ٣٣٣٣] أن رسول الله ﷺ قال: (رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ بِنَ قَمْعَةٍ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ)؛ لأنه أول من سبب السوائب، وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حَمَلَ قَرِيشًا عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ لعنه الله وقبحه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ أَفْضَلُ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد ﴿وَأَنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: شديد موجه في جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾؛ أي: في عرصات القيامة ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾؛ أي: الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم في هذا الخوف والوجل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، فأين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ أَفْضَلُ الْكَبِيرِ﴾؛ أي: الفوز العظيم والنعمة التامة السابعة الشاملة العامة.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقَرَّفْ حَسَنَتُهُ زِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّقُ الْحَقَّ يَكَلِّمُتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤).

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات. ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: هذا حاصل لهم كائن لا محالة ببشارة الله لهم به.

وقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطوني، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلغ رسالات ربي، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة، روى البخاري عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، فقال سعيد بن جبر: قربي آل محمد، فقال ابن عباس: عجلت إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش

إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة، وبه قال مجاهد، وقتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

وعن الحسن البصري: لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجرًا إلا أن توادوا الله، وأن تقربوا إليه بطاعته، وهذا قول ثان، كأنه يقول: إلا المودة في القربى؛ أي: إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى، وقول ثالث: وهو ما حكاه البخاري وغيره رواية عن سعيد بن جبير ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودوني في قرابتي؛ أي: تحسنوا إليهم وتبروهم.

وقال عمرو بن شعيب: قربي النبي ﷺ.

والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به خبر الأمة، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخاري ولا تنكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه، وعلي وأهل بيته وذريته رضي الله عنهم أجمعين.

وقد ثبت في «الصحيح [عند الحاكم بنحوه/٤٧١١]»: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم: **(إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي، وَإِنَّهُمَا لَمْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ).**

وروى البخاري [٣٥٠٩] عن أبي بكر الصديق ﷺ قال: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته، وفي «الصحيح»: أن الصديق ﷺ قال لعلي ﷺ: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصِلَ من قرابتي، وقال عمر بن الخطاب للعباس ﷺ: والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب [الطبراني في «الكبير»/٧٢٦٤]، فحال الشيخين ﷺ هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين ﷺ وعن سائر الصحابة أجمعين.

**وقوله: ﴿وَمَنْ يَفْرَقْ حَسَنَةً﴾؛ أي: ومن يعمل حسنة نزدله فيها حسناً؛ أي: أجراً وثواباً، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّ مِنْهَا شَيْئاً وَإِنَّكَ حَسَنَةٌ يَضَعُهَا وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها.**

**وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ﴾؛ أي: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾؛ أي: لو افترت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾؛ أي: يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَهْلٍ عَنْهُ حَاجِرِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]؛ أي: لا نتقمن منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه.**

**وقوله: ﴿وَيَمَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾** ليس معطوفاً على قوله: ﴿يَخْتِمْ﴾ فيكون مجزوماً، بل هو مرفوع على الابتداء، قاله ابن جرير، قال: وحذفت من كتابته الواو في رسم مصحف الإمام، كما حذفت في قوله: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١]، وقوله: ﴿وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾؛

أي: يحققه ويثبتته ويوضحه بكلماته؛ أي: بحججه وبراهينه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدٍ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه أنه من كرمه وحلمه أن يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقد ثبت في «صحيح مسلم» [٢٧٤٧] عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (الله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فأنفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطاياها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح).

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ أي: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدي: يعني: يستجيب لهم، وكذا قال ابن جرير [٢٩/٢٥]: معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم، وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله ﷻ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، ثم روى هو وابن أبي حاتم [١٨٤٧٩] عن سلمة بن سبرة قال: خطبنا معاذ بالشام، فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة، والله إني لأرجو أن يدخل الله تعالى من تسبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعني: أحدهم عملاً قال: أحسنت رحمك الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، كقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨]؛ أي: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، والمعنى الأول أظهر لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك.

وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجه المؤلم يوم معادهم وحسابهم. وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض، أشراً وبطراً.

وقال قتادة: كان يقال خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك، وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾؛ أي: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾؛ أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه كقوله: ﴿وَلِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَكُلَيْسِينَ﴾ [الروم: ٤٩].

وقوله: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾؛ أي: يعم بها الوجود على أهل ذلك القُطر وتلك الناحية. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قُحِطَ المطر وقنط الناس، فقال عمر رضي الله عنه: مطرتم، ثم قرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الطبري ٣١/٢٥].

﴿وَهُوَ أَلَوُّ الْحَمِيدِ﴾؛ أي: هو المتصرف لخلقهم بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَائِقَةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١).

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: ذراً فيهما؛ أي: في السموات والأرض، ﴿مِنْ دَائِقَةٍ﴾ وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض، ﴿وَهُوَ﴾ مع هذا كله ﴿عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾؛ أي: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، ويُفْذَهُم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: مهما أصابكم أيها الناس من المصاب فإنما هي عن سيئات تقدمت لكم، ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾؛ أي: من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَائِقَةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وفي الحديث الصحيح: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ، حَتَّى الشُّوْكَهَ يُشَاكَهَا) [البخاري/٥٣١٨ ومسلم/٢٥٧٢ كلاهما بنحوه].

وروى ابن أبي حاتم [١٨٤٨٠] عن أبي جحيفة قال: دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه؟ قال: فسألناه فتلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ قال: ما عاقب الله تعالى به في الدنيا فالله أحلم من أن يُنْثِي عليه بالعقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن

يعود في عفوهِ يوم القيامة، وروى الإمام أحمد [١٦٩٤٥] عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَا مِنْ شَيْءٍ يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ فِي جَسَدِهِ يُؤْذِيهِ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ) [والحاكم/١٢٨٥، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

وعن الضحاك قال: ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرأ الضحاك: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ثم يقول الضحاك: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَخِصٍ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه، تسخير البحر لتجري فيه الفلك بأمره، وهي الجواري في البحر كالأعلام؛ أي: كالجبال، قاله مجاهد، والحسن، والسدي، والضحاك؛ أي: هذه في البحر كالجبال في البر ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾؛ أي: التي تسير بالسفن حتى لا تتحرك السفن، بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب بل واقفة على وجه الماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ لدلالات على نعمه تعالى على خلقه لكل صبار؛ أي: في الشدائد، شكور في الرخاء. وقوله: ﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾؛ أي: ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها، ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾؛ أي: من ذنوبهم ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر.

وقال بعض علماء التفسير؛ أي: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال أبقة لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد، وهذا القول هو يتضمن هلاكها وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت أو لقواها فشردت وأبقت وهلكت، ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً لهدم البنيان، أو قليلاً لما أنبت الزرع والثمار. وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَخِصٍ﴾؛ أي: لا محيد لهم عن بأسنا ونفقتنا، فإنهم مهجرون بقدرتنا.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمِنَّهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَاطِنًا كَثِيرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى محققاً لشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني، بقوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمِنَّهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾؛ أي: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا وهي دار دنيئة فانية لا محالة ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾؛ أي: وثواب الله تعالى خير

من الدنيا، وهو باق سرمدى فلا تقدموا الفانى على الباقي، ولهذا قال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش في سورة الأعراف ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾؛ أي: سجيبتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس ليس سجيبتهم الانتقام من الناس، وقد ثبت في «الصحيح» [البخاري/٦٤٠٤]: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمت الله، وفي حديث آخر: كان يقول لأحدنا عند المعتبة: (مَا لَهُ تَرَبَّتْ يَمِينُهُ) [رواه البخاري/٥٦٨٤ بلفظ: جيبه]، وعن إبراهيم [النخعي] قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفا.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي أعظم العبادات لله ﷻ، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لا يرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب، وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم، وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، فاجتمع رأي الصحابة كلهم رضي الله عنهم على تقديم عثمان عليهم رضي الله عنهم، ﴿وَمِمَّا زَكَّاهُمْ يُفْقُونَ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ﴾؛ أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين ولا أذلة، بل يقدرّون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفا، كما قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن لبيد بن الأعصم الذي سحره عليه الصلاة والسلام [البخاري/٥٤٣٢]، ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه، وكذلك عفوه ﷺ عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيري الذي قتله محمود بن مسلمة - التي سمت الذراع يوم خيبر - فأخبره الذراع بذلك فدعاها فاعترفت فقال ﷺ: (مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ ذَلِكَ) قالت: أردت إن كنت نبياً لم يضرك، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك، فأطلقها عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء رضي الله عنه قتلها به [أخرجه البخاري/٥٤٤١ مختصراً وأبو داود بلفظ قريب/٤٥١٢]، والأثار في هذا كثيرة جداً، والحمد لله.

﴿وَجَزَّوْا سِنِينَ سَنَوَاتٍ مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤١) وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٣) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سِنِينَ سَنَوَاتٍ مِّثْلَهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلِنْ عَاقِبَتُهُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ



يَهُ وَيَكُنْ صَبْرُكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦]، فشرع العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، ولهذا قال ها هنا: ﴿فَمَن عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: لا يضيع ذلك عند الله، كما صح ذلك في الحديث: (وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا) [رواه مسلم/٢٥٨٨]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة.

وقال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثة: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية فذكر المقتصد وهو الذي يقتص بقدر حقه لقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، ثم ذكر السابق بقوله: ﴿فَمَن عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ثم ذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى عن الظلم. ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَمَن أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾؛ أي: ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم.

وقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾؛ أي: إنما الحرج والعنت ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلُمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَرِّ الْحَقِّ﴾؛ أي: يبدوون الناس بالظلم، كما جاء في الحديث الصحيح: (الْمُسْتَبَانُ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِي مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ) [رواه مسلم/٢٥٨٧]. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: شديد موجه.

ثم إن الله تعالى، لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادياً إلى العفو والصفح: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾؛ أي: صبر على الأذى، وستر السيئة ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، قال سعيد بن جبير: يعني: لمن حق الأمور التي أمر الله بها؛ أي: لمن الأمور المشكورة، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل، وثناء جميل.

﴿وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَنَّهُمْ يُخَرِّضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِّنَ الدُّلَى يَنْظُرُونَ مِّن طَرَفٍ خَفِيِّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أُولِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل الله فلا هادي له، كما قال: ﴿وَمَن يُضِلِلِ فَلَن يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْسِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، ثم قال مخبراً عن الظالمين، وهم المشركون بالله: ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾؛ أي: يوم القيامة يتمنون الرجعة إلى الدنيا ﴿يَقُولُوا هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ تُفْعَلُونَ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وقوله: ﴿وَتَرَنَّهُمْ يُخَرِّضُونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على النار ﴿خَشِيعِينَ مِّنَ الدُّلَى﴾؛ أي: الذي قد

اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال مجاهد: يعني: ذليل؛ أي: ينظرون إليها مُسَارَقَةً خوفاً منها، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما في نفوسهم، أجارنا الله من ذلك.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: يقولون يوم القيامة ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾؛ أي: الخسار الأكبر ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي: ذهب بهم إلى النار، فعدموا لذتهم في دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأهاليهم فخسروهم، ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ أي: دائم سرمدى أبدي، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ ءُولِيَآءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾؛ أي: ليس له خلاص.

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ (٤٧) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سِنْفَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (٤٨).

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأحوال والأمور العظام الهائلة، حذر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾؛ أي: إذا أمر بكونه، فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾؛ أي: ليس لكم حصن تحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾؛ يعني: المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾؛ أي: لست عليهم بمسيطر، وقال: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال هاهنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ﴾؛ أي: إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾؛ أي: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سِنْفَةٌ﴾؛ يعني: الناس ﴿سِنْفَةٌ﴾؛ أي: جذب وبلاء وشدة ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾؛ أي: يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط، وهذا حال أكثر الناس، إلا من هداه الله تعالى وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال ﷺ: (إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ) [رواه

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۖ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٩﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً﴾؛ أي: يرزقه البنات فقط.

﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾؛ أي: يرزقه البنين فقط. ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً﴾؛ أي: يعطي من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى؛ أي: هذا وهذا. ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾؛ أي: لا يولد له، فجعل الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيما لا نسل له ولا يولد له.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾؛ أي: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: على من يشاء من تفاوت الناس في ذلك.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ رَأْيَ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآدَانِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝٥٣﴾ .

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله ﷻ، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئا لا يتماهى فيه أنه من الله ﷻ.

وقوله: ﴿أَوْ رَأْيَ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها.

وفي [الحديث] الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: (مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا) الحديث [أخرجه ابن ماجه/١٩٠ والترمذي/٣٠١٠ وقال: حسن غريب]، وكان أبوه قد قتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا.

وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآدَانِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما ينزل جبريل ﷺ وغيره من الملائكة على الأنبياء ﷺ ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ فهو علي عليم خبير حكيم، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾؛ يعني: القرآن ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾؛ أي: على التفصيل الذي شرع لك في القرآن، ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا﴾، كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾؛ أي: يا محمد ﴿لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الحق القويم، ثم فسره

بقوله: ﴿صَرِطَ اللَّهُ﴾؛ أي: شرعه الذي أمر به الله، ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، والحاكم الذي لا معقب لحكمه، ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾؛ أي: ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها.



## تفسير سورة الزخرف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَم﴾ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ ④ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ⑤ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ⑥ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑦ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ⑧

يقول تعالى: ﴿حَم﴾ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ؛ أي: البين الواضح المعاني والألفاظ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس، ولهذا قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾؛ أي: نزلناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: بلغة العرب فصيحًا واضحًا، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: تفهمونه وتتدبرونه، كما قال: ﴿يَلْسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ﴾ بين شرفه في المألى الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾؛ أي: القرآن ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾؛ أي: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿لَدَيْنَا﴾؛ أي: عندنا، قاله قتادة وغيره [الطبري ٤٨/٢٥ وما بعدها]، ﴿لَعَلٌّ﴾؛ أي: ذو مكانة وشرف وفضل قاله قتادة، ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: محكم بريء من اللبس والزيغ، وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ⑦ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ⑧ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ⑨ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠].

وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ اختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس رضي الله عنه، وأبو صالح، ومجاهد، والسدي، واختاره ابن جرير [٤٩/٢٥]، وقال قتادة في قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا؟﴾: والله لو أن هذا القرآن، رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله تعالى عاد بعائده ورحمته، فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة أو ما شاء الله من ذلك، وقول قتادة لطيف المعنى جدًا، وحاصله أنه يقول في معناه إنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه بل يأمر به ليهتدي به من قَدَّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

ثم قال تعالى - مسلًا لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه وأمرًا له بالصبر عليهم -: ﴿وَكَمْ

أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ؛ أَي: فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أَي: يَكْذِبُونَهُ وَيَسْخَرُونَ بِهِ.

وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾؛ أَي: فَأَهْلَكْنَا الْمَكْذِبِينَ بِالرَّسْلِ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ بَطْشًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ لَكَ يَا مُحَمَّد، كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] والآيات فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وقوله: ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِد: سَنَتَهُمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: عَقُوبَتُهُمْ، وَقَالَ غَيْرُهُمَا: عِبْرَتُهُمْ؛ أَي: جَعَلْنَاهُمْ عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمَكْذِبِينَ أَنْ يَصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦].

﴿وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٩) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠) ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (١١) ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) ﴿لَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ (١٤).

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَيْنَ سَأَلْتُمْ يَا مُحَمَّد هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾؛ أَي: لِيُعْتَرَفَنَّ بِأَنَّ الْخَالِقَ لِذَلِكَ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُمْ مَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾؛ أَي: فَرَأَيْتُمْ قَرَارًا ثَابِتَةً يَسِيرُونَ عَلَيْهَا وَيَقُومُونَ وَيَنَامُونَ وَيَنْصَرِفُونَ، وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ لَثَلًا تَمِيدُ هَكَذَا وَلَا هَكَذَا ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ أَي: طَرِيقًا بَيْنَ الْجِبَالِ وَالْأَوْدِيَةِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ أَي: فِي سَبِيلِكُمْ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَقَطَرٍ إِلَى قَطَرٍ، ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾؛ أَي: بِحَسَبِ الْكِفَايَةِ لَزُرُوعِكُمْ وَثِمَارِكُمْ وَشَرِبِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ. وقوله: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾؛ أَي: أَرْضًا مَيِّتَةً، فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَاءُ اهْتَزَتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، ثُمَّ نَبِهَ تَعَالَى بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَادِ يَوْمَ الْمَعَادِ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَقَالَ: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾؛ أَي: مِمَّا تَنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ سَائِرِ الْأَصْنَافِ، مِنْ نَبَاتٍ وَزُرُوعٍ وَثِمَارٍ وَأَزَاهِيرٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِنْ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا وَأَصْنَافِهَا، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ﴾؛ أَي: الْسُفُنَ ﴿وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾؛ أَي: ذَلَّلَهَا لَكُمْ وَسَخَّرَهَا لِأَكْلِكُمْ لِحُومِهَا، وَشَرِبِكُمْ أَلْبَانِهَا وَرُكُوبِكُمْ ظُهُورَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾؛ أَي: لَتَسْتَوُوا مَتَمَكِّنِينَ مُرْتَفِعِينَ عَلَى ظُهُورِهِ؛ أَي: عَلَى ظُهُورِ هَذَا الْجِنْسِ ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾؛ أَي: فِيمَا سَخَّرَ لَكُمْ ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾؛ أَي: مُقَاوِمِينَ، وَلَوْلَا تَسْخِيرُ اللَّهِ لَنَا هَذَا مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَالسَّيِّدِي، وَابْنُ زَيْدٍ: مُقْرِنِينَ؛ أَي: مُطِيقِينَ، ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾؛

أي: لصائرون إليه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الآخروي في قوله: ﴿وَكَزَوْدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْتَقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وباللباس الدنيوي على الآخروي في قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

### ذكر أحاديث واردة عند ركوب الدابة:

روى الإمام أحمد عن علي بن ربيعة قال: رأيت علياً عليه السلام أتي بدابة، فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله سبحن الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (١٣) وإننا إلى ربنا لمفلئون ثم حمد الله تعالى ثلاثاً وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسي فاغفر لي، ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثلما فعلت ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: (يَعْبَجُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَيَقُولُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي) وهكذا رواه الترمذي [٣٤٤٦ نحوه]، وقال: حسن صحيح.

وروى الإمام أحمد [٦٣١١] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ثم قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) وإننا إلى ربنا لمفلئون، ثم يقول: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِي سَفَرِي هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ وَاطْوِ لَنَا الْبَعِيدَ، اللَّهُمَّ، أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا، وَاخْلُفْنَا فِي أَهْلِنَا)، وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال: (أَيُّونَ تَائِبُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ)، وهكذا رواه مسلم [١٣٤٢ نحوه].

وروى الإمام أحمد [١٦٠٨٢] عن محمد بن حمزة أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (عَلَى ظَهْرِ كُلِّ بَعِيرٍ شَيْطَانٌ، فَإِنْ رَكِبْتُمُوهَا فَسَمُوا اللَّهَ ﻋَﻠَیْهِ، ثُمَّ لَا تُقْصِرُوا عَنْ حَاجَاتِكُمْ) [قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمزة وهو ثقة].

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ يَابْسِينَ﴾ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (١٧) أَوْ مَنْ يُسْأَلُ فِي الْحَلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَّتُ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٢٠).

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله، كما ذكر الله عنهم في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ

فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وكذلك جعلوا له من قسَمي البنات والبنين أخسهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿الْكُفْرُ أَذْكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴿٦٢﴾ تِلْكَ إِذَا قَسَمْتَ ضِرَّةً﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]، وقال هاهنا: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾، ثم قال: ﴿أَوِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار، ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ أي: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك وتنسبونه إلى الله ﷻ؟ ثم قال: ﴿أَوْ مِنْ يُنْسَوْنَ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾؛ أي: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عِيَّة، أو مَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم؟ فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه ليجبر ما فيها من نقص.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ عِبَدُ الرَّحْمَنِ أَنْثَى﴾؛ أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾؛ أي: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثاً ﴿سَتَكُنَّ سَهْدٌ لَهُمْ﴾؛ أي: بذلك ﴿وَسُئِلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾؛ أي: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقرنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

أحدها: جعلهم لله تعالى ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً.

الثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا إذن من الله ﷻ، بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء والخطب في الجاهلية الجاهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقريرهم على ذلك قَدَرًا، والحجة إنما تكون بالشرع، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٤٥]، وقال في هذه الآية بعد أن ذكر حججتهم هذه: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ أي: يكذبون ويتقولون، وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: يعلمون قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك.



﴿أَمْ أَنَيْنَهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكِرُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ حِجَّتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى منكرًا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ أَنَيْنَهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾؛ أي: من قبل شركهم ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكِرُونَ﴾؛ أي: فيما هم فيه ليس الأمر كذلك، كقوله: ﴿أَمْ أُنزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ [الروم: ٣٥]؛ أي: لم يكن ذلك.

ثم قال: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾؛ أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين هاهنا، وفي قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢] وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾؛ أي: وراءهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ دعوى منهم بلا دليل، ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسول، تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالته، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾، قال ﷻ: ﴿قُلْ﴾؛ أي: يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿أُولَٰئِكَ حِجَّتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾؛ أي: لو علموا وتيقنوا صحة ما جئتم به لما انقادوا لذلك لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله.

قال الله تعالى: ﴿فَانقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب كما فصله تبارك وتعالى في قصصهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: كيف بادوا وهلكوا وكيف نجي الله المؤمنين.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٌ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ سُلْطَانًا وَرَحْمَتًا مِنَّا وَرَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوشِقَنَّهُ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِيُوشِقَنَّهُمْ آتُونًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَوَّنُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وخليفه إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء،

الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ﴿٢٨﴾؛ أي: هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي لا إله إلا الله؛ أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداة الله تعالى من ذرية إبراهيم ﷺ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: إليها.

قال مجاهد، وقتادة، والسدي وغيرهم في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾؛ يعني: لا إله إلا الله لا يزال في ذريته من يقولها، وروى نحوه عن ابن عباس [ابن أبي حاتم/١٨٥٠١]، وقال ابن زيد: كلمة الإسلام، ثم قال: ﴿بَلْ مَنَعْتُ هَؤُلَاءَ﴾؛ يعني: المشركين ﴿وَأَبَاءَهُمْ﴾؛ أي: فتناول عليهم العمر في ضلالهم ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: بين الرسالة والندارة. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾؛ أي: كابروه وعاندوه كفراً وحسداً وبغياً، ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾؛ أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من الفريقتين؟ يعنون مكة والطائف. قاله ابن عباس، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي، وابن زيد، وقد ذكر غير واحد منهم قتادة: أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي، وقال الضحاك، والسدي: يعنون الوليد بن المغيرة ومسعود بن عمرو الثقفي، وعن مجاهد: عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي، وعنه أيضاً: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة وحبیب بن عمرو بن عمير الثقفي، وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف، وقال السدي: عنوا بذلك الوليد بن المغيرة وكنانة بن عمرو بن عمير الثقفي، والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدين كان [ينظر الطبري ٦٦/٢٥].

قال الله تعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أَمْهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ أي: ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله ﷻ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً.

ثم قال تعالى مبيناً أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿وَنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وقوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُدْحًا﴾ قيل: معناه ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدي وغيره، وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضاً، وهو راجع إلى الأول، ثم قال: ﴿وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ أي: رحمة الله بخلقهم خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطائنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال هذا معنى قول ابن عباس، والحسن، والسدي وغيرهم ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤَيِّدَهُمْ سُقُفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾؛ أي: سلالم ودرجاً من فضة قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد وغيرهم ﴿عَلَيْهَا يَطْهَرُونَ﴾؛

أي: يصعدون وليوتهم أبواباً؛ أي: أغلاقاً على أبوابهم ﴿وَسُرُّرًا عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ﴾؛ أي: جميع ذلك يكون فضة ﴿وَزُخْرُفًا﴾؛ أي: وذهباً، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد [الطبري ٧١/٢٥].

ثم قال: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى؛ أي: يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشرب ليوافوا الآخرة، وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها.

ثم قال: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى من نسائه، فرآه عمر على رمال حصير قد أثر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء وقال: يا رسول الله هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال: (أَوْ فِي شَكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَابِ؟) ثم قال: (أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طِيبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا)، وفي رواية: (أَمَّا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ؟) [البخاري/٢٣٣٦ ومسلم/١٤٧٩]، وفي «الصحيحين» أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: (لَا تَشْرَبُوا فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الْآخِرَةِ)، وإنما خولهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها كما روى الترمذي [٢٣٢٠]، وابن ماجه [٤١١٠] عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: (لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزُنُّ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ، مَا سَقَى مِنْهَا كَافِرًا شَرْبَةَ مَاءٍ أَبَدًا) قال الترمذي: حسن صحيح.

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) ﴿وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٧) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَنَسِ الْقَرِينَ﴾ (٣٨) ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٩) ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٠) ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِضُونَ﴾ (٤١) ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ (٤٢) ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٣) ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (٤٤) ﴿وَسَلِّ مِمَّنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ (٤٥).

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾؛ أي: يتعامى ويتغافل ويعرض ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ والعشا في العين: ضعف بصرها، والمراد هاهنا: عشا البصيرة، ﴿نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ كقوله: ﴿وَقِيصْنَا لَهُمُ قُرْنًا فَرَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الآية [فصلت: ٢٥]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٧) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾؛ أي: هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضلّه ويهديه إلى صراط الجحيم، فإذا وافى الله ﷻ يوم القيامة يتبرم بالشیطان الذي وكل به ﴿قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾

فَيَسَّ الْقَرَيْنُ، وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاءنا»؛ يعني: القرين والمقارن [الطبري ٧٤/٢٥].

والمراد بالمشرقين هنا هو ما بين المشرق والمغرب، وإنما استعملها هنا تغليباً، كما يقال: القمران والعمران والأبوان، قاله ابن جرير وغيره.

ولما كان الاشتراك في المصيبة في الدنيا يحصل به تسلية لمن شاركه في مصيبته، قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم بذلك تأسّ وتسلية ولا تخفيف، فقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ يَوْمَئِذٍ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ أي: لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم.

وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل في ذلك، ثم قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾؛ أي: لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم، ولو ذهب أنت، ﴿أَوْ تُرِيْنَاكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقَدِّرُونَ﴾؛ أي: نحن قادرون على هذا وعلى هذا، ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه وحكمه في نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيحهم. هذا معنى قول السدي، واختاره ابن جرير.

وعن قتادة قال: ذهب النبي ﷺ وبقيت النعمة، ولم ير الله نبيه ﷺ في أمته شيئاً يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم ﷺ، وعن الحسن نحو ذلك، وفي الحديث: (النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءُ مَا تُوْعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبَتْ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ) [رواه مسلم/٢٥٣١]، ثم قال: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، واختاره ابن جرير [٧٦/٢٥] ولم يحك سواه، وأورد البغوي [١٤٠/٤] هاهنا حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لَا يُنَازِعُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا أَكَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الدِّينَ) رواه البخاري [٣٣٠٩]، ومعناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم الحُصْنُ من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم، وقيل: معناه تذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكقوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾؛ أي: عن هذا القرآن، وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له.

وقوله: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْلَمْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾؛ أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾

[النحل: ٣٦]. قال مجاهد في قراءة عبد الله بن مسعود: (وَاسْأَلِ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ رُسُلَنَا)، وهكذا حكاه قتادة، والضحاك، والسدي عن ابن مسعود [الطبري ٧٧/٢٥]، وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جُمِعوا له، واختار ابن جرير الأول [٧٧/٢٥]، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عبده ورسوله موسى ﷺ، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القبط وبني إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظاماً كيده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها وضحكوا ممن جاءهم بها ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام ويتلطفون له في العبارة بقولهم: ﴿يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ﴾؛ أي: العالم، قاله ابن جرير [٨٠/٢٥]، وكان علماء زمانهم هم السحرة، ولم يكن السحر مذموماً عندهم فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم في زعمهم، ففي كل مرة يعدون موسى ﷺ إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ أَيْنِي مَفْضَلَتِي فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٣٧﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٣ - ١٣٥].

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوُا آلِيَّ لِي مَلِكٌ وَمِنْهُ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُّقَرَّنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْنَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده، أنه جمع قومه فنادى فيهم

متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾، قال قتادة: قد كانت لهم جنات وأنهار ماء [الطبري ٢٥/٨٠]، ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾؛ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك؛ يعني: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٥].

وقوله: ﴿أَمْرٌ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قال السدي: يقول بل أنا خير من هذا الذي هو مهين، وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن «أم» هاهنا بمعنى «بل».

قلت: يعني: فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام، وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً واضحاً، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة؛ ويعني: بقوله: مهين كما قال سفيان: حقير، وقال قتادة، والسدي، يعني: ضعيف، وقال ابن جرير: يعني: لا ملك له ولا سلطان ولا مال.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ يعني لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عيبى حَصِر. قال السدي: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ أي: لا يكاد يفهم، وقال قتادة، والسدي، وابن جرير: يعني: عيبى اللسان، وقال سفيان: يعني: في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فمه وهو صغير، وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق، وإنما حملة على هذا الكفر والعناد وهو ينظر إلى موسى ﷺ بعين كافرة شقية، وقد كان موسى ﷺ من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب.

وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كذب، بل هو المهين الحقير خلقة وخلقاً ودينًا، وموسى هو الشريف الصادق البار الراشد.

وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراء أيضًا فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله ﷻ أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله له ذلك في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيَْتَ سُوْرَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها، وفرعون إن كان يفهم وله عقل، فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء، وهكذا قوله: ﴿فَلَوْلَا أُلْتِمَىٰ عَلَيْهِ أَسْوَرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ وهي ما يجعل في الأيدي من الحلي. قاله ابن عباس، وقاتدة وغير واحد ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّنِينَ﴾؛ أي: يكتفونهم خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يعلم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾؛ أي: استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ اَجْمَعِينَ﴾ قال ابن عباس: آسفونا: أسخطونا، وقال الضحاك: أغضبونا، وهكذا قال ابن عباس أيضًا ومجاهد، ومحمد بن كعب القرظي وقاتدة، والسدي وغيرهم من المفسرين.

وروى ابن أبي حاتم [١٨٥١٠] عن عقبة بن عامر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: (إذا

رَأَيْتَ اللَّهَ ﷻ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا شَاءَ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِزَاجٌ مِنْهُ لَهُ، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ اَجْمَعِينَ﴾ [رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» وحسنه العراقي في تخريج الإحياء]، وروى ابن أبي حاتم [١٨٥١٣] عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله ﷺ، فذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن وحسرة على الكافر، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ اَجْمَعِينَ﴾، وقال عمر بن عبد العزيز: وجدت النعمة مع الغفلة؛ يعني: قوله: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ اَجْمَعِينَ﴾. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ قال أبو مجلز: سلفًا لمثل من عمل بعملهم، وقال هو ومجاهد: ومثلاً؛ أي: عبرة لمن بعدهم.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَوَعْلَمُ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلَيسَ ﴿٦٥﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والسدي، والضحاك: يضحكون؛ أي: أعجبوا بذلك، وقال قتادة: يجزعون ويضحكون، وقال إبراهيم النخعي: يعرضون [الطبري ٨٦/٢٥ - ٨٧].

[وقال ابن إسحاق]: يصدون عن أمرك، ثم ذكر عيسى ﷺ فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَوَعْلَمُ لِلسَّاعَةِ؛ أي: ما وضع على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: يعني: قريشاً، لما قيل لهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] إلى آخر الآيات، فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: (ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ). فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه رباً، كما اتخذت النصراني عيسى ابن مريم رباً، فقال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

وروى ابن أبي حاتم [١٨٥١٤] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِيهِ خَيْرٌ)، فقالوا له: ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من

عباد الله صالحًا، فقد كان يعبد من دون الله؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [رواه أحمد والطبراني بنحوه وسنده حسن].

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى ﷺ، ونحو هذا قتادة، وقوله: ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ قال قتادة: يقولون آلهتنا خير منه.

وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾؛ أي: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهي قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها، وقد روى الإمام أحمد [٢٢٢١٨] عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ، إِلَّا أَوْرَثُوا الْجَدَلَ)، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، وقد رواه الترمذي [٣٢٥٣]، وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾؛ يعني: عيسى ﷺ، ما هو إلا عبد من عباد الله ﷻ أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ أي: دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾؛ أي: بدلكم ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ قال السدي: يخلفونكم فيها، وقال ابن عباس ؓ وقاتدة: يخلف بعضهم بعضاً كما يخلف بعضهم بعضاً، وهذا القول يستلزم الأول، قال مجاهد: يعمرّون الأرض بدلكم [الطبري ٨٩/٢٥].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِسَاعَةَ﴾ [قال] ابن إسحاق: المراد من ذلك ما بُعث به عيسى ﷺ، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من الأسقام، وفي هذا نظر. بل الصحيح أنه عائد على عيسى ﷺ فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾؛ أي: قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، قال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِسَاعَةَ﴾؛ أي: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم ﷺ قبل يوم القيامة، وهكذا روي عن أبي هريرة [البغوي ١٤٣/٤]، وابن عباس، وأبي العالية، والحسن وغيرهم، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بنزول عيسى ﷺ قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمَرُّنَّ بِهِ﴾؛ أي: لا تشكوا فيها أنها واقعة لا محالة ﴿وَأَتَّبِعُونَّ﴾؛ أي: فيما أخبركم به ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ١١ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ؛ أي: عن اتباع الحق ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ١٢ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ؛ أي: بالنبوة ﴿وَلَا بُيِّنَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْلِفُونَ فِيهِ﴾ قال ابن جرير [٩٢/٢٥]: يعني: من الأمور الدينية لا الدنيوية، وهذا الذي قاله حسن جيد ثم رد قول من زعم أن «بعض» هاهنا بمعنى «كل».

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما جئتكم به ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ



فَاعْبُدُوهُ؛ أَي: أنا وأنتم عبيد له، فقراء مشتركون في عبادته وحده لا شريك له، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أَي: هذا الذي جئتمكم به هو الصراط المستقيم وهو عبادة الرب جل وعلا وحده.  
وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾؛ أَي: اختلفت الفرق وصاروا شيعاً فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله - وهو الحق - ومنهم من يدّعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول إنه الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ولهذا قال: ﴿قَوْلِيلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلَهِمْ﴾.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٦) ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٦٩) ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (٧٠) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَكْدُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٧١) ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٢) ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٣).

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسول ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أَي: فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم.  
وقوله: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾؛ أَي: كل صداقة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، إلا ما كان لله وَلِلَّهِ، فإنه دائم، وهذا كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام لقومه: ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ يَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين.  
وقوله: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾؛ أَي: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحم وظواهرهم.  
قال المعتمر بن سليمان عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فينادي مناد: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال: فیتبعها ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قال: فيأس الناس منها غير المؤمنين.  
﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾؛ أَي: يقال لهم ادخلوا الجنة ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾؛ أَي: نظراؤكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾؛ أَي: تتنعمون وتسعدون وقد تقدم في سورة الروم: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ﴾؛ أَي: آنية الطعام ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهي آنية الشراب؛ أَي: من ذهب لا خراطيم لها ولا غرى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ وقرأ بعضهم: «تشتهيه الأنفس». ﴿وَتَكْدُّ الْأَعْيُنُ﴾؛ أَي: طيب الطعام والريح وحسن المنظر.

﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا﴾؛ أَي: في الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾؛ أَي: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا.

ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة، ولكن بفضل الله ورحمته، وإنما الدرجات تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات. روى ابن أبي حاتم [١٨٥٢٤] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَالْكَافِرُ يَرِثُ الْمُؤْمِنَ مَنْزِلَهُ مِنَ النَّارِ، وَالْمُؤْمِنُ يَرِثُ الْكَافِرَ مَنْزِلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ) وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [ورواه أحمد وسنده جيد].

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾؛ أي: من جميع الأنواع ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي: مهما اخترتم وأردتم، ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٤) لَا يُفَرِّقُهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا بِمَلَائِكَةٍ لِّقْضِ عَلَيْنَا رَيْكٌ قَالَ إِنَّا كُنَّا نَمُوتُ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾.

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٤) لَا يُفَرِّقُهُمْ عَنْهُمْ؛ أي: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾؛ أي: آيسون من كل خير. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد. ﴿وَنَادَوْا بِمَلَائِكَةٍ لِّقْضِ عَلَيْنَا رَيْكٌ﴾؛ أي: يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك ﴿قَالَ إِنَّا كُنَّا نَمُوتُ﴾ قال ابن عباس: مكث ألف سنة ثم قال: إنكم ما كنتم [الحاكم/ ٣٦٧٧]؛ أي: لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها، ثم ذكر سبب شقوتهم، وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾؛ أي: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتآباه وتبغض أهله، فعودوا على أنفكسهم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ قال مجاهد: أرادوا كيد شر، فكدناهم، وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله تعالى ورد وبال ذلك عليهم، ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾؛ أي: سرهم وعلانيتهم ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾؛ أي: نحن نعلم ما هم عليه والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ (٨١) سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ .

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: لو فرض هذا لعبده على ذلك؛ لأنني عبد من عبيده مطيع لجميع ما يأمرني به ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضًا، كما قال عيسى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وقال بعض المفسرين في قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: الآنفين، ومنهم سفيان الثوري، والبخاري حكاه [٥٤٢] فقال: ويقال أول العابدين: الجاحدين، من عبد يعبد، وهذا القول فيه نظر؛ لأنه كيف يلتزم مع الشرط فيكون تقديره إن كان هذا فأنا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر فليتأمل. اللهم إلا أن يقال: «إن» ليست شرطًا، وإنما هي نافية، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ يقول: لم يكن للرحمن ولد، فأنا أول الشاهدين، وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب؛ أي: إن ذلك لم يكن فلا ينبغي، وقال أبو صخر: أي: فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال مجاهد: أي: أول من عبده ووحده وكذبكم، والأول أقرب على أنه شرط وجزاء ولكن هو ممتنع، وقال السدي: يقول: لو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولدًا ولكن لا ولد له، وهو اختيار ابن جرير ورد قول من زعم أن «إن» نافية، ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفاء له فلا ولد له.

وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا﴾؛ أي: في جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة؛ أي: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾؛ أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض يعبده أهلها، وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]؛ أي: هو المدعو الله في السموات والأرض.

﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: هو خالقهما ومالكهما، والمتصرف

فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك؛ أي: استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنَّه الرب العلي العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمة الأمور نقضًا وإبرامًا. ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ أي: لا يجليها لوقتها إلا هو ﴿وَالَّذِي تَرْجَعُونَ﴾؛ أي: فيجازي كلاً بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾؛ أي: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَعَةَ﴾؛ أي: لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذا استثناء منقطع؛ أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنَّه تنفع شفاعته عنده بإذنه له، ثم قال: ﴿وَلَكِن سَأَلْنَهُمْ﴾؛ أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾؛ أي: هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون مع غيره ممن لا يملك شيئًا ولا يقدر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل، ولهذا قال: ﴿فَأَن يُّؤْفَكُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَقِيلَ يٰرَبِّ إِنَّا هَنَآءَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: وقال محمد قيله؛ أي: شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يا رب إن هؤلاء لا يؤمنون، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يٰرَبِّ إِنَّا قَوْمٌ اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وهذا الذي قلناه هو قول ابن مسعود رضي الله عنه، ومجاهد، وقتادة، وعليه فسر ابن جرير [١٠٦/٢٥]. قال البخاري [٤٥٤٢]: ﴿وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ يعني: ابن مسعود: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يٰرَبِّ﴾، وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقِيلَ يٰرَبِّ إِنَّا هَنَآءَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: فأبر الله قول محمد ﷺ.

وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه ﷻ، ثم حكى ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يٰرَبِّ قَرَأْتَيْنِ إِحْدَاهُمَا النَّصْبَ، وَلَهَا تَوَجِيهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿تَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾، والثاني أن يقدر فعل، وقال قيله. والثانية: الخفض، وقيله عطفاً على قوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ وتقديره وعلم قيله.

وقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: المشركين ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾؛ أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم، ولهذا أحلَّ بهم بأسه الذي لا يرد وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب.



## تفسير سورة الرحمان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝٧ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

يقول تعالى مخبرًا عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقد ذكرنا في الأحاديث الواردة في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان، والحديث الذي رواه عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس قال: إن رسول الله ﷺ قال: (تُقَطَّعُ الْأَجَالُ مِنْ شَعْبَانَ إِلَى شَعْبَانَ، حَتَّىٰ إِنْ الرَّجُلَ لَيَنْكِحُ وَيُولِدُ لَهُ، وَقَدْ أُخْرِجَ اسْمُهُ فِي الْمَوْتَى) [رواه الطبري في «التفسير» ١٠٩/٢٥] حديث مرسل ومثله لا يعارض به النصوص.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾؛ أي: معلمين ما ينفعهم ويضرهم شرعًا لتقوم حجة الله على عباده.

وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها، وهكذا روي عن ابن عمر، ومجاهد، وأبي مالك، والضحاك وغير واحد من السلف [ينظر: البغوي ٤/١٤٨].

وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾؛ أي: محكم لا يبدل ولا يغير، ولهذا قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾؛ أي: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوجهه فبأمره وإذنه وعلمه ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾؛ أي: إلى الناس رسولًا يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه، ولهذا قال: ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: الذي أنزل القرآن وهو رب السموات والأرض وخالقها ومالكها وما فيها ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾؛ أي: إن كنتم متحققين، ثم قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿١٥٨﴾. الآية [الأعراف: ١٥٨].

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَتَىٰ هُمْ الذِّكْرُ وَفَدَّ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون؛ أي: قد جاءهم اليقين، وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به، ثم قال متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

قال ابن مسعود [كما روى الطبري ١١١/٢٥]: إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان، وفي رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد.

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله استسقى الله لمضر، فإنها قد هلكت، فاستسقى ﷺ لهم فسفؤوا، فنزلت: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ قال ابن مسعود: أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﷻ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ قال: يعني يوم بدر، قال ابن مسعود: فقد مضى خمسة: الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام، وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين» [البخاري/٤٤٨٩ ومسلم/٢٧٩٨]، وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعطية العوفي، وهو اختيار ابن جرير.

وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد بل هو من أمارات الساعة كما في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال ﷺ: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالِدُّخَانُ، وَالذَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَالذَّجَالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالشَّمْرِ، وَخَسْفٌ بِالشَّجَرِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَسُوقُ النَّاسَ أَوْ تَحْشُرُ النَّاسَ - تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا). تفرد بإخراجه مسلم [٢٩٠١ بنحوه]، وفي «الصحيحين» [البخاري/١٢٨٩ ومسلم/٢٩٢٤] أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد: (إِنِّي خَبَأْتُ لَكَ خَبَأً) قال: هو الدُّخَانُ، قال ﷺ: (اِخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَكَ). قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يُقرطمون العبارة، ولهذا قال هو الدخ؛ يعني: الدخان، فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية فقال ﷺ: (اِخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَكَ).

وروى ابن جرير [١١٣/٢٥] عن عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات

يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لِمَ؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتى أصبحت، وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وإسناده صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان مما فيه مقنع، ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن.

قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: بين واضح يراه كل أحد، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه: إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد، وهكذا قوله تعالى: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾؛ أي: يتغشاهم ويغهمهم، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾.

وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً، كقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [١٢] هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ [الطور: ١٣، ١٤]، أو يقول بعضهم لبعض ذلك.

وقوله: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله: ﴿وَأَذِثْ لِّلنَّاسِ يَوْمَ يُأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرًا إِلَّا أَجَلٌ قَرِيبٌ يُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وهكذا قال ههنا: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [١٣] ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ. يقول: كيف لهم بالتذكر، وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والندارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقه بل كذبوه، وقالوا معلم مجنون، وهذا كقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكَرُ الْإِنْسَانُ أَنَّ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [١٣] يَقُولُ يَلَيِّنَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي [الفجر: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أنه يقول تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ لَعَادُوا لِمَا هُؤُلَاءُ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]. والثاني: أن يكون المراد إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمررون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُّؤْسَرُونَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [برنس: ٩٨]، ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم بل كان قد انعقد سببه عليهم، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب عليه السلام: ﴿أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ إِذْ أَخْرَجْتَهُم مِّنْ قَرْيَتِهِمْ أَنِ امْشُوا إِلَىٰ قَرْيَتِكُمْ وَلَا تَقْرَبُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَبَصُرَتِهَا أَعْيُنُنَا وَقَدْ رَأَيْنَا عَلَيْهَا آيَاتِنَا عَلَيْهِ سَبْعَ مَائَةٍ وَهِيَ خَالِدَةٌ فِي عَذَابِنَا لِمَن يُصْرَفْ عَنْهَا فَاذْهَبْ إِلَىٰ قَرْيَتِكَ مَعَ آلِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَدَعْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَبَصُرَتِهَا أَعْيُنُنَا وَقَدْ رَأَيْنَا عَلَيْهَا آيَاتِنَا عَلَيْهِ سَبْعَ مَائَةٍ وَهِيَ خَالِدَةٌ فِي عَذَابِنَا لِمَن يُصْرَفْ عَنْهَا فَاذْهَبْ إِلَىٰ قَرْيَتِكَ مَعَ آلِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَدَعْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَبَصُرَتِهَا أَعْيُنُنَا وَقَدْ رَأَيْنَا عَلَيْهَا آيَاتِنَا عَلَيْهِ سَبْعَ مَائَةٍ وَهِيَ خَالِدَةٌ فِي عَذَابِنَا لِمَن يُصْرَفْ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم، وقال قتادة: إنكم عائدون إلى عذاب الله [الطبري ١١٦/٢٥].

وقوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر، وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم، وروي أيضاً عن

ابن عباس، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، وجماعة وهو محتمل، والظاهر أن ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضًا. روى ابن جرير [١١٢/٢٥] عن ابن عباس قال: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر وأنا أقول هي يوم القيامة، وإسناده صحيح عنه وبه يقول الحسن البصري، وعكرمة في أصح الروايتين عنه، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدَ اللَّهِ إِيَّيْكُمْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّيْكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٩﴾ وَإِيَّيْ عُدَّتْ يَدَايَ رَبِّي وَرَيْكُزُ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرَعَ بِعَادَى لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَفُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِينٌ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيلًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَيْنَاهُم مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ بَلَكُوًا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى: ولقد اخترنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾؛ يعني: موسى كليمه عليه السلام ﴿أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدَ اللَّهِ﴾ كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا نُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ شَيْئًا مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧].

وقوله: ﴿إِيَّيْكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ أي: مأمون على ما أبلغكموه، وقوله: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: لا تستكبروا عن اتباع آياته والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿إِيَّيْكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بحجة ظاهرة واضحة وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات والبيانات والأدلة القاطعات.

﴿وَإِيَّيْ عُدَّتْ يَدَايَ رَبِّي وَرَيْكُزُ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشتم، وقال قتادة: الرجم بالحجارة [الطبري ١١٩/٢٥ - ١٢٠]؛ أي: أعود بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل. ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ﴾؛ أي: فلا تتعرضوا إلي، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا، فلما طال مقامه عليه السلام بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا [يونس: ٨٨، ٨٩]، وهكذا قال ههنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه، ولهذا قال: ﴿فَأَسْرَعَ بِعَادَى لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا



إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا يَخْشَى ﴿طه: ٧٧﴾.

وقوله ها هنا: ﴿وَأَتْرَكُ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ وذلك أن موسى ﷺ لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلًا بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكنًا وبشره بأنهم جند مغرقون فيه وأنه لا يخاف دركًا ولا يخشى، وقال ابن عباس: ﴿وَأَتْرَكُ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾ كهيئته وامضه، وقال مجاهد: رهوًا طريقًا يبسًا كهيئته. يقول: لا تأمره يرجع اتركه حتى يرجع آخرهم، وكذا قال عكرمة، وقتادة، وابن زيد وغير واحد [الطبري ١٢٢/٢٥]. ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَهِيَ الْبُسَاتِينُ ﴿١٥﴾ زُرُوعٌ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهي المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة، وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ المنابر.

﴿وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِنَ﴾؛ أي: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلموا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]، وقال ها هنا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وهم بنو إسرائيل كما تقدم.

وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾؛ أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم.

وعن علي قال: إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض، ومصعد عمله من السماء، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء، ثم قرأ علي ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ وعن ابن عباس نحوه [ابن أبي حاتم/ ١٨٥٥١].

وعن ابن عباس ﷺ قال: كان يقال تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحًا، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير وغير واحد [الطبري ١٢٥/٢٥]، وقال قتادة: كانوا أهون على الله ﷻ من أن تبكي عليهم السماء والأرض.

وعن يزيد بن أبي زياد قال: لما قتل الحسين بن علي ﷺ احمرت آفاق السماء أربعة أشهر، قال يزيد: واحمرارها بكاؤها، وهكذا قال السدي الكبير، وقال عطاء الخراساني: بكاؤها أن تحمر أطرافها، وذكروا أيضًا في مقتل الحسين ﷺ أنه ما قلب حجر يومئذٍ إلا وجد تحته دم عبيط [الطبراني في «الكبير»/ ٢٨٣٤]، وأنه كسفت الشمس واحمر الأفق وسقطت حجارة، وفي كل من ذلك نظر، والظاهر أنه من سُخِفَ الشيعة وكذبهم ليعظموا الأمر - ولا شك أنه عظيم -، ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسين ﷺ ولم يقع شيء مما ذكروه، فإنه قتل أبوه علي بن أبي طالب ﷺ وهو أفضل منه بالإجماع، ولم يقع شيء من ذلك، وعثمان بن عفان ﷺ قتل محصورًا مظلومًا، ولم يكن شيء من ذلك، وعمر بن

الخطاب ﷺ قتل في المحراب في صلاة الصبح، وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك ولم يكن شيء من ذلك، وهذا رسول الله ﷺ، وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة، يوم مات لم يكن شيء مما ذكره، ويوم مات إبراهيم ابن النبي ﷺ خسفت الشمس، فقال الناس: خسفت لموت إبراهيم! فصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته. [البخاري/٩٩٦ ومسلم ٩١١].

**وقوله:** ﴿وَلَقَدْ جِئْنَا بِنَبِيٍّ إِبْرَاهِيمَ مِنْ آلِ عَادٍ الْهَيْهَاتَ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيرهم إياهم في الأعمال المهينة الشاقة.

**وقوله:** ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾؛ أي: مستكبرًا جبارًا عنيدًا كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤٤]، **وقوله:** ﴿وَلَقَدْ أَخْرَجْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ قال مجاهد: ﴿أَخْرَجْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ على من هم بين ظهريه، وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك، وكان يقال: إن لكل زمان عالماً، وهذه كقوله: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]؛ أي: أهل زمانه، وكقوله لمريم: ﴿وَاصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]؛ أي: في زمانها، فإن خديجة أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها في الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

**وقوله:** ﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ﴾؛ أي: الحجاج والبراهين وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ۖ إِنَّا هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْزَرِينَ ۚ﴾ ﴿٣٥﴾ فَأَتُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّ كُنُوزَ صَدِيقِينَ ۚ ﴿٣٦﴾ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۚ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى منكرًا على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور، ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا فإن كان البعث حقًا ﴿فَأَتُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّ كُنُوزَ صَدِيقِينَ﴾ وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها، يعيد الله العالمين خلقًا جديدًا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودًا، ثم قال تعالى متهددًا لهم، ومتوعدًا ومنذرًا لهم بأسه الذي لا يرد، كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع، وهم سبأ، حيث أهلكهم الله وخرب بلادهم وشردهم في البلاد وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مُصَدَّرَةٌ بإنكار المشركين للمعاد، وكذلك هاهنا شبههم بأولئك وقد كانوا عربًا من قحطان، كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت حمير وهم سبأ كلما ملك فيهم رجل سموه تَبَعًا، كما يقال كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافرًا، والنجاشي لمن ملك الحبشة وغير ذلك من أعلام الأجناس.

وقال سعيد بن جبير: كسا تُبَعُّ الكعبة، وكان سعيد ينهى عن سبه، وتبع هذا هو تبع الأوسط، واسمه أسعد اليماني، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستاً وعشرين سنة، ولم يكن في حمير أطول مدة منه، وتوفي قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة سنة.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، ثم قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة، يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين.

وقوله: ﴿مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾؛ أي: لا ينفع قريب قريباً كقوله: ﴿وَلَا يَنْتَلِ حِمِيٌّ حِمِيًّا﴾ ﴿يُصْرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠]، [١١]؛ أي: لا يسأل أحداً له عن حاله وهو يراه عياناً.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصره من خارج، ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾؛ أي: لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله ﷻ بخلقه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾؛ أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَاَعْتَْلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾؛ أي: في قوله وفعله، وهو الكافر، وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصة به. روى ابن جرير [١٣١/٢٥] أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء ﷺ: قل إن شجرة الزقوم طعام الفاجر؛ أي: ليس له طعام غيرها، قال مجاهد: ولو وقعت قطرة منها في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معاشهم.

وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾؛ أي: من حرارتها ورداءتها، وقوله: ﴿خَذُوهُ﴾؛ أي: الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية خذوه ابتدره سبعون ألفاً منهم، وقوله: ﴿فَاَعْتَْلُوهُ﴾؛ أي: سقوه سحاً ودفعاً في ظهره، قال مجاهد: ﴿خَذُوهُ فَاَعْتَْلُوهُ﴾؛ أي: خذوه فادفعوه.

﴿إِلَى سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: وسطها ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾، كقوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾؛ أي: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ، وعن ابن عباس: أي: لست بعزيز ولا كريم.

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾، كقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحَرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣ - ١٥]، ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوتٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَعَهُمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَتَرْنَهُ لِسَانُكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ولهذا سمي القرآن مثاني، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الله في الدنيا ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾؛ أي: في الآخرة وهو الجنة، قد آمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيد، وسائر الآفات والمصائب ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوتٍ﴾ وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم.

وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ﴾ وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش وما يلبس على أعالي القماش ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾؛ أي: على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره. وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾؛ أي: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين اللاتي ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْنَّ فَبَلَّهِنَّ وَلَا جُنَّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، ﴿كَانَ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِنِينَ﴾؛ أي: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا، وقوله: ﴿لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ هذا استثناء يؤكد النفي، فإنه استثناء منقطع، ومعناه أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً كما ثبت في «الصحاحين» أن رسول الله ﷺ قال: (يُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يُدْبِحُ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ) [البخاري/٤٤٥٣ بنحوه ومسلم/٢٨٤٩ بنحوه أيضاً]، وعن أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: (يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا

أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا) رواه مسلم [٢٨٣٧].

وروى أبو بكر البزار في «مسنده» عن جابر رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله: هل ينام أهل الجنة؟ قال ﷺ: (لَا، النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ) [رواه الطبراني في «الأوسط»/٩١٩، وقال الهيثمي في «المجمع»: رجاله رجال الصحيح].

وقوله: ﴿وَوَقَّهْمَ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب ونجاهم من المرهوب، ولهذا قال: ﴿فَضَلَّا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾؛ أي: إنما كان هذا بفضلهم وإحسانه إليهم كما ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (اعْمَلُوا وَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَدْخُلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: (وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ) [رواه مسلم نحوه/٢٨١٦].

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأعلاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: يتفقهون ويعلمون، ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند قال الله تعالى لرسوله ﷺ مسلياً له وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك: ﴿فَارْتَقِبْ﴾؛ أي: انتظر ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾؛ أي: فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد وإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١].



## تفسير سورة الجاثية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾  
وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ  
مِنْ رِّزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ .

يرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيها من المخلوقات المختلفة من الملائكة والجن والإنس والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضياءه، وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماء رزقاً؛ لأن به يحصل الرزق ﴿فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: بعدما كانت هامدة لا نبات فيها، وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾؛ أي: جنوباً وشمالاً، ودبوراً وصباً، برية وبحرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج، وقال أولاً: ﴿لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ﴾، ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾، ثم ﴿يعْقِلُونَ﴾ وهو ترق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتُهُ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآيِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَرٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ .

يقول تعالى: هذه آيات الله؛ يعني: القرآن بما فيه من الحجج والبيانات، ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ ثم قال: ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾؛ أي: أفاك في قوله كذاب، حلاف مهين أثيرم في فعله وقيله كافر بآيات الله، ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ﴾؛

أَي: تَقْرَأُ عَلَيْهِ ﴿ثُمَّ يُصْرَفُ﴾؛ أَي: عَلَى كَفَرِهِ وَجُحُودِهِ اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا ﴿كَأَن لَّوْ يَسْمَعُهَا﴾؛ أَي: كَأَنَّهُ مَا سَمِعَهَا ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أَي: فَأَخْبِرْهُ أَنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابًا أَلِيمًا مُّوجِعًا.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذََهَا حُزُونًا﴾؛ أَي: إِذَا حَفِظَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ كَفَرَ بِهِ وَاتَّخَذَهُ سَخِرِيًّا وَهَزُورًا، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أَي: فِي مَقَابِلَةِ مَا اسْتَهَانَ بِالْقُرْآنِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ، ثُمَّ فَسَّرَ الْعَذَابَ الْحَاصِلَ لَهُ يَوْمَ مَعَادِهِ فَقَالَ: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أَي: كُلٌّ مِنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ سَيَصِيرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾؛ أَي: لَا تَنْفَعُهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ﴾؛ أَي: وَلَا تَغْنِي عَنْهُمْ الْآلِهَةُ الَّتِي عَبْدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾؛ يَعْنِي: الْقُرْآنَ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبَتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وَهُوَ الْمُؤْلَمُ الْمَوْجِعُ.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣) ﴿قُلِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥).

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعْمَهُ عَلَى عِبِيدِهِ فِيمَا سَخَّرَ لَهُمُ مِنَ الْبَحْرِ ﴿لِيَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾ وَهِيَ السَّفِينُ ﴿فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ تَعَالَى، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَ الْبَحْرَ بِحَمْلِهَا ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أَي: فِي الْمَتَاجِرِ وَالْمَكَاسِبِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أَي: عَلَى حَصُولِ الْمَنَافِعِ الْمَجْلُوبَةِ مِنَ الْأَقَالِيمِ النَّائِيَةِ وَالْآفَاقِ الْقَاصِيَةِ، ثُمَّ قَالَ ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أَي: مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَجَمِيعِ مَا تَنْتَفِعُونَ بِهِ؛ أَي: الْجَمِيعِ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾؛ أَي: مِنْ عِنْدِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَٰلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾؛ أَي: لِيَصْفَحُوا عَنْهُمْ وَيَحْتَمِلُوا الْأَذَى مِنْهُمْ وَكَانَ هَذَا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، أَمَرُوا أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ لِيَكُونَ ذَلِكَ كَالْتَأْلِيفِ لَهُمْ، ثُمَّ لَمَّا أَصْرُوا عَلَى الْعِنَادِ شَرَعَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْجِلَادَ وَالْجِهَادَ. هَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ وَقَتَادَةَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لَا يَنَالُونَ نِعْمَ اللَّهِ تَعَالَى [الطبري ١٤٤/٢٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أَي: إِذَا صَفَحُوا عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ مُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ السَّيِّئَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ أَي: تَعُودُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَعْرَضُونَ بِأَعْمَالِكُمْ عَلَيْهِ فَيَجْزِيكُمْ خَيْرَهَا وَشَرَهَا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَفَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَعَآيَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَفَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾؛ أي: من المأكول والمشرب، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: في زمانهم ﴿وَعَآيَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾؛ أي: حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج ثم اختلفوا من بعد قيام الحجة، وإنما كان بغياً منهم على بعضهم بعضاً، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾؛ أي: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين، وقال ها هنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾؛ أي: وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضاً، فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، ثم قال: ﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ﴾؛ يعني: القرآن ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال ها هنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: عملوها وكسبوها ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ﴾؛ أي: نسأويهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نسأوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة وفي هذه الدار.

وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب «السيرة» أنهم وجدوا حجراً بمكة في أس الكعبة



مكتوبًا عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل كما يجنى من الشوك العنب، وقد روى الطبراني [في «الكبير»/١٢٥٠] أن تميمًا الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وقال: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل ﴿وَلَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى﴾؛ أي: إنما يأتمر بهواه، فما رآه حسنًا فعله وما رآه قبيحًا تركه، وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين، وعن مالك فيما روي عنه من التفسير: لا يهوى شيئًا إلا عبده.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل قولين: أحدهما: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه، والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس. ﴿وَوَخَّمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْنَوَةً﴾؛ أي: فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئًا يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا هَادِي لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤) وإذا نزلت عليهم آياتنا بينت ما كانوا يحجهم إلا أن قالوا آتُونَا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم مِّمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦).

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ أي: يتوهمون ويتخيلون.

فأما الحديث الذي أخرجه صاحبها الصحيح [البخاري/٤٥٤٩ ومسلم/٢٢٤٦] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يَقُولُ تَعَالَى: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أَقْلُبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ)، وفي رواية: (لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ) [مسلم/٢٢٤٦]. فقال الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ: (لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ): كانت العرب في جاهليتهم إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، فينسبون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله فكأنهم إنما سبوا الله ﷻ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نُهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله تعالى هو الدهر

الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال، هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد، والله أعلم، وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدّهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذًا من هذا الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُفِثَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَنْتَفِرُوا﴾؛ أي: إذا استدل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَنُوءُ يَتَابِئَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقًا.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]؛ أي: الذي قدر على البداء قادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى.

﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: إنما يجمعكم إلى يوم القيامة لا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا ﴿أَتَنُوءُ يَتَابِئَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْحُجَّةِ﴾ [التغابن: ٩] ﴿لَا يَوْمَ يَوْمٍ أَهْلَتْ﴾ ﴿يَوْمَ الْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ١٢، ١٣]، وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شك فيه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فلهذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الأجساد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧]؛ أي: يرون وقوعه بعيدًا والمؤمنون يرون ذلك سهلًا قريبًا.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿وَرَأَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً﴾ ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وهم الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البيّنات والدلائل الواضحات.

وقال ابن أبي حاتم: قدم سفيان الثوري المدينة فسمع المعافري يتكلم ببعض ما يضحك به الناس، فقال له: يا شيخ أما علمت أن الله تعالى يومًا يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تعرف في المعافري حتى لحق بالله ﷻ. ثم قال: ﴿وَرَأَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً﴾؛ أي: على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا إذا جيء بهنم فإنها تزفر زفرة، لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسي نفسي نفسي! لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك إلا نفسي لا أسألك مريم التي ولدتنني. قال مجاهد، وكعب الأحبار والحسن البصري: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً﴾؛ أي: على الركب، وقال عكرمة: جائية متميزة على ناحيتها وليس على الركب، والأول أولى.

وقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾؛ يعني: كتاب أعمالها، كقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَهُ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ﴾ [الزمر: ٦٩]، ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: تجازون بأعمالكم

خيرها وشرها، كقوله: ﴿يَبْنُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (١٣) ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (١٤) ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِرُهُ﴾ [القيامة: ١٣ - ١٥]، ثم قال: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبْدِلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ مُلَاحِظًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم.

قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين في ديوان الأعمال على ما بأيدي الكتبة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقه فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (٢٠) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٢١) ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ (٢٢) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٢٣) ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا الْقَوْمَ الَّذِي كَفَرَ فَأَصْبَحُوا دُخَانًا وَمَا يَكُونُ إِلَّا لَهْزًا مَّجْمُومًا﴾ (٢٤) ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَوْنَهَا كَلِمَةً طَيِّبَةً قَالِیَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ﴾ (٢٥) ﴿فَلِلَّهِ الْمَعَادُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٦) ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَّاتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧).

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وهي الجنة، كما ثبت في «الصحيح» أن الله تعالى قال للجنة: (أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ) [البخاري/٤٥٦٩ ومسلم/٢٨٤٦]. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: البين الواضح.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً: أما قرئت عليكم آيات الله تعالى فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند سماعها، وكنتم قوماً مجرمين في أفعالكم مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾؛ أي: إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾؛ أي: لا نعرفها ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾؛ أي: إن نتوهم وقوعها إلا توهماً؛ أي: مرجوحاً، ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾؛ أي: بمتحققين.

قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾؛ أي: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿وَحَاقَ

﴿يَوْمَ﴾؛ أي: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أي: من العذاب والنكال ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْكَرُكُمْ كَمَا نَسَكَّرْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾؛ أي: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَا وَكُنَّا أَنْتَارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾.

وقد ثبت في «صحيح [مسلم/٢٩٦٨]» أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: (أَلَمْ أُزَوِّجْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَدْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعٌ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَالْيَوْمَ أَنَسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي).

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ هُرُوقًا﴾؛ أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء؛ لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرًا تسخرون وتستهزؤون بها ﴿وَعَزَّزْتُكُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: خدعتكم فاطمأنتم إليها فأصبحتم من الخاسرين، ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ﴾؛ أي: لا يطلب منهم العتبي بل يعذبون بغير حساب ولا عتبي، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب، ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين، قال: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾؛ أي: المالك لهما وما فيهما، ولهذا قال: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ثم قال: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: يعني: السلطان؛ أي: هو العظيم الممجّد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه، وقد ورد في الحديث الصحيح: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: الْعَظَمَةُ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَارَعَني وَاحِدًا مِنْهُمَا أَسْكَنَتْهُ نَارِي)، ورواه مسلم [٢٦٢٠] عن أبي هريرة، وأبي سعيد رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ بنحوه، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: الذي لا يغالب ولا يمانع ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالى وتقدس لا إله إلا هو.



## تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ﴾ ١ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ٣ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ٤ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٥ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ٦ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ٧ .

يخبر تعالى أنه نزل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: لا على وجه العبث والباطل ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: لا هون عما يراد بهم، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتاباً وأرسل إليهم رسولاً، وهم معرضون عن ذلك كله؛ أي: وسيعلمون غيب ذلك، ثم قال: ﴿قُلْ﴾؛ أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾؛ أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض وما يملكون من قطير، إن الملك والتصرف كله إلا لله وتعالى، فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾؛ أي: هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: لا دليل لكم لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك، ولهذا قرأ آخرون: ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: أو علم صحيح ياثرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أو أحد يأثر علماً، وعن ابن عباس: أو بينة من الأمر، وروى الإمام أحمد [١٩٩٢] عن

ابن عباس عن النبي ﷺ: (أَوْ أَثَرُهُ مِنْ عِلْمٍ) قال: (الْخَطُّ) [سند صحيح]، وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم، وقال الحسن البصري: شيء يستخرجه فيثبته، وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضاً: يعني: الخط، وقال قتادة: خاصة من علم، وكل هذه الأقوال متقاربة، وهي راجعة إلى ما قلناه وهو اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ وأكرمه وأحسن مثواه [٢٦/٣].

**وقوله:** ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾؛ أي: لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناماً، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش؛ لأنها جماد حجارة صم، **وقوله:** ﴿وَإِذَا خَرَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، كقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مریم: ٨١، ٨٢]؛ أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٩).

يقول ﷺ مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم: أنهم إذا تلى عليهم آيات الله بينات؛ أي: في حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: سحر واضح، وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون محمداً ﷺ. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرني منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾ (٢٣) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتٍ [الجن: ٢٢، ٢٣]، ولهذا قال ها هنا: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ هذا تهديد ووعيد أكيد وترهيب شديد.

**وقوله:** ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة؛ أي: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر ورحم، وهذه الآية كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَتُطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِّبَتْهَا فِيهِ تُمْلِكُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا [الفرقان: ٥، ٦].

**وقوله:** ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾؛ أي: لست بأول رسول طرق العالم، بل جاءت الرسل من قبلي فما بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكرونني وتستبعدوا بعثتي إليكم فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿قُلْ مَا

كُنْتُ يَدْعَا مِنَ الرُّسُلِ ﴿١﴾ ما أنا بأول رسول، ولم يحك ابن جرير [٦/٢٦] ولا ابن أبي حاتم [١٨٥٦٥] غير ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾ قال ابن عباس في هذه الآية: نزل بعدها ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادة: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله تعالى، ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿يَدْخُلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح: ٥]. هكذا قال، والذي هو ثابت في «الصحيح» [عند البخاري بنحوه/٢٩٣٩] أن المؤمنين قالوا: هنيئًا لك يا رسول الله فما لنا؟ فأنزل الله هذه الآية، وقال الضحاك: ما أدري بماذا أومر وبماذا أنهى بعد هذا؟ وعن الحسن البصري قال: أما في الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلي؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو تُرمون بالحجارة؟ وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير وأنه لا يجوز غيره ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا، أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٧٤٩٧] عن أم العلاء، وكانت بايعت رسول الله ﷺ قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون ﷺ فاشتكى عثمان عندنا فمرّضناه، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله ﷻ فقال رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَكْرَمَهُ؟﴾، فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله ﷺ: ﴿أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْبَقِيْنُ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهُ مَا أَدْرِ وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا يَفْعَلُ بِي﴾. قالت: والله لا أركي أحداً بعده أبداً وأحزنني ذلك فنمت، فرأيت لعثمان ﷺ عيناً تجري، فجنّت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ذَاكَ عَمَلُهُ﴾ فقد انفرد بإخراجه البخاري [٦٦١٥] دون مسلم، وفي لفظ له [٣٧١٤]: ﴿مَا أَدْرِ وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا يَفْعَلُ بِهِ﴾ وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها فأحزنني ذلك، وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذين نص الشارع على تعيينهم كالعشرة وابن سلام والغُميصاء وبلال وسراقه، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة وجعفر، وابن رواحة وما أشبه هؤلاء.

وقوله: ﴿إِنْ أَنْجَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾؛ أي: إنما أتبع ما ينزله الله علي من الوحي، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بين النذارة، أمرى ظاهر لكل ذي لب وعقل.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَتَمَنَّوْا أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاطِلِينَ﴾ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ فَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ .

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾؛ أي: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتم به قد أنزله علي لأبلغكموه، وقد كفرتم به وكذبتموه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾؛ أي: وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به.

وقوله: ﴿فَتَمَنَّوْا﴾؛ أي: هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿وَأَسْتَكَرَّكُمْ﴾ أنتم عن اتباعه، وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاطِلِينَ﴾، وهذا الشاهد اسم جنس يعمر عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام، وهذه كقوله: ﴿وَإِذَا يَنْتَلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [الفصل: ٥٣]. قال مسروق، والشعبي: ليس بعبد الله بن سلام هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة، واختاره ابن جرير، وروى مالك عن سعد [بن أبي وقاص] قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ رواه البخاري [٣٦٠١]، ومسلم [٢٤٨٣ نحوه]، وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام وهلال بن يساف، والسدي، والثوري ومالك بن أنس، وابن زيد كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾؛ أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه؛ يعنون: بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضي الله عنهم، وأشباههم وأضربهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية، وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً وأخطأوا خطأ بيناً، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ خَيْرًا مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]؛ أي: يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا، ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وأما أهل السنة والجماعة، فيقولون: في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها.



وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْدُوا بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن ﴿فَسَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾؛ أي: كذب قديم؛ أي: مأثور عن الناس الأقدمين فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ: (بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ) [رواه مسلم/٩١]، ثم قال: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾؛ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾؛ أي: لما قبله من الكتب ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: فصيحًا بليًا واضحًا ﴿لِنُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَنُشْرِيَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ تقدم تفسيرها في سورة حم السجدة، وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: فيما يستقبلون ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفهم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسُبُوغها عليهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٥) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٦).

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَاهَهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا﴾؛ أي: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما، وروى أبو داود الطيالسي [٢٠٨] عن سعد [بن أبي وقاص] قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين فلا آكل طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى تكفر بالله، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاهما بالعصا، ونزلت هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية [العنكبوت: ٨]، ورواه مسلم [١٧٤٨]، وأهل السنن إلا ابن ماجه نحوه وأطول منه. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾؛ أي: قاست بسببه في حملة مشقة وتعبًا من وحم وغثيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾؛ أي: بمشقة أيضًا من الطلق وشدته ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾.

وقد استدل علي ﷺ بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوي وصحيح، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم، وعن ابن عباس: قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهرًا، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرًا، وإذا وضعته لسته أشهر فحولين كاملين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾؛ أي: قوي

وشب وارجل. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾؛ أي: تنهى عقله وكمل فهمه وحلمه، ويقال: إنه لا يتغير غالبًا عما يكون عليه ابن الأربعين.

وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمي أحد أمراء بني أمية بدمشق تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياة من الناس، ثم تركتها حياة من الله ﷻ.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾؛ أي: ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾؛ أي: في المستقبل ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾؛ أي: نسلي وعقبني ﴿إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله ﷻ ويعزم عليها.

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾؛ أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله تعالى المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل.

﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾؛ أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله ﷻ من تاب إليه وأتاب، ولهذا قال: ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

وروى ابن أبي حاتم [١٨٥٧١] عن محمد بن حاطب قال: لقد شهدت أمير المؤمنين عليًا رضي الله عنه، وعنده عمار وصعصة والأشتر ومحمد بن أبي بكر رضي الله عنهم، فذكروا عثمان رضي الله عنه فقالوا منه، فكان علي رضي الله عنه على السرير ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم، فسألوه فقال علي: كان عثمان من الذين قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ قال: والله عثمان وأصحاب عثمان رضي الله عنهم، قالها ثلاثًا.

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihan اللهَ وَيَلَكَّ ءامِنٌ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنَىٰ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِيرِينَ ﴿٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلُهُمْ مِمَّا عَمِلُوا وَلِبَؤُسِهِمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْبَهُمْ طَبَنُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُخْرَجُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿١٠﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز، والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمَا﴾ وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم، وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه.

وإنما هذا عام في كل من عاق والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه ﴿أَفِ لَكُمَا﴾ عقهما.

وروى البخاري [٤٥٥٠] عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة رضي الله عنها فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ أَفِي لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ فقالت عائشة رضي الله عنها من وراء الحجاب: ما أنزل الله تعالى فينا شيئا من القرآن إلا أن الله تعالى أنزل عذري.

وقوله: ﴿أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾؛ أي: أبعث ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾؛ أي: قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر ﴿وَهُمَا يَسْتَعِينَانِ اللَّهَ﴾؛ أي: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما ﴿وَبِكَ أَمِنَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾؛ أي: دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم، من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك. وقال الحسن وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث.

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ تَمَّا عَمِلُوا﴾؛ أي: لكل عذاب بحسب عمله ﴿وَلِيُؤْيِيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفلا ودرجات الجنة تذهب علوا، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَهَبَتُمْ طَبِيبَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْعَمْتُمْ بِهَا﴾؛ أي: يقال لهم ذلك تقريبا وتوبيخا، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طبقات المأكّل والمشارب، وتنزه عنها ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم وقرّعهم: ﴿أَدَهَبَتْ طَبِيبَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْعَمْتُمْ بِهَا﴾.

وقال أبو مجلز: ليتفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَدَهَبَتْ طَبِيبَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فجوزوا من جنس عملهم، فكما نَعَمُوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة والحسرات المتتابعة والمنازل في الدرجات المفطعة، أجارنا الله من ذلك كله.

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُورُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١) قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلَاقِكَ عَنْ ءَاهِلِنَا فَإِنَّا بِمَا تَوَدُّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبْلِغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُمْ قَوْمًا بِجَهْلُوهُمْ﴾ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْطَرِفٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ يَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥).

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود عليه

الصلاة والسلام، بعثه الله إلى عاد الأولى وكانوا يسكنون الأحقاف، جمع حَقْف وهو الجبل من الرمل، قاله ابن زيد، وقال عكرمة: الأحقاف الجبل والغار، وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: الأحقاف واد بحضرموت، وقال قتادة: ذُكر لنا أن عادًا كانوا حيًّا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشُّحْر [الطبري ٢٦/٢٢ - ٢٣].

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ أَلْذُرُّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾؛ يعني: وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَبْعَةً مِثْلَ صَبْعَةِ عَادٍ وَمُودَ ۖ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤]؛ أي: قال لهم هود ذلك فأجابه قومه قائلين: ﴿أَحِثَّنَا لِنَأْكُلَ مِنْ آهِنَاتِنَا﴾؛ أي: لتصدنا عن آلهتنا ﴿فَأَنَّا بِمَا نَعْبُدُكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعادًا منهم وقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

﴿قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به، ﴿وَلَكِنِّي أَنْذَرْتُكُمْ قَوْمًا بَجْهَلُونَ﴾؛ أي: لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدِيْنَهُمْ﴾؛ أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض مطر، ففرحوا واستبشروا، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر. قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: هو العذاب الذي قلتم ﴿فَأَنَّا بِمَا نَعْبُدُكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿تَدْمِرُ﴾؛ أي: تخرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾؛ أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله: ﴿مَا نَذُرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْسِ﴾ [الذاريات: ٤٢]؛ أي: كالشيء البالي ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾؛ أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا.

وروى الإمام أحمد [٢٤٤١٤] عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى رأيت منه لهواته إنما كان يبتسم وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية، فقال رسول الله ﷺ: (يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عَذَّبَ قَوْمٌ بِالرَّيْحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمِطْرُنَا)، وأخرجاه [البخاري/٤٥٥١ ومسلم/٨٩٩].

وقد ذكرنا قصة هلاك قوم عاد في سورة الأعراف [الآيات: ٦٥ - ٧٢]، وهود [الآيات: ٥٠، ٦٠] بما أغنى عن إعادته هنا، والله تعالى الحمد والمنة.

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَاَ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريباً منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: وأحاط بهم العذاب، والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه؛ أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ﴾؛ يعني: أهل مكة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول مما حولها، كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمرود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غرة، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمشون بها أيضاً، وقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾؛ أي: بينهاها وأوضحناها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً﴾؛ أي: فهلا نصرهم عند احتياجهم إليهم.

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾؛ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾؛ أي: كذبهم ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾؛ أي: وافترأهم في اتخاذهم إياهم آلهة وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرُكُمْ مِنَ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

روى الإمام أحمد [٢٢٧١] عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، فقالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء قد حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذي حال بينكم

وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يتتبعون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم، قالوا: إنا سمعنا قرأنا عجباً، يهدي إلى الرشd فأما به، ولن نشرك بربنا أحداً، وأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وإنما أوحى إليه قول الجن رواه البخاري بنحوه [٤٦٣٧]، وأخرجه مسلم [٤٤٩].

وروى الإمام أحمد [٢٤٨٢] أيضاً عن ابن عباس قال: كان الجن يستمعون الوحي فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرًا، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبث جنوده فإذا بالنبى ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض، ورواه الترمذي [٣٣٢٤ نحوه] والنسائي [١١٦٢٦] في كتابي «التفسير» من سنيهما، وقال الترمذي: حسن صحيح، وهكذا قال الحسن البصري: إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم.

وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قالوا: صه، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ إلى ﴿ضَلَّلَ مُبِينٍ﴾ [رواه الحاكم ٣٧٠١ وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي]. فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً قوماً بعد قوم وفوجاً بعد فوج.

فأما ما رواه البخاري [٣٦٤٦] ومسلم [٤٥٠] عن ابن مسعود أنه أذنته بهم شجرة، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات، والله أعلم، ويحتمل أن يكون في المرة الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى أذنته بهم الشجرة؛ أي: أعلمته باجتماعهم، والله أعلم.

قال الحافظ البيهقي: وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ، وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ﷻ كما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

### ذكر الرواية عنه بذلك:

روى مسلم [٤٥٠] عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود رضي الله عنه شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود رضي الله عنه فقلت: هل شهد أحد

منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذ هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: (أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُمْ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ). قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: (كُلُّ عَظْمٍ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَبْقَى فِي أَيْدِيكُمْ أَوْ فَرَمًا يَكُونُ عَلَيْهِ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ أَوْ رَوْثَةٍ عُلْفٌ لِدَوَابِّكُمْ) قال رسول الله ﷺ: (فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا طَعَامٌ إِخْوَانِكُمْ).

وروى البيهقي [في دلائل النبوة ٢/٢٣١] عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: انطلقت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن حتى أتى الحجون، فخط لي خطًا ثم تقدم إليهم، فازدحموا عليه فقال سيد لهم يقال له وردان: أنا أرحلهم عنك، فقال: إني لن يجيرني من الله أحد [وسنده صحيح].

فهذا يدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدًا، وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم، كما قال ابن عباس ﷺ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود، وأما ابن مسعود، فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيدًا منه، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقي، وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليه لم يكن معه ﷺ ابن مسعود ﷺ ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهي عند مسلم، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى، والله أعلم.

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي [٥٢٤ نحوه] عن سعيد بن عمرو قال: كان أبو هريرة ﷺ يتبع رسول الله ﷺ بأداة لوضوئه وحاجته، فأدركه يومًا فقال: (مَنْ هَذَا؟) قال: أنا أبو هريرة. قال ﷺ: (اِئْتِنِي بِأَحْجَارٍ أَسْتَنْجِ بِهَا، وَلَا تَأْتِنِي بِعَظْمٍ وَلَا رَوْثَةٍ)، فأتيته بأحجار في ثوبي فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته فقلت: يا رسول الله ما بال العظم والروثة؟ قال ﷺ: (أَتَانِي وَفْدٌ جِنٍّ نَصِيبِينَ، فَسَأَلُونِي الرَّادَ، فَدَعَوْتُ اللَّهَ تَعَالَى لَهُمْ أَنْ لَا يَمُرُّوا بِرَوْثَةٍ وَلَا عَظْمٍ إِلَّا وَجَدُوهُ طَعَامًا) أخرجه البخاري [٣٦٤٧] قريبًا منه، فهذا يدل على ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك، وقد روي عن ابن عباس غير ما روي عنه أولًا من وجه جيد، رواه ابن جرير [٢٦/٣٢]، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ الآية، قال: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلًا إلى قومهم، فهذا يدل على أنه روى القصتين.

وقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾؛ أي: طائفة من الجن ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾؛ أي: استمعوا وهذا أدب منهم.

وقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾؛ أي: فرغ، ﴿وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾؛ أي: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ كقوله: ﴿لَيَنْفَقَهُوا فِي اللَّيْلِ وَيُؤْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نُذِرٌ، وليس فيهم

رسل، ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولاً لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَاْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته.

فأما قوله تعالى في الأنعام: ﴿يَمْعَشَرُ الْيَمِينَ وَالْإِيسَى أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد هنا مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى ﷺ أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة فالعمدة هو التوراة، فلهذا قالوا أنزل من بعد موسى، وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه الصلاة والسلام أول مرة فقال: هذا الناموس الذي كان يأتي موسى يا ليتني أكون فيها جذعاً [رواه البخاري/ ٤٦٧٠]. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله، وقوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾؛ أي: في الاعتقاد والإخبار ﴿وَالْإِلَهِ طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ في الأعمال، فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب، فخبيره صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ في الاعتقادات ﴿وَالْإِلَهِ طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: في العمليات. ﴿يَنْقُومَنَا أَيْبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس، حيث دعاهم إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿أَيْبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾، وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ قيل: إن «من» هاهنا زائدة وفيه نظر؛ لأن زيادتها في الإثبات قليل، وقيل: إنها على بابها للتبعض، ﴿وَيُخْزِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: ويقكم من عذابه الأليم، وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة، ولهذا قالوا هذا في هذا المقام وهو مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه.

والحق أن مؤمنهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِئُنْ إِنْشَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وفي هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله: ﴿وَلَمْ يَخَفْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿فَأَيُّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، فلم يكن تعالى ليمنن عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار، وهو مقام عدل؛ فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة، وهو مقام فضل، بطريق الأولى والأحرى، ومما يدل أيضاً على ذلك عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وما أشبه ذلك من الآيات، وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة والله الحمد والمنة.

ثم قال مخبراً عنهم: ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: بل قدرة الله



شاملة له ومحيطه به ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾؛ أي: لا يجيرهم منهم أحد ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب، ولهذا نجع في كثير منهم وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّجْ خَلْقَهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُغَيِّجَ الْمَوْتِ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٣) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٤) ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَعَ فُهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣٥).

يقول تعالى: أولم ير هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّجْ خَلْقَهُنَّ﴾؛ أي: ولم يكرهه خلقهن، بل قال لها: «كوني» فكانت بلا ممانعة، بل طائعة مجيبة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال ﷻ في الآية الأخرى: ﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ثم قال متهدداً ومتوعداً لمن كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾؛ أي: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ثم قال تعالى أمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾؛ أي: على تكذيب قومهم لهم، وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال وأشهرها أنهم: نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء محمد ﷺ، قد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب (آية: ٨)، والشورى (آية: ١٣)، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل، تكون ﴿مِنْ﴾ في قوله من الرسل لبيان الجنس، والله أعلم.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾؛ أي: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم كقوله: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُكُمْ رُؤُوبًا﴾ [الطارق: ١٧]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾، كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: ٤٦]، وحاصل ذلك أنهم استقصوا مدة لبثهم في الدنيا وفي البرزخ حين عاينوا يوم القيامة وشدايدها وطولها، وقوله: ﴿بَلَعَ﴾. قال ابن جرير ٢٦٦/٣٨ يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لبث بلاغ، والآخر: أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ، وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ أي: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.



## تفسير سورة محمد

وهي مدنية

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۝٣﴾.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: بآيات الله ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾؛ أي: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها ثواباً، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ، وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة، ولهذا قال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي: أمرهم، وقال مجاهد: شأنهم، وقال قتادة وابن زيد: حالهم والكل متقارب [الطبري ٣٩/٢٦].

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾؛ أي: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل؛ أي: اختاروا الباطل على الحق، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾؛ أي: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنَصَرْتُمْ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِبَلَّوْا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ۝٤ سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ۝٦ يَتَابَعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُنْصَرُوا وَيُنِيبَتْ أَعْدَاؤُهُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْوُتُنُ ۝٨ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾.

يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾؛ أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ﴾؛ أي: أهلكتموهم قتلاً ﴿فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ وثاق الأسارى الذين تأسروهم، ثم أنتم بعد

انقضاء الحرب مخيرون في أمرهم، إن شئتم منتقم عليهم فأطلقتم أسرارهم مجاناً، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله سبحانه عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقليل من القتل يومئذ فقال: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْيَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْخَرَفَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٧) لَوْلَا كُنْتُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسْكُمُ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]، ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَسْلَحَ الْأُشْهُرُ الْحَرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥]، روي عن ابن عباس، وقاله قتادة، والضحاك، والسدي، وابن جريج، وقال الآخرون وهم الأكثرون: ليست بمنسوخة، ثم قال بعضهم: إنما الإمام مُخَيَّرٌ بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله، وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء لقول ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: (مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟) فقال: إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تمنن تمنن على شاكرك، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت [رواه البخاري/٤١١٤]، وزاد الشافعي رحمه الله، فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه أيضاً، وهذه المسألة محررة في علم الفروع وقد دللنا على ذلك في كتابنا الأحكام والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿حَتَّى نَضَعَ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا﴾ قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، وكأنه أخذه من قوله ﷺ: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَقَابِلَ آخِرُهُمُ الدَّجَالُ) [رواه أبو داود نحوه/٢٤٨٤ بإسناد صحيح]، وروى الإمام أحمد [١٧٠٠٦] عن جبير بن نفير قال: إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: إني سبيت الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقلت: لا قتال، فقال له النبي ﷺ: (الآن جَاءَ الْقِتَالُ، لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ، يُزِيغُ اللَّهُ قُلُوبَ أَقْوَامٍ، فَيَقَاتِلُونَهُمْ: وَيَرْزُقُهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، أَلَا إِنَّ عَقْرَ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِالشَّامِ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) ورواه النسائي [٤٤٠١ وسنده صحيح]، وهذا يقوي القول بعدم النسخ كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب.

وقال قتادة: ﴿حَتَّى نَضَعَ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا﴾ حتى لا يبقى شرك، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقوله: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده، ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ بَعْضَكُمْ بَعْضٌ﴾؛ أي: ولكن شرع لكم الجهاد وقاتل الأعداء ليختبركم، ويبلوا أخباركم، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي آل عمران وبراءة في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال في سورة براءة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِبَصَرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤]، ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثير من المؤمنين، قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ

يُصِلَ أَعْمَلُهُمْ؛ أي: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها، ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد [١٧٢٢١] عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتَّ خِصَالٍ: أَنْ يُغْفَرَ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ، وَيُزَوَّجَ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ، وَيُجَارَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنَ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْبَاقُوْتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ، وَيُسْقَى فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ)، وقد أخرجه الترمذي [١٦٤٠ بنحوه] وصححه، وفي «صحيح مسلم» [١٨٨٦] عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الدِّينَ)، وروي من حديث جماعة من الصحابة، والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جدًا.

وقوله: ﴿سَيِّدِهِمْ﴾؛ أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]، وقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾؛ أي: أمرهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾؛ أي: عرفهم بها وهداهم إليها. قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحدًا، وعن ابن زيد بن أسلم، ومحمد بن كعب نحو هذا.

وقد روى البخاري [٢٣٠٨] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُسِبُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَتَقَاصُونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَنُقُوا أُذُنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ أَحَدَهُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ أَهْدَى مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا).

ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَضُرُّهُمْ وَيَلْبِثَ أَقْدَامُهُمْ﴾، كقوله: ﴿وَلَنَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزء من جنس العمل، ولهذا قال: ﴿وَيَلْبِثَ أَقْدَامُهُمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ورسوله ﷺ، وقد ثبت الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (تَعَسَى عَبْدُ الدِّيَارِ، تَعَسَى عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَى عَبْدُ الْقَطِيفَةِ، تَعَسَى وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ) [رواه البخاري/٢٧٣٠]؛ أي: فلا شفاه الله، وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾؛ أي: أحبطها وأبطلها، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزَلَ اللَّهُ﴾؛ أي: لا يريدونه ولا يحبونه ﴿فَأَحْطَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ذَٰلِكَ إِنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (١١) إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَعَوْنَ وَيَاكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَكَانَ مِنْ قَرَابَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قُرْبِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣).

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾؛ يعني: المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَفَبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛ أَي: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم؛ أَي: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، ثم قال: ﴿ذَلِكَ يَنْتَظِرُ اللَّهُ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾. ولهذا قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مثله لم آمر بها ولم تسؤني، ثم ذهب يقول: اعل هُبْل اعل هُبْل، فقال رسول الله ﷺ: (أَلَا تُجِيبُوهُ؟) فقالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال ﷺ: (قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ) ثم قال أبو سفيان: لنا العزى، ولا عَزَى لَكُمْ، فقال ﷺ: (أَلَا تُجِيبُوهُ؟) قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: (قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ) [رواه البخاري/٢٨٧٤].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أَي: يوم القيامة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَعَوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾؛ أَي: في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، قضمًا ليس لهم همة إلا في ذلك، ولهذا ثبت في «الصحيح»: (الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مَعَى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ) [البخاري/٥٠٨٧]، ثم قال: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾؛ أَي: يوم جزائهم، وقوله: ﴿وَكَانَ مِنْ قَرَيْهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرَيْنِكَ الَّتِي أَخْرَجَكَ﴾؛ يعني: مكة ﴿أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله ﷻ قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء فما ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم.

وقوله: ﴿مِنْ قَرَيْنِكَ الَّتِي أَخْرَجَكَ﴾؛ أَي: الذين أخرجوك من بين أظهرهم، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت إلى مكة وقال: (أَنْتِ أَحَبُّ بِلَادٍ إِلَى اللَّهِ، وَأَنْتِ أَحَبُّ بِلَادٍ إِلَى اللَّهِ إِلَيَّ، وَلَوْ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يُخْرِجُونِي لَمْ أَخْرُجْ مِنْكَ)، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَكَانَ مِنْ قَرَيْهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرَيْنِكَ الَّتِي أَخْرَجَكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [رواه الطبري ٤٨/٢٦]، وله شاهد دون ذكر نزول الآية من حديث عدي بن الحمراء عند الترمذي وصححه.

﴿أَفَن كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ ﴿١٥﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَن كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾؛ أَي: على بصيرة ويقين من أمر الله ودينه بما أنزل في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أَي: ليس هذا كهذا، كقوله: ﴿أَفَن يَعْلَمُ أَنَّما أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾

ثم قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي رُوعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾؛ أي: نعتها ﴿فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ عَاسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعني: غير متغير، وقال قتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني: غير متتن، والعرب تقول: أسن الماء إذ تغير ريحه.

وروى ابن أبي حاتم [٢٥٤] عن عبد الله [بن مسعود]: أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك ﴿وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾؛ أي: بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة، ﴿وَأَنْهَرٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾؛ أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل هي حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ﴾ [الصفات: ٤٧]، ﴿يَبْصَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [الصفات: ٤٦]. ﴿وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾؛ أي: وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح.

روى الإمام أحمد [٢٠٦٤] عن معاوية بن حيدة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد) ورواه الترمذي [٢٥٧١]، وقال: حسن صحيح.

وفي «الصحيح»: (إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ) [البخاري/٢٦٣٧].

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، كقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]، وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: مع ذلك كله، وقوله: ﴿كَانَ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ﴾؛ أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء؛ أي: ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدرجات، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾؛ أي: شديد الحر لا يستطيع ﴿فَقَطَعُ أَعْيُنَهُمْ﴾؛ أي: قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء - عياداً بالله من ذلك -.

﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ قَالَ أَفَقَأَ أُوتِيكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ فَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ۖ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۖ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ۖ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئاً، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ أَفَقَأَ﴾؛ أي: الساعة. لا يعقلون ما قال، ولا يكتثرون له.

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾؛ أي: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله تعالى لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها ﴿وَأَنَّهُمْ تَقَوُّهُمْ﴾؛ أي: ألهمهم رشدهم.

وقوله: ﴿فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾؛ أي: وهم غافلون عنها ﴿جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾؛ أي: أمارات اقترابها، كقوله تبارك وتعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ﴾ ﴿٥٦﴾ أَرَفَتِ الْآزِفَةَ﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضحه، كما هو مبسوط في موضعه، وقال الحسن البصري: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة وهو كما قال.

وروى البخاري [٤٦٥٢] عن سهل بن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ قال: بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها: (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ)، ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾؛ أي: فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣]، وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا ينافي كونه أمراً بعلم ذلك، ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، وفي «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ كان يقول: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي، وَخَطِيئَتِي وَعَمْدِي، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي) [البخاري/٦٠٣٦]، وفي «صحيح [مسلم/٧٧١]» أنه كان يقول في آخر الصلاة: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)، وفي «الصحيح» أنه قال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً) [البخاري نحوه/٥٩٤٨].

والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾؛ أي: يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وهذا القول ذهب إليه ابن جريج وهو اختيار ابن جريج، وعن ابن عباس: متقلبكم في الدنيا ومثواكم في الآخرة، وقال السدي: متقلبكم في الدنيا ومثواكم في قبوركم، والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله ﷻ وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ

لَوْلَا أَعْرَضْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ [النساء: ٧٧]، وقال ما هنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾؛ أي: مشتملة على حُكْم القتال، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾؛ أي: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء، ثم قال مشجعاً لهم: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٧٨﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾؛ أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا؛ أي: في الحالة الراهنة ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾؛ أي: جد الحال، وحضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: خلصوا له النية ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾؛ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجاهلاء، تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ وهذا نهى عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل وقد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والفعال وبذل الأموال، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة.

روى البخاري [٤٥٥٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّجِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ ﷺ، فَقَالَ: مَهْ! فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ. فَقَالَ تَعَالَى: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ). قال رسول الله ﷺ: (اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾) ورواه مسلم [٢٥٥٤].

وروى الإمام أحمد [٢٠٤١٤] عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ ذَنْبٍ أَخْرَى أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عِقَابَهُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يُدْخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّجِمِ)، ورواه أبو داود [٤٩٠٢] والترمذي [٢٥١١]، وقال: هذا حديث صحيح.

وروى الإمام أحمد [٦٥٢٤] عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الرَّجِمَ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، وَلَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِي، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا) رواه البخاري [٥٦٤٥].

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانِ أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٧٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٧٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَضْرِيُوتَ وُجُوهِِهِمْ وَأَدْبَرَهُمْ ﴿٧٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبِطْ أَعْمَالَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾.

يقول تعالى أمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهياً عن الإعراض عنه ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانِ أَمْرٌ عَلَى



قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا؛ أَي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطَبَّقة لا يخلص إليها شيء من معانيه، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ؛ أَي: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر﴾ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ؛ أَي: زين لهم ذلك وحسنه، ﴿وَأَمَّا لَهُمْ؛ أَي: غرهم وخدعهم، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيْعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ؛ أَي: مألؤهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ؛ أَي: ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَصْرِيئُونَ وَجُوهُهُمْ وَأَدْبَارُهُمْ؛ أَي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعاصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَصْرِيئُونَ وَجُوهُهُمْ وَأَدْبَارُهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠].

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (٣١).

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ؛ أَي: أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذؤو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فيبين فيها فضائحهم، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولهذا كانت تسمى الفاضحة، والأضغان: جمع ضغن وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ يقول ﷻ: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه، وحملاً للأمر على ظاهر السلامة وردًا للسرائر إلى عالمها، ﴿وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ؛ أَي: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؓ: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلمات لسانه، وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد في أول شرح البخاري بما أغنى عن إعادته ها هنا.

وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾؛ أَي: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد حتى نعلم وقوعه، ولهذا يقول ابن عباس ؓ في مثل هذا: إلا لنعلم؛ أَي: لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ (٣٢) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤) ﴿فَلَا تَهْتُوا وَدَعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٥).

يخبر تعالى عن كفر وصد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يشبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه برده مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾؛ أي: بالردة، ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] الآية، ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهْتُوا﴾؛ أي: لا تضعفوا عن الأعداء ﴿وَدَعُوا إِلَى السَّلَهِ﴾؛ أي: المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعُدِّكم، ولهذا قال: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾؛ أي: في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم ﷺ إلى ذلك [رواه البخاري].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ أي: ولن يحبطها ويبطلها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً.

﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَفَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ (٣٦) ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخْفِمْكُمْ تَبَخَّلُوا وَخُجِرْ أَصْعَنْكُمْ﴾ (٣٧) ﴿هَآئِنْتُمْ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٣٨).

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾؛ أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله ﷻ، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَفَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾؛ أي: هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم ويرجع ثوابه إليكم، ثم قال: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخْفِمْكُمْ تَبَخَّلُوا﴾؛ أي: يحوجكم تبخلوا ﴿وَوُجِرْ أَصْعَنْكُمْ﴾. قال قتادة: قد علم الله تعالى أن

في إخراج الأموال إخراج الأضغان، وصدق قتادة فإن المال محبوب ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

وقوله: ﴿هَآأَنَآ هَآؤَلَا تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ؟﴾ أي: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ﴾؛ أي: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾؛ أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً، ولهذا قال: ﴿وَأَنَآ الْفُقَرَاءُ﴾؛ أي: بالذات إليه، فوصفه بالغني وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، لا ينفكون عنه.

وقوله: ﴿وَإِن تَنَآلُوا﴾؛ أي: عن طاعته واتباع شرعه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾؛ أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.



## تفسير سورة الفتح

وهي مدنية

روى الإمام أحمد [٢٠٥٦١] عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها، قال معاوية: لولا أنني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته، أخرجاه [البخاري/٤٠٣١ ومسلم/٧٩٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ۝﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ، من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع أنزل الله ﷻ هذه السورة من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة وما آل الأمر إليه، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية، وعن جابر قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية، وروى البخاري عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتحبيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فتزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا.

وروى الإمام أحمد [٢٠٩] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال: فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليّ، قال فقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فحركت بعيري فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء، قال: فإذا أنا بمناد ينادي يا عمر، قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء قال: فقال النبي ﷺ: (نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾) ورواه البخاري.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديثية. قال النبي ﷺ: (لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ) ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله لقد بين الله ﷻ ما يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه ﷺ: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ بَحْرِ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حتى بلغ ﴿فَوَرَّاهُ عَظِيمًا﴾ أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٣٩٤٣ نحوه ومسلم/١٧٨٦ بمعناه].

وروى الإمام أحمد [١٨٢٦٤] عن المغيرة بن شعبة قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه فقيل له أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا) أخرجاه [البخاري/١٠٧٨ ومسلم/٢٨١٩].

**فقوله:** ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾؛ أي: بيناً وظاهراً، والمراد به صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

**وقوله:** ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة، ولما كان أطوع خلق الله تعالى الله وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة: (حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ) ثم قال ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ شَيْئًا يُعْظَمُونَ بِهِ حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهِ) [رواه البخاري ٢٥٨١]، فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبِمَا نَفَعْتَهُ عَلَيْهِ؛ أي: في الدنيا والآخرة ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾؛ أي: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: بسبب خضوعك لأمر الله ﷻ يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: (وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ) [رواه مسلم/٢٥٨٨]، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما عاقبت أحداً عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ بَحْرِ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْمُتَنَفِّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَ أَلْسُوهُ عَلَيْهِنَّ دَابِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾.

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾؛ أي: جعل الطمأنينة، قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة وقال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين، وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله

ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم، وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب، ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾. ثم قال: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، قد تقدم حديث أنس حين قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [البخاري/٣٩٣٩]؛ أي: ما كثرين فيها أبداً ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ أي: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يغفو ويصفح ويغفر ويستر ويرحم ويشكر ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾، كقوله: ﴿فَمَنْ رُحِجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

**وقوله:** ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالظَّالِمِينَ وَالظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَرْبُ السَّوءِ﴾؛ أي: يتهمون الله تعالى في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوءِ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾؛ أي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ سَعَاتٍ مُصِيرًا﴾ ثم قال مؤكداً لقدرته على الانتقام من - أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين -: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُورٌ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٠).

يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾؛ أي: على الخلق ﴿وَمُبَشِّرًا﴾؛ أي: للمؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾؛ أي: للكافرين وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب [آية: ٤٥]. ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: تعظموه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام [الطبري ٧٤/٢٦] ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ أي: تسبحون الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: أول النهار وآخره، ثم قال ﷺ لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، كقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمْ الْجَنَّةُ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في الحَجَرِ: (وَاللَّهُ لَيَبْعَثُهُ اللَّهُ ﷻ)

يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يَنْظُرُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، بِهِ وَيَشْهَدُ عَلَى مَنْ اسْتَلَمَهُ بِالْحَقِّ، فَمَنْ اسْتَلَمَهُ فَقَدْ بَايَعَ اللَّهَ تَعَالَى،) ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِي يَبَايِعُكَ إِنَّمَا يُبَايِعُكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [رواه الترمذي/٩٦١ وقال: حديث حسن]، ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ تَكَتْ فَإِنَّمَا يَنْكُتُ عَلَى نَفْسِهِ﴾؛ أي: إنما يعود وبإل ذلك على الناكث والله غني عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَى يَمَّا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثوابًا جزيلاً، وهذه البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة سَمُرٍ بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذٍ قيل: ألفاً وثلاثمائة، وقيل: وأربعمائة، وقيل: وخمسمائة، والأوسط أصح.

روى البخاري [٤٥٦٠] عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة.

### ذكر سبب هذه البيعة العظيمة:

قال محمد بن إسحاق في «السيرة»: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليعثه إلى مكة، ليلبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعي، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمة، فخرج عثمان إلى مكة، فلقه أبا ن بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه ثم أحاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان رضي الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: (لَا نَبْرُحُ حَتَّى نُنَاجِرَ الْقَوْمَ) [البغوي ٤/١٩٣، والطبري ٢٦/٨٦].

ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ولكن بايعنا على ألا نفر، فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقتة قد صبأ إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان باطل.

وروى البخاري [٣٩٥١] عن ابن عمر قال: إن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال يعني عمر: يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ، فوجدتهم يبايعون فبايع، ثم رجع إلى عمر، فخرج فبايع. وعن جابر رضي الله عنه، قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه، وعمر رضي الله عنه أخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة وقال: بايعناه على ألا نفر ولم نبايعه على الموت. رواه مسلم [١٨٥٦].

وروى البخاري [٢٨٠٠ بنحوه] عن سلمة [بن الأكوع] قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ثم تنحيت فقال ﷺ: (يَا سَلَمَةُ أَلَا تُبَايِعُ؟) قلت: قد بايعت، قال ﷺ: (أَقْبِلْ فَبَايِعْ)، فدنوت فبايعت على الموت.

وروى الحميدي [١٢٢٥] عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول الله ﷺ: (أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ) قال جابر رضي الله عنه: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة. أخرجه [البخاري/٣٩٢٣ ومسلم/١٨٥٦]، وروى الإمام أحمد [١٤٨٢٠] عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) [وإسناده صحيح ورواه مسلم/٢٤٩٦ بمعناه عن حفصة رضي الله عنها].

وروى عبد الله بن أحمد عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: (مَنْ يَصْعَدُ النَّبِيَّةَ، نَبِيَّةَ الْمُرَارِ، فَإِنَّهُ يُحِطُّ عَنْهُ مَا حُطُّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) فكان أول من صعد خيل بني الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال النبي ﷺ: (كُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ) فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم، فإذا هو رجل ينشد ضالة، رواه مسلم [٢٧٨٠].

ولهذا قال تعالى في الشفاء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾، كما قال ﷺ في الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿سَبِّحُوا لِلَّهِ الْمَخْلُوفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَبَدًا وَزَيَّرَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا (١٤) ﴿

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾؛ أي: لا يقدر أحد أن يرد ما أَرَادَهُ اللهُ فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم، وإن صانعتُمونا وتابعتُمونا، ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، ثم قال: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَبَدًا﴾؛ أي: لم يكن تخلفكم تخلف معذور



ولا عاص بل تخلف نفاق، ﴿بَلْ طَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾؛ أي: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم ولا يرجع منهم مخبر ﴿وَطَنَنْتُمْ طَرِكَ الْكُفْرِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾؛ أي: هلكى، قاله ابن عباس، ومجاهد وغير واحد، وقال قتادة: فاسدين، ثم قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي: من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر، ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا﴾؛ أي: لمن تاب إليه وأتاب وخضع لديه.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمٍ لِنَأْخُذُهَا ذُرُوعًا نَنْبَعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَقَفُّونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيرير يفتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيرير وحدهم، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدرًا ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ قال مجاهد، وقاتادة، وجويبر: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية، واختاره ابن جرير [٨٠/٢٦].

وقال ابن جريج: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾؛ يعني: بتثيبتهم المسلمين عن الجهاد. ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾؛ أي: أن نشركم في المغنم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَقَفُّونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧).

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد على أقوال: أحدها: أنهم هوازن، قاله سعيد بن جبير وعكرمة وبه يقول قتادة في رواية عنه. الثاني: ثقيف، قاله الضحاك. الثالث: بنو حنيفة، قاله جويبر والزهري، وروي عن سعيد، وعكرمة. الرابع: هم أهل فارس، قاله ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، وعكرمة في

إحدى الروايات عنه، وقال كعب الأحبار: هم الروم، وعن ابن أبي ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة: هم فارس والروم، وعن مجاهد: هم أهل الأوثان، وعنه أيضاً: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة، وبه يقول ابن جريج وهو اختيار ابن جرير [٢٦/٨٢، ٨٣].  
وعن الزهري قال: لم يأت أولئك بعد.

وعن أبي هريرة أنه فسر قول رسول الله ﷺ: (تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نِعَالُهُمُ الشَّعْرُ) [البخاري/٣٣٩٥] قال: هم البارزون؛ يعني: الأكراد.

وقوله: ﴿فَقَاتِلُوهُمْ أَوْ بُسِّلُوهُمْ﴾؛ يعني: شرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولكم النصرة عليهم أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار.

ثم قال: ﴿فَإِنْ طُغِيَوا﴾؛ أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿يُؤْذِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾؛ يعني: زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ، ثم قال تعالى مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾؛ أي: ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٩﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية. روى البخاري [٣٩٣٠] عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم.

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: من الصدق والوفاء والسمع والطاعة، ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وهي الطمأنينة، ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢١ وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُوتُ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَنْظَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤﴾ .

قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هي جميع المغنم إلى اليوم ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾؛ يعني: فتح خيبر، وروي عن ابن عباس: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾؛ يعني: صلح الحديبية ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾؛ أي: لم ينلكنم سوء مما كان أعداؤكم أضمره لكم من المحاربة والقتال، وكذلك كف أيدي الناس الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: يعتبرون بذلك، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخير فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾؛ أي: بسبب انقيادكم لأمره، وموافقتكم رسوله.

وقوله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾؛ أي: وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرّون عليها، قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون، وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ما المراد بها فعن ابن عباس: هي خيبر، وهذا على قوله في قوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ إنها صلح الحديبية، وقاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال قتادة: هي مكة، واختاره ابن جرير [٢٦/٨٩]، وقال ابن أبي ليلى، والحسن البصري: هي فارس والروم، وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وعن ابن عباس قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم.

وقوله: ﴿وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُوتُ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يقول ﴿وَلَكُمْ مَبْشَرًا﴾ لعباده المؤمنين، بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفر فاراً مدبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين. ثم قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾؛ أي: هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائهم من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَنْظَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم فلم

يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خَيْرَةٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة.

وروى الإمام أحمد [١٤١٢٢] عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا، فغفا عنهم ونزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَإَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ورواه مسلم [١٨٠٨].

وروى أحمد [١٤٨٤٦] أيضًا عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. وسهيل بن عمرو بين يديه فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: (اكتب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال: (اَكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ)، وكتب: (هَذَا مَا صَلَّحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ أَهْلُ مَكَّةَ)، فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: (اَكْتُبْ هَذَا مَا صَلَّحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ)، فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابًا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله تعالى بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: (هَلْ جِئْتُمْ فِي عَهْدٍ أَحَدٍ؟ أَوْ هَلْ جَعَلْ لَكُمْ أَحَدٌ أَمَانًا؟) فقالوا: لا، فخلى سبيلهم فأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيَّدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ رواه النسائي [برقم/١١٥١١]، وسنده جيد.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوا ۖ أَلَمْ يَبْلُغْ حِلَّهُ ۖ وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَّوُّهُمْ فَتُضَيِّبُكُم مِّنْهُمْ مَّعَرَةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّدْخُلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ ۚ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ ۚ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۖ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةً ۖ الْفَوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۖ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش، ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: هم الكفار دون غيرهم ﴿وَصَدَّكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أي: أنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿وَالْهَدَىٰ مَكْشُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾؛ أي: صدوا الهدي أن يصل إلى محله وهذا من بغيتهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة. وقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾؛ أي: بين أظهرهم ممن يكتن إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكننا سَلَطْنَاكم عليهم فقتلتموهم وأبدم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْنَتِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً﴾؛ أي: إنهم وغرامة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّدَجَلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: يؤخر

عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام، ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾؛ أي: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: لسلطانكم عليهم فلقنتموهم قتلاً ذريعاً.

وعن ابن عباس قال: لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم.

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لُحْمِيَّةً حَيَّةً بَهِيمَةً﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي قول: «لا إله إلا الله»، وقال مجاهد: كلمة التقوى: الإخلاص، وقال عطاء بن أبي رباح: هي «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»، وقال المسور: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وعن علي قال: «لا إله إلا الله والله أكبر»، وكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما، وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله وهي رأس كل تقوى، وقال سعيد بن جبير: «لا إله إلا الله والجهاد في سبيله»، وقال عطاء الخراساني: هي لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقال الزهري: بسم الله الرحمن الرحيم، وقال قتادة: «لا إله إلا الله» [الطبري ٢٦/١٠٤، ١٠٥].

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾؛ أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

### ذكر قصة الحديبية وقضية الصلح:

روى البخاري [٢٥٨١] في كتاب «الشروط» من «صحيحه» [من طريق] معمر، أخبرني الزهري أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهم حديث صاحبه، قالوا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره وأحرم منها بعمره، وبعث عيناً له من خزاعة وسار، حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جمعوا وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك، فقال ﷺ: (أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتُرُونَ أَنْ نَمِيلَ عَلَى عِيَالِهِمْ، وَذَرَارِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوَنَا عَنِ الْبَيْتِ؟) وفي لفظ: (أَتُرُونَ أَنْ نَمِيلَ عَلَى ذَرَارِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعَانُوهُمْ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ قَدْ قَطَعَ عُنُقًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْزُورِينَ)، وفي لفظ: (فَإِنْ قَعَدُوا قَعَدُوا مَوْتُورِينَ مَجْهُودِينَ مُحْرُوبِينَ وَإِنْ نَجَّوْا يَكُنْ عُنُقًا قَطَعَهَا اللَّهُ ﷻ)، أَمْ تَرُونَ أَنْ نَوْمَ الْبَيْتِ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ؟).

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت، لا تريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه، وفي لفظ: فقال أبو بكر رضي الله عنه: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: (فَرُوحُوا إِذَنْ)، وفي لفظ: (فَامْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ) حتى إذا كانوا يبعض الطريق قال النبي ﷺ: (إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ)، فوالله ما شعر بهم خالد

حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: (مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ)، ثم قال ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا)، ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشكوا إلى رسول الله العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك إذ جاء بدیل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزولاً أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلونك وصادوك عن البيت، فقال النبي ﷺ: (إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنْ جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتَهُمُ الْحَرْبُ، فَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فِإِنْ شَاءُوا مَا دَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرَ، فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرَدَ سَالِفَتِي، وَلَيَنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ). قال بدیل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قاله رسول الله ﷺ فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم أستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا، قال: أستم تعلمون أنني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جئتمكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آتة. قالوا: آتته، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أشواً من الناس خليفاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر ﷺ: امصص بظر اللات أنحن نفر وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها لأجبتك: قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ، والمغيرة بن شعبة ﷺ قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال: آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. قال: أي غدر أأست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة بن شعبة ﷺ صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: (أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلْ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ).

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة

إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ﷺ فرجع عروة إلى أصحابه. فقال: أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آته. فقالوا: آته. فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، قال النبي ﷺ: (هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعْظَمُونَ الْبَدَنَ، فَابْغُتُوهَا لَهُ)، فبعثت واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته. فقالوا: آته، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: (هَذَا مَكْرَزٌ وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ) فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، وقال معمر: أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: (قَدْ سَهِّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ) قال: معمر قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا النبي ﷺ بعلي ﷺ وقال: (اكتب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: (اكتبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ)، ثُمَّ قَالَ: (هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال له النبي ﷺ: (وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ) قال الزهري: وذلك لقوله: (وَاللَّهُ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا) فقال له النبي ﷺ: (عَلَى أَنْ تُخْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَتَطُوفَ بِهِ)، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي، فقال ﷺ: (إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ) قال: فوالله إذا لا أصلحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: (فَأَجِزْهُ لِي) قال: ما أنا بمجيز ذلك لك قال: (بَلَى فَاَفْعَلْ) قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي: معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله ﷻ،

قال عمر رضي الله عنه: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: أأنت نبي الله حقاً؟ قال ﷺ: (بلى) قلت: أألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال ﷺ: (بلى) قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال ﷺ: (إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري) قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال ﷺ: (بلى، فأخبرتك أننا نأتيه العام؟). قلت: لا. قال ﷺ: (فإنك أتيه ومطوف به). قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: أألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه، وهو ناصره فاستمسك بعرزته، فوالله إنه على الحق. قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، فأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

قال الزهري: قال عمر رضي الله عنه: فعملت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: (قُومُوا فَأَنْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا) قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج رسول الله ﷺ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ - حَتَّى بَلَغَ - ﴿بِعَصَمِ الْكَافِرِ﴾ [المتحنة: ١٠]، فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية.

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه: (لَقَدْ رَأَى هَذَا دُعْرًا) فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله قد أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله تعالى منهم، فقال النبي ﷺ: (وَيْلُ أُمِّهِمْ مِسْعَرُ حَرْبٍ! لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ)، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر قال: وتلفت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بغير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم وأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤] - حتى بلغ - ﴿حِمَاةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا



أنه رسول الله، ولم يقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت، هكذا ساقه البخاري هاهنا، وقد أخرجه في «التفسير» وفي عمرة الحديبية وفي الحج وغير ذلك ووقع في بعض الأماكن عن الزهري، عن عروة، عن مروان، والمسور، عن رجال من أصحاب النبي ﷺ بذلك وهذا أشبه، والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هاهنا.

وروى البخاري [٤٥٦٣] عن أبي وائل قال: كنا بصفين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله، فقال علي بن أبي طالب: نعم، فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية؛ يعني: الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر رضي الله عنه فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلنا في الجنة وقتلهم في النار؟ فقال: بلى. قال: فقيم نعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال ﷺ: (يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولكن يضيعني الله أبداً) فرجع متغيظاً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح، وقد رواه مسلم، وفي بعض ألفاظه: يا أيها الناس اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته، وفي رواية: فنزلت سورة الفتح فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأها عليه.

وروى أحمد [٣١٨٧] أيضاً عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي رضي الله عنه: (اكتب يا علي: هَذَا مَا صَلَّحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك فقال رسول الله ﷺ: (امح يا علي، اللهم إنك تعلم أنني رسولك، امح يا علي، واكتب: هَذَا مَا صَلَّحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ) والله لرسول الله خير من علي وقد محاه نفسه ولم يكن محوه ذلك يمحوه من النبوة أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، ورواه أبو داود [وسنده جيد].

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحِيطِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝﴾

كان رسول الله ﷺ قد أري في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تفسر هذا العام فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: (بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا) قال: لا، قال النبي ﷺ: (فإنك آتية ومطوف به) وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضاً [رواه البخاري/ ٢٥٨١]، ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ

أَنَّ هَذَا لَتَحْقِيقِ الْخَبَرِ وَتَوْكِيدِهِ وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْإِسْتِثْنَاءِ فِي شَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَمِينٌ﴾؛ أَي: فِي حَالِ دُخُولِكُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حَالُ مَقْدَرَةٍ؛ لِأَنَّهُمْ فِي حَالِ دُخُولِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مُحَلِّقِينَ وَمُقَصِّرِينَ وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا فِي ثَانِي الْحَالِ. كَانَ مِنْهُمْ مَنْ حَلَقَ رَأْسَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ قَصَرَهُ، وَثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ) قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ) قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: (وَالْمُقَصِّرِينَ) فِي الثَّلَاثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ [البخاري/ ١٦٤٠ ومسلم/ ١٣٠١].

وقوله: ﴿لَا تَخَافُوكُمْ﴾ حال مؤكدة في المعنى فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة، فأقام بها ذا الحجة والمحرم وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحاً، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدوا أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم، ولم يرغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سيماك بن خَرْشَة، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة.

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمرًا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار أصحابه يلبنون، فلما كان قريبًا من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيـل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبًا شديدًا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين، فذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قريها، كما شارطهم عليه، فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال: يا محمد ما عرفناك تنقض العهد، فقال ﷺ: (وَمَا ذَاكَ؟) قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال ﷺ: (لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، وَقَدْ بَعَثْنَا بِهِ إِلَيَّ يَأْجُجَ)، فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء، وخرجت رؤوس الكفار من مكة لثلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه ﷺ غيظًا وحنقًا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبنون، والهدى قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية.

وروى عبد الرزاق [فيما روى الترمذي/ ٢٨٤٧ وغيره] عن أنس بن مالك قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء مشى عبد الله بن رواحة بين يديه، وفي رواية: وابن رواحة آخذ بغرزه وهو يقول:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ بِأَنَّ خَيْرَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ  
يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقَبِيلِهِ نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ كَمَا قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ  
الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ ضَرْبًا يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

وروى أحمد [٢٦٨٦] عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شراً، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنتين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم هؤلاء أجلد من كذا وكذا. أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٤٠٠٩، ومسلم/١٢٦٦ كلاهما بنحوه].

وروى البخاري [٢٥٥٢] عن البراء قال: اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة، حتى قاضاهم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله، قالوا: لا نقر بهذا ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال ﷺ: (أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ) ثم قال ﷺ: لعلي بن أبي طالب ﷺ: (امْحُ رَسُولُ اللَّهِ) قال: لا والله، لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب، فكتب: (هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنْ لَا يَدْخُلَ مَكَّةَ بِالسَّلَاحِ إِلَّا بِالسَّيْفِ فِي الْقِرَابِ، وَالْأَلَّا يَخْرُجَ مِنْ أَهْلِهَا بِأَحَدٍ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَهُ، وَأَنْ لَا يَمْنَعَ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِهَا).

فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة ﷺ تنادي يا عم يا عم، فتناولها علي ﷺ فأخذ بيدها وقال لفاطمة ﷺ: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها علي وزيد، وجعفر ﷺ فقال علي ﷺ: أنا أخذتها وهي ابنة عمي، وقال جعفر ﷺ: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد ﷺ: ابنة أخي، ففضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: (الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ) وقال لعلي ﷺ: (أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ) وقال لجعفر ﷺ: (أَسْبَهْتَ خَلْقِي وَخَلْقِي)، وقال ﷺ لزيد ﷺ: (أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا) قال علي: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال ﷺ: (إِنَّهَا ابْنَةُ أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ).

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾؛ أي: فعلم الله ﷻ من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾؛ أي: قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ فتحة قريباً، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين، ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه، وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾؛ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح،

والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾؛ أي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ أي: أنه رسوله وهو ناصره.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَازْرَعَهُ فَاسْتَغْطَلَ فَاكْتَمَتْهُ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ يَعْجِبُ الزَّرَّاعُ لِيَكْثُرَ بِهِمُ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقًا بلا شك ولا ريب فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار، رحيماً براً بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قُنُودًا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبي ﷺ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحَمَى وَالسَّهَرِ) [مسلم/٢٥٨٦]، وقال ﷺ: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)، وشبك ﷺ بين أصابعه، كلا الحديثين في «الصحيح» [البخاري/٤٦٧ ومسلم/٢٥٨٥].

وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ وصفهم بكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله ﷻ، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم، وهو أكبر من الأول كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال ابن عباس: سيماهم في وجوههم؛ يعني السمات الحسن [ابن أبي حاتم/١٨٦٠٢]، وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخشوع والتواضع، وروى ابن أبي حاتم عن منصور، عن مجاهد قال: الخشوع. قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال: ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون، وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم، وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار.

وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه، والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله ﷻ ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته.

فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم

وهديهم، وقال مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بلغني أن النصاري كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال ها هنا: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾، ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ﴾؛ أي: فراخه ﴿فَنَازَرَهُ﴾؛ أي: شده ﴿فَاسْتَغْلَطَ﴾؛ أي: شب وطل، ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾؛ أي: فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ أزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطاء مع الزرع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رواية عنه، بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم ومن غاظه الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على ذلك، والأحاديث في فضل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم، ثم قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ «من» هذه لبيان الجنس ﴿مَغْفِرَةً﴾؛ أي: لذنوبهم، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثوابًا جزيلاً ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل. روى مسلم في «صحيحه» [٢٥٤٠] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ) [والبخاري/ ٣٤٧٠ عن أبي سعيد الخدري].



## تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَأَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾

هذه آداب أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَأَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: لا تسارعوا في الأشياء بين يديه؛ أي: قبله، بل كونوا تبعًا له في جميع الأمور. قال ابن عباس: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، وعنه: نهى أن يتكلموا بين يدي كلامه، وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه، وقال الضحاك: لا تقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم، وقال سفيان الثوري: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بقول ولا فعل، وقال الحسن البصري: لا تدعوا قبل الإمام، وقال قتادة: ذكر لنا أن ناسًا كانوا يقولون: لو أنزل في كذا وكذا وكذا، لو صنع كذا، فكره الله تعالى ذلك وتقدم فيه. ﴿وَأَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فيما أمركم به ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته، وقد روى البخاري [٤١٠٩] عن ابن أبي ملكية أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقعا بن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافاك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ حتى انقضت الآية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [الحجرات: ٥] [وفي رواية] قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه.

وروى البخاري [أيضًا/٣٤١٧]

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم

لك علمه، فأتاه فوجده في بيته مُنْكَسًا رأسه فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال: (أَذْهَبَ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ).

وروى الإمام أحمد [برقم/١٢٤٢٢ نحوه وزاد] قال أنس رضي الله عنه: فكنّا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفته فقال: بئسما تُعوّدون أقرانكم، فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه [وإسناده صحيح].

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله ﷻ عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله، وقد رويّا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالوا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً [رواه البخاري/٤٥٨]، وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام؛ لأنه محترم حيّاً وفي قبره ﷺ دائماً، ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، كما قال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

وقوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾؛ أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده، خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري كما جاء في «الصحيح»: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَكْتُمُ لَهُ بِهَا الْجَنَّةُ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبَعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) [البخاري/٦١١٣ نحوه]، ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك، وأرشد إليه، ورغب فيه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضَوْنَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقَى﴾؛ أي: أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحللاً ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وروى الإمام أحمد في كتاب «الزهد» [ذكره صاحب كنز العمال نقلاً عن كتاب الزهد ولم أجده] عن مجاهد قال: كُتِبَ إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية، ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها فكتب عمر: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ ❶ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ❷.

ثم إنه تعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نساءه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ثم أرشد إلى الأدب في ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ

صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ؛ أي: لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة، ثم قال داعيًا لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي فيما أورده غير واحد.

روى ابن جرير [١٢١/٢٦] عن البراء في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إن حمدي زين وذمي شين، فقال ﷺ: (ذَاكَ اللَّهُ ﷻ) [إسناده صحيح] وهكذا ذكره الحسن البصري وقتادة مرسلًا.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٦) ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٧) ﴿فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٨).

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق لئلا يحكم بقوله، فيكون في نفس الأمر كاذبًا أو مخطئًا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين، ومن ها هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأننا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق؛ لأنه مجهول الحال، وقد قرنا هذه المسألة في كتاب العلم من شرح البخاري والله الحمد والمنة، وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق.

كذا ذكر غير واحد من السلف منهم ابن أبي ليلى ويزيد بن رومان والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم في هذه الآية أنها أنزلت في الوليد بن عقبة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾؛ أي: اعلّموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدّبوا معه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، ثم بين أن رأيهم سخيّف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم، فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾؛ أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وخرجكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: حببه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾؛ أي: وبغض إليكم الكفر والفسوق وهي الذنوب الكبار والعصيان، وهي جميع المعاصي وهذا تدرّج لكمال النعمة، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾؛ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم.

وفي الحديث المرفوع: (مَنْ سَرَّهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ) [رواه أحمد/١١٤ والترمذي/



٢١٦٥ وقال: [حسن صحيح]، ثم قال: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾؛ أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿وَإِن طَافَيْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾  
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

يقول تعالى أمراً بالإصلاح بين الفئتين الباغين بعضهم على بعض: ﴿وَإِن طَافَيْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم، وهكذا ثبت في «صحيح البخاري» [٣٥٣٦] عن أبي بكرة قال: إن رسول الله ﷺ خطب يوماً، ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أخرى ويقول: (إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)، فكان كما قال ﷺ، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة، والواقعات المبهولة، وقوله: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: حتى ترجع إلى أمر الله، وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في «الصحيح» عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا) قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال ﷺ: (تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَاكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ) [البخاري/٦٥٥٢ بلفظ قريب].

وروى الإمام أحمد [١٢٦٢٨] أن أنساً قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي ﷺ، وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال: إليك عني، فوالله لقد أذاني ريح حمارك فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزل فيهم ﴿وَإِن طَافَيْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ ورواه البخاري [٢٥٤٥] ومسلم [١٧٩٩].  
وقوله: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾؛ أي: اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط وهو العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

روى ابن أبي حاتم [١٨٦١١] عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: (الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِّنْ نُورٍ عَلَىٰ يَمِينِ الْعَرْشِ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهَالِيهِمْ وَمَا وَلُّوا)، ورواه مسلم [١٨٢٧].

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾؛ أي: الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ) [البخاري/٢٣١٠ ومسلم/٢٥٨٠]، وفي «صحيح [مسلم/٢٦٩٩]». (وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ)، والأحاديث في هذا كثيرة، وفي

«الصحيح»: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاضُعِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَى وَالسَّهَرِ) [مسلم/٢٥٨٦]، وفي «الصحيح» أيضًا: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)، وشبك بين أصابعه ﷺ [البخاري/٤٦٧ ومسلم/٢٥٨٥].

وروى أحمد [٢٢٩٢٨] عن سهل بن سعد الساعدي عن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، يَأْلَمُ الْمُؤْمِنُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، كَمَا يَأْلَمُ الْجَسَدُ لِمَا فِي الرَّأْسِ) تفرد به أحمد، ولا بأس بإسناده.

وقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾؛ يعني: الفتتين المقتلتين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في «صحيح [مسلم/٩١]» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَصُ النَّاسِ) ويروى: (وَعَمَطُ النَّاسِ)، والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحقّر أعظم قدرًا عند الله تعالى، وأحب إليه من الساخر منه المحقّر له، ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ فنص على نهى الرجال، وعطف بنهي النساء، وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: لا تلمزوا الناس، والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ﴾ [الهمزة: ١]، والهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿هَٰذَا مَثَلٌ مِّمَّنْ يُخَيَّبُ﴾ [القلم: ١١]؛ أي: يحقّر الناس ويهزمهم طاعنًا عليهم ويمشي بينهم بالنميمة وهي اللمز بالمقال، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]؛ أي: لا يقتل بعضكم بعضًا.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، ومقاتل بن حيان: أي: لا يطعن بعضكم على بعض [الطبري/١٣٢/٢٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾؛ أي: لا تداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها.

روى الإمام أحمد [١٨٣١٤] عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ واحدٌ منهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فنزلت ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [ورواه الترمذي/٣٢٦٨ وقال: حسن صحيح].

وقوله: ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾؛ أي: بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو التنازع بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يتنازعون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾؛ أي: من هذا ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢)

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليتجنب كثير منه احتياطاً، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً [رواه الإمام أحمد في «الزهد»].

وروى مالك [١٦١٦] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا) رواه البخاري [٥٧١٧].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ) رواه مسلم [٢٥٥٩].

وروى أبو داود [٤٨٩٠] عن زيد قال: أتي ابن مسعود رضي الله عنه برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد الله رضي الله عنه: قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به. وعن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّكَ إِنْ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ، أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ) فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها، رواه أبو داود [برقم/٤٨٨٨] وسنده صحيح.

وروى أبو داود أيضاً عن المقدم بن معد يكرب وأبي أمامة عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الْأَمِيرَ إِذَا ابْتَغَى الرَّيْبَةَ فِي النَّاسِ، أَفْسَدَهُمْ) [وسنده صحيح]، وقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾؛ أي: على بعضكم بعضاً، والتجسس غالباً يطلق في الشر ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما قال ﷺ إخباراً عن يعقوب أنه قال: ﴿يَكْفَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: (لَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا) [البخاري/٦٣٤٥]، وقال الأوزاعي: التجسس البحث عن الشيء، والتحسس الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم.

وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فيه نهى عن الغيبة، وقد فسرهما الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود [٤٨٧٤] عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله ما الغيبة؟ قال ﷺ: (ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ) قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: (إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ)، ورواه الترمذي [١٩٣٤]، وقال: حسن صحيح.

وروى أبو داود [٤٨٧٥] عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، تعني

قصيرة، فقال ﷺ: (لَقَدْ قُلْتُ كَلِمَةً لَوْ مُرِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ) قالت: وحكى له إنساناً فقال ﷺ: (مَا أَحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا، وَإِنَّ لِي كَذَا وَكَذَا)، ورواه الترمذي [٢٥٠٢]، وقال: حسن صحيح.

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا من رجحت مصلحته، كما في «الجرح والتعديل» والنصيحة كقوله ﷺ، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: (اُذْنُوا لَهُ، يَسْأَلُ أَخُو الْعَشِيرَةِ) [رواه البخاري ٥٧٠٧]، وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس، وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: (أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُغْلُوكُ، وَأَمَّا أَبُو الْجَهْمِ فَلَا يَضْعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ) [رواه مسلم/١٤٨٠]، وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال ﷺ: ﴿أَحِبُّ أَمَلِكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؛ أي: كما تكرهون هذا طبعًا، فاكروهوا ذاك شرعًا، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال ﷺ في العائد في هبته: (كَالْكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَرْجِعُ فِي قَيْئِهِ) [البخاري/٢٤٤٩ ومسلم/١٦٢٢]، وقد قال: (لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوَةِ) [البخاري/٦٥٧٤]، وثبت في «الصحاح»، و«الحسان»، و«المسانيد» من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة حجة الوداع: (إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا) [البخاري/١٦٥٢ ومسلم/١٢١٨].

وروى أبو يعلى في «مسنده» [١٦٧٥] عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها - أو قال: - في خدورها، فقال: (يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ) [قال الهيثمي: رجاله ثقات].

وقوله: ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه، واعتمد عليه. قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على ألا يعود، وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه، وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله، فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه فطريقه إذا أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بتلك.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣).

يقول تعالى مخبرًا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوبًا، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب آخر كالفصائل والعشائر

والعمائر والأفخاذ وغير ذلك، فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمر الدينية، وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً، منبهاً على تساويهم في البشرية ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾؛ أي: ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته، وقال مجاهد في قوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ كما يقال فلان بن فلان من كذا وكذا؛ أي: من قبيلة كذا وكذا.

وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ﴾؛ أي: إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ: روى البخاري [٤٤١٢] عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم قال: (أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ). قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: (فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ خَلِيلِ اللَّهِ) قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: (فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟) قالوا: نعم. قال: (فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَفَهُوا)، وروى مسلم [٢٥٦٤] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾؛ أي: عليم بكم خبير بأموركم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله، وقد استدلل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ﴾ وذهب الآخرون إلى أدلة مذكورة في كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في كتاب «الأحكام» والله الحمد والمنة.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى منكرًا على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادَّعَوْا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حين سأل

عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه، وروى الإمام أحمد [١٥٢٢] عن سعد بن أبي وقاص قال: أعطى رسول الله ﷺ رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن، فقال النبي ﷺ: (أَوْ مُسْلِمٌ؟) حتى أعادها سعد ثلاثاً والنبي ﷺ يقول: (أَوْ مُسْلِمٌ؟) ثم قال النبي ﷺ: (إِنِّي لَأُعْطِي رَجُلًا وَادَّعَى مِنْهُ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُمْ فَلَا أُعْطِيهِ شَيْئًا؛ مَخَافَةَ أَنْ يُكَبِّرُوا فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ). أخرجاه في «الصحيحين»، فقد فرق النبي ﷺ بين المؤمن والمسلم، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام، وقد قررنا ذلك بأدلته في أول شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري والله الحمد والمنة، ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً؛ لأنه تركه من العطاء، ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك، وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة واختاره ابن جرير، وإنما قلنا هذا؛ لأن البخاري رحمه الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك.

وقد روي عن سعيد بن جبیر، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا في قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ أي: استسلمنا خوف القتل والسي [الطبري ١٤٢/٢٦]. قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمة، وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ، والصحيح الأول أنهم قوم ادَّعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقون في سورة براءة، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾؛ أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئاً كقوله: ﴿وَمَا أَلْتَمَسْتُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: لمن تاب إليه وأتاب، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إنما المؤمنون الكُمَّلُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾؛ أي: لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، هي التصديق المحض، ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾؛ أي: في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة.

وقوله: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؛ أي: أتخبرونه بما في ضمائركم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ثم قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾؛ يعني: الأعراب الذين يمتنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ، يقول الله تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم والله المنة عليكم

فيه، ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: في دعواكم ذلك كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلْفَكُمُ اللَّهُ بِي؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي؟). كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن [رواه البخاري/٤٠٧٥].

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.



## تفسير سورة ق وهي مكية

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح وقيل من الحجرات، وأما ما يقوله العوام: إنه من (عم) فلا أصل له ولم يقله أحد من العلماء المعبرين فيما نعلم، والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أبو داود في «سننه» [١٣٩٣] باب تحزيب القرآن عن أوس بن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، وكان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا، فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت علينا الليلة، قال ﷺ: (إِنَّهُ طَرَأَ عَلَيَّ حِزْبِي مِنَ الْقُرْآنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَجِيءَ حَتَّى أَتِمَّهُ). قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده، ورواه ابن ماجه [١٣٤٥] وأحمد [برقم/١٦٢١١، وسنده حسن].

إذا علم هذا فإذا عدت ثمانياً وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة ق. بيانه ثلاث: البقرة وآل عمران والنساء، وخمس: المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة، وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، وآلم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة رضي الله عنهم، فتعين أن أوله سورة ق. وهو الذي قلنا والله الحمد والمنة.

روى الإمام أحمد [٢١٩٤٦] أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف، واقتربت، ورواه مسلم [٨٩١]، وروى أحمد [٢٧٤٩٦] عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تثنونا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] إلا على لسان رسول الله ﷺ، وكان يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس، رواه مسلم [٨٧٣].

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والمعاد والقيام والحساب، والجنة والنار، والثواب، والعقاب، والترغيب، والترهيب.



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ②  
 إِذْ ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيطٌ ④  
 بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ⑤﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور، كقوله: «ص - ن - الم - حم - طس»، ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾؛ أي: الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، واختلفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيطٌ﴾، وفي هذا نظر بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ①﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿ص: ١، ٢﴾، وهكذا قال هاهنا: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ①﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾؛ أي: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر، كقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]؛ أي: وليس هذا بعجيب، فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس.

ثم قال مخبراً عنهم في عجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿إِذْ ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾؛ أي: يقولون أنذا متنا وبلينا، وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾؛ أي: بعيد الوقوع؛ والمعنى: أنهم يعتقدون استحالة وعدم إمكانه. قال الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين صارت؟ ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيطٌ﴾؛ أي: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم، وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم، ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ﴾؛ أي: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل، والمريع: المختلف المضطرب الملتبس، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُخِلِفٍ ⑧﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿الذاريات: ٨، ٩﴾.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۖ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۖ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۖ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۖ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۖ ﴿١١﴾﴾ .

يقول تعالى منبها للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبشرين لوقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾؛ أي: بالمصاييح ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ قال مجاهد: يعني: من شقوق، وقال غيره: فتوق، وقال غيره: صدوع [البغوي نحوه ٤/٢٢١]، والمعنى متقارب كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَاتَّجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ ۖ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَنْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣ - ٤]؛ أي: كليل عن أن يرى عيبًا أو نقصًا.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا﴾؛ أي: وسعناها وفرشناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وهي الجبال لثلا تميد بأهلها وتضطرب، ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾؛ أي: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقًا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾؛ أي: حسن نضر، ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾؛ أي: ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة وذكرى لكل عبد منيب؛ أي: خاضع خائف رجاء إلى الله ﷻ.

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾؛ أي: نافعا ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾؛ أي: حدائق من بساتين ونحوها، ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وهو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾؛ أي: طوالة شاهقات، قال ابن عباس، والحسن، والسدي وغيرهم: الباسقات الطوال. ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾؛ أي: منضود. ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾؛ أي: للخلق ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعدما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت، كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَنَمُودُ ۖ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۖ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ۖ ﴿١٤﴾ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۖ ﴿١٥﴾﴾ .

يقول تعالى مهديًا لكفار قريش، بما أحله بأشباهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا كقوم نوح وما عذبهم الله تعالى به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم في سورة الفرقان ﴿وَنَمُودُ ۖ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ

لَوْطٍ ﴿١٦﴾ وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق، ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَوْمُ ثُعُوبٍ﴾ وهو اليماني.

﴿كُلُّ كَذَّبَ الرَّسُلِ﴾؛ أي: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله، ومن كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم، ﴿حَقَّ وَعِيدٌ﴾؛ أي: فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من العذاب والنكال، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك.

وقوله تعالى: ﴿أَفَعَبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾؛ أي: أفعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَيْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، وفي «الصحیح»: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَقُولُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ) [البخاري/ ٤٦٩٠ نحوه].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنَفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر، وقد ثبت في «الصحیح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ) [البخاري/ ٦٢٨٧ واللفظ لمسلم/ ١٢٧]، وقوله: ﴿وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾؛ يعني: ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم فإنما فر لثلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه، فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد وإنما قال: ﴿وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ كما قال في «المحتضر»: ﴿وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]؛ يعني: ملائكته، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن بإذن الله ﷻ، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله جل وعلا لهم على ذلك، فللملك لمة من الإنسان كما أن للشيطان لمة، وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما أخبر بذلك

الصادق المصدوق [رواه البخاري]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾؛ يعني الملكين الذين يكتبان عمل الإنسان. ﴿عَنِ الَّيْمَنِ وَعَنِ الشَّامِلِ قَعْدٌ﴾؛ أي: مترصد ﴿مَا يَلْفُظُ﴾؛ أي: ابن آدم ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾؛ أي: ما يتكلم بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؛ أي: إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كُنِينِ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، فعلى قولين وظاهر الآية الأول لعموم قوله: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وروى الإمام أحمد [١٥٨٩٠] عن علقمة الليثي عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ)، فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث، ورواه الترمذي [٢٣١٩]، وقال: حسن صحيح وله شاهد في «الصحيح» [من حديث أبي هريرة في البخاري بنحوه/٦١١٣].

وقال الأحنف بن قيس: صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمير على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها، وإن أبى كتبها، رواه ابن أبي حاتم، وقال الحسن البصري - وتلا هذه الآية -: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمَّتْهُ طَسِيرُهُ فِي عَنُقِهِ وَنُجِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٢﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤] ثم يقول: عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك.

وقال ابن عباس: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى أنه ليكتب قوله: أكلت شربت ذهبت جئت رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقي سائرته، وذلك قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَرَبِّتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يثن في مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين، فلم يثن أحمد حتى مات ﷺ.

وقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ يقول ﷻ: وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق؛ أي: كشفت لك عن اليقين الذي كنت تتمري فيه، ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾؛ أي: هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص.

وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو، وقيل: الكافر، وقيل: غير ذلك.

روى ابن أبي الدنيا وابن جرير [١٦٠/٢٦] أنه لما ثقل أبو بكر رضي الله عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءَ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فكشف عن وجهه وقال رضي الله عنه: ليس كذلك، ولكن قلوي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ وقد أوردت لهذا الأثر طرقًا كثيرة في سيرة الصديق رضي الله عنه عند ذكر وفاته، وقد ثبت في «الصحیح» عن النبي ﷺ أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: (سُبْحَانَ اللَّهِ إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكْرَاتٍ) [البخاري/٤١٨٤ نحوه]، وفي قوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ قولان: أحدهما: أن «ما» هاهنا موصولة؛ أي: الذي كنت منه تحيد بمعنى تبتعد وتناى وتفر قد حل بك ونزل بساحتك. والقول الثاني: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

وقوله: ﴿وُفِّحَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾. قد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور للفرع والصعق والبعث، وذلك يوم القيامة [الزمر: ٦٨]، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدِ التَّقَمَ الْقُرْنُ وَحَنَى جَبْهَتُهُ، وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ) قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال ﷺ: (قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل [أخرجه ابن حبان/٨٢٣ بسند صحيح].

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ أي: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة، وهو اختيار ابن جرير، ثم روي من حديث يحيى بن رافع مولى لثقيف قال: سمعت عثمان بن عفان يخطب فقرأ هذه الآية: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فقال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت، وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد، وعن أبي هريرة: السائق: الملك، والشهيد العمل، وكذلك قال الضحاك والسدي، وعن ابن عباس: السائق من الملائكة والشهيد الإنسان نفسه، يشهد على نفسه، وبه قال الضحاك أيضًا [الطبري/١٦١/٢٦ - ١٦٢].

وحكى ابن جرير [١٦٣/٢٦] ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أحدها: أن المراد بذلك الكافر، قاله ابن عباس، وبه يقول الضحاك وصالح بن كيسان. والثاني: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كالقطة، والدنيا كالمنام، وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله، عن ابن عباس: والثالث: أن المخاطب بذلك النبي ﷺ وبه يقول زيد بن أسلم وابنه، والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك فبصرك اليوم حديد.

والظاهر من السياق خلاف هذا بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾؛ يعني: من هذا اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾؛ أي: قوي؛ لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصرًا حتى الكفار في الدنيا، يكونون يوم

القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ (٢٣) ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَفَّارٍ عِنْدِي﴾ (٢٤) ﴿مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ (٢٥) ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (٢٦) ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٢٧) ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ (٢٨) ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٢٩).

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾؛ أي: معد محضر بلا زيادة ولا نقصان، وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق، يقول ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته.

وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة، فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل فيقول: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَفَّارٍ عِنْدِي﴾.

والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرضة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم، وبئس المصير.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَفَّارٍ﴾؛ أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿عِنْدِي﴾ معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك.

﴿مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾؛ أي: لا يؤدي ما عليه من الحقوق ولا بر فيه ولا صلة، ولا صدقة، ﴿مُعْتَدٍ﴾؛ أي: فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد، وقال قتادة: معتد في منطقته وسيرته وأمره. ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: شاك في أمره مرِيب لمن نظر في أمره ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾؛ أي: أشرك بالله فعبد معه غيره ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة وغيرهم: هو الشيطان الذي وكل به [الطبري ١٦٧/٢٦] ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ﴾؛ أي: يقول عن الإنسان الذي قد أوفى القيامة كافراً يتبرأ منه شيطانه فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ﴾؛ أي: ما ما أضللتني ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى في قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول الرب ﷻ للإنسي وقريته من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق، فيقول الإنسي: يا رب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: عن منهج الحق، فيقول الرب ﷻ لهما: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾؛ أي: عندي ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾؛ أي: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج والبيئات والبراهين ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾

قال مجاهد: يعني: قد قضيت ما أنا قاض ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أي: لست أعذب أحداً إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ (٢٥) وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِّلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٢﴾ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَنِيِّ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾.

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه تبارك وتعالى وعدّها أنه سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو ﷺ يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى وهي تقول: هل من مزيد؟ أي: هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية وعليه تدل الأحاديث، روى الإمام أحمد [١٤٠٠٠] عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يَلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، وَعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ فَيَسْكُنَهُمْ فِي فُضُولِ الْجَنَّةِ) [رواه مسلم/٢٨٤٨، ورواه البخاري/٦٩٤٩ مختصراً].

وروى البخاري [٤٥٦٩] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوْثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهم. قَالَ اللَّهُ ﷻ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمَتِي، أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي، أَعَذَّبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ، فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، فَهَذَا تَمْتَلِئُ وَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ).

وروى ابن أبي حاتم [١٨٦٤٢] عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ قال: ما امتلأت، قال: تقول: وهل من مكان يزداد في، وكذا عن عكرمة ﴿وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ وهل في مدخل واحد قد امتلأت، وعن مجاهد قال: لا يزال يقذف فيها حتى تقول: امتلأت فتقول: هل من مزيد؟ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا، فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿هَلِ امْتَلَأَتْ﴾ إنما هو بعدما يضع عليها قدمه، فتنزوي وتقول حينئذٍ هل بقي في مزيد يسع شيئاً؟ وعن ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِّلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ قال قتادة، وأبو مالك، والسدي: ﴿وَأَزَلَّتْ﴾ أدنيت وقربت من المتقين، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب. ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾؛ أي: رجاء تائب مقلع، ﴿حَفِيفٍ﴾؛ أي: يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكته، وقال عبيد بن عمير: الأواب الحفيظ الذي لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله ﷻ.

﴿مَنْ حَتَّى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله، كقوله ﷻ: ﴿وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ﴾ [البخاري/٦٢٩ ومسلم/١٠٣١].

﴿وَمَاءٌ يَقْلِبُ مُنِيبٌ﴾؛ أي: ولقي الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه ﴿أَدْخُلُوهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿بِسَلَامٍ﴾ قال قتادة: سلموا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله، وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾؛ أي: يخلدون في الجنة فلا يموتون أبدًا، ولا يظعنون أبدًا، ولا يبغيون عنها حولًا، وقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾؛ أي: مهما اختاروا وجدوا، من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم.

روى ابن أبي حاتم [١٨٦٤٤] عن كثير بن مرة قال: من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره لكم؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم. قال كثير: لئن أشهدني الله تعالى ذلك لأقولن أمطرنا جوارى مزيئات.

وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، كقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وفي «صحيح مسلم» [١٨١] عن صهيب بن سنان الرومي أنها النظر إلى وجه الله الكريم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَأَصْبَرَ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ (٤٠).

يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المنكرين ﴿مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾؛ أي: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثأروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، ولهذا قال ههنا: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ قال ابن عباس: أثروا فيها، وقال مجاهد: ضربوا في الأرض، وقال قتادة: فساروا في البلاد؛ أي: ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم بها، ويقال لمن طوف في البلاد: نقب فيها [الطبري/١٧٦/٢٦].

وقوله: ﴿هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾؛ أي: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره، وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل، فأنتم أيضًا لا مفر لكم ولا محيد، ولا مناص، ولا محيص.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾؛ أي: لعبرة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾؛ أي: لب يعي به، وقال مجاهد: عقل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ أي: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بعقله، وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾؛ يعني: لا يحدث نفسه في هذا غيره، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وقال: شاهد القلب، وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه، وهو شاهد بقلب غير غائب، وهكذا قال الثوري وغير واحد.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادر على أن يحيي



الموتى بطريق الأولى والأخرى، وقال قتادة: قالت اليهود - عليهم لعائن الله -: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾؛ أي: من إعياء ولا تعب ولا نصب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَئِثْ بِخَلْقِهِنَّ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْمَوْتُ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقوله: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾؛ يعني: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء اثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب [كما سيأتي في تفسير المزمّل].

وروى الإمام أحمد [١٩٢٧١] عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: (أَمَّا إِنَّكُمْ سَتَعْرَضُونَ عَلَى رَبِّكُمْ فَتَرَوْنَهُ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُونَ فِيهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا)، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ ورواه البخاري [٥٢٩].

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾؛ أي: فصل له كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

﴿وَأَذِّنْ الصُّجُودَ﴾ قال ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة، ويؤيد هذا ما ثبت في «الصحاحين» عن أبي هريرة أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال النبي ﷺ: (وَمَا ذَاكَ؟) قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. قال ﷺ: (أَفَلَا أَعَلَمْتُمْ شَيْئًا إِذَا فَعَلْتُمُوهُ سَبَقْتُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ فَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلْتُمْ؟ تُسَبِّحُونَ وَتُحَمِّدُونَ وَتُكَبِّرُونَ ذُبِرَ كُلُّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ) قال: فقالوا يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال ﷺ: (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ). [البخاري/٨٠٧ بنحوه ومسلم/٥٩٥] والقول الثاني: أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ الصُّجُودَ﴾ هما الركعتان بعد المغرب وروي ذلك عن عمر وعلي وابنه الحسن، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي أمامة رضي الله عنهم وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والنخعي، والحسن، وقتادة وغيرهم.

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ ﴿٤٥﴾.

يقول تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال كعب الأحبار: يأمر الله

تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة، إن الله تعالى يأمرن أن تجتمعن لفصل القضاء. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾؛ يعني: النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾؛ أي: من الأجداث ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُيِّتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾؛ أي: هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلًّا بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ وذلك أن الله ﷻ ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ في الصور وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله ﷻ: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تمره فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ وتشق الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً، مبادرين إلى أمر الله ﷻ، ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ وَتُظَنُّونَ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]، وفي «صحيح مسلم» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ) [رواه مسلم عن أبي هريرة بلفظ: القبر، برقم/٢٢٧٨]، وقوله: ﴿ذَلِكَ حَشَرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾؛ أي: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهولنك ذلك كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾؛ أي: ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به، وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾؛ أي: لا تتجبر عليهم [الطبري ١٨٤/٢٦]. والقول الأول أولى، ولو أراد ما قالوه لقال: ولا تكن جباراً عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾؛ بمعنى: وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ، وقال الفراء: سمعت العرب تقول: جبر فلان فلاناً على كذا بمعنى أجبره، ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾؛ أي: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿٧٩﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]. ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كان قتادة يقول: اللَّهُمَّ اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعودك يا بر يا رحيم.



## تفسير سورة الذاريات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَأَلْحَمِلَتْ وَقرًا ﴿٢﴾ فَأَلْجَرَيْنَ يُسرًا ﴿٣﴾ فَأَلْمَسَتِ أمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُلُوبُ الْغَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍو سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارٍ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَلَنْ نَكُفِّرَهُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ .

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى، ولا عن سنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أنبأتكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء، فقال: يا أمير المؤمنين ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ قال علي عليه السلام: الريح، قال: ﴿فَأَلْحَمِلَتْ وَقرًا﴾ قال: السحاب، قال: ﴿فَأَلْجَرَيْنَ يُسرًا﴾ قال: السفن، قال: ﴿فَأَلْمَسَتِ أمْرًا﴾ قال: الملائكة.

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار [٢٩٩] عن سعيد بن المسيب قال: جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، فأخبرني عن الذاريات ذروا، فقال: هي الرياح، قال: فأخبرني عن المقسمات أمرا، قال: هي الملائكة، قال: فأخبرني عن الجاريات يسرا قال: هي السفن. ثم أمر بضربه فضرب مائة وجعل في بيت، فلما برأ دعا به فضربه مائة أخرى وحمله على قتب وكتب إلى أبي موسى الأشعري: امنع الناس من مجالسته، فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى عليه السلام، فحلف بالأيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئا، فكتب في ذلك إلى عمر عليه السلام، فكتب عمر: ما إخاله إلا قد صدق فخل بينه وبين مجالسة الناس.

وهكذا فسرهما ابن عباس، وابن عمر، والحسن وقتادة، والسدي، وغير واحد، ولم يحك ابن جرير، وابن أبي حاتم غير ذلك. وقد قيل: إن المراد بالذاريات الرياح كما تقدم، وبالحاملات وقرًا السحاب كما تقدم؛ لأنها تحمل الماء، فأما الجاريات يسرا فالمشهور عن الجمهور كما تقدم أنها السفن، تجري ميسرة في الماء جريا سهلا، وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسرا في أفلاكها ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمرا الملائكة فوق ذلك تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية، وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ

صَادِقٌ؛ أي: لخبر صدق ﴿وَإِنَّ الْبَيْنَ﴾ وهو الحساب ﴿لَوْعٌ﴾؛ أي: لكائن لا محالة. ثم قال: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُكِ﴾ قال ابن عباس: ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء، وكذا قال مجاهد، والسدي، وقتادة وغيرهم، وقال الضحاك والمنهال بن عمرو وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع، إذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضاً طرائق طرائق، فذلك الحبك.

روى ابن جرير [١٩٠/٢٦] عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمُ الْكَذَّابَ الْمُضِلَّ، وَإِنَّ رَأْسَهُ مِنْ وَرَائِهِ حُبْكُ حُبْكٍ)؛ يعني: بالحبك الجعودة لورواه أحمد/٢٣٥٣٤ ورجاله رجال الصحيح، وعن أبي صالح: ذات الحبك الشدة، وقال خصيف: ذات الصفاقة، وقال الحسن البصري: حبكت بالنجوم، وقال عبد الله بن عمرو: يعني: السماء السابعة.

وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء كما قال ابن عباس، فإنها من حسننها مرتفعة شفاقة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء أنيقة البهاء، مكلفة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزهرات.

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ تُخَلِّفُ﴾؛ أي: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول لفي قول مختلف مضطرب لا يلتزم ولا يجتمع، وقال قتادة: يعني: ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به. ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفُكُ﴾؛ أي: إنما يروج على من هو ضال في نفسه؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه، ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَتَنِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ١٦١ - ١٦٣] قال ابن عباس والسدي: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفُكُ﴾ يضل عنه من ضل. وقال مجاهد: يؤفن عنه من أفن، وقال الحسن البصري: يصرف عن هذا القرآن من كذب به، وقوله: ﴿قُلْ الْخَرَصُونَ﴾ قال مجاهد: الكذابون. قال: وهي مثل التي في عبس ﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ [عبس: ١٧]، والخراصون الذين يقولون: لا نبعث ولا يوقنون، وقال ابن عباس: لعن المرتابون، وهكذا كان معاذ ﷺ يقول في خطبته: هلك المرتابون، وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون [الطبري ٢٦/١٩٢].

وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرٍ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: في الكفر والشك غافلون لاهون [الطبري ٢٦/١٩٢]. ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً وشكاً واستبعاداً.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغير واحد: يفتنون يعذبون. قال مجاهد: كما يفتن الذهب على النار، وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضاً وعكرمة، وإبراهيم النخعي وزيد بن أسلم وسفيان الثوري: يحرقون [الطبري ٢٦/١٩٣]. ﴿ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ﴾ قال مجاهد: حريقكم، وقال غيره: عذابكم ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ أي: يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً [الطبري ٢٦/١٩٥].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ رِزْقُهُمْ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ رِزْقُهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَيَا لَأَسْفَارٍ لَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المتقين الله ﷻ: أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال. وقوله: ﴿ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قال ابن جرير [١٩٦/٢٦]: أي: عاملين بما آتاهم الله من الفرائض ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾؛ أي: قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضاً، والذي فسر به ابن جرير فيه نظر؛ لأن قوله تبارك وتعالى: (آخِذِينَ) حال من قوله في جنات وعيون، فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذين ما آتاهم ربهم؛ أي: من النعيم والسرور والغبطة.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾؛ أي: في الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ اختلف المفسرون في ذلك على قولين: أحدهما: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً، وقال مطرف بن عبد الله: قلّ ليلة لا تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله ﷻ، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون، وكذا قال قتادة، وقال أنس بن مالك، وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء، وقال أبو جعفر الباقر: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة، والقول الثاني: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم، واختاره ابن جرير [١٩٧/٢٦]. وقال الحسن البصري: كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر، وقال الأحنف بن قيس: كانوا لا ينامون إلا قليلاً، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصري: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملي على أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بوناً بعيداً، إذا قوم لا نبليهم أعمالهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وعرضت عملي على أهل النار، فإذا قوم لا خير فيهم مكذبون بكتاب الله وبرسل الله، مكذبون بالبعث بعد الموت، فقد وجدت من خيرنا منزلة قومًا خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا ذكر الله تعالى قومًا فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم، فقال له أبي: طوبى لمن رقد إذا نعس واتقى الله إذا استيقظ [الطبري ١٩٩/٢٦]، وقال عبد الله بن سلام ﷺ: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنفت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته ﷺ يقول: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَطْعِمُوا

الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ [رواه الترمذي/ ٢٤٨٥ وصححه].

قال الزهري والحسن: كانوا كثيرًا من الليل ما يصلون، وقال ابن عباس، وإبراهيم النخعي: ما ينامون، وقال الضحاك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ ١٦ ﴿كَانُوا قَلِيلًا﴾ ثم ابتداءً فقال: ﴿مَنْ أَلَيْلَ مَا يَهْجَمُونَ﴾ ١٧ ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وقوله ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن، وقد ثبت في «الصحاح» وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى سَوْؤَلُهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ) [رواه مسلم/ ٧٥٨ وهو حديث متواتر كما نص عليه الدارقطني وغيره].

وقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾؛ أي: جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم. أما السائل فمعروف وهو الذي يتدنى بالسؤال، وله حق، وأما المحروم فقال ابن عباس، ومجاهد: هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم. يعني لا سهم له في بيت المال، ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها، وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه، وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله تعالى له ذلك، وقال أبو قلابة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم وقال ابن عباس أيضًا وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي ونافع مولى ابن عمر وعطاء بن أبي رباح: المحروم المحارف، وقال قتادة والزهري: المحروم الذي لا يسأل الناس شيئًا. قال الزهري وقد قال رسول الله ﷺ: (لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِالطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يَفْطِنَ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ)، وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما [البخاري/ ٤٢٦٥ ومسلم/ ١٠٣٩ بلفظ قريب]، وقال سعيد بن جبير: هو الذي يجيء وقد قُسم المغنم فیرضخ له، وقال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم.

واختار ابن جرير [٢٠٣/٢٦] أن المحروم الذي لا مال له بأي سبب كان وقد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب أو قد هلك ماله أو نحوه بأفة أو نحوها.

وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾؛ أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألْسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه، ولهذا قال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

ثم قال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾؛ يعني: المطر ﴿وَمَا تُوَعَّدُونَ﴾؛ يعني: الجنة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد.

وقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِفُونَ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنِعْلِمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

هذه القصة قد تقدمت في سورة هود [٦٩ - ٧٣]، والحجر [٥١ - ٥٦] أيضًا، وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾؛ أي: الذين أُرصد لهم الكرامة، وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السُّنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل، وقوله: ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ الرفع أقوى وأثبت من النصب، فردّه أفضل من التسليم. قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحْوِهِ فَجُوبُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل، وقوله: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ وذلك أن الملائكة قدموا عليه في صورة شباب حسان عليهم مهابة عظيمة، ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾، وقوله: ﴿فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾؛ أي: انسل خفية في سرعة، ﴿فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ﴾؛ أي: من خيار ماله، وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَسِينٍ﴾ [هود: ٦٩]؛ أي: مشوي على الرِّضف، ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: أدناه منهم ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ تُلطف في العبارة وعرض حسن، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولاً، فقال: نأتىكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال اقربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمُ لُوطٍ ﴿٧﴾ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود: ٧٠، ٧١]؛ أي: استبشرت بهلاكهم، لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. وقال هاهنا: ﴿وَبَشِّرُوهُ بِنِعْلِمٍ عَلِيمٍ﴾ فالبشارة له هي بشارة لها؛ لأن الولد منها، فكل منهما بشر به، وقوله: ﴿فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَفٍ﴾؛ أي: في صرخة عظيمة ورنه، قاله ابن عباس، وزيد بن أسلم والسدي [وغيرهم] وهي قولها: «يا ويلتنا» [الطبري ٢٦/٢٠٩] ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾؛ أي: ضربت بيدها على جبينها قاله مجاهد، وابن سابط، وقال ابن عباس: لطمت؛ أي: تعجبت كما تتعجب النساء من

الأمر الغريب ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾؛ أي: كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل؟ ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: عليم بما تستحقون من الكرامة حكيم في أقواله وأفعاله.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾.

قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلْنَا فِي قَوْمٍ لُّوطٍ﴾ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَذَكَّرُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لِاتِهِمْ عَذَابٌ مَّرْدُودٌ ﴿هود: ٧٤ - ٧٦﴾، وقال ها هنا: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾؛ أي: ما شأنكم وفيهم جئتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾؛ يعنون: قوم لوط، ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ (٣٣) مُّسَوَّمَةً؛ أي: معلمة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: مكتوبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]، وقال ها هنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ﴿فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ احتج بهذه من ذهب إلى رأي المعتزلة ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين، وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس فاتفق الاسمان ها هنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال، وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾؛ أي: جعلناها عبرة لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٨) فَتَوَلَّىٰ رُكُوعًا وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٢٩﴾ فَأَخَذَتْهُ وَخُودُهُ فَبَدَّهَتْهُمُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا نَذَرُ مِن شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ تَمَعُّوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَمَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِّن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمٌ نُّوحٌ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾.

يقول تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى﴾؛ أي: آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿فَتَوَلَّىٰ رُكُوعًا﴾؛ أي: فأعرض فرعون عما جاء به موسى من الحق المبين استكباراً وعناداً، وقال مجاهد: تعزز بأصحابه، وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه [الطبري



٢٧/٣، وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّى رُكْبَهُ﴾؛ أي: بجموعه التي معه، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِيَّةً إِلَىٰ رُكْبِي شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، والمعنى الأول قوي كقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩]؛ أي: معرض عن الحق مستكبر ﴿وَقَالَ سَجَرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾؛ أي: لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَذَلَتْهُمْ﴾؛ أي: ألقيتهم ﴿فِي الْيَمِّ﴾ وهو البحر ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ أي: وهو ملوم كافر معاند.

ثم قال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾؛ أي: المفسدة التي لا تنتج شيئاً. قاله الضحاك، وقتادة وغيرهما، ولهذا قال: ﴿مَا نَذُرُ مِن شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: مما تفسده الريح ﴿إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾؛ أي: كالشيء الهالك البالي. قال سعيد بن المسيب وغيره: هي الجنوب، وقد ثبت في «صحيح [مسلم/٩٠٠]» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلِكَتُ عَادَ بِالذُّبُورِ). ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ تَمَنَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن جرير: يعني: إلى وقت فناء آجالكم، والظاهر أن هذه كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧]. وهكذا قال ها هنا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ تَمَنَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ٤٣ ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكْرَةَ النَّهَارِ ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾؛ أي: من هرب ولا نهوض ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ﴾؛ أي: لا يقدرُونَ على أن ينتصروا مما هم فيه. وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسطة في أماكن كثيرة من سور متعددة.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ٤٧ ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾ ٤٨ ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ٤٩ ﴿فَقَرَأُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَكَرِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ٥٠ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنَّ لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ٥١.

يقول تعالى منبهاً على خلق العالم العلوي والسفلي ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾؛ أي: جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً ﴿بِأَيْدٍ﴾؛ أي: بقوة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثوري وغير واحد [الطبري ٧/٢٧] ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾؛ أي: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي، ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾؛ أي: جعلناها فراشاً للمخلوقات ﴿فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾؛ أي: وجعلناها مهداً لأهلها ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾؛ أي: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياء، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات جن وإنس، ذكور وإناث والنباتات، ولهذا قال: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ﴿فَقَرَأُوا إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: الجأوا إليه واعتمدوا في أموركم عليه ﴿إِنَّ لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ٥٠ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾؛ أي: لا تشركوا به شيئاً ﴿إِنَّ لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾ اتَّوَصَوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَنُؤَلِّهِمْ هُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسولهم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ قال الله تعالى: ﴿اتَّوَصَوْا بِهِمْ﴾؛ أي: أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ أي: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم. قال الله تعالى: ﴿فَنُؤَلِّهِمْ هُمْ﴾؛ أي: فأعرض عنهم يا محمد، ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾؛ يعني: فما نلومك على ذلك ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة، ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي: إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم، وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي: إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً، وهذا اختيار ابن جرير [١٢/٢٧]، وقال ابن جريج: إلا ليعرفون، وقال الربيع بن أنس: أي: إلا للعبادة، وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون.

وقوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ [٥٧] إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ معنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم، وروى الإمام أحمد [٨٦٨١] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (قَالَ اللَّهُ: يَا ابْنِ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمَلًا صَدْرَكَ غَنَى، وَأَسَدًا فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفَعَّلَ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسَدًا فَقْرَكَ)، ورواه الترمذي [٢٤٦٦]، وقال: حسن غريب [ورواه الحاكم/٣٦٥٧، وصححه ووافقه الذهبي].

وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾؛ أي: نصيباً من العذاب ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ أي: فلا يستعجلون ذلك، فإنه واقع لا محالة ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾؛ يعني: يوم القيامة.



## تفسير سورة الطور

وهي مكية

روى مالك [١٧١] عن جبير بن مطعم: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا أو قراءة منه، أخرجه [البخاري/ ٧٣١ ومسلم/ ٤٦٣]. وروى البخاري [٤٥٢] عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنني أشتكي فقال: (طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ) فظفت ورسول الله يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور [ورواه مسلم/ ١٢٧٦].

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍ مَّنْشُورٍ ٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤﴾ وَالسَّافِرِ الْمَرْفُوعِ ٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصَيْرُونَ ١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦﴾

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم، فالطور هو الجبل الذي يكون فيه أشجار، مثل الذي كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورًا إنما يقال له: جبل. ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ، وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهارًا، ولهذا قال: ﴿فِي رَقٍ مَّنْشُورٍ ٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: (ثُمَّ رُفِعَ بِي إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ) [البخاري/ ٣٦٧٤ نحوه ومسلم/ ١٦٢٢]، يعني: يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مسندًا ظهره إلى البيت المعمور [مسلم/ ١٦٢٢]؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة، والله أعلم.

وروى ابن جرير [١٦/٢٧] أن رجلاً قال لعلي: ما البيت المعمور؟ قال: بيت في السماء يقال له: الضراح، وهو بحيال الكعبة من فوقها، حرمة في السماء كحرمة البيت في الأرض،

يصلّي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً، وعن ابن عباس: هو بيت حذاء العرش تعمّره الملائكة، يصلّي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه، وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وغير واحد من السلف.

وقوله: ﴿وَالسَّافِرُونَ﴾ قال علي: يعني: السماء، ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدي، وابن جريج، وابن زيد، واختاره ابن جرير [١٨/٢٧]، وقال الربيع بن أنس: هو العرش؛ يعني: أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه وهو مراد مع غيره كما قاله الجمهور.

وقوله: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾؛ قال الربيع بن أنس: هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر، الذي يحيي به الأجساد في قبورها يوم معادها، وقال الجمهور: هو هذا البحر، واختلف في معنى قوله المسجور فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة ناراً كقوله: ﴿وَإِذَا أَلْحَاؤُ سِجْرَتٍ﴾ [التكوير: ٦]؛ أي: أضرمت فتصير ناراً تتأجج محيطه بأهل الموقف، رواه سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب، وروي عن ابن عباس وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وعبيد بن عمير وغيرهم، وقال العلاء بن بدر: إنما سمي البحر المسجور؛ لأنه لا يشرب منه ماء ولا يسقى به زرع وكذلك البحار يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير ﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾؛ يعني: المرسل، وقال قتادة: المسجور المملوء، اختاره ابن جرير [١٩/٢٧] ووجهه بأنه ليس موقداً اليوم فهو مملوء، وقيل: المراد به الفارغ، فعن ابن عباس قال: الفارغ خرجت أمة تستسقي فرجعت فقالت: إن الحوض مسجور؛ يعني: فارغاً، وقيل: المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لثلا يغمرها فيغرق أهلها قاله ابن عباس وبه يقول السدي وغيره.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا هو المقسم عليه؛ أي: لواقع بالكافرين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾؛ أي: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك. وروى الإمام أبو عبيد في فضائل القرآن عن الحسن أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿فربما لها ربوة عيد منها عشرين يوماً، وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ قال ابن عباس، وقتادة: تتحرك تحريكاً، وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دوراً، وقال الضحاك: استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها في بعض، وهذا اختيار ابن جرير [٢١/٢٧] أنه التحرك في استدارة.

﴿وَنَسِيرُ الْجِبَالِ سَيْرًا﴾؛ أي: تذهب فتصير هباء منبثاً، وتنسف نسفاً، ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَدِّقِينَ﴾؛ أي: ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: هم في الدنيا يخوضون في الباطل، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً، ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ﴾؛ أي: يدفعون ويساقون، ﴿إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ قال مجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب والضحاك والسدي والثوري: يدفعون فيها دفعاً ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: تقول لهم الزبانية ذلك تقريباً وتوبيخاً، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (١٥) ﴿أَصْلَوْهَا﴾؛ أي:

ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ولا يظلم الله أحداً، بل يجازي كلًا بعمله.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾ كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْصُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

يخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فَكِهِينَ بِمَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ﴾؛ أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ، من مأكّل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقوله: ﴿كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا آسَفْتُمْ فِي الذَّيَّارِ الْحَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]؛ أي: هذا بذاك تفضلاً منه وإحساناً، وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْصُوفَةٍ﴾ عن ابن عباس: السرر في الحجال [الطبري ٢٣/٢٠].

وعن ثابت قال: بلغنا أن الرجل ليتكىء في الجنة سبعين سنة عنده من أزواجه وخدمه، وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم، فإذا حانت منه نظرة، فإذا أزواج له لم يكن رآهن قبل ذلك، فيقلن: قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيباً، ومعنى ﴿مَصْصُوفَةٍ﴾؛ أي: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصفات: ٤٤].

﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾؛ أي: وجعلنا لهم قرينات صالحات وزوجات حسناً من الحور العين، وقال مجاهد: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ أنكحناهم بحور عين [الطبري ٢٥/١٣٦]، وقد تقدم وصفهن في غير موضع.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿١١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَحِمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١٢﴾ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿١٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُلَمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْزُؤٌ مَكُونٌ ﴿١٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُتْفِقِينَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿١٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص

ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك، ولهذا قال: ﴿الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال ابن عباس: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.

وعن ابن عباس [أيضاً] في هذه الآية يقول: والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتي، ألحقهم بإيمانهم إلى الجنة، وأولاهم الصغار تلحق بهم، وهذا راجع إلى التفسير الأول، فإن ذلك مفسر أصح من هذا، وهكذا يقول الشعبي وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وقتادة، وابن زيد [وغيرهم] وهو اختيار ابن جرير [٢٧/٢٥].

وهذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد روى الإمام أحمد [١٠٦١٨] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدِكَ لَكَ). إسناده صحيح، وله شاهد في «صحيح مسلم» [١٦٣١] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: (إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ).

وقوله: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد، بل ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾؛ أي: مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أباً أو ابناً، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدر: ٢٨]، وقوله: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ أي: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى.

وقوله: ﴿يَنْدَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾؛ أي: يتعاطون فيها كأساً؛ أي: من الخمر. قاله الضحاك. ﴿لَا لَعُوَ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ﴾؛ أي: لا يتكلمون فيها بكلام لاغ؛ أي: هذيان، ولا إثم؛ أي: فُحْش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا. قال ابن عباس: اللغو: الباطل. والتأنيث: الكذب، وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون، وقال قتادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان [الطبري ٢٧/٢٩]. فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، كما تقدم فنفى عنها صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هذياناً وفُحْشاً، وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بِضْءَةٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ﴾ [الصافات: ٤٦، ٤٧]، وقال: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ﴾ [الواقعة: ١٩]، وقال ههنا: ﴿يَنْدَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعُوَ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ﴾.

وقوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُمُورٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوُثٌ مَكْنُونٌ﴾ إخبار عن خدَمهم وحَشَمهم في الجنة؛ كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ ﴿يَأْكُوبُ وَأَبَاقُ وَكُلٌّ مِنْ مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ أي: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يتحدث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما

كان من أمرهم، ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَدَابَ الْأَسْمُومِ﴾؛ أي: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾؛ أي: نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّ الْمُنُونِ ﴿٢٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْصِصِينَ ﴿٢١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ هَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٢٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾.

يقول تعالى أمراً رسوله بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾؛ أي: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش، والكاهن الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس. ثم قال تعالى منكرًا عليهم في قولهم في الرسول ﷺ ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّ الْمُنُونِ﴾؛ أي: قوارع الدهر، والمنون: الموت، يقولون ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْصِصِينَ﴾؛ أي: انتظروا فإنني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ هَذَا﴾؛ أي: عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ أي: ولكن هم قوم طاغون ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ﴾؛ أي: اختلقه وافتراه من عند نفسه يعنون القرآن، قال الله: ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾؛ أي: إن كانوا صادقين في قولهم: تقوله وافتراه فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاءوا بمثله، ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٢٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴿٢٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلُوكٌ يَسْتَعِينُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعِينُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٢٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٣٠﴾ أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٣١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾.

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ

الْخَلْقُونَ؟ أَي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أَي: لا هذا ولا هذا بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً. روى البخاري [٤٥٧٣] عن جبير بن مطعم قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَلْقُونَ﴾ (٤٥) أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ؟ كاد قلبي أن يطير، وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ؟ أَي: أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك، ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ؟ أَي: أَمْ يتصرفون في الملك ويدهم مفاتيح الخزائن﴾ (٣٦) أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ؟ أَي: المحاسبون للخلاق، ليس الأمر كذلك بل الله ﷻ هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

وقوله: ﴿أَمْ هُمُ سَاءٌ يَسْتَمُونُ فِيهِ؟ أَي: مرقاة إلى الملأ الأعلى، ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَعْتِمٌ بِسُطْنٍ مُبِينٍ؟ أَي: فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال؛ أَي: وليس لهم سبيل إلى ذلك فليسوا على شيء، ولا لهم دليل. ثم قال منكرًا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثاً، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله وعبدوهم مع الله فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ؟ وهذا تهديد شديد ووعد أكيد﴾ (٤٦) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا؟ أَي: أجرة إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أَي: لست تسألهم على ذلك شيئاً ﴿فَهُمْ مِنْ مَّعْزَمٍ مُثْقَلُونَ؟ أَي: فهم من أدنى شيء يتبرمون منه ويثقلهم ويشق عليهم﴾ (٤٧) أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكِيدُونَ؟ أَي: ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ؟ يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون﴾ (٤٨) أَمْ هُمُ إِلَهٌ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ؟ وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون فقال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ (٤٩) فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٥٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٥١) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٥٣) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٥٤).

يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا؟ أَي: عليهم يعذبون به كما صدقوا، ولما أيقنوا، ﴿يَقُولُوا﴾ بل يقولون: هذا ﴿سَحَابٌ



مَرْكُومٌ؛ أَي: متراكم. قال الله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ﴾؛ أَي: دعهم يا محمد ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يَعْنَى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾؛ أَي: لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا يوم القيامة شيئًا ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾؛ أَي: قبل ذلك في الدار الدنيا، كقوله: ﴿وَلَنُنَذِرُنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أَي: نعتبهم في الدنيا ونبتلهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلي عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.

وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أَي: اصبر على أذاهم ولا تبالهم فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا والله يعصمك من الناس، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال الضحاك: أَي: إلى الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك [الطبري ٣٨/٢٧]، وقد روي مثله عن الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما.

وروى مسلم في «صحيحه» [٣٩٩] عن عمر أنه كان يقول: هذا في ابتداء الصلاة، ورواه أحمد [١١٤٩١] وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره، عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك. وقال أبو الجوزاء: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾؛ أَي: من نومك من فراشك، واختاره ابن جرير [٢٧/٣٨] ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد [٢٢٧٢٥] عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي - أَوْ قَالَ: ثُمَّ دَعَا - اسْتَجِيبَ لَهُ، فَإِنْ عَزَمَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ صَلَّى تُقْبِلَتْ صَلَاتُهُ) وأخرجه البخاري، وقال مجاهد: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: من كل مجلس، وعن أبي الأحوص قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

وعن عطاء بن أبي رباح أنه قال: حين تقوم من كل مجلس إن كنت أحسنت ازددت خيرًا، وإن كنت غير ذلك كان هذا كفارة له، وقد وردت أحاديث مسندة من طرق يقوي بعضها بعضًا بذلك، فمن ذلك حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: (مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَفْظُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غُفِرَ اللَّهُ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ). رواه الترمذي [٣٤٣٣]، وقال: حسن صحيح، وأخرجه الحاكم [١٩٦٩]، وقال: إسناده على شرط مسلم.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾؛ أَي: اذكره واعبد به بالتلاوة والصلاة في الليل، كما قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقوله: ﴿وَادْبَرْ الْأُجُورَ﴾ هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم؛ أَي: عند جنوحها للغيوبة، وقد ثبت في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهدًا منه على ركعتي الفجر [البخاري/١١١٦]، وفي لفظ لمسلم [٧٢٤]: (رَكَعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا).

## تفسير سورة النجم

وهي مكية

روى البخاري [٤٥٨٢] عن عبد الله [بن مسعود] قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة: «والنجم» قال: فسجد النبي ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفًا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتل كافرًا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ (٤)﴾

قال الشعبي وغيره: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق، واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فقال مجاهد: يعني: بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر. وكذا روي عن ابن عباس وسفيان الثوري واختاره ابن جرير. وزعم السدي أنها الزهرة، وقال الضحاك: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا رُمي به الشياطين، وهذا القول له اتجاه.

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾؛ يعني: القرآن إذا نزل، وهذه الآية، كقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمْ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۝ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٨٠]. وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول ﷺ، بأنه راشد تابع للحق ليس بضال، وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم، والغاوي هو العالم بالحق العادل عنه قصدًا إلى غيره، فتنزه الله رسوله وشرعه، عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود، وهي علم الشيء وكتمانه، والعمل بخلافه، بل هو صلوات الله وسلامه عليه وما بعثه به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾؛ أي: ما يقول قولًا عن هوى وغرض ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾؛ أي: إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفورًا من غير زيادة ولا نقصان كما رواه الإمام أحمد [٢٢٢٦٩] عن أبي أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ لَيْسَ بِنَبِيِّ مِثْلِ الْحَيَّيْنِ - أَوْ: مِثْلِ أَحَدِ الْحَيَّيْنِ -: رَبِيعَةُ وَمُضَرٌ) فقال رجل: يا رسول الله أو ما ربعة من مضر؟ قال: (إِنَّمَا أَقُولُ مَا أَقُولُ) [قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة وهو ثقة].

وروى الإمام أحمد [٦٥١٠] عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من

رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب، فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (اَكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا خَرَجَ مِنِّي إِلَّا حَقٌّ) ورواه أبو داود [برقم/٣٦٤٦] وسنده حسن. وروى الإمام أحمد [٨٤٦٢] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا) قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: (إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا) [ورواه الترمذي/١٩٩٠ وقال: حسن صحيح].

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴿١١﴾ أَفَتُكْفَرُونَهُ ۖ عَلَيَّ مَا يَرَى ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَابِئِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علمه الذي جاء به إلى الناس ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ وهو جبريل عليه السلام، كما قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١١﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١]، وقال هاهنا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ أي: ذو قوة، قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد، وقال ابن عباس: ذو منظر حسن، وقال قتادة: ذو خَلْقٍ طویل حسن [الطبري ٢٧/٤٣]، ولا منافاة بين القولين فإنه عليه السلام ذو منظر حسن وقوة شديدة.

وقوله: ﴿فَاسْتَوَى﴾؛ يعني: جبريل عليه السلام، قاله الحسن ومجاهد، وقاتدة، والربيع بن أنس ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾؛ يعني: جبريل استوى في الأفق الأعلى، قاله عكرمة وغير واحد [الطبري ٢٧/٤٣]. قال عكرمة: والأفق الأعلى الذي يأتي منه الصباح، وقال مجاهد: هو مطلع الشمس، وقال قتادة: هو الذي يأتي منه النهار، وكذا قال ابن زيد وغيرهم.

وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾؛ أي: فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قَاب قَوْسَيْنِ؛ أي: بقدرهما إذا مدا، قاله مجاهد، وقاتدة، وقد قيل: إن المراد بذلك بعد ما بين وتر القوس إلى كبدها، وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]؛ أي: ما هي بالين من الحجارة، بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة، وكذا قوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]؛ أي: ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة أو يزيدون عليها، فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد فإن هذا ممتنع هاهنا، وهكذا هذه الآية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، وهذا الذي قلناه من أن هذا المقترب الداني الذي صار بينه وبين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم إنما هو جبريل عليه السلام، وهو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبي ذر، وأبي هريرة.

وروى مسلم في «صحيحه» [١٧٦] عن ابن عباس أنه قال: رأى محمد ربه بفؤاده مرتين

فجعل هذه إحداهما، وهذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض لا ليلة الإسراء، ولهذا قال بعده: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ فهذه هي ليلة الإسراء والأولى كانت في الأرض.

وروى ابن جرير [٤٦/٢٧] عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية قال: قال رسول الله ﷺ: (رَأَيْتُ جِبْرِيلَ لَهُ سِتْمَاءَةٌ جَنَاحُ) [وإسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه البخاري/٣٠٦٠ موقوفاً].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ أَوَّلُ شَأْنٍ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ رَأَى فِي مَنْامِهِ جِبْرِيلَ بِأَجْيَادٍ، ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ لِيَقْضِيَ حَاجَتَهُ فَصَرَخَ بِهِ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ! فَنَظَرَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَمِيْنًا وَشَمَالًا فَلَمْ يَرِ أَحَدًا ثَلَاثًا، ثُمَّ رَفَعَ بَصْرَهُ فَإِذَا هُوَ ثَانِي إِحْدَى رَجُلِيهِ مَعَ الْآخَرَى عَلَى أَفْقِ السَّمَاءِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، جِبْرِيلُ، جِبْرِيلُ يُسَكِّنُهُ، فَهَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى دَخَلَ فِي النَّاسِ، فَنَظَرَ فَلَمْ يَرِ شَيْئًا، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ النَّاسِ ثُمَّ نَظَرَ فَرَأَاهُ فَدَخَلَ فِي النَّاسِ فَلَمْ يَرِ شَيْئًا، ثُمَّ خَرَجَ فَنَظَرَ فَرَأَاهُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾؛ يَعْنِي: جِبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [وسنده جيد] ويقولون: القاب نصف أصبع، وقال بعضهم: ذراعين كان بينهما، رواه ابن جرير [٤٦/٢٧]، وابن أبي حاتم [١٨٧٠٠].

وروى ابن جرير [٤٩/٢٧] عن عبد الله [بن مسعود]: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلًا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض. [سنده صحيح]، فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾؛ معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى، أو فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل، وكلا المعنيين صحيح، وقد ذكر عن سعيد بن جبیر في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ قال: أوحى الله إليه ﴿أَلَمْ يَخْبُرْكَ يَتِيمًا﴾ [الضحى: ٦] ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]. وقال غيره: أوحى الله إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

وقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿أَفَتُنْكِرُونَ﴾ عَلَى مَا بَرَأَ رَوَى مُسْلِمٌ [١٧٦] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين، وكذا قال أبو صالح والسدي وغيرهما: إنه رآه بفؤاده مرتين أو مرة، وقد خالفه ابن مسعود وغيره، وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم، وقول البغوي في «تفسيره» [٢٤٧/٤] وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة فيه نظر والله أعلم.

وروى النسائي [١١٥٣٩] عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخلّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ؟ [سنده صحيح]، وفي «صحيح مسلم» [١٧٨] عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: (نورٌ أتى أَرَاهُ) وفي رواية: (رَأَيْتُ نُورًا).

وروى ابن أبي حاتم [١٨٦٩٧] عن عباد بن منصور قال: سألت عكرمة عن قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ فقال عكرمة: تريد أن أخبرك أنه قد رآه، قلت: نعم، قال: قد رآه، ثم قد رآه، قال: فسألت عنه الحسن فقال: قد رأى جلاله وعظّمته ورداءه.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٥٨٠] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

(رَأَيْتُ رَبِّيَ ﷻ) فَإِنَّهُ حَدِيثٌ إِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِ، لَكِنَّهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ حَدِيثِ الْمَنَامِ كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا [٢٣٢٥٨] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أَتَانِي رَبِّيَ اللَّيْلَةَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ - أَحْسَبُهُ يَعْنِي فِي النَّوْمِ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ - أَوْ قَالَ: نَحْرِي - فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، يَخْتَصِمُونَ فِي الْكُفَّارَاتِ وَالذَّرَجَاتِ. قَالَ: وَمَا الْكُفَّارَاتُ وَالذَّرَجَاتُ؟ قَالَ: قُلْتُ: الْمَكُثُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَالْمَشْيِ عَلَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ، وَإِبْلَاحُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ، مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَاشَ بِخَيْرٍ وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيْوَمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، وَقَالَ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ إِذَا صَلَّيْتَ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْخَيْرَاتِ وَتَرَكْتُ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً أَنْ تَقْبِضَنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَقْتُونٍ. قَالَ: وَالذَّرَجَاتُ بَذْلُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامًا)، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي آخِرِ سُورَةِ ص [آيَة: ٦٩] عَنْ مَعَاذِ نَحْوِهِ.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [١٣] عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَنَهَى ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْأَوَّلَىٰ﴾ هذه المرة الثانية التي رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيهَا جَبْرِيلُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا وَكَانَتْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي الْإِسْرَاءِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ سَبْحَانَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا، وَتَقَدَّمَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ ؓ كَانَ يَثْبُتُ الرُّؤْيَا لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَيَسْتَشْهَدُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَتَابِعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَقَدْ خَالَفَهُ جَمَاعَاتٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ؓ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ [٣٩١٥] عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (رَأَيْتُ جَبْرِيلَ وَلَهُ سِتْمَانَةٌ جَنَاحَ، يَنْتَشِرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاقُوتُ: الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ)، وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ قَوِيٌّ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا [٣٧٨٠] عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (رَأَيْتُ جَبْرِيلَ عَلَى سِدْرَةِ الْمُتَنَهَى وَلَهُ سِتْمَانَةٌ جَنَاحَ)، وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ، وَرَوَى أَحْمَدُ [٣٨٦٣] عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُ أَيْضًا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَتَانِي جَبْرِيلُ ؑ فِي خَضِرٍ مُعَلَّقٍ بِهِ الدُّرُّ) إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ أَيْضًا وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ [٢٤٢٧٣] عَنْ مَسْرُوقٍ [أَنَّهُ سَأَلَ] عَائِشَةَ فَقَالَتْ: يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ ﷻ؟ قَالَتْ: سَبْحَانَ اللَّهِ لَقَدْ قَفَّتْ شِعْرِي لَمَّا قُلْتُ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكُنْ فَقَدْ كَذَبَ: مِنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأْتُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، وَمَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأْتُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وَمَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ كَتَمَ شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأْتُ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وَلَكِنَّهُ رَأَى جَبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ. [وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا [٢٦٠٨٢] عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُنِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ

سأل رسول الله ﷺ عنها فقال: (إِنَّمَا ذَاكَ جَبْرِيلُ). لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض، أخرجه في «الصحيحين» [البخاري/٣٠٦٣ ومسلم/١٧٧].

وروى الإمام أحمد [٢١٣٥١] عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه ﷻ؟ فقال: إني قد سألته فقال: (قَدْ رَأَيْتُهُ، نُورًا أَنَّى أَرَاهُ). هكذا وقع في رواية الإمام أحمد وقد أخرجه مسلم [١٧٨] من طريقين بلفظين: (نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ)، (رَأَيْتُ نُورًا).

وروى ابن أبي حاتم [١٨٦٩٩] عن أبي ذر قال: رآه بقلبه ولم يره بعينه [ورواه النسائي وسنده صحيح]. وحاول ابن خزيمة أن يدعي انقطاعه بين عبد الله بن شقيق وبين أبي ذر، وأما ابن الجوزي فتأوله على أن أبا ذر لعله سأل رسول الله ﷺ قبل الإسراء فأجابه بما أجابه به، ولو سأل بعد الإسراء لأجابه بالإثبات، وهذا ضعيف جداً، فإن عائشة أم المؤمنين ﷺ قد سألت عن ذلك بعد الإسراء ولم يُثبت لها الرؤية، ومن قال إنه خاطبها على قدر عقلها أو حاول تخطئها فيما ذهبت إليه كابن خزيمة في كتاب التوحيد، فإنه هو المخطئ والله أعلم. وقد ثبت في «صحيح مسلم» [١٧٥] عن أبي هريرة ﷺ أنه قال في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رأى جبريل ﷺ.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين [الطبري ٥١/٢٧]، وكذا قال قتادة، والربيع بن أنس وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغريان، وغشيتها نور الرب، وغشيتها ألوان ما أدري ما هي، وروى الإمام أحمد [٤٠١١] عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: فراش من ذهب، قال: وأعطني رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطني الصلوات الخمس، وأعطني خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يُشرك بالله شيئاً من أمته المقحّمات. رواه مسلم [١٧٣]، وقال مجاهد: كان أغصان السدرة لؤلؤاً وياقوتاً وزبرجداً، فراها النبي ﷺ ورأى ربه بقلبه.

وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ قال ابن عباس: ما ذهب يميناً ولا شمالاً، ﴿وَمَا طَغَى﴾ ما جاوز ما أمر به، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطى، وما أحسن ما قال الناظم:

رَأَى جَنَّةَ الْمَأْوَى وَمَا فَوْقَهَا وَلَوْ رَأَى غَيْرُهُ مَا قَدْ رَآهُ لَتَأَهَا

وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَابِتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، كقوله: ﴿لِئَلَّكَ مِنْ ءَابِتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣]؛ أي: الدالة على قدرتنا وعظمتنا، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَابِتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس، وقد تقدم ذلك في سورة سبحان.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَرُمَ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَغْنَى شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ .

يقول تعالى مقرعاً للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم البيوت لها مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن ﷺ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ﴾ وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة وعليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وحكى عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس أنهم قرأوا اللات بتشديد التاء وفسروه بأنه كان رجلاً يُلْتَمَسُ للحجيج في الجاهلية السوق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه، وروى البخاري [٤٥٧٨] عن ابن عباس في قوله: ﴿اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ قال: كان اللات رجلاً يلت السوق سوق الحجاج. قال ابن جرير [٥٨/٢٧]: وكذا العزى من العزيز، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، وكانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: (قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ) [رواه البخاري/٣٨١٧].

وروى البخاري [٤٥٧٩] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أَقَامْرُكَ، فَلْيَتَصَدَّقْ)، وهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية.

وأما مائة فكانت بالمشلل عند قُديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة، وروى البخاري [١٦٩٨] عن عائشة نحوه، وقد كان بجزيرة العرب طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة. غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر؛ لأنها أشهر من غيرها.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: أتجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾؛ أي: جوراً باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً، ثم قال منكرراً عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَابَاؤُكُمْ﴾؛ أي: من تلقاء أنفسكم ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾؛ أي: من حجة ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾؛ أي: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم

بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾؛ أي: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءوهم به ولا انقادوا له.

ثم قال: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَفَعَّى﴾؛ أي: ليس كل من تمنى خيراً حصل له، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣] ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ود شيئاً يحصل له.

وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾؛ أي: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفَعَّى شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على السنة جميع رسله وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُؤْنَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُفَعَّى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴿٢٨﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى ﴿٣٠﴾.

يقول تعالى منكرًا على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله، كما قال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: ليس لهم علم صحيح يُصَدَّق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء وكفر شنيع. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُفَعَّى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾؛ أي: لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق، وقد ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ) [البخاري/٤٨٤٩ ومسلم/٢٥٦٣].

وقوله: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾؛ أي: أعرض عن الذي أعرض عن الحق واهجره، وقوله: ﴿وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾؛ أي: طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه، وفي الدعاء المأثور: (اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا) [أخرجه الترمذي/٣٥٠٢ وحسنه، والحاكم نحوه/١٩٣٤ وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى﴾؛ أي: هو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عباد، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذي لا يجور أبداً لا في شرعه ولا في قدره.



﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾  
 ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾  
 ﴿٣٢﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل وخلق الخلق بالحق، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾؛ أي: يجازي كلًا بعمله، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش؛ أي: لا يتعاطون المحرمات الكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستتر عليهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقال هاهنا: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ وهذا استثناء منقطع؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال. روى الإمام أحمد [٧٧٠٥] عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّانَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَرَزْنَا الْعَيْنِ النَّظْرَ، وَرَزْنَا اللِّسَانَ النَّطْقَ، وَالنَّفْسُ تَتَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ) أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/ ٥٨٨٩ ومسلم/ ٢٦٥٧].

وروى ابن جرير أن ابن مسعود قال: زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانيًا وإلا فهو اللمم [رواه الحاكم/ ٣٧٥١]، وكذا قال مسروق والشعبي. وقال عبد الرحمن بن نافع: سألت أبا هريرة عن قول الله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: القُبلة والغمزة والنظرة والمباشرة، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل، وهو الزنا. وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: إلا ما سلف، وكذا قال زيد بن أسلم، وعن مجاهد أنه قال: الذي يُلَمُّ بالذنب ثم يدعه [الطبري ٦٦/٢٧]، قال الشاعر:  
 إِنَّ تَغْفِيرَ اللَّهِ تَغْفِيرُ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا  
 وعن ابن عباس قال: هو الرجل الذي يلم بالفاحشة ثم يتوب، وقال: قال رسول الله ﷺ:  
 إِنَّ تَغْفِيرَ اللَّهِ تَغْفِيرُ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا  
 ورواه الترمذي [٣٢٨٤]، وقال: هذا حديث صحيح حسن غريب.

وعن الحسن قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: هو الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللمة من شرب الخمر فيجتنبها ويتوب منها، وعن ابن عباس: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ يلم بها في الحين. قلت: الزنا؟ قال: الزنا ثم يتوب، وعن ابن عباس قال: اللمم، الذي يلم المرة، وقال أبو صالح: سئلت عن اللمم فقلت: هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب، وأخبرت بذلك ابن عباس فقال: لقد أعانك عليها مَلَكٌ كريم، حكاه البغوي. وعن عبد الله بن عمرو قال: اللمم ما دون الشرك، وعن ابن الزبير: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: ما بين الحدين حد الدنيا وعذاب الآخرة، وعن ابن عباس مثله سواء. وعن ابن عباس قال: كل شيء بين الحدين حد الدنيا

وحد الآخرة، تكفره الصلوات فهو اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار وآخر عقوبته إلى الآخرة، وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾؛ أي: رحمته وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تصدر عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر ثم قسمهم فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للسعير، وكذا قوله: ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قد كتب الملك الذي يوكل به رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد.

وقوله: ﴿فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَتَقَى﴾، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]، وروى مسلم في «صحيحه» [٢١٤٢] عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سميت ابنتي برة فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم وسميت برة، فقال رسول الله ﷺ: (لَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ)، فقالوا: بَمَ نسميها؟ قال: (سَمُّوْهَا زَيْنَبَ)، وقد ثبت أيضاً في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٠٤٨٠] عن أبي بكرة قال: مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: (وَيْلَكَ! قَطَعْتَ عُتُقَ صَاحِبِكَ - مِرَارًا - إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسَبُ فَلَانًا - وَاللَّهُ حَسِيْبُهُ -، وَلَا أَرْكِي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا، أَحْسَبُهُ كَذًا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ)، وكذا رواه البخاري [٢٥١٩].

وروى الإمام أحمد [٢٣٨٧٨] عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب، ورواه مسلم [٣٠٠٢].

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۖ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ۚ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ۚ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُبْنِأْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَى ۖ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۚ ﴿٣٦﴾ أَلَّا نَزِدَّ وَازِرَةً وَزَرَ ۖ أَخَرَى ۚ ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۚ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۚ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى ۚ ﴿٤١﴾﴾.

يقول تعالى ذاماً لمن تولى عن طاعة الله: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ۚ﴾ [٣١] ولكن كَذَبَ وَتَوَلَّى [القيامة: ٣١]، ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلاً ثم قطعه، وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد. قال عكرمة وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل فيقولون: أكدينا ويتركون العمل.

وقوله تعالى: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾؛ أي: أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق وقطع معرفه، أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما في يده، حتى أمسك عن معرفه، فهو

يرى ذلك عياناً؟ أي: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قال سعيد بن جبير والثوري: أي: بلغ جميع ما أمر به، وقال ابن عباس: ﴿وَفَّى﴾ الله بالبلاغ، وقال سعيد بن جبير: ﴿وَفَّى﴾ ما أمر به، وقال قتادة: ﴿وَفَّى﴾ طاعة الله وأدى رسالته إلى خلقه، وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذي قبله ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَلِإِبْرَاهِيمَ إِذْ بَايَعَهُ رَبُّهُ أَنْ يَبْلُغَ أَهْلَهُ فَأَتَمَّهُمْ قَالَ إِنْ جَاءَكَ لِلنَّاسِ إِيمَانٌ فَاسْتَحِقْ بِهَذَا أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أَلَا نَزَرُ وَإِرْزَ وَزَرًا﴾؛ أي: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد كما قال: ﴿وَلَنْ نَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾؛ أي: كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما.

وأما الحديث الذي رواه مسلم [١٦٣١] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ)، فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث: (إِنْ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنْ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ) [رواه الترمذي بنحوه/١٣٥٨ وقال: حسن صحيح]، والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ الآية [يس: ١٢]، والعلم الذي نشره في الناس فاقتمدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله، وثبت في «صحيح [مسلم/٢٦٧٤]»: (مَنْ دَعَا إِلَىٰ هَدْيٍ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا).

وقوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾؛ أي: يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسَيْرِ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِينَ فَتُنَبِّئُهُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]؛ أي: فيخبركم به ويجزىكم عليه أتم الجزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهكذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَىٰ﴾؛ أي: الأوفر.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ ٤٢ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ ٤٣ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ ٤٤ ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ٤٥ ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ ٤٦ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَىٰ﴾ ٤٧ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ ٤٨ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾ ٤٩ ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ ٥٠ ﴿وَتَمُودًا مَّا أَبْقَىٰ﴾ ٥١ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ﴾ ٥٢ ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَ أَهْوَىٰ﴾ ٥٣ ﴿فَعَسَىٰ مَا عَشَىٰ﴾ ٥٤ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَسْمَاىَ﴾ ٥٥ .

يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾؛ أي: المعاد يوم القيامة، وعن عمرو بن ميمون الأودي قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود، إني رسول رسول الله ﷺ إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله إلى الجنة أو النار [رواه الحاكم/٢٨١].

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾؛ أي: خلق في عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾، كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢]، ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ٤٥ ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾، كقوله: ﴿يَنْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُفْرَكَ سُدًى﴾ ٣٦ ﴿الَّذِي بَكَ نُطْفَةٌ مِّن مَّيِّ يُعْنَىٰ﴾ ٣٧ ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ٣٨ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ٣٩ ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَن يُخْجِيَ الْكُوفَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَىٰ﴾؛ أي: كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الأخرى يوم القيامة. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾؛ أي: مَلَّكَ عباده المال، وجعله لهم قُنْيَةً مقيمًا عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم، وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، وعن مجاهد: ﴿أَغْنَىٰ﴾ مَوَّلٌ، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أخدم، وكذا قال قتادة، وقال ابن عباس، ومجاهد أيضًا: ﴿أَغْنَىٰ﴾ أعطى ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ رَضَى [ذكره البخاري ١٨٣٩/٤ تعليقاً].

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾ قال ابن عباس، وقاتدة، وابن زيد وغيرهم: هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له: مِرْزَمُ الجوزاء كانت طائفة من العرب يعبدونه. ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ وهم قوم هود ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ٦ ﴿إِرمَ ذاتِ الْعِمَادِ﴾ ٧ ﴿الَّتِي لَّمْ يُخْلَقْ فِي الْإِنْسَانِ نَفْسٌ مِّثْلُ نَفْسِ الْفِيلِ﴾ [الفجر: ٦ - ٨]، فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله تعالى وعلى رسوله، فأهلكهم الله ﴿بِرِيحٍ صَّارِصٍ عَاتِيَةٍ﴾ ٦ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

وقوله: ﴿وَتَمُودًا مَّا أَبْقَىٰ﴾؛ أي: دمرهم فلم يبق منهم أحدًا، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هؤلاء، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ﴾؛ أي: أشد تمرّدًا من الذين من بعدهم، ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَ أَهْوَىٰ﴾؛ يعني: مدائن لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال: ﴿فَعَسَىٰ مَا عَشَىٰ﴾؛ يعني: من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا نَّسَاءً﴾ [الشعراء: ١٧٣]. قال قتادة: كان في مدائن لوط أربعة آلاف ألف ألف إنسان، فانصرم عليهم الوادي شيئًا فشيئًا من نار ونفط وقطران كهم الأتون.

﴿فَإِنِّي إِلَآءَ رَبِّكَ نَتَمَارَى﴾؛ أي: ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري؟ قاله قتادة. وقال ابن جريج: ﴿فَإِنِّي إِلَآءَ رَبِّكَ نَتَمَارَى﴾ يا محمد والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾ ﴿٥٦﴾ أَرْفَتِ الْأَرْفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَئِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾ .

﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾؛ يعني: محمداً ﷺ ﴿مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾؛ أي: من جنسهم أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]. ﴿أَرْفَتِ الْأَرْفَةَ﴾؛ أي: اقتربت القربة، وهي القيامة ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾؛ أي: لا يدفعها إذاً من دون الله أحد ولا يطلع على علمها سواه.

ثم قال تعالى منكرًا على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم ﴿تَعْجَبُونَ﴾ من أن يكون صحيحًا ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾؛ أي: كما يفعل الموقنون به كما أخبر عنهم ﴿وَيَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ قال ابن عباس: الغناء هي يمانية، أسمد لنا: غنّ لنا، وكذا قال عكرمة، وفي رواية عن ابن عباس ﴿سَمِيدُونَ﴾ معرضون. وكذا قال مجاهد وعكرمة، وقال الحسن: غافلون، وهو رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وفي رواية عن ابن عباس تستكبرون، وبه يقول السدي [الطبري ٨٢/٢٧ - ٨٣]. ثم قال أمرًا لعباء بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾؛ أي: فاخضعوا له وأخلصوا ووحّدوا.

روى البخاري [١٠٢١] عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس، وروى الإمام أحمد [١٧٩٢٤] عن المطلب بن أبي وداعة قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم فسجد وسجد من عنده، فرفعت رأسي وأبيت أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب، فكان بعد ذلك لا يسمع أحدًا يقرؤها إلا سجد معه. وقد رواه النسائي [برقم/٩٥٨، وسنده جيد].



## تفسير سورة القمر وهي مكية

[عن] أبي واقد: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة، في الأضحى والفطر [رواه مسلم/ ٨٩١]، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار لاشتمالهما على الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته والتوحيد وإثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: ﴿أَقْبَلَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿اَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] وقد وردت الأحاديث بذلك، روى الإمام أحمد [٢٢٨٨٥] عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ هَكَذَا)، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى [البخاري/ ٤٩٩٥ ومسلم/ ٢٩٥٠].

وفي «الصحيح» في أسماء رسول الله ﷺ أنه الحاشر الذي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيْهِ، وروى الإمام أحمد عن عتبة بن غزوان قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَذْنَتْ بِصَرْمٍ وَوَلَّتْ حَذَاءً، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ يَتَصَابُهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا، فَانْتَقِلُوا مِنْهَا بِخَيْرٍ مَا بِحَضْرَتِكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يَلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا مَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا، وَاللَّهُ لَتَمْلُؤُنَّهُ، أَفَعَجِبْتُمْ! وَاللَّهُ لَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ عَامًا، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَطِيطٍ مِنَ الرَّحَامِ)، وذكر تمام الحديث [رواه مسلم/ ٢٩٦٧].

وقوله: ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وقد ثبت في «الصحيح» عن ابن مسعود أنه قال: (خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ: الرُّومُ، وَالْدُّخَانُ، وَاللِّزَامُ، وَالْبَطْشَةُ، وَالْقَمَرُ) [البخاري/ ٤٤٨٩ ومسلم/ ٢٧٩٨]، وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك: [منها]:

رواية أنس بن مالك: روى البخاري [٣٦٥٥] عن أنس بن مالك، أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقيين حتى رأوا حراء بينهما.

رواية جبير بن مطعم ﷺ: روى الإمام أحمد [١٦٧٩٦] عن جبير بن مطعم قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. [وسنده صحيح].

رواية عبد الله بن عباس ﷺ: روى البخاري [٣٤٣٩] عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان النبي ﷺ.

رواية عبد الله بن عمر: روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن عمر في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ أَفْسَقَ﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلقطين، فُلُقَّةٌ من دون الجبل وفُلُقَّةٌ من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: (اللَّهُمَّ اشْهَدْ)، وهكذا رواه مسلم [٢٨٠٠].

رواية عبد الله بن مسعود: روى الإمام أحمد [٣٥٨٣] عن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ: (اشْهَدُوا) ورواه البخاري [٣٤٣٧].

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾؛ أي: دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿يُعْرِضُوا﴾؛ أي: لا ينقادوا له بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ﴾؛ أي: ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجج سحر سحرنا به، ومعنى ﴿مُسْتَعْتِرٌ﴾؛ أي: ذاهب. قاله مجاهد، وفتادة وغيرهما؛ أي: باطل مضمحل لا دوام له. ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أي: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به أراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقولهم.

وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ قال فتادة: معناه أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر، وقال ابن جريج: مستقر بأهله، وقال مجاهد: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: يوم القيامة، وقال السدي: مستقر؛ أي: واقع، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآبَاءِ﴾؛ أي: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسول، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في القرآن ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾؛ أي: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب، وقوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾؛ أي: في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله، ﴿فَمَا تُغْنِ الْنُذُرُ﴾؛ يعني: أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾ ﴿٦﴾ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٨﴾

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون: هذا سحر

مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ﴾؛ أي: إلى شيء منكر فطيع، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء بل والزلازل والأهوال، ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾؛ أي: ذليلة أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَبِرٌ﴾؛ أي: كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق، ولهذا قال: ﴿مُتَهَيِّئِينَ﴾؛ أي: مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾؛ أي: يوم شديد الهول عبوس قمطير ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَاسِرٌ﴾ [المدر: ٩، ١٠].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُذِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كَفِرٌ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾؛ أي: صرحوا له بالكذب واتهموه بالجنون ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ﴾ قال مجاهد: وازدجر؛ أي: استطير جنوباً، وقيل: وازدجر؛ أي: انتهره وزجروه وأوعده ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهُ يَنْفُخْ لِنُفُوحٍ لِّتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، قاله ابن زيد وهذا متوجه حسن ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾؛ أي: إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم فانتصر أنت لديك. قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ﴾ قال السدي: وهو الكثير ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾؛ أي: نبعت جميع أرجاء الأرض حتى التناير التي هي محال النيران نبعت عُيُونًا، ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾؛ أي: من السماء والأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُذِرَ﴾؛ أي: أمر مقدر.

قال ابن عباس: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ﴾ كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتمتقى الماءان على أمر قد قدر. ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير والقرظي وقتادة، وابن زيد: هي المسامير، واختاره ابن جرير [٩٣/٢٧]، قال: وواحدها دسار، ويقال: دسير كما يقال حبيبك وحبائك والجمع حُبْك، وقال مجاهد: الدسر أضلاع السفينة، وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج، وقال الضحاك: طرفها وأصلها، وعن ابن عباس: هو كُلُّهَا.

وقوله: ﴿تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كَفِرٌ﴾؛ أي: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح عليه السلام.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ قال قتادة: أبقي الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة، والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُونِ ﴿١١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]، وقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْفَارِجَةِ﴾



﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكُرَةً وَفِيهَا أَذُنٌ وَعِصَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]، ولهذا قال هاهنا: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾؛ أي: فهل من يتذكر ويتعظ؟

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾؛ أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي، ولم يتعظ بما جاءت به نُذُرِي، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثأر. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾؛ أي: سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراد، ليتذكر الناس، كما قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مریم: ٩٧]. قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾؛ يعني: هَوَّنَا قراءته، وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن، وعن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله ﷻ، قلت: ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ) [البخاري/ ٤٧٠٦ ومسلم/ ٨١٨]، وقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾؛ أي: فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟ وعن مَطَرِ الْوَرَاقِ في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ هل من طالب علم فيَعَانِ عليه، وروي عن قتادة مثله.

﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَزِجُ الْنَّاسَ كَانْتُمُ أَعْجَازُ تَحِلٍ مُتَفَعِّرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٢٢) .

يقول تعالى مخبراً عن عاد قوم هود: إنهم كذبوا رسولهم أيضاً، كما صنع قوم نوح، وأنه تعالى أرسل عليهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ وهي الباردة الشديدة البرد ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾؛ أي: عليهم، قاله الضحاك وقتادة والسدي ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي، وقوله: ﴿تَزِجُ الْنَّاسَ كَانْتُمُ أَعْجَازُ تَحِلٍ مُتَفَعِّرٍ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط على الأرض، فتتلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأس، ولهذا قال: ﴿كَانْتُمُ أَعْجَازُ تَحِلٍ مُتَفَعِّرٍ﴾ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ .

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مَتَا وَجِدًا نَبَّعُهُ إِنَّا إِذَا لَفَى ضَلَالٍ وَسُعْرٍ (٢٤) أَلْفَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ (٢٥) سَبِعَ لَكُمْ غَدَاً مِنَ الْكُذَّابِ الْآثِرِ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّهُ لَهُمْ فَارْتَفِقْهُمْ وَأَصْطَرِبْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ (٢٨) فَادَّوَّا صَاحِبَهُمْ فَنَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَنْظَلِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٣٢) .

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً، ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مَتَا وَجِدًا نَبَّعُهُ إِنَّا إِذَا لَفَى ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ يقولون: لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كُلَّنَا قيادنا لواحد منا، ثم تعجبوا من إلقاء الوحي

عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾؛ أي: متجاوز في حد الكذب، قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾؛ أي: اختباراً لهم، أخرج الله لهم ناقة عظيمة عُشراء، من صخرة صماء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح ﷺ فيما جاءهم به، ثم قال تعالى أمراً لعبده ورسوله صالح: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾؛ أي: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم فإن العاقبة لك، والنصر في الدنيا والآخرة ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يوم لهم ويوم للناقة، كقوله: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وقوله: ﴿كُلُّ شَرِبٍ تَخَضَّرُ﴾ قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن، ثم قال تعالى: ﴿فَادَاؤُا صَاحِبِهِمْ فَطَاعَتِيْ فَعَقَرَهُ﴾ قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه قُذَار بن سالف، وكان أشقى قومه، كقوله: ﴿إِذْ أُلْبِثْتُ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢]، و﴿فَطَاعَتِيْ﴾ فَعَسَرَ ﴿فَعَقَرَهُ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِيْ وَنُذْرِيْ﴾؛ أي: فعاقبتهم، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْخَضِرِ﴾؛ أي: فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كما يهمد ويبس الزرع والنبات، قاله غير واحد من المفسرين، والمحتظر قال السدي هو المرعى بالصحراء حين يبس وتحرق ونسفته الريح، وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حِطَّارًا على الإبل والمواشي من يبيس الشوك فهو المراد من قوله: ﴿كَهَشِيرِ الْخَضِرِ﴾، وقال سعيد بن جبير: هو التراب المتناثر من الحائط [الطبري ١٠٣/٢٧].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالْأُنْذَرِ﴾ (٣٣) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ (٣٤) ﴿نِعْمَةٌ مِنَّا عِنْدَ ذَلِكَ نَجَّى مَن شَكَرَ﴾ (٣٥) ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالْأُنْذَرِ﴾ (٣٦) ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِيْ وَنُذْرِيْ﴾ (٣٧) ﴿وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بِكْرَةٌ عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ﴾ (٣٨) ﴿فَذُوقُوا عَذَابِيْ وَنُذْرِيْ﴾ (٣٩) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ (٤٠).

يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل ﷺ فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَنَانَ السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبع بحجارة من سجيل منضود، ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وهي الحجارة ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾؛ أي: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد، حتى ولا امرأته أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالمًا لم يمسه سوء، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجَّى مَن شَكَرَ﴾ (٣٥) ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾؛ أي: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه فما التفوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه بل شكوا فيه وتماروا به، ﴿وَلَقَدْ

رَوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴿٧٦﴾ وذلك ليلة وردَ عليه الملائكة في صور شباب مُرد حسان مَحَنَّةً من الله بهم، فأضافهم لوط ﴿٧٧﴾، وبعثت امرأته العجوز إلى قومها فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية ولوط ﴿٧٨﴾ يدافعهم ويمنعهم دون أضيافه ويقول لهم: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾؛ يعني: نساءهم ﴿٧٩﴾ إن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٨٠﴾ [الحجر: ٧٦] ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾؛ أي: ليس لنا فيهن أرب ﴿٨١﴾ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٨٢﴾ [هود: ٧٩] فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل ﴿٨٣﴾ فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم. يقال: إنها غارت من وجوههم، وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أديبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتعدون لوطاً ﴿٨٤﴾ إلى الصباح. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ [القمر: ٣٨]؛ أي: لا محيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه ﴿٨٥﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُرِ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْفُرَّانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٨٧﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَآخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقَدِّرٍ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهِزُّمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذُّبُرُ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: إنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا، والندارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر؛ أي: فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبر ولا عين ولا أثر، ثم قال: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ﴾ أي: أيها المشركون من كفار قريش ﴿خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ﴾؛ يعني: من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل وكفرهم بالكتب، أنتم خير من أولئك؟ ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾؛ أي: أم معكم من الله براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال؟ ثم قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾؛ أي: يعتقدون أنهم مناصرون بعضهم بعضاً، وأن جمعهم يغني عنه من أرادهم بسوء. قال الله تعالى: ﴿سَيُهِزُّمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذُّبُرُ﴾؛ أي: سيتفرق شملهم ويغلبون.

روى البخاري [٤٥٩٦] عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: (أَنْشُدْكَ عَهْدَكَ وَعَهْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبِدْ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَداً) فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك فخرج وهو يشب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهِزُّمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذُّبُرُ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْتَفَيْنَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال وسُعُر مما هم فيه من الشكوك

والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق، ثم قال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾؛ أي: كما كانوا في سعر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضللاً لا يسحبون فيها على وجوههم لا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريباً وتوبيخاً: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ بَقَدَرٍ﴾ [الفرقان: ٢]، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدريّة، الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة، وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلاً وما ورد فيه من الأحاديث في شرح كتاب الإيمان من «صحيح البخاري» رحمه الله.

روى أحمد [١٠١٦٧] عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونهم في القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ورواه مسلم [٢٦٥٦].

وروى ابن أبي حاتم [١٨٧١٥] عن عطاء قال: أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم، وقد ابتلت أسافل ثيابه فقلت له: قد تكلم في القدر، فقال: أوقد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم ولا تصلوا على موتاهم، إن رأيت أحداً منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين.

وروى الإمام أحمد [٥٦٣٩] عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاثبه، فكتب إليه عبد الله بن عمر أنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فإياك أن تكتب إلي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَكْذِبُونَ بِالْقَدَرِ) ورواه أبو داود [برقم/٤٦١٣، وسنده جيد].

وروى أحمد [٥٨٦٧] عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَسْخٌ، أَلَا وَذَلِكَ فِي الْمُكَذِّبِينَ بِالْقَدَرِ وَالزُّنْدِيقِيَّةِ) ورواه الترمذي [٢١٥٢ بنحوه]، وقال: حسن صحيح غريب، وروى الإمام أحمد [٥٨٩٣] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ) ورواه مسلم [٢٦٥٥].

وفي الحديث الصحيح: (اسْتَعِزَّ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، فَإِنْ أَصَابَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، وَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) [رواه مسلم/٢٦٦٤]، وفي حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له: (وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَكُنْ لَهُ اللَّهُ لَكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَكُنْ لَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ جَفَّتِ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ) [رواه الطبري في «الصحيح»/١٢٩٨٨ وغيره وهو صحيح].

وقد ثبت في «صحيح مسلم» [٢٦٥٣] عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ

كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ).

وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبرنا بنفوذ قدره فيهم فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ﴾؛ أي: إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد ثنائية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلًا موجودًا كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ قَوْلُهُ فَيَكُونُ

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾؛ يعني: أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسول، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾؛ أي: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك وقدر لهم من العذاب، كما قال: ﴿وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤].

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾؛ أي: مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة ﷺ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾؛ أي: من أعمالهم ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾؛ أي: مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وروى الإمام أحمد [٢٤٤٦٠] عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول: (يَا عَائِشَةُ، إِيَّاكَ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا) ورواه النسائي وابن ماجه [برقم/٤٢٤٣] وسنده جيد.

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾؛ أي: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر والسحب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد، وقوله: ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾؛ أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ﴾؛ أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون، وقد روى الإمام أحمد [٦٤٩٢] عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال: (الْمُفْسِطُونَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكُلْنَا يَدَيْهِ يَمِينٌ: الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا) أخرجه مسلم [١٨٢٧] نحوه].



## تفسير سورة الرحمن وهي مكية

روى الإمام أحمد [٣٦٠٧] عن زُرٍّ أن رجلاً قال لابن مسعود: إني لأقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال: أهذا كهذا الشعر، لا أبا لك؟ قد علمت قرائن النبي ﷺ التي كان يقرن قرينتين قرينتين من أول المفصل، وكان أول مفصل ابن مسعود ﴿الرَّحْمَنُ﴾ [وسنده جيد].

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) عِلْمُ الْقُرْآنِ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عِلْمُهُ الْبَيَانُ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَكْهَةٌ وَالتَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَلَهُبُ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَيَا أَيُّهَا الرِّبُّ كَمَا نَكَدْبَانِ (١٣).

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) عِلْمُ الْقُرْآنِ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عِلْمُهُ الْبَيَانُ (٤) قال الحسن: يعني: النطق، وقال الضحاك وقتادة وغيرهما: يعني: الخير والشر، وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفيتين على اختلاف مخارجها وأنواعها.

وقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾؛ أي: يجريان متعاقبين بحساب مُقَنَّن لا يختلف ولا يضطرب ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وقوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله والنجم بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض؛ يعني من النبات، وكذا قال سعيد بن جبير، والسدي، وسفيان الثوري، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله [١١٦/٢٧]، وقال مجاهد: النجم الذي في السماء، وكذا قال الحسن وقتادة، وهذا القول هو الأظهر والله أعلم لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ الآية [الحج: ١٨].

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾؛ يعني: العدل كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾؛ أي: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾؛ أي: لا تبخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط كما قال تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢].

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾؛ أي: كما رفع السماء وضع الأرض ومهداها، وأرساها بالجبال، لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم في سائر أقطارها وأرجائها.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الأنام: الخلق [الطبري ١١٩/٢٧]. ﴿فِيهَا فَكَّهٌ﴾؛ أي: مختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أفرد بالذكر لشرفه ونفعه رطباً ويابساً، والأكمام عن ابن عباس: هي أوعية الطلع وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذي يطلع فيه الفنو ثم ينشق عن العنقود، فيكون بسرّاً ثم رطباً ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه.

كتب قيصر إلى عمر بن الخطاب: أخبرك أن رسلي أتنني من قبلك فزعمت أن قبلكم شجرة ليست بخليقة لشيء من الخير، تخرج مثل أذان الحمير ثم تشقق مثل اللؤلؤ، ثم تخضر فتكون مثل الزمرد الأخضر، ثم تحمر فتكون كالياقوت الأحمر، ثم تبيع فتتضج فتكون كأطيب فالودج أكل، ثم تبيس فتكون عصمة للمقيم وزاداً للمسافر، فإن تكن رسلي صدقتني فلا أرى هذه الشجرة إلا من شجر الجنة، فكتب إليه عمر بن الخطاب: من عمر أمير المؤمنين إلى قيصر ملك الروم، إن رسلك قد صدقوك هذه الشجرة عندنا، وهي الشجرة التي أنبتها الله على مريم حين نفست بعيسى ابنها، فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلهاً من دون الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ ثُمَّ نُفِثَ فِيهِ نَفْسَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٥٩] ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩] رواه ابن أبي حاتم [١٨١/٢٢]، وقيل: الأكمام: رفاتها، وهو الليف الذي على عنق النخلة، وهو قول الحسن وقتادة.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ قال ابن عباس: يعني التبن، وعن ابن عباس: العصف ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس، وكذا قال قتادة، والضحاك، وأبو مالك: عصفه: تبنه، وقال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد [الطبري ١٢١/٢٧]: ﴿وَالرِّيحَانُ﴾؛ يعني: الورد. وقال الحسن: هو ريحانكم هذا، وقال ابن عباس [أيضاً]: والريحان خضر الزرع، ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف، وهو: ما على السنبل، وريحان وهو الورد الملتف على ساقها، وقيل: العصف الورد أول ما ينبت الزرع بقللاً، والريحان الورد؛ يعني: إذا أذجن وانعقد فيه الحب، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل في قصيدته المشهورة:

وَقُولَا لَهُ: مَنْ يُنْبِتُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى      فَيُصْبِحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِياً؟

وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رُؤُوسِهِ؟ فَفِي ذَٰكَ آيَاتٌ لِّمَن كَانَ وَعَايَا وَقوله: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾؛ أي: فبأي الآلاء يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان؟ قاله مجاهد وغير واحد، ويدل عليه السياق بعده؛ أي: النَّعْمُ ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول: اللَّهُمَّ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد، وكان ابن عباس يقول: لا بأيتها يا رب؛ أي: لا نكذب بشيء منها.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۖ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۖ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ۚ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۚ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ۚ مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۚ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۚ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ۚ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْثُ وَالْمَرْجَاتُ ۚ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ۚ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۚ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ۚ﴾.

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجن من نار، وهو طرف لهبها، قاله ابن عباس، وبه يقول عكرمة، ومجاهد، والحسن، وابن زيد، وعن ابن عباس: من مارج من نار، من لهب النار من أحسنها، وقال ابن عباس: من مارج من نار من خالص النار، وكذلك قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك وغيرهم [الطبري ٢٧/١٢٦]، وروى الإمام أحمد [٢٥٢٣٥] عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ) ورواه مسلم [٢٩٩٦].

وقوله: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾؛ يعني: مشرقى الصيف والشتاء ومغربي الصيف والشتاء، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم وبروزها منه إلى الناس، وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] وهذا المراد منه جنس المشرق والمغرب، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾.

وقوله: ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ قال ابن عباس: أي: أرسلهما.

وقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ قال ابن زيد: أي: منعهما أن يلتقيا بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما، والمراد بقوله البحرين: المالح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس، وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة الفرقان عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْثُ وَالْمَرْجَاتُ﴾؛ أي: من مجموعهما، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى، كما قال تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْحَيُّ وَالْإِنْسُ الَّذِي يَأْتِيكُمْ رَسُولٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. والرسول إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن وقد صح هذا الإطلاق، واللؤلؤ معروف، وأما المرجان



فقيل هو صغار اللؤلؤ، قاله مجاهد، وقتادة، وأبو رزين، والضحاك وروي عن علي، وقيل: كباره وجيده، حكاه ابن جرير [١٣١/٢٧] عن بعض السلف ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس، وحكاه السدي عن حدثه عن ابن عباس، وروي مثله عن علي ومجاهد أيضاً ومرة الهمداني، وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون، عن عبد الله [بن مسعود] قال: المرجان الخرز الأحمر، وأما قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]، فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية إنما هي من المالح دون العذب. قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء في البحر فوقعت في صدفة إلا صار منها لؤلؤة، وكذا قال عكرمة، وزاد: فإذا لم تقع في صدفة نبتت بها عنبرة، وروي من غير وجه عن ابن عباس نحوه.

وعن ابن عباس قال: إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهاها فما وقع فيها؛ يعني: من قطر فهو اللؤلؤ، وإسناده صحيح [الطبري ١٣٢/٢٧]، ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾؛ يعني: السفن التي تجري ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهي منشأة وما لم يرفع قلعه فليس بمنشأة، وقال قتادة: المنشآت؛ يعني: المخلوقات، وقال غيره: المنشآت بكسر الشين؛ يعني: البادئات ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾؛ أي: كالجبال في كبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم، مما فيه صلاح الناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع، ولهذا قال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وعن عميرة بن سعد قال: كنت مع علي بن أبي طالب عليه السلام على شاطئ الفرات إذ أقبلت سفينة مرفوع شراعها فبسط علي يديه ثم قال: يقول الله ﷻ: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ والذي أنشأها تجري في بحوره ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله [ابن أبي حاتم/١٨٧٣٥].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت بل هو الحي الذي لا يموت أبداً، قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله فانٍ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٢٨]، وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية بأنه ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾؛ أي: هو أهل أن يجلس فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف. قال ابن عباس: ذو الجلال والإكرام: ذو العظمة والكبرياء، ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن، قال عبيد بن عمير: من شأنه أن يجيب داعيًا أو يعطي سائلًا، أو يفك عانيًا أو يشفي سقيمًا. وعن مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعيًا ويكشف كربًا ويجيب مضطرًا ويغفر ذنبًا، وقال قتادة: لا يستغني عنه أهل السموات والأرض يحيي حيًا، ويميت ميتًا، ويربي صغيرًا، ويفك أسيرًا وهو منتهى حاجات الصالحين وصرىخهم، ومنتهى شكواهم. وروى ابن أبي حاتم [١٨٧٣٧] عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: (قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾) - قال -: (مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَضَعَ آخَرِينَ) [ورواه ابن ماجه/٢٠٢ وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده حسن]. قلت: وقد روي موقوفًا كما علقه البخاري [١٨٤٧/٤] تعليقًا بصيغة الجزم فجعله من كلام أبي الدرداء فالله أعلم.

﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ (٣١) فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (٣٢) فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظُ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصَرُونَ﴾ (٣٥) فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿﴾ (٣٦).

قال ابن عباس في قوله: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ قال: وعيد من الله تعالى للعباد وليس بالله شغل، وكذا قال الضحاك، وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه، وقال ابن جريج ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ﴾؛ أي: سنقضي لكم، وقال البخاري [١٨٤٧/٤]: سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال: لأتفرغن لك وما به شغل، يقول: لأخذنك علي غرتك. وقوله: ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ الثقلان: الإنس والجن كما جاء في «الصحيح»: (وَيَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ) [البخاري/١٢٧٣ نحوه] وفي رواية: (إِلَّا الْإِنْسَ وَالْجِنَّ).

﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ثم قال: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾؛ أي: لا تستطيعون هربًا من أمر الله وقدره بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾؛ أي: إلا بأمر الله ﴿يَقُولُ الْإِنْسُ يَوْمَئِذٍ أَتَى الْفَرْ﴾ (١٦) ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١٧) ﴿إِنَّ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ اتَّفَقَتْ﴾ [القيامة: ١٠-١٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظُ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصَرُونَ﴾ قال ابن عباس الشواظ: هو لهب النار، وعنه [أيضًا]: الشواظ الدخان، وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع، وقال أبو صالح: هو اللهب الذي فوق النار ودون الدخان، وقال الضحاك: سيل من نار.

وقوله: ﴿وَنُحَاسٌ﴾. قال ابن عباس: دخان النار [الطبري/٢٧/١٤٠]، وروي مثله عن أبي صالح، وسعيد بن جبير، وأبي سنان. وقال ابن جرير [٢٧/١٤٠]: والعرب تسمي الدخان نحاسًا، بضم النون وكسرها، والقراء مجمعة على الضم، وقال مجاهد: النحاس الأصفر يذاب فيصب على

رؤوسهم، وكذا قال قتادة، وقال الضحاك: ونحاس سيل من نحاس، والمعنى على كل قول لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار، والنحاس المذاب عليكم لترجعوا، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَنْصَرِحُوا﴾ (٣٥) ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾.

﴿فَإِذَا أُنْشِقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (٣٧) ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٣٨) ﴿فَيَوْمِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (٣٩) ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٤٠) ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (٤١) ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٤٢) ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيرٍ ءَانٍ﴾ (٤٣) ﴿فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٤٤).

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْشِقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يوم القيامة كما دلت عليه هذه الآيات مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها، كقوله: ﴿وَأُنْشِقَّتِ السَّمَاءُ فِيهِ يَوْمِذٍ وَهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦]. ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾؛ أي: تذوب كما يذوب الدُردي والفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم، وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ قال: هو الأديم الأحمر، وعنه [أيضاً]: كالفرس الورد، وعنه [أيضاً]: تغير لونها، وقال أبو صالح: كالبرذون الورد، ثم كانت بعد كالدهان، وحكى البغوي وغيره أن الفرس الورد تكون في الربيع صفراء، وفي الشتاء حمراء، فإذا اشتد البرد تغير لونها، وقال الحسن البصري: تكون ألواناً، وقال مجاهد: ﴿كَالدِّهَانِ﴾ كألوان الدهان، وقال عطاء الخراساني: كلون دُهن الورد في الصفرة، وقال قتادة: هي اليوم خضراء ويومئذ لونها إلى الحمرة يوم ذي ألوان، وقال أبو الجوزاء: في صفاء الدهن، وقال ابن جريج: تصير السماء كالدهن الذائب وذلك حين يصيبها حر جهنم.

وقوله: ﴿فَيَوْمِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾، وهذه كقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْفُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، فهذا في حال، وثمَّ حال يسأل الخلائق فيها عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩١) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ولهذا قال قتادة: ﴿فَيَوْمِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ قال: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. قال ابن عباس: لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا؛ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ فهذا قول ثان. وقال مجاهد في هذه الآية: لا يسأل الملائكة عن المجرمين بل يُعَرَّفُونَ بسيماهم، وهذا قول ثالث، وكأن هذا بعدما يؤمر بهم إلى النار فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يقادون إليها ويلقون فيها، كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ﴾؛ أي: بعلامات تظهر عليهم، وقال الحسن وقاتادة: يعرفونهم بأسوداد الوجوه وزرقة العيون. [الطبري ١٤٣/٢٧] قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله: ﴿يُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾؛ أي: تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار كذلك، وعن ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب في التتور [ابن أبي حاتم/

١٨٧٤٠]، وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره، وقال السدي: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه فتربط ناصيته بقدمه ويقتل ظهره.

وقوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً.

وقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾؛ أي: تارة يعذبون في الحميم وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلُلُ فِيَّ اعْتَنَقْتَهُمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (٧١) في الحميم ثم في النار يُسْجَرُونَ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقوله: ﴿ءَانٍ﴾؛ أي: حار قد بلغ الغاية في الحرارة لا يستطيع من شدة ذلك، قال ابن عباس في قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾؛ أي: قد انتهى غليه واشتد حره، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، والضحاك، والحسن، والثوري، والسدي [ينظر: الطبري ١٤٤/٢٧]، وقال قتادة: قد أتى طبخه منذ خلق الله السموات والأرض، وقال محمد بن كعب القرظي: الحميم الآن؛ يعني: الحار، وعن القرظي رواية أخرى: ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾؛ أي: حاضر. وهو قول ابن زيد أيضاً، والحاضر لا ينافي ما روي عن القرظي أولاً أنه الحار كقوله: ﴿تُثْقَلُ مِنْ عَيْنِ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]؛ أي: حارة شديدة الحر لا تستطيع، فقوله: ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾؛ أي: حميم حار جداً، ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عن عذابه وبأسه مما يزرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك قال ممتناً بذلك على بريته ﴿فِيَّ ءَالٍ رَّيَكُمَا تُكْذِبَانِ﴾.

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ﴾ (٤٦) ﴿فِيَّ ءَالٍ رَّيَكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ (٤٧) ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (٤٨) ﴿فِيَّ ءَالٍ رَّيَكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ (٤٩) ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (٥٠) ﴿فِيَّ ءَالٍ رَّيَكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ (٥١) ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَكْهَةٍ زَوْجَانِ﴾ (٥٢) ﴿فِيَّ ءَالٍ رَّيَكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ (٥٣).

هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ بين يدي الله ﷻ يوم القيامة ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠]، ولم يطغ ولا آثر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدى فرائض الله واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روى البخاري [٤٥٩٧] عن [أبي موسى الأشعري] أن رسول الله ﷺ قال: (جَنَّاتٍ مِنْ فِضَّةٍ، أُنِيَتْهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ أُنِيَتْهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ إِلَّا رِداءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ).

وروى ابن جرير [١٤٦/٢٧]، والنسائي [١٠٩٦٤] عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق فقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: (وَأِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي الدَّرْدَاءِ) [وسنده صحيح].

وهذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ فِيهَا أَلَاءٌ رَّيَكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثم نعت هاتين الجنيتين فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾؛ أي: أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، ﴿فِيهَا أَلَاءٌ رَّيَكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة أن الأفنان أغصان الشجر يمس بعضها بعضاً، وعن عكرمة قال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ يقول: ظل الأغصان على الحيطان، وحكى البغوي عن مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والكلبي: أنه الغصن المستقيم، وعن ابن عباس قال: ذواتا ألوان، وروي عن سعيد بن جبير، والحسن، والسدي، وخصيف، والنضر بن عربي، وابن سنان مثل ذلك، ومعنى هذا القول أن فيهما فنوناً من الملاذ، واختاره ابن جرير [١٤٧/٢٧]، وقال عطاء: كل غصن يجمع فنوناً من الفاكهة، وقال الربيع بن أنس: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: واسعتا الفناء وكل هذه الأقوال صحيحة ولا منافاة بينها، والله أعلم، وقال قتادة: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ينبت بسعتها وفضلها ومزيتها على ما سواها.

﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾؛ أي: تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتشمر من جميع الألوان، ﴿فِيهَا أَلَاءٌ رَّيَكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال الحسن البصري: إحداهما يقال لها تسنيم، والأخرى السلسيل، وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين، ولهذا قال بعد هذا: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ ذُو جَانٍ﴾؛ أي: من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ﴿فِيهَا أَلَاءٌ رَّيَكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. قال ابن عباس، ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل، وقال ابن عباس [أيضاً]: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء؛ يعني: أن بين ذلك بوناً عظيماً وفرقاً بيناً في التفاضل.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ ﴿فِيهَا أَلَاءٌ رَّيَكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ ﴿فِيهَا أَلَاءٌ رَّيَكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ﴿فِيهَا أَلَاءٌ رَّيَكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ ﴿فِيهَا أَلَاءٌ رَّيَكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقول تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾؛ يعني: أهل الجنة، والمراد بالاتكاء هاهنا الاضطجاع ويقال: الجلوس على ضفة التربع ﴿عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما غلظ من الديباج، قاله عكرمة، والضحاك، وقتادة وقال أبو عمران الجوني: هو الديباج المغرّى بالذهب، فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة، فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى، وعن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائن، فكيف لو رأيت الظواهر، وقال مالك بن دينار: بطائنهما من إستبرق وظواهرها من نور، وقال القاسم بن محمد: بطائنهما من إستبرق وظواهرها من الرحمة، وعن أبي عبد الله الشامي: ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر، وعلى الظواهر المحاسن، ولا يعلم ما تحت المحاسن إلا الله تعالى، ذكر ذلك كله الإمام ابن أبي حاتم: ﴿وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾؛ أي: ثمرهما قريب إليهم متى

شاءوا تناولوه، على أي صفة كانوا، كما قال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤]؛ أي: لا تمتنع ممن تناولها بل تنحط إليه من أغصانها ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: ﴿فِيهِنَّ﴾؛ أي: في الفرش ﴿فَقَصَرْتُ لَأَقْرَبَ﴾؛ أي: غشيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن. قاله ابن عباس، وقتادة، وعطاء الخراساني وابن زيد.

﴿لَمْ يَطْمِئْنُوا إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾؛ أي: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة، وسئل ضمرة بن حبيب هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم وينكحون، للجن جنيات وللإنس إنسيات، وذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِئْنُوا إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ثم قال ينعتهن للخطاب: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال مجاهد، والحسن، وابن زيد وغيرهم: في صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ.

وروى مسلم [٢٨٣٤] عن محمد بن سيرين قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أولم يقل أبو القاسم ﷺ: (إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالتِّي تَلِيهَا عَلَى ضَوْءِ كَوْكَبِ دُرِّي فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ، يَرَى مِثْلَ سَوْفِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَغْزَبُ). مخرج في «الصحيحين» [البخاري بنحوه/٣٠٨١]، وروى الإمام أحمد [١٢٤٥٩] عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: (لَعْدُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رُوحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابٌ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعٌ قَبْلَهُ؛ - يعني: سَوْطُهُ - مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ اطَّلَعَتْ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ لَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَطَابَ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) ورواه البخاري [٢٦٤٣ بنحوه].

وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾؛ أي: ما لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، ولما كان في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك كله: ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مُدَّاهِمَتَانِ﴾ ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَا﴾ ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَخُلٌّ وَرَمَانٌ﴾ ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهِنَّ خَيْرَتٌ حَسَانٌ﴾ ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿لَمْ يَطْمِئْنُوا إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَقَرٍ خَضِرٍ وَعَبَقَرٍ حَسَانٍ﴾ ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿بَرَزَكُ أَنتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ﴾ وفي الحديث: (جَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ آيَتْهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّاتٍ مِنْ فِضَّةٍ آيَتْهُمَا وَمَا فِيهِمَا) [البخاري/ ٤٥٩٧/ مسلم/ ١٨٠]، فالأوليان للمقربين والأخريان لأصحاب اليمين، وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين. وقال ابن عباس: من دونهما في الدرج، وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل، والدليل على شرف الأوليين على الآخرين وجوه: أحدها: أنه نعت الأوليين قبل هاتين، والتقدم يدل على الاعتناء ثم قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ﴾ وهذا ظاهر في شرف المتقدم وعلوه على الثاني. وقال هناك: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨] وهي الأغصان أو الفنون في الملاذ، وقال ههنا: ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾؛ أي: سوداوان من شدة الري من الماء. قال ابن عباس في قوله: ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ قد اسودتا من الخضرة من شدة الري من الماء، وعن ابن عباس قال: خضراوان [الطبري ٢٧/ ١٥٤، وابن أبي حاتم/ ١٨٧٥٢]، وروي عن أبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبي أوفى، ومجاهد في إحدى الروايات وعطاء، والحسن، وسفيان الثوري [وغيرهم] نحو ذلك، وقال محمد بن كعب: ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ ممتلئتان من الخضرة، وقال قتادة: خضراوان من الري ناعمتان ولا شك في نضارة الأغصان على الأشجار المشبكة بعضها في بعض.

وقال هناك: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠] وقال ههنا: ﴿نَضَّاجَتَانِ﴾ قال ابن عباس: أي: فياضتان والجري أقوى من النضخ، وقال الضحاك: ﴿نَضَّاجَتَانِ﴾؛ أي: ممتلئتان لا تنقطعان، وقال هناك: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]، وقال ههنا: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنوع على فاكهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم، ولهذا فسر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام كما قرره البخاري [١٨٤٧/ ٤] وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما.

وعن ابن عباس قال: نخل الجنة سعتها كسوة لأهل الجنة، منها مُقَطَّعَاتُهُمْ، ومنها حُلَلُهُمْ وَكَرْبُهَا ذهب أحمر، وجذوعها زمرد أخضر، وثمرها أحلى من العسل وألين من الزبد وليس له عجم [ابن أبي حاتم/ ١٨٧٥٨].

ثم قال: ﴿فِيهَا خَيْرٌ حَسَنٌ﴾ قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة، قاله قتادة، وقيل: خيرات جمع خيرة، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخُلُق الحسنة الوجه، قاله الجمهور: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، ثم قال: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ﴾ وهناك قال: ﴿فِيهَا قَصْرَتُ الطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦]، ولا شك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قصرت وإن كان الجميع مخدرات، وقوله: ﴿فِي الْخِيَارِ﴾ روى البخاري [٤٥٩٨] عن [أبي موسى الأشعري] أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُونَ مِيلًا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ).

وعن ابن عباس قال: في خيام اللؤلؤ، وفي الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة واحدة أربعة فراسخ في أربعة فراسخ عليها أربعة آلاف مصراع من ذهب، وعن أبي الدرداء: لؤلؤة واحدة فيها سبعون بابًا من در.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ قد تقدم مثله سواء إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ فَإِنِّي ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ [الرحمن: ٥٨، ٥٩].

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال ابن عباس: الرفرف: المحابس، وكذا قال مجاهد، والحسن، والضحاك وغيرهم: هي المحابس [ينظر: الطبري ١٦٣/٢٧]. وقال العلاء بن بدر: الرفرف على السرير كهيئة المحابس المتدلي، وقال عاصم الجحدري: يعني: الوسائد وهو قول الحسن البصري في رواية عنه، وقال سعيد بن جبیر: الرفرف رياض الجنة.

وقوله: ﴿وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك والسدي: العبقرى الزرابي، وقال سعيد بن جبیر: هي عتاق الزرابي؛ يعني: جياها، وقال مجاهد: العبقرى الديباج [ينظر: الطبري ١٦٤/٢٧ - ١٦٥]، وسئل الحسن البصري عن قوله: ﴿وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ فقال: هي بسط أهل الجنة لا أبا لكم فاطلبوها، وعن الحسن رواية أنها المرافق. وقال زيد بن أسلم: العبقرى أحمر وأصفر وأخضر، وسئل العلاء بن زيد عن العبقرى فقال: البسط أسفل من ذلك، وقال أبو العالية: العبقرى الطنافس المخملة إلى الرقة ما هي، وقال الخليل بن أحمد: كل شيء نفيس من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقرئاً، ومنه قول النبي ﷺ في عمر: (فَلَمْ أَرَ عَبَقَرِيًّا يَفْرِي قَرِيَّهُ) [البخاري/ ٣٤٣٤ ومسلم/ ٢٣٩٣]، وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنة الأوليين أرفع وأعلى من هذه الصفة، فإنه قد قال هناك: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظواهرها اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى، وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان، وهو أعلى المراتب والنهايات، فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنة الأوليين على هاتين الأخريين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين.

ثم قال: ﴿بَدْرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾؛ أي: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى، وقال ابن عباس: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذي العظمة والكبرياء، وروى الحافظ أبو يعلى [٣٨٣٣] عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (أَلْظُؤُوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)، وكذا رواه الترمذي [٣٥٢٤]، وروى الإمام أحمد [١٧٦٣٢] عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أَلْظُؤُوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) ورواه النسائي [برقم/ ٧٧١٦] وهو حسن بما قبله، وقال الجوهري: أَلْظُ فُلَانٌ بِفُلَانٍ: إذا لزمه، وقول ابن مسعود: أَلْظُؤُوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ؛ أي: الزموا. يقال: الإلظاظ هو الإلحاح.

قلت: وكلاهما قريب من الآخر، والله أعلم، وهو المداومة واللزوم والإلحاح، وفي «صحيح مسلم» [٥٩٢] عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد؛ يعني: بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول: (اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ).





## تفسير سورة الواقعة

وهي مكية

روى الإمام أحمد [٢١٠٣٣] عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف، وكانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور وسنده جيد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۝٦ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّيْفُونا السَّيْفُونَ ۝١٠ وَأُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ۝١٢﴾.

الواقعة من أسماء يوم القيامة سميت بذلك لتحقيق كونها ووجودها كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٥]، وقوله: ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾؛ أي: ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، كما قال: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧]، ومعنى: ﴿كَاذِبَةٌ﴾ كما قال محمد بن كعب: لا بد أن تكون، وقال قتادة: ليس فيها مثنوية ولا ارتداد ولا رجعة. قال ابن جرير: والكاذبة مصدر كالعاقبة والعافية.

وقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾؛ أي: تخفض أقوامًا إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزاء، وترفع آخرين إلى أعلى عليين إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وضعاء. هكذا قال الحسن، وقاتدة وغيرهما، وعن ابن عباس: تخفض أقوامًا وترفع آخرين، وعن عثمان بن سراقه ابن خالة عمر بن الخطاب قال: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار ورفعت أولياء الله إلى الجنة [ابن أبي حاتم/١٨٦٦]، وقال السدي: خفضت المتكبرين ورفعت المتواضعين، وعن ابن عباس [أيضًا]: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أسمعت القريب والبعيد، وقال عكرمة: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى، وكذا قال الضحاك وقاتدة [ينظر: الطبري ١٦٧/٢٧].

وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾؛ أي: حركت تحريكًا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها، ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة وغير واحد: زلزلت زلزالًا [ينظر: الطبري ١٦٧/٢٧]، وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كرج الغربال بما فيه، هذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ

زَلَزَلُمَا ﴿الزلزلة: ١﴾، وقوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾؛ أي: فُتَّتَتْ تفتيتًا، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة وغيرهم [الطبري ١٦٧/٢٧]، وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال الله تعالى: ﴿كَيْبًا مَّهِيلاً﴾ [المزل: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا﴾ عن علي رضي الله عنه: كرهج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء، وعن ابن عباس: الهباء الذي يطير من النار، إذا اضطربت يطير منه الشرر فإذا وقع لم يكن شيئًا، وقال عكرمة: المنبت الذي قد ذرته الريح وبثته، وقال قتادة: كيبس الشجر الذي تذروه الرياح [الطبري ١٦٩/٢٧]. وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة وذهابها وتسييرها ونسفها وصيرورتها كالعهن المنفوش.

وقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾؛ أي: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، ويؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين، وقال السدي: وهم جمهور أهل الجنة، وآخرون عن يسار العرش، ويؤتون كتبهم بشمالهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال وهم عامة أهل النار - عبادًا بالله من صنعهم - وطائفة سابقون بين يديه ﷺ، وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عددًا من أصحاب اليمين، ولهذا قال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه كما تقدم بيانه.

عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ قال: هي التي في سورة الملائكة ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، وعنه [أيضًا]: هذه الأزواج الثلاثة هم المذكورون في آخر السورة وفي سورة الملائكة، وقال مجاهد: يعني فرقًا ثلاثة. وقال ميمون بن مهران: أفواجًا ثلاثة، وقال عثمان بن سراقه ابن خالة عمر بن الخطاب ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾: اثنان في الجنة وواحد في النار [ينظر: الطبري ١٧٠/٢٧].

وقال محمد بن كعب: ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾ هم الأنبياء ﷺ، وقال السدي: هم أهل عليين، وعن ابن عباس قال: يوشع بن نون، سبق إلى موسى، ومؤمن آل يس، سبق إلى عيسى وعلي بن أبي طالب سبق إلى محمد رسول الله ﷺ. رواه ابن أبي حاتم [١٨٧٧٣]، وعن ابن سيرين: ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾ الذين صلوا إلى القبلتين، وقال الحسن وقتادة ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾؛ أي: من كل أمة، وعن عثمان بن أبي سودة أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمَفْرُوقُونَ ثم قال: أولهم رواحًا إلى المسجد وأولهم خروجًا في سبيل الله، وهذه الأقوال كلها صحيحة فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس

العمل، وكما تدين تدان، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمَقْرُؤُونَ﴾ ١١ في جَنَّتِ النَّعِيمِ وروى ابن أبي حاتم [وروى الطبري نحوه عن زيد بن أسلم ١٢٦/١٥] عن عبد الله بن عمرو قال: قالت الملائكة: يا رب جعلت لبني آدم الدنيا فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون فأجعل لنا الآخرة. فقال: لا أفعل، فراجعوا ثلاثاً فقال: لا أجعل من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾ ١٢ ﴿أُولَئِكَ الْمَقْرُؤُونَ﴾ ١١ في جَنَّتِ النَّعِيمِ وقد روى هذا الأثر الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه الرد على الجهمية ولفظه: فقال الله ﷻ: لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان.

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٣ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَكَهْوَ مِمَّا يَشْحَبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا أَفْئِدَةٌ سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ثلثة؛ أي: جماعة من الأولين وقليل من الآخرين، وقد اختلفوا في المراد بقوله الأولين والآخرين فقليل: المراد بالأولين الأمم الماضية وبالآخرين هذه الأمة، وهذا رواية عن مجاهد، والحسن البصري، وهو اختيار ابن جرير [٢٧/١٧٠] واستأنس بقوله ﷺ: (نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [البخاري/٨٣٦ ومسلم/٨٥٥]، ولم يحك غيره ولا عزاه إلى أحد.

والراجح أن المراد بقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: من صدر هذه الأمة ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾؛ أي: من هذه الأمة، وعن الحسن قال: أما السابقون فقد مضوا ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين، وعن الحسن أنه قرأ: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ فقال: ثلثة ممن مضى من هذه الأمة، وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٣ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة، فهذا قول الحسن، وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم كل أمة بحسبها، ولهذا ثبت في «الصحاح» وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: (خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) [البخاري نحوه/٢٥٠٩ ومسلم/٢٥٣٣]. الحديث بتمامه.

وقوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ قال ابن عباس: أي: مرمولة بالذهب؛ يعني: منسوجة به، وكذا قال مجاهد، وزيد بن أسلم، وقتادة وغيرهم، وقال السدي: مرمولة بالذهب واللؤلؤ، وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت [الطبري ٢٧/١٧٣]، وقال ابن جرير [٢٧/١٧٢]: ومنه يسمى وضين الناقة الذي تحت بطنها، وهو فعيل؛ بمعنى: مفعول؛ لأنه مضافور، وكذلك السرر في الجنة مضافورة بالذهب واللؤلؤ.

**وقوله:** ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ﴾؛ أي: وجوه بعضهم إلى بعض ليس أحد وراء أحد: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدُنُّ مُخْلَدُونَ﴾؛ أي: مخلدون على صفة واحدة، لا يكبرون عنها، ولا يشيبون، ولا يتغيرون، ﴿يَاكُوبُ وَابْرَئِيلُ وَكَاسٍ مِنْ مَعِينِ﴾ أما الأكواب فهي الكيزان التي لا خراطيم لها ولا آذان، والأباريق التي جمعت الوصفين، والجميع من خمر من عين جارية معين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ بل من عيون سارحة.

**وقوله:** ﴿لَا يَصُدُّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾؛ أي: لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة، وعن ابن عباس أنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال [ابن أبي حاتم/١٨١٧٧]، وقال مجاهد، وقتادة، والسدي [وغيرهم]: ليس لهم فيها صداع رأس، ولا تذهب بعقولهم [ابن أبي حاتم نحوه/١٨١٧٨].

**وقوله:** ﴿وَفَكَهَةً مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَلَحِيرٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ أي: ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيير لها.

وروى الإمام أحمد [١٢٤٠٨ بنحوه] والحافظ أبو يعلى [واللفظ له/٣٢٨٩] عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه، فإذا أثنى عليه معروف كان أعجب لرؤياه إليه، فأتته امرأة فقالت: يا رسول الله رأيت كأنني أتيت فأخرجت من المدينة فأدخلت الجنة، فسمعت وجبة انتحبت لها الجنة، فنظرت فإذا فلان بن فلان، وفلان بن فلان فسمت اثني عشر رجلاً، كان النبي ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم، فقبل: اذهبوا بهم إلى نهر البيذخ أو البيذخ، قال: فغمسوا فيه فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصحفة من ذهب فيها بُسر فأكلوا من بسرهم ما شاءوا، فما يقلبونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم فأتى البشير من تلك السرية، فقال: كان من أمرنا كذا وكذا فأصيب فلان وفلان حتى عد اثني عشر رجلاً، فدعا رسول الله ﷺ المرأة، فقال: (قُصِّي رُؤْيَاكِ)، فقصتها وجعلت تقول: فجيء بفلان وفلان كما قال. هذا لفظ أبي يعلى، قال الحافظ الضياء: وهذا على شرط مسلم.

**وقوله:** ﴿وَلَحِيرٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ روى أبو بكر بن أبي الدنيا عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال: (نَهْرٌ أُعْطِيَ بِهِ رَبِّي ﷻ، فِي الْجَنَّةِ، أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، فِيهِ طُيُورٌ أَعْنَاقُهَا؛ يَعْنِي: كَأَعْنَاقِ الْجُرُزِ) فقال عمر: إنها لناعمة، قال رسول الله ﷺ: (أَكَلُهَا أُنْعَمُ مِنْهَا) وكذا رواه الترمذي [برقم/٢٥٤٢، وهو لفظ النسائي/١١٧٠٣]، وقال: حسن.

وروى ابن أبي حاتم عن كعب قال: إن طائر الجنة أمثال البخت يأكل من ثمرات الجنة ويشرب من أنهار الجنة، فيصطففن له، فإذا انتهى منها شيئاً أتى حتى يقع بين يديه، فيأكل من خارجه وداخله ثم يطير لم ينقص منه شيء، صحيح إلى كعب.

**وقوله:** ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾؛ أي: لهم فيها حور عين، **وقوله:** ﴿كَأَمْثَلِ أَلْوَابِرِ الْمَكُونِ﴾؛ أي:

كَأَنَّهُنَّ اللَّوْلُؤُ الرُّطْبُ فِي بَيَاضِهِ وَصَفَائِهِ كَمَا فِي سُورَةِ الصَّافَاتِ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيَاضٌ مُّكْنُونٌ﴾ [آية: ٤٩]، وقد تقدم في سورة الرَّحْمَنِ وَصْفَهُنَّ أَيْضًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أَي: هَذَا الَّذِي أَنْحَنَاهُمْ بِهِ مَجَازَةً لَهُمْ عَلَى مَا أَحْسَنُوا مِنَ الْعَمَلِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا﴾ (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا؛ أَي: لَا يَسْمَعُونَ فِي الْجَنَّةِ كَلَامًا لَاغِيًّا؛ أَي: عَبَثًا خَالِيًا مِنَ الْمَعْنَى أَوْ مُشْتَمَلًا عَلَى مَعْنَى حَقِيرٍ أَوْ ضَعِيفٍ كَمَا قَالَ: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١]؛ أَي: كَلِمَةً لَاغِيَةً ﴿وَلَا تَأْتِيًا﴾؛ أَي: وَلَا كَلَامًا فِيهِ قَبْحٌ ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا﴾؛ أَي: إِلَّا التَّسْلِيمَ مِنْهُمْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَمَا قَالَ: ﴿يُخَيِّنُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣] وَكَلَامُهُمْ أَيْضًا سَالِمٌ مِنَ اللَّغْوِ وَالْإِثْمِ.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٢٧) فِي سِدْرٍ تَخْضُرٍ ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ (٢٩) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٣١) وَفِي كَثِيرٍ ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ (٣٢) وَفُوشٍ مَّرْقُوعَةٍ ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً﴾ (٣٥) فَجَعَلْنَاهُمْ أَتْبَارًا ﴿عُرًّا أَتْرَابًا﴾ (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿﴾ (٤٠).

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَالَ السَّابِقِينَ وَهُمْ الْمُقْرِبُونَ، عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَهُمْ الْأَبْرَارُ، كَمَا قَالَ مِيمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَنْزِلَتُهُمْ دُونَ الْمُقْرِبِينَ، فَقَالَ: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾؛ أَي: أَي شَيْءٍ أَصْحَابُ الْيَمِينِ؟! وَمَا حَالُهُمْ وَكَيْفَ مَالُهُمْ؟ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فِي سِدْرٍ تَخْضُرٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعُكْرَمَةٌ، وَمَجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسَّيِّدِيُّ وَغَيْرُهُمْ: هُوَ الَّذِي لَا شَوْكَ فِيهِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ الْمَوْقَرُ بِالشَّمْرِ، وَهُوَ رَوَايَةٌ عَنْ عُكْرَمَةَ، وَمَجَاهِدٍ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ أَيْضًا: كُنَّا نَحْدِثُ أَنَّهُ الْمَوْقَرُ الَّذِي لَا شَوْكَ بِهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ هَذَا وَهَذَا، فَإِنَّ سِدْرَ الدُّنْيَا كَثِيرُ الشَّوْكِ قَلِيلُ الشَّمْرِ، وَفِي الْآخِرَةِ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ هَذَا لَا شَوْكَ فِيهِ، وَفِيهِ الشَّمْرُ الْكَثِيرُ الَّذِي قَدْ أَثْقَلَ أَصْلُهُ، كَمَا رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ النَّجَّادُ عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُونَ: إِنْ اللَّهَ لَيَنْفَعُنَا بِالْأَعْرَابِ وَمَسَائِلِهِمْ، قَالَ: أَقْبَلَ أَعْرَابِي يَوْمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً تُؤْذِي صَاحِبِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: (وَمَا هِيَ؟) قَالَ السِّدْرُ فَإِنَّ لَهُ شَوْكًا مُؤْذِيًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿فِي سِدْرٍ تَخْضُرٍ﴾، خَضَدَ اللَّهُ شَوْكَهُ، فَجَعَلَ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةً، فَإِنَّهَا لَتُنَبِّتُ ثَمَرًا تَقْفَقُ الثَّمَرَةُ مِنْهَا عَنِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْ نَا مِنْ طَعَامٍ، مَا فِيهَا لَوْنٌ يُشْبِهُ الْآخَرَ) [ورواه الحاكم/٣٧٧٨، وقال: صحيح الإسناد].

وقوله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ الطَّلْحُ شَجَرٌ عِظَامٌ يَكُونُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ مِنْ شَجَرِ الْعِضَاءِ وَاحِدَتُهُ طَلْحَةٌ، وَهُوَ شَجَرٌ كَثِيرُ الشَّوْكِ، وَقَالَ مَجَاهِدٌ: ﴿مَّنْضُودٍ﴾؛ أَي: مُتْرَاكِمُ الثَّمَرِ يُذَكَّرُ بِذَلِكَ قَرِيشًا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعُجِبُونَ مِنْ وَجِّ وَظِلَالِهِ مِنْ طَلْحٍ وَسِدْرٍ، وَقَالَ السَّيِّدِيُّ: مَنْضُودٌ: مَصْفُوفٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَشْبِهُ طَلْحَ الدُّنْيَا، وَلَكِنْ لَهُ ثَمَرٌ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَالطَّلْحُ لُغَةٌ فِي الطَّلْعِ، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: الْمَوْزُ، قَالَ: وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَالْحَسَنِ،

وعكرمة، وقسامة بن زهير، وقتادة، وأبي حزره مثل ذلك، وبه قال مجاهد، وابن زيد: وزاد فقال: أهل اليمن يسمون الموز الطلح، ولم يحك ابن جرير غير هذا القول.

وقوله: ﴿وَزَلَّ مَذْذُورٌ﴾ روى البخاري [٤٥٩٩] عن أبي هريرة، يبلغ به النبي ﷺ قال: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، اقْرَؤُوا إِنَّ شَيْئًا: ﴿وَزَلَّ مَذْذُورٌ﴾).

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي [٣٠٣٨] عن أنس عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وَزَلَّ مَذْذُورٌ﴾ قال: (فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا) ورواه البخاري [٣٠٧٩]، وقد أخرج البخاري [٦١٨٦] من حديث أبي سعيد وسهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّائِبُ الْجَوَادُ الْمُضْمَرُ السَّرِيعُ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا) فهذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد، لتعدد طرقه وقوة أسانيده وثقة رجاله.

وعن ابن عباس: في الجنة شجر لا يحمل يُسْتَظَلُّ به، وقال الضحاك، والسدي، وأبو حزره في قوله: ﴿وَزَلَّ مَذْذُورٌ﴾ لا ينقطع، ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر، وقال ابن مسعود: الجنة سَجَسَجٌ كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس [روى ابن أبي شيبة نحوه/ ٣٣٩٧٠]، وقد تقدمت الآيات كقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]، وقوله: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿وَمَاءٌ مَسْكُوبٌ﴾ قال الثوري: يجري في غير أخدود.

وقوله: ﴿وَفَنَكِهَهُ كَثِيرٌ﴾ ﴿٣٦﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ؛ أي: وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُفِعُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَفَعُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُفِعْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]؛ أي: يشبه الشكل الشكل، ولكن الطعم غير الطعم، وفي «الصحاحين» عن ابن عباس قال: حُسِفَتِ الشمس، فصلى رسول الله ﷺ والناس معه فذكر الصلاة، وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكت. قال: (إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، فَتَنَاولْتُ مِنْهَا عُقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهَا لَأَكَلْتُ مِنْهَا مَا بَقِيَ الدُّنْيَا) [البخاري/ ٧١٥ ومسلم/ ٩٠٧].

وقوله: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾؛ أي: لا تنقطع شتاء ولا صيفاً بل أكلها دائم مستمر أبداً، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدره الله شيء، وقال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بُعد، وفي الحديث: (إِذَا تَنَاوَلَ الرَّجُلُ الثَّمَرَةَ عَادَتْ مَكَانَهَا أُخْرَى) [رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد]، وقوله: ﴿وَفُورٌ مَرْقُوعٌ﴾؛ أي: عالية وطيبة ناعمة، وعن الحسن قال: ارتفاع فراش الرجل من أهل الجنة مسيرة ثمانين سنة، وقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً﴾ ﴿٣٥﴾ فَعَلَّاهُمْ أَكْبَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ جرى الضمير على غير مذكور، ولكن لما دل السياق وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاغن فيهما، اكتفى بذلك عن ذكرهن وعاد الضمير عليهن، كما في قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصُّفُوفُ الْفِيَاذُ﴾ ﴿٣٩﴾ فَقَالَ إِنِّي أَجَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٤٠﴾ [ص: ٣١، ٣٢]؛ يعني: الشمس على المشهور من قول المفسرين.

فقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ﴾؛ أي: أعدناهم في النشأة الأخرى بعدما كُنَّ عجائز، صرْنَ أبكاراً عرباً؛ أي: بعد الثوبة عدن أبكاراً عرباً؛ أي: متحبات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة، وقال بعضهم عرباً؛ أي: غَنَجَات [ينظر: الطبري ١٨٦/٢٧].

وروى أبو داود الطيالسي [٢٠١٢] عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (يُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ قُوَّةٌ كَذَا وَكَذَا فِي النِّسَاءِ). قلت: يا رسول الله ويُطِيق ذلك؟ قال: (يُعْطَى قُوَّةٌ مِائَةٌ) ورواه الترمذي [٢٥٠٥]، وقال: صحيح غريب، وروى أبو القاسم الطبراني [في الصغير/٧٩٥] عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله هل نصل إلى نساتنا في الجنة؟ قال: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ فِي الْيَوْمِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءٍ) قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: هذا الحديث عندي على شرط الصحيح والله أعلم.

وقوله: ﴿عُرُبًا﴾ قال ابن عباس: يعني متحبات إلى أزواجهن، ألم تر إلى الناقة الضبعة هي كذلك، وعن ابن عباس [أيضاً]: العُربُ: العواشق لأزواجهن، وأزواجهن لهن عاشقون، وكذا قال مجاهد، وأبو العالية والحسن وغيرهم، وسئل ابن عباس عن قوله: ﴿عُرُبًا﴾ قال: هي الملقاة لزوجها، وقال عكرمة: هي الغنجة، [وعنه]: هي الشَّكْلَةُ، وعن عبد الله بن بريدة قال: الشكلة بلغة أهل مكة، والغنجة بلغة أهل المدينة، وقال تميم بن حذلم: هي حسن التَّبْعِل، وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن: العُربُ: حَسِنَات الكلام [الطبري ١٨٧/٢٧].

وقوله: ﴿أَزْرَابًا﴾ عن ابن عباس: يعني: في سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة، وقال مجاهد: الأتراب: المستويات، وفي رواية عنه: الأمثال، وقال عطية: الأقران، وقال السدي: ﴿أَزْرَابًا﴾؛ أي: في الأخلاق المتواخيات بينهم، ليس بينهم تباغض ولا تحاسد؛ يعني: لا كما كن ضرائر متعاديات، وعن الحسن، ومحمد قالا: المستويات الأسنان، يأتلفن جميعاً، ويلعبن جميعاً [ينظر الطبري ١٨٩/٢٧].

وقوله: ﴿لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾؛ أي: خلقن لأصحاب اليمين، أو ادخرن لأصحاب اليمين، أو زوجن لأصحاب اليمين، والأظهر أنه متعلق بقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿فَجَعَلْنَهُمْ أَتِّكَارًا﴾ ﴿٣٦﴾ عُرُبًا ﴿٣٧﴾ ﴿لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ فتقديره أنشأناهم لأصحاب اليمين، وهذا توجيه ابن جرير.

قلت: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ متعلقاً بما قبله وهو قوله: ﴿أَزْرَابًا﴾؛ أي: في أسنانهم، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري [٣١٤٩] ومسلم [٢٨٣٤] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى صُورِ أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَقُولُونَ وَلَا يَتَقَوَّطُونَ وَلَا يَتَقَلَّبُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ)، وروى الإمام أحمد [٧٩٢٠] والطبراني [في الصغير/٨٠٨] واللفظ له عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا بِيَضًا جَعَادًا مُكْحَلِينَ، أَبْنَاءَ ثَلَاثِينَ أَوْ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ، وَهُمْ

عَلَى خَلْقِ آدَمَ سِتُونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ)، وروى الترمذي [٢٥٤٥] من حديث معاذ بن جبل [نحوه فيحسن به].

وقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ مِائَةِ الْأَوَّلِينَ﴾ [٣٩] وَثَلَاثَةَ مِائَةِ الْآخِرِينَ؛ أي: جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين.

وروى ابن أبي حاتم [١٨٧٩٤] عن عبد الله بن مسعود، قال: أكرينا ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه فقال: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهَا بِأَمَمِهَا، فَيَمُرُّ عَلَيَّ النَّبِيُّ، وَالنَّبِيُّ فِي الْعِصَابَةِ، وَالنَّبِيُّ فِي الثَّلَاثَةِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ فِي كَبْكَبَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ: قُلْتُ: رَبِّي مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَنْ تَبَعُهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ! قَالَ: قُلْتُ: رَبِّ فَأَيْنَ أُمِّي؟ قَالَ: انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ فِي الظَّرَابِ قَالَ: فَإِذَا وَجُوهُ الرِّجَالِ. قَالَ: قُلْتُ: أَرْضِيَّتْ؟ قَالَ: قُلْتُ: قَدْ رَضِيتُ، رَبِّ. قَالَ: انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ عَنْ يَسَارِكَ فَإِذَا وَجُوهُ الرِّجَالِ قَالَ: أَرْضِيَّتْ؟ قُلْتُ: قَدْ رَضِيتُ رَبِّ. قَالَ: فَإِنَّ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا، يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ). قال وأنشأ عكاشة بن محصن قال: يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم قال: فقال: (اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ). قال: أنشأ رجل آخر قال: يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: (سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ). قال: فقال ﷺ: (فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ فِدَاكُمُ أَبِي وَأُمِّي أَنْ تَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّبْعِينَ فَافْعَلُوا وَإِلَّا فَكُونُوا مِنَ أَصْحَابِ الْأَفْقِ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنَا سَا كَثِيرًا قَدْ تَأَسَّبُوا حَوْلَهُ)، ثم قال: (إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ) فكبرنا، ثم قال: (إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ) قال: فكبرنا، قال: (إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ) قال: فكبرنا، قال: ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ثَلَاثَةَ مِائَةِ الْأَوَّلِينَ﴾ [٣٩] وَثَلَاثَةَ مِائَةِ الْآخِرِينَ. قال: فقلنا بيننا: من هؤلاء السبعون ألفًا؟ فقلنا: هم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا. قال: فبلغه ذلك فقال: (بَلْ هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتُمُونَ وَلَا يَسْتَرْفُونَ وَلَا يَنْطَرِفُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) وكذا رواه ابن جرير [٢٧/١٩١]، وهذا الحديث له طرق كثيرة في «الصحيح» وغيرها.

﴿وَأَحَبُّ الشِّمَالِ مَا أَحَبَّ الشِّمَالُ﴾ [٤١] فِي سَوْمٍ وَحِمِيرٍ [٤٢] وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ [٤٣] لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٍ [٤٤] إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ [٤٥] وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْغَيْثِ الْعَظِيمِ [٤٦] وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ [٤٧] أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ [٤٨] قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ [٤٩] لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ [٥٠] ثُمَّ إِنَّكُمْ إِنِّي أَنتَ الصَّالُونَ الْمَكِيدُونَ [٥١] لَأَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ [٥٢] فَأَلَوْنَ مِنْهَا الْبَطُونَ [٥٣] فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ [٥٤] فَشَرِبُوا شُرْبَ الْحَمِيمِ [٥٥] هَذَا نَزَلَتْ يَوْمَ الدِّينِ [٥٦].

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال فقال: ﴿وَأَحَبُّ الشِّمَالِ مَا أَحَبَّ الشِّمَالُ﴾؛ أي: أي شيء هم فيه أصحاب الشمال؟ ثم فسر ذلك فقال: ﴿فِي سَوْمٍ﴾ وهو الهواء الحار ﴿وَحِمِيرٍ﴾ وهو الماء الحار ﴿وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ﴾ قال ابن عباس: ظل



الدخان، وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدي وغيرهم، وهذه كقوله تعالى: ﴿أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٦٩) ﴿أَطْلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (٣٠) لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْآلِهَةِ (٣١) إِنَّمَا تَرَوْنِي بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمْلَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (المرسلات: ٢٩ - ٣٤)، ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَا يَنْصُرُهُمْ فِي يَوْمِئِذٍ وَاقِعَةٌ﴾ وهو الدخان الأسود ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾؛ أي: ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر، كما قال الحسن وقتادة: ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾؛ أي: ولا كريم المنظر، قال الضحاك: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم.

وقال ابن جرير [١٩٣/٢٧]: العرب تُتَّبِعُ هذه اللفظة في النفي فيقولون: هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم، وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة، ثم ذكر تعالى استحقاقيهم لذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾؛ أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل ﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ﴾؛ أي: يقيمون ولا ينوون توبة ﴿عَلَى الْخَنَثِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الكفر بالله وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله. قال ابن عباس: الخنث العظيم: الشرك، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدي وغيرهم. وقال الشعبي: هو اليمين الغموس. ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَجْعُونَ﴾ (٤٧) أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ؛ يعني: أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْعُونَ إِلَى يَوْمِ مَعْلُومٍ﴾؛ أي: أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عَرَصات القيامة لا تغادر منهم أحداً، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ لَهُ الْآلُفُ وَأُولَئِكَ يَوْمَ تَشْهَدُ﴾ (هود: ١٠٣)، ولهذا قال ههنا: ﴿لَمَجْعُونَ إِلَى يَوْمِ مَعْلُومٍ﴾؛ أي: هو مَوْقَتٌ بوقت مُحَدَّد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ إِنَّمَا أَصَاوُنُ الْمُكَذِّبُونَ﴾ (٥١) لَا كُلُّونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ (٥٢) فَالْتَوْنَ مِنَّا الْبَطُونَ﴾ وذلك أنهم يقبضون ويُسْجَرُونَ حتى يأكلوا من شجر الزقوم، حتى يملؤوا منها بطونهم، ﴿فَنَشْرِبُونَ عَلَيْهِ مِنْ لَحِيمٍ﴾ (٥٤) فَشَرِبُوا شَرْبَ الْهَيْمِ وهي الإبل العطاش، واحداها هيم، والأنثى هيماء، ويقال: هائم وهائمة. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة: الهيم، الإبل العطاش الظماء، وعن عكرمة أنه قال: الهيم: الإبل المراض تمص الماء مصاً ولا تروى. وقال السدي: الهيم داء يأخذ الإبل فلا تروى أبداً حتى تموت، فكَذَلِكَ أَهْلُ جَهَنَّمَ لَا يَرَوْنَ مِنَ الْحَمِيمِ أَبَداً [ينظر: الطبري ١٩٥/٢٧]، ثم قال تعالى: ﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الزَّلِيلِ﴾؛ أي: هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال في حق المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزْلاً﴾ (الكهف: ١٠٧)؛ أي: ضيافة وكرامة.

﴿فَمَنْ حَلَفْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢).

يقول تعالى مُقَرَّرًا للمعاد، وراذلاً على المكذبين به من أهل الزيف، والإلحاد، من الذين

قالوا ﴿أَوَلَا مِنَّا نَرَاكَ عَظَمًا لَّوْنَا لَمُبْعُوثُونَ﴾ [الصفات: ١٦]، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد، فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ﴾؛ أي: نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، أفليس الذي قدر على البداء بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى؟ ولهذا قال: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾؛ أي: فهلا تصدقون بالبعث! ثم قال مستدلًا عليهم بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ﴾ (٥٨) **ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ**؛ أي: أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها أم الله الخالق لذلك؟ ثم قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾؛ أي: صرفناه بينكم، وقال الضحاك: ساوى فيه بين أهل السماء والأرض. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ﴾؛ أي: وما نحن بعاجزين **عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْنَكُمْ**؛ أي: نغير خلقكم يوم القيامة.

﴿وَنُنَشِّئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من الصفات والأحوال، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البداء، قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى والأخرى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧].

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٣) **ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** (٦٤) **لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ** (٦٥) **إِنَّا لَمُغْرَمُونَ** (٦٦) **بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ** (٦٧) **أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ** (٦٨) **ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ** (٦٩) **لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُنْجَابًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ** (٧٠) **أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ** (٧١) **ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ** (٧٢) **نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ** (٧٣) **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ** (٧٤).

يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها، **ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ**؛ أي: تنبتونه في الأرض **ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**؛ أي: بل نحن الذين نقره نقره قراره وننبتنه في الأرض.

وعن أبي عبد الرحمن: لا تقولوا زرعنا ولكن قولوا حرثنا، وروي عن حُجْر المدري أنه كان إذا قرأ: ﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ وأمثالها يقول: بل أنت يا رب.

وقوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾؛ أي: نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم رحمة بكم، ولو نشاء لجعلناه حطامًا؛ أي: لأيسنائه قبل استوائه واستحصاده **فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ**؛ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ (٦٦) **بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ**؛ أي: لو جعلناه حطامًا لظللتم تفكّهون في المقالة تنوعون كلامكم، فتقولون تارة: إنا لمغرمون؛ أي: لملقون، وقال مجاهد، وعكرمة: إنا لموقع بنا. وقال قتادة: معذبون، وتارة تقولون: بل نحن محرومون، وقال مجاهد أيضًا: ملقون للشر؛ أي: بل نحن محارفون، قاله قتادة؛ أي: لا يثبت لنا مال ولا ينتج لنا ربح، وقال مجاهد: محدودون؛ يعني: لا حظ لنا، وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾

تعجبون. وقال مجاهد أيضًا: تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم، وهذا يرجع إلى الأول، وهو التعجب من السبب الذي من أجله أصيبوا في مالهم، وهذا اختيار ابن جرير [٢٧/١٩٨ وما بعدها]. وقال عكرمة: تلاومون، وقال الحسن، وقتادة، والسدي: تندمون. ومعناه إما على ما أنفقتم أو على ما أسلفتم من الذنوب. قال الكسائي: تفكه من الأضداد، تقول العرب تفككت بمعنى تنعمت، وتفككت بمعنى حزنت.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي شَرَبْتُمْ ۖ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾؛ يعني: السحاب، قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ يقول: بل نحن المنزلون ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجْلًا﴾؛ أي: زُعَاقًا مَرًّا لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: فهل تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذبًا زلالًا ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ﴿يُسِيمُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾؛ أي: تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾؛ أي: بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها، وللعب شجرتان، إحداهما: المرخ، والأخرى: العفّار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار.

وقوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا﴾ قال مجاهد وقتادة: أي: تذكّر النار الكبرى.

روى الإمام مالك [١٨٠٤] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي يُوقِدُونَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ) فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، فقال: (إِنَّهَا فَضِّلَتْ عَلَيْهَا بِسَعَةِ وَسِتِّينَ جُزْءًا) رواه البخاري [٣٠٩٢].

وقوله: ﴿وَمَتَّعْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك والنضر بن عربي: المسافرين، واختاره ابن جرير [٢٧/٢٠٢] وقال: ومنه قولهم: أَقْوَبُ الدَّارُ إِذَا رَحَلَ أَهْلُهَا، وقال غيره: القَيِّ والقَوَاء: القفر الخالي البعيد من العمران، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الْمُقْوِي هاهنا الجائع. وعن مجاهد: للحاضر والمسافر لكل طعام لا يصلحه إلا النار، وعن مجاهد [أيضًا]: المستمتعين من الناس أجمعين، وكذا ذكر عن عكرمة، وهذا التفسير أعم من غيره، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع، ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات، لهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عامًّا في حق الناس كلهم، وقد يستدل به بما رواه الإمام أحمد [٢٣١٣٢] وأبو داود [٣٤٧٧] من حديث أبي خذّاش حَبَّان بن زيد الشَّرْعَبِي الشَّامِي عن رجل من المهاجرين من قَرَن أن رسول الله ﷺ قال: (الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: النَّارِ وَالْكَلَالِ وَالْمَاءِ) [وسنده صحيح]، وروى ابن ماجه [٢٤٧٣] بإسناد جيد عن أبي هريرة [نحوه].

**وقوله:** ﴿فَسَيَحِبَّ بِأَسْرِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة: الماء الزلال العذب البارد ولو شاء لجعله ملحاً أجاباً كالبهار المغرقة، وخلق النار المحرقة وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم وزجرًا لهم في المعاد.

﴿فَلَا أَقْسِدُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسِيءٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفِيهِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢).

الذي عليه الجمهور أنه قسم من الله يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمته، ثم قال بعض المفسرين: «لا» هاهنا زائدة وتقديره أقسم بمواقع النجوم، ورواه ابن جبير عن سعيد بن جبير ويكون جوابه ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾، وقال آخرون: ليست لا زائدة لا معنى لها بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسمًا به على منفي، وتقدير الكلام: لا أقسم بمواقع النجوم، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة بل هو قرآن كريم، وقال ابن جرير: وقال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فَلَا أَقْسِدُ﴾ فليس الأمر كما تقولون ثم استأنف القسم بعد ذلك فقليل: أقسم، واختلفوا في معنى قوله: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ فقال ابن عباس: يعني: نجوم القرآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا في السنين بعد، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية، وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والسدي، وأبو حذرة، وقال مجاهد أيضًا: مواقع النجوم في السماء ويقال: مطالعها ومشارقها، وكذا قال الحسن، و قتادة وهو اختيار ابن جرير [٢٧/٢٠٤]، وعن قتادة: مواقعها منازلها، وعن الحسن أيضًا: أن المراد بذلك انتشارها يوم القيامة. وقال الضحاك: الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا أمطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا، وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسِيءٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾؛ أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتكم المقسم به عليه ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: إن هذا القرآن، الذي نزل على محمد لكتاب عظيم ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾؛ أي: معظم، في كتاب معظم محفوظ موقر، وعن ابن عباس ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: الكتاب الذي في السماء، وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾؛ يعني: الملائكة، وكذا قال أنس، ومجاهد، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

وروى ابن جرير [٢٧/٢٠٦] عن قتادة قال: لا يمسّه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا، فإنه يمسّه المجوسي النجس، والمنافق الرجس، وقال: وهي في قراءة ابن مسعود: ﴿مَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، وقال أبو العالية ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ ليس أنتم، أنتم أصحاب الذنوب، وقال ابن زيد: زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسّه إلا المطهرون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٦١) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٦٢﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢]، وهذا القول قول

جيد، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله، وقال الفراء: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به، وقال آخرون: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾؛ أي: من الجنابة والحدث. قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن هاهنا المصحف، كما روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو واحتجوا في ذلك بما رواه الإمام مالك في «موطئه» عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم أن لا يمس القرآن إلا طاهر، وروى أبو داود في «المراسيل» [٩٣] من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن رسول الله ﷺ قال: (لَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ)، وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره، ومثل هذا ينبغي الأخذ به، وقد أسنده الدارقطني [٢٢٢] عن عمرو بن حزم، وعبد الله بن عمر، وعثمان بن أبي العاصي وفي إسناد كل منهما نظر، والله أعلم [وهو حديث حسن بشواهد].

**وقوله:** ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين وليس هو كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مِرْيَةَ فيه، وليس وراءه حق نافع، **وقوله:** ﴿أَفَبِهَذَا لَدَيْتُمْ أَنْتُمْ مُّذْهَبُونَ﴾ عن ابن عباس: أي: مكذبون غير مصدقين، وكذا قال الضحاك، وأبو حذرة، والسدي، وقال مجاهد: ﴿مُذْهَبُونَ﴾؛ أي: تريدون أن تمالئوهم فيه وتركوا إليهم. ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال بعضهم: معنى وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنكم تكذبون؛ أي: تكذبون بدل الشكر، وقال ابن جرير [٢٠٧/٢٧]: وقد ذكر عن الهيثم بن عدي أن من لغة أزدشوة ما رزق فلان بمعنى ما شكر فلان.

وروى ابن جرير [٢٠٨/٢٧] عن ابن عباس، قال: ما مطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وقرأ ابن عباس: ﴿وَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ وإسناده صحيح إلى ابن عباس، وروى مالك في «الموطأ» [٤٥١] عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت في الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: (هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَكِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوَكِبِ) أخرجه في «الصحيحين» [البخاري/ ٨١٠ ومسلم/ ٧١].

روى ابن جرير [٢٠٨/٢٧] عن سعيد بن المسيب قال: أخبرني من شهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يستسقي، فلما استسقى التفت إلى العباس فقال: يا عباس يا عم رسول الله كم بقي من نوء الثريا؟ فقال: العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق بعد سقوطها سبعا، قال: فما مضت سابعة حتى مطروا، وهذا محمول على السؤال عن الوقت الذي أجرى الله فيه العادة بإنزال المطر، لا أن ذلك النوء مؤثر بنفسه في نزول المطر، فإن هذا هو المنهي عن اعتقاده.

وقال مجاهد: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: قولهم في الأنواء مطرنا بنوء كذا، وبنوء

كذا، يقول: قولوا هو من عند الله وهو رزقه، وهكذا قال الضحاك وغير واحد، وقال قتادة: أما الحسن فكان يقول: بئس ما أخذ قوم لأنفسهم لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب، فمعنى قول الحسن هذا: وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به ولهذا قال قبله: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ۖ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ۙ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَظُرُونَ ۙ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُشِيرُونَ ۙ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۙ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۙ﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ۙ﴾ أي: الروح ﴿الْحُلُقُومَ ۙ﴾ أي: الحلق وذلك حين الاحتضار، كما قال: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۙ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۙ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۙ وَالْتَفَتِ الْأَنفَاقُ ۙ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ۙ﴾ [القيامة: ٢٦ - ٣٠]، وقال ما هنا: ﴿وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَظُرُونَ ۙ﴾ أي: إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ۙ﴾ أي: بملائكتنا ﴿وَلَكِنْ لَا بُشِيرُونَ ۙ﴾ أي: ولكن لا ترونهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۙ وَرُسُلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةٌ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۙ﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۗ أَلَا لَهُ الْخُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ [الأنعام: ٦١، ٦٢].

وقوله: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۙ تَرْجِعُونَهَا ۙ﴾ معناه: فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ومقرها من الجسد إن كنتم غير مدنيين. قال ابن عباس: يعني محاسبين، وروي عن مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقاتدة، والضحاك، والسدي، وأبي حنزة مثله. وقال سعيد بن جبیر، والحسن البصري: غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون فردوا هذه النفس، وعن مجاهد: غير موقنين. وقال ميمون بن مهران: غير معذبين مقهورين [ينظر: الطبري ٢٧/٢١٠].

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۙ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ۙ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۙ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۙ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الْضَالِّينَ ۙ فَتَرْجُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ۙ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ ۙ إِنْ هَذَا لَهُ حَقُّ الْيَقِينِ ۙ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۙ﴾.

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم: إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى الجاهلين بأمر الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ ۙ﴾ أي: المحتضر ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۙ﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ۙ﴾ أي: فلهم روح وريحان وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت كما تقدم في حديث البراء أن ملائكة الرحمة تقول: (إِنَّهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ كُنْتَ تَعْمُرِينَهُ، اخْرُجِي إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانَ) [رواه أحمد ٨٧٥٤ عن أبي هريرة وسنده حسن]. قال ابن عباس: ﴿فَرَوْحٌ ۙ رَاحَةٌ وَرَيْحَانٌ، يقول: مستراح، وكذا قال مجاهد: إن الروح الاستراحة، وقال أبو حنزة: الراحة

من الدنيا، وقال سعيد بن جبير والسدي: الروح: الفرح، وعن مجاهد: ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ﴾ جنة ورخاء وقال قتادة: فروح: فرحمة، وقال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: وريحان ورزق، وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مقرباً حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور والرزق الحسن، ﴿وَحَنَّتْ يَعْمِرُ﴾، وقال محمد بن كعب: لا يموت أحد من الناس حتى يعلم من أهل الجنة هو أم من أهل النار، وقد قدمنا أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وروى الإمام أحمد [٢٤٣٩٧] عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ﴾ برفع الراء، وكذا رواه أبو داود [٣٩٩١]، والترمذي [٢٩٣٨]، والنسائي [١١٥٦٦/برقم] وسنده صحيح، وهذه القراءة هي قراءة يعقوب وحده وخالفه الباقر فقرأوا ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ﴾ بفتح الراء.

وروى الإمام أحمد [١٥٨١٦] عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي عن الإمام مالك بن أنس، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَغْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ)، وهذا إسناد عظيم ومتن قوي.

وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ أَرْوَاحَ الشَّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضِرَ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى فَنَادِيلٍ مُعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ) الحديث [رواه الدارمي/٢٤١٠]. وروى الإمام أحمد [١٨٣٠٩] عن عطاء بن السائب قال: كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى رأيت شيخاً أبيض الرأس واللحية على حمار، وهو يتبع جنازة فسمعتة يقول: حدثني فلان بن فلان سمع رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ) قال: فأكب القوم يبكون، فقال: (مَا يُبْكِيكُمْ؟) فقالوا: إنا نكره الموت، قال: (لَيْسَ ذَٰكَ، وَلَكِنَّهُ إِذَا خُضِرَ ﴿فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَفْرَيْنِ﴾ ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَنَّتْ يَعْمِرُ﴾، فَإِذَا بُشِّرَ بِذَلِكَ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ ﷻ، وَاللَّهُ ﷻ، لِلِقَائِهِ أَحَبُّ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٩٦﴾ فَتَزَلَّ مِنْ حِمِيرٍ ﴿٩٧﴾ وَتَصْلِيَةُ حِمِيرٍ فَإِذَا بُشِّرَ بِذَلِكَ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لِلِقَائِهِ أَكْرَهُ) [سنده لا بأس به]، وفي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها شاهد لمعناه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾؛ أي: وأما إذا كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾؛ أي: تبشروهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم: سلام لك؛ أي: لا بأس عليك أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين، وقال قتادة، وابن زيد: سلم من عذاب الله وسلمت عليه ملائكة الله، كما قال عكرمة: تسلم عليه الملائكة وتخبره أنه من أصحاب اليمين، وهذا معنى حسن، ويكون ذلك كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزَلُّوا مِنْ عَرْوَةِ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢]، وقال البخاري: ﴿فَسَلَّمَ لَكَ﴾؛ أي: مسلم لك أنك من أصحاب اليمين.

وقوله: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ (٩٢) ﴿فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ﴾ (٩٣) ﴿وَنَصْلَةٍ جَمِيمٍ﴾؛ أي: وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى ﴿فَنُزِّلْ﴾؛ أي: فضيافة ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿وَنَصْلَةٍ جَمِيمٍ﴾؛ أي: وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾؛ أي: إن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه ولا محيد لأحد عنه ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

روى البخاري [٧١٢٤] في آخر كتابه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ).





## تفسير سورة الحجر

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ١ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٢ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ٣ .

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات وما في الأرض؛ أي: من الحيوانات والنباتات، كما قال في الآية الأخرى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: الذي قد خضع له كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره وشرعه ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو المالك المتصرف في خلقه، فيحيي ويميت، ويعطي من يشاء ما يشاء، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ روى أبو داود [٥١١٠] عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به. قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قال - وضحك - قال: ما نجا من ذلك أحد، قال: حتى أنزل الله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سند على شرط مسلم]، وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً.

وقال البخاري [٢٦٨٧/٦]: قال يحيى: الظاهر على كل شيء علماً والباطن على كل شيء علماً. قال شيخنا الحافظ المزي: يحيى هذا هو ابن زياد الفراء، له كتاب سماه معاني القرآن، وقد ورد في ذلك أحاديث، فمن ذلك: ما رواه مسلم في «صحيحه» [٢٧١٣] عن سهل قال: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن، ثم يقول: (اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ) وكان يروي ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١﴾  
 ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٣﴾.

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهاها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ها هنا.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وزرع وثمار، كما قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَشَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَكْتُبُ فِيهَا كِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقوله: ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: من الأمطار والثلوج والبرد، والأقمار والأحكام مع الملائكة الكرام.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ أي: من الملائكة والأعمال كما جاء في «صحيح [مسلم] ١٧٩»: ﴿يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث أنتم، وأين كنتم من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار، الجميع في علمه على السواء وتحت بصره وسمعه فيسمع كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، كما قال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْفِرُونَ شَاءَ لَهُمْ يَغْفِرْ لَهُمْ وَإِذَا يَخْتَرِفُونَ فَلَا يَدْرَأُ عَنْهُمْ شَيْئًا إِنَّهُ يَعْلَمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]، وقال: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، فلا إله غيره ولا رب سواه، وقد ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) [البخاري/ ٥٠ ومسلم/ ٨].

وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينشد هذين البيتين:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ: عَلَيَّ رَقِيبٌ  
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفِلُ سَاعَةً وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

وقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: هو المالك للعالمين والآخرة، كما قال: ﴿وَأَنَّ لَنَا لَآخِرَةً وَأَوَّلَى﴾ [الليل: ١٣]، وهو المحمود على ذلك، كما قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحُكْمُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرَةِ﴾ [القصر: ٧٠]، فجميع ما في السموات والأرض ملك له، وأهلها عبيد أرقاء أذلاء بين يديه، كما قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [٩٦] لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٧ وَكُلُّهُمْ عِندَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝٩٨، ولهذا قال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾؛ أي: إليه المرجع يوم القيامة فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، بل إن يكن عمل أحدهم حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر

أَمْثَالَهَا، وَيُوتِ مَنْ لَدْنَهُ أَجْرًا عَظِيمًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقوله: ﴿يُؤْتِ الْيَلَّ فِي النَّهَارِ وَيُؤْتِ الْكَهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾؛ أي: هو المتصرف في الخلق يقرب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وتارة يكون الفصل شتاءً ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: يعلم السرائر وإن دقت وإن خفيت.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْنَئُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَكَأَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

أمر تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك، وحث على الإنفاق ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾؛ أي: مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، فأرشد الله تعالى إلى استعمال ما استخلفتم فيه من المال في طاعته، فإن فعلوا وإلا حاسبكم عليه وعاقبكم لترككم الواجبات فيه، وقوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعت في معاونته على الإثم والعدوان. روى الإمام أحمد [١٦٣٤٩] عن عبد الله بن الشَّخِير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿أَلْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي! وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتَ، أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟، ورواه مسلم [٢٩٥٩] وزاد: (وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ).

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة، ثم قال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾؛ أي: وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به.

وقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧]؛ ويعني: بذلك بيعة الرسول ﷺ، وزعم ابن جرير أن

المراد بذلك الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم وهو مذهب مجاهد فالله أعلم.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِلُّ عَلَى عَبْدِهِ عَيْنَيْ يَتَّى﴾؛ أي: حججًا واضحات وبراهين قاطعات، ﴿يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: من ظلمات الجهل والكفر، والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ يَكْفُرُ لَكُمْ كُفْرَكُمْ﴾؛ أي: في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس، وإزالة الشبهة، ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق، ثم حثهم على الإيمان وبين أنه قد أزال عنهم موانعه، حثهم أيضاً على الإنفاق فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض ويده مقاليدهما، وعنده خزائنهما، وهو مالك العرش بما حوى، وهو القائل: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال: ﴿وَمَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، فمن توكل على الله أنفق ولم يخش من ذي العرش إقلالاً، وعلم أن الله سيخلفه عليه، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ﴾؛ أي: لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً فلم يكن يؤمن حينئذٍ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح، فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ أَعْطَيْنَا دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ والمراد بالفتح هاهنا فتح مكة، وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح هاهنا صلح الحديبية، وقد يستدل لهذا القول بما روى الإمام أحمد [١٣٨٣٩] عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها، فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال: (دَعُوا لِي أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنْفَقْتُمْ مِثْلَ أُحُدٍ أَوْ مِثْلَ الْجَبَالِ ذَهَبًا، مَا بَلَّغْتُمْ أَعْمَالَهُمْ) [سند صحيح]، ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة، وفي «الصحاحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ) [البخاري/٣٤٧٠، ومسلم/٢٥٤١].

وقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾؛ يعني: المنفقين قبل الفتح وبعده، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]، وهكذا الحديث الذي في «صحيح [مسلم ٢٦٦٤]»: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ)، وإنما نبه بهذا لثلاث جهات: الجانب الآخر بمدح الأول دون الآخر، فيتوهم متوهم ذمه، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه، مع تفضيل الأول عليه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ أي: فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل ذلك بعد ذلك وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق، وفي الحديث: (سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ) [رواه الحاكم/١٥١٩ والنسائي/٢٣٠٦ وسنده حسن]، ولا شك عند أهل

الإيمان أن الصديق أبا بكر رضي الله عنه له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها.

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال عمر بن الخطاب: هو الإنفاق في سبيل الله، وقيل: هو النفقة على العيال، والصحيح أنه أعم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة، وعزيمة صادقة، دخل في عموم هذه الآية، ولهذا قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَضَاعًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْطِئُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: جزاء جميل ورزق باهر، وهو الجنة.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظَرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَفْتُمْ وَارْتَمَيْتُمْ وَغَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة، بحسب أعمالهم، كما قال عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة، وعن جنادة بن أمية قال: إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم، وسيماكم وحُلاككم، ونجواكم ومجالسكم، فإذا كان يوم القيامة، قيل: يا فلان هذا نورك، يا فلان لا نور لك، وقرأ: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، وقال الضحاك: ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طفق نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفق نور المنافقين، فقالوا: ربنا أتمم لنا نورنا، وقال الحسن في قوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ يعني: على الصراط، وروى ابن أبي حاتم [١٨٨٢٠] عن أبي الدرداء، وأبي ذر أن النبي ﷺ قال: (أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤَدُّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالسُّجُودِ، وَأَوَّلُ مَنْ يُؤَدُّ لَهُ بِرَفْعِ رَأْسِهِ، فَانْظُرْ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ) فقال له رجل: يا نبي الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم، ما بين نوح إلى أمتك؟ فقال: (أَعْرِفُهُمْ، مُحَجَّلُونَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ، وَلَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ غَيْرُهُمْ، وَأَعْرِفُهُمْ يُؤْتُونَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، وَأَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ، وَأَعْرِفُهُمْ بِنُورِهِمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) [رواه الحاكم/ ٣٧٨٤ وقال: صحيح الإسناد].

وقوله: ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ قال الضحاك: أي: وبأيمانهم كتبهم، كما قال: ﴿مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ﴾.

يَمِينِهِ» [الإسراء: ٧١]، وقوله: ﴿بُشِّرَكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: يقال لهم: بشراكم اليوم جنات؛ أي: لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين فيها أبداً ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِمَ مِنْ ثَوْرِكُمْ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة، والأمر الفظيعة، وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله به وترك ما عنه زجر. روى ابن أبي حاتم [١٨٨٢١] عن سليم بن عامر قال: خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلي، فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها، قال أبو أمامة: أيها الناس، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر، وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله، فتبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً، وهو المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه، قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى بنور البصير، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: ﴿انظُرُونَا نَقْتَسِمَ مِنْ ثَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ وهي خدعة الله التي يخدع بها المنافقين حيث قال: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور، فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم ﴿سُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ الآية. يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق مغترّاً حتى يقسم النور ويميز الله بين المؤمن والمنافق [رواه ابن أبي حاتم/ ١٨٨٢١ وسنده صحيح].

وعن ابن عباس: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ: ﴿انظُرُونَا نَقْتَسِمَ مِنْ ثَوْرِكُمْ﴾ فإننا كنا معكم في الدنيا قال المؤمنون: ﴿ارْجِعُوا﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور.

وقوله: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ قال الحسن وقتادة: هو حائط بين الجنة والنار، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الذي قال الله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]، وهكذا روي عن مجاهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغير واحد وهو الصحيح. ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾؛ أي: الجنة وما فيها ﴿وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾؛ أي: النار قاله قتادة، وابن زيد وغيرهما، قال ابن جرير [٢٢٥/٢٧]: وقد قيل إن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادي جهنم.

وروي عن عبد الله بن عمرو، وعبادة بن الصامت، وكعب الأحبار، وعلي بن الحسين زين العابدين نحو ذلك، وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثلاً لذلك، لا أن الذي أريد من القرآن هذا الجدار المعين نفسه ونفس المسجد، وما وراءه من الوادي

المعروف بوادي جهنم، فإن الجنة في السموات في أعلى عليين والنار في الدركات أسفل سافلين، وإنما المراد بذلك السور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة ﴿يَادُودُهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ﴾؛ أي: ينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات، ونصلي معكم الجماعات، ونقف منكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ ﴿قَالُوا بَلَى﴾؛ أي: فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى قد كنتم معنا ﴿وَلَكِنَّكُمْ فُتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال بعض السلف: أي: فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات وتربصتم؛ أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت. وقال قتادة: ﴿وَتَرَبَّصْتُ﴾ بالحق وأهله ﴿وَأَرْتَبْتُ﴾؛ أي: بالبعث بعد الموت ﴿وَعَرَّيْتُكُمْ الْأَمَانِيَّ﴾؛ أي: قلتم: سيغفر لنا وقيل: غرتكم الدنيا ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾؛ أي: ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت ﴿وَعَزَّيْتُكُمْ بِاللَّهِ﴾؛ أي: الشيطان. قال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار [الطبري ٢٧/٢٢٧]، ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا؛ أي: بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً، قال مجاهد: كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرهم، وكانوا معهم أموالاً ويعطون النور جميعاً يوم القيامة، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ويُمَاز بينهم حيثنذ.

وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذي أخبر الله به عنهم حيث يقول، وهو أصدق القائلين: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٣٨) ﴿إِلَّا أَصْعَابُ الْبَيْنِ﴾ (٣٩) ﴿فِي جَنَّتٍ يَسْأَلُونَ﴾ (٤٠) ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤١) ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (٤٢) ﴿قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (٤٣) ﴿وَلَوْ نَكُنَّا نَقُومُ الْمُسْكِينِ﴾ (٤٤) ﴿وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٤٥) ﴿وَكَا تَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (٤٦) ﴿حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ﴾ [المدر: ٣٨ - ٤٧]، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقرير لهم والتوبيخ. ثم قال تعالى: ﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدر: ٤٨]، كما قال ها هنا: ﴿قَالِمْ لَا يُوْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه. وقوله: ﴿مَا وَنَكُمُ النَّارُ﴾؛ أي: هي مصيركم وإليها منقلبكم. وقوله: ﴿هِيَ مَوْلَانَكُمْ﴾؛ أي: هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتياكم، وبئس المصير.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١٦) ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٧).

يقول تعالى: أما أن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله؛ أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ففهمه وتنقاد له وتطيعه.

روى مسلم [٣٠٢٧] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ يَكُونُوا كَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية، إلا أربع سنين. رواه مسلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ آمَنُوا أَوْ تَوَّأَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَكَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً ونبدوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المتوفكة، وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيد.

﴿وَكثيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾؛ أي: في الأعمال فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة، كما قال: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَدْسِيَةً يَحُفُّونَ أَلْكَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]؛ أي: فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمال التي أمروا بها، وارتكبوا ما نهوا عنه، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية.

وروى ابن أبي حاتم [١٨٨٢٩] عن ابن مسعود قال: «إِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَكَسَتْ قُلُوبُهُمْ اخْتَرَعُوا كِتَابًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، اسْتَهْوَتْهُ قُلُوبُهُمْ وَاسْتَحَلَّتْهُ أَلْسِنَتُهُمْ وَاسْتَدَلَّتْهُ، وَكَانَ الْحَقُّ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنْ شَهَوَاتِهِمْ فَقَالُوا: تَعَالَوْا نَدْعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى كِتَابِنَا هَذَا، فَمَنْ تَابَعَنَا عَلَيْهِ تَرَكْنَاهُ، وَمَنْ كَرِهَ أَنْ يُتَابِعَنَا قَتَلْنَاهُ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ».

وقوله: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضللتها، ويفرج الكرب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجذبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.

﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

يخبر تعالى عما يثيب به المُصْذِقِينَ والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة، ﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ أي: دفعوه بنية خالصة ابتغاء وجه الله، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً، ولهذا قال: ﴿يَضْعَفُ لَهُمْ﴾؛ أي: يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها، ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف، وفوق ذلك ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: ثواب جزيل حسن ومرجع صالح ومآب كريم. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ هذا تمام لجملة وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بالله ورسله بأنهم صديقون، عن ابن عباس



في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ هذه مفصلة ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾، وقال أبو الضحى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وهكذا قال مسروق، والضحاك، ومقاتل بن حيان وغيرهم [الطبري ٢٧/٢٣٠].

وعن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال: هم ثلاثة أصناف: يعني: المصدقين والصادقين والشهداء، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، ففرق بين الصادقين والشهداء فدل على أنهما صنفان ولا شك أن الصادق أعلى مقامًا من الشهيد، كما رواه الإمام مالك بن أنس عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبُ الدَّرِّيُّ الْغَابِرُ فِي الْأَثَرِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِيَتَفَاضَلَ مَا بَيْنَهُمْ) قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: (بَلَىٰ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رَجُلًا آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ) اتفق البخاري [٣٠٨٣] ومسلم [٢٨٣١] على إخراجهم، وقال آخرون: بل المراد من قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون وشهداء، حكاه ابن جرير [٢٣١/٢٧] عن مجاهد، وعن عمرو بن ميمون في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ قال: يجيئون يوم القيامة معًا كالأصبعين.

وقوله: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: في جنات النعيم، كما جاء في «الصحيحين»: (إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضِرَ تَسْرُحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَىٰ تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطْلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ ااطْلَاعَةَ فَقَالَ: مَاذَا تَرِيدُونَ؟ فَقَالُوا: نُحِبُّ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَنُقَاتِلَ فِيكَ فَنُقْتَلَ كَمَا قُتِلْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ إِنِّي قَضَيْتُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ) [مسلم/ ١٨٨٧ بنحوه]، وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾؛ أي: لهم عند الله أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم، وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال كما روى الإمام أحمد [١٥٠] عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الشُّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جِدَّ الْإِيمَانِ، لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَّقَ اللَّهَ فَقُتِلَ، فَذَاكَ الَّذِي يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهِ هَكَذَا - وَرَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّى سَقَطَتْ قَلَنْسُوءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ قَلَنْسُوءُ عُمَرَ - وَالثَّانِي مُؤْمِنٌ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَكَأَنَّمَا يَضْرِبُ ظَهْرَهُ بِشَوْكِ الطَّلْحِ، جَاءَهُ سَهْمٌ غَرَبَ فَقَتَلَهُ، فَذَاكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، وَالثَّلَاثُ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَّقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ، فَذَاكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ، وَالرَّابِعُ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ أَسْرَفَ عَلَىٰ نَفْسِهِ إِسْرَافًا كَثِيرًا، لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَّقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ، فَذَاكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ)، وهكذا رواه علي بن المديني، وقال: إسناده مصري صالح، ورواه الترمذي [١٦٤٤]، وقال: حسن غريب.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْحَرِيمِ﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرثُهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى موهنا أمر الحياة الدنيا ومحقرًا لها: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾؛ أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾ [آل عمران: ١٤]، ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وهو المطر.

وقوله: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾؛ أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها، ﴿ثُمَّ يَهيجُ فَتَرثُهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾؛ أي: يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرًا بعد ما كان خضرًا نضراً، ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا؛ أي: يصير يَبَسًا متحطمًا، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزًا شوهاء، والإنسان يكون كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غصًا طريًا لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخًا كبيرًا ضعيف القوى، قليل الحركة يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، ولما كان هذا المثل دالًا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾؛ أي: وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا: إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان.

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾؛ أي: هي متاع فانٍ غارٍ لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة. روى ابن جرير [٢٠٠/٤] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَوْضِعُ سَوَاطِئِ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَقْرَبُوا: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [سنده حسن]، وهذا الحديث ثابت في «الصحيح» [عند البخاري من رواية سهل بن سعد برقم/٣٠٧٨] بدون هذه الزيادة والله أعلم. وروى الإمام أحمد [٤٢١٦] عن عبد الله [بن مسعود] قال: قال رسول الله ﷺ: (لِلْجَنَّةِ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ) انفرد بإخراجه البخاري [٦١٢٣]، ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك فلهذا حثه الله

تعالى على المبادرة إلى الخيرات من فعل الطاعات وترك المحرمات التي تكفر عنه الذنوب والزلات وتحصل له الثواب والدرجات فقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَعْفَرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والمراد جنس السماء والأرض، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَسَابِقُوا إِلَى مَعْفَرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال ههنا: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم، كما في «الصحيح» أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدُّثور بالأجور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. قال: (وَمَا ذَاكَ؟) قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويُعتقون ولا نُعتق. قال: (أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ سَبَقْتُمْ مِّن بَعْدِكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَن صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ: تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ) قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ) [رواه البخاري/٨٠٧، ومسلم/٥٩٥ كلاهما بلفظ قريب].

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ أَنفُسَهُم بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أي: في الآفاق وفي أنفسكم ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾؛ أي: من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة، وقال بعضهم: من قبل أن نبرأها عائد على النفوس، وقيل: عائد على المصيبة، والأحسن عوده على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليها كما روى ابن جرير [٢٣٤/٢٧] عن منصور بن عبد الرحمن قال: كنت جالساً مع الحسن فقال رجل: سله عن قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ فسألته عنها فقال: سبحان الله ومن يشك في هذا! كل مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمة، وقال قتادة: ما أصاب من مصيبة في الأرض قال: هي السنون؛ يعني: الجذب، ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يقول: الأوجاع والأمراض، قال: وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم، ولا خلجان عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر [الطبري ٢٣٤/٢٧].

وهذه الآية الكريمة العظيمة من أدل دليل على القَدَرِية نفاة العلم السابق - قبهم الله - وروى الإمام أحمد [٦٥٧٩] عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قَدَّرَ اللَّهُ الْمَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)، ورواه مسلم في «صحيحه» [٢٦٥٣]، وزاد: (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)، وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي:

إِنْ عِلْمُهُ تَعَالَى الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا وَكُتَابَتِهِ لَهَا طَبَقٌ مَا يَوْجَدُ فِي حِينِهَا سَهْلٌ عَلَى اللَّهِ تَكَلُّفٌ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ.

وقوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَيْنَاكُمْ﴾؛ أي: أعلمناكم بتقديم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم؛ لأنه لو قدر شيء لكان ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَيْنَاكُمْ﴾؛ أي: أعطاكم؛ أي: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً تفخرون بها على الناس، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾؛ أي: مختال في نفسه متكبر فخور؛ أي: على غيره. وقال عكرمة: ليس أحد إلا هو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً، ثم قال: ﴿الَّذِينَ يَبَخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾؛ أي: يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾؛ أي: عن أمر الله وطاعته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢٥).

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو النقل الصدق ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل، قاله مجاهد، وقتادة وغيرهما، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالحق والعدل وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاءوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَيْمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوءوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبينات ودلالات، فلما قامت الحجة على من خالف، شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهوام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده، ولهذا قال تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾؛ يعني: السلاح كالسيوف والحرايب، والسنان والنصال، والدروع ونحوها ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: في

معايشهم كالفأس والقدوم، والمنشار، والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياسة والطبخ والخبز، وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسوله ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ أي: هو قوي عزيز ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليلو بعضكم ببعض.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٢٦) ثُمَّ فَتَيْنَا عَلَىٰ عَائِثِهِم بِرُسُلِنَا وَفَقَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابِهَا فَتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٢٧).

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم عليه السلام خلیل الرحمن، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالة، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ فَتَيْنَا عَلَىٰ عَائِثِهِم بِرُسُلِنَا وَفَقَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهُمْ الْحَوَارِيُّونَ رَأْفَةً﴾ وهي الخشية ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالخلق. وقوله: ﴿وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾؛ أي: ابتدعها أمة النصارى ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ما شرعناها لهم وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم. وقوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قاله سعيد بن جبیر، وقتادة، والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، وقوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابِهَا﴾؛ أي: فما قاموا بما التزموا حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين: أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزموا مما زعموا أنه قرينة يقرهم إلى الله تعالى.

وروى الإمام أحمد [١١٧٩١] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض [وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٨) لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْقِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩).

عن ابن عباس أنه حمل هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما

في الآية [٥٤] التي في القصص، وكما في حديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: (ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ آدَبَ أُمَّتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ) أخرجه في «الصحيحين» [البخاري/٢٨٤٩، ومسلم/١٥٤]، ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك، وعتبة بن أبي حكيم وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير، وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجْرهم مرتين أنزل الله تعالى عليه هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسًا أَلَّهُمْ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ؛ أَي: ضعفين ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ وزادهم ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾؛ يعني: هدى يتبصر به من العمى والجهالة ويغفر لكم، ففضلهم بالنور والمغفرة.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال سعيد بن عبد العزيز: سأل عمر بن الخطاب خبراً من أحبار اليهود: كم أفضل ما ضُغِفَ لكم حسنة؟ قال: كفل ثلاثمائة وخمسون حسنة. قال: فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين. ثم ذكر سعيد قول الله ﷻ: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ قال سعيد: والكفلان في الجمعة مثل ذلك [الطبري ٢٧/٢٤٣]. ومما يؤيد هذا القول ما رواه البخاري [٢١٥١] عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: (مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ، فَعَمِلُوا إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا، وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلًا، فَقَالَ لَهُمْ: لَا تَفْعَلُوا، أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا، فَأَبَوْا وَتَرَكُوا، وَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ بَعْدَهُمْ فَقَالَ: أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمْ الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينَ صَلَوا الْعَصْرَ قَالُوا: مَا عَمِلْنَا بَاطِلًا، وَلَكِ الْأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ. فَقَالَ: أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ؛ فَإِنَّ مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ فَأَبَوْا، فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، فَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَةَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هَذَا النُّورِ)، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْتَ لَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾؛ أي: ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

قال ابن جرير [٢٧/٢٤٦]: ﴿لَيْتَ لَا يَعْلَمُ﴾؛ أي: ليعلم؛ لأن العرب تجعل لا صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح فالسابق كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]، ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].



## تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

روى الإمام أحمد [٢٤٢٤١] عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقوله، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية [وسنده صحيح]، ورواه البخاري في كتاب «التوحيد» تعليقاً [٢٦٨٩/٦]، وفي رواية لابن أبي حاتم [١٨٨٤٠] عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونشرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾، وقالت: وزوجها أوس بن الصامت.

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاهُمْ مِمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ إِنْ أُمْنُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِطْطَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾

روى الإمام أحمد [٢٧٣٦٠] عن خويلة بنت ثعلبة قالت: في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، قالت: فدخل علي يوماً فراجعته بشيء، فغضب فقال: أنت عليّ كظهر أمي. قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي. قالت: قلت: كلا، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إلي، وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثني، فامتنعت منه فغلبنه بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عني، قالت: ثم

خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثياباً، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيتُ منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: (يَا خُوَيْلَةُ ابْنُ عَمِّكَ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَأَتَقِي اللَّهَ فِيهِ). قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في قرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سري عنه فقال لي: (يَا خُوَيْلَةُ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ وَفِي صَاحِبِكَ) ثم قرأ علي: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي رَوْحِهَا وَنَشَأْتَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ - إلى قوله تعالى -: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: (مُرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً). قالت: فقلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق. قال: (فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ). قالت: فقلت: والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام. قال: (فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَسَقًّا مِنْ تَمْرٍ). قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول الله ﷺ: (فَإِنَّا سَنُعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ) قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بعَرَقٍ آخر، قال: (فَقَدْ أَصَبْتَ وَأَحْسَنْتَ، فَادْهَبِي فَتَصَدَّقِي بِهِ عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكَ خَيْرًا) قالت: ففعلت.

ورواه أبو داود [٢٢١٤] في كتاب «الطلاق» من «سننه» [وهو حديث حسن]، وعنده خولة بنت ثعلبة، ويقال فيها: خولة بنت مالك بن ثعلبة، وقد تصغر فيقال: خُوَيْلَة. ولا منافاة بين هذه الأقوال فالأمر فيها قريب والله أعلم. هذا هو الصحيح في سبب نزول هذه السورة، فأما حديث سلمة بن صخر فليس فيه أنه كان سبب النزول ولكن أمر بما أنزل الله في هذه السورة، من العتق أو الصيام أو الإطعام، كما روى الإمام أحمد [١٦٤٦٨] عن سلمة بن صخر الأنصاري قال: كنت امرأة قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان ظهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان فرقاً من أن أصيب في ليلتي شيئاً فأتتني في ذلك إلى أن يدركني النهار وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري وقلت: انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمرى، فقالوا: لا والله لا نفعل نتخوف أن ينزل فينا، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت، فاصنع ما بدا لك.

قال: فخرجت حتى أتيت النبي ﷺ فأخبرته خبري فقال لي: (أَنْتَ بِذَاكَ) فقلت: أنا بذاك. فقال: (أَنْتَ بِذَاكَ) فقلت: أنا بذاك قال: (أَنْتَ بِذَاكَ) قلت: نعم، ها أنا ذا فأمض في حكم الله ﷻ فإني صابر له. قال: (أَعْتِقْ رَقَبَةً). قال: فضربت صفحة رقبتى بيدي وقلت: لا، والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال: (فَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ) قلت: يا رسول الله وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام. قال: (فَتَصَدَّقِي) فقلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وَحْشَى ما لنا عشاء. قال: (ادْهَبِي إِلَى صَاحِبِ صَدَقَةِ بَنِي زُرَيْقٍ فَقُلْ لَهُ فَلْيَذْفَعْهَا إِلَيْكَ، فَأَطْعِمْ عَنْكَ مِنْهَا وَسَقًّا مِنْ تَمْرٍ سِتِّينَ مِسْكِينًا، ثُمَّ اسْتَعْنِ بِسَائِرِهِ عَلَيْكَ وَعَلَى عِيَالِكَ). قال: فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ



السعة والبركة قد أمر لي بصدقتكم فادفعوها إليّ فدفعوها إليّ. وهكذا رواه أبو داود [٢٢١٣]، وابن ماجه [٢٠٦٢] واختصره الترمذي [٣٢٩٩] وحسنه، وظاهر السياق أن هذه القصة كانت بعد قصة أوس بن الصامت وزوجته خويلة بنت ثعلبة، كما دل عليه سياق تلك وهذه بعد التأمل.

وذهب ابن عباس والأكثر إلى ما قلناه والله أعلم. فقلوه تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِمْ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها: أنت عليّ كظهر أمي، والظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم، هكذا قال غير واحد من السلف.

وروى ابن جرير [٣/٢٨] عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية: أنت عليّ كظهر أمي، حرمت عليه فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس، وكان تحته ابنة عم له يقال لها خويلة بنت ثعلبة، فظاهر منها فأسقط في يديه، وقال: ما أراك إلا قد حرمت عليّ وقالت له مثل ذلك، قال: فانطلقني إلى رسول الله ﷺ فأتت رسول الله ﷺ فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه، فقال: (يَا خُوَيْلَةُ، مَا أَمَرْنَا فِي أَمْرِكَ بِشَيْءٍ)، فأنزل الله على رسوله، فقال: (يَا خُوَيْلَةُ، أَبْشِرِي) قالت: خيراً - فقرأ عليها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكَى إِلَى اللَّهِ وَلِلَّهِ يَسْمَعُ تَحَاوُرُكُمْ﴾ [المجادلة: ١] - إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّ﴾ قالت: وأي رقبة لنا؟ والله ما يجد رقبة غيري. قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ قالت: والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره. قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ قالت: من أين ما هي إلا أكلة إلى مثلها! قال: فدعا بشطر وسق ثلاثين صاعاً والوسق ستون صاعاً فقال: (لِيُطْعِمَ سِتِّينَ مِسْكِيناً وَلِيُزَاجِعُكَ). إسناده قوي وسياقه غريب، وقد روي عن أبي العالية نحو هذا.

وقال سعيد بن جبیر: كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية، فوقت الله الإيلاء أربعة أشهر، وجعل في الظهار الكفارة [رواه البيهقي/ ١٥٠٢٤ من كلام مقاتل]، وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية بقوله منكم فالخطاب للمؤمنين، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، واستدل الجمهور بقوله: ﴿مِن نِّسَائِهِمْ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها ولا تدخل في هذا الخطاب.

وقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتُكُمُ إِنَّمَا هُنَّ أُمَّهَاتُكُمُ إِلَّا الَّتِي وَلَدْتَهُنَّ﴾؛ أي: لا تصير المرأة بقول الرجل: أنت عليّ كأمي، أو مثل أمي، أو كظهر أمي، وما أشبه ذلك، لا تصير أمه بذلك إنما أمه التي ولدته، ولهذا قال: ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مَنَّكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾؛ أي: كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿وَرِأَتْ لَكُمْ لَعَنَةُ اللَّهِ غُفُورًا﴾؛ أي: عما كان منكم في حال الجاهلية، وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان، ولم يقصد إليه المتكلم، ولا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله

تعالى: ﴿ثُمَّ يَؤُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ فقال بعض الناس: العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره، وهذا القول باطل وهو اختيار ابن حزم وقول داود وحكاه أبو عمر بن عبد البر عن بكير بن الأشج والفراء وفرقة من أهل الكلام، وقال الشافعي: هو أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق، وقال أحمد بن حنبل: هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة، وقد حكى عن مالك أنه العزم على الجماع والإمساك، وعنه أنه الجماع، وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرّمها تحريمًا لا يرفعه إلا الكفارة، وإليه ذهب أصحابه والليث بن سعد، وعن سعيد بن جبير ﴿ثُمَّ يَؤُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾؛ يعني: يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرّمه على أنفسهم. وقال الحسن البصري: يعني: الغشيان في الفرج وكان لا يرى بأسًا أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر، وقال ابن عباس: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ والمس النكاح، وكذا قال عطاء والزهري، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وقال الزهري: ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر.

وقوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ أي: فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا، فهذا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان، وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان، فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلقها هنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب وهو عتق الرقبة، واعتضد في ذلك بما رواه عن مالك بسنده عن معاوية بن الحكم السلمي في قصة الجارية السوداء، وأن رسول الله ﷺ قال: (أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤَمِّنَةٌ) وقد رواه أحمد [٢٣٨١٨] في «مسنده»، ومسلم [٥٣٧] في «صحيحه».

وقوله: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ تُعْظَرُونَ بِهِ﴾؛ أي: تزجرون به ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ أي: خبير بما يصلحكم عليم بأحوالكم، وقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ قد تقدمت الأحاديث الآمرة بهذا على الترتيب كما ثبت في «الصحيحين» في قصة الذي جامع امرأته في رمضان [البخاري/١٨٣٤، ومسلم/١١١١]. ﴿ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي: شرعنا هذا لهذا. وقوله: ﴿وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: محارمه فلا تنتهكوها، وقوله: ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء كلا ليس الأمر كما زعموا بل لهم عذاب أليم؛ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ لِللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ .

يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿كُنُوا كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي:

أهينوا ولعنوا وأخزوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ﴿وَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾؛ أي: واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر، ﴿وَاللَّكَفِيرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾؛ أي: في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله والانقياد له والخضوع لديه.

ثم قال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ وذلك يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ﴿فَيَنْتَقِلُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾؛ أي: فيخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر ﴿أَخْصَنَهُ اللَّهُ وَسَوَاءٌ﴾؛ أي: ضبطه الله وحفظه عليهم وهم قد نسوا ما كانوا عملوا ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ أي: لا يغيب عنه شيء ولا ينسى شيئاً، ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه وإطلاعه عليهم وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾؛ أي: من سر ثلاثة ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا﴾؛ أي: مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون مع علم الله به وسمعه له، كما قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ [التوبة: ٧٨]، وقال: ﴿أَلَمْ يَحْسُبُوا أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلَنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم فهو ﷻ مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء، ثم قال: ﴿ثُمَّ يَنْتَقِلُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وقال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ وَيَنْجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَكَ حَيْوَتُكَ بِمَا لَمْ يَحْجِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُشْسِ الْقَصِيدُ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّيُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْقَوَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ وَيَنْجَوْنَ﴾ قال: اليهود. وكذا قال مقاتل بن حيان وزاد: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودة، وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم، فترك طريقه عليهم، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ﴾، وقوله: ﴿وَيَنْجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾؛ أي: يتحدثون فيما بينهم بالإثم، وهو ما يختص بهم، والعدوان وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول ومخالفته، يُصرون عليها ويتواصلون بها. وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ حَيْوَتُكَ بِمَا لَمْ يَحْجِكَ بِهِ اللَّهُ﴾ روى ابن أبي حاتم [١٨٨٤٣] عن عائشة قالت: «دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا: السام عليك

يا أبا القاسم، فقالت عائشة: وعليكم السام واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: (يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ) قلت: ألا تسمعهم يقولون السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: (أَوْ مَا سَمِعْتَ أَقُولُ: وَعَلَيْكُمْ؟)، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَوْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ﴾، وفي رواية في «الصحيح» أنها قالت لهم: عليكم السام والذام واللعنة، وأن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّهُ يُسْتَجَابُ لَنَا فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِينَا) [البخاري/٦٠٣٨ ومسلم/٢١٦٥].

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾؛ أي: يفعلون هذا، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام، وإنما هو شتم في الباطن، ومع هذا يقولون في أنفسهم: لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن؛ لأن الله يعلم ما نسرّه، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا فقال الله تعالى: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿يَصَلُّونَهَا فِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر، أن اليهود كان يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليك [ابن أبي حاتم/١٨٨٤٤]، ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول؟ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَوْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إسناده حسن.

وعن ابن عباس قال: كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيّوه: سام عليك، قال الله: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، ثم قال الله تعالى مؤدباً عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين: ﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْأَثَرِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾؛ أي: كما يتناجى به الجهلة من كفره أهل الكتاب ومن مآلهم على ضلالهم من المنافقين: ﴿وَتَنَجَّوْا بِالْأَثَرِ وَالْعُدْوَانِ وَأَقُولُ اللَّهُ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾؛ أي: فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم وسيجزيك بها. روى الإمام أحمد [٥٤٣٦] عن صفوان بن محرز قال: كنت أخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، وَيَقْرَرُهُ بِذُنُوبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ). أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٢٣٠٩ ومسلم/٢٧٦٨].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إنما النجوى - وهي المسارة - حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ يعني: إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: ليسوءهم وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، ومن أحسن من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله فإنه لا يضره شيء بإذن الله.

وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذٍ على مؤمن، كما روى الإمام

أحمد [٤٠٣٩] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَجَانَبَنَّ اثْنَانِ دُونَ صَاحِبَيْهِمَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ). أخرجاه [البخاري/٥٩٣٢/ نحوه ومسلم/٢١٨٤].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسَحُّوا فِي الْمَجْلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

يقول تعالى مؤدباً عباده المؤمنين وآمراً لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسَحُّوا فِي الْمَجْلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل، كما جاء في الحديث الصحيح: (مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) [البخاري/٢٣٩، ومسلم/٥٣٣]، وفي الحديث الآخر: (وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ) [رواه مسلم/٢٦٩٩]، ولهذا أشباه كثيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال قتادة: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض.

وقد روى الإمام أحمد [٤٦٥٩] والشافعي [ص٦٨] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ فَيَجْلِسَ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفْسَحُوا وَتَوْسَعُوا) وأخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٥٩١٥ بنحوه ومسلم/٢١٧٧].

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال: فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث: (قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ) [البخاري/٢٨٧٨ ومسلم/١٧٦٨]، ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتِمَثَلَ لَهُ الرَّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ) [رواه الترمذي/٢٧٥٥ وحسنه]، ومنهم من فصل فقال: يجوز عند القدوم من سفر وللحاكم في محل ولايته، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لما استقدمه النبي حاكماً في بني قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين: (قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ) وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه والله أعلم، فأما اتخاذه ديدناً، فإنه من شعار العجم، وقد جاء في «السنن» أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكان إذا جاء لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك [رواه أحمد والترمذي وحسنه].

وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري وغيرهما أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسَحُّوا فِي الْمَجْلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ يعني: في مجالس الحرب قالوا: ومعنى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾؛ أي: انهضوا للقتال، وقال قتادة: إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا، وقال مقاتل: إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا إليها [الطبري/١٨/٢٨]، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا إذا كانوا عند النبي ﷺ في بيته فأرادوا الانصراف، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده، فربما يشق ذلك عليه ﷺ، وقد تكون له الحاجة فأمرهم أنهم إذا

أَمُرُوا بِالْإِنصِرَافِ أَنْ يَنْصَرِفُوا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اتَّجِعُوا فَاتَّجِعُوا﴾ [النور: ٢٨].

**وقوله:** ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ أي: لا تعتقدوا أنه إذا فُسِّحَ أحدٌ منكم لأخيه إذا أقبل أو إذا أمر بالخروج فخرج، أن يكون ذلك نقصاً في حقه بل هو رفعة ورتبة عند الله، والله تعالى لا يضيع ذلك له، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره، ولهذا قال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ أي: خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه.

وروى الإمام أحمد [٢٣٢] أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى رجل من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض قاضٍ، فقال عمر عليه السلام: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: (إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ قَوْمًا وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ) وهكذا رواه مسلم [٨١٧]، وقد ذكرت فضل العلم وأهله وما ورد في ذلك من الأحاديث مستقصاة في شرح كتاب العلم من «صحيح البخاري»، والله الحمد والمنة.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢) ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَتٍ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣).

يقول تعالى أمراً بعباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ؛ أي: يسأله فيما بينه وبينه، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتركيه وتؤهله؛ لأن يصلح لهذا المقام، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا﴾؛ أي: إلا من عجز عن ذلك لفقده ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها، ثم قال: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَتٍ﴾؛ أي: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول، ﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم، وقد قيل: إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب عليه السلام.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه، فلما قال ذلك صبر كثير من المسلمين وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَتٍ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ فوسع الله عليهم ولم يضيق. وقال عكرمة والحسن البصري: نسختها الآية التي بعدها: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَتٍ﴾ إلى آخرها. وقال قتادة: إنها منسوخة ما كانت إلا ساعة من نهار [الطبري ٢٨/٢٠].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٥) ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٦) ﴿لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٨) ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٩).

يقول الله تعالى منكرًا على المنافقين موالاتهم الكفار في الباطن، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿مُذَبِّحِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣]، وقال هاهنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ يعني: اليهود الذين كان المنافقون يماثلونهم ويوالونهم في الباطن، ثم قال: ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود، ثم قال: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: المنافقين يحلفون على الكذب، وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولا سيما في مثل حالهم اللعين عبادًا بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا جاؤوا الرسول حلفوا له بالله أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك.

ثم قال: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة، وهي موالات الكافرين ونصحهم، ومعاداة المؤمنين وغشهم، ولهذا قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر واتقوا بالإيمان الكاذبة، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فآغتر بهم، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾؛ أي: في مقابلة ما امتنعوا من الحلف باسم الله العظيم في الإيمان الكاذبة الحائثة، ثم قال: ﴿لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ أي: لن يدفع ذلك عنهم بأسًا إذا جاءهم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم قال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾؛ أي: يحشرهم يوم القيامة فلا يغادر منهم أحدًا، ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ أي: يحلفون بالله وبأنهم كانوا على الهدى والاستقامة، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة، ولهذا قال: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ أي: حلفهم ذلك لربهم وبأنهم، ثم قال منكرًا عليهم حسبانهم: ﴿أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره، وعنده نفر

من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل قال: (إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ يَنْظُرُ بِعَيْنَيْ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَنَاكُمْ فَلَا تُكَلِّمُوهُ) فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله فكلمه فقال: (عَلَامَ تَشْتُمْنِي أَنْتَ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ؟) نفر دعاهم بأسمائهم، قال: فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له واعتذروا إليه، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [ورواه أحمد ٢٤٠٧ وإسناده جيد].

وحال هؤلاء كما أخبر الله تعالى عن المشركين حيث يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٢٣) أَنْظَرُ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤]، ثم قال: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾؛ أي: استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله ﷻ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه، ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾؛ يعني: الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٢).

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله؛ يعني: الذين هم في حدٍّ والشرع في حدٍّ؛ أي: مجانبون للحق مشاقون له، هم في ناحية والهدى في ناحية، ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾؛ أي: في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب، الأذلين في الدنيا والآخرة.

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَكَ أَنَا وَرُسُلِي﴾؛ أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل، بأن النصر له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، وقال ها هنا: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ أي: كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه، وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾؛ أي: لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]،



وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره: أنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر [رواه  
الحاكم/٥١٥٢ بنحوه]، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك  
السته رضي الله عنهم: ولو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته [ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٤٠٤/٥٨].

وقيل في قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر ﴿أَوْ  
أَبْنَاءَهُمْ﴾ في الصديق هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ في مصعب بن عمير،  
قتل أخاه عبيدة بن عمير يومئذ ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في عمر قتل قريبًا له يومئذ أيضًا، وفي حمزة  
وعلي وعبيد بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، فالله أعلم.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: من اتصف بأنه  
لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان؛ أي:  
كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته. قال السدي: جعل في قلوبهم  
الإيمان، وقال ابن عباس: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: قواهم.

وقوله: ﴿وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كل  
هذا تقدم تفسيره غير مرة.

وفي قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ سر بديع وهو أنه لما سخطوا على القرائب  
والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم  
المقيم، والفوز العظيم والفضل العميم.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾؛ أي: هؤلاء حزب الله؛ أي: عباد الله وأهل كرامته. وقوله:  
﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما  
أخبر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان، ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].



## تفسير سورة الحشر

وهي مدنية

وكان ابن عباس يقول: سورة بني النضير، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: أنزلت في بني النضير، رواه البخاري [٣٨٠٥ بنحوه] ومسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ۝٢ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْغُلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝٣ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا فَأَيْمَةٌ عَلَى أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾

يخبر تعالى أن جميع ما في السماوات وما في الأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقده، ويصلي له ويوحده، كقوله تعالى: ﴿سُبِّحْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: منيع الجنبات ﴿الْحَكِيمُ﴾ في قدره وشرعه، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ يعني: يهود بني النضير. قاله ابن عباس، ومجاهد، والزهري، وغير واحد [الطبري ٤٦/٢٨].

وكان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادئهم وأعطاهم عهداً وذمة، على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه فأحل الله بهم بأسه الذي لا مردَّ له، فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئاً وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم، وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام، وهي أرض المحشر والمنشر، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم، فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي يمكن أن تحمل معهم، ولهذا قال: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾؛ أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه، كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم.

روى أبو داود [٣٠٠٤] عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس، والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإننا نقسم بالله لنقاتلنه أو لنخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم ونسبي نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان مع من عبدة الأوثان أجمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: (لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمْ الْمَبَالِغَ، مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرِ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ، يُرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ)، فلما سمعوا ذلك من النبي تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش فكتب كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نساءكم شيء وهو الخلاخيل، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ اجتمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان المَنَصَف، وليسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم: (إِنَّكُمْ وَاللَّهِ لَا تَأْمَنُونَ عِنْدِي إِلَّا بِعَهْدٍ تُعَاهِدُونِي عَلَيْهِ)، فأبوا أن يعطوه عهداً فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا الغد على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها فقال: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦] يقول بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين، قسمها بينهم وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوي حاجة، ولم يقسم من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة [سنده صحيح].

ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار وبالله المستعان.

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير أنه لما قُتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا سبعين وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري، فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: (لَقَدْ قَتَلْتَ رَجُلَيْنِ، لَا دِيْنَهُمَا) وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد، فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين، وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شريقها.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه «السيرة» [على ما رواه عنه ابن هشام ١٤٣/٤]: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر الذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل

يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة.

فلما استلبت النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلًا المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم، ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض وتعيبه على من يصنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟ وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي ابن سلول قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا، فإننا لن نسلمكم إن قوتلتهم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا فقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار، إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة - سماك بن خرشة - ذكرا فقراً فأعطاهما رسول الله ﷺ، قال: ولم يُسلم من بني النضير إلا رجلان: يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها.

قال ابن إسحاق: وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين: (أَلَمْ تَرَ مَا لَقِيتُ مِنْ ابْنِ عَمِّكَ، وَمَا هُمْ بِهِ مِنْ شَأْنِي) فجعل يامين بن عمرو لرجل جُعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله فيما يزعمون، قال ابن إسحاق: ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها، فقلوه: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ يعني: بني النضير ﴿وَمِنْ دِينِهِمْ لَأَوَّلُ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾؛ أي: في مدة حصاركم لهم وقصرها وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها، ولهذا قال: ﴿وظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾؛ أي: جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتْنَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

وقوله: ﴿وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ﴾؛ أي: الخوف والهلع والجزع، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصروهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿يُخْرِجُونَ يَوْمَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك، وهو نقض ما استحسَنوه من سقوفهم وأبوابهم، وتَحَمَّلها على الإبل، وكذلك قال عروة بن الزبير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا﴾؛ أي: لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء، وهو النفي من ديارهم وأموالهم، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك، قاله عروة، والسدي، وابن زيد؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم، وقال عكرمة: الجلاء: القتل، وفي رواية عنه: الفناء، وقال قتادة: الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد، وقال الضحاك: أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء، فهذا الجلاء [الطبري ٣١/٢٨ - ٣٢].

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾؛ أي: حتم لازم لا بد لهم منه، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم، ثم قال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ﴾ اللين نوع من التمر وهو جيد. قال أبو عبيدة: وهو ما خالف العجوة والبرني من التمر، وقال كثيرون من المفسرين: اللينة ألوان التمر سوى العجوة. قال ابن جرير: هو جميع النخل ونقله عن مجاهد: وهو البؤيرة أيضاً.

وروى النسائي [١١٥٧٤] عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ﴾ قال: يستنزلونهم من حصونهم، وأمروا بقطع النخل، فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً فلنسأل رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ﴾ [رجال نفث].

وأخرج صاحبها الصحيح [البخاري/٣٨٠٤ ومسلم/١٧٦٦] عن ابن عمر، قال: حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حارب قريظة، فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام ويهود بني حارثة وكل يهود بالمدينة، ولهما أيضاً عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير، وقطع وهي البؤيرة، فأنزل الله ﷻ فيه ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ﴾.

قال ابن إسحاق: كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة، وحكى البخاري [تعليقاً ١٤٧٨/٤] عن الزهري، عن عروة أنه قال: كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر.

﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٦﴾ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَهُكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾.

يقول تعالى مبيناً ما الفيء، وما صفته، وما حكمه، فالفيء: كل مال أخذ من الكفار من

غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه، فإنها مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب؛ أي: لم يقاتلوا الأعداء فيها، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ، فأفاءه الله على رسوله، ولهذا تَصَرَّف فيه كما شاء، فردّه على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآيات فقال: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من بني النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾؛ يعني: الإبل ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: هو قدير لا يُغالب ولا يُمانع، بل هو القاهر لكل شيء.

ثم قال: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾؛ أي: جميع البلدان التي تُفَتِّح هكذا، فحكمها حكم أموال بني النضير، ولهذا قال: ﴿فَاللَّهُ وَالرَّسُولُ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ إلى آخرها والتي بعدها فهذه مصارف أموال الفتي ووجوهه.

روى أبو داود [٢٩٦٣] عن مالك بن أوس قال: أرسل إلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين تعالى النهار، فجئته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله، فقال حين دخلت عليه: يا مالك إنه قد دَفَّ أهل أبيات من قومك، وقد أمرت فيهم بشيء فاقسم فيهم، قلت: لو أمرت غيري بذلك فقال: خذه، فجاءه يرفأً، فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص؟ قال: نعم، فأذن لهم فدخلوا ثم جاءه يرفأً فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في العباس وعلي؟ قال: نعم، فأذن لهما فدخلوا فقال العباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا؛ يعني: علياً، فقال بعضهم: أجل يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرحهما، قال مالك بن أوس: خُيِّل إلي أنهما قدما أولئك النفر لذلك، فقال عمر رضي الله عنه: اتندا، ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: (لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً) قالوا: نعم. ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال: (لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً) فقالا: نعم. فقال: إن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس فقال: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بني النضير، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة أو نفقته ونفقة أهله سنة، ويجعل ما بقي أسوة المال، ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون ذلك؟ قالوا: نعم، ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان ذلك؟ قالوا: نعم، فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر: أنا ولي رسول الله ﷺ، فجئت أنت وهذا إلى أبي بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: (لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً)، والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق، فوليتها أبو بكر، فلما توفي قلت: أنا ولي رسول الله ﷺ وولي أبي بكر، فوليتها ما شاء الله أن أليها، فجئت أنت وهذا وأنتم جميع وأمركما واحد فسألتما نيتها، فقلت: إن شئتما

فأنا أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تليها بالذي كان رسول الله ﷺ يليها، فأخذتماها مني على ذلك ثم جئتماني لأقضي بينكما بغير ذلك، والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فرداها إلي. أخرجه الشيخان [البخاري/ ٢٩٢٧ نحوه ومسلم/ ١٧٥٧].

وهذه المصارف المذكورة في هذه الآية هي المصارف المذكورة في خمس الغنيمة، وقد قدمنا الكلام عليها في سورة الأنفال بما أغنى عن إعادته هاهنا والله الحمد.

وقوله: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾؛ أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء لئلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها، بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء، وقوله: ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَحُذُّهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنَّهُوْا﴾؛ أي: مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر.

وروى الإمام أحمد [٤١٢٩] عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: لعن الله الواشmates والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله ﷻ، قال: فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها: أم يعقوب، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت. قال: ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تعالى، فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته، فقال: إن كنت قرأته فقد وجدته. أما قرأت: ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَحُذُّهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنَّهُوْا﴾ قالت: بلى. قال: فإن رسول الله ﷺ نهى عنه. قالت: إني لأظن أهلك يفعلونه، قال: اذهبي فانظري فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً، فجاءت فقالت: ما رأيت شيئاً، قال: لو كان كذا لما تجامعنا. أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/ ٦٨٥٨ ومسلم/ ١٣٣٧ كلاهما بنحوه] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ)، وروى النسائي [٥١٥٣] عن ابن عمر وابن عباس: أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه نهى عن الذبء والحتم والتقير والمزقة، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَحُذُّهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنَّهُوْا﴾ [سند صحيح وهو عند مسلم ١٩٩٧] دون ذكر الآية، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ أي: اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجه، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه وارتكب ما عنه زجره ونهاه.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠).

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفيء أنهم: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ

يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا؛ أي: خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وَيَصْرُوهَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَوْلِيَّاءَ هُمُ الصَّدِيقُونَ﴾؛ أي: هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين، ثم قال تعالى مادحًا للأنصار ومبينًا فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم، وإيثارهم مع الحاجة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم. قال عمر: وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم كرامتهم، وأوصيه بالأنصار خيرًا الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم رواه البخاري [١٣٢٨] هاهنا.

وقوله: ﴿يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: من كرمهم وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم. روى الإمام أحمد [١٣٠٩٧] عن أنس قال: قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلًا في كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنة، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: (لَا مَا أَتَيْتُمُ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمُ اللَّهَ لَهُمْ) [سنده صحيح].

وروى البخاري [٣٥٨٣] عن أنس بن مالك قال: دعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين. قالوا: لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: (إِمَّا لَا، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي، فَإِنَّهُ سَيُصِيبُكُمْ بَعْدِي أَثَرَةٌ)، وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا. فقالوا: تكفوننا المؤنة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا. ﴿وَلَا يَحِدُّونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾؛ أي: ولا يجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة.

قال الحسن البصري: ﴿وَلَا يَحِدُّونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾؛ يعني: الحسد. ﴿مِّمَّا أُوتُوا﴾ قال قتادة: يعني: فيما أعطى إخوانهم، وكذا قال ابن زيد [ينظر: الطبري ٤٢/٢٨].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِدُّونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾؛ يعني: مما أوتوا المهاجرين، قال: وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم في الأنصار فعاتبهم الله في ذلك فقال: ﴿وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِن خِيَلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦]، وقوله: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾؛ يعني: حاجة؛ أي: يقدمون المحاولات على حاجة أنفسهم ويبدعون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك.

وقد ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جَهْدُ الْمُقِلِّ) [رواه ابن حبان/٣٦١ ورواه الحاكم/١٥٠٩].

وروى البخاري [٤٦٠٧] عن أبي هريرة قال: أتى رجل لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال النبي ﷺ: (أَلَا رَجُلٌ يُضَيَّفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؟) فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيفي رسول الله ﷺ لا تدخره شيئًا، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال:



فإذا أراد الصبية العشاء فنوميمهم، وتعالى فأطفئ السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: (لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ ﷻ - أَوْ: ضَحِكَ - مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ)، وأنزل الله تعالى: ﴿وَوُزِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، وفي رواية لمسلم [٢٠٥٤] تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح.

روى أحمد [١٤٥٠١] عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: (إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشَّحَّ، فَإِنَّ الشَّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ) أخرجه مسلم [٢٠٥٧٨].

وروى ابن أبي حاتم [١٨٨٥٥] عن الأسود بن هلال قال: جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت، فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً، فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكره الله في القرآن، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذاك البخل وبئس الشيء البخل.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم المهاجرون ثم الأنصار، ثم التابعون لهم بإحسان، كما قال في آية براءة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لأثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة الداعون لهم في السر والعلانية، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾؛ أي: قائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾؛ أي: بغضاً وحسداً ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب، لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وروى ابن أبي حاتم [١٨٨٥٦] عن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم! ثم قرأت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية (وأخرج مسلم/ ٣٢٢ نحوه).

وروى ابن جرير [٣٧/٢٨] عن مالك بن أوس بن الحذثان قال: قرأ عمر بن الخطاب: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ [الحشر: ٧] حتى بلغ ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ ﴿وَالَّذِينَ بَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة، وليس أحد إلا له فيها حق ثم قال: لئن عشت لياتين الراعي وهو بسرو حِمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلُبْنَ الْأُذُنَ لَكُمْ لَا يُصْرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقِيلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وِبَالٍ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا اتِّمَامٌ فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ أي: لكاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولاً، ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه، ولهذا قال: ﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ﴾؛ أي: لا يقاتلون معهم ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾؛ أي: قاتلوا معهم ﴿لَيُؤْلُبْنَ الْأُذُنَ لَكُمْ لَا يُصْرُونَ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها، ثم قال تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله، كقوله: ﴿إِذَا فُرِقَ بَيْنَهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾، ثم قال: ﴿لَا يُقِيلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾؛ أي: أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرّون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة.

ثم قال: ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾؛ أي: عداوتهم فيما بينهم شديدة، ولهذا قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾؛ أي: تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف، قال إبراهيم النخعي: يعني: أهل الكتاب والمنافقين ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ثم قال: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وِبَالٍ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال مجاهد، والسدي، ومقاتل بن حيان: يعني: كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر، وقال ابن عباس: يعني: يهود بني قينقاع [الطبري ٤٨/٢٨]، وكذا قال قتادة ومحمد بن إسحاق [سيرة ابن هشام ١٤٩/٤]، وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا.

وقوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾؛ يعني: مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، وقول المنافقين لهم: ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ ثم لما حقت الحقائق وجدّ بهم الحصار والقتال، تخلوا عنهم وأسلموهم

للهلكة، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان - والعياذ بالله - الكفر، فإذا دخل فيما سول له تبرأ منه وتنصل وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقد ذكر بعضهم هاهنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل، لا أنها المرادة وحدها بالمثل، بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها، فروى ابن جرير [٢٨/٤٩] عن علي عليه السلام: أن راهباً تعبد ستين سنة، وأن الشيطان أراد فاعياه، فعمد إلى امرأة فأجنّها، ولها إخوة فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس فيداويها، قال: فجاؤوا بها إليه فداواها وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته، فأتاها فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها، فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك إنك أعيتني أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك، فاسجد لي سجدة، فسجد له فلما سجد له قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين، فذلك قوله: ﴿كَذَلِكَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، وكذا روي عن ابن عباس، وابن مسعود، وطاوس، ومقاتل بن حيان نحو ذلك، واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيصا، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: فكان عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له، ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: جزاء كل ظالم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾.

روى الإمام أحمد [١٩١٩٧] عن جرير قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مُجْتَابِي النمار أو العباء مُتَقَلِّدِي السيوف، عامتهم من مُضَر، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، قال: فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة فصلى ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَ الْنَاسَ﴾ [النساء: ١] - إِلَى آخِرِ آيَةِ وَقَرَأَ آيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره - حتى قال -: ولو بشق تمره) قال: فجاء رجل من الأنصار بصره كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتהלل وجهه كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ) أخرجه مسلم [١٠١٧]، فقله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أمر بتقواه وهي تشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر.

وقوله: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾؛ أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾

تأكيد ثانٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: اعلّموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب من أموركم جليل ولا حقير.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾؛ أي: لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم، فإن الجزاء من جنس العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم، كما قال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تِلْكَ ءَمُولُكُمْ ءَمُولُكُمْ وَلَا أُولَئِكَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني [في «المعجم الكبير»/٩] عن نعيم بن نمحة قال: كان في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم، فمن استطاع أن يقضي الأجل وهو في عمل الله سبحه فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله سبحه، إن قومًا جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله سبحه أن تكونوا أمثالهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم، وخلوا بالشقوة والسعادة، وأين الجبارون الأولون الذي بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار، هذا كتاب الله لا تغنى عجائبه فاستضيئوا منه ليوم ظلمة، واستضيئوا بسنائه وبيانه، إن الله تعالى أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَلُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، لا خير في قول لا يراد به وجه الله ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم، إسناده جيد ورجاله كلهم ثقات.

وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾؛ أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة، كما قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجنّة: ٢١]، وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، في آيات أخر دالات على أن الله تعالى يكرم الأبرار، ويهين الفجار، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾؛ أي: الناجون المسلمون من عذاب الله سبحه.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَضْبًا مُّثَصِّدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُصْرَتُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤).

يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن ومبينًا علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه، لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ

خَشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ؛ أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله ﷻ، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَيْكَ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ إلى آخرها يقول: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حَمَلْتَهُ إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، ثم قال: ﴿وَلَيْكَ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وكذا قال قتادة وابن جرير.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه، فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة؛ أي: يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير، حتى الذر في الظلمات، وقوله: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قد تقدم الكلام على ذلك في أول التفسير بما أغنى عن إعادته هاهنا، والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وقد قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ثم قال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾؛ أي: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، وقوله: ﴿الْقُدُّوسُ﴾ قال وهب بن منبه؛ أي: الطاهر، وقال مجاهد، وقاتادة؛ أي: المبارك وقال ابن جريج: تقدسه الملائكة الكرام. ﴿السَّلَامُ﴾؛ أي: من جميع العيوب والنقائص لكمالهِ في ذاته وصفاته وأفعاله.

وقوله: ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ قال ابن عباس: أي: أمن خلقه من أن يظلمهم، وقال قتادة: أمّن بقوله: أنه حق، وقال ابن زيد: صدّق عباده المؤمنين في إيمانهم به، وقوله: ﴿الْمُهَيِّمُ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم بمعنى هو رقيب عليهم، كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، وقوله: ﴿الْعَزِيزُ﴾؛ أي: الذي قد عزّ كل شيء فقهره، وغلب الأشياء فلا ينال جنباه، لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه، ولهذا قال: ﴿الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾؛ أي: الذي لا تليق الجبريّة إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته، كما في «الصحيح»: (العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذّبته) [مسلم/٢٦٢٠] وقال قتادة: الجبار الذي جَبَر خلقه على ما يشاء، وقال ابن جرير [٥٥/٢٨]: الجبار: المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما في صلاحهم، وقال قتادة: المتكبر؛ يعني: عن كل سوء ثم قال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ الخلق: التقدير، والبرء: هو الفري، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود.

وقوله تعالى: ﴿الْخَلِيقُ الْبَارِئُ﴾؛ أي: الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار. ﴿الْمُصَوِّرُ﴾؛ أي: الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها.

وقوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ قد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، وذكر الحديث المروي في «الصحيحين» عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وَثَرٌ يُحِبُّ الْوَثَرَ) [البخاري/ ٢٥٨٥ ومسلم/ ٢٦٧٧].

وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: فلا يرام جنابه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في شرعه وقدره.



## تفسير سورة المنتحنة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَفَقَّهْتُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوَاءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾

كان سبب نزول هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة، روى الإمام أحمد [٢٤٩٤] عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير، والمقداد، فقال: (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها طعينة معها كتاب، فخذوه منها)، فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالطعينة قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: (يا حاطب، ما هذا؟) قال: لا تعجل علي إني كنت أمراً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (إنه صدقكم) فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: (إنه قد شهد بدراً، ما يدريك لعل الله اطَّلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه، وزاد البخاري في كتاب «المغازي» [٤٠٢٥]: فأنزل الله السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، وعن عروة نحو ذلك، وعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة وغير واحد أن هذه الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾؛ يعني: المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ولهذا قبل رسول الله ﷺ عذر حاطب، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد.

وقوله: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَيَأْتِيَانِي﴾ هذا مع ما قبله من التهيج على عداوتهم وعدم موالاتهم؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، ولهذا قال: ﴿أَنْ تَوَدُّوا بِاللَّهِ رَيْبَكُمْ﴾؛ أي: لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وكقوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ حَرَضْتُمْ هَٰذَا فِي سَبِيلِ وَابْنِغَاةٍ مَرْضَانِي﴾؛ أي: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حقاً عليكم وسخطاً لدينكم، وقوله: ﴿شَرُّونَ إِلَٰهِهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَغْلَىٰ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾؛ أي: تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿وَمَنْ يَقَعْلَهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ① إن يتفقوكم يكونوا لكم أعداءً ويَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ؛ أي: لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال. ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: ويحرصون على أن لا تتوالوا خيراً فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة، فكيف توالون مثل هؤلاء؟ وهذا تهيج على عداوتهم أيضاً.

وقوله: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: قربابتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله، ولا ينفعه عند الله قربابته من أحد، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء. روى الإمام أحمد [١٣٨٦١] عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: (فِي النَّارِ) فلما قَفَى دَعَاهُ فَقَالَ: (إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ) ورواه مسلم [٢٠٣].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبْنَيْهِ لِأَسْغِفَرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَابْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ① رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ② إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ④﴾.

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾؛ أي: وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿إِذْ قَالُوا



لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ؛ أي: تبرأنا منكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾؛ أي: بدينكم وطريقكم ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾؛ يعني: وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، ما دمت على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿حَتَّى تَوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾؛ أي: إلى أن توحيدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد، وقوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ﴾؛ أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لأبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّ هُمُ الْأَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

وقال تعالى في هذه الآية: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أي: ليس لكم في ذلك أسوة؛ أي: في الاستغفار للمشركين هكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة وغير واحد.

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه، حين فارقوا قومهم وتبرءوا منهم، فلبجؤوا إلى الله وتضرعوا إليه فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: توكلنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك، وإليك المصير؛ أي: المعاد في الدار الآخرة.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال مجاهد: معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا، وكذا قال الضحاك، وقال قتادة: لا تُظهرهم علينا فيفتنوا بذلك، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه، واختاره ابن جرير [٦٤/٢٨]، وقال ابن عباس: لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

وقوله: ﴿وَأَعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: واستر ذنوبنا عن غيرك واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: الذي لا يُضام من لاذ بجنايبك ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك، ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضاً؛ لأن هذه الأسوة المثبتة هاهنا هي الأولى بعينها، وقوله: ﴿لَئِنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ تهيج إلى ذلك لكل موقن بالله والمعاد، وقوله: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِ﴾؛ أي: عما أمر الله به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال ابن عباس: ﴿الْغَنِيُّ﴾ الذي قد كمل في غناه وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفاء، وليس كمثله شيء، سبحانه الله الواحد القهار. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحمد إلى خلقه؛ أي: هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله لا إله غيره ولا رب سواه.

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٧﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٩﴾ .

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾؛ أي: محبة بعد البغضة، ومودة بعد النفرة. ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾؛ أي: على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة فتصبح مجتمعة متفقة، كما قال تعالى ممتناً على الأنصار: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣]، وكذا قال لهم النبي ﷺ: (أَلَمْ أُجِدْكُمْ ضُلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي؟) [رواه البخاري/٤٠٧٥].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه، من أي ذنب كان.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾؛ أي: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين، كالنساء والضعفة منهم ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾؛ أي: تحسنوا إليهم ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: تعدلوا. روى الإمام أحمد [٢٦٩٨٥] عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: قَدِمْتُ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدُوا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصْلُهَا؟ قَالَ: (نَعَمْ، صِلِي أُمَّكَ) أخرجه [البخاري/٢٤٧٧ ومسلم/١٠٠٣].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ قد تقدم تفسير ذلك في سورة الحجرات [آية: ٩]، وفي الحديث الصحيح: (الْمُقْسِطُونَ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الْعَرْشِ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ، وَأَهْلِيهِمْ، وَمَا وَلُوا) [رواه مسلم/١٨٢٧].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ﴾؛ أي: إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة، فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم ينهاكم الله ﷻ عن موالاةهم ويأمركم بمعاداتهم، ثم أكد الوعيد على موالاةهم فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِنْهُنَّ جَاءَتْهُنَّ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا يَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَايَنْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يُخَكِّمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابِقْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ١١﴾ .

تقدم في سورة الفتح في ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش

فكان فيه: على أن لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وفي رواية: على أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وهذا قول عروة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد والزهري ومقاتل بن حيان والسدي، فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة، وهذا من أحسن أمثلة ذلك، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة، فإن الله ﷻ أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن، فإن عليموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهن ولا هم يحلون لهن، وعن ابن عباس في قوله: ﴿يَأْتِيَنَّكَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ﴾ كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، وقال مجاهد: ﴿فَأَمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاسألوهن عما جاء بهن، فإذا كان جاء بهن غضب على أزواجهن، أو سخطه أو غيره، ولم يؤمن فارجعهن إلى أزواجهن، وقال عكرمة: يقال لها: ما جاء بك إلا حب الله ورسوله، وما جاء بك عشق رجل منا ولا فرار من زوجك؟ فذلك قوله: ﴿فَأَمْتَحِنُوهُنَّ﴾ وقال قتادة: كانت محتتهن أن يستحلفن بالله ما أخرجكن النشور؟ وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله وحرص عليه؟ فإذا قلن ذلك قبل ذلك منهن [الطبري ٢٨/٦٨].

وقوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً، وقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة.

وقوله: ﴿وَأَنفَقُوا﴾؛ يعني: أزواج المهاجرات من المشركين، ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من الأصدقة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، والزهري وغير واحد، وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾؛ يعني: إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن؛ أي: تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولي وغير ذلك، وقوله: ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ تحريم من الله ﷻ على عباده المؤمنين نكاح المشركات والاستمرار معهن.

وفي «الصحيح» عن المسور ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية، جاءه نساء من المؤمنات فأنزل الله ﷻ: ﴿يَأْتِيَنَّكَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية [البخاري/٢٥٨٢]، وقال الزهري: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو بأسفل الحديبية حين صالحهم، على أنه من أتاه منهم رده إليهم، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى زوجها، وقال: ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال: وإنما حكم الله بينهم بذلك لأجل ما كان بينهم وبينهم من العهد.

وقوله: ﴿وَسَأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَسْتَلُوا مَا أَنفَقُوا﴾؛ أي: وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار، إن ذهبن، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين.

وقوله: ﴿ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: في الصلح واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كله

هو حكم الله يحكم به بين خلقه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عليم بما يصلح عباده حكيم في ذلك، ثم قال: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابْتُمْ فَاتَّوُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ قال مجاهد وقتادة: هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد، إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها، وروى ابن جرير [٧٣/٢٨] عن الزهري قال: أقر المؤمنون بحكم الله، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم، وأبى المشركون أن يقرؤا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين، فقال الله تعالى للمؤمنين به: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابْتُمْ فَاتَّوُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ وَالَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ، فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين، ردَّ المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم، الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم، التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمن وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم، والعقب: ما كان بأيدي المؤمنين من صداق نساء الكفار حين آمن وهاجرن، وعن ابن عباس في هذه الآية: يعني: إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار أمر له رسول الله ﷺ أنه يعطى مثل ما أنفق من الغنيمة، وهكذا قال مجاهد: ﴿فَعَابْتُمْ﴾ أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿فَاتَّوُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾؛ يعني: مهر مثلها، وهكذا قال مسروق وإبراهيم، وقتادة، ومقاتل، والضحاك، وسفيان بن حسين والزهري أيضاً، وهذا لا ينافي الأول؛ لأنه إن أمكن الأول فهو الأولى وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار، وهذا أوسع وهو اختيار ابن جرير [٧٦/٢٨]، والله الحمد والمنة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْغَفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

روى البخاري [٤٦٠٩] عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ﴾ - إلى قوله -: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله. (قَدْ بَايَعْتُكَ)، كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط، وما يبايعهن إلا بقوله: (قَدْ بَايَعْتُكَ عَلَى ذَلِكَ).

وروى الإمام أحمد [٢٧٠٥٤] عن أميمة بنت رقيقة قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: ﴿أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ الآية، وقال: (فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ)، قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: (إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنَّمَا قَوْلِي لِمَرْأَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ) وإسناده صحيح، وقد رواه الترمذي [١٥٩٧ نحوه]، وقال: حسن صحيح، وقد رواه أحمد أيضاً [٢٧٠٥٢] وزاد: (وَلَمْ يُصَافِحْ مِنَّا امْرَأَةً).

وروى البخاري [٤٦١٠] عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقراً علينا: ﴿أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾، ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها فقالت: أسعدتني فلانة أريد أن أجزيها، فما قال لها رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلقت ورجعت فبايعها.

وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد، كما روى البخاري [٤٦١٣] عن ابن عباس قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فكلهم يصلونها قبل الخطبة ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ فكأنني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده، ثم أقبل يشقههم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَأْكُنَنَّكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِمُهْتَنٍ يَفْتَرِيَهُ بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: (أَتَنْنَ عَلَى ذَلِكَ؟) فقالت امرأة واحدة ولم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله، قال: (فَتَصَدَّقْنَ)، قال: وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتح والخواتيم في ثوب بلال.

وروى الإمام أحمد [٢٢٧٣٠] عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس فقال: (تُبَايَعُونِي عَلَى أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ - قَرَأَ الْآيَةَ الَّتِي أَخَذْتُ عَلَى النِّسَاءِ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ - فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ) أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٦٤٠٢ ومسلم/١٧٠٩].

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَأْكُنَنَّكَ عَلَى أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا يَسْرِقُوا، وَلَا يَزْنُوا، وَلَا يَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أي: من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعها ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أموال الناس الأجانب، فأما إذا كان الزوج مقصراً في نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف، ما جرت به عادة أمثالها، وإن كان بغير علمه، عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني، فهل علي جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: (خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيكِ وَيَكْفِي بَنِيكِ) أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٥٠٤٩ ومسلم/١٧١٤ واللفظ له].

وقوله: ﴿وَلَا يَزْنِيَنَّ﴾، كقوله: ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا [الإسراء: ٣٢]، وروى الإمام أحمد [٢٥٢١٦] عن عائشة قالت: جاءت فاطمة بنت عتبة تباع رسول الله ﷺ فأخذ عليها: ﴿أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ﴾ الآية، قال: فوضعت يدها على رأسها حياء، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقري أيتها المرأة فوالله ما بايعنا إلا على هذا، قالت: فنعيم إذاً، فبايعها بالآية [وسنده صحيح].

وقوله: ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء، تطرح نفسها لثلاث تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيْهُتَيْنِ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ وَأَرْجُلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس: يعني: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن، وكذا قال مقاتل، وقوله: ﴿وَلَا يَعْصِيْكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾؛ يعني: فيما أمرتهن به من معروف ونهيتهن عنه من منكر، روى البخاري [٤٦١١] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَعْصِيْكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء، وقال ميمون بن مهران: لم يجعل الله طاعة لنبية إلا في المعروف، والمعروف طاعة، وقال ابن زيد: أمر الله بطاعة رسوله وهو خيرة الله من خلقه في المعروف، وعن ابن عباس، وأنس بن مالك، وسالم بن أبي الجعد، وأبي صالح وغير واحد: نهاهن يومئذ عن النوح، وقد تقدم حديث أم عطية في ذلك أيضًا.

وروى ابن أبي حاتم [١٨٨٧٦] عن امرأة من المبايعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ: ألا نعصيه في معروف: ألا نخمش وجهًا، ولا ننشر شعرًا، ولا نشق جيبًا، ولا ندعوا ويلًا [سند حسن].

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ) [البخاري/١٢٣٥ ومسلم/١٠٣]، وفي «الصحيحين» أيضًا عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة والحالقة والشاقة [البخاري/١٢٣٤ ومسلم/١٠٤]، وروى الحافظ أبو يعلى [١٥٧٧] عن أبي مالك الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال: (أَرْبَعٌ فِي أَمْرِي مِنَ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ. وَقَالَ: النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ)، ورواه مسلم في «صحيحه» [٩٣٤].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (١٢).

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة، كما نهى عنها في أولها فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ يعني: اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يئسوا من الآخرة؛ أي: من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله ﷻ.

وقوله: ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ فيه قولان: أحدهما: كما يئس الكفار الأحياء من قرباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك؛ لأنهم لا يعتقدون بعثًا ولا نشورًا، فقد انقطع رجائهم منهم فيما يعتقدونه. عن ابن عباس: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخر السورة؛ يعني: من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم الله ﷻ، وقال الحسن البصري: الكفار الأحياء قد يئسوا من الأموات، وقال قتادة: كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا، وكذا قال الضحاك.

والقول الثاني: معناه كما يؤس الكفار الذين هم في القبور من كل خير، عن ابن مسعود قال: كما يؤس هذا الكافر إذا مات وعاین ثوابه واطلع عليه، وهذا قول مجاهد، وعكرمة، ومقاتل، وابن زيد والكلبي، ومنصور، وهو اختيار ابن جرير [٨٢/٢٨].



## تفسير سورة الصف

وهي مدنية

روى الإمام أحمد [٢٣٨٣٩] عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ، فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله، فلم يقم أحد منا فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً، فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة؛ يعني: سورة الصف كلها، وقد رواه الترمذي [برقم/٣٣٠٩، وسنده صحيح].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَهُ مَرْصُوصٌ﴾ (٤).

قد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ غير مرة بما أغنى عن إعادته، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ إنكار على من يعدّ عِدَّةً أو يقول قولاً لا يفي به، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه غرم للموعد أم لا، واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: (أَيُّهُ الْمُنَاقِقُ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ) [البخاري/٢٥٣٦ ومسلم/٥٩]، وفي الحديث الآخر في «الصحيح»: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خُصْلَةً مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدْعَاهَا) [البخاري/٣٤]، فذكر منهم إخلاف الوعد، وقد استقصينا الكلام على هذين الحديثين في أول شرح البخاري والله الحمد والمنة، ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وذهب الإمام مالك رحمه الله إلى أنه إذا تعلق بالوعد غرم على الموعد وجب الوفاء به، كما لو قال لغيره: تزوج ولك علي كل يوم كذا، فتزوج وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك؛ لأنّه تعلق به حق آدمي، وهو مبني على المضايقة، وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فرضية الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي



بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ ﴿٧٧﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨]، وهذه الآية معناها كما قال ابن عباس: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله ﷻ دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره، فقال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وهذا اختيار ابن جرير [٢٨/٨٣]، وقال مقاتل بن حيان: قال المؤمنون: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ فبين لهم فابتلوا يوم أحد بذلك، فولوا عن النبي ﷺ مدبرين فأنزل الله في ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وقال: أحبكم إلي من قاتل في سبيلي، وقال قتادة، والضحاك: نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون قتلنا وضربنا وطعنا وفعلنا، ولم يكونوا فعلوا ذلك، وقال ابن زيد: نزلت في قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ولا يقفون لهم بذلك، وقال زيد بن أسلم: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قال: في الجهاد.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ﴾ فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجِهين لأعداء الله في حومة الوعى، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان.

وروى ابن أبي حاتم [١٨٨٨٢] عن مطرف قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه فلقيته، فقلت: يا أبا ذر كان يبلغني عنك حديث فكنت أشتهي لقاءك، فقال: الله أبوك فقد لقيت فهات، فقلت: كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم أن الله يبغيض ثلاثة ويحب ثلاثة، قال: أجل فلا إخالني أكذب على خليلي ﷺ. قلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ﷻ؟ فقال: رجل غزا في سبيل الله خرج محتسباً مجاهداً فلقى العدو فقتل وأتمت جودونه في كتاب الله المنزل، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ﴾... [وذكر الحديث وقد أخرجه الترمذي والنسائي ٧١٣٦ عن أبي ذر بأبسط من هذا السياق وأتم، وقال الترمذي: حسن صحيح].

وعن كعب الأحبار أنه قال: يقول الله تعالى لمحمد ﷺ [يعني: في التوراة]: (عَبْدِي الْمُتَوَكِّلُ الْمُخْتَارُ لَيْسَ بَفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، مَوْلَدُهُ بِمَكَّةَ، وَهَجَرَتُهُ بِطَابَةَ، وَمُلْكُهُ بِالشَّامِ، وَأُمَّتُهُ الْحَمَادُونَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَفِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ، لَهُمْ دَوِيٌّ كَدَوِيٌّ النَّحْلِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ بِالسَّحَرِ، يُوضُونَ أَطْرَافَهُمْ، وَيَأْتِزُّونَ عَلَى أَنْصَافِهِمْ، صَفُّهُمْ فِي الْقِتَالِ مِثْلُ صَفِّهِمْ فِي الصَّلَاةِ، ثُمَّ قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ﴾، رُعَاةُ الشَّمْسِ يُصَلُّونَ الصَّلَاةَ حَيْثُ أَدْرَكَتْهُمْ لَوْ عَلَى ظَهْرٍ دَابَّةٍ)، رواه ابن أبي حاتم [١٨٨٨٣]، وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ قال: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن

يُصَافُّهُمْ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين. قال: وقوله: ﴿كَانَهُمْ بَيْنَهُمْ رَمُوسٌ﴾ ملتصق ببعضه في بعض، من الصف في القتال، وقال مقاتل بن حيان: ملتصق ببعضه إلى بعض، وقال ابن عباس: ﴿كَانَهُمْ بَيْنَهُمْ رَمُوسٌ﴾ مثبت لا يزول ملصق ببعضه ببعض، وقال قتادة: ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه، فكذلك الله ﷻ لا يحب أن يختلف أمره، وإن الله صف المؤمنين في قتالهم، وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به، أورد ذلك كله ابن أبي حاتم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تُوذُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ٦﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكنيته موسى بن عمران ﷺ أنه قال لقومه: ﴿لِمَ تُوذُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: لم تصلحون الأذى إلي وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر، ولهذا قال: (رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى مُوسَى: لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ) [البخاري/ ٤٠٨٠ ومسلم/ ١٠٦٢]، وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاع الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلُبُ أَفْقَانَهُمْ وَأَنْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾؛ يعني: التوراة قد بشرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشّر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد، فعيسى ﷺ هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملاء بني إسرائيل مبشراً بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة، وما أحسن ما روى البخاري [٣٣٣٩] عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ) ورواه مسلم [٢٣٥٤ بنحوه].

وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوءًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْبَنِيَّانَ لَمَّا ءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ

ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾. قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد: لئن بُعثَ محمد وهو حي ليتبعه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بُعث محمد وهم أحياء ليتبعه وينصُرته.

وروى محمد بن إسحاق [كما روى عنه ابن هشام ٣٠٢/١] عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال: (دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلْتُ بِي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ فُصُورٌ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ)، وإسناده جيد وله شواهد من وجوه أخر [من حديث العرياض وأبي أمامة رواهما أحمد والحاكم/٤١٧٤].

والمقصد أن الأنبياء ﷺ لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرتة إذا بعث، وكان [أول] ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، وكذا على لسان عيسى ابن مريم، ولهذا قالوا: أخبرنا عن بدء أمرك؛ يعني: في الأرض قال: (دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ)؛ أي: ظهر في أهل مكة أثر ذلك، والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قال ابن جريج وابن جرير: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أحمد؛ أي: المبشر به في الأعصار المتقدمة، المنوّه بذكره في القرون السالفة، لما ظهر أمره وجاء بالبينات، قال الكفرة والمخالفون: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾؛ أي: لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله، ويجعل له أنداداً وشركاء، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ثم قال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي: يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذلك مستحيل، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة براءة [آية: ٣٣]، بما فيه كفاية، والله الحمد والمنة.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تَجَرٍّ نُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَعْرِفْ لَكُمْ دُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

تقدم في حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة رضوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن

أحب الأعمال إلى الله ﷻ ليفعلوه، فأنزل الله تعالى هذه السورة ومن جملتها هذه الآية: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَحَرُّوْهُنَّ يُجِيبُكُم مِّنْ عَذَابِ إِلَهِكُمْ﴾ ثم فسر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، التي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من تجارة الدنيا والكد لها والتصدي لها وحدها، ثم قال: ﴿يَغْفِر لَّكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ أي: إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه، غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات، والمساكن الطيبات، والدرجات العاليات، ولهذا قال: ﴿وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَتَسْكُنُ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، ثم قال: ﴿وَأُخْرَىٰ يُجْزِيهَا﴾؛ أي: وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها، وهي ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾؛ أي: إذا قاتلتم في سبيله ونصرتكم دينه تكفل الله بنصركم، قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصْرُوا اللَّهَ فَيُصْرِكُمْ وَيَكْبِتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله: ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾؛ أي: عاجل، فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة، لمن أطاع الله ورسوله ونصر الله ودينه، ولهذا قال: ﴿وَيَبْتَغِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَن أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ لَحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: من مُعيني في الدعوة إلى الله ﷻ؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى ﷺ: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾؛ أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به وموازروك على ذلك، ولهذا بعثهم دعاءً إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين.

وقوله: ﴿فَأَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾؛ أي: لما بلغ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه، وآزره من وازره من الحواريين، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به وضلت طائفة، فخرجت عما جاءهم به وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقاً وشيعاً، فمن قاتل منهم: إنه ابن الله، وقاتل: إنه ثالث ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، ومن قاتل إنه الله.

وقوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾؛ أي: نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾؛ أي: عليهم، وذلك ببعثة محمد ﷺ، كما روى الإمام أبو جعفر بن جرير [٢٧٠/٢٧٥] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما أراد الله ﷻ أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلاً من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، قال: ثم قال: أيكم يلقي عليه شهي فيقتل مكاني

ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شاب من أحدثهم سنًا فقال: أنا. فقال له: اجلس. ثم عاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال له: اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال: نعم أنت ذاك. قال: فألقي عليه شبه عيسى ورُفِعَ عيسى ﷺ من روضة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا شِبْهَهُ فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، ففارقوا ثلاث فرق. قالت فرقة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء. ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوه فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ، ﴿فَأَمِنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾؛ يعني: الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾. هذا لفظه في كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة، وهكذا رواه النسائي [١١٥٩١] عند تفسير هذه الآية من سننه مثله سواء. فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم ﷺ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، والله أعلم.



## تفسير سورة الجمعة

وهي مدنية

عن ابن عباس وأبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين، رواه مسلم [٨٧٧] في «صحيحه».

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات وما في الأرض؛ أي: من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ثم قال: ﴿الْمَلِكُ﴾؛ أي: هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه، وهو ﴿الْقُدُّوسُ﴾؛ أي: المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال ﴿الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ﴾ تقدم تفسيرهما غير مرة.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ الأميون هم العرب، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُمُ فَإِنْ سَأَلْتُمُوهُمُ فَقَدْ أَهْبَدُوا وَاتَّقُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بِبَعْثِهِمْ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠] وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به، وكذا قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِيَّايَ رَسُولًا وَاللَّهُ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله تعالى إخباراً عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه، إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم، وقد قدمنا تفسير ذلك في سورة الأنعام [آية: ١٩] بالآيات والأحاديث الصحيحة، والله الحمد والمنة.

وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فبعثه الله ﷺ وله الحمد والمنة، على حين فترة من الرسل وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب؛ أي: نزرًا يسيرًا ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو

عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَوَعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام، فبدلوه وغيروه، وخالفوه واستبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع، وجمع له تعالى وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله وأعطاه ما لم يُعط أحدًا من الأولين، ولا يعطيه أحدًا من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وقوله: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ روى الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله [٤٦١٥] عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سُئل ثلاثاً، وفيها سلمان الفارسي فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان الفارسي ثم قال: (لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ - أَوْ: رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلَاءِ)، ورواه مسلم [٢٥٤٦]، ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية وعلى عموم بعثته صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس؛ لأنه فسر قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ﴾ بفارس، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم، يدعوهم إلى الله تعالى وإلى اتباع ما جاء به، ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال: هم الأعاجم وكل من صدق النبي صلى الله عليه وسلم من غير العرب [الطبري ٩٥/٢٨].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي: ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره، وقوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾؛ يعني: ما أعطاه الله محمداً صلى الله عليه وسلم من النبوة العظيمة وما خص به أمته من بعثته صلى الله عليه وسلم إليهم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ بَيَّأْتُهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَمُنُّونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلَاقِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها فلم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً؛ أي: كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسيماً ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظه لفظاً ولم يفهموه ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه فهم أسوأ حالاً من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى:

﴿أُولَئِكَ كَانُوا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ قُلُوبًا مَّغْلُوبَةً﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى هاهنا: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجِيبُكَ عَنْهَا فَتَنَافُسُ بَيْنَهُمْ لَهَا إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أُولِي بُرْهَانٍ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيََاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين؛ أي: فيما تزعمونه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: بما يعملون من الكفر والظلم والفجور ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، وقد قدمنا الكلام في سورة البقرة على هذه المباهلة لليهود، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْأُخْرَىٰ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَهْرَاصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِيهِمْ مِّنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٦]، وقد أسلفنا الكلام هناك، وبيننا أن المراد أن يدعوا على الضلال من أنفسهم أو خصومهم، كما تقدمت مباهلة النصارى في آل عمران: ﴿فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحُكْمِ فَقُلْ تَقَالُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، ومباهلة المشركين في سورة مريم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

وقد روى الإمام أحمد [٢٢٢٥] عن ابن عباس، قال: قال أبو جهل لعنه الله: إن رأيت محمداً عند الكعبة لا يتنه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال رسول الله ﷺ: (لَوْ فَعَلَ لَأَخَذْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عِيَانًا، وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتُوا وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا) رواه البخاري [٤٦٧٥] أوله ولم يذكر اليهود.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّا لَمَوْتٌ الَّذِي تَفْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠).

إنما سميت الجمعة جمعة؛ لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار، وفيه كُمل جميع الخلائق، فإنه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض، وفيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح.



وقد كان يقال له في اللغة القديمة يوم العروبة، وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فَصَلُّوا عنه، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابتدئ فيه الخلق، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الْخَلِيقَةَ، كما أخرجه البخاري [٦٣٦] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيِّنَةٌ أَنَّهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِنَا، ثُمَّ إِنَّ هَذَا يَوْمُهُم الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَذَا نَا اللَّهُ لَهُ، فَالْآنَسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ).

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: اقصدوا واعمدوا واهتموا في مسيركم إليها، وليس المراد بالسعي هاهنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩]، وكان عمر بن الخطاب، وابن مسعود رضي الله عنهما يقرأنها: ﴿فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الطبري ١٠٠/٢٨]، فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهى عنه لما أخرجه في «الصحيحين» عن أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: (مَا شَأْنُكُمْ؟) قالوا: استعجلنا إلى الصلاة قال: (فَلَا تَفْعَلُوا، إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَامْشُوا وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا) [البخاري/٦٠٩ ومسلم/٦٠٣]. قال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نُهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع، وقال قتادة: يعني: أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المشي إليها، وكان يتأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ [الصفات: ١٠٢]؛ أي: المشي معه، وروي عن محمد بن كعب، وزيد بن أسلم وغيرهما نحو ذلك.

ويستحب لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها، لما ثبت في «الصحيحين» عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ) [البخاري/٨٣٧ ومسلم/٨٤٥]، ولهما [البخاري/٨٣٩ ومسلم/٨٤٦] عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: (غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ، ثُمَّ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَىٰ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَهُ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ) أخرجه [البخاري/٨٤١ ومسلم/٨٥٠].

ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتسوك ويتنظف ويتطهر، وفي حديث أبي سعيد المتقدم: (غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ، وَالسَّوَاكُ، وَأَنْ يَمَسَّ مِنْ طِيبٍ أَهْلِهِ)، وروى الإمام أحمد [٢٣٦١٨] عن أبي أيوب الأنصاري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبٍ أَهْلِهِ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ وَلَيْسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ

الْمَسْجِدَ فَيَرْكَعُ إِنْ بَدَأَ لَهُ، وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا، ثُمَّ أَنْصَتَ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يُصَلِّيَ، كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى [وسنده حسن].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة، فرأى عليهم ثياب النمار فقال: (مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِنْ وَجَدَ سَعَةً أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبَيْنِ مَهْنَتِهِ) رواه ابن ماجه [برقم/ ١٠٩٦ وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح رجاله ثقات].

وقوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه فهذا هو المراد، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فإنما كان هذا لكثرة الناس كما رواه البخاري [٨٧٠] عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس، زاد النداء الثاني على الزوراء؛ يعني: يؤذن به على الدار التي تسمى بالزوراء، وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد، وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون العبيد والنساء والصبيان، ويعذر المسافر والمريض، وقيم المريض وما أشبه ذلك من الأعذار، كما هو مقرر في كتب «الفروع».

وقوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة، ولهذا اتفق العلماء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النداء الثاني، واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا؟ على قولين وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه، والله أعلم، وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم؛ أي: في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون، وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾؛ أي: فرغ منها ﴿فَاذْكُرُوا﴾ في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴿لما حَجَرَ عَلَيْهِمْ فِي التَّصَرُّفِ بَعْدَ النِّدَاءِ وَأَمْرِهِمْ بِالْاجْتِمَاعِ، أَذُنْ لَهُمْ بَعْدَ الْفَرَاغِ فِي الْإِنْتِشَارِ فِي الْأَرْضِ وَالِابْتِغَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ.

وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: في حال بيعكم وشرائكم وأخذكم وعطائكم، اذكروا الله ذكرًا كثيرًا، ولا تشغلوا الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة، ولهذا جاء في الحديث: (مَنْ دَخَلَ سُوقًا مِنَ الْأَسْوَاقِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحَدَّه لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ حَسَنَةٍ، وَمُجِيءٌ عَنْهُ أَلْفُ أَلْفٍ سَيِّئَةٍ) [رواه أحمد/ ٣٢٧ والترمذي/ ٣٤٢٨ وهو حديث حسن]، وقال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين لله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝﴾

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾؛ أي:

على المنبر تخطب، هكذا ذكره غير واحد من التابعين، منهم أبو العالية والحسن وزيد بن أسلم وقتادة، روى الإمام أحمد [١٥٠٢٠] عن جابر قال: قَدِمَتْ عِيرُ الْمَدِينَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فَخَرَجَ النَّاسُ، وَبَقِيَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَنَزَلَتْ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا﴾ أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٤٦١٦ ومسلم/٨٦٣ كلاهما بنحوه].

وفي قوله: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائمًا، وقد روى مسلم [٨٦٢] في «صحيحه» عن جابر بن سمرة قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس، ولكن هاهنا شيء ينبغي أن يعلم وهو: أن هذه القصة قد قيل: إنها كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة، كما رواه أبو داود في كتاب «المراسيل» [٦٢] عن مقاتل بن حيان قال: كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، حتى إذا كان يوم والنبي ﷺ يخطب، وقد صلى الجمعة، فدخل رجل فقال: إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة؛ يعني: فانفضوا ولم يبق معه إلا نفر يسير، وقوله: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ الْجَزَاءِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾؛ أي: لمن توكل عليه وطلب الرزق في وقته.



## تفسير سورة المنافقون

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهمُ خُشَبٌ مُنْسَدَةٌ يَخْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنُلَهِمُ اللَّهُ أُنْفَى يُؤَفِّكُونَ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين: أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبي ﷺ، فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك، بل على الضد من ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾؛ أي: إذا حضروا عندك واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليسوا كما يقولون، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾؛ أي: فيما أخبروا به، وإن كان مطابقاً للخارج؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه، ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم.

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحلفات الآثمة، ليصدقوا فيما يقولون، فاعتر بهم من لا يعرف جليلة أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، وربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبائلاً، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ولهذا كان الضحاك بن مزاحم يقرؤها ﴿اتَّخَذُوا إِيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾؛ أي: تصديقهم الظاهر جُنَّةً؛ أي: تقية يتقون به القتل، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: إنما قُدرَ عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدى، فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون؛ أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي.

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾؛ أي: كانوا أشكالا حسنة وذوي فصاحة وألسنة، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجبن، ولهذا قال: ﴿يَخْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: كلما وقع

أمر أو كائنة أو خوف يعتقدون لجبنهم، أنه نازل بهم، كما قال: ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩]، فهم صور بلا معان، ولهذا قال: ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرُهُمْ فَلِلَّهِمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤَفَّكُونَ﴾؛ أي: كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ۚ وَاللَّهُ خَرَابِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين عليهم لعائن الله أنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ﴾؛ أي: صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقاراً لما قيل لهم، ولهذا قال: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ ثم جازاهم على ذلك فقال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، كما قال في سورة براءة [آية: ٨٠]، وقد تقدم الكلام على ذلك.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن أبي عمر العدني قال: قال سفيان: ﴿لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ﴾ قال ابن أبي عمر: وحول سفيان وجهه على يمينه ونظر شراً ثم قال: هو هذا، وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول، وقال قتادة، والسدي: أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي، وقيل لعدو الله: لو أتيت رسول الله ﷺ فجعل يلوي رأسه؛ أي: لست فاعلاً، وروى ابن أبي حاتم [١٨٩٠٠] عن سعيد بن جبیر: [أنه] قيل لعبد الله بن أبي: أتت النبي ﷺ حتى يستغفر لك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ﴾، وهذا إسناده صحيح إلى سعيد بن جبیر.

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي [١٧٦٤٤] عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين فقال رسول الله ﷺ: (مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ دَعْوَاهَا فَإِنَّهَا مُتَنَبِّةٌ)، وقال عبد الله بن أبي بن سلول: وقد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: (دَعُهُ؛ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ) ورواه البخاري [٤٦٢٢] ومسلم [٢٥٨٤].

وروى الإمام أحمد [١٩٣٠٤] عن زيد بن أرقم قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك،

فقال عبد الله بن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك، قال: فلامني قومي وقالوا: ما أردت إلى هذا؟ قال: فانطلقت فتمتُ كَثِيْبًا حَزِيْبًا، قال: فأرسل إلي نبي الله ﷺ فقال: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ عُذْرَكَ وَصَدَّقَكَ) قال: فنزلت هذه الآية: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ - حتى بلغ - ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ ورواه البخاري [٤٦١٩ نحوه] عند هذه الآية.

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة، وقف عبد الله بن عبد الله على باب المدينة، واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك! فقال: ما لك ويلك؟ فقال: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير ساقفة فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فُجَزَ الآن.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلْهِكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى أمرًا لعباده المؤمنين بكثرة ذكره، ونهايًا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، ومخيرًا لهم بأنه من التَّهَى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ثم حثهم على الإنفاق في طاعته فقال: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فكل مُفْرَط يندم عند الاحتضار ويسأل طول المدة ولو شيئًا يسيرًا، يستعتب ويستدرك ما فاتته، وهيئات، كان ما كان وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفریطه، أما الكفار فكما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ رِزَالِ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾؛ أي: لا ينظر أحدًا بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقًا في قوله وسؤاله ممن لو رُدَّ لعاد إلى شر مما كان عليه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.



## تفسير سورة التغابن

وهي مدنية، وقيل: مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُفِّسُ فِيكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

هذه السورة هي آخر المُسَبِّحات، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها، ولهذا قال: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾؛ أي: هو المتصرف في جميع الكائنات المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره، وقوله: ﴿هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: ما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع وما لم يشأ لم يكن، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُفِّسُ فِيكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك فلا بد من وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، وهو شهيد على أعمال عباده، وسيجزئهم بها أتم الجزاء، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ثم قال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل والحكمة، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾؛ أي: أحسن أشكالكم، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الآية [غافر: ٦٤]، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: المرجع والمآب، ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السماوية والأرضية والنفسية، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفِرُوا وَقُولُوا اسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين وما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: خبرهم وما كان من أمرهم، ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ﴾؛ أي: وخيم تكذيبهم وردى أفعالهم، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي، ثم علل ذلك فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالحجج والدلائل والبراهين

﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا؟﴾؛ أي: استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم، ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾؛ أي: كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل ﴿وَأَسْتَعْنَى اللَّهُ﴾؛ أي: عنهم ﴿وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ﴾.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثَ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ ثُمَّ لَتُبْعَثُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ ثُمَّ لَتُبْعَثُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾؛ أي: لتُخْبِرَنَّ بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي: بعثكم ومجازاتكم، وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه ﷻ، على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى في سورة يونس: ﴿وَيَسْتَعْثِنُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، والثانية في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الآية [سبأ: ٣]، والثالثة هي هذه.

ثم قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾؛ يعني: القرآن ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ أي: فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية، وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة، سمي بذلك؛ لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعون الداعي وينفذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة [ابن أبي حاتم/ ١٨٩٠٣]، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار، وكذا قال قتادة، ومجاهد، وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ويذهب بأولئك إلى النار.

قلت: وقد فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي



أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ [الحديد: ٢٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: بأمر الله؛ يعني: عن قدره ومشيئته.

﴿وَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوّضه عما فاتته من الدنيا هدى في قلبه، وبقينا صادقا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيرا منه. قال ابن عباس: ﴿وَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾؛ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وقال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم [الطبري ٢٨ / ١٢٣]، وقال سعيد بن جببر، ومقاتل بن حيان: ﴿وَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾؛ يعني: يسترجع ويقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وفي الحديث: (عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ) [رواه مسلم ٢٩٩٩].

وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أمرٌ بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى وزجر، ثم قال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حُمِّل من البلاغ وعليكم ما حُمِّلتم من السمع والطاعة. قال الزهري: من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلىنا التسليم.

ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فالأول خبرٌ عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب؛ أي: وحدوا الإلهية له، وأخلصوها لديه وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّكَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَنَصَفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَانْقَرُوا لِلَّهِ مَا أَسْطَغَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تَقَرَّضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعِفَهُ لَكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد: أن منهم من هو عدو الزوج والوالد؛ بمعنى: أنه يُلتهِي به عن العمل الصالح، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، ولهذا قال هاهنا: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن زيد: يعني: على دينكم، وقال مجاهد: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَّكُمْ﴾ قال: يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه

إلا أن يطيعه، وروى ابن أبي حاتم [١٨٩٠٤] عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وكذا رواه الترمذي [٣٣١٧]، وقال حسن صحيح، وهكذا قال عكرمة.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد فتنة؛ أي: اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقهم ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿رُزْقٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفَنَاصِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ والتي بعدها [آل عمران: ١٤، ١٥].

وروى الإمام أحمد [٢٣٠٤٥] عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: (صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيِّينِ يَمْشِيَانِ وَيَعَثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا) ورواه أهل السنن، وقال الترمذي [٣٧٧٤]: حسن غريب.

وقوله: ﴿فَأَنفِقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾؛ أي: جهدكم وطاقتكم كما ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ) [البخاري/ ٦٨٥٨ ومسلم/ ١٣٣٧ كلاهما بنحوه]، وقد قال بعض المفسرين: إن هذه الآية ناسخة للتي في آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وعن سعيد بن جبير قال: لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين ﴿فَأَنفِقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فنسخت الآية الأولى، وروي عن أبي العالية وزيد بن أسلم وقتادة والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان نحو ذلك، وقوله: ﴿وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾؛ أي: كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله ولا تتخلفوا عما به أمرتم، ولا تركبوا ما عنه زجرتم.

وقوله: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم، يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تقدم تفسيره في سورة الحشر [آية: ٩] بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿إِنْ تَقَرَّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ أي: مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه، ونزل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت

في «الصحیح [لمسلم/٧٥٨]» أن الله تعالى يقول: (مَنْ يُقْرِضْ غَيْرَ ظُلُومٍ وَلَا عَدِيمٍ)، ولهذا قال: ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ كما تقدم في سورة البقرة: ﴿فِيضَاعِفْهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ أي: ويكفر عنكم السيئات، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾؛ أي: يجزي على القليل بالكثير ﴿حَلِيمٌ﴾؛ أي: يفصح ويغفر ويستتر، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات ﴿عَلِيمٌ أَلْفَيْبٌ وَالشَّهَادَةُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم تفسيره غير مرة.



## تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾.

خوطف النبي ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً ثم خاطب الأمة تبعاً فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ وروى ابن أبي حاتم [١٨٩٠٧] عن قتادة، عن أنس قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ فقيل له: راجعها فإنها صوامه قوامه وهي من أزواجك ونسائك في الجنة [سند حسن]، ورواه ابن جرير عن قتادة مرسلاً، وقد ورد من غير وجه أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها.

وروى البخاري [٤٦٢٥] عن سالم أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: (لِيُرَاجِعَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُهَا حَتَّى تَطْهَرُ، ثُمَّ تَحِيضُ فَتَطْهَرُ، فَإِنْ بَدَأَ لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمْسَهَا، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ ﷻ)، هكذا رواه البخاري هاهنا وقد رواه في مواضع من كتابه ومسلم [١٤٧١] ولفظه: (فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُطَلِّقَ لَهَا النِّسَاءَ)، ورواه أصحاب الكتب والمسانيد من طرق متعددة وألفاظ كثيرة، وموضع استقصائها كتب الأحكام، وأمس لفظ يورد هاهنا ما رواه مسلم في «صحيحه» [١٤٧١] أن ابن عمر طلق امرأته حائضاً على عهد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: (لِيُرَاجِعَهَا) فردها، وقال: (إِذَا طَهَرَتْ فَلْيُطَلِّقْ أَوْ يُمْسِكْ). قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾، وعن عبد الله [بن مسعود] في قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ قال: الطهر من غير جماع، وروي عن ابن عمر، وعطاء، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، وقاتدة، وميمون بن مهران، ومقاتل بن حيان مثل ذلك، وهو رواية عن عكرمة، والضحاك، وقال ابن عباس: لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة، وقال عكرمة: العدة: الطهر، والقرء: الحضة، أن يطلقها حبلى مستيناً حملها، ولا يطلقها وقد طاف عليها ولا يدري حبلى هي أم لا [ينظر: الطبري ٢٨/١٢٩].

ومن هاهنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سُنَّة وطلاق بدعة، فطلاق السُنَّة: أن يطلقها طاهرة من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها، والبدعة: هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه ولا يدري أحملت أم لا، وطلاق ثالث لا سُنَّة فيه ولا بدعة وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها، وتحرير الكلام في ذلك وما يتعلق به مستقصى في كتب الفروع والله ﷻ أعلم.

**وقوله:** ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾؛ أي: احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها، لئلا تطول العدة على المرأة فتمنع من الأزواج ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: في ذلك، **وقوله:** ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾؛ أي: في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضاً الخروج؛ لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً، **وقوله:** ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾؛ أي: لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل، والفاحشة المبينة تشمل الزنا كما قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن، وزيد بن أسلم، والسدي وغيرهم، وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بدت على أهل الرجل وآدتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبي بن كعب، وابن عباس، وعكرمة وغيرهم [ينظر: الطبري ١٣٢/٢٨].

**وقوله:** ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ أي: شرائعه ومحارمه ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾؛ أي: يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾؛ أي: بفعل ذلك.

**وقوله:** ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾؛ أي: إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله تعالى في قلبه رجعتها، فيكون ذلك أيسر وأسهل، قالت فاطمة بنت قيس في قوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ قالت: هي الرجعة، وكذا قال الشعبي، وعطاء، وقتادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان والثوري، ومن هاهنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم كالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة، وكذا المتوفى عنها زوجها، واعتمدوا أيضاً على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائباً عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير؛ يعني: نفقة فتسخطته فقال: والله ليس لك علينا نفقة، فأتت رسول الله ﷺ فقال: (لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ وَلَا سُكْنَى)، وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك ثم قال: (تِلْكَ أَمْرَاءُ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي، اعْتَدِي عِنْدَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكَ) الحديث [رواه مسلم/١٤٨٠].

وروى أبو القاسم الطبراني [في «المعجم الكبير» ٣٨٢/٢٤] عن فاطمة بنت قيس قالت: إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلي وهو منطلق في جيش إلى اليمن بطلاقي، فسألت أوليائه النفقة عليّ والسكنى فقالوا: ما أرسل إلينا في ذلك شيئاً ولا أوصانا به، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلي بطلاقي، فسألت أوليائه السكنى والنفقة علي، فقال أوليائه: لم يرسل إلينا في ذلك شيء، فقال رسول الله ﷺ: (إِنَّمَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ

لِلْمَرْأَةِ إِذَا كَانَ لِرُزُوجِهَا عَلَيْهَا رَجْعَةٌ، فَإِذَا كَانَتْ لَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَلَا نَفَقَةَ لَهَا وَلَا سُكْنَى) وكذا رواه النسائي [وسنده حسن].

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾

يقول تعالى: فإذا بلغت المعتدات أجلهن؛ أي: شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: محسنًا إليها في صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف؛ أي: من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن.

وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: على الرجعة إذا عزمتم عليها، كما رواه أبو داود [٢١٨٦]، وابن ماجه [٢٠٢٥] عن عمران بن حصين: أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها، فقال: طلقت لغير سنة ورجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد، وقال عطاء: لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاء إلا شاهدا عدل، كما قال الله ﷻ، إلا أن يكون من عذر.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أي: هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة، إنما يأتى به من يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن يخاف عقاب الله في الدار الآخرة، ومن هاهنا ذهب الشافعي في أحد قوليهِ إلى وجوب الإشهاد في الرجعة، كما يجب عنده في ابتداء النكاح، وقد قال بهذا طائفة من العلماء ومن قال بهذا يقول: إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾؛ أي: ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب؛ أي: من جهة لا تخطر بباله.

وروى ابن أبي حاتم [ورواه الحاكم عنه في «مستدرکه» ٣٣٥٨] عن عبد الله بن مسعود قال: إن أجمع آية في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾، وقال ابن عباس: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ يقول: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، وقال الربيع بن خيثم: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾؛ أي: من كل شيء ضاق على الناس، وقال عكرمة: من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجًا، وكذا روي عن ابن عباس، والضحاك، وقال ابن مسعود ومسروق: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ يعلم أن الله إن شاء منع، وإن شاء أعطى ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾؛ أي:

من حيث لا يدري، وقال قتادة: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾؛ أي: من شبهات الأمور والكره عند الموت، ﴿وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ من حيث لا يرجو ولا يأمل، وقال السدي: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ يطلق للسنة، ويراجع للسنة.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ روى الإمام أحمد [٢٦٦٩] عن عبد الله بن عباس أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: (يَا غُلَامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)، وقد رواه الترمذي [٢٥١٦]، وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغَ أَمْرِهِ﴾؛ أي: منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريد به ويشاؤه ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا﴾، كقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿١﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٢﴾﴾.

يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسه، وهي التي انقطع عنها المحيض لكبرها، أنها ثلاثة أشهر عوضاً عن الثلاثة القروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية البقرة [آية: ٢٢٨]، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسه ثلاثة أشهر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: وهو قول طائفة من السلف كمجاهد، والزهري، وابن زيد: أي: إن رأين دماً وشككتم في كونه حيضاً أو استحاضة وارتبتم فيه. والقول الثاني: إن ارتبتم في حكم عدتهن، ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر، وهذا مروى عن سعيد بن جبير وهو اختيار ابن جرير [١٤١/٢٨] وهو أظهر في المعنى.

وقوله: ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ يقول تعالى: ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفوق ناقة، في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنة النبوية، وقد روي عن علي، وابن عباس رضيهما الله أنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع والأشهر، عملاً بهذه الآية والتي في سورة البقرة، روى البخاري [٤٦٢٦] عن أبي سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس، وأبو هريرة جالس فقال: أفنتي في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت أنا: ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي؛ - يعني: أبا سلمة - فأرسل ابن عباس غلامه كريياً إلى أم سلمة يسألها فقالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت

فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها، هكذا أورد البخاري هذا الحديث هاهنا مختصراً، وقد رواه هو ومسلم وأصحاب الكتب مطولاً.

وروى مسلم بن الحجاج [١٤٨٤] أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية كانت تحت سعد بن خولة، وكان ممن شهد بدرًا فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تَشَبْ أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعَكَ فقال لها: ما لي أراك متجملة؟ لعلك تَرَجِّين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تَمَرَ عليك أربعة أشهر وعشر.

قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جَمَعْتُ علي ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حَلَلْتُ حين وضعت حملي وأمرني بالتزويج إن بدا لي. هذا لفظ مسلم ورواه البخاري [٣٧٧٠] مختصراً.

وروى ابن جرير [١٤٢/٢٨] أن عبد الله بن مسعود قال: من شاء لاعنته، ما نزلت: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، قال: وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت. يريد بآية المتوفى عنها زوجها ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وقد رواه النسائي [٥٧١٦]، وأبو داود [٢٣٠٧] وهو صحيح.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَنْقُ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾؛ أي: يسهل له أمره ويسره عليه ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً، ثم قال: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا﴾؛ أي: حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسوله ﷺ، ﴿وَمَنْ يَنْقُ اللَّهُ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾؛ أي: يذهب عنه المحذور ويجزل له الثواب على العمل اليسير.

﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا نُضَارُوهُمْ إِلَّا نَضِيقُوا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ حَمَلَ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُم فَاسْتَزِجْ لَهُ أُخْرَى ۖ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعِيَّتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتْنَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

يقول تعالى أمراً عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يُسْكِنَهَا في منزل حتى تنقضي عدتها فقال: ﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾؛ أي: عندكم ﴿مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعني: سَعَتِكُمْ، حتى قال قتادة: إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه.

وقوله: ﴿وَلَا نُضَارُوهُمْ إِلَّا نَضِيقُوا عَلَيْهِمْ﴾ قال مقاتل بن حيان: يعني: يضاجرها لتفتدي منه بمالها أو تخرج من مسكنه، وعن أبي الضحى: ﴿وَلَا نُضَارُوهُمْ إِلَّا نَضِيقُوا عَلَيْهِمْ﴾ قال: يطلقها فإذا بقي يومان راجعها.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ حَمَلَ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عباس، وطائفة من السلف وجماعات من الخلف: هذه في البائن إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها، قالوا: بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملاً أو حائلاً،



وقال آخرون: بل السياق كله في الرجعيات وإنما نص على الإنفاق على الحامل، وإن كانت رجعية؛ لأن الحمل تطول مدته غالباً فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة، ثم اختلف العلماء هل النفقة لها بواسطة الحمل أم للحمل وحده؟ على قولين منصوصين عن الشافعي وغيره ويتفرع عليها مسائل كثيرة مذكورة في علم الفروع.

**وقوله:** ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾؛ أي: إذا وضعن حملهن وهي طوالق فقد بنَّ بانقضاء عدتهن ولها حينئذ أن ترضع الولد ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ، وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للمولود غالباً إلا به، فإن أرضعت استحققت أجره مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجره، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾، **وقوله:** ﴿وَأْتِمِرُوا بِبَنِّكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف، من غير إضرار ولا مضارة، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿لَا تُضَاكِرْهُنَّ أُولَهُنَّ وَلَا مَوْلَاهُ لَهُنَّ وَلَا مَوْلَدُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، **وقوله:** ﴿وَإِنْ تَكَسَّرْتُمْ فَسْتَرْضِعْ لَهُنَّ أُخْرَى﴾؛ أي: وإن اختلف الرجل والمرأة فطلبت المرأة في أجره الرضاع كثيراً، ولم يجبها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها، فلو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها.

**وقوله:** ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾؛ أي: لينفق على المولود والده أو وليه بحسب قدرته، ﴿وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا ءَاتَاهَا﴾، كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

**وقوله:** ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وعد منه تعالى ووعدته حق لا يخلفه، وهذه كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

وقد روى الإمام أحمد [١٠٦٦٧] عن أبي هريرة قال: دخل رجل على أهله فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحي فوضعتها، وإلى التنور فسجرتها، ثم قالت: اللهم ارزقنا، فنظرت، فإذا الجفنة قد امتلأت قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً، قال: فرجع الزوج فقال: أصبتم بعدي شيئاً؟ قالت: امرأته: نعم من ربنا، قام إلى الرحي فذكر ذلك النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: (أَمَا إِنَّهُ لَوْ لَمْ تَرْفَعْهَا، لَمْ تَزَلْ تَدُورُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [وسنده جيد].

﴿وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نَّكَرًا﴾ (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا حُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَُولَئِىَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّخُرَاجِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١).

يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره، وكذب رسله، وسلك غير ما شرعه، ومخبراً عما حل

بالأُمم السالفة بسبب ذلك، فقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قُرْبَىٰ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾؛ أي: تمردت وطمعت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله ﴿فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذِبْنَهَا عَذَابًا ثَكْرًا﴾؛ أي: منكرًا فظيعًا.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾؛ أي: غب مخالفتها، وندموا حيث لا ينفعهم الندم ﴿وَكَانَ عِقَبُ أَمْرِهَا حُسْرًا﴾ ٩ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ أي: في الدار الآخرة مع ما عجل لهم من العذاب في الدنيا، ثم قال تعالى بعد ما قص من خبر هؤلاء: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْخُذُوا بِاللَّيْلِ﴾؛ أي: الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: صدقوا بالله ورسله ﴿فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾؛ أي: القرآن، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُم لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقوله: ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُمِيتَةٍ﴾ قال بعضهم: رسولاً منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة؛ لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر. قال ابن جرير: الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر؛ يعني: تفسيراً له، ولهذا قال تعالى: ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُمِيتَةٍ﴾؛ أي: في حال كونها بينة واضحة جلية ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، كقوله: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]؛ أي: من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نوراً لما يحصل به من الهدى، كما سماه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرة بما أغنى عن إعادته هاهنا.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِئَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٢).

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ كقوله تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، وقوله: ﴿نَسِجَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾؛ أي: سبعاً أيضاً، كما ثبت في «الصحيحين»: (مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ) [البخاري/ ٢٣٢١ ومسلم/ ١٦١٢]، وفي «صحيح البخاري» [٣٠٢٤]: (خُسِيفَ بِهِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ)، ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع وخالف القرآن والحديث بلا مستند.

وروى البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» عن ابن عباس قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ

وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴿١٢﴾ قال: سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى، ثم قال البيهقي: إسناد هذا عن ابن عباس صحيح [كما ذكر الحاكم/٣٨٢٢] وهو شاذ بمرة.



## تفسير سورة التحريم

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَنَّى مَرْصَاتٍ أَزْوَاجَكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَوَضَّ اللَّهُ لَكُمْ فَحْلَةً أَيْمَنَ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُنْوَإَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاكُمْ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُؤْمِنَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَلِيلَاتٍ تَتَّبِعُ عِدَلَاتٍ سَخِرَتْ نَيْبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

اختلف في سبب نزول هذه السورة فقيل: نزلت في شأن مارية وكان رسول الله ﷺ قد حرّمها، فنزل قوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَنَّى مَرْصَاتٍ أَزْوَاجَكَ﴾ الآية.

روى أبو عبد الرحمن النسائي [٨٩٠٧] عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخر الآية [وسنده حسن].

وعن مسروق قال: ألى رسول الله ﷺ وحرّم، فعوتب في التحريم، وأمر بالكفارة في اليمين. رواه ابن جرير [١٥٦/٢٨]، وكذا روي عن الشعبي، وكذا قال غير واحد من السلف منهم الضحاك والحسن وقتادة، ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم، وعن ابن عباس القصة مطولة.

وروى ابن جرير [١٥٨/٢٨] عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المراتن؟ قال: عائشة وحفصة، وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم مارية القبطية، أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في نوبتها، فوجدت حفصة: فقالت: يا نبي الله لقد جئت إلي شيئا ما جئت إلى أحد من أزواجك، في يومي، وفي دوري، وعلى فراشي، قال: (أَلَا تُرَضِّينَ أَنْ أُحَرِّمَهَا فَلَا أَقْرَبَهَا؟). قالت: بلى فحرّمها وقال لها: (لَا تَذْكُرِي ذَلِكَ لِأَحَدٍ)، فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَنَّى مَرْصَاتٍ أَزْوَاجَكَ﴾ الآيات كلها، فبلغنا أن رسول الله ﷺ كَفَّرَ عن يمينه وأصاب جاريته [أصله في «الصحيحين»]، وروى الهيثم بن كليب في «مسنده» عن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: (لَا تُخْبِرِي أَحَدًا،

وَأِنَّ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيَّ حَرَامٌ) فقالت: أتحرّم ما أحل الله لك؟ قال: (فَوَاللّٰهِ لَا أَقْرُبُهَا). قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة. قال: فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ فُضَّ إِلَهُ لَكُمْ نَحْلَةً أَيْمَنَكُمْ﴾ وهذا إسناده صحيح ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج [الأحاديث المختارة ٣٠٠/١].

وروى ابن جرير [١٥٧/٢٨] عن سعيد بن جبیر: أن ابن عباس كان يقول في الحرام: يمين تكفرها، وقال ابن عباس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ يعني: أن رسول الله ﷺ حرم جاريته فقال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ فُضَّ إِلَهُ لَكُمْ نَحْلَةً أَيْمَنَكُمْ﴾ فكفر يمينه فصر الحرام يمينًا، ورواه البخاري [٤٦٢٧ بمعناه] ومسلم [١٤٧٣ بمعناه].

ومن هاهنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريته أو زوجته أو طعامًا أو شرابًا أو ملبسًا أو شيئًا من المباحات، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة، وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية إذا حرم عنيهما أو أطلق التحريم فيهما في قول، فأما إن نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأمة نفذ فيهما.

وروى ابن أبي حاتم [١٨٩٢١] عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ وهذا قول غريب، والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل كما روى البخاري [٤٩٦٧] في كتاب «الطلاق» عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فَعَرْتُ فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومه عُكَّةً عسل، فسقت النبي ﷺ منه شربة، فقلت: أما والله لنحتالن له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك فإذا دنا منك فقولِي: أكلت مغاير؟ فإنه سيقول لك: لا، فقولِي له: ما هذه الريح التي أجد؟ فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل، فقولِي: جرت نحله العُرْفُطُ وسأقول ذلك، وقولي له أنت يا صفية ذلك، قالت: تقول سودة: فوالله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أناديه بما أمرتني فرقًا منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله أكلت مغاير؟ قال: (لَا) قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: (سَقَّتَنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ) قالت: جرت نحله العرفط، فلما دار إلي قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال: (لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ) قالت: تقول سودة: والله لقد حَرَمَنَاهُ، قلت لها: اسكتي، هذا لفظ البخاري، وقد رواه مسلم [١٤٧٤]، وعنده قالت: وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح؛ يعني: الريح الخبيثة، ولهذا قلن له: أكلت مغاير؛ لأن ريحها فيه شيء، فلما قال: (بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا). قلن: جرت نحله العرفط؛ أي: رعت نحله شجر العرفط الذي صَمَّعُهُ المغاير، فلهذا ظهر ريحه في العسل الذي شربته.

والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هي الساقية للعسل، وفي طريق [آخر] أن زينب بنت

جحش هي التي سقته العسل، وأن عائشة وحفصة توطأتا وتظاهرتا عليه فالله أعلم، وقد يقال إنهما واقعتان ولا بُد في ذلك إلا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم، ومما يدل على أن عائشة وحفصة عليهما السلام هما المتظاهرتان، الحديث الذي رواه الإمام أحمد [٢٢٢] في «مسنده» عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنْ نُبَوَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حتى حج عمر وحجبت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة فتبرز، ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِنْ نُبَوَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس، هي عائشة وحفصة. قال: ثم أخذ يسوق الحديث. قال: كنا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في دار بني أمية بن زيد بالعوالي، قال: فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تُراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ فقلت: نعم. قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفأتمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت، لا تراجعني رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة - قال: وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك. قال: وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: وما ذاك؟ أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم من ذلك وأطول طلق رسول الله ﷺ نساءه. فقلت: قد خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن هذا كائناً حتى إذا صليت الصبح شددت علي ثيابي، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ فقلت: لا أدري هو هذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلاماً له أسود فقلت: استأذن لعمر، فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال: ذكرك له فصمت، فانطلقت حتى أتيت المنبر، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست عنده قليلاً ثم غلبنني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فخرج فقال: قد ذكرك له فصمت، فخرجت، فجلست إلى المنبر ثم غلبنني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إلي فقال: قد ذكرك له، فصمت، فوليت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل قد أذن لك، فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمال الحصير، وقد أثر في جنبه فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إلي وقال: (لَا) فقلت: الله أكبر، ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم فغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ

ليزاجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله فإذا هي قد هلكت. فتبسم رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله ﷺ منك، فتبسم أخرى، فقلت: استأنس يا رسول الله، قال: (نَعَمْ) فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبة ثلاثة، فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً وقال: (أَفِي شَكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ أَوْلَيْكَ قَوْمٌ عَجَّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فقلت: استغفر لي يا رسول الله، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله ﷻ، وقد رواه البخاري [٢٣٣٦] ومسلم [١٤٧٩].

وروى مسلم أيضاً [١٤٧٩] عن عبد الله بن عباس، حدَّثني عمر بن الخطاب، قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب، فقلت: لأعلمن ذلك اليوم، فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة ووعظه إياهما، إلى أن قال: فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ على أسكفة المشربة، فنادت فقلت: يا رباح استأذن لي على رسول الله ﷺ، فذكر نحو ما تقدم - إلى أن قال - فقلت: يا رسول الله، ما يَشُقُّ عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قلبي، فنزلت هذه الآية آية التخيير: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ﴾، ﴿وَإِنْ تَطَهَّرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فقلت: أطلقتهن؟ قال: (لَا) فقم على باب المسجد فنادت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر، وكذا قال سعيد بن جبیر، وعكرمة، ومقاتل بن حیان، والضحاك وغيرهم ﴿وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أبو بكر وعمر، زاد الحسن البصري: وعثمان، وعن مجاهد: ﴿وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: علي بن أبي طالب [ينظر: الطبري ١٦٢/٢٨ - ١٦٣].

وروى البخاري [٤٦٣٢] عن أنس قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ﴾ فنزلت هذه الآية، وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن: منها في نزول الحجاب، ومنها في أسارى بدر، ومنها قوله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وروى ابن أبي حاتم [والبيهقي بلفظه ١٣٢٨٢] عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: بلغني شيء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبي ﷺ فاستقريتهن أقول: لتكفن عن رسول الله ﷺ أو ليبذلته الله أزواجاً خيراً منكن، حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين فقالت: يا عمر أما لي برسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن، فأمسكت فأنزل الله ﷻ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطٍ عِدَاتٍ سَخِيحَاتٍ ثِيَابٍ تَابِعَاتٍ مُسَلِّمَاتٍ وَمِنْكُمْ وَفِيكُمْ﴾ [وسنده صحيح]، وهذه المرأة التي

ردته عما كان فيه من وعظ النساء هي أم سلمة كما ثبت ذلك في «صحيح البخاري» [٥٥٠٥].  
وقد تبين مما أوردناه تفسير هذه الآيات الكريمات، ومعنى قوله: ﴿مُسْلِمَتٍ مُؤْمِنَةٍ قَانِتَةٍ تَنْبِتْ عَيْدَتٍ﴾ ظاهر، وقوله: ﴿سَيِّحَةٍ﴾؛ أي: صائحات، قاله أبو هريرة وعائشة، وابن عباس، ومجاهد، ومحمد بن كعب القرظي، وإبراهيم النخعي، والحسن والسدي وغيرهم، وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن: ﴿سَيِّحَةٍ﴾؛ أي: مهاجرات، وتلا عبد الرحمن: ﴿السَّيِّحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]؛ أي: المهاجرون [ينظر: الطبري ٢٨/١٦٥]، والقول الأول أولى، والله أعلم.  
وقوله: ﴿تَنْبِتْ وَأَبْكَارًا﴾؛ أي: منهن ثيبات، ومنهن أبكاراً ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإن التنوع يبسط النفس، ولهذا قال: ﴿تَنْبِتْ وَأَبْكَارًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْبُدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُعْجَزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ تُوهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمِنُ بِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا تُوْرَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول: أدبوهم وعلموهم، وقال ابن عباس: اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله، ومروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار، وقال مجاهد: اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله، وقال قتادة: يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصية الله، وأن يقوم عليهم بأمر الله، ويأمرهم به ويساعدهم عليه، فإذا رأيت الله معصية، ردعتهم عنها وزجرتهم عنها، وهكذا قال الضحاك ومقاتل: حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده، ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه.

وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه أحمد [٦٧٥٦]، وأبو داود [٤٩٤]، والترمذي [٤٠٧] من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: (مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ، فَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا). هذا لفظ أبي داود، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. قال الفقهاء: وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمريناً له على العبادة لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر، والله الموفق.

وقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ وقودها؛ أي: حطبها الذي يلقي فيها جُثث بني آدم ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قيل: المراد بها الأصنام التي تعبد لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال ابن مسعود، ومجاهد، وأبو جعفر الباقر والسدي: هي حجارة من كبريت [ابن أبي حاتم/ ٢٤٥]، زاد مجاهد: أنتن من الجيفة [ابن أبي حاتم/ ٢٤٦].

وقوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ﴾؛ أي: طباعهم غليظة، قد نزعَت من قلوبهم الرحمة



بالكافرين بالله، ﴿شِدَادٌ﴾؛ أي: تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج، وقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾؛ أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه، وهؤلاء هم الزبانية عيادًا بالله منهم، وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْنِدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا نُجَزِّوَنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: يقال للكفرة يوم القيامة: لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم، ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾؛ أي: توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدنئات.

روى ابن جرير [١٦٧/٢٨] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ قال: يذنب ثم لا يرجع فيه، وعن عبد الله [بن مسعود]: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ قال: يتوب ثم لا يعود.

ولهذا قال العلماء: التوبة النصوح هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه. روى الإمام أحمد [٣٥٦٨] عن عبد الله بن معقل قال: دخلت مع أبي على عبد الله بن مسعود فقال: أنت سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (النَّدْمُ تَوْبَةٌ؟) قال: نعم، وقال مرة: نعم سمعته يقول: (النَّدْمُ تَوْبَةٌ؟) ورواه ابن ماجه [برقم/٢٥٢] وصحح البوصيري [إسناده].

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قال: التوبة النصوح أن تُبْغَضَ الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته، فأما إذا جزم بالتوبة وصمم عليها، فإنها تُجْبُ ما قبلها من الخطيئات، كما ثبت في «الصحيح» [لمسلم/١٢١ بنحوه]: (الإِسْلَامُ يُجْبُ مَا قَبْلَهُ، وَالتَّوْبَةُ تُجْبُ مَا قَبْلَهَا)، وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات، أو يكفي العزم على ألا يعود في تكفير الماضي، بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضارًا في تكفير ما تقدم، لعموم قوله صلى الله عليه وسلم: (التَّوْبَةُ تُجْبُ مَا قَبْلَهَا؟)، وللأول أن يحتج بما ثبت في «الصحيح» أيضًا: (مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخِذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلَامِ أَخِذَ بِالأَوَّلِ وَالأَخِيرِ) [البخاري/٦٥٢٣]، فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة فالتوبة بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ﴾ وعسى من الله موجبة، ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾؛ أي: ولا يخزيهم معه؛ يعني: يوم القيامة ﴿تُورِهِمْ يَسَعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَنِهم﴾ كما تقدم في سورة الحديد [آية: ١٢].

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا ثَوْرَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال مجاهد، والضحاك، والحسن البصري وغيرهم: هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفى.

وروى محمد بن نصر المروزي عن عبد الرحمن بن جببر بن نفير أنه سمع أبا ذر، وأبا الدرداء قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا أول من يؤذن له في السُّجُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ بِرَفْعِ رَأْسِهِ، فأنظرُ بَيْنَ يَدَيَّ فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ، وَأَنْظُرُ عَنْ يَمِينِي فَأَعْرِفُ أُمَّتِي

مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ، وَأَنْظُرْ عَنْ شِمَالِي فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ) فقال رجل: يا رسول الله، وكيف تعرف أمتك من بين الأمم؟ قال: (عُرُّ مُحَجَّلُونَ مِنْ آثَارِ الطُّهُورِ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنَ الْأُمَمِ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ، وَأَعْرِفُهُمْ أَنَّهُمْ يُؤْتُونَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، وَأَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، وَأَعْرِفُهُمْ بِنُورِهِمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) [وسنده حسن، ورواه الطبراني في «الأوسط» بنحوه/ ٣٢٣٤].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ۝٩﴾  
 ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ ۝١٠﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بجهد الكفار والمنافقين، هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: في الدنيا ﴿وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: في الآخرة. ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله، إن لم يكن الإيمان حاصلًا في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾؛ أي: نبين رسولين عندهما في صحبتها ليلاً ونهاراً، يؤاكلانهما ويصاحبانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾؛ أي: في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة، فلم يُجد ذلك كله شيئاً ولا دفع عنهما محذوراً، ولهذا قال: ﴿فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾، وليس المراد بقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة، لحرمة الأنبياء كما قدمنا في سورة النور [عند آيات الإفك].

عن ابن عباس قال في هذه الآية: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: ما زنتا، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه، وعن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط إنما كانت خيانتها في الدين، وهكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك وغيرهم [ينظر: الطبري ١٧٠/٢٨]، وقد استدلل بهذه الآية الكريمة بعض العلماء على ضعف الحديث الذي يآثره كثير من الناس: من أكل مع مغفور له غفر له، وهذا الحديث لا أصل له.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝١١﴾ وَمِنْ أُمَّتٍ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ ۝١٢﴾

وهذا مثلٌ ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَخْذِبُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْقُوا مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ [آل عمران: ٢٨]، قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض

وأكفرهم فوالله ما ضر امرأته كُفر زوجها حين أطاعت ربها، لتعلموا أن الله حَكَمٌ عدل، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه، وعن سلمان قال: كانت امرأة فرعون تُعَذَّب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة [ينظر: الطبري ١٧١/٢٨].

فقولها: ﴿رَبِّ أَبْنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار، ﴿وَيَجْنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾؛ أي: خلصني منه، فإني أبرأ إليك من عمله ﴿وَيَجْنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَيَجْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها.

وقوله: ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ أي: حفظته وصانته، والإحصان هو العفاف والحرية ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾؛ أي: بواسطة الملك وهو جبريل، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ فيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعبسى عليه السلام، ولهذا قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: بقدره وشرعه ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِيَاتِ﴾، روى الإمام أحمد [٢٩٠٣] عن ابن عباس قال: حَطَّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، وقال: (أَتَذَرُونَ مَا هَذَا؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: (أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ) [قال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح]، وثبت في «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: (كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ) [البخاري/٥١٠٢ من دون ذكر

خديجة، وكذلك عند مسلم/٢٤٣١].



## تفسير سورة الملك

وهي مكية

روى الإمام أحمد [٧٩٦٢ نحوه] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ سُورَةَ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثِينَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) ورواه أهل السنن الأربعة، وقال الترمذي [٢٨٩١]: هذا حديث حسن [يقويه ما بعده].

وقد روى الطبراني [في الأوسط/٣٦٥٤] والحافظ الضياء المقدسي [في المختارة/١١٤/٥] عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (سُورَةُ فِي الْقُرْآنِ خَاصَمَتُ عَنْ صَاحِبِهَا حَتَّى أَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةَ: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) [سنده جيد].

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ انْزِعِ الْبَصَرَ كَرِّيْهِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾

يمجد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه بيده الملك؛ أي: هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ واستدل بهذه الآية من قال: إن الموت أمر وجودي؛ لأنه مخلوق، ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم ليلوهم؛ أي: يختبرهم أيهم أحسن عملاً، كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فسمى الحال الأول - وهو العدم - موتاً، وسمى هذه النشأة حياة، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: خير عملاً كما قال محمد بن عجلان: ولم يقل أكثر عملاً، ثم قال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾؛ أي: هو العزيز العظيم المنيع الجنب، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب، بعدما عصاه وخالف أمره، وإن كان تعالى عزيزاً هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز، ثم قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾؛ أي: طبقة بعد طبقة، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض، أو متفصلات بينهما خلاء، فيه قولان أصحهما الثاني كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره.

وقوله: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾؛ أي: بل هو مصطحب مستو، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة، ولا نقص، ولا عيب، ولا خلل، ولهذا قال: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾؛ أي: انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً؟ قال ابن عباس، ومجاهد، والثوري وغيرهم في قوله: ﴿مِن فُطُورٍ﴾؛ أي: شقوق، وقال السدي: أي: من خروق، وقال ابن عباس في رواية: أي: من وهاء، وقال قتادة: أي: هل ترى خللاً يا ابن آدم [ينظر: الطبري ٢/٢٩].

وقوله: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ قال قتادة: مرتين. ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ قال ابن عباس: ذليلاً، وقال مجاهد، وفتادة: صاغراً. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قال ابن عباس: يعني: وهو كليل، وقال مجاهد، وفتادة، والسدي: الحسير: المنقطع من الإعياء، ومعنى الآية إنك لو كررت البصر مهما كررت لانقلب إليك؛ أي: لرجع إليك البصر ﴿خَاسِئًا﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً، ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾؛ أي: كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار ولا يرى نقصاً، ولما نفى عنها في خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ عاد الضمير في قوله وجعلناها على جنس المصابيح لا على عينها؛ لأنه لا يرمي بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم، وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾؛ أي: جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا، وأعدنا لهم عذاب السعير في الآخرة، كما قال في أول الصفات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۖ وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۖ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ لَوْ يُقَدُّونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۖ دُخُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۖ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: ٦ - ١٠]. قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به [البغوي ٣/٦٤].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَاءَ الْمَصِيرُ ۖ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۖ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۖ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۖ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۖ فَاعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۖ﴾

يقول تعالى: ﴿و﴾ أعطينا ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَاءَ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: بسئ المال والمنقلب. ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ قال ابن حجر: يعني: الصياح. ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير. وقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾؛ أي: تكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها عليهم ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۖ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

كَبِيرٌ ﴿يَذْكُرُ تَعَالَى عَدْلَهُ فِي خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَعْذِبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَإِرْسَالِ الرُّسُولِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَحَثُوا أَنُوبَهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وَهَكَذَا عَادُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ، وَنَدَمُوا حَيْث لَا تَنْفَعُهُمُ النَّدَامَةُ، فَقَالُوا: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا سَمِعُ أَوْ نَفَقُلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾؛ أَي: لَوْ كَانَتْ لَنَا عُقُولٌ نَنْتَفِعُ بِهَا أَوْ نَسْمَعُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْحَقِّ، لَمَا كُنَّا عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالْإِغْتِرَارِ بِهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَنَا فَهْمٌ نَعِي بِهِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَلَا كَانَ لَنَا عَقْلٌ يَرِشِدُنَا إِلَى اتِّبَاعِهِمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْرِضْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ [١٢٨] عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ الطَّائِي قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعَذِّبُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) [سنده صحيح].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٢) وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الضُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥).

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّنْ يَخَافُ مَقَامَ رَبِّهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ إِذَا كَانَ غَائِبًا عَنِ النَّاسِ، فَيَنْكَفُ عَنِ الْمَعَاصِي وَيَقُومُ بِالطَّاعَاتِ، حَيْث لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهَ، بِأَنَّهُ لَهُ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ؛ أَي: يَكْفُرُ عَنْهُ ذُنُوبُهُ، وَيَجْزَى بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»: (سَبْعَةٌ يُظَاهَرُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ)، فَذَكَرَ مِنْهُمْ: (رَجُلًا دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَتْ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلًا تَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ) [البخاري/١٣٥٧ ومسلم/١٠٣١].

ثُمَّ قَالَ مِنْبَهًا عَلَى أَنَّهُ مَطْلُوعٌ عَلَى الضَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الضُّدُورِ﴾؛ أَي: بِمَا خَطَرَ فِي الْقُلُوبِ، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؛ أَي: أَلَا يَعْلَمُ الْخَالِقُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ مَخْلُوقَهُ؟ وَالْأَوَّلُ أَوْلَى لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي تَسْخِيرِهِ لَهُمُ الْأَرْضَ وَتَذْلِيلِهِ إِيَّاهَا لَهُمْ، بِأَنَّهُ جَعَلَهَا قَارَةً سَاكِنَةً لَا تَمِيدُ وَلَا تَضْطَرِبُ، بِمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ، وَأَنْبَعٍ فِيهَا مِنَ الْعَيُونِ، وَسَلَكَ فِيهَا مِنَ السَّبِيلِ، وَهِيَ فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَمَوَاضِعِ الزَّرْعِ وَالشَّارِ، فَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾؛ أَي: فَسَافَرُوا حَيْثُ شِئْتُمْ مِنْ أَقْطَارِهَا، وَأَرْجَائِهَا فِي أَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ وَالتَّجَارَاتِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سَعْيَكُمْ لَا يَجْدِي عَلَيْكُمْ شَيْئًا، إِلَّا أَنْ ييسره اللَّهُ لَكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾. فَالْسَّعْيُ فِي السَّبَبِ لَا يَنَافِي التَّوَكُّلَ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ [٢٠٥] عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَتَّى تَتَوَكَّلُوا كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا) رواه الترمذي [٢٣٤٤]، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، فَأُثْبِتَ لَهَا رَوَاحًا

وغدوا لطلب الرزق مع توكلها على الله ﷻ وهو المسخر المسير المسبب. ﴿وَالَيْهِ الشُّورُ﴾؛ أي: المرجع يوم القيامة. قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وقتادة: ﴿مَنَّاكِهَا﴾ أطرافها وفجاجها ونواحيها، وقال ابن عباس، وقتادة أيضًا: مناكبها: الجبال. وعن أبي الدرداء قال: هي الجبال [ينظر: الطبري ٧/٢٩].

﴿أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٦) ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ (١٧) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَذِيرِ﴾ (١٨) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَوَاتٍ وَيَقْضِينَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (١٩).

وهذا أيضًا من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم، بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره، وهو مع هذا يحلم ويصفح ويؤجل ولا يعجل، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤْخِرُهُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال هاهنا: ﴿أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾؛ أي: تذهب وتجيء وتضطرب ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾؛ أي: ريحًا فيها حصباء تدمغكم، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ جَانِبَ الْاَرْرِ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٨]، وهكذا توعدهم هاهنا بقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾؛ أي: كيف يكون إنذاري وعاقبة من كذب به.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من الأمم السالفة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَذِيرِ﴾؛ أي: فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟ أي: عظيمًا شديدًا أليمًا، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَوَاتٍ وَيَقْضِينَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾؛ أي: تارة يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحًا وتنشر جناحًا ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾؛ أي: في الجو ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾؛ أي: بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾؛ أي: بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، وهذه كقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

﴿أَمِنَ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (٢٠) ﴿أَمِنَ هَٰذَا الَّذِي يَرْفَعُكُمُ إِنِ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُوا فِي غُرُورٍ وَنُفُورٍ﴾ (٢١) ﴿أَمِنَ يَمْشِي مَكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢٢) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢٣) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥) ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٦) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ (٢٧).

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره، يبتغون عنهم نصرًا ورزقًا، منكرًا عليهم فيما اعتقدوه، ومخيرًا لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه، فقال: ﴿أَمِنَ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُم مِّن

دُونِ الرَّحْمَنِ؛ أَي: ليس لكم من دونه من ولي ولا واق ولا ناصر لكم غيره، ولهذا قال: ﴿إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾، ثم قال: ﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَزْفِكُوكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾؛ أَي: من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يزفكم بعده؟ أَي: لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله ﷻ وحده لا شريك له؛ أَي: وهم يعلمون ذلك ومع هذا يعبدون غيره، ولهذا قال: ﴿بَلْ لَجُؤًا﴾؛ أَي: استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿فِي غُتٍّ وَنُفُورٍ﴾؛ أَي: معاندةً واستكباراً ونفوراً على إدبارهم عن الحق لا يسمعون له ولا يتبعونه.

ثم قال: ﴿أَمَنْ يَبْشَىٰ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشَىٰ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكباً على وجهه؛ أَي: يمشي منحنيًا لا مستويًا على وجهه؛ أَي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب، بل تائه حائر ضال، أهذا أهدي ﴿أَمَنْ يَمْشَىٰ سَوِيًّا﴾؛ أَي: منتصب القامة ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أَي: على طريق واضح بين وهو في نفسه مستقيم. هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة، فالمؤمن يحشر يمشي سويًا على صراط مستقيم، مُفَضَّصٌ به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم.

روى الإمام أحمد رحمته الله [١٢٧٣١] عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: (أَلَيْسَ الَّذِي أَشَاهُمْ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ)، وهذا الحديث مخرج في «الصحاحين» [البخاري/٤٤٨٢ ومسلم/٢٨٠٦]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾؛ أَي: ابتداء خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾؛ أَي: العقول والإدراك، ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾؛ أَي: ما أقل ما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته، وامتنال أوامره وترك زواجه. ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أَي: بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم وصوركم، ﴿وَالْيَايُوهُ يُحْشَرُونَ﴾؛ أَي: تُجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم، ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار المنكرين للمعاد المستبشرين وقوعه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أَي: متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أَي: لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله ﷻ، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ﴿وَلَئِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾؛ أَي: وإنما علي البلاغ وقد أدبته إليكم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَ وُجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أَي: لما قامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريباً؛ لأن كل ما هو آتٍ آتٍ وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك لما يعلمون ما لهم هناك من الشر؛ أَي: فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب ﴿وَيَذَاكُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ وَيَذَاكُم مِّنَ اللَّهِ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، ولهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِدَعْوَانِ﴾؛ أَي: تستعجلون.



﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٨) ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٩) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٣٠).

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: خَلَّصُوا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّهُ لَا مَنْقَذَ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا التَّوْبَةُ، وَالرَّجُوعُ إِلَى دِينِهِ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ وَقُوعُ مَا تَتَمَنُّونَ لَنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، فَسَوَاءٌ عَذَبْنَا اللَّهُ أَوْ رَحِمْنَا، فَلَا مَنَاصَ لَكُمْ مِنْ نِكَالِهِ وَعَذَابِهِ الْأَلِيمِ الْوَاقِعِ بِكُمْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا، كَمَا قَالَ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: مَنْ مَعَكُمْ، وَلِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟  
ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾؛ أي: ذَاهِبًا فِي الْأَرْضِ إِلَى أَسْفَلٍ، فَلَا يُنَالُ بِالْفُؤُوسِ الْحِدَادَ وَلَا السَّوَادِ الشَّدَادَ، وَالْغَائِرُ عَكْسُ النَّابِعِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾؛ أي: نَابِعٍ سَائِرٍ جَارٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ ﷻ، فَمَنْ فَضَّلَهُ وَكَرَّمَهُ أَنْ أَنْعَى لَكُمْ الْمِيَاهَ وَأَجْرَاهَا فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ الْعِبَادُ إِلَيْهِ مِنَ الْقَلَّةِ وَالكَثْرَةِ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ.



## تفسير سورة القلم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَبِّحْهُ وَابْحُورْهُ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾.

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة، وأن قوله: ﴿تَ﴾ كقوله: ﴿صَ﴾، ﴿قَ﴾ ونحو ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور، وتحرير القول في ذلك بما أغنى عن إعادته هاهنا.

قيل: المراد بقوله: ﴿تَ﴾ لوح من نور.

وقال ابن جريج: أخبرني أن ذلك القلم من نور طوله مائة عام، وقيل: المراد بقوله: ﴿تَ﴾ دواة، والقلم: القلم، وعن الحسن وقتادة في قوله: ﴿تَ﴾ قالوا: هي الدواة، وقوله: ﴿وَالْقَلَمِ﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به، كقوله: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٢﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣ - ٥]، فهو قسم منه تعالى، وتنبه لخلقها على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: يعني: وما يكتبون، قال ابن عباس [أيضًا]: أي: وما يعملون، وقال السدي: يعني: الملائكة وما تكتب من أعمال العباد، وقال آخرون: بل المراد هاهنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف سنة.

روى ابن أبي حاتم [١٨٤٩٤ نحوه] عن عبادة بن الصامت قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ وَمَا هُوَ كَائِنْ إِلَى الْأَبَدِ)، وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد [٢٢٧٥٩] وأخرجه الترمذي [٢١٥٥] واللفظ له، وقال: حسن صحيح غريب، وقال مجاهد: ﴿وَالْقَلَمِ﴾؛ يعني: الذي كتب به الذكر، وقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾؛ أي: يكتبون كما تقدم.

وقوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾؛ أي: لست والله الحمد بمجنون، كما يقوله الجهلة من قومك، المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين، فنسبوك فيه إلى الجنون، ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: بل إن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يباعد على

إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم، ومعنى ﴿عَبْرَ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع، كقوله: ﴿عَطَاءٌ عَبْرَ مَجْدُونٍ﴾ [هود: ١٠٨]؛ أي: غير مقطوع عنهم، وقال مجاهد: غير ممنون؛ أي: غير محسوب وهو يرجع إلى ما قلناه.

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ عن ابن عباس: وإنك لعلی دين عظيم وهو الإسلام، وكذلك قال مجاهد، وأبو مالك، والسدي، والربيع بن أنس، وكذا قال الضحاك، وابن زيد، وقال عطية: لعلی أدب عظيم، وروى عبد الرزاق [٤٧١٤ بنحوه] عن سعد بن هشام قال: سألت عائشة فقلت: أخبريني يا أم المؤمنين عن خُلُقِ رسول الله ﷺ فقالت: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. فقالت: كان خلقه القرآن، وقد رواه مسلم [٧٤٦].

ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن، أمرًا ونهيًا سجيّة له وخلقًا تطبّعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن، فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل، كما ثبت في «الصحيحين» [البخاري/٥٦٩١ ومسلم/٢٣٠٩] عن أنس قال: خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقًا ولا مسست خزًا ولا حرييرًا ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ [واللفظ هنا للترمذي/٢٠١٥]، والأحاديث في هذا كثيرة ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب «الشمائل».

وروى الإمام أحمد [٨٩٣٩] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ) [سنده حسن].

وقوله: ﴿فَسَبِّحْهُ وَبِحَمْدِهِ﴾ بِأَيِّكُمْ أَلْمَفْتُونُ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ فستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المفتون الضال منك ومنهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْآثِرُ﴾ [القم: ٢٦]. قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: ستعلم ويعلمون يوم القيامة، وعنه [أيضًا]: بأيكم المفتون؛ أي: المجنون، وكذا قال مجاهد وغيره، وقال قتادة وغيره؛ أي: أولى بالشیطان، ومعنى المفتون ظاهر؛ أي: الذي قد افتن عن الحق وضل عنه، وإنما دخلت الباء في قوله بأيكم لتدل على تضمين الفعل في قوله: ﴿فَسَبِّحْهُ وَبِحَمْدِهِ﴾ وتقديره فستعلم ويعلمون أو فستخبر ويخبرون بأيكم المفتون، والله أعلم، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي، ويعلم الحزب الضال عن الحق.

﴿فَلَا تُطِيعُوا الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٨) وَذُوَا لَوْ نَذَّهْنُ يَدَهُنَّ (٩) وَلَا تُطِيعُوا كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَازِجَ مَشَآءٍ بَنِي إِسْرَءِيلَ (١١) مَنَاجِ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُنْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ ءَابُنُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِفُهُ عَلَى الْخَرُطُورِ (١٦) .

يقول تعالى: كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْمُكَذِّبِينَ﴾

﴿٨﴾ وَذُو لَوْ تُذْهِنُ فَيَذْهَبُونَ﴾ قال ابن عباس: لو تُرَخِّصَ لهم فيرَخِّصُونَ، وقال مجاهد: ودوا لو تركن إلى آلهتهم وترك ما أنت عليه من الحق، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَ كُلَّ حَلَاظٍ مَّهِينٍ﴾ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير محلها. قال ابن عباس: المهين الكاذب، وقال مجاهد: هو الضعيف القلب، قال الحسن: كل حلاف مكابر مهين ضعيف.

وقوله: ﴿هَكَازٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يعني: الاغتياب ﴿مَشَاءَ بَنِيهِ﴾؛ يعني: الذي يمشي بين الناس، ويحرس بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين وهي الحالقة، وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال: (إِنَّهُمَا لَبِيعَذَبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ) الحديث [البخاري/ ١٢٩٥ واللفظ له ومسلم/ ٢٩٢].

وروى الإمام أحمد [٢٣٢٩٥] أن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَنَاتٌ) رواه الجماعة إلا ابن ماجه.

وقوله: ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعَدِّ أَيْبٍ﴾؛ أي: يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿مُعَدِّ﴾ في تناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿أَيْبٍ﴾؛ أي: يتناول المحرمات. وقوله: ﴿عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ العتل: الفظ الغليظ الصحيح الجموع المَنُوعُ، وروى الإمام أحمد [١٨٧٥٢] عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: (أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ، أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتْلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ) أخرجه في «الصحيحين» [البخاري/ ٤٦٣٤ ومسلم/ ٢٨٥٣]، وروى الإمام أحمد [٦٥٨٠] أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار: (كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ جَمَاعٍ مَنَاعٍ) [قال الهشمي في «المجمع»: رجاله رجال الصحيح]. قال أهل اللغة: الجعظري: الفظ الغليظ. والجَوَاطُ: الجَمُوع المَنُوع. ونص غير واحد من السلف، منهم مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغيرهم أن العتل هو: المُصَحَّحُ الخَلْقُ، الشديد القوي في المأكل والمشرب والمنكح، وغير ذلك، وأما الزنيم فروى البخاري [٤٦٣٣] عن ابن عباس قال: رجل من قريش له زنمة مثل زَنَمَةِ الشاة، ومعنى هذا: أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها، وإنما الزنيم في لغة العرب: هو الدَّعِيُّ في القوم. قاله ابن جرير [٢٥/٢٩] وغير واحد من الأئمة، وقال: ومنه قول [الشاعر]:

زَنِيمٌ لَيْسَ يُعْرِفُ مَنْ أَبُوهُ      بَغْيِي الْأُمُّ ذُو حَسَبٍ لَيْمٍ

وعن ابن عباس في قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾ قال: الداعي الفاحش اللئيم، وعن سعيد بن المسيب قال في هذه الآية: هو المَلْصُوقُ بالقوم ليس منهم، وعن عكرمة قال: هو ولد الزنا. [وعنه] قال: يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء، والزنماء من الشياه: التي في عنقها هنتان معلقتان في حلقتها، وعن سعيد بن جبیر قال: الزنيم الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزمنمتها. والزنيم المَلْصُوقُ، وقال الضحاك: كانت له زنمة في أصل أذنه، ويقال: هو اللئيم

الملصق في النسب، وعن ابن عباس: هو المريب الذي يعرف بالشر، وقال مجاهد: الزنيم الذي يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة، وقال أبو رزين: الزنيم علامة الكفر.

والأقوال في هذا كثيرة وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو: المشهور بالشر، الذي يعرف به من بين الناس، وغالبًا يكون دعيًا ولد زنا، فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره.

وقوله: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (١٤) إِذَا تُمَتَّلَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ يقول تعالى: هذه مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين، كفر بآيات الله ﷻ وأعرض عنها، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين، كقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَهْنِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينَدُهُ ﴿١٦﴾ سَاهِقَهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ يَحْكُمُ يَوْمَ يُؤْتَى ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾ [المدرثر: ١١ - ٢٦]، وقال تعالى هاهنا: ﴿سَيَسْمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ قال ابن جرير: سننين أمره بيانًا واضحًا، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم، كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم، وقال قتادة: شين لا يفارقه آخر ما عليه، وفي رواية عنه: سيما على أنفه. وكذا قال السدي: وعن ابن عباس: ﴿سَيَسْمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ يقاتل يوم بدر، فيخطم بالسيف في القتال، وقال آخرون: ﴿سَيَسْمُهُ﴾ سمة أهل النار؛ يعني: نسود وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم. حكى ذلك كله أبو جعفر بن جرير [٢٨/٢٩]، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة وهو مُتَّجِه.

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (٧) وَلَا يَسْتَوُونَ ﴿٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿٩﴾ فَأَصْبَحَتِ كَالْعَصِيرِ ﴿١٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿١١﴾ أَنْ اعْدُوا عَلَى حَرْبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ ﴿١٢﴾ فَأَنطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴿١٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿١٤﴾ وَعَدُوا عَلَى حَرْبٍ قَدِيرٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسْمِعُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَمَّضُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا يَبْرُلَكُمَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١﴾ عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٢٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بعثه محمدًا ﷺ إليهم فقابلوه، بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾؛ أي: اختبرناهم ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿إِذْ أَقْبَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾؛ أي: حلفوا فيما بينهم ليُجذَن ثمرها ليلاً، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿وَلَا يَسْتَوُونَ﴾؛ أي: فيما حلفوا به، ولهذا حنَّهم الله في إيمانهم، فقال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ﴾؛ أي: أصابتها آفة

سماوية، ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قال ابن عباس: كالليل الأسود، وقال الثوري والسدي: مثل الزرع إذا حصد؛ أي: هشيماً ييساً. ﴿فَتَنَادَوْا مُصِيعِينَ﴾؛ أي: لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجَذَازِ ﴿أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرْبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ﴾؛ أي: تريدون الصرام. قال مجاهد: كان حراثهم عنباً ﴿فَأَطْلَقُوا وَهُمْ يَخْخَفُونَ﴾؛ أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم. ثم فسر الله ﷻ عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به فقال: ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾؛ أي: يقول بعضهم لبعض لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم، قال الله تعالى: ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرْبٍ﴾؛ أي: قوة وشدة، وقال مجاهد: أي: جد، وقال عكرمة: غيظ، وقال الشعبي: ﴿عَلَى حَرْبٍ﴾ على المساكين [ينظر: الطبري ٢٩/٣٢].

﴿قَدِيرِينَ﴾؛ أي: عليها فيما يزعمون ويرومون. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾؛ أي: فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها، وهي على الحالة التي قال الله ﷻ قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مُدْلِهَمَةً، لا يُنتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾؛ أي: قد سلكنّا إليها غير الطريق فتهنأ عنها. قاله ابن عباس وغيره: ثم رجعوا عما كانوا فيه، وتيقنوا أنها هي فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَقُونَ﴾؛ أي: بل هي هذه ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، والربيع بن أنس وقتادة [وغيرهم]: أي: أعدلهم وخيرهم ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ قال مجاهد، والسدي، وابن جريج: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾؛ أي: لولا تستنثون قال السدي: وكان استنثاؤهم في ذلك الزمان تسبيحاً، وقال ابن جريج: هو قول القائل إن شاء الله، وقيل: معناه هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم، ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْنَ﴾؛ أي: يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجَذَازِ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب، ﴿قَالُوا يَذَرْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ أي: اعتدينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا. ﴿عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ قيل: رغبوا في بذلها لهم في الدنيا، وقيل: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة والله أعلم. قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَفْتَابُ﴾؛ أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات، وبدل نعمة الله كفرة ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ ﴿أَفَجَعَلَ الْمُتَّقِينَ كَالْجُنَّارِ﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ ﴿إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَا تَحْزَنُونَ﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا بَلَاغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْآخِرَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ﴾ ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِرِزْقِكُمْ يَوْماً﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ ﴿﴾.

لما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النعمة حين عصوا الله ﷻ،

وخالفوا أمره بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبديد ولا تفرغ ولا ينقصي نعيمها، ثم قال: ﴿أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجُنَّ مِثْلًا؟﴾ أي: أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماوات ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟﴾ أي: كيف تظنون ذلك؟ ثم قال: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ؟﴾ يقول: أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتداولونه بنقل الخلف عن السلف، متضمن حكمًا مؤكدًا كما تدعون؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ (٣٨) أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا يُلْقَاهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ أي: أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة، ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ؟﴾ أي: إنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ﴿سَأَلَهُمْ أَيُّهُمْ يَدْرِكُ بِذَلِكَ زَعِيمٌ؟﴾ أي: قل لهم من هو المتضمن المتكفل بهذا؟ قال ابن عباس: يقول أيهم بذلك كفيل ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ؟﴾ أي: من الأصنام والأنداد ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٤٢) خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ رَهَقُهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ قَسَمَ اللَّهُ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عَنْدهُمْ أَغْيَابٌ فَهُمْ يَكْنُتُونَ ﴿٤٧﴾.

لما ذكر تعالى أن للمتقين عنده جنات النعيم، بين متى ذلك كائن وواقع، فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ يعني: يوم القيامة وما يكون فيه من الأحوال والزلازل والبلاء، والامتحان والأمور العظام، وقد روى البخاري [٤٦٣٥] هاهنا عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (يُكْشَفُ رَبَّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَبَيَقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا)، وعن ابن عباس: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ قال: هو يوم كرب وشدة. رواه ابن جرير [٣٨/٢٩]: وعنه أيضًا قال: عن أمر عظيم، كقول الشاعر:

وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِنَا عَنْ سَاقٍ

وعن مجاهد قال: شدة الأمر وجده، وقال ابن عباس: هي أول ساعة تكون في يوم القيامة، وقال ابن عباس [أيضًا]: هو الأمر الشديد المُفْطِط من الهول يوم القيامة. وعن ابن عباس [أيضًا]: حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال، وكشفه دخول الآخرة، وكشف الأمر عنه. أورد ذلك كله أبو جعفر بن جرير.

وقوله تعالى: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ رَهَقُهُمْ ذُلٌّ﴾؛ أي: في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه. ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب ﷻ فسجد له المؤمنون، ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طَبَقًا واحدًا، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه عكس السجود، كما كانوا في الدنيا، بخلاف ما عليه المؤمنون.

ثم قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾؛ يعني: القرآن، وهذا تهديد شديد؛ أي: دعني وإياه، أنا أعلم به كيف أستدركه وأمه في غيه وأنظره، ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال: ﴿سَتَسَدِّجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسْقِيهِمْ مِنْ مَّاءٍ مَالٍ وَبَيْنَ ۖ سُبُلِهِمْ ۖ فَهُمْ فِي الْخَيْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وقال: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فُوحُوا بِمَا أَوْتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾؛ أي: وأوخرهم وأنظرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾؛ أي: عظيم لمن خالف أمري وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي.

وفي «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ لَيُبْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ) [البخاري/٤٤٠٩ ومسلم/٢٥٨٣]، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذُوا مِنْكَ الْبُرْءَ وَهُمْ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [٤٦] أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ تقدم تفسيرهما في سورة الطور [آية: ٤٠، ٤١]، والمعنى في ذلك أنك يا محمد تدعوهم إلى الله ﷻ بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله، وهم يكذبون بما جئتهم به بمجرد الجهل والكفر والعناد.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (٤٨) ﴿لَوْلَا أَنْ تَدْرَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ (٤٩) ﴿فَاجْبِنْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٥٠) ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (٥١) ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٥٢).

يقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم، فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾؛ يعني: ذا النون وهو يونس بن متى ﷺ حين ذهب مُعَاضِبًا على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام والحوت له، وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يُرَدُّ ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. قال الله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُخَيِّبُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (٤٢) ﴿لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصفات: ١٤٣، ١٤٤] وقال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: مغموم. وقال عطاء الخراساني وأبو مالك: مكروب. قال تعالى: ﴿فَاجْبِنْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وقد روى الإمام أحمد [٣٧٠٣] عن عبد الله [بن مسعود] قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَى)، ورواه البخاري [٤٣٢٧]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وغيرهما: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ لَيُفْزِدُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ؛ أي:



لَيَعِينُوكَ بِأَبْصَارِهِمْ، بِمَعْنَى يَحْسُدُونَكَ لِبُغْضِهِمْ إِيَّاكَ لَوْلَا وَقَايَةُ اللَّهِ لَكَ، وَحِمَايَتُهُ إِيَّاكَ مِنْهُمْ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَيْنَ إِصَابَتُهَا وَتَأْثِيرُهَا حَقٌّ بِأَمْرِ اللَّهِ ﷻ، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الْمَرْوِيَّةُ مِنْ طَرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ كَثِيرَةٍ. رَوَى أَبُو دَاوُدَ [٣٨٨٩] عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ) وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ بَرِيدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ) [حَسَنٌ بِمَا قَبْلَهُ]، وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» [٢٢٠] عَنْ بَرِيدَةَ مَوْقُوفًا وَفِيهِ قِصَّةٌ، وَرَوَى هَذَا الْحَدِيثَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ [٥٣٧٨] عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ مَوْقُوفًا.

رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» [٢١٨٨] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اغْتُسِلْتَ فَأَغْسِلُوا)، وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ [٧٩٨٧] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُوذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ يَقُولُ: (أُعِذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مَنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمَنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ)، وَيَقُولُ (هَكَذَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَعُوذُ إِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ [٣١٩١].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ [٩٦٦٦] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ) أَخْرَجَاهُ [الْبُخَارِيُّ/٥٤٠٨ وَمُسْلِمٌ/٢١٨٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾؛ أَي: يَزْدُرُونَهُ بِأَعْيُنِهِمْ وَيُؤْذُونَهُ بِالسُّتْهِمْ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ؛ أَي: لَمَجِيئُهُ بِالْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذَكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.



## تفسير سورة الحاقة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ ۝٧ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ ۝٨ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَتِ بِالْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَهَا أُذُنٌ وَعَيْنٌ ۝١٢﴾ .

الحاقة من أسماء يوم القيامة؛ لأن فيها يتحقق الوعد والوعد، ولهذا عظم الله أمرها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وهي الصيحة التي أسكتتهم، والزلزلة التي أسكنتهم، هكذا قال قتادة: الطاغية: الصيحة، وهو اختيار ابن جرير [٤٩/٢٩]، وقال مجاهد: الطاغية: الذنوب، وكذا قال الربيع بن أنس، وابن زيد: إنها الطغيان وقرأ ابن زيد: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا﴾ [الشمس: ١١]، وقال السدي: ﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ قال: يعني عاقر الناقة. ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾؛ أي: باردة قال قتادة، والسدي، والربيع بن أنس، والثوري: ﴿عَاتِيَةٍ﴾؛ أي: شديدة الهبوب، قال قتادة: عتت عليهم حتى نَقَبَتْ عن أفئدتهم، وقال الضحاك: ﴿صَرْصَرٍ﴾ باردة ﴿عَاتِيَةٍ﴾ عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة، وقال علي وغيره: عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: سلطها عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا﴾؛ أي: كوامل متتابعات مشائيم. قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والثوري وغير واحد: حُسُومًا: متتابعات، وعن عكرمة والربيع: مشائيم عليهم، كقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]. قال ابن عباس: ﴿خَاوِيَةٌ﴾ خربة، وقال غيره: بالية؛ أي: جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتاً على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان، وقد ثبت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالذَّبُورِ﴾ [البخاري/ ٩٨٨ ومسلم/ ٩٠٠]. ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾؛ أي: هل تحس منهم من أحد من بقاياهم، أو ممن ينتسب إليهم بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ فُرى بكسر القاف؛ أي: ومن عنده ممن في زمانه من أتباعه من كفار القبط، وقرأ آخرون بفتحها؛ أي: ومن قبله من الأمم المشبهين له.

وقوله: ﴿وَالْمُؤَفِّكُ﴾ وهم المكذبون بالرسول. ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ بالفعل الخاطئة، وهي التكذيب بما أنزل الله. قال الربيع: أي: بالمعصية، وقال مجاهد: بالخطايا، ولهذا قال: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا جنس؛ أي: كل كذب رسول الله إليهم، كما قال: ﴿كُلُّ كَذَبٍ أُرْسِلَ بِحَقِّ وَعِيدٍ﴾ [ق: ١٤]، ومن كذب برسول فقد كذب بالجميع، كما قال: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبَأَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد، ولهذا قال هاهنا: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾؛ أي: عظيمة شديدة أليمة، قال مجاهد: رابية: شديدة، وقال السدي: مهلكة [ينظر: الطبري ٥٣/٢٩].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾؛ أي: زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود. قال ابن عباس وغيره: طغى الماء: كثر، وذلك بسبب دعوة نوح ﷺ على قومه حين كذبوه وخالفوه، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته، وعن علي بن أبي طالب قال: لم تنزل قطرة من ماء إلا بكيل على يدي ملك، فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخزان [الطبري ٥٠/٢٩]، فطغى الماء على الخزان، فخرج فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ﴾ ولم ينزل شيء من الريح إلا بكيل على يدي ملك، إلا يوم عاد، فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت، فذلك قوله: ﴿يَرْجِعُ صَرْصَرًا عَلَيْهِ﴾ عتت على الخزان، ولهذا قال تعالى ممتنًا على الناس: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه؛ أي: وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار كما قال: ﴿وَأَيُّهَا لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (٤١) ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]، وقال قتادة: أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة، والأول أظهر ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَقِهَا أَذُنٌ رَابِيَةً﴾؛ أي: وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن واعية، قال ابن عباس: حافظة سامعة، وقال قتادة: عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله، وقال الضحاك: سمعتها أذن ووعت؛ أي: من له سمع صحيح وعقل رجيح، وهذا عام فيمن فهم ووعى [ينظر: الطبري ٥٥/٢٩].

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨).

يقول تعالى مخبرًا عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك نفخة الفزع، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور، وهي هذه النفخة، وقد أكدها هاهنا بأنها واحدة؛ لأن أمر الله

لا يخالف ولا يمانع ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد، وقال الربيع: هي النفخة الأخيرة والظاهر ما قلناه، ولهذا قال ههنا: ﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَكَانَا دَكَّةً وَجَدَّةً﴾؛ أي: فمدت وتبدلت الأرض غير الأرض ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾؛ أي: قامت القيامة.

﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ عن علي قال: تنشق السماء من المجرة، وقال ابن جريج: هي كقوله: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: ١٩]، وقال ابن عباس: منخرقة، والعرش بحذائها. ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ الملك اسم جنس؛ أي: الملائكة على أرجاء السماء، قال ابن عباس: على ما لم يه منها؛ أي: حافاتهما، وكذا قال سعيد بن جبير والأوزاعي، وقال الضحاك: أطرافها، وقال الحسن البصري: أبوابها، وقال الربيع بن أنس: على ما استدق من السماء ينظرون إلى أهل الأرض.

وقوله: ﴿وَيَجْلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾؛ أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة، ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب. وروى ابن أبي حاتم [١٨٩٦٧] عن عبد الله بن عمرو قال: حملة العرش ثمانية ما بين موق أحدهم إلى مؤخر عينه مسيرة مائة عام، وروى ابن أبي حاتم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ عَنْ مَلِكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ: بُعْدُ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعُنُقِهِ بِخَفَقِ الطَّيْرِ سَبْعُمِائَةِ عَامٍ)، وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات، وقد رواه أبو داود [٤٧٢٧] في كتاب السنة.

وعن سعيد بن جبير: قال: ثمانية صفوف من الملائكة: قال: ورؤي عن الشعبي، وعكرمة، والضحاك، وابن جريج مثل ذلك، وكذا روي عن ابن عباس: ثمانية صفوف، وعن ابن عباس: الكروبيون ثمانية أجزاء، كل جزء منهم بعدة الإنس والجن والشیاطين والملائكة.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾؛ أي: تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر، ولهذا قال: ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾، وروى ابن أبي الدنيا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [رواه ابن أبي شيبة/ ٣٤٤٥٩].

وقد روى ابن جرير [٥٩/٢٩] عن عبد الله قال: يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: عرضتان معاذير وخصومات، والعرضة الثالثة تطير الصحف في الأيدي.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْلِبُهُ يُعْمِنُ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَمْرُهُمْ كُتِبَ عَلَيْهِ ۖ إِنَّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۖ﴾.

يخبر تعالى عن سعادة من أوتي كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك، وأنه من شدة فرحه

يقول لكل من لقيه: ﴿هَؤُومُ أَقْرَؤُوا كِتَابِيَّةَ﴾؛ أي: خذوا اقرووا، كتابيه؛ لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة؛ لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات. قال عبد الرحمن بن زيد: معنى ﴿هَؤُومُ أَقْرَؤُوا كِتَابِيَّةَ﴾؛ أي: ها اقروا كتابيه، و«ووم» زائدة كذا قال، والظاهر أنها بمعنى: هاكم.

وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي عثمان قال: المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله، فيقرأ سيئاته، فكلما قرأ سيئة تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرأها فيرجع إليه لونه، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات، قال: فعند ذلك يقول: هَؤُومُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَّةَ.

وفي «الصحيح» عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يُذْنِي اللَّهُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَرِّره بِذُنُوبِهِ كُلِّهَا، حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ اللَّهُ: إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ بِيَمِينِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] (رواه البخاري بنحوه/٢٣٠٩).

وقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِيَّةَ﴾؛ أي: قد كنت موقناً في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]. قال الله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾؛ أي: مرضية، ﴿فِي جَنَّةٍ عَلَيْهِ﴾؛ أي: رقيقة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها.

وقد ثبت في «الصحيح»: (إِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) [رواه البخاري بنحوه/٦٩٨٧ ومسلم/١٨٨٤]، وقوله: ﴿فُطُوْفُهَا دَائِبَةٌ﴾ قال البراء بن عازب: أي: قريبة يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره، وكذا قال غير واحد.

وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِئَةِ﴾؛ أي: يقال لهم ذلك تفضلاً عليهم وامتناناً وإنعاماً وإحساناً، وإلا فقد ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (اعْمَلُوا وَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ) [مسلم بنحوه/٢٨١٦].

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَرَأْتُ كِتَابِيَّةَ ﴿٢٥﴾ وَلَرَأْتُ مَا حَسَابِيَّةَ ﴿٢٦﴾ يَلَيْتَنِي كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَّةَ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةَ ﴿٢٩﴾ خَذُوهُ فَعُوقُوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ لَجِّجِمِ صَلْوَهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِطُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله، فحينئذ يندم غاية الندم ﴿فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَرَأْتُ كِتَابِيَّةَ ﴿٢٥﴾ وَلَرَأْتُ مَا حَسَابِيَّةَ ﴿٢٦﴾ يَلَيْتَنِي كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ قال الضحاك: يعني: مودة لا حياة بعدها. وكذا قال محمد بن كعب والربيع والسدي، وقال قتادة: تمنى

الموت ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه. ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (٣٨) هَكَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ؛ أي: لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه، بل خَلَصَ الأمر إلي وحدي، فلا معين لي ولا مجبر، فعندها يقول الله ﷻ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ (٣٩) ثُمَّ لَجِّمِمْ صَلْوُهُ؛ أي: يأمر الزبانية أن تأخذه عنقًا من المحشر، فَغُلُّهُ؛ أي: تضع الأغلال في عنقه ثم تُورده إلى جهنم فتصليه إياها؛ أي: تغمره فيها، وعن المنهال بن عمرو قال: إذا قال الله تعالى: خذوه ابتدره سبعون ألف ملك، إن الملك منهم ليقول هكذا، فيلقي سبعين ألفًا في النار [الطبري ٢٧/٢٢٧]، وروى ابن أبي الدنيا في الأهوال: أنه يبتدره أربعمائة ألف، ولا يبقى شيء إلا دَقَّه، فيقول: ما لي ولك؟ فيقول: إن الرب عليك غضبان فكل شيء غضبان عليك، وقال الفضيل بن عياض: إذا قال الرب ﷻ: خذوه فغلوله ابتدره سبعون ألف ملك، أيهم يجعل الغل في عنقه. ﴿ثُمَّ لَجِّمِمْ صَلْوُهُ﴾؛ أي: اغمره فيها.

وقوله: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ قال كعب الأحبار: كل حلقة منها قدر حديد الدنيا، وعن ابن عباس: بذراع الملك. [وعنه]: ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ تدخل في استه ثم تخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى. [وعنه]: يسلك في دبره حتى يخرج من منخره حتى لا يقوم على رجله.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٣٣) وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ؛ أي: لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم، فإن الله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقبض النبي ﷺ وهو يقول: (الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) [جاء من حديث جماعة من الصحابة في «المسند»/٥٦٥٢٦ والنسائي/٧٠٩٥ وابن ماجه/١٦٢٥، والبيهقي/١٥٥٧٨].

وقوله: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ؛ أي: ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله، لا حميم وهو القريب، ولا شفيع يطاع، ولا طعام له هاهنا إلا من غسلين، قال قتادة: هو شر طعام أهل النار، وقال الربيع، والضحاك: هو شجرة في جهنم، وروى ابن أبي حاتم [١٨٩٧٦] عن ابن عباس قال: ما أدري ما الغسلين، ولكني أظنه الزقوم، وعن ابن عباس [أيضًا] قال: الغسلين: الدم والماء يسيل من لحومهم [ابن أبي حاتم/١٨٩٧٧].

﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُصِّرُونَ﴾ (٣٨) وَمَا لَا بُصْرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ (٤١) وَلَا يَقُولُ كَافٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ (٤٢) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣)﴾.

يقول تعالى مُقسماً لخلقهم بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم: إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله، الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُصِّرُونَ﴾ (٣٨) وَمَا لَا بُصْرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ؛ يعني: محمدًا ﷺ، أضافه إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل، ولهذا أضافه في سورة التكويد إلى الرسول الملكي

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ وهذا جبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾؛ يعني: محمداً ﷺ. ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيَمِينِ﴾؛ يعني: أن محمداً ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾؛ أي: بمتهم ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ فأضافه الله تارة إلى قول الرسول الملكي وتارة إلى الرسول البشري؛ لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه، ولهذا قال: ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بِبَعْضِ الْآفَاوِيلِ ﴿٤٢﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٤﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكُرٌ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْبَقِيَّةِ ﴿٤٩﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا﴾؛ أي: محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفترياً علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة. ولهذا قال: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ قيل: معناه لانتقمنا منه باليمين؛ لأنها أشد في البطش، وقيل: لأخذنا منه بيمينه. ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ قال ابن عباس: وهو نياط القلب، وهو العرق الذي القلب معلق فيه، وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، والحكم وقتادة [وغيرهم]، وقال محمد بن كعب: هو القلب ومراقفه وما يليه [ينظر: الطبري ٦٦/٢٩ - ٦٧].

وقوله: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾؛ أي: فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئاً من ذلك، والمعنى في هذا: بل هو صادق بار راشد؛ لأن الله ﷻ مقرر له ما يبلغه عنه، مؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكُرٌ لِلْمُنْفِقِينَ﴾؛ يعني: القرآن كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًّ﴾ [فصلت: ٤٤]، ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ﴾؛ أي: مع هذا البيان والوضوح، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قال ابن جرير [٦٨/٢٩]: وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة. وحكاه عن قتادة بمثله، وعن أبي مالك: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يقول: لندامة، ويحتمل عود الضمير على القرآن؛ أي: وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين، كما قال: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَجَرِّبِينَ ﴿٢٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْبَقِيَّةِ﴾؛ أي: الخبر الصادق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب، ثم قال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: الذي أنزل هذا القرآن العظيم.



## تفسير سورة المعارج

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾.

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فيه تضمين دل عليه حرف الباء كأنه مُقَدَّر: استعجل سائل بعذاب واقع، كقوله: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]؛ أي: وعذابه واقع لا محالة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ قال: النضر بن الحارث بن كلدة، وعنه [أيضًا] قال: ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع، وعن مجاهد قال: دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة، قال: وهو قوله: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاطْرِبْ عَلَيْنَا حِكْمَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقوله: ﴿وَاقِعٍ﴾ [١] لِلْكَافِرِينَ؛ أي: مُرصد مُعَدٌّ للكافرين، وقال ابن عباس: واقع: جاء ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾؛ أي: لا دافع له إذا أراد الله كونه، ولهذا قال: ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ عن ابن عباس قال: ذو الدرجات، وعنه [أيضًا]: يعني: العلو والفواضل، وقال مجاهد: معارج السماء، وقال قتادة: ذي الفواضل والنعم، وقوله: ﴿تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ عن قتادة: تعرج: تصعد، وأما الروح فقال أبو صالح: هم خلق من خلق الله، يشبهون الناس وليسوا ناسًا. قلت: ويحتمل أن يكون المراد به جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام، ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فإنها إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد [١٨٥٥٧]، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن البراء مرفوعًا الحديث بطوله في قبض الروح الطيبة قال فيه: (فَلَا يَزَالُ يُصْعَدُ بِهَا مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ) (وهو حسن)، وله شاهد في حديث أبي هريرة من رواية الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، وإسناد رجاله على شرط الجماعة، وقد بسطنا لفظه عند قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ اللَّهَ الذُّلُومُ أَمْنًا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فيه أربعة أقوال:

أحدها: أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين، وهو قرار الأرض السابعة، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة، هذا ارتفاع العرش عن المركز الذي في وسط



الأرض السابعة، وعن ابن عباس قال: منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات مقدار خمسين ألف سنة، ويوم كان مقداره ألف سنة؛ يعني بذلك: تَنَزَّلُ الأَمْرُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض مقدار مسيرة خمسمائة سنة.

القول الثاني: أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة، وعن مجاهد قال: الدنيا عمرها خمسون ألف سنة، وذلك عمرها يوم سماها الله ﷻ يوم، ﴿سَرُجٌ مِّن مَّالِكِكُمْ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ قال: اليوم الدنيا، وعن عكرمة قال: الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة لا يدري أحدكم مضى، ولا كم بقي إلا الله ﷻ.

القول الثالث: أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة، وهو قول غريب جداً، عن محمد بن كعب قال: هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة.

القول الرابع: أن المراد بذلك يوم القيامة، عن ابن عباس قال: يوم القيامة، وإسناده صحيح، وكذا قال الضحاك، وابن زيد، وقال ابن عباس: فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة.

وقد روى الإمام أحمد [٧٥٥٣] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ صَاحِبٍ كُنْزٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّهُ إِلَّا جُعِلَ صَفَاتُ يَحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَتُكْوَى بِهَا جَبْهَتُهُ وَجَنْبُهُ وَظَهْرُهُ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تُعَدُّونَ، ثُمَّ يُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ)، وذكر بقية الحديث في الغنم والإبل، وفيه: (الْخَيْلُ لثَلَاثَةِ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ) ورواه مسلم في «صحيحه» [٩٨٧] بتمامه، والغرض من إيراد هاهنا قوله: (حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)، وقد روى ابن جرير أن ابن عباس [سئل] عن قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فقال: هما يومان ذكرهما الله، والله أعلم بهما وأكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم.

وقوله: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾؛ أي: اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾؛ أي: وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع؛ بمعنى: مستحيل الوقوع، ﴿وَرَنَاهُ قَرِيبًا﴾؛ أي: المؤمنون يعتقدون كونه قريباً، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله ﷻ، لكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِيلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ۝ يُبْصَرُونَ ۝ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِنَفْسِهِ ۝ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصْلَتِهِ الَّتِي تُؤْتِيهِ ۝ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۝ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْنَى ۝ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى ۝ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ۝ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ۝﴾.

يقول تعالى: العذاب واقع بالكافرين: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِيلِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد،

وعطاء، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي وغير واحد: أي كدردي الزيت، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾؛ أي: كالصوف المنفوش، قاله مجاهد، وقتادة، والسدي، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ [١٠] يُبَصِّرُونَهُمْ؛ أي: لا يسأل القريب قريبه عن حاله، وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره. قال ابن عباس: يعرف بعضهم بعضًا، ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ نَّهْمٌ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُ﴾ [عبس: ٣٧] وهذه الآية الكريمة كقوله: ﴿يَكَايَأُ الْإِنْسَانُ أُنْفُوسَ رَبِّكُمْ وَأَخَشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣].

**وقوله:** ﴿يَوْمَئِذٍ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِنَبِيٍّ﴾ [١١] وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ [١٢] وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ [١٣] وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ [١٤] كَلَّا؛ أي: لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال ولو بملء الأرض ذهبًا، أو من ولده الذي كان في الدنيا حُشاشة كبده، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به ولا يقبل منه. قال مجاهد، والسدي: ﴿فصيلته﴾ قبيلته وعشيرته، وقال عكرمة: فخذة الذي هو منهم، وقال مالك: فصيلته: أمه، وقوله: ﴿إِنَّمَا لَطْفٌ﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿نَزَاعَةٌ لِلنَّشْوَى﴾ قال ابن عباس ومجاهد: جلدة الرأس، وعن ابن عباس: ﴿نَزَاعَةٌ لِلنَّشْوَى﴾ الجلود والهام، وقال مجاهد: ما دون العظم من اللحم، وقال سعيد بن جبير: العصب، وقال أبو صالح: يعني: أطراف اليدين والرجلين، وقال أيضًا: نزاعة لحم الساقين، وقال الحسن البصري وثابت البناني: أي: مكارم وجهه، وقال الحسن أيضًا: تحرق كل شيء فيه ويبقى فؤاده يصيح، وقال قتادة: نزاعة لهامته ومكارم وجهه وحُلَقِه وأطرافه، وقال الضحاك: تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئًا، وقال ابن زيد: الشوى: الآراب العظام، فقوله نزاعة، قال: تقطع عظامهم ثم يجدد جلودهم وخلقهم [الطبري ٧٧/٢٩].

**وقوله:** ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [١٥]؛ أي: تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذَلِقَ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب، وذلك أنهم كما قال الله ﷻ: كانوا ممن أدبر وتولى؛ أي: كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾؛ أي: جمع المال بعضه على بعض فأوعاه؛ أي: أوكاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة، وقد ورد في الحديث: (لَا تُوعِي فَبُوعِي اللَّهُ عَلَيْكَ) [البخاري/١٣٦٧ ومسلم/١٠٢٩]، وكان عبد الله بن عُكَيْم لا يربط كيسًا ويقول: سمعت الله يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾، وقال الحسن البصري: يا ابن آدم سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا، وقال قتادة: كان جُمُوعًا قُمُوعًا للخبيث.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِيْ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِرُؤُوسِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ أَبْغَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ثم فسرهُ بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾؛ أي: إذا مسه الضر فرع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾؛ أي: إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله فيها، وروى الإمام أحمد [٧٩٩٧] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحُّ هَالِغٍ، وَجُبْنُ خَالِغٍ) ورواه أبو داود [برقم/ ٢٥١١ وسنده حسن].

ثم قال: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾؛ أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم، إلا من عصمه الله ووقفه، وهده إلى الخير ويسر له أسبابه، وهم المصلون ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ قيل: معناه يحافظون على أوقاتها وواجباتها، قاله ابن مسعود، ومسروق، وإبراهيم النخعي، وقيل: المراد بالدوام هاهنا السكون والخشوع، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿المؤمنون: ١، ٢﴾. قاله عتبة بن عامر، ومنه الماء الدائم؛ أي: الساكن الراكد، وقيل: المراد بذلك الذين إذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه، كما جاء في «الصحیح» عن عائشة ؓ عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ) [البخاري/ ٦٠٩٩ ومسلم/ ٧٨٣]، وفي لفظ: (مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ) [مسلم/ ٧٨٥]، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه، وفي لفظ أثبتته [مسلم/ ٧٤٦]، وقال قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ دَانِيَالَ ؑ نَعَتَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَقَالَ: يَصْلُونَ صَلَاةَ لَوْ صَلَّاهَا قَوْمُ نُوْحٍ مَا غَرَقُوا، أَوْ قَوْمُ عَادٍ مَا أُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الرِّيحُ الْعَقِيمُ، أَوْ ثَمُودٌ مَا أَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ، فَعَلَيْكُمْ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّهَا خُلِقَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ حَسَنًا.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ فِيْ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿٢٥﴾؛ أي: في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الذاريات [الآية: ١٩]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ﴾؛ أي: يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾؛ أي: خائفون وجلون ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾؛ أي: لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِرُؤُوسِهِمْ حَافِظُونَ﴾؛ أي: يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه ولهذا قال: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾؛ أي: من الإماء ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (٣٠) فَمَنْ أَبْغَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وقد تقدم تفسير هذا في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١)

[المؤمنون: ١] بما أغنى عن إعادته هاهنا، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رُغُونَ﴾؛ أي: إذا أوثمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدرُوا، وهذه صفات المؤمنين وضدها صفات المنافقين، كما ورد في الحديث الصحيح: (أَيُّهُ الْمُنَافِقُ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ)، وفي رواية: (إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) [سبق تخريجه قريباً، وهو متفق عليه]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾؛ أي: محافظون عليها لا يزيدون فيها، ولا ينقصون منها ولا يكتُمونها ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ أي: على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها، كما تقدم في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ سواء، ولهذا قال هناك: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [المؤمنون: ١٠، ١١]، وقال ههنا: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَّمُونَ﴾؛ أي: مكرمون بأنواع الملاذ والمسار.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيْطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقِيمَ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَبْخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾.

يقول تعالى منكرًا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له، ولما أرسله الله به من الهدى وما أیده الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذا كله فارون منه متفرقون عنه، شاردون يمينًا وشمالًا فِرْقًا فِرْقًا، وشيعًا شيعًا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ [المذثر: ٤٩ - ٥١]، وهذه مثلها فإنه قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ﴾؛ أي: فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ أي: مسرعين نافرين منك، كما قال الحسن البصري: مهطعين؛ أي: متطلقين، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ واحدها عِزَّةٌ؛ أي: متفرقين، وهو حال من مهطعين؛ أي: في حال تفرقهم واختلافهم كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء: فهم مخالفون للكتاب، مختلفون في الكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، وعن ابن عباس: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ قال قبلك ينظرون، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ قال: العزین العُصْب من الناس، عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به، وعن الحسن قال: متفرقين يأخذون يمينًا وشمالًا يقولون: ما قال هذا الرجل؟ [ينظر: الطبري ٨٦/٢٩]

وقال قتادة: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ عامدين ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾؛ أي: فِرْقًا حول النبي ﷺ لا يرغبون في كتاب الله ولا في نبیه ﷺ.

وقوله: ﴿أَيُّطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةً نَّعِيمٍ﴾ ٣٦ ﴿كَلَّا﴾؛ أي: أيطمع هؤلاء - والحالة هذه - من فرارهم عن رسول الله ﷺ ونفارهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم؟ كلا بل مأواهم جهنم، ثم قال تعالى مقرراً لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا كونه واستبعدوا وجوده، مستدلّاً عليهم بالبداة التي الإعادة أهون منها، وهم معترفون بها، فقال: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من المنى الضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

ثم قال: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾؛ أي: الذي خلق السموات والأرض، وجعل مشرقاً ومغرباً، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها، وتقدير الكلام: ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب، ولا بعث، ولا نشور، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة، ولهذا أتى بـ «لا» في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي، وهو مضمون الكلام وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة، وهو خلق السموات والأرض وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات وسائر صنوف الموجودات، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ يَخْلُقْهُنَّ يَفْتَدِرْ عَلَىٰ أَن يُخَيِّقَ الْمَوْتَ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال هاهنا: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ ٣٧ ﴿عَلَىٰ أَن تُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه، فإن قدرته صالحة لذلك، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ أي: بعاجزين، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ٣٨ ﴿عَلَىٰ أَن تُبَدِّلَ أَمْنَكُمْ وَتُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١].

واختار ابن جرير [٨٧/٢٩]: ﴿عَلَىٰ أَن تُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: أمة تطيعنا ولا تعصينا وجعلها، كقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه والله ﷻ أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ﴾؛ أي: يا محمد ﴿يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾؛ أي: دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾؛ أي: فسيعلمون غيب ذلك ويدوقون وباله، ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾؛ أي: يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب ينهضون سراعاً كأنهم إل نصب يوفضون، قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إلى علم يسعون، وقال أبو العالية ويحيى بن أبي كثير: إلى غاية يسعون إليها، وقد قرأ الجمهور: «نُصُب» بفتح النون وإسكان الصاد وهو مصدر بمعنى المنصبوب، وقرأ غيرهم: «نُصْب» بضم النون والصاد وهو الصنم؛ أي: كأنهم في إسراهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه، يوفضون يبتدرون أيهم يستلمه أول، وهذا مروي عن مجاهد، وقتادة، وابن زيد وغيرهم [الطبري ٨٨/٢٩].

وقوله تعالى: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ﴾؛ أي: خاضعة ﴿رَهَقَهُمْ ذُلٌّ﴾؛ أي: في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

## تفسير سورة نوح

وهي مكية

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣ يَعْرِ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ٤ إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٥﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نوح ﷺ أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنبأوا رفع عنهم، ولهذا قال: ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ؛ أي: بَيِّنُ النَّذَارَةِ، ظاهر الأمر واضح، ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾؛ أي: اتركوا محارمه ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فِيمَا أَمَرَكُم بِهِ وَأَنْهَاكُم عَنْهُ. ﴿يَعْرِ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾؛ أي: إذا فعلتم ما أَمَرَكُم بِهِ وَصَدَقْتُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُم، غفر الله لكم ذُنُوبَكُم، و«من» هاهنا قيل: إنها زائدة، ولكن زيادتها في الإثبات قليلة، ومنه قول بعض العرب: «قد كان من مطر»، وقيل: إنها بمعنى «عن»، تقديره: يصفح لكم عن ذُنُوبِكُم، واختاره ابن جرير [٩١/٢٩]، وقيل: إنها للتبعض؛ أي: يغفر لكم الذنوب العظام التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام. ﴿وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾؛ أي: يمد في أعماركم ويدراً عنكم العذاب الذي إن لم تتجنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم، وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزداد بها في العمر حقيقة، كما ورد به الحديث: (صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ) [رواه الطبراني في «الأوسط» برقم/ ٩٤٣ وهو صحيح بطرقه وشواهده]، وقوله: ﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٦ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ٧ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ٨ فِي إِذْنِهِمْ وَأَسْتَفْسَهُوا شِيَاهَهُمْ وَأَصْرُوا ٩ وَأَسْتَكْبَرُوا ١٠ اسْتَكْبَارًا ١١ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ١٢ ثُمَّ إِنِّي أَتَلَّتْهُمْ وَاسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ١٣ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١٤ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ١٥ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَجَنَّتْ لَكُمْ جَنَّتٌ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ١٦﴾.

➤ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ اللَّعْمَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِيَسْأَلُوكَ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، أنه اشتكى إلى ربه ﷻ ما لقي من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عامًا، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشd والسبيل الأقوم، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ أي: لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالًا لأمرك وابتغاءً لطاعتك ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾؛ أي: كلما دعوتهم ليقربوا من الحق فرأوا منه وحادوا عنه، ﴿وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لِيُفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ فَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: سددوا آذانهم لئلا يسمعون ما أدعوههم إليه، كما أخبر تعالى عن كفار قريش: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَىٰ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا لِأَنَّهُمْ﴾ عن ابن عباس: تنكروا له لئلا يعرفهم، وقال سعيد بن جبير، والسدي: غطوا رؤوسهم لئلا يسمعون ما يقول. ﴿وَأَصْرُوا﴾؛ أي: استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾؛ أي: واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾؛ أي: جهرًا بين الناس ﴿ثُمَّ إِنِّي أَتَلْتُ لَهُمْ﴾؛ أي: كلامًا ظاهرًا بصوت عال، ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾؛ أي: فيما بيني وبينهم، فنوع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾؛ أي: أرجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه، ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك، ولهذا قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾؛ أي: متواصلة الأمطار، وروي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه صعد المنبر ليستسقي فلم يزد على الاستغفار، وقراءة الآيات في الاستغفار، ومنها هذه الآية: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديع السماء التي يستنزل بها المطر [الطبري ٩٣/٢٩ ورواه البيهقي/٦٢١٦]، وقال ابن عباس وغيره: يتبع بعضه بعضًا.

**وقوله:** ﴿وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ رَّيِّنٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَجَعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾؛ أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرَّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين؛ أي: أعطاكم الأموال والأولاد وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها. هذا مقام الدعوة بالترغيب، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؛ أي: عظمة، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك. لا تعظمون الله حق عظمتة؛ أي: لا تخافون من بأسه ونقمتة، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ قيل: معناه من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة. قاله ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، ويحيى بن رافع، والسدي، وابن زيد [ينظر:

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾؛ أي: واحدة فوق واحدة وهل هذا ينلقى من جهة السمع فقط؟ أو هي من الأمور المدركة بالحس مما علم من التسيير والكسوفات، والمقصود أن الله ﷻ خلق سبع سموات طباقًا وجعل القمر فيهن نورًا وجعل الشمس سراجًا؛ أي: فاوت بينهما في الاستنارة فجعل كلاً منهما أنموذجًا على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيها، وقدر للقمر منازل وبروجًا، وفاوت نوره فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع في النقص حتى يستتر ليدل على مضي الشهور والأعوام، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ إِنَّ اللَّهَ ذَاكٌ لَا يَلْحَقُ بِفَصْلِ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ هذا اسم مصدر، والإتيان به هاهنا أحسن ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: إذا متم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾؛ أي: يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾؛ أي: بسطها ومهدا وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾؛ أي: خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها، وكل هذا مما ينبتهم به نوح ﷺ على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق جعل السماء بناء والأرض مهادًا، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحّد ولا يشرك به أحد؛ لأنّه لا نظير له ولا عدیل ولا ندّ، ولا صاحبة، ولا ولد، ولا وزير، ولا مشير بل هو والعلي الكبير.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّمَّ عَصَوِي وَأَتَّبِعُوا مَن لَّرَ بَزْدُهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١﴾ وَمَكْرُؤًا مَّكَرًا كِبَارًا ۝٢٢﴾ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝٢٤﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن نوح ﷺ إنه أنهى إليه وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومُتّع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام، ولهذا قال: ﴿وَأَتَّبِعُوا مَن لَّرَ بَزْدُهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾.

وقوله: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكَرًا كِبَارًا﴾ قال مجاهد: كبارًا؛ أي: عظيمًا، وقال ابن زيد: أي: كبيرًا، والعرب تقول: أمر عجيب وعُجَاب وعُجَاب. بمعنى واحد، والمعنى في قوله: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكَرًا كِبَارًا﴾؛ أي: بأتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى، كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبأ: ٣٣]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكَرًا كِبَارًا﴾ ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

روى البخاري [٤٦٣٦] عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب



بعد: أما وَد: فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع: فكانت لهذيل، وأما يغوث: فكانت لمراد ثم لبني عُطَيف بالجُرُف عند سبأ، وأما يعوق: فكانت لهمدان، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذي كَلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح ﷺ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبدت، وكذا روي عن عكرمة، والضحاك، وقتادة، وابن إسحاق نحو هذا.

وروى ابن أبي حاتم [١٨٩٩٧] عن أبي جعفر قال: كان وَدُّ رجلًا مسلمًا وكان محببًا في قومه، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جَزَعَهُمْ عليه، تشبه في صورة إنسان، ثم قال: إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله، فيكون في ناديكم فتذكرونه؟ قالوا: نعم، فصور لهم مثله، قال: ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه، فلما رأى ما بهم من ذكره قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل رجل منكم تمثالًا مثله فيكون له في بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم، قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالًا مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به، قال: وأدرك أبناءهم فجعلوا يرون ما يصنعون به، قال: وتناسلوا ودرس أمر ذكركم إياه، حتى اتخذها إلهًا يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم، فكان أول ما عبد من دون الله الصنم الذي سموه وَدًا.

وقوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾؛ يعني: الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقًا كثيرًا، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقد قال الخليل ﷺ في دعائه: ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۖ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، وقد استجاب الله له في قومه وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به.

﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ۖ﴾ (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴿٢٨﴾.

يقول تعالى: ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ﴾ أي: من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أُعْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا﴾؛ أي: نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾؛ أي: لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مُجِير ينقذهم من عذاب الله كقوله: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣]. ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾؛ أي: لا تترك على وجه الأرض منهم أحدًا وهذه من صيغ تأكيد النفي، قال الضحاك: ديارًا: واحدًا، وقال السدي: الديار الذي يسكن الدار، فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه، وقال:

﴿سَاوَىٰ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِفُ مِنْهُ الْمَاءُ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح عليه السلام وهم الذين أمره الله بحملهم معه.

وقوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾؛ أي: إنك إن أبقيت منهم أحدا أضلوا عبادك؛ أي: الذين تخلقهم بعدهم ﴿وَلَا يَلْدُوا إِلَّا فَاِجْرًا كَفَّارًا﴾؛ أي: فاجرًا في الأعمال كافر القلب، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، ثم قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾ قال الضحاك: يعني: مسجدي، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن.

وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة، وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بُرْءًا﴾ قال السدي: إلا هلاكًا، وقال مجاهد: إلا خسارًا؛ أي: في الدنيا والآخرة [الاقوال السابقة بأسانيدھا عند الطبري ٢٩/ ١٠٠ وما بعدها].



## تفسير سورة الجن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن تُشْرِكَ رَبَّنَا أَحَدًا ۖ ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۖ ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۖ ۝٤ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۖ ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۖ ۝٧﴾

يقول تعالى أمرًا رسوله ﷺ أن يخبر قومه: أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له، فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾؛ أي: إلى السداد والنجاح ﴿فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن تُشْرِكَ رَبَّنَا أَحَدًا﴾، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وقد قدمنا الأحاديث الواردة في ذلك بما أغنى عن إعادتها هاهنا.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال ابن عباس: أي: فعله وأمره وقدرته، وقال [أيضًا]: جد الله آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه، وروي عن مجاهد وعكرمة: جلال ربنا، وقال قتادة: تعالى جلاله وعظمته وأمره، وقال السدي: تعالى أمر ربنا، وعن أبي الدرداء ومجاهد أيضًا، وابن جريج: تعالى ذكره، وقال سعيد بن جبير: أي: تعالى ربنا [الطبري ٢٩/١٠٣ - ١٠٤].

وقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾؛ أي: تعالى عن اتخاذ صاحبة والأولاد؛ أي: قالت الجن: تنزه الرب جل جلاله حين أسلموا وآمنوا بالقرآن عن اتخاذ صاحبة والولد، ثم قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي: ﴿سَفِيهًا﴾؛ يعنون: إبليس، ﴿شَطَطًا﴾ قال أبو مالك: جورًا، وقال ابن زيد: ظلمًا كبيرًا، ويحتمل أن يكون المراد بقولهم: سفيها اسم جنس لكل من زعم أن الله صاحبة أو ولدًا، ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهًا﴾؛ أي: قبل إسلامه ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾؛ أي: باطلاً وزورًا، ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤون على الكذب على الله تعالى في نسبة صاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي: كنا نرى أن لنا

فضلاً على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها - كما كانت عادة العرب في جاهليتها - يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، زادوهم رهقاً؛ أي: خوفاً وذعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوداً بهم، كما قال قتادة: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي: إثماً وازدادت الجن عليهم جراءة، وقال إبراهيم [النخعي]: نحوه، وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضرب أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي، قال: فإذا عاذ بهم من دون الله رَهَقَتْهُمُ الجن الأذى عند ذلك.

وعن عكرمة قال: كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد، فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن، فيقول سيد القوم نعوذ بسيد أهل هذا الوادي، فقال الجن: نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم، فدنا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون، فذلك قول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، وقال أبو العالية والربيع، وزيد بن أسلم: ﴿رَهَقًا﴾؛ أي: خوفاً، وقال ابن عباس: أي: إثماً، وكذا قال قتادة وقال مجاهد: زاد الكفار طغياناً [ينظر: الطبري ١٠٩/٢٩].

وروى ابن أبي حاتم [١٩٠٠٢] عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي من المدينة في حاجة، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة، فأوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي جارك، فنادى مناد لا نراه يقول: يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشدد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة. وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ سنده حسن، ثم قال: ورؤي عن عبيد بن عمير، ومجاهد، وأبي العالية، والحسن، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي نحوه، وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل، وهو ولد الشاة، جنباً حتى يُرهب الإنسي ويخاف منه، ثم رده عليه لما استجار به ليضله ويهينه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾؛ أي: لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولا، قاله الكلبي، وابن جرير.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمِيعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحْدِّثْ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠).

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً وحفظت من سائر أربائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك، لثلا يسرقوا شيئاً من القرآن، فيلقوه على ألسنة

الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدُ الشَّمْسِ وَلَمْ نَلِدْ فِيهَا شَأْنًَا ۝٩ أَي: من يروم أن يسترق السمع يجد له شهابًا مرصداً له لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه اليوم ويهلكه.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝٩﴾ أَي: ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء، لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً، وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله ﷻ، وقد ورد في «الصحيح» [لمسلم/ ٧٧١]: (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) وقد كانت الكواكب يُرمى بها قبل ذلك، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان، كما في حديث ابن عباس [عن رجل من أصحاب النبي ﷺ]: بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ رمي بنجم فاستنار فقال: (مَا كُنتُمْ تَقُولُونَ فِي هَذَا) فقلنا: كنا نقول يولد عظيم، يموت عظيم فقال: (لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ إِذَا قَضَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ) وذكر تمام الحديث [رواه الطبري ٣٧/٢٣ وابن حبان/ ٦١٢٩]، وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاريها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حُفظت من أجله السماء، فأمن من آمن منهم، وتمرد في طغيانه من بقي، ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر، وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك، وظنوا أن ذلك لخراب العالم.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنِ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ۝١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَائِرَ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْصَ وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ وَالْوَلَوِ اسْتَقَمُّوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ۝١٦﴾ لَنَقْفِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن الجن: إنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ ۝١١﴾ أَي: غير ذلك ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝١٢﴾ أَي: طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة، قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: أَي: منا المؤمن ومن الكافر، وروى أحمد بن سليمان النجاد في «أماله» عن الأعمش قال: تروح إلينا جني، فقلت له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال: الأرز، قال: فأتيناها به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً. فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم فقلت فما الرافضة فيكم؟ قال: شرنا. عرضت إسناده على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي فقال: هذا إسناد صحيح إلى الأعمش.

وقوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾؛ أي: نعلم أن قدرة الله حاکمة علينا، وأنا لا نعجزه في الأرض، ولو أمعنا في الهرب، فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَىٰٓءَ آمَنَّا بِهِ﴾ يفتخرون بذلك، هو مفتخر لهم، وشرف رفيع وصفة حسنة، وقولهم: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قال ابن عباس، وقتادة وغيرهما: فلا يخاف أن ينقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]. ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾؛ أي: منا المسلم ومنا القاسط، وهو الجائر عن الحق الناكب عنه، بخلاف المقسط فإنه العادل ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾؛ أي: طلبوا لأنفسهم النجاة ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾؛ أي: وقودًا تُسعر بهم.

وقوله: ﴿وَالْوَلَّوْا اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذَقًا﴾ ١١٦ ﴿لَيَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾. اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين: أحدهما: وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذَقًا﴾؛ أي: كثيرًا، والمراد بذلك سعة الرزق، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بُرْكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لَيَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ أي: لنختبرهم، كما قال زيد بن أسلم: لنبتليهم، من يستمر على الهداية ممن يردد إلى الغواية.

قال ابن عباس: ﴿وَالْوَلَّوْا اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾؛ يعني: بالاستقامة: الطاعة، وقال مجاهد: الإسلام، وكذا قال سعيد بن جبیر، وسعيد بن المسيب، وعطاء، والسدي، ومحمد بن كعب القرظي، وقال قتادة: لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا، وقال مجاهد: طريقة الحق، وكذا قال الضحاک واستشهد على ذلك بالآيتين اللتين ذكرناهما، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا في قوله: ﴿لَيَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ أي: لنبتليهم به، وقال مقاتل: نزلت في كفار قريش حين مُنعوا المطر سبع سنين [ينظر: الطبري ١١٥/٢٩].

والقول الثاني: ﴿وَالْوَلَّوْا اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ الضلال ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذَقًا﴾؛ أي: لأوسعنا عليهم الرزق استدراجًا، كما قال: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وكقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ۝۵۰ شَارِعٍ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وهذا قول أبي مجلز لاحق بن حميد، فإنه قال في قوله: ﴿وَالْوَلَّوْا اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾؛ أي: طريقة الضلالة، وحكاه البغوي [٤٠٤/٤] عن الربيع بن أنس، وزيد بن أسلم والكلبي، وابن كيسان وله اتجاه، ويتأيد بقوله: لنفتنهم فيه، وقوله: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾؛ أي: عذابًا شاقًا شديدًا موجعًا مؤلمًا، قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وابن زيد: ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾؛ أي: مشقة لا راحة معها، وعن ابن عباس: جبل في جهنم، وعن سعيد بن جبیر: بئر فيها [الطبري ١١٦/٢٩].

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يَجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۖ ﴿٢٤﴾ .

يقول تعالى أمراً عباده أن يوحدوه في محال عبادته، ولا يُدعى معه أحد ولا يشرك به، كما قال قتادة في قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ قال: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده، وعن ابن عباس قال: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس.

وعن عكرمة: نزلت في المساجد كلها، وقال سعيد بن جبیر: نزلت في أعضاء السجود؛ أي: هي لله فلا تسجدوا بها لغيره، وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح من رواية ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ: عَلَى الْجَبْهَةِ - أَشَارَ بِيَدَيْهِ إِلَى أَنْفِهِ - وَالْيَدَيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ) [البخاري/ ٧٧٩ ومسلم/ ٤٩٠]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قال ابن عباس: لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص، لما سمعوه يتلو القرآن وذنوا منه، فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١] يستمعون القرآن. هذا قول، وهو مروي عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، وروى ابن جرير [١١٨/٢٩] عن ابن عباس قال: لما رآه يصلي وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، قال: عجبوا من طوعية أصحابه له قال: فقالوا لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ وهذا قول ثان، وهو مروي عن سعيد بن جبیر أيضاً، وقال الحسن: لما قام رسول الله ﷺ يقول: لا إله إلا الله ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تلبّد عليه جميعاً، وقال قتادة: تلبّدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويُمضيه ويظهره على من ناواه، وهذا قول ثالث، وهو مروي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر وقول ابن زيد، وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾؛ أي: قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾؛ أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾؛ أي: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي وعبد من عباد الله ليس إلي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله ﷻ، ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجيره من الله أحد؛ أي: لو عصيته، فإنه لا يقدر أحد على إنقاذه من عذابه، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ قال مجاهد، وقتادة، والسدي:

لا ملجأ، وقال قتادة أيضاً: أي: لا نصير ولا ملجأ وفي رواية: لا ولي ولا موئل.  
 وقوله: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً﴾ قال بعضهم هو مستثنى من قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، ﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾ ويحتمل أن يكون استثناء من قوله: ﴿لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾؛ أي: لا يجيرني منه ويخلصني إلا بإلاغي الرسالة التي أوجب أداها علي، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُولَ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله: ﴿وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾؛ أي: إنما أبلغكم رسالة الله، فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً؛ أي: لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَّاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾؛ أي: حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة، فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصراً وأقل عدداً، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى؛ أي: بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية وهم أقل عدداً من جنود الله ﷻ.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن أَرَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس: إنه لا علم له بوقت الساعة ولا يدري أقرب وقتها أم بعيد؟ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾؛ أي: مدة طويلة.

وقد كان ﷺ يسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها، ولما تبدى له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سأله أن قال: يا محمد فأخبرني عن الساعة؟ قال: (مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ) [رواه البخاري/٥٠]، ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال: يا محمد متى الساعة؟ قال: (وَيَحْكُ إِنَّهَا كَأَن تَغْثَىٰ، فَمَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟) قال: أما إنني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام ولكني أحب الله ورسوله قال: (فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث [البخاري/٣٤٨٥ نحوه ومسلم/٢٦٣٩].

وقوله: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن أَرَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ هذه كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهكذا قال هاهنا: إنه يعلم الغيب والشهادة، وأنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلعه تعالى عليه، ولهذا قال: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن أَرَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ وهذا يعم الرسول الملكي والبشري، ثم قال: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾؛ أي: يختصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله، ويساقون على ما معه من وحي الله، ولهذا قال: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾، وقد اختلف المفسرون في الضمير الذي في قوله: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ إلى من يعود؟ فقيل: إنه عائد على النبي ﷺ، وعن



سعيد بن جبير في قوله: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ قال: أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل، ﴿لِيَعْلَمَ﴾ محمد ﷺ ﴿أَن قَدْ أبلغُوا رَسَلَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾، وعن قتادة قال: ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عن الله، وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها، واختاره ابن جرير [١٢٣/٢٩]، وقيل غير ذلك كما روي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ قال: هي معقبات من الملائكة يحفظون النبي ﷺ من الشيطان حتى يتبين الذي أرسل به إليهم، وذلك حين يقول ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم، وقال مجاهد: ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم، وفي هذا نظر، وقال البغوي: قرأ يعقوب: ﴿لِيُعْلَمَ﴾ بالضم؛ أي: ليعلم الناس أن الرسل بُلِّغُوا، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله ﷻ، وهو قول حكاه ابن الجوزي في «زاد المسير» [٣٨٦/٨]، ويكون المعنى في ذلك أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما بُيِّنَ إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، ويكون ذلك كقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]، إلى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة، ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.



## تفسير سورة الزمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الزَّمَلُ ١﴾ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ٢ ﴿١﴾ نَصَفَهُ أَوْ انْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ٣ ﴿٢﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ٤ ﴿٣﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ٥ ﴿٤﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ٦ ﴿٥﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ٧ ﴿٦﴾ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ٨ ﴿٧﴾ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ٩ ﴿٨﴾ .

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل، وهو التغطي في الليل وينهض إلى القيام لربه ﷻ، كما قال تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، وكذلك كان ﷺ ممثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجباً عليه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وهاهنا بين له مقدار ما يقوم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الزَّمَلُ ١﴾ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ٢ ﴿١﴾ قال ابن عباس، والضحاك، والسدي ﴿يَا أَيُّهَا الزَّمَلُ﴾؛ يعني: يا أيها النائم، وقال قتادة: الزمل في ثيابه [ينظر: الطبري ١٢٤/٢٩]، وقال إبراهيم النخعي: نزلت وهو متزمل بقطيفة، وعن ابن عباس ﴿يَا أَيُّهَا الزَّمَلُ﴾ قال: يا محمد زملت القرآن، وقوله تعالى: ﴿نَصَفَهُ﴾ بدل من الليل، ﴿أَوْ انْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ٢﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ؛ أي: أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك.

وقوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾؛ أي: اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة رضي الله عنها: كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها [مسلم/٧٣٣]، وفي «صحيح البخاري» [٤٧٥٩] عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مداً، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم، وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: كان يقطع قراءته آية آية، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤ ﴿٤﴾ [الفاتحة: ١-٤] رواه أحمد [٢٦٦٢٥] وأبو داود [٤٠٠١] ورواه الحاكم/٢٩١٠ وصححه، وروى الإمام أحمد [٦٧٩٩] عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: (يُقَالُ لِقَارِي الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْقُ، وَرَتَّلْ كَمَا كُنْتَ تُرْتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا)، ورواه الترمذي [٢٩١٤]، وقال: حسن صحيح.

وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، كما جاء في الحديث: (لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِرْمَارًا مِنْ مَرَامِيرِ آلِ دَاوُدَ)؛ يعني: أبا موسى، فقال أبو موسى: لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي لحبّرت لك تحبيرًا [البخاري/٧٦١] نحوه ومسلم/٧٩٣.

وروى البخاري [٧٤٢] عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذا كهذا الشعر، لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المُفَصَّل، سورتين في ركعة، وقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ قال الحسن وقتادة: أي: العمل به، وقيل: ثقیل وقت نزوله من عظمته، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي فكدت تُرَض فخذني [رواه البخاري/٤٣١٦].

وفي أول «صحيح البخاري» [٣٠٤٣] عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: (أَحْيَانًا يَأْتِي فِي مِثْلِ صَلَافَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ، فَيَقْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتِمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأُعْجِبُ مَا يَقُولُ). قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد، فَيَقْصِمُ عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا، واختار ابن جرير أنه ثقیل من الوجهين معًا، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين.

وقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ قال ابن عباس: نشأ، قام بالحشية، وقال عمر وابن عباس، وابن الزبير: الليل كله ناشئة، وكذا قال مجاهد وغير واحد. يقال: نشأ: إذا قام من الليل، وفي رواية عن مجاهد: بعد العشاء، وكذا قال أبو مجلز، وقتادة، وسالم، وأبو حازم، ومحمد بن المنكدر، والغرض أن ناشئة الليل: هي ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة وهي الآنات، والمقصود: أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾؛ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش، ولهذا قال: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ قال ابن عباس، وعكرمة، وعطاء بن أبي مسلم: الفراغ والنوم، وقال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، وسفيان الثوري [وغيرهم]: فراغًا طويلًا، وقال قتادة: فراغًا وبغية ومثقلًا، وقال السدي: ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تطوعًا كثيرًا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ قال: لحوائجك، فأفرغ لديك الليل. قال: وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة، ثم إن الله تبارك وتعالى منَّ على العباد فخففها ووضعها، وقرأ: ﴿فَرَأَى إِلًا فَيَلَا﴾ إلى آخر الآية، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَبِضْفَةٍ﴾ - حتى بلغ - ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمّل: ٢٠] وقال: ﴿وَمَنْ أَلِيلٌ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وهذا الذي قاله كما قاله.

والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد [٢٤٣١٤] في «مسنده» عن سعد بن هشام أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة لبيع عقارًا له بها، ويجعله في الكراع والسلاح ثم يجاهد الروم حتى

يموت، فلقني رهطًا من قومه فحدثوه أن رهطًا من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال: (أَلَيْسَ لَكُمْ فِي أُسْوَةِ حَسَنَةٍ؟) فنهاهم عن ذلك فأشهدهم على رجعتها، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال: ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: ائت عائشة فاسألها ثم ارجع إلي فأخبرني بردها عليك. قال: فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها فقال: ما أنا بقاربها، إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئًا، فأبت فيها إلا مُضِيًّا، فأقسمتُ عليه، فجاء معي فدخلنا عليها فقالت: حكيم؟ وعرفته قال: نعم. قالت: من هذا الذي معك؟ قال: سعد بن هشام. قالت: من هشام؟ قال: ابن عامر. قالت: فترحمت عليه وقالت: نعم المرء كان عامر. قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: أأست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن. فهمت أن أقوم ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ. قالت: أأست تقرأ هذه السورة ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ﴾؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولًا حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهرًا، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعًا من بعد فريضة. فهمت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ فقلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ قالت: كنا نعد له سواكه وظهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثمانين ركعات ولا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه ويدعو ثم ينهض ولا يسلم ثم يصلي التاسعة فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعوه ثم يسلم تسليمًا يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم فتلك تسع يا بني، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة ولا قام ليلة حتى أصبح، ولا صام شهرًا كاملاً غير رمضان، فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها فقال: صدقت أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة، هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه وقد أخرجه مسلم في «صحيحه» [٧٤٦] بنحوه.

وروى ابن أبي حاتم [١٩٠١٤] عن ابن عباس قال: أول ما نزل أول المزمّل، كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة [وسنده جيد]. وقال قتادة: ﴿فُرِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قاموا حولًا أو حولين حتى انتفخت سؤقهم وأقدامهم، فأنزل الله تخفيفها بعد في آخر السورة.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿فُرِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٢﴾ يَصْفَهُ أَوْ انْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَبَّلَ الْفَرَّانَ رَبِّلَا﴾ فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلًا، فشق ذلك على المؤمنين ثم خفف الله عنهم ورحمهم، فأنزل بعد هذا: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُوٌّ وَعَاخِرُونَ يَصِرُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمَحُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْسَرُ مِنْهُ﴾ فوسع الله تعالى وله الحمد ولم يضيق، وقوله:

﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾؛ أي: أكثر من ذكره وانقطع إليه وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك، وما تحتاج إليه من أمور دنياك، كما قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧]؛ أي: إذا فرغت من مهامك فانصب في طاعته وعبادته لتكون فارغ البال. قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه، قال ابن عباس، ومجاهد، وأبو صالح، وعطية، والضحاك، والسدي: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾؛ أي: أخلص له العبادة. وقال الحسن: اجتهد وبتل إليه نفسك، وقال ابن جرير [٢٩/١٣٣]: يقال للعابد: متبتل.

وقوله: ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾؛ أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرد بالتوكل كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وآيات كثيرة في هذا المعنى فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله وتخصيصه بالتوكل عليه.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ ١٠ ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قِيلًا﴾ ١١ ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ ١٢ ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ١٣ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا﴾ ١٤ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ١٥ ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا﴾ ١٦ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ ١٧ ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ ١٨ .

يقول تعالى أمرًا رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجرًا جميلًا، وهو الذي لا عتاب معه، ثم قال له متوعدًا لكفار قومه ومتهددًا - وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء -: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ﴾؛ أي: دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم ﴿وَمَهَلْهُمْ قِيلًا﴾؛ أي: رويدًا كما قال: ﴿تَمُنُّهُمْ قِيلًا ثُمَّ نَضَّطُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا﴾ وهي القيود، قاله ابن عباس، ومحمد بن كعب، وقتادة، والسدي وغير واحد، ﴿وَجَحِيمًا﴾ وهي السعير المضطربة. ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قال ابن عباس: ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ١٣ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾؛ أي: ترتزل ﴿وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا﴾؛ أي: تصير ككتبان الرمل بعدما كانت حجارة صماء، ثم إنها تنسف نسفًا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير الأرض قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا؛ أي: واديًا، ولا أمتًا؛ أي: رابية، ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع، ثم قال مخاطبًا لكفار قريش، والمراد سائر الناس: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ﴾؛ أي: بأعمالكم ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ١٥ ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والثوري ﴿أَخَذًا وَبِيلًا﴾؛ أي: شديدًا؛ أي: فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى:

﴿فَأَعَذَّتْ لَكُمْ اللَّهُ تَكَاَلُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥]، وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتكم رسولكم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران، ويروى عن ابن عباس ومجاهد.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ يحتمل أن يكون يومًا معمولًا لتتقون، كما حكاه ابن جرير [١٣٧/٢٩] عن قراءة ابن مسعود: (فَكَيْفَ تَخَافُونَ أَيُّهَا النَّاسُ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا إِنْ كَفَرْتُمْ بِاللَّهِ وَلَمْ تُصَدِّقُوا بِهِ؟) ويحتمل أن يكون معمولًا لكفرتم، فعلى الأول: كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفرع العظيم إن كفرتم، وعلى الثاني كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه، وكلاهما معنى حسن، ولكن الأول أولى والله أعلم. ومعنى قوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾؛ أي: من شدة أهواله وزلازله، وذلك حين يقول الله لآدم: ابعث بعث النار فيقول: من كم؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة [البخاري/٣١٧٠ ومسلم/٢٢٢ بنحوه].

وقوله: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ قال الحسن وقتادة: أي: بسببه من شدته وهوله. وقوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾؛ أي: كان وعد هذا اليوم مفعولًا؛ أي: واقعًا لا محالة وكائنًا لا محيد عنه.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَءُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا نُفِذْهُمُ إِلَّا فِيكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: يتذكر بها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾؛ أي: ممن شاء الله تعالى هدايته كما قيده في السورة الأخرى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾؛ أي: تارة هكذا، وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل؛ لأنه يشق عليكم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾؛ أي: تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا ﴿عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ﴾؛ أي: الفرض الذي أوجهه عليكم ﴿فاقرءوا ما تيسر من القرآن﴾؛ أي: من غير تحديد بوقت؛ أي: ولكن قوموا من الليل ما تيسر. وعبر عن الصلاة بالقراءة كما قال في سورة سبحان: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾؛ أي: بقراءتك ﴿وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل، من مرضى

لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله، وهذه السورة كلها مكية ولم يكن القتال شرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة؛ لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾؛ أي: قوموا بما تيسر عليكم منه.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح، فقال: (ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أَذُنِهِ) [البخاري/١٠٩٣ ومسلم/٧٧٤].

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾؛ أي: أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة، وهذا يدل لمن قال إن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النُصُب والمُخْرَج لم تُبين إلا بالمدينة والله أعلم، وقد قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغير واحد من السلف: إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل، واختلفوا في المدة التي بينهما، وقد ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل: (خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ) قال: هل علي غيرها؟ قال: (لَا إِلَّا أَنْ تَطْوَعَ) [البخاري/٤٦ ومسلم/١١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ يعني: من الصدقات، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره، كما قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقوله: ﴿وَمَا تُقْبِلُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾؛ أي: جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا، وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي [٥١٦٣] عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (أَيُّكُمْ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالٍ وَارِثِهِ؟) قالوا: يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه. قال: (اعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله؟ قال: (إِنَّمَا مَالٌ أَحَدِكُمْ مَا قَدَّمَ وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا أَخَّرَ)، ورواه البخاري [٦٠٧٧]، ثم قال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها فإنه غفور رحيم لمن استغفره.



## تفسير سورة المذثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بَيِّنَاتٍ لِّلْمُذْتَبِرِينَ ۝١﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ۝٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَذِبَ ۝٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ وَلَا تَسْنَحْ ۝٦﴾ تَسْتَكْبِرُ ۝٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ فَإِذَا نَقَرَتْ فِي النَّفْرِ ۝٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٩﴾ غَيْرٌ يَسِيرٌ ۝١٠﴾ .

ثبت في «صحيح البخاري» [٤٦٣٨] عن جابر أنه كان يقول: أول شيء نزل من القرآن: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلْمُذْتَبِرِينَ﴾، وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] كما سيأتي ذلك هنالك.

وقوله: ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ﴾؛ أي: شمر عن ساق العزم وأنذر الناس، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بالأول النبوة. ﴿وَرَبِّكَ فَكَذِبَ﴾؛ أي: عظم. وقوله: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ عن ابن عباس أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال: لا تلبسها على معصية ولا على عذرة، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا تَوْبَ فَاجِرٍ لِّسِتِّ وَلَا مِنْ عَذْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

وعن ابن عباس في الآية قال: في كلام العرب: نَقِيَ الثَّيَابَ، وفي رواية: فطهر من الذنوب، وكذا قال إبراهيم والشعبي وعطاء، وقال مجاهد: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال: نفسك، ليس ثيابك، وفي رواية عنه: عملك فأصلح، وكذا قال أبو رزين، وقال في رواية أخرى: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾؛ أي: لست بكاهن ولا ساحر فأعرض عما قالوا. وقال قتادة: أي: طهرها من المعاصي، وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يَفْ بعهد الله إنه لَمُدْنَس الثَّيَابَ، وإذا وفى وأصلح: إنه لمطهر الثَّيَابَ، وقال عكرمة والضحاك: لا تلبسها على معصية، وعن ابن عباس: لا تك ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية، وقال محمد بن سيرين: أي: اغسلها بالماء، وقال ابن زيد: وكان المشركون لا يتطهرون فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه، وهذا القول اختاره ابن جرير، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب، فإن العرب تطلق الثَّيَابَ عليه، وقال سعيد بن جبير: وقلبك ونيتك فطهر، وقال محمد بن كعب القرظي والحسن البصري: وخلقك فحسن.

وقوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قال ابن عباس: الأصنام فاهجر، وكذا قال مجاهد، وعكرمة،



وقتادة، والزهري، وابن زيد: إنها الأوثان، وقال إبراهيم والضحاك: أي: اترك المعصية، وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]. وقال موسى لإخيه هرون: أَخْلَفَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ [الأعراف: ١٤٢]، وقوله: ﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْثِرُ﴾ قال ابن عباس: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها، وكذا قال مجاهد، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والسدي وغيرهم، وقال الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره، وكذا قال الربيع بن أنس واختاره ابن جرير [٢٩/ ١٤٩]، وعن مجاهد قال: لا تضعف أن تستكثر من الخير، قال: تمنن في كلام العرب تضعف، وقال ابن زيد: لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها تأخذ عليه عوضاً من الدنيا، فهذه أربعة أقوال والأظهر القول الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾؛ أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك ﴿رَبِّكَ﴾ قاله مجاهد. وقال إبراهيم النخعي: اصبر عطيتك لله ﴿رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ (٨) ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ﴾ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرٌ قال ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، والحسن، والسدي، وابن زيد [وغيرهم]: ﴿النَّاقُورُ﴾ الصور، قال مجاهد: وهو كهيئة القرن.

وقوله: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ﴾؛ أي: شديد ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرٌ﴾؛ أي: غير سهل عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [القمر: ٨]، وقد روينا عن زرارة بن أوفى قاضي البصرة: أنه صلى بهم الصبح، فقرأ هذه السورة فلما وصل إلى قوله: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ (٨) ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ﴾ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرٌ شهِق شهقة ثم خرّ ميتاً رحمه الله تعالى [رواه الترمذي/ ٤٤٥].

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَيْنَ شُهُودًا ۖ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ﴾ (١١) ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ﴾ (١٥) ﴿كَلَّا ۚ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينًا ۖ﴾ (١٦) ﴿سَاءَ هُفُهُ ۖ صَعُودًا ۖ﴾ (١٧) ﴿إِنَّهُ فَكَرَ فَقَدَرًا ۖ﴾ (١٨) ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرَ ۖ﴾ (١٩) ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرَ ۖ﴾ (٢٠) ﴿ثُمَّ نَظَرَ ۖ﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ﴾ (٢٢) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ ۖ وَاسْتَكْبَرَ ۖ﴾ (٢٣) ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ﴾ (٢٤) ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ﴾ (٢٥) ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۖ﴾ (٢٦) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۖ﴾ (٢٧) ﴿لَا بُقْيَ وَلَا نَذَرٌ ۖ﴾ (٢٨) ﴿لَوَاحٍ لِلْبَشَرِ ۖ﴾ (٢٩) ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۖ﴾ (٣٠).

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله، وبدلها كفرًا وقابلها بالجحود بآيات الله، والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر. وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾؛ أي: خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد، ثم رزقه الله تعالى: ﴿مَالًا مَمْدُودًا﴾؛ أي: واسعاً كثيراً، وجعل له ﴿بَيْنَ شُهُودًا﴾ قال مجاهد: لا يغيبون؛ أي: حضوراً عنده لا يسافرون بالتجارات بل مواليتهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم: وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتملأ بهم، وكانوا فيما ذكره السدي، وأبو مالك ثلاثة عشر، وقال ابن عباس، ومجاهد: كانوا عشرة. وهذا أبلغ في النعمة. ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ﴾

تَهْدًا؛ أي: مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك، ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِندًا؛ أي: معانداً، وهو الكفر على نعمه بعد العلم. قال الله: ﴿سَأُهِقُّهُ صَعُودًا﴾ وعن ابن عباس: صعودًا صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه، وقال السدي: صعودًا: صخرة ملساء في جهنم، يكلف أن يصعدھا، وقال مجاهد: مشقة من العذاب، وقال قتادة: عذابًا لا راحة فيه، واختاره ابن جرير [١٥٥/٢٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾؛ أي: إنما أَرهقناه صعودًا؛ أي: قربناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيمان؛ لأنه فكر وقدر؛ أي: تَرَوَّى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن، ففكر ماذا يختلق من المقال ﴿قَدَّرَ﴾؛ أي: تروى ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (١٦) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ دعاء عليه ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾؛ أي: أعاد النظرة والتروي ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾؛ أي: قبض بين عينيه وقطب ﴿وَبَسَّ﴾؛ أي: كلع وكره.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾؛ أي: صُرف عن الحق، ورجع القهقري مستكبرًا عن الانقياد للقرآن ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ يُؤْتِرُ﴾؛ أي: هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾؛ أي: ليس بكلام الله، وهذا المذكور في هذا السياق هو: الوليد بن المغيرة أحد رؤساء قريش لعنه الله، وكان من خبره في هذا ما روي عن ابن عباس [كما روى الطبري ١٥٦/٢٩] قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجبًا لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله. فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا: والله لئن صبا الوليد لتصبون قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: أأست أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أأقد تحدث به عشيرتي؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا بُنْيَ وَلَا نَذْرَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرُ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم، ثم فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا بُنْيَ وَلَا نَذْرَ﴾؛ أي: تأكل لحومهم وعروقهم وعصبيهم وجلودهم ثم تبدل غير ذلك، وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون، قاله ابن بريدة، وأبو سنان وغيرهم.

وقوله: ﴿لَوَاسُةٌ لِلْبَشَرِ﴾ قال مجاهد؛ أي: للجلد، وقال أبو رزين: تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل، وقال زيد بن أسلم: تلوح أجسادهم عليها، وقال قتادة: حراقة للجلد. وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان. وقوله: ﴿عَلَيْهَا سَعَةُ عَشْرَ﴾؛ أي: من مُقَدَّمِي الزبانية، عظيم خلقهم، غليظ خُلُقُهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِينَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَيزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَذْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَفْسَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَاحِدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾؛ أي: خُزَّانَهَا، ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ زبانية غلاظًا شدادًا، وذلك رد على مشركي قريش حين ذكروا عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾؛ أي: شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختبارًا منا للناس ﴿لِيَسْتَفِينَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ﴾؛ أي: يعلمون أن هذا الرسول حق، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله. ﴿ويزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾؛ أي: إلى إيمانهم؛ أي: بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ، ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: من المنافقين ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾؛ أي: يقولون: ما الحكمة في ذكر هذا ههنا؟ قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾؛ أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لثلاث يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط، وفي «الصحاحين» أن رسول الله ﷺ قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة: (فَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ) [البخاري/ ٣٦٧٤ ومسلم/ ١٦٢ نحوه].

وروى محمد بن نصر المروزي عن عدي بن أرطاة قال: سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَلَائِكَةً تَرَعُدُ فَرَائِصَهُمْ مِنْ خِيفَتِهِ، مَا مِنْهُمْ مَلَكٌ تَقَطَّرُ مِنْهُ دَمْعَةٌ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا وَقَعَتْ عَلَى مَلِكٍ يُصَلِّي، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً سُجُودًا مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً رُكُوعًا لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ نَظَرُوا إِلَى وَجْهِ اللَّهِ ﷻ قَالُوا: سُبْحَانَكَ مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ)، وإسناده لا بأس به [رواه البيهقي في «شعب الإيمان»/ ٩١٤، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»/ ٤٠/ ٦١].

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: ﴿وَمَا هِيَ﴾؛ أي: النار التي وصفت ﴿إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾، ثم قال: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَذْبَرَ﴾؛ أي: ولي ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَفْسَرَ﴾؛ أي:

أُشْرَقَ ﴿إِنَّمَا لِاحْدَى الْكُفْرِ﴾؛ أي: العظائم؛ يعني: النار، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك وغير واحد من السلف ﴿يَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ ﴿لَنْ شَأَ مِنْكُمْ أَنْ يَفْتَدَمَ أَوْ يَنْخَرَّ﴾؛ أي: لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدي للحق أو يتأخر عنها ويولي ويردها.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْإِيمَانِ﴾ ﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ﴾ ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ﴿قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمَصْلِيِّينَ﴾ ﴿وَلَمْ نَكُنْ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾ ﴿وَكُنَّا نَحْوُشُ مَعَ الْخَافِضِينَ﴾ ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةٌ﴾ ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْخَفِرَةِ﴾.

يقول تعالى مخبراً أن: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾؛ أي: معتقلة بعملها يوم القيامة قاله ابن عباس وغيره ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْإِيمَانِ﴾ فإنهم ﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ﴾ ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولئك في الدركات قائلين لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ﴿قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمَصْلِيِّينَ﴾ ﴿وَلَمْ نَكُنْ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾؛ أي: ما عبدنا الله ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا ﴿وَكُنَّا نَحْوُشُ مَعَ الْخَافِضِينَ﴾؛ أي: نتكلم فيما لا نعلم، وقال قتادة: كلما غوى غاوي غوينا معه ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾؛ يعني: الموت، كقوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال رسول الله ﷺ: (أَمَّا هُوَ - يَعْنِي: عُثْمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ - فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ) [رواه البخاري/١١٨٦]، قال الله تعالى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾؛ أي: من كان متصفاً بمثل هذه الصفات، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه؛ لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة، فإنه له النار لا محالة خالداً فيها، ثم قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾؛ أي: فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكروهم به معرضين، ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾؛ أي: كأنهم في نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه حُمُرٌ من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد، قاله أبو هريرة وابن عباس في رواية عنه وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن، أو رام، وهو رواية عن ابن عباس وهو قول الجمهور [ذكره البغوي في «تفسيره» ٤/٤١٩].

وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةٌ﴾؛ أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب كما أنزل الله على النبي ﷺ، قاله مجاهد وغيره، كقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وفي رواية عن قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل، فقوله: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾؛ أي: إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها، وتكذيبهم بوقوعها.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: حقاً إن القرآن تذكرة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ ﴿وَمَا

يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﷻ، كقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﷻ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقوله: ﴿هُوَ أَهْلُ النَّفْيِ وَاهْلُ الْغَفْرِ﴾؛ أي: هو أهل أن يُخاف منه، وهو أهل أن يَغفر ذنب من تاب إليه وأناب، قاله قتادة.



## تفسير سورة القيامة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۖ﴾ (١) ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتَّخَذَ عِظَامُهُ ۖ﴾ (٢) ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ ۖ﴾ (٣) ﴿بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَهُ أُمَامُهُ ۖ﴾ (٤) ﴿يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ﴾ (٥) ﴿إِذَا رَفَ الْبَصَرُ ۖ﴾ (٦) ﴿وَحُفَّتِ الْقَمَرُ ۖ﴾ (٧) ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۖ﴾ (٨) ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُ ۖ﴾ (٩) ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۖ﴾ (١٠) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۖ﴾ (١١) ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۖ﴾ (١٢) ﴿بَلَىٰ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ﴾ (١٣) ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ ۖ﴾ (١٤) ﴿ ۝﴾ (١٥)

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه إذا كان منتفياً جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي، والمقسم عليه هاهنا هو إثبات المعاد والرد على ما يزعمه الجهالة من عدم بعث الأجساد، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ قال الحسن: أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة، وقال قتادة: بل أقسم بهما جميعاً، وقد حكى ابن جرير [٢٩/١٧٢] عن الحسن والأعرج أنهما قرءا: (لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ) وهذا يوجه قول الحسن؛ لأنه أثبت القسم بيوم القيامة ونفى القسم بالنفس اللوامة، والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً كما قاله قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو المروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبیر، واختاره ابن جرير [٢٩/١٧٣]. فأما يوم القيامة فمعروف، وأما النفس اللوامة فقال الحسن البصري في هذه الآية: إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه. ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قُدماً ما يعاتب نفسه، وروي عن الحسن [أيضاً] أنه قال: ليس أحد من أهل السموات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة، وعن عكرمة قال: يلوم على الخير والشر لو فعلت كذا وكذا، وروى ابن جرير عن سعيد بن جبیر قال: تلوم على الخير والشر، ثم رواه من وجه آخر عن سعيد أنه سأل ابن عباس عن ذلك فقال: هي النفس اللوامة، وقال مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه، وقال ابن عباس: (اللوامة) المذمومة، وقال قتادة: ﴿النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ الفاجرة، والأشبه بظاهر التنزيل أنها تلوم صاحبها على الخير والشر وتندم على ما فات.

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتَّخَذَ عِظَامُهُ ۖ﴾ أي: يوم القيامة أيعظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟ ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ قال ابن عباس: أن نجعله خفّاً أو حافراً، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقاتة، والضحاك، وابن جرير [٢٩/١٧٥]، ووجه ابن جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا، والظاهر من الآية أن قوله: ﴿قَدَرِينَ﴾

حال من قوله: ﴿تَجَمَّعَ﴾؛ أي: أیظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بل سنجمعها قادرين على أن نسوي بنانه؛ أي: قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا بعثناه أزيد مما كان فنجعل بنانه وهي أطراف أصابعه مستوية، وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرُ أَمَامَهُ﴾ قال ابن عباس: يعني: يمضي قدماً، وقال ابن عباس [أيضاً]: ﴿لِيَفْجَرُ أَمَامَهُ﴾؛ يعني: الأمل، يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة، ويقال: هو الكفر بالحق بين يدي القيامة. وقال مجاهد: ليمضي أمامه ركباً رأسه، وقال الحسن: لا يُلْقَى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدُمًا قُدُمًا إلا من عصمه الله. وروى عن عكرمة، وسعيد بن جبیر، والضحاك، والسدي وغير واحد من السلف: هو الذي يعجل الذنوب ويسوف التوبة، وقال ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب، وكذا قال ابن زيد وهذا هو الأظهر من المراد، ولهذا قال بعده: ﴿سَتَلَأَبَنُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي: يقول: متى يكون يوم القيامة؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَفْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْنُونَ﴾ [سبا: ٢٩، ٣٠].

وقال تعالى ههنا: ﴿إِذَا بَرِقَ الْبَصُرُ﴾ قرأ أبو عمرو بن العلاء: ﴿بَرْقَ﴾ بكسر الراء؛ أي: حار، وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿لَا يَزِيدُ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا لا يستقر لهم بصر على شيء من شدة الرعب، وقرأ آخرون: (برق) بالفتح وهو قريب في المعنى من الأول، والمقصود أن الأبصار تبهر يوم القيامة وتخضع وتحار وتذل من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور، وقوله: ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾؛ أي: ذهب ضوؤه، ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ قال مجاهد: كُوراً، وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢]، وقوله: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾؛ أي: إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حينئذ يريد أن يفر ويقول: أين المفر؟ أي: هل من ملجأ أو موئل؟ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ﴿١١﴾ إِنْ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبیر وغير واحد من السلف: أي: لا نجاة، وهذه كقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧]؛ أي: ليس لكم مكان تتنكرون فيه، وكذا قال هاهنا: ﴿لَا وَزَرَ﴾؛ أي: ليس لكم مكان تعتصمون فيه، ولهذا قال: ﴿إِنْ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾؛ أي: المرجع والمصير.

ثم قال تعالى: ﴿يَبْئُتُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا فَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾؛ أي: يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ مُدَافِعًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وهكذا قال ههنا: ﴿بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ﴾؛ أي: هو شهيد على نفسه عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، وكما قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وقال ابن عباس يقول: سمعته وبصره ويداه ورجلاه وجوارحه، وقال قتادة: شاهد على نفسه، وفي رواية قال: إذا شئت - والله - رأيته بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم غافلاً عن ذنوبه، وكان يقال: إن في الإنجيل مكتوباً: يا ابن آدم تبصر القذاة في عين أخيك، وترتك الجذع في عينك لا تبصره! [الطبري ١٨٥/٢٩].

وقال مجاهد: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَاذِرَهُ﴾ ولو جادل عنها فهو بصير عليها، وقال قتادة: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَاذِرَهُ﴾ ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه، وقال السدي: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَاذِرَهُ﴾ حجته، وكذا قال ابن زيد، والحسن البصري وغيرهم واختاره ابن جرير، وقال ابن عباس: لو ألقى ثيابه، وقال الضحاك: ولو أرخى ستوره، وأهل اليمن يسمون الستر المعذار، والصحيح قول مجاهد وأصحابه، كقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وعن ابن عباس: هي الاعتذار، ألم تسمع أنه قال: ﴿لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]، وقال: ﴿وَأَلْفُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ [النحل: ٨٧].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَفِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥).

هذا تعليم من الله ﷻ لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله ﷻ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه عليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته والثالثة تفسيره وإيضاح معناه، ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن، كما قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ثم قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾؛ أي: في صدرك ﴿وَقُرْآنَهُ﴾؛ أي: أن تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾؛ أي: إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى: ﴿فَالْتَفِعْ قُرْآنَهُ﴾؛ أي: فاستمع له، ثم أقرأه كما أقرأك ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾؛ أي: بعد حفظه وتلاوته يبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا، وروى الإمام أحمد [٣١٩١] عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه قال ابن عباس: أنا أحرك شفتي كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) قال: جمعه في صدرك ثم تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَفِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) أي: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه، وقد رواه البخاري [٥]، وهكذا قال الشعبي، والحسن البصري، وفتادة، ومجاهد، والضحاك وغير واحد: إن هذه الآية نزلت في ذلك، وروي عن ابن عباس قال: كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه، فقال الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ أَنْ نجمعه لك ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أن نقرئك فلا تنسى، وقال ابن عباس وعطية العوفي ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾: تبين حاله وحرامه وكذا قال قتادة، وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١)﴾؛ أي: إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله ﷻ على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم، أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة، ثم قال: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ من النصارة؛ أي: حسنة بهيئة مشرقة



مسرورة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ أي: تراه عياناً، كما رواه البخاري رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيحه» [٦٩٩٨]: (إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عَيَانًا)، وقد ثبت رؤية المؤمنين لله ﷻ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها، لحديث أبي سعيد، وأبي هريرة في «الصحيحين»: أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: (هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْسَ دُونَهُمَا سَحَابٌ؟) قَالُوا: لَا، قَالَ: (فَإِنَّكُمْ تَرُونَ رَبَّكُمْ كَذَلِكَ) [البخاري/٧٠٠١ بنحوه ومسلم/١٨٣]، وفي «الصحيحين» عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: (إِنَّكُمْ تَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا) [البخاري/٤٥٧٠ ومسلم/٦٣٣]، وفي أفراد مسلم [١٨١] عن صهيب عن النبي ﷺ قال: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ) قَالَ: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا! أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ! قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ)، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وفي أفراد مسلم عن جابر في حديثه: (إِنَّ اللَّهَ يَنْجَلِي لِلْمُؤْمِنِينَ يَضْحَكُ)؛ يعني: في عرصات القيامة ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم ﷻ في العرصات وفي روضات الجنات، ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث من «الصحاح» و«الحسان» و«المسانيد» و«السُّنن»، ولكن ذكرنا ذلك مفرقاً في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق، وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهذه الأنام.

ومن تأول ذلك بأن المراد بـ «إلى» مفرد الآلاء، وهي النعم كما قال مجاهد: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنتظر الثواب من ربها، رواه ابن جرير [١٩٢/٢٩] من غير وجه عن مجاهد، وكذا قال أبو صالح أيضاً فقد أبعد هذا القائل النجعة وأبطل فيما ذهب إليه، وأين هو من قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: ما حجب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه ﷻ، ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ روى ابن جرير [١٩٢/٢٩] عن الحسن: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال: حسنة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق.

وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ ﴿٢٦﴾ تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا قَافِرَةٌ ﴿٢٧﴾ هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة، قال قتادة: كالحة، وقال السدي: تغير ألوانها، وقال ابن زيد: عابسة. ﴿تَنْظُرُ﴾؛ أي: تستيقن ﴿أَنْ يَفْعَلَ بِهَا قَافِرَةٌ﴾ قال مجاهد: داهية، وقال قتادة: شر، وقال السدي: تستيقن أنها هالكة، وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار، وهذا المقام كقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ ﴿٢٨﴾ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٢٩﴾ وَوُجُوهٌ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٣٠﴾ تَرَهَقُهَا قَرَةٌ ﴿٣١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٣٢﴾ [عبس: ٣٨ - ٤٢]، في أشباه ذلك من الآيات والسياقات.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَافِيَ ۖ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۖ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۖ (٢٨) وَالْتَفَتِ أَلَسَاقُ بِالْسَاقِ ۖ (٢٩) إِلَىٰ رِيكٍ يَوْمِيذٍ الْمَسَاكِ ۖ (٣٠) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۖ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ۖ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۖ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۖ (٣٥) ائْخَسَبَ الْإِنْسَانُ أَن يُبْرَكَ سُدًى ۖ (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَعًا مِّن مَّيِّ يُمْنَىٰ ۖ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ (٣٨) جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۖ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ ۚ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۖ (٤٠)﴾ .

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال ثبتنا الله هنالك بالقول الثابت فقال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَافِيَ﴾، إن جعلنا كلا رادعة فمعناها: لست يا ابن آدم هناك تُكذَّب بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عياناً، وإن جعلناها بمعنى «حقاً» فظاهر؛ أي: حقاً إذا بلغت التراقي؛ أي: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي جمع ترقوة وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ قال ابن عباس: أي: من راق يرقى؟ وقال أبو قلابة: أي: من طبيب شاف، وكذا قال قتادة، والضحاك وابن زيد، وعن ابن عباس: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ قيل: من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة.

وقال ابن عباس: ﴿وَالْتَفَتِ أَلَسَاقُ بِالْسَاقِ﴾ يقول: آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحم الله، وقال عكرمة: الأمر العظيم بالأمر العظيم، وقال مجاهد: بلاء بلاء، وقال الحسن البصري: هما ساقاك إذا التفتا، وفي رواية عنه: ماتت رجلاه فلم تحمله، وقد كان عليهما جَوَّالاً، وكذا قال أبو مالك، وفي رواية عن الحسن: هو لُفْهُمَا فِي الْكَفْنِ، وقال الضحاك: اجتمع عليه أمران: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه [الطبري ١٩٦/٢٩].

وقوله: ﴿إِلَىٰ رِيكٍ يَوْمِيذٍ الْمَسَاكِ﴾؛ أي: المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات، فيقول الله ﷻ: ردوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، كما ورد في حديث البراء الطويل [رواه أحمد/١٨٦٣٧ وهو حسن]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَفْهَرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ ۖ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَىٰ اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ ۚ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢].

وقوله: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ۖ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه، متولياً عن العمل بقلبه، فلا خير فيه باطنياً ولا ظاهراً، ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾؛ أي: جَذَلًا أَسْرًا بَطَرًا كسلاناً لا همة له ولا عمل، كما قال: ﴿وَإِذَا أَقْبَلُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١] وقال ابن عباس: يختال: وقال قتادة، وزيد بن أسلم: يتبختر. قال الله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۖ (٣٥) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد من الله تعالى للكافر به المتبختر في مشيه؛ أي: يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالفك وبارئك، كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد، كقوله: ﴿دُقْ إِيَّاكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الْكَرِيمُ ﴿الدخان: ٤٩﴾، وروى أبو عبد الرحمن النسائي [١١٦٣٨] بنحوه عن ابن عباس: ﴿أَوَّلَكَ لَكَ فَأَوَّلَكَ﴾ ثُمَّ أَوَّلَكَ لَكَ فَأَوَّلَكَ؟ قال: قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل ثم أنزله الله ﷻ [وسنده صحيح].

**وقوله:** ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ قال السدي: يعني: لا يبعث، وقال مجاهد، والشافعي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: لا يؤمر ولا ينهى، والظاهر أن الآية تعم الحالين؛ أي: ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث، بل هو مأمور منه في الدنيا، محشور إلى الله في الدار الآخرة، والمقصود هنا إثبات المعاد، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد، ولهذا قال تعالى مستدلاً على الإعادة بالبداة فقال: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نُطْفَةٌ مِنْ مَتْنٍ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين. يمني: يراق من الأصلاب في الأرحام. ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً خَلَقَ فَسَوَّى﴾؛ أي: فصار علقة، ثم مضغة، ثم شكلاً ونفخ فيه الروح، فصار خلقاً سوياً سليم الأعضاء، ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره، ولهذا قال: ﴿جَعَلْ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾، ثم قال: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْلَوْنُ﴾؛ أي: أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه؟ وتناول القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداية، وإما مساوية على القولين في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] والأول أشهر.

روى أبو داود [٨٨٤]، وابن أبي حاتم [١٩٠٧٣] عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْلَوْنُ﴾ قال: سبحانك، فبلى، فسأله عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ، ولم يسم هذا الصحابي ولا يضر ذلك [وسنده صحيح].

وروى ابن أبي حاتم [١٩٠٧٤] عن ابن عباس، أنه مر بهذه الآية: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْلَوْنُ﴾ قال: سبحانك فبلى.



## تفسير سورة الإنسان

وهي مكية

في «صحيح مسلم» [٨٧٩] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿آلَ ١﴾ تَزِيلُ السَّجْدَةِ وَ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ١ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ٢ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ٣ .

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه. ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ثم بين ذلك فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾؛ أي: أخلاط، والمشح والمشيح: الشيء المختلط بفضله في بعض، قال ابن عباس: يعني: ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتماعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، وهكذا قال عكرمة، ومجاهد، والحسن، والربيع بن أنس. وقوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾؛ أي: نختبره، ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾؛ أي: جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية.

وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾؛ أي: بيناه له وبصرناه به، كقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]؛ أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر، وهذا قول عكرمة، وعطية، وابن زيد، ومجاهد في المشهور عنه والجمهور، وقوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ منصوب على الحال من الهاء في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ تقديره فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم [٢٢٣] عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: (كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمَوْبِقُهَا أَوْ مُعْتِقُهَا).

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ ٤ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِن كَافٍ كَانَ مَزَاجُهَا كَافُورًا﴾ ٥ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ٦ ﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ ٧ ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ٨ ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا رُبْدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ ٩ ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾ ١٠ ﴿فَوَقَّعْنَاهُمُ اللَّهُ سَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعْنَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ ١١ ﴿وَجَزَّعْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ ١٢ .

يخبر تعالى عما أُرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير، وهو اللهب

والحريق في نار جهنم كما قال: ﴿إِذْ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (٧١) فِي الْمَعِيرِ ثَمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢]، ولما ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة مع ما يضاف إلى ذلك من اللذابة في الجنة. قال الحسن: برد الكافور في طيب الزنجبيل ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾؛ أي: هذا الذي مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفًا بلا مزج ويَرْوُونَ بها، ولهذا ضمن يشرب معنى يروى حتى عداه بالباء ونصب عينًا على التمييز، قال بعضهم: هذا الشراب في طيبه كالكافور، وقال بعضهم: هو من عين كافور، وقال بعضهم: يجوز أن يكون منصوبًا بـ «يشرب»، حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير، وقوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾؛ أي: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، من قصورهم ومجالسهم، والتفجير هو الإنباع، كما قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ [الكهف: ٣٣].

وقال مجاهد: يقودونها حيث شاؤوا، وكذا قال عكرمة، وقتادة، وقال الثوري: يصرفونها حيث شاؤوا، وقوله: ﴿يُؤْتُونَ بِالْذِّكْرِ وَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ سُوءٌ مُسْتَظِيرًا﴾؛ أي: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر. روى الإمام مالك [١٠١٤] عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِيعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ) رواه البخاري [٦٣٢٢]، ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شره مستطير؛ أي: منتشر عام على الناس إلا من رَحِمَ الله، قال ابن عباس: فاشيًا، وقال قتادة: استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض، وقال ابن جرير [٢٠٩/٢٩]: ومنه قولهم: استطار الصدع في الزجاج واستطال.

وقوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ قيل: على حب الله تعالى، وجعلوا الضمير عائداً إلى الله ﷻ لدلالة السياق عليه، والأظهر أن الضمير عائد على الطعام؛ أي: يطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد، ومقاتل واختاره ابن جرير [٢٠٩/٢٩]، كقوله تعالى: ﴿وَعَاقَى أَلْمَالِ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وروى البيهقي [٧٥٩٢] عن نافع قال: مرض ابن عمر فاشتبهى عنباً أول ما جاء العنب فأرسلت صفيه؛ يعني: امرأته، فاشتريت عنقوداً بدرهم فاتبع الرسول سائل، فلما دخل به قال السائل: السائل، فقال ابن عمر: أعطوه إياه فأعطوه إياه، فأرسلت بدرهم آخر فاشتريت عنقوداً فاتبع الرسول السائل، فلما دخل قال السائل: السائل فقال ابن عمر: أعطوه إياه فأعطوه إياه، فأرسلت صفيه إلى السائل فقالت: والله إن عدت لا تصيب منه خيراً أبداً، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشتريت به.

وفي «الصحيح»: (أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ، شَحِيحٌ، تَأْمُلُ الْغِنَى، وَتَخْشَى الْفَقْرَ) [البخاري/ ١٣٥٣ بنحوه]؛ أي: في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾. أما المسكين واليتيم فقد تقدم بيانهما وصفتهم، وأما الأسير فقال سعيد بن جبیر، والحسن، والضحاك: الأسير من أهل القبلة، وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذٍ مشركين، وهكذا قال سعيد بن جبیر وعطاء والحسن وقتادة.

وقال عكرمة: هم العبيد، واختاره ابن جرير [٢٩/٢١٠] لعموم الآية للمسلم والمشرک، قد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث، وحتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول: (الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) [رواه أحمد ٢٦٥٢٦، وابن ماجه ١٦٢٥ وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح على شرط الشيخين]، وقال مجاهد: هو المحبوس؛ أي: يطعمون الطعام لهؤلاء وهم يشتهونه ويحبونه، قائلين بلسان الحال: ﴿إِنَّا نَطْعُمُكَ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾؛ أي: رجاء ثواب الله ورضاه، ﴿لَا زَيْدٌ مِنْكَ جَزَاءٌ وَلَا شُكْرًا﴾؛ أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس.

قال مجاهد، وسعيد بن جبیر: أما والله ما قالوه بألستهم ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به. ليرغب في ذلك راغب. ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾؛ أي: إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطيرير. قال ابن عباس: عبوسًا: ضيقًا، قمطيريرًا: طويلاً، وقال [أيضًا]: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران، وقال مجاهد: ﴿عَبُوسًا﴾ العابس الشفتين، ﴿قَطَطِيرًا﴾ قال: تقبض الوجه بالبُسور، وقال سعيد بن جبیر، وقتادة: تعبس فيه الوجه من الهول، قمطيريرًا تقليص الجبين وما بين العينين من الهول، وقال ابن زيد: العبوس: الشر، والقمطيرير: الشديد، وأوضح العبارات، وأجلاها، وأحلاها، وأعلاها وأولاها قول ابن عباس ﷺ. قال ابن جرير [٢٩/٢١٢]: والقمطيرير هو الشديد.

قال الله تعالى: ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا﴾ وهذا من باب التجانس البليغ ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾؛ أي: آمنهم مما خافوا منه ﴿وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ﴾؛ أي: في وجوهم ﴿نَصْرَهُ وَسُرُورًا﴾؛ أي: في قلوبهم، قاله الحسن البصري وقتادة وأبو العالية، والربيع بن أنس، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَجِئُوا يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرًّا﴾ (٢٨) ضاحكة مُسْتَبْشِرَةً [عبس: ٣٨، ٣٩]، وذلك أن القلب إذا سر استنار الوجه، وقوله: ﴿وَجَزَّيْنَهُمَا بِمَا صَبَرُوا﴾؛ أي: بسبب صبرهم أعطاهم ويوآهم ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾؛ أي: منزلًا رحبًا وعيشًا رغيدًا ولباسًا حسنًا، وروى الحافظ ابن عساكر [٣٠٦/١٥] عن أبي سليمان الداراني قال: بما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا ثم أنشد يقول:

كَمْ قَنِيلٌ بِشَهْوَةٍ وَأَسِيرٌ أَفٍّ مِنْ مُشْتَهِي خِلَافِ الْجَمِيلِ  
شَهَوَاتُ الْإِنْسَانِ تُورِثُهُ الذُّلَّ لَ وَتُلْقِيهِ فِي الْبَلَاءِ الطَّوِيلِ

﴿مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (١٣) وَدَائِيَّةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ نُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴿١٤﴾ وَيَطَافُ عَلَيْهِمْ بِغَانِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا نَقِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَوْهُمْ حَبَّيْنَهُمْ ثَوْبًا مَنُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَتْ ثُمَّ رَأَتْ نِعِمًا وَمَلْكًَا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُورٌ أَسْوَدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا مُشْكُورًا ﴿٢٢﴾.

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل

العميم، فقال: ﴿مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْكَانِ﴾ والالتكاء: هو الاضطجاع أو التمرق أو التربع أو التمكن في الجلوس، والأرائك هي السرر تحت الحجال، وقوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَسًا وَلَا ذَهَبًا﴾؛ أي: ليس عندهم حر مزعج، ولا برد مؤلم، بل هي مزاج واحد دائم سرمدى.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾؛ أي: قريبة إليهم أغصانها، ﴿وَذُلَّتْ فُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾؛ أي: متى تعاطاه دنا القطف إليه وتدلى من أعلى غصنه، كأنه سامع طائع، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَحَتَّى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، قال مجاهد: ﴿وَذُلَّتْ فُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ إن قام ارتفعت معه بقدره، وإن قعد تدلت له حتى ينالها، وإن اضطجع تدلت له حتى ينالها، وقال قتادة: لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بُعد، وقال مجاهد: أرض الجنة من ورق، وترابها المسك، وأصول شجرها من ذهب وفضة، وأفنانها من اللؤلؤ الرطب والزبرجد والياقوت، والورق والثمر بين ذلك، فمن أكل منها قائمًا لم يؤذه، ومن أكل منها قاعدًا لم يؤذه، ومن أكل منها مضطجعًا لم يؤذه.

وقوله: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾؛ أي: يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام، وهي من فضة، وأكواب الشراب وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم. وقوله: ﴿قَوَارِيرًا﴾ (١٥) قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ فالأول منصوب بخبر كان؛ أي: كانت قوارير، والثاني منصوب على البدلية أو تمييز؛ لأنه بينه بقوله: ﴿قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصري وغير واحد: يباض الفضة في صفاء الزجاج، والقوارير لا تكون إلا من زجاج، فهذه الأكواب هي من فضة وهي مع هذا شفاقة يرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا، وعن ابن عباس: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيت في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة.

وقوله: ﴿قَدَرُهَا نَقِيرًا﴾؛ أي: على قدر ريهم، لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي مُعَدَّة لذلك، مقدرة حسب رِيٍّ صاحبها، هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، والشعبي، وابن زيد، وقاله ابن جرير وغير واحد، وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة، وعن ابن عباس [أيضًا]: ﴿قَدَرُهَا نَقِيرًا﴾ قدرت للكف، وهكذا قال الربيع بن أنس، وقال الضحاك: على قدر أكف الخدام، وهذا لا ينافي القول الأول فإنها مقدرة في القدر والري.

وقوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ رِزَاقُهَا زَجْجِيلًا﴾؛ أي: ويسقون؛ يعني: الأبرار أيضًا في هذه الأكواب ﴿كَأْسًا﴾؛ أي: خمرًا ﴿كَانَ رِزَاقُهَا زَجْجِيلًا﴾ فتارة يُمزَج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار، ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صِرْفًا، كما قال قتادة وغير واحد، وقد تقدم قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، وقال هاهنا: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا﴾؛ أي: الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسيلاً، وقال عكرمة: اسم عين في الجنة، وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها وجدة جريها، وقال قتادة: عين سلسة مستعذب ماؤها، وحكى ابن جرير [٢١٨/٢٩] عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها في الحلق، واختار هو أنها تُعَمَّ ذلك له، وهو كما قال.

وقوله: ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنُورًا﴾؛ أي: يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿مُخَلَّدُونَ﴾؛ أي: على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون

عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن، ومن فسرهم بأنهم مُخَرَّصُونَ في أذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك؛ لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير، وقوله: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلَوْا مَثُورًا﴾؛ أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحُسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لَوْلَوْا مَثُورًا، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المَثُور على المكان الحسن، قال عبد الله بن عمرو: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه [الطبري ٩٦/٢٥].

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾؛ أي: وإذا رأيت يا محمد ﷺ؛ أي: هنالك؛ يعني: في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور ﴿رَأَيْتَ نِعْمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ أي: مملكة لله هناك عظيمة وسلطانًا باهرًا، وثبت في «الصحيح» أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولًا إليها: إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها [ذكره البخاري/٦٢٠٢ ومسلم/١٨٦].

وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾؛ أي: لباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه سندس، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس، ﴿وَحُلُورٌ أَسْوَدٌ مِنْ فَضَّةٍ﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال: ﴿يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنْ أَسْوَدٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده: ﴿وَسَقَمُهُمْ رَمِيمٌ شَرَابًا طَهُورًا﴾؛ أي: طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة، كما روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هناك عينين، فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما فأذهب الله ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم، فأخبر ﷺ بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾؛ أي: يقال لهم ذلك تكريمًا لهم وإحسانًا إليهم كما قال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾؛ أي: جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ عَائِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾  
وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُحْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ  
هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا  
بَدَلْنَا أَمْتَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ  
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ  
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾.

يقول تعالى ممتنًا على رسوله ﷺ بما نزلَ عليه من القرآن العظيم تنزيلًا: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾



رَبِّكَ؟ أَي: كما أكرمتك بما أنزلت عليك، فاصبر على قضائه وقدره، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره، ﴿وَلَا تَطْعُ مِنْهُمْ كَيْفًا أَوْ كُفُورًا﴾؛ أَي: لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك، وتوكل على الله، فإن الله يعصمك من الناس، فالأثم هو الفاجر في أفعاله، والكفور هو الكافر قلبه. ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أَي: أول النهار وآخره ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾، كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّخْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

ثم قال تعالى منكراً على الكفار ومن أشبههم في حب الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْآعِلَاجَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَفِيلًا﴾؛ يعني: يوم القيامة، ثم قال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: يعني: خلقهم. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾؛ أَي: وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة، وبدلناهم فأعدناهم خلقاً جديداً، وهذا استدلال بالبداة على الرجعة، وقال ابن زيد، وابن حبر [٢٢٧/٢٩]: أَي: وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم، كقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾؛ يعني: هذه السورة تذكرة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾؛ أَي: طريقاً ومسلِكاً؛ أَي: من شاء اهتدى بالقرآن، ثم قال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾؛ أَي: لا يقدر أحد أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان ولا يجزّ لنفسه نفعاً، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أَي: عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ثم قال: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أَي: يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن يهده فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له.



## تفسير سورة المرسلات وهي مكية

روى البخاري [١٧٣٣] عن عبد الله بن مسعود قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ﴾، فإنه ليتلوها وإنني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ وثبت علينا حية، فقال النبي ﷺ: (اقْتُلُوهَا) فابتدرناها فذهبت فقال النبي ﷺ: (وُقِيَتْ شَرُّكُمْ كَمَا وُقِيَتْ شَرُّهَا)، وروى مالك [١٧٢] عن ابن عباس أن أم الفضل سمعته يقرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ غُرَفًا﴾ فقالت: يا بني أذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب، أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٧٢٩ ومسلم/٤٦٢].

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتُ غُرَفًا﴾ ① ﴿فَالْعَصْفَاتُ عَصْفًا﴾ ② ﴿وَالنَّشِيرَاتُ شَرًّا﴾ ③ ﴿فَالْفَرَقَاتُ فَرَقًا﴾ ④ ﴿فَالْمُلْقِيَتُ ذِكْرًا﴾ ⑤ ﴿عُذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ ⑥ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ﴾ ⑦ ﴿فَإِذَا التَّجُومُ طُمِسَتْ﴾ ⑧ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُجِّتْ﴾ ⑨ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِّتْ﴾ ⑩ ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَتْ﴾ ⑪ ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُحِلَّتْ﴾ ⑫ ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ ⑬ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ ⑭ ﴿وَبَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ⑮ .

روى ابن أبي حاتم [١٩٠٨٧] عن أبي هريرة: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ غُرَفًا﴾ قال: الملائكة، وروى عن مسروق وأبي الضحى، ومجاهد في إحدى الروايات والسدي والربيع بن أنس مثل ذلك، وروى عن أبي صالح أنه قال: هي الرسل، وفي رواية عنه: أنها الملائكة، وهكذا قال أبو صالح في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات إنها الملائكة، وقال ابن مسعود: الريح، وكذا قال في ﴿فَالْعَصْفَاتُ عَصْفًا﴾ ② ﴿وَالنَّشِيرَاتُ شَرًّا﴾ إنها الريح، وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وأبو صالح في رواية عنه [ينظر: الطبري ٢٩/٢٢٩]، وتوقف ابن جرير في ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ غُرَفًا﴾ هل هي الملائكة أرسلت بالعرف، أو كُعرف الفرس يتبع بعضهم بعضًا، أو: هي الرياح إذا هَبَّتْ شيئًا فشيئًا؟ وقطع بأن العاصفات عصفًا هي الرياح، كما قاله ابن مسعود ومن تابعه، ومن قال ذلك في العاصفات أيضًا علي بن أبي طالب والسدي، وتوقف في ﴿وَالنَّشِيرَاتُ شَرًّا﴾ هل هي الملائكة أو الريح؟ كما تقدم. وعن أبي صالح أن الناشرات نشرًا هي المطر، والأظهر أن المرسلات هي الرياح كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَفْعٍ﴾ [الحجر: ٢٢]، وهكذا العاصفات هي: الرياح، يقال: عصفت الريح إذا هَبَّتْ بتصويت، وكذا الناشرات هي: الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب ﷻ.

وقوله: ﴿فَالْفَرَقَتْ فَرَقًا﴾ ④ ﴿فَالْمَلَفَتِ ذِكْرًا﴾ ⑤ عُدْرًا أَوْ نُدْرًا؛ يعني: الملائكة. قاله ابن مسعود، وابن عباس، وقتادة، والسدي [وغيرهم] [كما ذكر الطبري ٢٩/٢٣٢]، ولا خلاف هاهنا فإنها تنزل بأمر الله على الرسل، تفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحيا فيه إعذار إلى الخلق، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره. وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام؛ أي: ما وعدتم به من قيام الساعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كل عامل بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر، إن هذا كله لواقع؛ أي: لكائن لا محالة. ثم قال: ﴿فَإِذَا التَّجُومُ طُمِسَتْ﴾؛ أي: ذهب ضوؤها، كقوله: ﴿وَإِذَا التَّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]. ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرجَتْ﴾؛ أي: انفطرت وانشقت، وتدلّت أرجاؤها ووهت أطرافها.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾؛ أي: ذهب بها، فلا يبقى لها عين ولا أثر، كقوله: ﴿وَسْتُلْوَنَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ الآية [طه: ١٠٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَفْنَتْ﴾ قال ابن عباس: جمعت، وقال ابن زيد: وهذه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال مجاهد: ﴿أَفْنَتْ﴾ أجلت. وقال إبراهيم: أوعدت [الطبري ٢٩/٢٣٣]، ثم قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمَ أَجَلَتْ﴾ ⑥ ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ ⑦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ⑧ ﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يقول تعالى: لأي يوم أجلت الرسل وأرجى أمرها حتى تقوم الساعة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ ④٧ ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، وهو يوم الفصل، كما قال: ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾. ثم قال معظما لشأنه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ ④٨ ﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: ويل لهم من عذاب الله غدا.

﴿أَلَمْ تَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ ④٩ ﴿ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ ⑤٠ ﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ⑤١ ﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ⑤٢ ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ ⑤٣ ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ ⑤٤ ﴿إِنْ قَدَرِ مَعْلُومٍ﴾ ⑤٥ ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ ⑤٦ ﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ⑤٧ ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ ⑤٨ ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ ⑤٩ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْاسٍ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً قُرَاتًا﴾ ⑥٠ ﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ⑥١.

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾؛ يعني: من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به، ﴿ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾؛ أي: ممن أشبهم، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ⑤١ ﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. قاله ابن جرير [٢٩/٢٣٥]، ثم قال ممتنا على خلقه ومحتجا على الإعادة بالبداة: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾؛ أي: ضعيف حقير بالنسبة إلى قُدرة الباري عز وجل. ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾؛ يعني: جمعناه في الرِّجْم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم معد لذلك حافظ لما أودع فيه من الماء. وقوله: ﴿إِنْ قَدَرِ مَعْلُومٍ﴾؛ يعني: إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر، ولهذا قال: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ ⑤٦ ﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ثم قال: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ ⑤٨ ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ قال ابن عباس: كفاتا: كفا، وقال مجاهد: يُكفَت الميت فلا يرى منه شيء، وقال الشعبي: بطنها لأمواتكم، وظهرها لأحيائكم، وكذا قال مجاهد، وقتادة. ﴿وَجَعَلْنَا

فِيهَا رُؤْسَى شَمَخَاتٍ؛ يعني: الجبال أرسى بها الأرض لثلاث تميد وتضطرب. ﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾؛ أي: عذبًا زلالًا من السحاب، أو مما أنبعه الله من عيون الأرض. ﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره.

﴿أُطْلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٩) ﴿أُطْلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (٣٠) ﴿لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهَبِ﴾ (٣١) ﴿إِنَّمَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ﴾ (٣٢) ﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ﴾ (٣٣) ﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٤) ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ﴾ (٣٦) ﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٧) ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨) ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ (٣٩) ﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٠).

يقول تعالى مخاطبًا للكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار، إنه يقال لهم يوم القيامة: ﴿أُطْلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٩) ﴿أُطْلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾؛ يعني: لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان، فمن شدته وقوته له ثلاث شعب، ﴿لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهَبِ﴾؛ أي: ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو في نفسه، ولا يغني من اللهب؛ أي: ولا يقيهم حر اللهب، وقوله: ﴿إِنَّمَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ﴾؛ أي: يتطاير الشرر من لهبها كالقصر، قال ابن مسعود: كالحصون، وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وزيد بن أسلم وغيرهم: يعني: أصول الشجر. ﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ﴾؛ أي: كالإبل السود، قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، والضحاك واختاره ابن جرير [٢٩/٢٤١]، وعن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر: يعني: حبال السفن، وعن ابن عباس: قطع نحاس، وروى البخاري [٤٦٤٩] عن ابن عباس قال: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك، فرفعه للبناء فنسميه القَصْرَ، ﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال ﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾؛ أي: لا يتكلمون ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ﴾؛ أي: لا يقدرّون على الكلام، ولا يؤذن لهم فيه ليعتدروا، بل قد قامت عليهم الحجة، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون، وعرضات القيامة، حالات، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة وعن هذه الحالة تارة، ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ، ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام. ﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨) ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ وهذه مخاطبة من الخالق تعالى لعباده يقول لهم: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾؛ يعني: أنه جمعهم بقدرته في صعيد واحد، يُسمِعهم الداعي وينفذهم البصر. وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد؛ أي: إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتنجوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧]، وفي الحديث: (يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي) [أخرجه

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾ (٤١) ﴿وَفَوَكَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٤٢) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤٤) ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٥) ﴿كُلُوا وَتَمَنَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٧) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٩) ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٠).

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات، وترك المحرمات: أنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون؛ أي: بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظلل اليعموم، وهو الدخان الأسود المنتن. ﴿وَفَوَكَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ أي: ومن سائر أنواع الثمار، مهما طلبوا وجدوا. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم، ثم قال تعالى مخبراً خبيراً مستأنفاً: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل، ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، وقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَنَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ خطاب للمكذبين بيوم الدين، وأمرهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَنَّعُوا قَلِيلًا﴾؛ أي: مدة قليلة قصيرة ﴿إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾؛ أي: ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾؛ أي: إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه، ولهذا قال: ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي كلام يؤمنون، كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الباقية: ٦].



## تفسير سورة النبأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْلَفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تُو كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِيَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: عن أي شيء يتساءلون؟ عن أمر القيامة، وهو النبأ العظيم؛ يعني: الخبر الهائل المفظع، قال قتادة، وابن زيد: النبأ العظيم البعث بعد الموت وقال مجاهد: هو القرآن [ينظر: الطبري ٢/٣٠]. والأظهر الأول لقوله: ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْلَفُونَ﴾؛ يعني: الناس فيه على قولين مؤمن به وكافر، ثم قال تعالى متوعداً لمنكري القيامة: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تُو كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهذا تهديد شديد ووعد أكيد. ثم شرع تبارك وتعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة، الدالة على قدرته على المعاد وغيره، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾؛ أي: ممهدة للخلائق ذللاً لهم، قارة ساكنة ثابتة، ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾؛ أي: جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها، ثم قال: ﴿وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا﴾؛ يعني: ذكراً وأنثى، يستمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك، كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾؛ أي: قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعاش في عرض النهار، وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة الفرقان [آية: ٤٧].

﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِيَاسًا﴾؛ أي: يغشى الناس ظلامه وسواده، كما قال: ﴿وَأَلِيلَ إِذَا يَفْسُهَا﴾ [الشمس: ٤]، وقال قتادة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِيَاسًا﴾؛ أي: سكتنا، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾؛ أي: جعلناه مشرقاً منيراً مضيئاً، ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات، وغير ذلك، وقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾؛ يعني: السموات السبع في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات،

ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾؛ يعني: الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهج ضوءها لأهل الأرض كلهم، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ عن ابن عباس: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ قال: الرياح، وكذا قال مجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم [وغيرهم]، ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب، وقال ابن عباس [أيضًا]: من المعصرات؛ أي: من السحاب، وكذا قال أبو العالية، والحسن، والثوري [وغيرهم]، واختاره ابن جرير [٥/٣٠]. وقال الفراء: هي السحاب التي تَحْلُبُ بالمطر ولم تُمطر بعد، كما يقال: امرأة معصر، إذا دنا حيضها ولم تحض، والأظهر أن المراد بالمعصرات: السحاب، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا يَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ حِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨]؛ أي: من بينه.

وقوله: ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس: منصبًا وقال الثوري: متتابعًا، وقال ابن زيد: كثيرًا [ينظر: الطبري ٦/٣٠].

وقوله: ﴿لَنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ [١٥] وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا؛ أي: لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿حَبًّا﴾ يدخر للإناسي والأنعام ﴿وَنَبَاتًا﴾؛ أي: خضرًا يؤكل رطبًا، ﴿وَجَعَلْنَا﴾؛ أي: بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة، وألوان مختلفة، وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعًا، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا﴾، قال ابن عباس وغيره: مجتمعة، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّدٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْصَبِ زَرْعٍ وَخَيْلٍ صُنُونًا وَعَيْرٍ صُنُونًا يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الرعد: ٤].

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [١٧] يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَفْوَاجًا [١٨] وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا [١٩] وَسُيِّرَتِ اللَّيَالِ فَكَانَتْ سَرَابًا [٢٠] إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا [٢١] لِلطَّاعِينَ مَنَابًا [٢٢] لِّبَئْسَ فِيهَا أَحْقَابًا [٢٣] لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا سَرَابًا [٢٤] إِلَّا حَيْمًا وَعَسَاقًا [٢٥] جَزَاءً وَفَاقًا [٢٦] إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا [٢٧] وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا [٢٨] وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا [٢٩] فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا [٣٠].

يقول تعالى مخبرًا عن يوم الفصل، وهو يوم القيامة: إنه مؤقت بأجل معدود، لا يزداد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله ﷻ، كما قال: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [هود: ١٠٤]. ﴿يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَفْوَاجًا﴾ قال مجاهد: زُمرًا. قال ابن جرير [٣٠/٨]: يعني: تأتي كل أمة مع رسولها، كقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْبِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]. روى البخاري [٤٦٥١] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ) قالوا: أربعون سنة؟ قال: [أبو هريرة]: (أَبَيْتُ). قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: (أَبَيْتُ). قالوا: أربعون قالوا: أربعون سنة؟ قال: (أَبَيْتُ). قال: (ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يُرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾؛ أي: طرقًا ومسالك لنزول الملائكة، ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، كقوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمُورُ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال هاهنا: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾؛ أي: يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء، وبعد هذا تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، كما قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا غِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٥ - ١٧].

وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾؛ أي: مرصدة مُعَدَّة، ﴿لِللَّاطِفِينَ﴾ وهم المردة العصاة المخالفون للرسول، ﴿مَتَابًا﴾؛ أي: مرجعًا ومصيرًا، وقال الحسن، وقتادة في قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾؛ يعني: أنه لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس، وقال سفيان الثوري: عليها ثلاث قناطر [الطبري ٩/٣٠].

وقوله: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾؛ أي: ماكثين فيها أحقابًا، وهي جمع حُقب، وهو المدة من الزمان، وقد اختلفوا في مقداره، فقال علي بن أبي طالب لهلال الهجري: ما تجدون الحُقب في كتاب الله المنزل؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهرًا، كل شهر ثلاثون يومًا، كل يوم ألف سنة، وهكذا روي عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وعمرو بن ميمون والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس والضحاك، وعن الحسن، والسدي أيضًا: سبعون سنة كذلك، وعن عبد الله بن عمرو: الحقب أربعون سنة كل يوم منها كآلف سنة مما تعدون.

وقال بُشَيْر بن كعب: ذُكر لي أن الحقب الواحد ثلاثمائة سنة، كل سنة اثنا عشر شهرًا، كل سنة ثلاثمائة وستون يومًا، كل يوم منها ألف سنة [انظر: هذه الأقوال عند الطبري ١١/٣٠].

وقال السدي: سبعمائة حُقب، كل حقب سبعون سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يومًا، كل يوم كآلف سنة مما تعدون، وقد قال مقاتل بن حَيَّان: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

وقال خالد بن مَعْدَان: هذه الآية وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] في أهل التوحيد. رواهما ابن جرير، ثم قال: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ متعلقًا بقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذابًا من شكل آخر ونوع آخر. ثم قال: والصحيح أنها لا انقضاء لها كما قال قتادة، والربيع بن أنس، وعن الحسن قال: أما الأحقاب فليس لها عِدَّة إلا الخلود في النار، ولكن ذكروا أن الحقب سبعون سنة كل يوم منها كآلف سنة مما تعدون، وقال قتادة: هو ما لا انقطاع له، وكلما مضى حقب جاء حقب بعده، وذكر لنا أن الحُقب ثمانون سنة، وقال الربيع بن أنس: لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله، ولكن الحقب الواحد ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يومًا، وكل يوم كآلف سنة مما تعدون.

وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾؛ أي: لا يجدون في جهنم بردًا لقلوبهم، ولا شرابًا طيبًا يتغذون به، ولهذا قال: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ قال أبو العالية: استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق، وكذا قال الربيع بن أنس، فأما الحميم الذي قد انتهى حره،



وَالْعَسَاقُ: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطيع من برده، ولا يواجه من نتنه. أجازنا الله من ذلك بمنه وكرمه. قال ابن جرير [١٢/٣٠]: وقيل: المراد بقوله: لا يذوقون فيها بردًا؛ يعني: النوم.

وقد رواه ابن أبي حاتم عن مرة الطيب، ونقله عن مجاهد أيضًا، وحكاه البغوي [٤٣٨/٤] عن أبي عبيدة، والكسائي أيضًا. وقوله: ﴿جَزَاءٌ وَفَاقًا﴾؛ أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا، قاله مجاهد، وقتادة وغير واحد، ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾؛ أي: لم يكونوا يعتقدون أن ثم دارًا يجازون فيها ويحاسبون، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾؛ أي: وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله، فيقابلونها بالكذب والمعاندة، وقوله: ﴿كِذَابًا﴾؛ أي: تكذيبًا، وهو مصدر من غير الفعل.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾؛ أي: وقد علمنا أعمال العباد كلهم، وكتبناها عليهم، وسنجزئهم على ذلك إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وقوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾؛ أي: يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذابًا من جنسه، ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا﴾ [ص: ٥٨]. عن عبد الله بن عمرو قال: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قال: فهم في مزيد من العذاب أبدًا.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٦١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٦٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٦٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٦٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٦٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٦٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال ابن عباس والضحاك: متنزهًا، وقال مجاهد، وقتادة: فازوا فنجوا من النار، والأظهر هاهنا قول ابن عباس؛ لأنه قال بعده: ﴿حَدَائِقَ﴾ وهي البساتين من النخيل وغيرها، ﴿وَأَعْنَابًا ﴿٦٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾؛ أي: وحوارًا كواعب، قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: ﴿وَكوَاعِبَ﴾؛ أي: نواهد؛ يعنون: أن ثديهن نواهد لم يتدلين؛ لأنهن أبكار عُرب أتراب؛ أي: في سن واحد كما تقدم بيانه في سورة الواقعة.

وقوله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قال ابن عباس: مملوءة ومتتابعة، وقال عكرمة: صافية. وقال مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد: ﴿دِهَاقًا﴾ الملاء المترعة، وقال مجاهد، وسعيد بن جبیر: هي المتتابعة.

وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾، كقوله: ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيرُ﴾ [الطور: ٢٣]؛ أي: ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل ما فيها سالم من النقص، وقوله: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾؛ أي: هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهم به بفضله ورحمته، ﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾؛ أي: كافيًا وافرًا، تقول العرب: «أعطاني فأحسبني»؛ أي: كفاني ومنه «حسبي الله»؛ أي: الله كافي.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٢٧) ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٢٨) ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا﴾ (٢٩) ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (٣٠).

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء، وقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾؛ أي: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥]. وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾؛ اختلف المفسرون في المراد بالروح هاهنا ما هو؟ على أقوال: أحدها: عن ابن عباس أنهم أرواح بني آدم. الثاني: هم بنو آدم قاله الحسن وقتادة، وقال قتادة: هذا مما كان ابن عباس يكتمه. الثالث: أنهم خلق من خلق الله على صور بني آدم وليسوا بملائكة ولا بشر، وهم يأكلون ويشربون، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو صالح، والأعمش. الرابع: هو جبريل. قاله الشعبي، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، ويستشهد لهذا القول بقوله: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (٩٣) ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِنُنْذِرَكَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال مقاتل بن حيان: الروح: أشرف الملائكة، وأقرب إلى الرب ﷻ، وصاحب الوحي. الخامس: أنه القرآن، قاله ابن زيد، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. السادس: أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات. قال ابن عباس: هو ملك عظيم من أعظم الملائكة خلقًا.

وتوقف ابن جرير فلم يقطع بواحد من هذه الأقوال كلها، والأشبه عندي والله أعلم أنهم بنو آدم. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾، كقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وكما ثبت في «الصحيح»: (وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ) [البخاري/٧٠٠٠]، وقوله: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾؛ أي: حقًا، ومن الحق: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، كما قاله أبو صالح وعكرمة، وقوله: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾؛ أي: الكائن لا محالة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا﴾؛ أي: مرجعًا وطريقًا يهتدي إليه ومنهجًا يمر به عليه، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾؛ يعني: يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبًا؛ لأن كل ما هو آتٍ، ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾؛ أي: يعرض عليه جميع أعماله، خيرا وشرا، قديمها وحديثها، كقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وكقوله: ﴿يَبْقَا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ يَمَّا قَدَّمَ وَآخَرًا﴾ [القيامة: ١٣]. ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾؛ أي: يود الكافر يومئذٍ أنه كان في الدار الدنيا ترابًا، ولم يكن خلقًا، ولا خرج إلى الوجود. وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة، وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقصص للشاة الجماء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني ترابًا، فتصير ترابًا. فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾؛ أي: كنت حيوانًا فأرجع إلى التراب.

## تفسير سورة النازعات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا﴾ (١) وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطًا (٢) وَالسَّيِّحَاتِ سَبَاحًا (٣) فَالسَّيِّغَاتِ سَبَقًا (٤) فَالْمُدْبِرَاتِ (٥) أَمْرًا (٦) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتَّبِعُنَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمِيَّةٌ (٨) أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَيْنَا لَمْرُدُّوْنَ فِي الْخَافِرَةِ (١٠) أَيْنَا كُنَّا عِظَمًا نَخْرَةً (١١) قَالُوا يَلَكُ إِذَا كَرُّ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤).

قال ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جبير، وأبو صالح، وأبو الضحى والسدي [كما ذكر البغوي ٤/٤٤١]: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا﴾ الملائكة؛ يعنون: حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعنف فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط، وهو قوله: ﴿وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطًا﴾ قاله ابن عباس، وعن ابن عباس: ﴿وَالنَّزِعَاتِ﴾ هي أنفس الكفار تنزع ثم تنشط، ثم تغرق في النار، وقال مجاهد: الموت، وقال الحسن وقتادة: هي النجوم، وقال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَالنَّشِيطَاتِ﴾ هي القسي في القتال، والصحيح الأول، وعليه الأكثرون. وأما قوله: ﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبَاحًا﴾ فقال ابن مسعود: هي الملائكة، ورؤي عن علي، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي صالح مثل ذلك، وعن مجاهد: ﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبَاحًا﴾ الموت. وقال قتادة: هي النجوم، وقال عطاء بن أبي رباح: هي السفن [ينظر: الطبري ٣٠/٣٠].

وقوله: ﴿فَالسَّيِّغَاتِ سَبَقًا﴾ روي عن علي، ومسروق، ومجاهد، وأبي صالح، والحسن البصري: يعني: الملائكة، قال الحسن: سبقت إلى الإيمان والتصديق به وعن مجاهد: الموت. وقال قتادة: هي النجوم، وقال عطاء: هي الخيل في سبيل الله [ينظر: الطبري ٣٠/٣٠]. وقوله: ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ قال علي، ومجاهد، والحسن، والسدي [وغيرهم]: هي الملائكة، زاد الحسن: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض؛ يعني: بأمر ربه ﷻ، ولم يختلفوا في هذا. وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ (٦) تَتَّبِعُنَا الرَّادِفَةُ قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية، وهكذا قال مجاهد، والحسن وغير واحد، وعن مجاهد: أما الأولى وهي قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ فكقوله جلت عظمتها: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤]، والثانية - وهي الرادفة - فهي كقوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، وقد روى

الإمام أحمد [٢١٢٧٩] عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: (جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ)، فقال رجل: يا رسول الله أرايت إن جعلت صلاتي كلها عليك، قال: (إِذَا يَكْفِيكَ اللَّهُ مَا أَهَمَّكَ مِنْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ)، وقد رواه الترمذي [٢٤٥٧] وابن جرير [٣٢/٣٠]، وابن أبي حاتم، ولفظ الترمذي وابن أبي حاتم: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ) [سند حسن].

**وقوله:** ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قال ابن عباس: يعني خائفة، وكذا قال مجاهد، وقتادة. ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾؛ أي: أبصار أصحابها، وإنما أضيف إليها للملابسة؛ أي: ذليلة حقيرة، مما عاينت من الأهوال. **وقوله:** ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾؛ يعني: مشركي قريش ومن قال بقولهم في إنكار المعاد، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة، وهي القبور، قاله مجاهد، وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها، ولهذا قالوا: ﴿أَإِنَّا لَكُنَّا عِظْمًا تَفْتَرُ﴾، وعن ابن عباس، ومحمد بن كعب، والسدي، وقتادة [وغيرهم]: الحافرة: الحياة بعد الموت، وقال ابن زيد: الحافرة: النار، وما أكثر أسماءها! هي النار والجحيم وسقر وجهنم والهاوية والحافرة ولظى والحطمة، وأما قولهم: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ فقال محمد بن كعب: قالت قريش: لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾؛ أي: فإنما هو أمر من الله لا مثوية فيه ولا تأكيد، فإذا الناس قيام ينظرون، وهو أن يأمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب ﷻ ينظرون، كما قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِن لَّبِثْنَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]. قال مجاهد: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ صحيحة واحدة، وقال إبراهيم التيمي: أشد ما يكون الرب ﷻ غضبًا على خلقه يوم يبعثهم، وقال الحسن البصري: زجرة من الغضب، وقال أبو مالك والربيع بن أنس: زجرة واحدة هي النفخة الآخرة، **وقوله:** ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ قال ابن عباس: الساهرة الأرض كلها، وكذا قال سعيد بن جبير، وقتادة، وأبو صالح، وقال عكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد: وجه الأرض، وقال مجاهد: كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها. قال: والساهرة المكان المستوي.

وعن سهل بن سعد الساعدي ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ قال: أرض بيضاء عفراء خالية كالخُبْزَةِ النَّقِيَّةِ، وقال الربيع بن أنس: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ يقول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالتَّسْوَتْ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، ويقول: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا غِوَاثٌ وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٥، ١٥، ١٥] وقال: ﴿وَيَوْمَ نُسِفُ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وبرزت الأرض التي عليها الجبال، وهي لا تعد من هذه الأرض وهي أرض لم يعمل عليها خطيئة، ولم يهرق عليها دم.

﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ طَفَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزْكَى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾.

يخبر تعالى رسوله محمدًا ﷺ عن عبده ورسوله موسى ﷺ أنه ابتعثه إلى فرعون، وأيده الله بالمعجزات، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به، ولهذا قال في آخر القصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ فقولوه: ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾؛ أي: هل سمعت بخبره؟ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾؛ أي: كلمه نداء ﴿بِالْوَادِ الْقَدَسِ﴾؛ أي: المطهر ﴿طُوًى﴾ وهو اسم الوادي على الصحيح، كما تقدم في سورة طه، فقال له: ﴿أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ طَفَى﴾؛ أي: تجبر وعتا، ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزْكَى﴾؛ أي: قل له هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكّى به؛ أي: تسلم وتطيع. ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ﴾؛ أي: أدلك إلى عبادة ربك، ﴿فَتَخْشَى﴾؛ أي: فيصير قلبك خاضعًا له مطيعًا خاشعًا بعدما كان قاسيًا خبيثًا بعيدًا من الخير. ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾؛ يعني: فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية، ودليلاً واضحاً على صدق ما جاء به من عند الله، ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾؛ أي: فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة، وحاصله أنه كفر قلبه فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره، وعلمه بأن ما جاء به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به؛ لأن المعرفة علم القلب، والإيمان عمله وهو الانقياد للحق والخضوع له.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾؛ أي: في مقابلة الحق بالباطل، وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى ﷺ من المعجزة الباهرة، ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾؛ أي: في قومه ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [الفصل: ٣٨] بأربعين سنة [ينظر: الطبري ٤١/٣٠].

قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾؛ أي: انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَتَسَاءَلُونَ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَكْذُوبُونَ إِلَى الْكَافِرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [الفصل: ٤١]. هذا هو الصحيح في معنى الآية، أن المراد بقوله: ﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾؛ أي: الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾؛ أي: لمن يتعظ وينتزر.

﴿إِنَّمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ أَن تَسْمُوا بِهَا﴾ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَّعْنَاكُمْ لَكُمُ وَلَا تَنْعَمُكُمْ ﴿٣٣﴾.

يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدئه: ﴿إِنَّمْ أَشَدُّ﴾ أيها الناس ﴿أَشَدُّ

خَلَقَ أَمَّ السَّمَاءِ؛ يعني: بل السماء أشدَّ خلقًا منكم، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿بَنَاهَا﴾ فسرهُ بقوله: ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾؛ أي: جعلها عالية البناء بعيدة الفناء مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء، وقوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾؛ أي: جعل ليلها مظلمًا أسود حالكًا، ونهارها مضيئًا. قال ابن عباس: أغطش ليلها: أظلمه، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير وجماعة كثيرون. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾؛ أي: أثار نهارها، وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فسرهُ بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، وقد تقدم في سورة حم السجدة [آية: ٩] أن الأرض خلقت قبل خلق السماء، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء؛ بمعنى: أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، وهذا معنى قول ابن عباس وغير واحد واختاره ابن جرير [٤٥/٣٠]، وعن ابن عباس: ﴿دَحَاهَا﴾ ودحيتها أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام، فذلك قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾.

وقوله: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾؛ أي: قررها وأثبتها وأكدها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرؤوف بخلقه الرحيم.

وقوله: ﴿مِنَّا لَكُمْ وَاتَّعِمَّكُمُ﴾؛ أي: دحا الأرض فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعًا لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار، إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَوُزِّيَتْ الْجَحِيمُ لِنَ بَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَى (٣٧) وَءَاثَرَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرِهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَحْشَسُهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَاهَا لَوْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦).

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ وهو يوم القيامة، قاله ابن عباس، سميت بذلك لأنها تُظَم على كل أمر هائل مفضع، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٦]، ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾؛ أي: حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣]. ﴿وَوُزِّيَتْ الْجَحِيمُ لِنَ بَرَى﴾؛ أي: أظهرت للناظرين فرأها الناس عيانًا، ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى﴾؛ أي: تمرد وعتا، ﴿وَأَثَرَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: قدمها على أمر دينه وأخراه ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾؛ أي: فإن مصيره إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم، ومشربه من الحميم، ﴿وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾؛ أي: خاف القيام بين يدي الله ﷻ، وخاف حُكْمَ الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردها إلى طاعة مولاهَا ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾؛ أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء، ثم قال تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ

أَيَّانَ مُرْسَلَهَا ﴿٤٦﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴿٤٧﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَنَهَا ﴿٤٨﴾؛ أي: ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها إلى الله ﷻ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، ﴿نُقُلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْنَةً يَسْتُلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلُوبٌ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال هاهنا: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَنَهَا﴾، ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال: (مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ) [رواه البخاري/ ٥٠].

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَحْشَنَهَا﴾؛ أي: إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده اتبعك فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك، وقوله تعالى: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لََّ يَلْبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾؛ أي: إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشيّة من يوم أو ضحى من يوم، وعن ابن عباس: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لََّ يَلْبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ أما عشيّة: فما بين الظهر إلى غروب الشمس ﴿أَوْ ضُحًى﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار، وقال قتادة: وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة [ينظر: الطبري ٤٩/٣٠ - ٥٠].



## تفسير سورة عبس وهي مكية

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ۚ (٣) أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الْذِكْرَى ۚ (٤) أَمْ أَمَّا مِنْ أَسْتَعْتَى ۚ (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ ۚ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ (٨) وَهُوَ يَخْشَى ۚ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ (١٠) كَلَّا ۚ إِنَّهَا نَزَكَةٌ ۚ (١١) فَتَنْ شَاءَ ذِكْرُهُ ۚ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۚ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۚ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۚ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۚ (١٦)﴾ .

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم - وكان ممن أسلم قديماً - فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، ووَدَّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته، وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ۚ (٣) أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الْذِكْرَى ۚ (٤) أَمْ أَمَّا مِنْ أَسْتَعْتَى ۚ (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ ۚ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ (٨) وَهُوَ يَخْشَى ۚ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ (١٠) كَلَّا ۚ إِنَّهَا نَزَكَةٌ ۚ (١١) فَتَنْ شَاءَ ذِكْرُهُ ۚ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۚ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۚ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۚ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۚ (١٦)﴾ .

روى الحافظ أبو يعلى في «مسنده» [٣١٢٣] عن قتادة عن أنس رضي الله عنه في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله ﷻ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢)﴾ فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه .

قال قتادة: أخبرني أنس بن مالك قال: رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء؛ يعني: ابن أم مكتوم [له شاهدان من حديث عائشة وابن عمر فهو صحيح بهما].

وهكذا ذكر عروة بن الزبير، ومجاهد، وأبو مالك، وقاتدة، والضحاك، وابن زيد وغير واحد من السلف والخلف: أنها نزلت في ابن أم مكتوم، والمشهور أن اسمه عبد الله ويقال: عمرو، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۚ إِنَّهَا نَزَكَةٌ ۚ (١١)﴾ أي: هذه السورة، أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم، وقال قتادة والسدي: ﴿كَلَّا ۚ إِنَّهَا نَزَكَةٌ ۚ (١١)﴾ يعني: القرآن، ﴿فَتَنْ شَاءَ ذِكْرُهُ ۚ (١٢)﴾ .



ذَكَرُهُ؛ أي: فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه.

وقوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۖ رَّفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾؛ أي: هذه السورة أو العظة، وكلاهما متلازم، بل جميع القرآن في صحف مكرمة؛ أي: معظمة موقرة، مرفوعة؛ أي: عالية القدر، مطهرة؛ أي: من الدنس والزيادة والنقص، وقوله: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد: هي الملائكة، وقال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال قتادة: هم القراء [الطبري ٥٣/٣٠]، وعن ابن عباس: السفارة بالنبطية: القراء، وقال ابن جرير: والصحيح أن السفارة الملائكة، والسفرة؛ يعني: بين الله تعالى وبين خلقه، وقال البخاري: سفرة: الملائكة.

وقوله: ﴿كَرِيمٍ بَرٍّ﴾؛ أي: خلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة، ومن هنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد، روى الإمام أحمد [٢٤٢٥٧] عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرُؤُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ) أخرجه الجماعة.

﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ۚ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ أَلْسَلَهُ سَبِيلَ يَسَرُّهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْيْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَيْنًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلًّا (٣٠) وَفَكْهَةً وَأَبًا (٣١) مِثْلًا لِّكُلِّ وَلَاقِعِكُمْ (٣٢)﴾.

يقول تعالى ذامًا لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ قال ابن عباس: لعن الإنسان، وكذا قال أبو مالك، وهذا لجنس الإنسان المكذب، لكثرة تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم، قال ابن جرير [٥٤/٣٠]: ﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾؛ أي: ما أشد كفره، ويحتمل أن يكون المراد: أي: شيء جعله كافرًا؟ أي: ما حمله على التكذيب بالمعاد، وقال قتادة ﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾: ما ألعنه، وقد حكاه البغوي عن مقاتل والكلبي، ثم بين تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه فقال: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (١٨) ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾؛ أي: قدر أجله ووزقه وعمله وشقي أو سعيد ﴿ثُمَّ أَلْسَلَهُ سَبِيلَ يَسَرُّهُ﴾ عن ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه، وكذا قال عكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وقاتادة، والسدي، واختاره ابن جرير، وقال مجاهد: هذه كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]؛ أي: بينا له ووضحناه وسهلنا عليه عمله، وكذا قال الحسن، وابن زيد، وهذا هو الأرجح والله أعلم، وقوله: ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾؛ أي: إنه بعد خلقه له أماته فأقبره؛ أي: جعله ذا قبر.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾؛ أي: بعثه بعد موته، ومنه يقال: البعث والنشور، ﴿وَمِنْ عَائِنِهِ﴾ أن خلقكم من تراب ثم إذا أنشأ بشر تنشرون [الروم: ٢٠]، وفي «الصحيح» عن أبي هريرة:

(كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرْكَبُ) [البخاري/ ٤٦٥١ ومسلم/ ٢٩٥٥ كلاهما بنحوه مرفوعاً].

**وقوله:** ﴿كَلَّا﴾ قال ابن جرير: يقول: كلا ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله، ﴿لَمَّا يَقْضَ مَا أَمَرُ﴾ يقول: لم يؤد ما فرض عليه من الفرائض لربه ﷻ، وعن مجاهد قال: لا يقضي أحد أبداً كل ما افترض عليه، وحكاة البغوي [٤٤٨/٤] عن الحسن البصري بنحو من هذا، ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا، والذي يقع لي في معنى ذلك، والله أعلم، أن المعنى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُهُ﴾؛ أي: بعثه ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضَ مَا أَمَرُ﴾؛ أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة، ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله له أن سيوجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدرًا، فإذا تنهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم، والله ﷻ أعلم بالصواب.

**وقوله:** ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً، ﴿إِنَّا صَبَّأْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾؛ أي: أنزلناه من السماء على الأرض، ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾؛ أي: أسكناه فيها فدخل في ثُخُومها وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض، ﴿فَأَبَلْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ﴿٧٧﴾ وَعَبَا وَقَضَا﴾ فالحب: كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب هو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها: القَتَّ أيضًا. قال ذلك ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي، وقال الحسن البصري: القضب: العلف. ﴿وَزَيَّوْنَا﴾ وهو معروف، وهو أذْمُ وعصيره آدم، ويستصبح به ويدهن به ﴿وَنَخَّلًا﴾ يؤكل بلحاً بسرًا، ورطبًا وتمرًا، ونبثًا ومطبوخًا، ويعتصر منه رُبٌّ وخل. ﴿وَحَدَائِقَ غُلَبًا﴾؛ أي: بساتين. قال الحسن وقتادة: ﴿غُلَبًا﴾: نخل غلاظ كرام. وقال ابن عباس، ومجاهد: الحدائق: كل ما التف واجتمع، وقال ابن عباس أيضًا: غلبا: الشجر الذي يستظل به، وقال ابن عباس [أيضًا]: ﴿وَحَدَائِقَ غُلَبًا﴾؛ أي: طوال، وقال عكرمة: غلبًا؛ أي: غلاظ الأوساط، وفي رواية: غلاظ الرقاب.

**وقوله:** ﴿وَفَكَهَةً وَأَبًّا﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار. قال ابن عباس: الفاكهة: كل ما أكل رطبًا. والأب ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم، وقال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو مالك: الأب الكلا، وعن مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد: الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم، وعن عطاء: كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أبٌ، وقال الضحاك: كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أبٌ، وعن ابن عباس: الأب الكلا والمرعى، وكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد وغير واحد، وسئل أبو بكر الصديق ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَفَكَهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم. [وروى ابن جرير ٥٩/٣٠] عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١] فلما أتى على هذه الآية ﴿وَفَكَهَةً وَأَبًّا﴾ قال: قد عرفنا الفاكهة، فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف، وهو صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس، وهو محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو

وَكُلُّ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ، لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنْتَ فِيهَا حَبٌّ﴾ (٣٧) وَعَبًا وَقَضًا (٣٨) وَرَبْتُونََا وَخَلَا (٣٩) وَحَدَائِقُ غُلَابًا (٤٠) وَفِكَهَةً وَأُنَابًا، وقوله: ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ﴾؛ أي: عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة.

﴿إِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ﴾ (٣٣) يَوْمَ يَرَى الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُخِيهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبِيهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْفَعُهَا قَفَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢).

قال ابن عباس: ﴿الصَّلَاةُ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده، وقال ابن جرير [٦١/٣٠]: لعله اسم للنفخة في الصور، وقال البغوي [٤٤٩/٤]: الصاخة؛ يعني: صيحة القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تَصْخُ الأسماع؛ أي: تبالغ في إسماعها حتى تكاد تُصمُّها ﴿يَوْمَ يَرَى الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُخِيهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبِيهِ وَبَنِيهِ﴾؛ أي: يراهم ويفر منهم ويتعد منهم؛ لأن الهول عظيم والخطب جليل. قال عكرمة: يلقي الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه أي بعل كنت لك؟ فتقول: نعم البعل كنت، وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهينها لي لعلني أنجو مما ترين، فتقول له: ما أيسر ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف. قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول: يا بني أي والد كنت لك؟ فيثني بخير. فيقول له: يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلني أنجو بها مما ترى. فيقول ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَى الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُخِيهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبِيهِ وَبَنِيهِ﴾، وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق يقول: نفسي نفسي [البخاري/٣١٦٢ ومسلم/١٩٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَى الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُخِيهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبِيهِ وَبَنِيهِ﴾. قال قتادة: الأحب فالأحب والأقرب فالأقرب من هول ذلك اليوم.

وقوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾؛ أي: هو في شُغْلٍ شاغل عن غيره. روى ابن أبي حاتم [١٩١٢٩] والترمذي [٣٣٣٢] عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (تُخْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاءَ غُرْلًا) فقالت امرأة: أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: (يَا فَلَانَةُ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح [وروى النسائي/٢٠٨٣ نحوه عن عائشة مرفوعاً].

وقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ؛ أي: يكون الناس هنالك فريقين وجوه مسفرة؛ أي: مستنيرة، ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ أي: مسرورة فرحة من السرور في قلوبهم، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء هم أهل الجنة. ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ (٤٠) تَرْفَعُهَا قَفَرَةٌ؛ أي: يعلوها ويغشاها قفرة؛ أي: سواد. وقال ابن عباس: يغشاها سواد الوجوه، وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾؛ أي: الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم.

## تفسير سورة التكوير وهي مكية

روى الإمام أحمد [٤٨٠٦] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾)، وهكذا رواه الترمذي، [برقم/ ٣٣٣٣ وقال: حسن غريب].

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أَزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) .

قال ابن عباس: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾؛ يعني: أظلمت، وعنه: ذهب، وقال مجاهد: اضمحلَّت وذهبت، وكذا قال الضحاك، وقال قتادة: ذهب ضوءها، وقال سعيد بن جبیر: عُوِّرَتْ، وقال الربيع بن خثیم: رمي بها، وقال أبو صالح: ألقيت، وعنه أيضاً: نكست، وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض. قال ابن جرير [كما نقل صاحب «تحفة الأحوذى» ١٧٧/٩]: والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكوير العمامة وهو لفها على الرأس، فمعنى قوله: ﴿كُوِّرَتْ﴾ جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها.

روى البخاري [٣٠٢٨] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُكَوِّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). وقوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾؛ أي: انتثرت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، وأصل الانكدار الانصباب، وقال مجاهد، والربيع بن خثيم والحسن البصري، وأبو صالح وحماد بن أبي سليمان، والضحاك في قوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾؛ أي: تناثرت، وقال ابن عباس: تغيرت.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾؛ أي: زالت عن أماكنها ونُسِفت، فتركت الأرض قاعاً صافصفاً، وقوله: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال عكرمة ومجاهد: عشار الإبل. قال مجاهد: تركت وسُيِّت. وقال أبي بن كعب والضحاك: أهلها أهلها، وقال الربيع بن خثيم: لم تحلب ولم تُصَرَّ، تَخْلَى منها أربابها، وقال الضحاك: تركت لا راعي لها [ينظر: الطبري ٦٦/٣٠]، والمعنى

في هذا كله متقارب، والمقصود أن العشار من الإبل وهي: خيارها والحوامل منها التي قد وصلت في حملها إلى الشهر العاشر، واحدتها عُشراء، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع، قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها، بعدما كانوا أرغب شيء فيها بما دهمهم من الأمر العظيم المفزع الهائل، وهو أمر يوم القيامة وانعقاد أسبابها ووقوع مقدماتها، وقيل: بل يكون ذلك يوم القيامة، يراها أصحابها كذلك لا سبيل لهم إليها.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾؛ أي: جمعت، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ دَابَّتٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَسْأَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، قال ابن عباس: يحشر كل شيء حتى الذباب، وكذا قال الربيع بن خثيم والسدي وغير واحد، وكذا قال قتادة في تفسير هذه الآية: إن هذه الخلائق موافية فيقضي الله فيها ما يشاء، وقال عكرمة: حشرها موتها، وروي عن ابن عباس قال: حشر البهائم موتها، وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس، فإنهما يوقفان يوم القيامة، وعن الربيع بن خثيم قال: أتى عليها أمر الله، وعن أبي بن كعب أنه قال: اختلطت. قال ابن جرير [٦٧/٣٠]، والأولى قول من قال: حشرت: جمعت، قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ يُحْشَرُ﴾ [ص: ١٩]؛ أي: مجموعة.

وقوله: ﴿وَإِذَا الْإِنْسَانُ سُحِرْتُمْ﴾ عن علي رضي الله عنه [أنه قال] لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. فقال: ما أراه إلا صادقاً. ﴿وَالْبَحْرُ الْمُسْجُورُ﴾ [الطور: ٦]، ﴿وَإِذَا الْإِنْسَانُ سُحِرْتُمْ﴾، وقال ابن عباس وغير واحد: يرسل الله عليها الدبور فتسرعها، وتصير ناراً تاجج، وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله: ﴿وَالْبَحْرُ الْمُسْجُورُ﴾.

وقال مجاهد، والحسن بن مسلم: ﴿سُحِرْتُمْ﴾ أوقدت. وقال الحسن: يبست، وقال الضحاك وقاتدة: غاض ماؤها فذهب فلم يبق فيها قطرة، وقال الضحاك أيضاً: فجرت، وقال السدي: فتحت وسيرت، وقال الربيع بن خثيم: فاضت.

وقوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾؛ أي: جمع كل شكل إلى نظيره، كقوله: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢]. روى ابن أبي حاتم [١٩١٦٣] أن عمر قال للناس: ما تقولون في تفسير هذه الآية: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾؟ فسكتوا. قال: ولكن هو الرجل يزوج نظيره من أهل الجنة، والرجل يزوج نظيره من أهل النار، ثم قرأ: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢]، وعن ابن عباس قال: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة. وقال مجاهد: الأمثال من الناس جمع بينهم، وكذا قال الربيع بن خثيم، والحسن، وقاتدة، واختاره ابن جرير [٧٠/٣٠] وهو الصحيح.

قول آخر في قوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ عن ابن عباس قال: يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين، ومقدار ما بينهما أربعون عاماً، فينبت منه كل خلق بلي من الإنسان أو طير أو دابة، ولو مر عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على الأرض قد نبتوا، ثم ترسل الأرواح فتزوج الأجساد فذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن البصري أيضاً، وقيل: زوج المؤمنون بالحوار العين، وزوج الكافرون بالشياطين. حكاه القرطبي في «التذكرة».

وقوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ والمؤودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل المؤودة على أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلتها، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا؟ وقال ابن عباس: أي سألت. وكذا قال أبو الضحى: سألت؛ أي: طالبت بدمها، وعن السدي وقتادة مثله.

وروى الإمام أحمد [٢٧٤٨٧] عن جُدَامة بنت وهب أخت عكاشة قالت: حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول: (لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الْغَيْلَةِ، فَنَظَرْتُ فِي الرُّومِ وَفَارِسَ فَإِذَا هُمْ يُغِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ، وَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا) ثم سأله عن العزل فقال رسول الله ﷺ: (ذَلِكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ، وَهُوَ الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ) ورواه مسلم [١٤٤٢].

وروى ابن أبي حاتم [١٩١٦٦] عن ابن عباس قال: أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ قال: هي المدفونة.

وقوله: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ شُرِّتْ﴾ قال الضحاك: أعطي كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله، وقال قتادة: صحيفتك يا ابن آدم تُملَى فيها، ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملَى في صحيفته [ينظر: الطبري ٧٣/٣٠].

وقوله: ﴿وَإِذَا أَسْمَاءُ كُتِبَتْ﴾ قال مجاهد: اجتذبت، وقال السدي: كشفت، وقال الضحاك: تنكشط فتذهب، وقوله: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ قال السدي: أحميت، وقال قتادة: أوقدت. قال: وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بني آدم، وقوله: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قال الضحاك، وأبو مالك، وقتادة، والربيع بن خثيم: أي: قربت إلى أهلها، وقوله: ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ هذا هو الجواب؛ أي: إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَبْذُوثُ الْأَسْنُنَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخَنَسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَّلَعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَنْ تَذَهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

سئل علي عن: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخَنَسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَسِ﴾ فقال: هي النجوم تخنس بالنهار، وكذا روي عن ابن عباس، والحسن، والسدي وغيرهم: أنها النجوم [ينظر: الطبري ٧٥/٣٠].

وعن بكر بن عبد الله قال: هي النجوم الدراري، التي تجري تستقبل المشرق، وقال بعض الأئمة: إنما قيل للنجوم: الخنس؛ أي: في حال طلوعها، ثم هي جوار في فلکها، وفي حال

غيبوبتها يقال لها: كُنَّس، من قول العرب أوى الظبي إلى كنَّاسه: إذا تغيب فيه، وقال عبد الله [بن مسعود]: بقر الوحش، وعن ابن عباس قال: البقر تكنس إلى الظل، وكذا قال سعيد بن جبیر، وعن ابن عباس [أيضاً]: هي الطباء، وكذا قال سعيد أيضاً ومجاهد، والضحاك، وقال أبو الشعثاء جابر بن زيد: هي الطباء والبقر، وعن إبراهيم، ومجاهد أنهما تذاكرا هذه الآية ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَنَسِ﴾ ١٥ ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ فقال إبراهيم لمجاهد: قل فيها بما سمعت، قال: فقال مجاهد: كنا نسمع فيها شيئاً وناس يقولون: إنها النجوم، قال: فقال إبراهيم: قل فيها بما سمعت، قال: فقال مجاهد: كنا نسمع أنها بقر الوحش حين تكنس في حُجْرَتِهَا، فقال إبراهيم: إنهم يكذبون على عليّ، هذا كما رووا عن علي أنه ضمن الأسفل الأعلى والأعلى الأسفل، وتوقف ابن جرير هل هو النجوم، أو الطباء وبقر الوحش قال: ويحتمل أن يكون الجميع مراداً.

وقوله: ﴿وَالْأَيْلِ إِذَا عَسَّسَ﴾ فيه قولان: أحدهما: إقباله بظلامه، وقال مجاهد: أظلم، وقال سعيد بن جبیر: إذا نشأ، وقال الحسن البصري: إذا غشي الناس، وكذا قال عطية العوفي، وقال ابن عباس: إذا أدبر، وكذا قال مجاهد، وقاتدة، والضحاك، وكذا قال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن: أي: إذا ذهب فتولى.

وخرج علي رضي الله عنه حين ثوب المثوب بصلاة الصبح فقال: أين السائلون عن الوتر ﴿وَالْأَيْلِ إِذَا عَسَّسَ﴾ ١٧ ﴿وَالضُّحَى إِذَا نَفَّسَ﴾؟ هذا حين أدبر [روى أحمد نحوه/ ٨٦١].

وقد اختار ابن جرير [٧٨/٣٠] أن المراد بقوله: ﴿إِذَا عَسَّسَ﴾ إذا أدبر قال لقوله: ﴿وَالضُّحَى إِذَا نَفَّسَ﴾؛ أي: أضاء، وعندي أن المراد بقوله: ﴿إِذَا عَسَّسَ﴾ إذا أقبل وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضاً، لكن الإقبال هاهنا أنسب، كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضياؤه إذا أشرق، كما قال: ﴿وَالْأَيْلِ إِذَا يَنْتَشَى﴾ ١٨ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال: ﴿وَالضُّحَى﴾ ١٩ ﴿وَالْأَيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ١، ٢] وغير ذلك من الآيات، وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة عسس تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما والله أعلم، وقال ابن جرير [٧٩/٣٠]: وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب يزعم أن عسس دنا من أوله وأظلم.

وقوله: ﴿وَالضُّحَى إِذَا نَفَّسَ﴾ قال الضحاك: إذا طلع، وقال قتادة: إذا أضاء وأقبل، وقال سعيد بن جبیر: إذا نشأ، وهو المروي عن علي رضي الله عنه، وقال ابن جرير: يعني: ضوء النهار إذا أقبل وتبين، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾؛ يعني: إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم؛ أي: ملك شريف حسن الخلق، بهي المنظر، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، قاله ابن عباس، والشعبي، والحسن وغيرهم. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ٥٠ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٥، ٦]؛ أي: شديد الخلق، شديد البطش والفعل، ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾؛ أي: له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة، قال أبو صالح في قوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ قال: جبريل يدخل في سبعين حجاً من نور بغير إذن، ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾؛ أي: له وجاهة وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى. قال قتادة: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾؛ أي: في السموات؛ يعني: ليس هو من

أفناء الملائكة، بل هو من السادة والأشراف معتنى به انتخب لهذه الرسالة العظيمة.

وقوله: ﴿أَمِينٌ﴾ صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جداً أن الرب ﷻ يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل، كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.

قال الشعبي وميمون بن مهران وأبو صالح، ومن تقدم ذكرهم: المراد بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾؛ يعني: محمداً ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيَمِينِ﴾؛ يعني: ولقد رأى محمداً جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله ﷻ على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿بِالْأَفْئِ الْيَمِينِ﴾؛ أي: البين وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: ﴿عَلَّمَهُ سَدِيدَ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۝ وَهُوَ بِالْأَفْئِ الْأَعْلَى ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۝ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ٥ - ١٠] كما تقدم تفسير ذلك وتقريره، والدليل أن المراد بذلك جبريل ﷺ، والظاهر والله أعلم أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤيا وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۝ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۝ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۝ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٣ - ١٦]، فتلك إنما ذكرت في سورة النجم وقد نزلت بعد الإسراء.

وقوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾؛ أي: وما محمد على ما أنزله الله إليه بضنين: ببخيل بل يبذله لكل أحد، ومنهم من قرأ بالظاء؛ أي: بمتهم. قال سفيان بن عيينة: ظنين وضنين سواء؛ أي: ما هو بكاذب، وما هو بفاجر، والظنين المتهم والضنين البخيل، وقال قتادة: كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد، فما ضنَّ به على الناس بل نشره وبلغه وبذله لكل من أَرَادَهُ، وكذا قال عكرمة، وابن زيد وغير واحد. واختار ابن جرير [٨٢/٣٠] قراءة الضاد قلت: وكلاهما متواتر ومعناه صحيح كما تقدم، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ سَيُطَنِّ رَجِيمٌ﴾؛ أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم؛ أي: لا يقدر على حمله ولا ينبغي له، كما قال: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝ وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُوْهُنَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢]، وقوله: ﴿فَأَن تَذْهَبُونَ؟﴾؛ أي: فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه جاء من عند الله ﷻ كما قال الصديق ﷺ لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين، وأمرهم فتلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الكذاب الذي هو في غاية الهديان والركاكة، فقال: ويحكم، أين يُذهب بعقولكم؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ؛ أي: من إله [البغوي ٢/٢٧١]، وقال قتادة: ﴿فَأَن تَذْهَبُونَ؟﴾؛ أي: عن كتاب الله وعن طاعته.

وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: هذا القرآن، ذكر لجميع الناس، يتذكرون به ويتعظون، ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ﴾؛ أي: من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين.





## تفسير سورة الانفطار

وهي مكية

روى النسائي [١٠٦٩] عن جابر قال: قام معاذ فضلى العشاء الآخرة فطول فقال النبي ﷺ: (أَفَتَأْنِ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟ أَيْنَ كُنْتَ عَنْ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، ﴿وَالصُّحُفِ﴾، وَ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾؟)، وأصل الحديث مخرج في «الصحيحين» [رواه البخاري بنحوه/ ٥٧٥٥ ومسلم/ ٤٦٥ ولم يذكر الانفطار]، ولكن ذكر ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ في أفراد النسائي، وقد تقدم من رواية عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْقِيَامَةِ رَأَى عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ كُورَتْ﴾، وَ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾) [رواه أحمد/ ٤٨٠٦ والترمذي/ ٣٣٣٣ وقال: حسن غريب].

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝ يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ مَا عَرَفَ ۝ الْكَرِيمَ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَنِينِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝﴾.

يقول تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾؛ أي: انشقت. كما قال: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨]. ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾؛ أي: تساقطت. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ قال ابن عباس: فجر الله بعضها في بعض، وقال الحسن: فجر الله بعضها في بعض فذهب ماؤها، وقال قتادة: اختلط عذبا بمالحها، وقال الكلبي: ملئت.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ قال ابن عباس: بُحِثَتْ، وقال السدي: تُبْعَثَرُ: تُحَرَّكُ فيخرج من فيها. ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾؛ أي: إذا كان هذا، حصل هذا، وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ مَا عَرَفَ رَبِّكَ الْكَرِيمَ﴾؟ هذا تهديد، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب، حيث قال: الكريم حتى يقول قائلهم غره كرمه، بل المعنى في هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم ربك الكريم؛ أي: العظيم حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق.

روى ابن أبي حاتم [١٩١٧٤] أن عمر سمع رجلاً يقرأ: ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ مَا عَرَفَ رَبِّكَ الْكَرِيمَ﴾؟ فقال عمر: الجهل، وروى أيضاً عن ابن عمر قال: غره والله جهله، قال: ورؤي عن ابن عباس، والربيع بن خثيم والحسن مثل ذلك، وقال قتادة: ﴿مَا عَرَفَ رَبِّكَ الْكَرِيمَ﴾ شيء، ما غرَّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان.

**وقوله:** ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾؛ أي: ما غرك بالرب الكريم ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾؛ أي: جعلك سويًا مستقيمًا معتدل القامة منتصبها، في أحسن الهيئات والأشكال. روى الإمام أحمد [١٧٨٧٦] عن بُسْرِ بْنِ جَحَاشٍ القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال: (قَالَ اللَّهُ ﷻ: يَا ابْنِ آدَمَ أَتَى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ؟ حَتَّى إِذَا سَوَيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي قُلْتَ: أَنُصَدِّقُ، وَأَتَى أَوَانُ الصَّدَقَةِ)، وكذا رواه ابن ماجه [٢٧٠٧] قال البوصيري في «الزوائد»: [إسناده صحيح رجاله ثقات].

**وقوله:** ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ قال مجاهد: في أي شبه أب أو أم أو خال أو عم، وقال عكرمة: إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير، وكذا قال أبو صالح: إن شاء في صورة كلب، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة خنزير، وقال قتادة: قادر والله ربنا على ذلك [ينظر: الطبري ٨٧/٣٠]، ومعنى هذا القول عند هؤلاء أن الله ﷻ قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام، حسن المنظر والهيئة.

**وقوله:** ﴿كَلَّا بَلْ تُكِيدُونَ بِالَّذِينَ﴾؛ أي: إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي، تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب، **وقوله تعالى:** ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَثِيرِينَ ۝ يَكْمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾؛ يعني: وإن عليكم لملائكة حَفَظَةً كرامًا فلا تقابلوهم بالقباح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سَنِيًّا وَلَا أَمْرٌ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۝﴾.

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم، وهم الذين أطاعوا الله ﷻ ولم يقابلوه بالمعاصي، ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم، ولهذا قال: ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾؛ أي: يوم الحساب والجزاء والقيامة، ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾؛ أي: لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يومًا واحدًا، **وقوله:** ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة، ثم أكد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾، ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سَنِيًّا﴾؛ أي: لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، ونذكر هاهنا حديث: (يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) [مسلم/٢٠٤]، وقد تقدم في آخر تفسير سورة الشعراء، ولهذا قال: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾، كقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وكقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]. قال قتادة ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سَنِيًّا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ والأمر والله اليوم، ولكنه لا ينازعه فيه يومئذٍ أحد.

## تفسير سورة المطففين

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ .

روى النسائي [١١٦٥٤] وابن ماجه [٢٢٢٣] عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أحبب الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فحسّنوا الكيل بعد ذلك [إسناده جيد]، وروى ابن أبي حاتم [١٩١٧٨] عن هلال بن طلق قال: بينما أنا أسير مع ابن عمر فقلت: من أحسن الناس هيئةً وأوفاهم كيلاً؟ أهل مكة أو أهل المدينة؟ قال: حق لهم، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، والمراد بالتطفيف هاهنا البخس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم، ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل، بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾؛ أي: من الناس ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾؛ أي: يأخذون حقهم بالوافي والزائد، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾؛ أي: ينقصون.

وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان، فقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ أَلْتَسْتَقِيمُ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥]، وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يخسون الناس في الميزان والمكيال، ثم قال تعالى متوعداً لهم: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول، كثير الفزع جليل الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية؟ وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي: يقومون حفاة عراة غرلاً، في موقف صعب خرج ضيق ضنك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه.

روى الإمام مالك [وأحمد ٥٨٢٣] عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أَذُنَيْهِ) رواه البخاري [٤٦٥٤].

وروى الإمام أحمد [٢٣٨٦٤] عن المقداد بن الأسود الكندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذْنِبَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْعِبَادِ، حَتَّى تَكُونَ قِيدَ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ، قَالَ: فَتَضْهَرُهُمُ الشَّمْسُ، فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ كَقَدَرِ أَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْجَمَامَا) رواه مسلم [٢٨٦٤]،

وعن ابن مسعود: يقومون أربعين سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء لا يكلمهم أحد قد ألجم العرق برّهم وفاجرهم، وعن ابن عمر: يقومون مائة سنة.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِ عَائِشَتَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾؛ أي: أن مصيرهم ومأواهم لفي سجين - فعيل من السجن وهو الضيق - كما يقال: فسق وشرب وسكير ونحو ذلك، ولهذا عظم أمره فقال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾؛ أي: هو أمر عظيم وسجن مقيم وعذاب أليم، ثم قد قال قائلون: هي تحت الأرض السابعة، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب في حديثه الطويل: يقول الله ﷻ في روح الكافر اكتبوا كتابه في سجين [رواه أحمد/ ١٨٥٥٧ وسنده حسن]، وسجين: هي تحت الأرض السابعة، وقيل: بئر في جهنم، والصحيح أن سجيناً مأخوذ من السجن وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتسع. ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٥، ٦]، وقال هاهنا: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ وهو يجمع الضيق والسفول، كما قال: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبَقًا مُقَرَّرِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

وقوله: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ ليس تفسيراً لقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ وإنما هو تفسير لما كتب له من المصير إلى سجين؛ أي: مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يزداد فيه أحد ولا ينقص منه أحد. قاله محمد بن كعب القرظي، ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السجن والعذاب المهين، وقد تقدم الكلام على قوله: ويل بما أغنى عن إعادته وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار، ثم قال تعالى مفسراً للمكذبين الفجار الكفرة: ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾؛ أي: لا يصدقون بوقوعه، ولا يعتقدون كونه ويستبعدون أمره، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ أي: معتد في أفعاله، من تعاطي الحرام والمجازرة في تناول المباح، والأثيم في أقواله إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر.

وقوله: ﴿إِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِ عَائِشَتَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: إذا سمع كلام الله من الرسول يكذب به ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرّين

الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

والرين يعتري قلوب الكافرين، والغيم للأبرار والغين للمقربين، وقد روى الترمذي [٣٣٣٤] والنسائي [١١٦٥٨ بنحوه] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ مِنْهَا صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾) وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحسن البصري: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت، وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾؛ أي: لهم يوم القيامة منزلٌ ونزل سجين، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم. قال الإمام أبو عبد الله الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه ﷻ يومئذٍ، وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في غاية الحسن وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ فَاضَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِقَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم ﷻ في الدار الآخرة، رؤية بالأبصار في عَرَصات القيامة، وفي روضات الجنات الفاخرة، وقد روى ابن جرير [١٠٠/٣٠] عن الحسن قال: يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون والكافرون، ثم يحجب عنه الكافرون وينظر إليه المؤمنون، كل يوم غدوة وعشية، أو كلاماً هذا معناه.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾؛ أي: ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران، ﴿ثُمَّ بَقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: يقال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبيخ، والتحقيق.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَابٌ مَرْفُوعٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْمُومٍ ۝٢٥ خِتَمُهُمُ مِنْ مِسْكِ ۖ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ۝٢٦ وَمَرَجِعُهُمْ إِلَىٰ تَسْلِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾.

يقول تعالى: حقاً ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾ وهم بخلاف الفجار ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾؛ أي: مصيرهم إلى عليين وهو بخلاف سجين. سأل ابن عباس كعباً عن سجين، قال: هي الأرض السابعة، وفيها أرواح الكفار، وسأله عن عليين فقال: هي السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين، وهكذا قال غير واحد: إنها السماء السابعة، وقال ابن عباس في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾؛ يعني: الجنة. وفي رواية عنه: أعمالهم في السماء عند الله، وكذا قال الضحاك، والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء وارتفع، عظم واتسع، ولهذا قال معظماً أمره ومفخماً شأنه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾، ثم قال مؤكداً لما كتب لهم: ﴿كِتَابٌ مَرْفُوعٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، وهم الملائكة قاله قتادة، وعن ابن عباس: يشهده من كل سماء مقربوها.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾؛ أي: يوم القيامة هم في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عظيم، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ وهي السرر تحت الحِجَال، ينظرون قيل: معناه ينظرون في ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبديد، وقيل: معناه ينظرون إلى الله ﷻ. وهذا مقابل لما وُصف به أولئك الفجار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله ﷻ وهم على سررهم وفرشهم، وقوله: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾؛ أي: تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم؛ أي: صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة، مما هم فيه من النعيم العظيم.

وقوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾؛ أي: يسقون من خمر من الجنة، والرحيق: من أسماء الخمر، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد، وقال ابن مسعود في قوله: ﴿خَتَمُهُمْ مِسْكٌ﴾؛ أي: خلطه مسك، وعن ابن عباس: طيب الله لهم الخمر، فكان آخر شيء جعل فيها مسك، خُتم بمسك، وكذا قال قتادة والضحاك، وقال إبراهيم والحسن: عاقبته مسك.

وعن أبي الدرداء: ﴿خَتَمُهُمْ مِسْكٌ﴾ قال: شراب أبيض مثل الفضة، يخمون به شرابهم، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها، وعن مجاهد قال: طيبه مسك [ينظر: الطبري ١٠٧/٣٠]، وقوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾؛ أي: وفي مثل هذا الحال فليتنافخ المتفاخرون، ويتكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون، كقوله: ﴿لَمِئْلٌ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصفات: ٦١]، وقوله: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾؛ أي: ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم؛ أي: من شراب يقال له تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه. قاله أبو صالح والضحاك، ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾؛ أي: يشربها المقربون صِرْفًا، وتُمَزَّجُ لأصحاب اليمين مَزْجًا، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، وقتادة وغيرهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۖ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۖ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۖ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۚ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ۚ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۚ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۚ هَلْ نُؤَبِّ السَّاعَةِ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۚ﴾

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين؛ أي: يستهزئون بهم ويحتقرونهم، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم؛ أي: محتقرين لهم ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾؛ أي: وإذا انقلب إلى منازلهم، انقلبوا إليها فاكهين؛ أي: مهما طلبوا وجدوا، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾؛ أي: لكونهم على غير دينهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾؛ أي: وما بُعث هؤلاء المجرمون حافِظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم، فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم؟ كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَخْسَأُ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءَ حَتَّىٰ أَسْوَكَم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨ - ١١١]، ولهذا قال ها هنا: ﴿فَالْيَوْمَ﴾؛ يعني: يوم القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾؛ أي: في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾؛ أي: إلى الله وَجَّكَ في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون، ليسوا بضالين بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته. وقوله: ﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتقصص أم لا؟ يعني: قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكملة.



## تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية

روى البخاري [٧٣٢] عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد، فقلت له: فقال: سجدت خلف أبي القاسم عليه السلام فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ ۖ فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتْبَهُ بِمِيزْنِهِ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۖ وَنُقَلِّبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتْبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۖ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۖ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ۖ بَلَّغَ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۖ﴾.

يقول تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وذلك يوم القيامة، ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾؛ أي: استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق وذلك يوم القيامة ﴿وَحُقَّتْ﴾؛ أي: وحق لها أن تطيع أمره؛ لأنه العظيم الذي لا يُمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء، ثم قال: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾؛ أي: بُسطت ووسَّعت.

وقوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾؛ أي: أَلقت ما في بطنها من الأموات، وتخلت منهم. قاله مجاهد، وسعيد، و قتادة ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ كما تقدم.

وقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾؛ أي: إنك ساع إلى ربك سعيًا، وعامل عملاً ﴿فَمُلْقِيهِ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر، ومن الناس من يعيد الضمير على قوله ربك؛ أي: فملاق ربك، ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك، وعلى هذا فكلما القولين متلازم، وعن ابن عباس: ﴿يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ يقول: تعمل عملاً تلقى الله به خيراً كان أو شراً.

وقال قتادة: إن كدحك يا ابن آدم لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل، ولا قوة إلا بالله، ثم قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتْبَهُ بِمِيزْنِهِ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؛ أي: سهلاً بلا تعسير؛ أي: لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله، فإن من حوسب كذلك يهلك لا محالة، وروى الإمام أحمد [٢٤٢٤٦] عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ نُوقِشَ



الْحِسَابِ عَذَابٌ). قالت: فقلت: أفليس قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قال: (لَيْسَ ذَلِكَ بِالْحِسَابِ وَلَكِنَّ ذَلِكَ الْعَرَضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابٌ)، وهكذا رواه البخاري [١٠٣ بنحوه].

وروى أحمد [٢٤٢٦١] عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: (اللَّهُمَّ حَاسِبِي حِسَابًا يَسِيرًا)، فلما انصرف قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال: (أَنْ يُنْظَرَ فِي كِتَابِهِ فَيَتَجَاوَزَ لَهُ عَنْهُ، إِنَّهُ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَا عَائِشَةُ يَوْمَئِذٍ هَلْكَ) صحيح على شرط مسلم [ورواه بنحوه/٢٨٧٦].

وقوله: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾؛ أي: ويرجع إلى أهله في الجنة. قاله قتادة، والضحاك، ﴿مَسْرُورًا﴾؛ أي: فرحًا مغبطًا بما أعطاه الله ﷻ.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوِّقَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾؛ أي: بشماله من وراء ظهره، تُثْنَى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾؛ أي: خسارًا وهلاكًا، ﴿وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا﴾ (١٦) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا؛ أي: فرحًا لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل، ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾؛ أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته، قاله ابن عباس، و قتادة وغيرهما. والْحَوْرُ: هو الرجوع. قال الله: ﴿بَلَىٰ إِنْ رَبُّكَ كَانَ بِبَصِيرَةٍ﴾؛ يعني: بلى سيعيده الله كما بدأه ويجازيه على أعماله خيرا وشرا، فإنه كان به بصيرًا؛ أي: عليمًا خبيرًا.

﴿فَلَا أُفْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقِ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾.

رُوي عن علي، وابن عباس، وعبادة بن الصامت، وأبي هريرة، وابن عمر وغيرهم أنهم قالوا: الشفق: الحمرة، وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: الشفق البياض، فالشفق هو حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس كما قاله مجاهد، وإما بعد غروبها كما هو معروف عند أهل اللغة. قال الخليل بن أحمد: الشفق: الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق، وقال الجوهري: الشفق: بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب من العتمة، وكذا قال عكرمة: الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء.

وفي «صحيح مسلم» [٦١٢] عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: (وَقْتُ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبِ الشَّفَقُ)، ففي هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهري والخليل، ولكن صح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: ﴿فَلَا أُفْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ هو النهار كله، وفي رواية عنه أيضًا أنه قال: الشفق الشمس، وإنما حملة على هذا قرأه بقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾؛ أي:

جمع، كأنه أقسم بالضياء والظلام، وقال ابن جرير [١١٩/٣٠]: أقسم الله بالنهار مدبراً، وبالليل مقبلاً، وقال ابن جرير: وقال آخرون: الشفق اسم للحمرة والبياض، وقالوا: هو من الأضداد. قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وقتادة: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ وما جمع. قال قتادة: وما جمع من نجم ودابة، وقال عكرمة: ﴿وَالْأَيْلَ وَمَا وَسَقَ﴾ يقول: ما ساق من ظلمة إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه.

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا آسَقَ﴾ قال ابن عباس: إذا اجتمع واستوى، وكذا قال مجاهد ومسروق، وابن زيد [وغيرهم]. ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا آسَقَ﴾ إذا استوى. وقال الحسن: إذا اجتمع، إذا امتلأ، وقال قتادة: إذا استدار ومعنى كلامهم أنه إذا تكامل نوره وأبدر، جعله مقابلاً لليل وما وسق، وقوله: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ روى البخاري عن ابن عباس: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ حالاً بعد حال قال هذا نبيكم ﷺ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبي ﷺ، كأنه قال: سمعت هذا من نبيكم ﷺ فيكون قوله نبيكم مرفوعاً على الفاعلية من قال، وهو الأظهر، وروى ابن جرير [١٢٢/٣٠] عنه: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ قال: يعني: نبيكم ﷺ يقول: حالاً بعد حال، وكذا قال مجاهد، والحسن، ومسروق [وغيرهم]، ويحتمل أن يكون المراد: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ حالاً بعد حال، قال هذا؛ يعني: المراد بهذا نبيكم ﷺ فيكون مرفوعاً على أن «هذا»، و«نبيكم» مبتدأ وخبراً، والله أعلم. ولعل هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة كما روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ قال: محمد ﷺ، ويؤيد هذا المعنى قراءة أهل مكة والكوفة: (لَتَرْكَبَنَّ) بفتح التاء والباء. وعن الشعبي: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ قال: لتركب يا محمد سماء بعد سماء، وهكذا روي عن ابن مسعود، ومسروق، وأبي العالية.

قلت: يعنون ليلة الإسراء، وعن ابن عباس: ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ منزلاً على منزل، وقال السدي: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ أعمال من قبلكم منزلاً بعد منزل. قلت: كأنه أراد معنى الحديث الصحيح: (لَتَرْكَبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذَوُ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحَرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ). قالوا يا رسول الله: اليهود والنصارى قال: (فَمَنْ؟) [البخاري/٣٢٦٩ ومسلم/٢٦٦٩ كلاهما بلفظ قريب]، وهذا محتمل.

وعن مكحول في قول الله: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ قال: في كل عشرين سنة تحدثون أمراً لم تكونوا عليه. وقال عبد الله [بن مسعود]: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾: السماء تشقق ثم تحمر، ثم تكون لوناً بعد لون.

وقال سعيد بن جبیر: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ قال قوم: كانوا في الدنيا خسيس أمرهم، فارتفعوا في الآخرة، وآخرون كانوا أشرافاً في الدنيا، فاتضعوا في الآخرة، وقال عكرمة: ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ حالاً بعد حال، فطيماً بعدما كان رضيعاً، وشيخاً بعدما كان شاباً، وقال الحسن البصري: ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ يقول: حالاً بعد حال، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقر بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقماً بعد صحة.

قال ابن جرير [١٢٢/٣٠] بعدما حكى أقوال الناس في هذه الآية من القراء والمفسرين:

والصواب من التأويل قول من قال لَتَرْكَبْنَ أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ حَالًا بَعْدَ حَالٍ وَأَمْرًا بَعْدَ أَمْرٍ مِنَ الشَّدَائِدِ، والمراد بذلك - وإن كان الخطاب موجهاً إلى رسول الله ﷺ - جميع الناس وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالاً، وقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ؛ أي: فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الله وكلامه وهو هذا القرآن، لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً؟ وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾؛ أي: من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة: يكتُمون في صدورهم ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: فأخبرهم يا محمد بأن الله ﷻ قد أعد لهم عذاباً أليماً.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذا استثناء منقطع؛ يعني: لكن الذين آمنوا؛ أي: بقلوبهم وعملوا الصالحات؛ أي: بجوارحهم ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾؛ أي: في الدار الآخرة: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ قال ابن عباس: غير منقوص. وقال مجاهد والضحاك: غير محسوب، وحاصل قولهما أنه غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ﴾ [هود: ١٠٨].



## تفسير سورة البروج

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ مُّشْهُودٍ ۝٣ قُلْ أَصْحَبُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَبْتُؤُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾.

يقسم تعالى بالسمااء وبروجها، وهي: النجوم العظام، كما تقدم بيان ذلك في قوله: ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّبِينًا﴾ [الفرقان: ٦١]. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي: البروج: النجوم. وعن مجاهد أيضًا: البروج التي فيها الحرس. وقال يحيى بن رافع: البروج قصور في السماء، وقال المنهال بن عمرو ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾: الخلق الحسن. واختار ابن جرير أنها: منازل الشمس والقمر وهي اثنا عشر برجًا، تسير الشمس في كل واحد منها شهرًا، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلاثًا، فذلك ثمانية وعشرون منزلًا، ويستمر ليلتين.

وقوله: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ مُّشْهُودٍ﴾ اختلف المفسرون في ذلك. فروى الإمام أحمد [٧٩٥٩] عن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة. وقد روي عن أبي هريرة أنه قال: اليوم الموعود يوم القيامة، وكذلك قال الحسن وقتادة، وابن زيد.

وعن ابن عباس قال: الشاهد هو محمد ﷺ والمشهود يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وعن شباك قال: سأل رجل الحسن بن علي عن ﴿وَشَاهِدٍ مُّشْهُودٍ﴾ قال: سألت أحدًا قبلي؟ قال: نعم، سألت ابن عمر، وابن الزبير فقالا: يوم الذبح ويوم الجمعة. فقال: لا، ولكن الشاهد محمد ﷺ، ثم قرأ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، والمشهود يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، وهكذا قال الحسن البصري وسعيد بن المسيب. ﴿وَمُشْهُودٍ﴾ يوم القيامة.

وقال مجاهد، وعكرمة، والضحاك: الشاهد: ابن آدم، والمشهود: يوم القيامة، وعن عكرمة أيضًا: الشاهد: محمد ﷺ، والمشهود: يوم الجمعة، وقال ابن عباس: الشاهد: الله

والمشهدود: يوم القيامة، وعن ابن عباس قال: الشاهد: الإنسان، والمشهدود يوم الجمعة [الطبري ١٣٠/٣٠].

وعنه [أيضاً] قال: الشاهد يوم عرفة، والمشهدود يوم القيامة، وعن إبراهيم قال: يوم الذبح ويوم عرفة؛ يعني: الشاهد والمشهدود، قال ابن جرير [١٣٠/٣٠] وقال آخرون: المشهدود يوم الجمعة.

وعن سعيد بن جببر الشاهد: الله، وتلا ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، والمشهدود: نحن. حكاها البغوي، وقال الأكثرون على أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهدود: يوم عرفة.

وقوله: ﴿قُلْ أَصْحَبُ الْأُخْدُودِ﴾؛ أي: لعن أصحاب الأخدود، وجمعه أخاديد، وهي الحفر في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عَمَدُوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله ﷻ، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأَجَبُوا فيه ناراً، وأعدوا لها وقوداً يسعون بها، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقفزوهم فيها، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَصْحَبُ الْأُخْدُودِ ۖ النَّارِ ذَاتِ الْوُوقُودِ ۖ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۖ﴾؛ أي: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾؛ أي: وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذ بجناحه المنيع، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وإن كان قد قَدَّر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به، فهو العزيز الحميد، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس.

ثم قال: ﴿أَلَدَىٰ لَهٗ مَلَكٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ أي: لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض، ولا تخفى عليه خافية. وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم؟ فعن علي رضي الله عنه: أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزوج المحارم، فامتنع عليه علماءهم، فعمد إلى حُفَرِ أخدود فقفذ فيه من أنكر عليه منهم، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم، وعنه: أنهم كانوا قومًا باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم، فغلب مؤمنوهم على كفارهم، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين، فخذوا لهم الأخاديد، وأحرقوهم فيها، وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة، وعن ابن عباس قال: ناس من بني إسرائيل، خَدُّوا أخدودًا في الأرض، ثم أوقدوا فيه ناراً، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فَعَرَضُوا عليها، وزعموا أنه دانيال وأصحابه، وهكذا قال الضحاك، وقيل غير ذلك [ينظر: الطبري ١٣٢/٣٠].

وقد روى الإمام أحمد [٢٣٩٧٦] عن ضُهِيب أن رسول الله ﷺ قال: (كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مَلِكٌ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبُرَ السَّاحِرُ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبُرَ سِنِّي وَحَضَرَ أَجْلِي، فَادْفَعْ إِلَيَّ غُلَامًا لِأُعَلِّمَهُ السَّحْرَ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلَامًا فَكَانَ يُعَلِّمُهُ السَّحْرَ، وَكَانَ بَيْنَ السَّاحِرِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ رَاهِبٌ، فَاتَى الْغُلَامُ عَلَى الرَّاهِبِ فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِ، فَأَعْجَبَهُ نَحْوُهُ وَكَلَامُهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ وَقَالَ: مَا حَبَسَكَ؟ وَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرَبُوهُ وَقَالُوا: مَا حَبَسَكَ؟ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ،

فَقَالَ: إِذَا أَرَادَ السَّاحِرُ أَنْ يَضْرِبَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا أَرَادَ أَهْلُكَ أَنْ يَضْرِبُوكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ فَطِيعَةٍ، قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجُوزُوا، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرَ الرَّاهِبِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ أَمْ أَمْرُ السَّاحِرِ، قَالَ: فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ وَأَرْضَى مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ، فَأَقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَجُوزَ النَّاسُ، وَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَخْبَرَ الرَّاهِبَ بِذَلِكَ فَقَالَ: أَيُّ بَنِي، أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَذَلَّ عَلَيَّ. فَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَسَائِرَ الْأَدْوَاءِ وَيَشْفِيهِمْ، وَكَانَ لِلْمَلِكِ جَلِيسٌ فَعَمِي، فَسَمِعَ بِهِ، فَأَتَاهُ بِهِدَايَا كَثِيرَةً فَقَالَ: أَشْفِينِي وَلَكَ مَا هَهُنَا أَجْمَعُ، فَقَالَ: مَا أَنَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ ﷻ فَإِنْ آمَنْتَ بِهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ فَأَمِنَ فَدَعَا اللَّهَ فَشَفَاهُ. ثُمَّ أَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ مِنْهُ نَحْوَ مَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا فُلَانُ، مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ فَقَالَ: رَبِّي؟ فَقَالَ: أَنَا؟ قَالَ: لَا رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَيُّ بَنِي، بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ أَنْ تُبْرِئَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَهَذِهِ الْأَدْوَاءُ؟ قَالَ: مَا أَشْفِي أَنَا أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ ﷻ، قَالَ: أَنَا؟ قَالَ: لَا. قَالَ: أَوْلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ أَيْضًا بِالْعَذَابِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَأَتَى بِالرَّاهِبِ فَقَالَ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ، وَقَالَ لِلْأَعْمَى: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَقَالَ لِلْغُلَامِ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا، وَقَالَ: إِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَدْهَبُوا مِنْ فَوْقِهِ، فَدْهَبُوا بِهِ، فَلَمَّا عَلَوْا بِهِ الْجَبَلَ قَالَ: اللَّهُمَّ، اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَزَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَدْهَبُوا أَجْمَعُونَ، وَجَاءَ الْغُلَامُ يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ فِي قُرُورٍ فَقَالَ: إِذَا لَجَحْتُمْ بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَعَرِّقُوهُ فِي الْبَحْرِ، فَلَجَّجُوا بِهِ الْبَحْرَ فَقَالَ الْغُلَامُ: اللَّهُمَّ، اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَعَرِّقُوا أَجْمَعُونَ، وَجَاءَ الْغُلَامُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمْرُكَ بِهِ، فَإِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ مَا أَمْرُكَ بِهِ قَتَلْتَنِي، وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ قَتْلِي. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ تَصْلُبُنِي عَلَى جَذَعٍ، وَتَأْخُذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ قُلْ: «بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ»، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَفَعَلَ، وَوَضَعَ السَّهْمَ فِي كِبِدِ قَوْسِهِ ثُمَّ رَمَاهُ، وَقَالَ: «بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ»، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صَدْغِهِ، فَوَضَعَ الْغُلَامُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ السَّهْمِ وَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَقِيلَ لِلْمَلِكِ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ فَقَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَأَمَرَ بِأَقْوَاهِ السَّكِكِ فَخُدَّتْ فِيهَا الْأَخَادِيدُ، وَأُضْرِمَتْ فِيهَا النَّيْرَانُ، وَقَالَ: مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ فَدَعُوهُ وَإِلَّا فَأَقْجِمُوهُ فِيهَا، قَالَ: فَكَانُوا يَتَعَادَوْنَ

فِيهَا وَيَتَذَفَعُونَ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا تُرْضِعُهُ، فَكَانَتْهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النَّارِ، فَقَالَ الصَّبِيُّ: اصْبِرِي يَا أُمَّاهُ، فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ).

وهكذا رواه مسلم في آخر «الصحیح» [٣٠٠٥] نحوه، وقد جوده الإمام أبو عيسى الترمذي فرواه في تفسير هذه السورة [٣٣٤٠] عن صهيب قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر همس والهمس في بعض قولهم تحريك شفثيه كأنه يتكلم فقليل له: إنك يا رسول الله إذا صليت العصر همست، قال: (إِنْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، كَانَ أُعْجِبَ بِأَمْرِهِ فَقَالَ: مَنْ يَقُومُ لَهُوْلَاءِ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ خَيْرُهُمْ بَيْنَ أَنْ أَنْتَقِمَ مِنْهُمْ، وَبَيْنَ أَنْ أَسْلَطَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، فَاخْتَارُوا النَّقْمَةَ، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا) قال: وكان إذا حدث بهذا الحديث، حدث بهذا الحديث الآخر قال: (كَانَ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ، وَكَانَ لِذَلِكَ الْمَلِكِ كَاهِنٌ تَكْهَنُ لَهُ، فَقَالَ الْكَاهِنُ: انْظُرُوا لِي غُلَامًا فَهَمَّا أَوْ قَالَ: فَطِنَّا لَقْنَا فَأَعْلَمَهُ عِلْمِي هَذَا فَذَكَرَ الْقِصَّةَ بِتَمَامِهَا، وَقَالَ فِي آخِرِهِ: يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: ﴿قَتِلْ أَحَبُّ الْأَعْدُوِّ﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُدُودِ - حَتَّى بَلَغَ -: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ قَالَ: فَأَمَّا الْغُلَامُ فَإِنَّهُ دُفِنَ، فَيُذَكَّرُ أَنَّهُ أُخْرِجَ فِي زَمَانِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَإِصْبَعُهُ عَلَى صُدْغِهِ كَمَا وَضَعَهَا حِينَ قُتِلَ)، ثم قال الترمذي: حسن غريب، وهذا السياق ليس فيه صراحة، أن سياق هذه القصة من كلام النبي ﷺ قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: فيحتمل أن يكون من كلام صهيب الرومي، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى والله أعلم.

وعن السدي قال: كانت الأخدود ثلاثة: حُذَّ بالعراق، وحُذَّ بالشام، وحُذَّ باليمن، وعن مقاتل قال: كانت الأخدود ثلاثة: واحد بنجران باليمن، والأخرى بالشام، والأخرى بفارس حرقوا بالنار، أما التي بالشام فهو انطنانوس الرومي، وأما التي بفارس فهو بختنصر، وأما التي بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس، فأما التي بفارس والشام فلم ينزل الله تعالى فيهما قرآنًا وأنزل في التي كانت بنجران.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ أي: حرقوا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن أبيزى [الطبري ١٣٧/٣٠]. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾؛ أي: لم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾، وذلك أن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعْدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَقَالَ لَمَّا رِيْدُ (١٦) هَلْ أَنْتَكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْجٍ مَحْفُوظٍ (٢٢).

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ أي:

إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوي، فإنه تعالى ذو القوة المتين الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر أو هو أقرب، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعْدُ﴾؛ أي: من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ويعيده كما بدأه، بلا ممانع ولا مدافع ﴿وَهُوَ الْفُورُ الْوَدُودُ﴾؛ أي: يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ولو كان الذنب من أي شيء كان. والودود - قال ابن عباس وغيره -: هو الحبيب، ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾؛ أي: صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق. و﴿الْمَجِيدُ﴾ فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب تَعَالَى، والجعر على أنه صفة للعرش وكلاهما معنى صحيح [الطبري ٣٠/١٣٩]. ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾؛ أي: مهما أراد فعله، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل، لعظمته وقهره وحكمته وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصديق أنه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعال لما أريد.

وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجَنَّاتِ﴾ (١٧) ﴿وَرَعُونَ وَتَمُودُ﴾؛ أي: هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النعمة التي لم يردوها عنهم أحد؟ وهذا تقرير لقوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ أي: إذا أخذ الظالم أخذه أخذًا أليمًا شديدًا أخذ عزيز مقتدر.

وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾؛ أي: هم في شك وكفر وعناد، ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾؛ أي: هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه، ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾؛ أي: عظيم كريم ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾؛ أي: هو في الملاء الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل.

وعن أنس بن مالك في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (٢١) ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ قال: إن اللوح المحفوظ الذي ذكر الله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (٢١) ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ في جبهة إسرافيل [الطبري ٣٠/١٤٠].

وقال الحسن البصري: إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوح محفوظ ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه، وقال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش [البغوي ٤/٤٧٢].





## تفسير سورة الطارق

وهي مكية

روى النسائي [١١٦٤] عن جابر قال: صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: (أَفَتَأْتَانِي يَا مُعَاذُ؟ مَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقْرَأَ بِالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَنَحْوَهَا؟) [إسناده صحيح].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (٢) إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

يقسم تعالى بالسما و ما جعل فيها من الكواكب النيرة، ولهذا قال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ثم فسر به بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقاً؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار، ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً [البخاري/٤٩٤٥ ومسلم/٧١٥]؛ أي: يأتيهم فجأة بالليل.

وقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ قال ابن عباس: المضيء وقال السدي: يثقب الشياطين إذا أُرْسِلَ عليها، وقال عكرمة: هو مضيء ومحرق للشيطان.

وقوله: ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾؛ أي: كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات، كما قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد؛ لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقوله: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾؛ يعني: المني، يخرج دافعاً من الرجل ومن المرأة، فيتولد منهما الولد بإذن الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾؛ يعني: صلب الرجل وترائب المرأة، وهو صدرها، قال ابن عباس: صلب الرجل وترائب المرأة أصفر رقيق، لا يكون الولد إلا منهما، وكذا قال سعيد بن جبيرة، وعكرمة، وقاتدة، والسدي وغيرهم، وعن ابن عباس قال: هذه الترائب، ووضع يده على صدره، وعن ابن عباس: تربية المرأة موضع القلادة، وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبيرة، وقال ابن عباس [أيضاً]: الترائب: بين ثدييها، وعن مجاهد: الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر، وعنه أيضاً: الترائب أسفل من التراقي. وقال سفيان الثوري: فوق الثديين، وعن

سعيد بن جبير: الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل، وعن الضحاك: الترائب بين الثديين والرجلين والعينين، وعن قتادة: من بين صلبه ونحره [ينظر: الطبري ١٤٣/٣٠].

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجَمِهِ لَقَادِرٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك. قاله مجاهد، وعكرمة وغيرهما. والثاني: إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق؛ أي: إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر؛ لأن: من قدر على البداءة قدر على الإعادة، وقد ذكر الله ﷻ هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع، وهذا القول قال به الضحاك واختاره ابن جرير [١٤٦/٣٠]، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ بُلَى السَّارِقُ﴾؛ أي: يوم القيامة تبلى فيه السرائر؛ أي: تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية والمكنون مشهوراً، وقد ثبت في «الصحيحين» عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (يُرْفَعُ لِكُلِّ عَادِرٍ لَوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يُقَالُ: هَذِهِ عَدْرَةُ فُلَانٍ بَنِ فُلَانٍ) [البخاري نحوه/ ٥٨٣٤ ومسلم/ ١٧٣٦].

وقوله: ﴿مَا لَهُمْ﴾؛ أي: الإنسان يوم القيامة ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾؛ أي: في نفسه ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾؛ أي: من خارج منه؛ أي: لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله، ولا يستطيع له أحد ذلك.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّعِ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۝ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ۝ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَكَيْدٌ كَيْدًا ۝ فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُؤْبًا ۝﴾.

قال ابن عباس: الرجع: المطر. وعنه: هو السحاب فيه المطر، وعنه: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ تمطر ثم تمطر، وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم، وقال ابن زيد: ترجع نجومها وشمسها وقمرها، يأتين من هاهنا.

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّعِ﴾ قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات، وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبو مالك، والضحاك، والحسن، وقاتدة، والسدي وغير واحد، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ قال ابن عباس: حق. وكذا قال قتادة: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ﴾؛ أي: بل هو حق جد، ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله، فقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾؛ أي: يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن، ثم قال: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: أنظرهم ولا تستعجل لهم، ﴿أَهْلُهُمْ رُؤْبًا﴾؛ أي: قليلاً؛ أي: وترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك، كما قال: ﴿نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].



## تفسير سورة الأعلى

وهي مكية

والدليل على ذلك ما رواه البخاري [٤٦٥٧] عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلوا يقرئنا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين. ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله قد جاء، فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سُرور مثلها، وثبت في «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: (هَلَا صَلَّيْتُ بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَّهَا﴾، ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا بَقِيَ﴾) [البخاري/٦٧٣ ومسلم/٤٦٥ بنحوه].

وروى مسلم [٨٧٨] عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى، وهل أذاك حديث الغاشية، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما، وقد روى الإمام أحمد [٣١١٨٠ - ١٥٣٩١] من حديث أبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، وعبد الرحمن بن أبزى، وعائشة أم المؤمنين: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، زادت عائشة والمعوذتين [وهو صحيح]، وهكذا روي الحديث من طريق جابر، وأبي أمامة، وعبد الله بن مسعود، وعمران بن حصين، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أخرجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَيُخَوِّفُ لِّلِيسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَنْجِنِهَا أَلَّا تَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣).

روى الإمام أحمد [٢٠٦٦] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: (سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى) [رجال إسناده ثقات]. وقال عبد خير: سمعت علياً قرأ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فقال: سبحان ربي الأعلى.

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾؛ أي: خلق الخليقة وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات، وقوله: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ قال مجاهد: هدى الإنسان للشقاوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراتها، وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ

خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿طه: ٥٠﴾؛ أي: قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، كما ثبت في «صحيح مسلم» [٢٦٥٣] عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)، وقوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾؛ أي: من جميع صنوف النباتات والزرع، ﴿فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى﴾ قال ابن عباس: هشيماً متغيراً، وعن مجاهد، وقتادة، وابن زيد نحوه.

وقوله: ﴿سَتَقَرُّكَ﴾؛ أي: يا محمد ﴿فَلَا تَنْسَى﴾، وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه له. بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وهذا اختيار ابن جرير [١٥٤/٣٠]، وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله، وقيل: المراد بقوله: ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ طلب، وجعلوا معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ؛ أي: لا تنسى ما نقرئك إلا ما شاء الله رفعه، فلا عليك أن تتركه. وقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾؛ أي: يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه من ذلك شيء.

وقوله: ﴿وَيُنِيرُكَ لِلْيُسْرَى﴾؛ أي: نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً، لا اعوجاج فيه ولا حرج، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾؛ أي: ذكر حيث تنفع التذكرة، ومن هاهنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم، وقال: حدث الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟ وقوله: ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾؛ أي: سيتعظ بما تبلغه يا محمد مَنْ قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه، ﴿وَنَجِّنَا الْأَشْقَى﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٧﴾ ثُمَّ لَا يَبُوءُ فِيهَا وَلَا يَخْشَى﴾؛ أي: لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه، بل هي مضرة عليه؛ لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال.

روى الإمام أحمد [١١٠٩٢] عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ أَنَاسٌ - أَوْ كَمَا قَالَ - تُصَيِّهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ - فَيُيَبِّتُهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْمًا أُذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَنَبَتُوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، فَيَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ. فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ). قال: فقال رجل من القوم حينئذٍ: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية، ورواه مسلم [١٨٥].

وقد قال الله تعالى إخبارًا عن أهل النار: ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ ١٤ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ ١٥ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ١٦ ﴿وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ﴾ ١٧ ﴿وَأَبْقَى﴾ ١٨ ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ١٩ ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ ٢٠.

يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾؛ أي: طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله

على الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾؛ أي: أقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتنالاً لشرع الله، وقال ابن عباس: إن المراد بذلك الصلوات الخمس، واختاره ابن جرير [١٥٧/٣٠].

وروي عن أبي العالية [أنه] قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى وقال: إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء.

قلت: وكذلك روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر ويتلو هذه الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى، وقال أبو الأحوص: إذا أتى أحدكم سائلٌ وهو يريد الصلاة فليقدم بين يدي صلاته زكاته، فإن الله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى وقال قتادة: زكى ماله وأرضى خالقه.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: تقدمونها على أمر الآخرة، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾؛ أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دنية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد.

روى الإمام أحمد [٢٤٤٦٤] عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (الدُّنْيَا دَارٌ مِّنْ لَا دَارَ لَهُ، وَمَالٌ مِّنْ لَا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَن لَّا عَقْلَ لَهُ) [قال في «المجمع»: رجاله رجال الصحيح غير ذويد وهو ثقة]، وروى ابن جرير [١٥٧/٣٠] عن عرفجة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ - فلما بلغ - ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم فقال: آثرنا الدنيا لأننا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل، وهذا منه على وجه التواضع والهضم أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿١٥﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى روى الحافظ أبو بكر البزار [والحاكم/٢٩٣٠] عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿١٥﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى قال النبي ﷺ: (كَانَ كُلُّ هَذَا - أَوْ: كَانَ هَذَا - فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) [سنده حسن]، وقال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف الأولى، واختار ابن جرير [١٥٨/٣٠] أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا﴾؛ أي: مضمون هذا الكلام ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿١٧﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وهذا اختيار حسن قوي، وقد روي عن قتادة، وابن زيد نحوه، والله أعلم.



## تفسير سورة الغاشية

وهي مكية

قد تقدم عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة [رواه مسلم/٨٧٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ① ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ ② ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ ③ ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ ④ ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ أَانِيَةٍ﴾ ⑤ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ⑥ ﴿لَا يَسْنُوْنَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمُ جُوعٌ﴾ ⑦ .

الغاشية: من أسماء يوم القيامة. قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد؛ لأنها تغشى الناس وتعمهم، وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾؛ أي: ذليلة. قاله قتادة، وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها، وقوله: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾؛ أي: قد عملت عملاً كثيراً، ونصبت فيه، وصليت يوم القيامة ناراً حامية، ورُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مر بدير راهب، فناداه: يا راهب يا راهب، فأشرف. فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله ﷻ في كتابه: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ ③ ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ ④ فذاك الذي أبكاني [الحاكم/٣٩٢٥].

وقال البخاري [١٨٨٦/٤]: قال ابن عباس ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ ③ النصارى، وعن عكرمة والسدي: عاملة في الدنيا بالمعاصي، وناصبية في النار بالعذاب والأغلال، قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ ④؛ أي: حارة شديدة الحر ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ أَانِيَةٍ﴾ ⑤؛ أي: قد انتهت حرها وغليانها، قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، والسدي: وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ⑥ قال ابن عباس: شجر من النار، وقال سعيد بن جبیر: هو الزقوم، وعنه: أنها الحجارة، وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو الجوزاء، وقتادة: هو الشبرق. قال قتادة: قريش تسميه في الربيع الشبرق وفي الصيف الضريع. قال عكرمة: شجرة ذات شوك لا طئة بالأرض، وعن قتادة: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ⑥ من شر الطعام وأبشعه وأخبثه، وقوله: ﴿لَا يَسْنُوْنَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمُ جُوعٌ﴾ ⑦؛ يعني: لا يحصل به مقصود ولا يندفع به محذور.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ ⑧ ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ ⑨ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ⑩ ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ ⑪ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ⑫ ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ ⑬ ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ ⑭ ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ ⑮ ﴿وَزَرَارِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ ⑯ .

لما ذكر حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ ⑧؛ أي: يوم القيامة

﴿نَاعِمَةٌ﴾؛ أي: يُعَرَفُ النعيم فيها، وإنما حَصَلَ لها ذلك بسعيها، وقال سفيان: ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾ قد رُضيت عملها، وقوله: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾؛ أي: رفِعة بهية في الغرفات آمنون ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغَيْفَةٌ﴾؛ أي: لا يُسْمَعُ في الجنة التي هم فيها كلمة لغو، كما قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾؛ أي: سارحة وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها عينا واحدة وإنما هذا جنس؛ يعني: فيها عيون جاريات. ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾؛ أي: عالية ناعمة كثيرة الفرش، مرتفعة السمك، عليها الحور العين، قالوا: فإذا أراد وليُّ الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾؛ يعني: أواني الشرب معدة مُرصدة لمن أرادها من أربابها، ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ قال ابن عباس: النمارق: الوسائد، وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدي، والثوري وغيرهم، وقوله: ﴿وَزَوَارِبٌ مَبْنُوتَةٌ﴾ قال ابن عباس: الزرابي: البسط، وكذا قال الضحاك وغير واحد، ومعنى مبنوثة؛ أي: هاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧) ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨) ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩) ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٠) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٢٢) ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (٢٣) ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ (٢٤) ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٢٥) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (٢٦).

يقول تعالى أمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؟ فإنها خُلِقَ عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها ونبهوا بذلك؛ لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت! أي: كيف رفعها الله ﴿وَعَجَّلَ﴾ عن الأرض هذا الرفع العظيم، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾؛ أي: جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لثلا تميد الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن. ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾؛ أي: كيف بسطت ومدت ومهدت، فنَبَّه البدويَّ على الاستدلال بما يشاهده من بعيده الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه.

وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾؛ أي: فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، ولهذا قال: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ قال

ابن عباس، ومجاهد وغيرهما: لست عليهم بجبار. وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان. روى الإمام أحمد [١٤٢٤٧] عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ ﷻ)، ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿١٦﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿١٧﴾ ورواه مسلم [٢١].

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾؛ أي: تولى عن العمل بأركانه، وكفر بالحق بجنانه ولسانه، وهذه كقوله: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ ﴿٢١﴾ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]، ولهذا قال: ﴿فَعَذَّبَهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾؛ أي: مرجعهم ومنقلبهم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾؛ أي: نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.





## تفسير سورة الفجر

وهي مكية

روى النسائي [١١٦٧٣] عن جابر قال: صلى معاذ صلاةً، فجاء رجل فصلى معه، فطَوَّلَ، فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذًا فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى فقال: يا رسول الله: جئت أصلي معه فطَوَّلَ علي، فانصرفت وصليت في ناحية المسجد، فعلفت ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: (أَفَتَأَن يَا مُعَاذُ؟ أَأَيَّنَ أَنْتَ مِنْ ﴿سَجَّ أَسَرَ رَبِّكَ أَلْعَلِّي﴾، ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾، ﴿وَالْفَجْرِ﴾، ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾) [سنده صحيح].

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ﴾ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ١١ فَاكْتُرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ١٤ .

الفجر هو: الصبح، قاله علي، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والسدي، وعن مسروق، ومجاهد، ومحمد بن كعب: المراد به فجر يوم النحر خاصة، وهو خاتمة الليالي العشر، وقيل: المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده كما قاله عكرمة، وقيل: المراد به جميع النهار، وهو رواية عن ابن عباس، والليالي العشر: المراد بها عشر ذي الحجة، كما قاله ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وغير واحد من السلف والخلف [ينظر: الطبري ١٦٩/٣٠]، وقد ثبت في «صحيح البخاري» [٩٢٦] عن ابن عباس مرفوعاً: (مَا مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ)؛ يعني: عشر ذي الحجة قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: (وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ)، وقيل: المراد بذلك العشر الأول من المحرم، حكاه أبو جعفر بن جرير ولم يعزه إلى أحد، وقد روي عن ابن عباس قال: هو العشر الأول من رمضان، والصحيح القول الأول.

وقوله: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ الوتر يوم عرفة لكونه التاسع، والشفع يوم النحر لكونه العاشر، قاله ابن عباس، وعكرمة، والضحاك. قول ثانٍ: عن عطاء قال: الشفع يوم عرفة والوتر ليلة الأضحى. قول ثالث: قال ابن الزبير: الشفع أوسط أيام التشريق، والوتر آخر أيام التشريق، وفي «الصحيحين» من رواية أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا

وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وَتَرٌ يُحِبُّ الْوَتَرَ) [البخاري/٦٠٤٧ نحوه ومسلم/٢٦٧٧].

قول رابع: قال الحسن البصري وزيد بن أسلم: الخلق كلهم شفع، ووتر، أقسم تعالى بخلقه، وهو رواية عن مجاهد، والمشهور عنه الأول، وعن ابن عباس قال: الله وتر واحد، وأنتم شفع، ونحوه عن مجاهد، ويقال: الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب.

قول خامس: عن مجاهد: كل شيء خلقه الله شفع. السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، ونحو هذا، ونحا مجاهد في هذا ما ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]؛ أي: لتعلموا أن خالق الأزواج واحد. قول سادس: قال الحسن: هو العدد منه شفع ومنه وتر.

قول سابع: قال أبو العالية والربيع بن أنس وغيرهما: هي الصلاة، منها شفع كالرباعية والثنائية، ومنها وتر كالمغرب فإنها ثلاث وهي وتر النهار، وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل، ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر.

وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ قال ابن عباس: أي: إذا ذهب، وقال عبد الله بن الزبير: حتى يُذْهَبَ بعضه بعضًا، وقال مجاهد، وأبو العالية، وقتادة، وزيد بن أسلم، وابن زيد: إذا سار، وهذا يمكن حمله على ما قال ابن عباس؛ أي: ذهب، ويحتمل أن يكون المراد إذا سار؛ أي: أقبل، وقد يقال إن هذا أنسب؛ لأنه في مقابلة قوله: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل، فإذا حمل قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ على إقباله كان قسمًا بإقبال الليل وإدبار النهار، وبالعكس، كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ ١٧ ﴿وَالضُّحَىٰ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨]، وكذا قال الضحاك: ﴿إِذَا يَسِرُّ﴾؛ أي: يجري، وقال عكرمة: يعني: ليلة جَمْع.

وعن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ قال: اسر يا سار، ولا تبيتن إلا بجمع. وقوله: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾؛ أي: لذي عقل، وإنما سمي العقل حَجْرًا؛ لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال، ومنه حَجْرُ البيت؛ لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي، ومنه حَجَرُ الحاكم على فلان إذا منعه التصرف، وهذا القسم هو بأوقات العبادة، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقون المطيعون له، الخاشعون لوجهه الكريم، ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾، وهؤلاء كانوا جبارين، خارجين عن طاعته مكذابين لرسله، جاحدين لكتبه، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم وجعلهم أحاديث وعبرًا، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ١٨ ﴿إِمْ دَاثَ الْعِمَادِ﴾؟ وهؤلاء عاد الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم، قاله ابن إسحاق، وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودًا عليه السلام فكذبوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم، وأهلكهم ﴿يَرْجِ صَرْصَرٍ عَلَاتٍ﴾ ١٩ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثُمَّ غَيَّرَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغِي كَانَتْهُمْ أَعْجَارٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ٢٠ ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨] وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع ليعتبر بمصرعهم المؤمنون، فقله تعالى: ﴿إِمْ﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم.

وقوله: ﴿دَاثَ الْعِمَادِ﴾؛ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد

كانوا أشد الناس في زمانهم خَلْفَةً وأقواهم بطشاً، ولهذا ذكّرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وقال هاهنا: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِنْهَا فِي الْبَلَدِ﴾؛ أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم، قال مجاهد: إرم: أمة قديمة؛ يعني: عاداً الأولى، كما قال قتادة والسدي: إن إرم بيت مملكة عاد، وهذا قول حسن جيد وقوي، وقال مجاهد، وقتادة، والكلبي في قوله: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ كانوا أهل عمود لا يقيمون [ينظر: الطبري ٣٠/٧٥].

وقوله: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِنْهَا فِي الْبَلَدِ﴾ أعاد قتادة، وابن جرير الضمير على القبيلة؛ أي: لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد؛ يعني: في زمانهم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود كما هاهنا، والله أعلم، ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ مدينة إما دمشق، كما روي عن سعيد بن المسيب، وعكرمة، أو إسكندرية كما روي عن القرظي أو غيرهما ففيه نظر، فإنه كيف يلتزم الكلام على هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [١] إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ؟ إن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان، فإنه لا يتسق الكلام حينئذٍ، ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم.

وإنما نهت على ذلك لثلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية من ذكر مدينة يقال لها: إرم ذات العمداد، مبنية بلبن الذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها، وأن حصبائها لآلئ وجواهر، ترابها بنادق المسك، وأنهارها سارحة، وثمارها ساقطة، ودورها لا أنيس بها، وسورها وأبوابها تصفر ليس بها داع ولا مجيب، وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام، وتارة باليمن، وتارة بالعراق، وتارة بغير ذلك من البلاد، فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك.

وذكر الثعلبي [١٩٧/١٠] وغيره أن رجلاً من الأعراب وهو عبد الله بن قلابة في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت، فبينما هو يتيه في ابتغائها، إذ اطلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب، فدخلها فوجد فيها قريباً مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها، وأنه رجع فأخبر الناس فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئاً، وقد ذكر ابن أبي حاتم قصة إرم ذات العمداد هاهنا مطولة جداً فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك أو أنه أصابه نوع من الهوس والخيال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج وليس كذلك، وهذا مما يقطع بعدم صحته، وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين من وجود مطالب تحت الأرض، فيها قناطير الذهب والفضة وألوان الجواهر واليواقيت والآلئ والإكسير الكبير، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها

والأخذ منها، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير ونحو ذلك من الهذيانات وَيَطْنُونُ بِهِمْ، والذي يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزاً كثيرة من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله، فأما على الصفة التي زعموها فكذب وافتراء وبهت ولم يصح في ذلك شيء مما يقولونه إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم، والله ﷻ الهادي للصواب.

وقول ابن جرير [١٧٥/٣٠]: يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿إِرمَ ذَاتَ الْعِمَادِ﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تُصَرَفَ فيه نظر؛ لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة، ولهذا قال بعده: ﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾؛ يعني: يقطعون الصخر بالوادي، قال ابن عباس ينحتونها ويخرقونها، وكذا قال مجاهد، وقناة، والضحاك، وابن زيد، ومنه يقال: اجتتاب الثوب إذا فتحه، ومنه الجيب أيضاً، وقال الله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

وقال ابن إسحاق: كانوا عرباً، وكان منزلهم بوادي القرى، وقد ذكرنا قصة عاد في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته، وقوله: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ عن ابن عباس: الأوتاد: الجنود الذين يشدون له أمره. ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها، وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد، وهكذا قال سعيد بن جبير، والحسن، والسدي.

قال السدي: كان يربط الرجل، كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فتشده، وقال قتادة: بلغنا أنه كان له مَطَالٌ وملاعب، يلعب له تحتها من أوتاد وحبال، وعن أبي رافع: قيل لفرعون ذي الأوتاد؛ لأنه ضرب لامراته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت.

وقوله: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ ١١ ﴿فَاكْتَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾؛ أي: توردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾؛ أي: أنزل عليهم رجلاً من السماء، وأحل بهم عقوبة، لا يردّها عن القوم المجرمين.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْرَصَادٍ﴾ قال ابن عباس: يسمع ويرى؛ يعني: يرصد خلقه فيما يعملون، ويجازي كلًّا بسعيه في الدنيا والأخرى، وسُيَعْرَضُ الخلائقُ كلهم عليه، فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلًّا بما يستحقه، وهو المنزه عن الظلم والجور.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ ١٥ ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ ١٦ ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ ١٧ ﴿وَلَا تَحْصُونَ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ ١٨ ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْلاً لَمًّا﴾ ١٩ ﴿وَتَحْبُونَ أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ ٢٠.

يقول تعالى منكرًا على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان كما قال تعالى:

﴿يَحْسَبُونَ أَنَّما مُدْهَرُهُ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ۝٥٥ شَارِعُ لَهُمْ فِي الْحَيَرَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيّق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له. قال الله: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيّق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين: إذا كان غنيًّا بأن يشكر الله على ذلك وإذا كان فقيرًا بأن يصبر، وقوله: ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ فيه أمر بالإكرام له، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود [٥١٥٠] عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ) وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام [رواه البخاري/٥٦٥٩ نحوه]. ﴿وَلَا تَخْضَوْنَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾؛ يعني: لا يأمرؤن بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ويحث بعضهم على بعض في ذلك، ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ﴾؛ يعني: الميراث ﴿أَكْثَلًا لَمَّا﴾؛ أي: من أي جهة حصل لهم ذلك من حلال أو حرام، ﴿وَتُحْبَوْنَ أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾؛ أي: كثيرًا.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَآئِي لَهُ الذِّكْرَى ۝٢٣ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُؤْتِي وَثَاقَهُ أَحَدٌ ۝٢٦ يَتَأَنَّى النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ أَرْجَى إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَضَةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾.

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأحوال العظيمة، فقال: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: حقًّا ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾؛ أي: سويت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾؛ يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحدًا بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاك، حتى تنتهي النوبة إلى محمد ﷺ فيقول: (أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا)، فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء، فيشفعه الله تعالى في ذلك [جزء من حديث الشفاعة البخاري/٧٠٧٢ نحوه ومسلم/١٩٣]، وهي أول الشفاعات وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة سبحان [آية: ٧٩]، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا.

وقوله: ﴿وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ روى الإمام مسلم [٢٨٤٢] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يَجْرُونَهَا)

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ﴾؛ أي: عمله وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه، ﴿وَآئِي لَهُ الذِّكْرَى﴾؛ أي: وكيف تنفعه الذكرى؟ ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾؛ يعني: يندم على ما كان سلف منه من المعاصي - إن كان عاصيًا - ويود لو كان ازداد من الطاعات - إن كان طائعًا - كما روى الإمام أحمد [١٧٦٨٧] عن محمد بن أبي عميرة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ.

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية، فروى الضحاك عن ابن عباس: نزلت في عثمان بن عفان، وعن بريدة بن الحبيب: نزلت في حمزة بن عبد المطلب عليه السلام، وقال ابن عباس: يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٧٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ؛ يعني: صاحبك، وهو بدنّها الذي كانت تعمّره في الدنيا، ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾، وكذا قال عكرمة والكلبي، واختاره ابن جرير وهو غريب، والظاهر الأول لقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٢]، ﴿وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٣]؛ أي: إلى حكمه والوقوف بين يديه.

روى ابن أبي حاتم [١٩٢٩٩] عن سعيد بن جبیر قال: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طير لم ير على خلقه، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه فلما دفن ثلثت هذه الآية على شفير القبر، ما يدري من تلاها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (٢٨) فَأَدْخِلِي فِي عَبْدِي (٢٩) وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴿ رواه الطبراني في «الكبير» ٢٣٦/١٠ وقال الهيثمي في «المجمع»: رجاله رجال الصحيح. ]



## تفسير سورة البلد

هي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْزَعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ .

هذا قسم من الله ﷻ بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حالاً، لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها، عن مجاهد: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ لا رد عليهم، أقسم بهذا البلد، وقال ابن عباس: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾؛ يعني: مكة، ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ قال: أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل به، وكذا روي عن سعيد بن جبير وقتادة والسدي، وابن زيد [وغيرهم]، وقال مجاهد: ما أصبت فيه فهو حلال لك، وقال قتادة: أنت به من غير حرج ولا إثم، وقال الحسن البصري: أحلها الله له ساعة من نهار، وهذا المعنى الذي قالوه ورد به الحديث المتفق على صحته: (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَجَرُهُ وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، أَلَا فَلْيُبْلَغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ) [رواه البخاري/ ٣٠١٧ بنحوه ومسلم/ ١٣٥٣]، وفي لفظ آخر: (فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ).

وقوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ عن ابن عباس: الوالد الذي يلد، وما ولد العاقر الذي لا يولد له، وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وسعيد بن جبير، والسدي، والحسن البصري وغيرهم: يعني: بالوالد آدم، وما ولد ولده، وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسن قوي؛ لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكن أقسم بعده بالساكن، وهو آدم أبو البشر وولده، وقال أبو عمران الجوني: هو إبراهيم وذريته، واختار ابن جرير أنه عام في كل والد وولده، وهو محتمل أيضاً.

وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ روي عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد وغيرهم: يعني منتصباً، زاد ابن عباس في رواية عنه منتصباً في بطن أمه، والكبد: الاستواء والاستقامة، ومعنى هذا القول لقد خلقناه سوياً مستقيماً، كقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ مَا عَرَفَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٢﴾ [الانفطار: ٦، ٧]، وكقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال

ابن عباس: في كبد. قال: في شدة خَلْق، ألم تر إليه... وذكر مولده ونبات أسنانه، وقال مجاهد: ﴿فِي كَبِدٍ﴾ نطفة، ثم علقه، ثم مضغة يتكبد في الخلق، كقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وأرضعته كرهاً ومعيشته كره فهو يكابد ذلك، وقال سعيد بن جبیر: في شدة وطلب معيشة، وقال عكرمة: في شدة وطول، وقال قتادة: في مشقة، وروي عن الحسن قال: يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة، وقال ابن زيد: آدم خلق في السماء، فُسِمِي ذلك الكَبَدَ [ينظر: الطبري ٣٠/١٩٧ - ١٩٨]، واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها.

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قال الحسن البصري: يعني: أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يأخذ ماله، وقال قتادة: ابنُ آدم يظن أن لن يُسأل عن هذا المال من أين اكتسبه، وأين أنفقه؟ وقال السدي: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قال: الله ﷻ، وقوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبَدًا﴾؛ أي: يقول ابن آدم: أنفقت ما لا لبداً؛ أي: كثيراً قاله مجاهد وقاتادة، والسدي وغيرهم. ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ قال مجاهد: أي: أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ اللهُ ﷻ، وكذا قال غيره من السلف، وقوله: ﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾؛ أي: يبصر بهما، ﴿وَلِسَانًا﴾؛ أي: ينطق به، فَيُعْبَرُ عما في ضميره، ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام وجمالاً لوجهه وفمه.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾: قال ابن مسعود: الخير والشر، وكذا روي عن علي، وابن عباس، وأبي وائل، ومحمد بن كعب في آخرين.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ قال الشديين: وروي عن الربيع بن خثيم وقاتادة، وأبي حازم مثل ذلك، ورواه ابن جرير [٢٠١/٣٠]. ثم قال: والصواب القول الأول، ونظير هذه الآية قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢ - ٣].

﴿فَلَا أَقْنَمُ الْعَقَبَةَ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ (١٧) وَتَوَّصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٨) أُولَئِكَ أَحِبُّ الْيَقِينَةِ (١٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَيَّأْنَنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَةِ (٢٠) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢١).

عن ابن عمر في قوله: ﴿فَلَا أَقْنَمُ الْعَقَبَةَ﴾ قال: جبل في جهنم، وقال كعب الأحبار: هو سبعون درجة في جهنم، وقال الحسن البصري: عقبة في جهنم، وقال قتادة: إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله تعالى، ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال: ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ (١٣) أَوْ إِطْعَمْتُ، وقال ابن زيد: ﴿فَلَا أَقْنَمُ الْعَقَبَةَ﴾؛ أي: أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير، ثم بينها فقال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَمْتُ روى الإمام أحمد [٩٤٣١] عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللهُ



بِكُلِّ إِرْبٍ مِنْهَا إِرْبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُعْتَقُ بِالْيَدِ الْبَدَ، وَبِالرَّجْلِ الرَّجْلَ، وَبِالْفَرْجِ الْفَرْجَ)، فقال علي بن الحسين: أنت سمعت هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم، فقال علي بن الحسين لغلام له أقره غلامه: ادع مطرفًا، فلما قام بين يديه قال: اذهب فأنت حر لوجه الله، وقد رواه البخاري.

روى الإمام أحمد [١٩٤٥٨] عن عمرو بن عتبة أن النبي ﷺ قال: (مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِيُذَكَّرَ اللَّهُ فِيهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَعْتَقَ نَفْسًا مُسْلِمَةً، كَانَتْ فَدْيَتُهُ مِنْ جَهَنَّمَ، وَمَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [أسانيد جيدة قوية]، وروى أبو داود والنسائي [٧٦٧] بعضه.

وقوله: ﴿أَوْ إِطْعَمْ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ قال ابن عباس: ذي مجاعة، وكذا قال مجاهد، وقاتدة وغير واحد، والسَّعْبُ: هو الجوع، وقال إبراهيم النخعي: في يوم الطعام فيه عزيز، وقال قاتدة: في يوم يُشْتَهَى فيه الطعام، وقوله: ﴿يَتِيمًا﴾؛ أي: أطعم في مثل هذا اليوم يتيمًا، ﴿ذَا مَرَبٍّ﴾؛ أي: ذا قرابة منه. قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، والسدي. كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد [١٦٢٧٨] عن سليمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمُسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ، صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ)، وقد رواه الترمذي [٦٥٨] والنسائي [٢٣٦٣] وإسناده صحيح، وقوله: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَرْبٍ﴾؛ أي: فقيرًا مُدْقَعًا لاصقًا بالتراب، وهو الدقعاء أيضًا. قال ابن عباس: ذا متربة: هو المطروح في الطريق الذي لا بيت له، ولا شيء يقيه من التراب، وفي رواية عنه: هو البعيد التربة، قال ابن أبي حاتم: يعني: الغريب عن وطنه، وقال عكرمة: هو الفقير المديون المحتاج، وقال سعيد بن جبير: هو الذي لا أحد له، وقال ابن عباس، وسعيد، وقاتدة، ومقاتل بن حيان: هو ذو العيال، وكل هذه قريبة المعنى.

وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة، مؤمنٌ بقلبه، محتسب ثواب ذلك عند الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، وقوله: ﴿وَتَوَّاصُوا بِالصَّبْرِ وَتَوَّاصُوا بِالرَّحْمَةِ﴾؛ أي: كان من المؤمنين العاملين صالحًا، المتواصين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم، كما جاء في الحديث: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) [رواه أحمد/٦٤٩٤ نحوه وغيره وهو صحيح].

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَحَبُّ إِلَيْنَا﴾؛ أي: المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصَحَبُ الْمَشْئَمَةِ﴾؛ أي: أصحاب الشمال، ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾؛ أي: مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. قال أبو هريرة، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، والسدي وغيرهم: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾؛ أي: مطبقة [ابن أبي حاتم/١٩٣٣٤] قال ابن عباس: مغلقة الأبواب، وقال مجاهد: أصد الباب بلغة قريش؛ أي: أغلقه، وقال الضحاك: حيط لا باب له، وقال قاتدة: مطبقة فلا ضوء فيها ولا فُرَجَ، ولا خروج منها آخر الأبد [الطبري ٢٠٧/٣٠].

## تفسير سورة الشمس

وهي مكية

تقدم حديث جابر الذي في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: (هَلَّا صَلَّيْتَ

بـ ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾؟) [البخاري/٦٧٣ ومسلم/٤٦٥ نحوه].

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ① وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءِ  
وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ  
مَنْ زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ⑩ .

قال مجاهد: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾؛ أي: وضوئها، وقال قتادة: ﴿وَضُحَاهَا﴾ النهار كله. قال ابن جرير: والصواب أن يقال: أقسم الله بالشمس ونهارها؛ لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار. ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا﴾ قال مجاهد: تبعها، وعن ابن عباس قال: يتلو النهار، وقال قتادة: ليلة الهلال، إذا سقطت الشمس رؤي الهلال، وقال ابن زيد: هو يتلوها في النصف الأول من الشهر، ثم هي تتلوه، وهو يتقدمها في النصف الأخير من الشهر، وقال زيد بن أسلم: إذا تلاها ليلة القدر، وقوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا﴾ قال مجاهد: أضاء. وقال قتادة: إذا غشيها النهار. قال ابن جرير [٢٠٨/٣٠]: وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة لدلالة الكلام عليها.

قلت: ولو أن هذا القائل تأول ذلك بمعنى ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا﴾؛ أي: البسيطة لكان أولى، ولصح تأويله في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ فكان أجود وأقوى، والله أعلم، ولهذا قال مجاهد: إنه كقوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ٢]، وأما ابن جرير فاختر عود الضمير في ذلك كله على الشمس، لجريان ذكرها، وقالوا في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾؛ يعني: إذا يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق.

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ يحتمل أن تكون «ما» ها هنا مصدرية؛ بمعنى: والسماء وبنائها، وهو قول قتادة، ويحتمل أن تكون بمعنى «من»؛ يعني: والسماء وبانيها، وهو قول مجاهد، وكلاهما متلازم والبناء هو الرفع، كقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾؛ يعني: بقوة. [الذاريات: ٤٧]، وهكذا قوله: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا﴾ قال مجاهد: طحها: دحها، وعن ابن عباس: أي: خلق فيها، وقال [أيضاً]: قسمها، وقال مجاهد، وقاتة، والضحاك، والسدي، والثوري،

وأبو صالح، وابن زيد: بسطها، وهذا أشهر الأقوال وعليه الأكثر من المفسرين، وهو المعروف عند أهل اللغة، قال الجوهري: طحوته مثل دحوته؛ أي: بسطته [«عمدة القاري» ٩/ ٢٩٣].

وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾؛ أي: خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال رسول الله ﷺ: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسَانِهِ، كَمَا تُولَدُ الْبَيْهَمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟) أخرجه [البخاري/ ١٣١٩ ومسلم/ ٢٦٥٨].

وقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾؛ أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها؛ أي: بين ذلك لها وهداها إلى ما قدر لها. قال ابن عباس: بين لها الخير والشر، وكذا قال مجاهد، وقاتدة، والضحاك، والثوري، وقال سعيد بن جبیر: ألهمها الخير والشر، وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها.

روى ابن جرير [٢١١/٣٠] عن أبي الأسود الديلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرايت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما آتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شيء قضى عليهم، قال: فهل يكون ذلك ظلماً؟ قال: ففزعت منه فزعاً شديداً قال: قلت له: ليس شيء إلا وهو خلقه ومملك يده لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، قال: سددك الله إنما سألتك لأختبر عقلك، إن رجلاً من مُزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرايت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أم شيء مما يستقبلون مما آتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: (بَلْ شَيْءٌ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ) قال: ففيم نعمل؟ قال: (مَنْ كَانَ اللَّهُ خَلَقَهُ لِإِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ يُهَيِّئَهُ لَهَا، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾) رواه مسلم [٢٦٥٠].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى نفسه؛ أي: بطاعة الله - كما قال قتادة - وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، ويروى نحوه عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ (٤) وذكر أسد ربه فصل ﴿الأعلى: ١٤، ١٥﴾.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾؛ أي: دسها؛ أي: أخلها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى، حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله ﷻ، وقد يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه، وقد خاب من دسى الله نفسه كما قال ابن عباس.

روى الإمام أحمد [١٩٣٢٧] عن زيد بن أرقم، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ. اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا. اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ

نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَعِلْمٌ لَا يَنْفَعُ، وَدَعْوَةٌ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا) قال زيد: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكموهن، رواه مسلم [٢٧٢٢].

﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَيْهَا﴾ (١١) إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقُّهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (١٥).

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي، وقال محمد بن كعب: ﴿بَطَغَوْهَا﴾؛ أي: بأجمعها، والأول أولى، قاله مجاهد، وقتادة وغيرهما، فأعقبهم ذلك تكذيباً في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم من الهدى واليقين. ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقُّهَا﴾؛ أي: أشقى القبيلة وهو قدار بن سالف عاقر الناقة، وهو أحيمر ثمود، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم شريفاً في قومه نسبياً رئيساً مطاعاً، كما روى الإمام أحمد [١٦٢٦٨] عن عبد الله بن أبي زمعة قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال: ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقُّهَا﴾ أُنْبِئَتْ لَهَا رَجُلٌ عَارِمٌ عَزِيزٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ) ورواه البخاري في «التفسير» [٤٦٥٨].

وقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾؛ يعني: صالحاً عليه السلام ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾؛ أي: احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، ﴿وَسُقْيَاهَا﴾؛ أي: لا تعتدوا عليها في سقياها، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم. قال الله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾؛ أي: كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: غضب عليهم فدمر عليهم، ﴿فَسَوَّاهَا﴾؛ أي: فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء. قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيروهم وكبيرهم، وذكرهم وأنشاهم، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ وقرئ فلا يخاف. ﴿عُقْبَاهَا﴾ قال ابن عباس: لا يخاف الله من أحد تبعة، وكذا قال مجاهد، والحسن، وبكر بن عبد الله المزني وغيرهم، وقال الضحاك والسدي: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾؛ أي: لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع، والقول الأول أولى دلالة السياق عليه والله أعلم.



## تفسير سورة الليل

وهي مكية

تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: ﴿فَهَلَّا صَلَّيْتَ بِـ﴾ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، ﴿وَالشَّمْسُ وَحُجَّتْ﴾، ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾ [البخاري/ ٦٧٣ ومسلم/ ٤٦٥ نحوه].

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾ ① ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾ ② ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ ③ ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ ④ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَّى﴾ ⑤ ﴿وَصَدَقَ الْحَقُّ﴾ ⑥ ﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْعُرَى﴾ ⑦ ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ ⑧ ﴿وَكَذَبَ الْخُشَى﴾ ⑨ ﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْعُرَى﴾ ⑩ ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ ⑪ .

أقسم تعالى بـ ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾؛ أي: إذا غشي الخليفة بظلامه، ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾؛ أي: بضياءه وإشراقه. ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ كقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضًا متضادًا، ولهذا قال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾؛ أي: أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضًا ومتخالفة، فمن فاعل خيرًا ومن فاعل شرًا، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَّى﴾؛ أي: أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله في أموره ﴿وَصَدَقَ الْحَقُّ﴾؛ أي: بالمجازاة على ذلك قاله قتادة. وقال خصيف: بالشواب، وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، وزيد بن أسلم: أي: بالخلف، وقال أبو عبد الرحمن السلمي والضحاك: أي بلا إله إلا الله، وفي رواية عن عكرمة: أي: بما أنعم الله عليه، وفي رواية عن زيد بن أسلم قال: الصلاة والزكاة والصوم، وقال مرة: وصدقة الفطر.

وقوله: ﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْعُرَى﴾ قال ابن عباس: يعني: للخير، وقال زيد بن أسلم: يعني: للجنة، وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة الحسنه بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾؛ أي: بما عنده ﴿وَأَسْتَغْنَى﴾ قال ابن عباس: أي: بخل بماله واستغنى عن ربه عَلَى. ﴿وَكَذَبَ الْخُشَى﴾؛ أي: بالجزاء في الدار الآخرة، ﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْعُرَى﴾؛ أي: لطريق الشر، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَنذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عَلَى يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدر مُقَدَّر والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة.

روى البخاري [٤٦١] عن علي بن أبي طالب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيق الغرقد في جنازة فقال: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ). فقالوا:

يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: (اعْمَلُوا فَكُلَّ عَامِلٍ مُيسِّرٍ لِعَمَلِهِ الَّذِي خُلِقَ لَهُ)، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَقَسْرَى﴾.

روى الإمام أحمد [٥١٤٠] عن ابن عمر قال: قال عمر: يا رسول الله أرايت ما نعمل فيه أفي أمر قد فرغ أو مبتدأ أو مبتدع؟ قال: (فِيمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَأَعْمَلْ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَإِنَّ كُلَّ مُيسِّرٍ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ لِلْسَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ لِلشَّقَاءِ)، ورواه الترمذي [٢١٣٥] في القدر، وقال: حسن صحيح.

وروى ابن جرير [٢٢٤/٣٠] عن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله أنعمل لأمر قد فرغ منه أو لأمر نستأنفه؟ فقال: (لِأَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ) فقال سراقه: ففيم العمل إذا؟ فقال رسول الله ﷺ: (كُلَّ عَامِلٍ مُيسِّرٍ لِعَمَلِهِ) ورواه مسلم [٢٦٤٨].  
وقوله: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ قال مجاهد: أي: إذا مات وقال أبو صالح، وزيد بن أسلم: إذا تردى في النار.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيَجْزِيهَا الْآلَفَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾.

قال قتادة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾؛ أي: نبين الحلال والحرام، وقال غيره: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله، وجعله كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] حكاه ابن جرير. وقوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾؛ أي: الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما، وقوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ قال مجاهد: أي: توهج.

روى الإمام أحمد [١٨٤٢٢] عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: (أَنْذِرْكُمْ النَّارَ أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ) حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعته من مقامي هذا، قال: حتى وقعت خميسة كانت على عاتقه عند رجله [سند صحيح].  
[وعنه قال]: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ تَوَضَّعَ فِي أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ) رواه البخاري [٦١٩٣]، ومسلم [برقم/٢١٣، وزاد] (مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدَّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا).

وقوله: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾؛ أي: لا يدخلها دخولاً يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى، ثم فسره فقال: ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾؛ أي: بقلبه ﴿وَتَوَلَّى﴾؛ أي: عن العمل بجوارحه وأركانه.

روى الإمام أحمد [٨٧١٣] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (كُلُّ أُمَّتِي تَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَبَى). قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: (مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى) رواه البخاري [٦٨٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ ؛ أي: وسيزحزح عن النار التقي النقي. ثم فسرهُ بقوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ ؛ أي: يصرف ماله في طاعة ربه، ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ ؛ أي: ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفًا، فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما دفعه ذلك ﴿إِنِّغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ ؛ أي: طمعًا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ ؛ أي: ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين [الطبري ٢٢٨/٣٠] أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإن لفظها العموم، وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقًا تقيًا كريمًا جوادًا بذالًا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، وكان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإن كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ ﴿إِلَّا إِنِّغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾، وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دَعَتْهُ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ) فقال أبو بكر: يا رسول الله ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: (نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ) [روى البخاري نحوه/ ١٧٩٨ ومسلم/ ١٠٢٧].



## تفسير سورة الضحى

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ١﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ٢ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ٤ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَضَىٰ ٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ٦ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ٨ ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١﴾ .

روى الإمام أحمد [١٨٨٢٦] عن جندب قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ ١﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ٢ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ رواه البخاري [٤٦٩٨].

وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء، ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾؛ أي: سكن فأظلم، قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد وغيرهم، وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا، كما قال: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا بَغَىٰ ١﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: ما تركك ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؛ أي: وما أبغضك، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾؛ أي: والدار الآخرة خير لك من هذه الدار، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأعظمهم لها أطراحاً كما هو معلوم بالضرورة من سيرته، ولما خُيِّرَ ﷺ في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله ﷻ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية. روى الإمام أحمد [٣٧٠٩] عن عبد الله بن مسعود قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت: يا رسول الله ألا أدنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: (مَا لِي وَلِلدُّنْيَا! مَا أَنَا وَالدُّنْيَا! إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَائِبٍ ظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا)، ورواه الترمذي [٢٣٧٧]، وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَضَىٰ﴾؛ أي: في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعدّه له من الكرامة، ومن جملة نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، وطينه مسك أذفر كما سيأتي.



وعن عبد الله بن عباس قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزًا كنزًا ففسر بذلك، فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. رواه ابن جرير [٢٣٢/٣٠]، وإسناده صحيح إلى ابن عباس ومثل هذا ما يقال إلا عن توقيف، وعن ابن عباس: من رضا محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار، وقال الحسن: يعني: بذلك الشفاعة، وهكذا قال أبو جعفر الباقر.

ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَخَافَ﴾ وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه ﷺ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره، إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهاً لهم فاختر الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل، فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾؛ أي: كنت فقيرًا ذا عيال، فأغناك الله عمن سواه، فجمع له بين مقامي الفقر الصابر والغني الشاكر صلوات الله وسلامه عليه، وقال قتادة في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَخَافَ﴾ ① و﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ② و﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ قال: كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله ﷻ، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ [البخاري/ ٦٠٨١ ومسلم/ ١٠٥١].

ثم قال: ﴿فَأَمَّا اللَّيْتِمُ فَلَا نَهْرَ﴾؛ أي: كما كنت يتيمًا فأواك الله فلا تقهر اليتيم؛ أي: لا تذله وتنهره وتهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به. قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا نَهْرَ﴾؛ أي: وكما كنت ضالًّا فهداك الله، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد. قال ابن إسحاق: فلا تكن جبارًا، ولا متكبرًا، ولا فحاشًا، ولا فظًا على الضعفاء من عباد الله، وقال قتادة: يعني: رد المسكين برحمة ولين. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾؛ أي: وكما كنت عائلًا فقيرًا فأغناك الله، فحدث بنعمة الله عليك.

وعن أبي نضرة قال: كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها [الطبري ٢٣٣/٣٠]. وفي «الصحيحين» عن أنس أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله، قال: (لَا مَا دَعَوْتُمْ اللَّهَ لَهُمْ، وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ) [رواه الترمذي/ ٤٨١٢ واللفظ له]، وروى أبو داود [٤٨١١]

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ) ورواه الترمذي [١٩٥٤ نحوه]، وقال: صحيح.

وقال مجاهد: يعني: النبوة التي أعطاك ربك، وفي رواية عنه القرآن، وعن الحسن بن علي قال: ما عملت من خير فَحَدَّثَ إخوانك، وقال محمد بن إسحاق: ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدث بها واذكرها، وادع إليها، قال: فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم به عليه من النبوة سرًّا إلى من يطمئن إليه من أهله، وافترضت عليه الصلاة فصلى.



## تفسير سورة الشرح

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؛ يعني: أما شرحنا لك صدرك؛ أي: نورناه وجعلناه فسيحًا واسعًا كقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه سمحًا سهلًا لا حرج فيه ولا ضيق، وقيل: المراد شرح صدره ليلة الإسراء، كما تقدم [في أول سورة الإسراء] من رواية مالك بن صعصعة، وقد أورده الترمذي هاهنا، وهذا وإن كان واقعًا، ولكن لا منافاة فإن من جملة شرح صدره الذي فعل بصدره ليلة الإسراء وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضًا، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾؛ بمعنى: وقال غير واحد من السلف: أي: أثقلت حمله. وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال مجاهد: لا أذكر إلا ذكرت معي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

روى ابن أبي حاتم [١٩٣٨٧] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ، قُلْتُ: قَدْ كَانَ قَبْلِي أَنْبِيَاءُ مِنْهُمْ مَنْ سَخَّرَتْ لَهُ الرِّيحُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَأَوْثَيْتُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَاعْتَيْتُكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟ أَلَمْ أَرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَبِّ) [رواه الحاكم/٣٩٤٤ نحوه وقال: صحيح الإسناد].

وحكى البغوي [٥٠٢/٤] عن ابن عباس ومجاهد: أن المراد بذلك الأذان؛ يعني: ذكره فيه، وأورد من شعر حسان بن ثابت:

أَغْرُرْ عَلَيْهِ لِلنُّبُوءَةِ خَاتَمٌ      مِنْ اللَّهِ مِنْ نُورِ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ  
وَضَمَّ إِلَالَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ      إِذَا قَالَ فِي الْخُمْسِ الْمُؤَذِّنُ: أَشْهَدُ  
وقال آخرون: رفع الله ذكره في الأولين والآخرين ونوه به، حين أخذ الميثاق على جميع

النبيين أن يؤمنوا به، وأن يأمرُوا أممهم بالإيمان به، ثم شَهَّرَ ذكره في أمته فلا يذكر الله إلا ذُكر معه.

وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر، ثم أكد هذا الخبر. وعن الحسن قال: كانوا يقولون: لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين، ومعنى هذا أن العسر معرّف في الحالين فهو مفرد واليسر منكر فتعدد، فالعسر الأول عين الثاني واليسر تعدد.

وقوله: ﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾؛ أي: إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها، فانصب في العبادة وقم إليها نشيطًا فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة، ومن هذا القبيل قوله ﷺ: (لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ، وَلَا وَهُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَتَانِ) [رواه مسلم/٥٦٠]، وقوله ﷺ: (إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَحَضَرَ الْعِشَاءُ، فَأَبْدُوا بِالْعِشَاءِ) [رواه البخاري/٥١٤٨].

قال مجاهد في هذه الآية: إذا فرغت من أمر الدنيا فقمتم إلى الصلاة فانصب لربك، وفي رواية عنه: إذا قمت إلى الصلاة فانصب في حاجتك، وعن ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، وعن ابن عباس نحوه، وفي رواية عن ابن مسعود: ﴿فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس. وقال ابن عباس: فانصب: يعني: في الدعاء، وقال زيد بن أسلم والضحاك: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾؛ أي: من الجهاد ﴿فَانصَبْ﴾؛ أي: في العبادة. ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ قال الثوري: اجعل نيتك ورغبتك إلى الله ﷻ.



## تفسير سورة التين

وهي مكية

عن البراء بن عازب: كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه. [البخاري/ ٧٣٥ نحوه] أخرجه الجماعة.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَيْتُونِ﴾ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِاللَّيْنِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨).

اختلف المفسرون ها هنا في التين فعن ابن عباس أنه مسجد نوح الذي على الجودي، وقال مجاهد: هو تينكم هذا. ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ قال كعب الأحبار وقتادة، وابن زيد وغيرهم: هو مسجد بيت المقدس. وقال مجاهد وعكرمة: هو هذا الزيتون الذي تعصرون. ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ قال كعب الأحبار وغير واحد: هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﷺ، ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾؛ يعني: مكة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وإبراهيم النخعي، وابن زيد، وكعب الأحبار ولا خلاف في ذلك. وقال بعض الأئمة: هذه محالٌ ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار:

**فالأول:** محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم ﷺ، **والثاني:** طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. **والثالث:** مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ. قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء - يعني: الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير - يعني: جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعني: جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه ثم بالأشرف منهما.

**وقوله:** ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هذا هو المقسم عليه، هو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، وشكل منتصب القامة سوي الأعضاء حسنها. ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾؛ أي: إلى النار. قاله مجاهد، وأبو العالية، والحسن، وابن زيد وغيرهم، ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل، ولهذا قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّلَاحَتِ ﴿١﴾، وقال بعضهم: ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾؛ أي: إلى أرذل العمر. رُوي هذا عن ابن عباس، وعكرمة، حتى قال عكرمة: من جمع القرآن لم يُرَدَّ إلى أرذل العمر، واختار ذلك ابن جرير [٢٤٦/٣٠]، ولو كان هذا هو المراد لما حَسُنَ استثناء المؤمنين من ذلك؛ لأنَّ الهَرَمَ قد يصيبُ بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه، كقوله: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١-٣]، وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: غير مقطوع، ثم قال: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ﴾؛ أي: يا ابن آدم ﴿بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾؛ أي: بالجزاء في المعاد، ولقد علمت البداءة وعرفت أن من قدر على البداءة، فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأَيُّ شيءٍ يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا؟

روى ابن أبي حاتم [١٩٤١٥] عن منصور قال: قلت لمجاهد: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ عني به النبي ﷺ؟ قال: معاذ الله! عني به الإنسان وهكذا قال عكرمة وغيره، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾؛ أي: أَمَا هو أَحْكَمُ الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة فينصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه.



## تفسير سورة اقرأ

وهي مكية، وهي أول شيء أنزل من القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ .

روى الإمام أحمد [٢٦٠٠١] عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ. قال رسول الله ﷺ: (فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ). قال: (فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُحْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُحْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَغَطَّنِي الثَّلَاثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُحْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قَالَ: فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرِهِ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ. فَقَالَ: يَا خَدِيجَةُ، مَا لِي؟ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ وَقَالَ: قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي. فَقَالَتْ لَهُ: كَلَّا أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُقْرِئُ الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ، أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ أَمْرًا تَنْصَرَفُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَكَتَبَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: أَيُّ ابْنِ عَمٍّ، اسْمِعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ وَرَقَةُ: ابْنُ أَخِي مَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا رَأَى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوْ مُخْرِجِيْ هُمْ؟ فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمَكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوْفِّي، وَفَتَرَ الْوَحْيُ فِتْرَةً حَتَّى حَزَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حُزْنًا عَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَمَا يَتَرَدَّى مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكَلَّمَا أَوْفَى بِذُرْوَةِ جَبَلٍ لَكَيْ يُلْقِيَ نَفْسَهُ مِنْهُ، تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ بِذَلِكَ جَأَشُهُ،

وَتَقَرَّرْ نَفْسُهُ فَيَرْجِعْ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فِتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذُرْوَةِ الْجَبَلِ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ) وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين» [البخاري/ ٤٦٧٠ ومسلم/ ١٦٠].

فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه، وأن كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو الذي امتاز به أبو البشرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ (٥)﴾ وفي الأثر: قيدوا العلم بالكتابة [رواه الحاكم/ ٣٥٩ من قول عمر وأنس].

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا ۝ (١) أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى ۝ (٢) إِنَّ إِلَهَ رَبِّكَ الْخُحَّى ۝ (٣) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۝ (٤) عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۝ (٥) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ۝ (٦) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۝ (٧) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝ (٨) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ۝ (٩) كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝ (١٠) نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝ (١١) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝ (١٢) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝ (١٣) كَلَّا لَا نَطَعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝ (١٤)﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله. ثم تهدده ووعظه فقال: ﴿إِنَّ إِلَهَ رَبِّكَ الْخُحَّى ۝ (٣)﴾ أي: إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك: من أين جمعته وفيه صرفته؟ روى ابن أبي حاتم [١٩٤١٧] عن عبد الله [بن مسعود]: منهومان لا يشبعان، صاحب العلم وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، ثم قرأ عبد الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا ۝ (١)﴾ وقال للآخر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۝ (٢٨)﴾ [فاطر: ٢٨].

ثم قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۝ (٤) عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۝ (٥)﴾ نزلت في أبي جهل لعنه الله، توعده النبي ﷺ على الصلاة عند البيت، فوعظه تعالى بالتي هي أحسن أولاً فقال: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ۝ (٦)﴾ أي: فما ظنك إن كان هذا الذي تنهى على الطريق المستقيمة في فعله، أو أمر بالتقوى بقوله، وأنت تزجره وتوعده على صلاته، ولهذا قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ۝ (٩)﴾ أي: أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه. وسيجزيه على فعله أتم الجزاء، ثم قال تعالى متوعداً ومتهديداً: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ ۝ (١٠) نَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝ (١١)﴾ أي: لنسمنها سواداً يوم القيامة، ثم قال: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝ (١٢)﴾ يعني: ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها خاطئة في فعالها. ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝ (١٣)﴾ أي: قومه وعشيرته؛ أي: ليدعهم يستنصر بهم، ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝ (١٤)﴾ وهم ملائكة العذاب، حتى يعلم من يغلب أحزبنا أو حزبه.

روى البخاري [٤٦٧٥] عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: (لئن فعله لأخذته الملائكة).



وروى أحمد [٢٣٢١] والترمذي [٣٣٤٩]، وابن جرير [٢٥٦/٣٠] وهذا لفظه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديةً، فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (٧) ﴿سَدْعُ الرِّبَانَةِ﴾ وقال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى ابن جرير [٢٥٦/٣٠] عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعقر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فقال: واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبتة، ولأعقرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبتة، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: ف قيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهو لا وأجنحة قال: فقال رسول الله: (لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا). قال: وأنزل الله ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا﴾ إلى آخر السورة، وقد رواه مسلم [٢٧٩٧].

وقوله: ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ﴾؛ يعني: يا محمد لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصل حيث شئت، ولا تباله فإن الله حافظك وناصرك وهو يعصمك من الناس ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ كما ثبت في «الصحيح» عند مسلم [٤٨٢] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ) وتقدم أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [رواه مسلم/٥٧٨].



## تفسير سورة القدر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر، وهي من شهر رمضان كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ، ثم قال تعالى معظماً لشأن ليلة القدر التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

عن مجاهد: ليلة القدر خير من ألف شهر قال: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر. [وعنه أيضاً]: ليلة القدر خير من ألف شهر، ليس في تلك الشهور ليلة القدر، وهكذا قال قتادة بن دعامة والشافعي وغير واحد، وقال عمرو بن قيس الملائي: عمل فيها خير من عمل ألف شهر، وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر هو اختيار ابن جرير، وهو الصواب لا ما عداه.

وروى الإمام أحمد [٩٤٩٣] عن أبي هريرة قال: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: (قَدْ جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ، افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، تَفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينُ، فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ [سنده صحيح]، ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها ألف شهر، ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) [البخاري/ ١٨٠٢ ومسلم/ ٧٦٠].

وقوله: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾؛ أي: يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له. وأما الروح فقبل: المراد به ها هنا جبريل ﷺ، فيكون من باب عطف الخاص على العام، وقيل: هم ضرب من الملائكة كما تقدم في سورة النبأ، والله أعلم.

وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ قال مجاهد: سلام هي من كل أمر، وعن مجاهد قال: هي سالمة

لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا أو يعمل فيها أذى، وقال قتادة وغيره: تُقضى فيها الأمور، وتقدر الآجال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

وقوله: ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ عن الشعبي قال: تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر، وروى أبو داود الطيالسي [٢٥٤٥] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: (إِنَّهَا لَيْلَةٌ سَابِعَةٌ أَوْ تَاسِعَةٌ وَعِشْرِينَ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ الْحَصَى) [سنده حسن]، وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لا يحدث فيها أمر، وقال قتادة، وابن زيد: يعني: هي خير كلها، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر.

واختلف العلماء هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة أو هي من خصائص هذه الأمة؟ على قولين: والذي دل عليه الحديث أنها كانت في الأمم الماضية كما هي في أمتنا. روى الإمام أحمد بن حنبل [٢١٥٣٨] عن مرثد قال: سألت أبا ذر قلت: كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر؟ قال: أنا كنت أسأل الناس عنها، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن ليلة القدر أفي رمضان هي أو في غيره؟ قال: (بَلْ هِيَ فِي رَمَضَانَ) قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: (بَلْ هِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) قلت: في أي رمضان هي؟ قال: (الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ، وَالْعَشْرِ الْآخِرِ) ثم حدث رسول الله ﷺ وحدث ثم اهتبلت غفلته قلت: في أي العشرين هي؟ قال: (ابْتَغُوهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ، لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا)، ثم حدث رسول الله ﷺ ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرني في أي العشر هي؟ فغضب علي غضبًا لم يغضب مثله منذ صحبتته وقال: (الْتَمِسُوهَا فِي السَّبْعِ الْآخِرِ، لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا) ورواه النسائي [٣٤٢٧] سند حسن، ففيه دلالة على ما ذكرناه، وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة في كل سنة بعد النبي ﷺ، لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية، على ما فهموه من الحديث الذي سنورده بعد من قوله ﷺ: (فَرُفِعَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ)؛ لأن المراد رفع علم وقتها عينًا، وفيه دلالة على أن ليلة القدر يختص وقوعها بشهر رمضان من بين سائر الشهور، لا كما روي عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة، من أنها توجد في جميع السنة وترتجى في جميع الشهور على السواء.

وقد ترجم أبو داود في «سننه» على هذا فقال: «باب بيان أن ليلة القدر في كل رمضان» فروى [أبو داود/١٣٨٧] عن عبد الله بن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ وأنا أسمع عن ليلة القدر فقال: (هِيَ فِي كُلِّ رَمَضَانَ) [وسنده صحيح]، وقد حكى عن أبي حنيفة راية أنها ترتجى في جميع شهر رمضان وهو وجه حكاة الغزالي واستغريه الرافعي جدًا.

ثم قد قيل: إنها في أول ليلة من شهر رمضان، يحكى هذا عن أبي رزين، وقيل: إنها تقع ليلة سبع عشرة، وروى فيه أبو داود حديثًا مرفوعًا عن ابن مسعود، وروي موقوفًا عليه وعلى زيد بن أرقم وعثمان بن أبي العاص وهو قول عن الشافعي، ويحكى عن الحسن البصري، ووجهه بأنها ليلة بدر، وقيل: ليلة تسع عشرة يحكى عن علي، وابن مسعود أيضًا ﷺ،

وقيل: ليلة إحدى وعشرين، لحديث أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط فاعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: الذي تطلب أمامك ثم قام رسول الله ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان فقال: (مَنْ كَانَ عَتَكَفَ مَعِيَ فَلْيَرْجِعْ، فَإِنِّي رَأَيْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَإِنِّي أَنْسَيْتُهَا، وَإِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ وَفِي وَتَرٍ، وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ) [رواه النسائي بنحوه/٣٣٨٧]، وكان سقف المسجد جريداً من النخل وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قزعة فمطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه، وفي لفظ في صبح إحدى وعشرين، أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري/٨٧٠ ومسلم/١١٦٧]. قال الشافعي: وهذا الحديث أصح الروايات، وقيل: ليلة ثلاث وعشرين لحديث عبد الله بن أنيس في «صحيح مسلم» [١١٦٨]، وهو قريب السياق من رواية أبي سعيد فالله أعلم، وقيل: ليلة أربع وعشرين، روى أبو داود الطيالسي [٢١٦٧] عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: (لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ) رجاله ثقات، وقيل: تكون ليلة خمس وعشرين لما رواه البخاري [١٩١٧] عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (الْتِمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى، فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى) فَسَرَهُ كَثِيرُونَ بِلِيَالِي الْاَوْتَارِ، وَهُوَ أَظْهَرُ وَأَشْهَرُ، وَحَمَلَهُ آخَرُونَ عَلَى الْأَشْفَاعِ كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَقِيلَ: إِنَّهَا تَكُونُ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» [٧٦٢] عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: (أَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ).

روى الإمام أحمد [٢١٢٣١] عن زَرٍّ: سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقيم الحَوْلَ يُصَبُّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، قال: يرحمه الله، لقد علم أنها في شهر رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين، ثم حلف [ورواه مسلم/٧٦٢].

قلت: وكيف تعلمون ذلك؟ قال: بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا بها، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها أعني الشمس. وقد رواه مسلم عن أبي فذكره وفيه: فقال: والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي رمضان يحلف ما يستثني، والله إنني لأعلم أي ليلة القدر هي التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة سبع وعشرين، وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها، وفي الباب عن معاوية، وابن عمر، وابن عباس وغيرهم عن رسول الله ﷺ: أنها ليلة سبع وعشرين، وهو قول طائفة من السلف وهو الجادة من مذهب الإمام أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو رواية عن أبي حنيفة أيضاً وقد حكى عن بعض السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن من قوله: ﴿هِيَ﴾؛ لأنها الكلمة السابعة والعشرون من السورة، فالله أعلم.

وقيل: إنها تكون في ليلة تسع وعشرين. روى الإمام أحمد بن حنبل [٢٢٧٦٥] عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر، فقال رسول الله ﷺ: (فِي رَمَضَانَ، الْتِمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ، فَإِنَّهَا فِي وَتَرٍ إِحْدَى وَعَشْرِينَ، أَوْ ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ، أَوْ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ، أَوْ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ، أَوْ تِسْعٍ وَعَشْرِينَ أَوْ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ) [حديث حسن]، وروى الإمام أحمد [١٠٧٤٥] عن

أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: (إِنَّهَا لَيْلَةٌ سَابِعَةٌ أَوْ تَاسِعَةٌ وَعَشْرِينَ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ الْحَصَى) تفرد به أحمد وإسناده لا بأس به .  
وقيل: إنها تكون في آخر ليلة لما تقدم من هذا الحديث آنفاً، ولما رواه الترمذي [٧٩٤]، والنسائي [٣٤٠٣] عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: (فِي تِسْعٍ يَبْقَيْنَ، أَوْ سَبْعٍ يَبْقَيْنَ، أَوْ خَمْسٍ يَبْقَيْنَ، أَوْ ثَلَاثٍ، أَوْ آخِرِ لَيْلَةٍ)؛ يعني: التمسوا ليلة القدر وقال الترمذي: حسن صحيح .

قال الشافعي في هذه الروايات: صدرت من النبي ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له ألتمس ليلة القدر في الليلة الفلانية؟ يقول: (نَعَمْ)، وإنما ليلة القدر معينة لا تنتقل . نقله الترمذي عنه بمعناه، وروي عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر وهذا الذي نص عليه مالك والثوري وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، والمزني، وأبو بكر بن خزيمة وغيرهم، وهو محكي عن الشافعي نقله القاضي عنه وهو الأشبه، والله أعلم، وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت في «الصحيحين» عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ: (أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَّاتْ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّبَهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ) [البخاري/ ١٩١١ ومسلم/ ١١٦٥]، وفيهما أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوَتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ)، ولفظه للبخاري [١٩١٣] .

ولهما عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان، وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر أخرجاه [البخاري/ ١٩٢٠ ومسلم/ ١١٧٤]، ولمسلم [١١٧٥] عنها: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره، وهذا معنى قولها: شد المئزر، وقيل: المراد بذلك اعتزال النساء ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين .

وقد حكى عن مالك رحمه الله أن في جميع ليالي العشر تطلب ليلة القدر على السواء لا يرجح منها ليلة على أخرى، والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات، وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخير منه ثم في أوتاره أكثر، والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي) . لما رواه الترمذي [٣٥١٣] والنسائي [١٠٧٠٨]، وابن ماجه [٣٨٥٠] عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله أرأيت إن علمت أي ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: (قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي)، وهذا لفظ الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح وأخرجه الحاكم في «مستدركه» [١٩٤٢] وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين .



## تفسير سورة البينة

وهي مدنية

روى الإمام أحمد [١٣٩١١] عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قَالَ: وَسَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ فَبَكَى أَبِي)، ورواه البخاري [٣٥٩٨].

وإنما قرأ عليه النبي ﷺ هذه السورة تشيئاً له وزيادة لإيمانه، فإنه كما روى أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عنه، كان قد أنكر على إنسان وهو عبد الله بن مسعود قراءة شيء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله ﷺ، فرفعه إلى النبي ﷺ فاستقرأهما، وقال لكل منهما: (أَصَبْتَ) قال أبي: فأخذني من الشك ولا إذ كنت في الجاهلية، فضرب رسول الله ﷺ في صدره، قال أبي: ففُضْتُ عَرَقًا، وكأنما أنظر إلى الله فرقًا. وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف. فقلت: أسأل الله معافاته ومغفرته، فقال: على حرفين، فلم يزل حتى قال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف، كما قدمنا ذكر هذا الحديث في أول التفسير، فلما نزلت هذه السورة وفيها ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ (٢) فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ ﴿قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتشيت وإنذار، لا قراءة تعلم واستذكار، والله أعلم.

وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة وكان فيما قال: أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: (بَلَى)، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ عَامُكَ هَذَا؟ قال: لا. قال: (فَإِنَّكَ آتِيهِ، وَمُطَوَّفٌ بِهِ)، فلما رجعوا من الحديبية وأنزل الله على النبي ﷺ سورة الفتح، دعا عمر بن الخطاب فقرأها عليه وفيها قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ الآية [الفتح: ٢٧]، كما تقدم.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (١) ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ (٢) ﴿فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ﴾ (٣) ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (٤) ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ﴾ (٥).

أما أهل الكتاب فهم: اليهود والنصارى، والمشركون: عبدة الأوثان والنيران من العرب

ومن العجم، وقال مجاهد: لم يكونوا ﴿مُفَكِّينَ﴾؛ يعني: منتهين حتى يتبين لهم الحق، وكذا قال قتادة. ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾؛ أي: هذا القرآن. ثم فسر البيهقي بقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾؛ يعني: محمداً ﷺ، ما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في الملائكة الأعلى في صحف مطهرة، كقوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ ﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣ - ١٦]، وقوله: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ قال ابن جرير [٢٦٣/٣٠]: أي: في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ؛ لأنها من عند الله ﷻ.

قال قتادة: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يذكر القرآن بأحسن الذكر، ويشني عليه بأحسن الثناء، وقال ابن زيد: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ مستقيمة معتدلة، وقوله: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ كقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَرَقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]؛ يعني: بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، بعدما أقام الله عليهم الحجج والبيانات تفرقوا واختلّفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلّفوا اختلافاً كثيراً، كما جاء في الحديث المروي من طرق: (إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً). قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: (مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي) [رواه الترمذي بنحوه/ ٢٦٤١ وهو حديث صحيح مشهور كما قال الإمام ابن تيمية وغيره].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ولهذا قال: ﴿حُفَّاءَ﴾؛ أي: متحنفين عن الشرك إلى التوحيد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام [آية: ١٦١] بما أغنى عن إعادته ها هنا. ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي أشرف عبادات البدن، ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحايج. ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ﴾؛ أي: الملة القائمة العادلة، أو الأمة المستقيمة المعتدلة، وقد استدلل كثير من الأئمة كالزهري، والشافعي بهذه الآية الكريمة أن الأعمال داخلة في الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُفَّاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾.

يخبر تعالى عن مآل الفجار، من كفر أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله المنزل وأنبياء الله المرسله: أنهم يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها؛ أي: ماكثين لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾؛ أي: شر الخليقة التي برأها الله وذراها، ثم أخبر تعالى

عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بأبدانهم بأنهم خير البرية، وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿جَنَّتْ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾؛ أي: بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فيما منحهم من الفضل العقيم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾؛ أي: هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه، وعبدته كأنه يراه، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه.





## تفسير سورة الزلزلة

وهي مكية

روى الإمام أحمد [١٣٩٩] عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله سورة جامعة فأقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها أبداً، ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: (أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ! أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ) أخرجه أبو داود [١٣٩٩] والنسائي [برقم/٨٠٢٧] وسنده حسن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ④ إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧ .

قال ابن عباس: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾؛ أي: تحركت من أسفلها. ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾؛ يعني: أُلْقَتْ ما فيها من الموتى. قاله غير واحد من السلف، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ [الإنشاق: ٣، ٤]. روى مسلم في «صحيحه» [١٠١٣] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (تَقِي الْأَرْضُ أَفْلَادَ كِبْدِهَا أَمْثَالَ الْأُسْطُوانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَيَجِيءُ الْقَائِلُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَجِيمِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ يَدِي، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا)، وقوله: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾؛ أي: استنكر أمرها بعدما كانت قارة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها؛ أي: تقلبت الحال فصارت متحركة مضطربة، قد جاءها من أمر الله ما قد أعد لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه، ثم أُلْقَتْ ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدلت الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا﴾؛ أي: تحدث بما عمل العاملون على ظهرها. روى الإمام أحمد [٨٨٥٤]، والترمذي [٣٤٢٩]، والنسائي [١١٦٩٣] واللفظ له عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: (اتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا، يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا) ثم قال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب.

وقوله: ﴿بَٰنَ رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ قال البخاري: أوحى لها وأوحى إليها، ووحى لها ووحى إليها: واحد، وكذا قال ابن عباس: أوحى لها؛ أي: أوحى إليها، والظاهر أن هذا مُضْمَنٌ بمعنى أذن لها، وعن ابن عباس: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: قال لها ربها: قولي فقالت. وقال مجاهد: أوحى لها؛ أي: أمرها. وقال القرطبي: أمرها أن تشق عنهم، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾؛ أي: يرجعون عن مواقف الحساب، ﴿أَشْتَاتًا﴾؛ أي: أنواعًا وأصنافًا، ما بين شقي وسعيد، مأمور به إلى الجنة، ومأمور به إلى النار، قال ابن جريج: يتصدعون أشتاتًا فلا يجتمعون آخر ما عليهم، وقال السدي: أشتاتًا: فرقًا، وقوله تعالى: ﴿لِيُرَوَّا أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: ليجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾.

روى البخاري [٢٧٠٥] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن الحمر فقال: (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْفَادَةُ الْجَامِعَةُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾).

وروى الإمام أحمد [٢٠٦١٢] عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾ قال: حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها، وهكذا رواه النسائي [١١٦٩٤] في «التفسير» [ورجاله ثقات]. وفي «صحيح البخاري» [٦١٧٤] عن عدي مرفوعًا: (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَبِيَّةٍ)، وفي «صحيح مسلم» نحوه [٢٦٢٦]: (لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنَّ تَفْرِغَ مِنْ دَلُوكَ فِي إِنَاءٍ الْمُسْتَسْقَى، وَلَوْ أَنَّ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ) [وهذا لفظ ابن حبان/٥٢٢]، وفي «الصحيح» أيضًا: (يَا نِسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِحَارَنَهَا وَلَوْ فَرَسَنَ شَاةٍ)؛ يعني: ظلها، وفي الحديث الآخر: (رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِظُلْفٍ مُحْرَقٍ) [رواه ابن حبان/٣٣٧٤ وأحمد/١٦٦٩٩].

وروي عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت: كم فيها من مثقال ذرة. روى ابن جرير [٢٧٠/٣٠] عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: لما نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: (مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟) قال: يبكيني هذه السورة: فقال له رسول الله ﷺ: (لَوْلَا أَنَّكُمْ تُخْطِئُونَ وَتُذْنِبُونَ، فَيَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، لَخَلَقَ اللَّهُ أُمَّةً يُخْطِئُونَ وَيُذْنِبُونَ فَيَغْفِرَ لَهُمْ) [سنده حسن].



## تفسير سورة العاديات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ ١ ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا﴾ ٢ ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ ٣ ﴿فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا﴾ ٤ ﴿فَوْسَطْنَ بِهِ﴾ ٥ ﴿جَمًّا﴾ ٦ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ٧ ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ٨ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ ٩ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ ١٠ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ١١ .

يقسم تعالى بالخيـل إذا أجريت في سبيله فعدت وضـبحت، وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو. ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا﴾؛ يعني: اصطكاك نعالها للصخر فتقـدح منه النار. ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾؛ يعني: الإغارة وقت الصباح، وقوله: ﴿فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا﴾؛ يعني: غباراً في مكان معترك الخيول. ﴿فَوْسَطْنَ بِهِ جَمًّا﴾؛ أي: توسطن ذلك المكان كُلَّهـن جُمع. عن عبد الله [بن مسعود]: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال: الإبل، وقال علي: هي الإبل، وقال ابن عباس: هي الخيل، فبلغ علياً قول ابن عباس فقال: ما كانت لنا خيل يوم بدر. قال ابن عباس: إنما كان ذلك في سرية بعثت. [ثم] قال ابن عباس: فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال علي ﷺ، وقد قال بقول علي: إنها الإبل جماعة. منهم إبراهيم وعبيد بن عمير، وقال بقول ابن عباس آخرون منهم مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وقتادة، والضحاك واختاره ابن جرير، وقال ابن عباس وعطاء: ما ضبحت دابة قط إلا فرس أو كلب، وعن عطاء: سمعت ابن عباس يصف الضبيح: أُحُّ أُحُّ. وقال أكثر هؤلاء في قوله: ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا﴾؛ يعني: بحوافرها، وقيل: أسعرت الحرب بين رُكبانهن. قاله قتادة، وعن ابن عباس، ومجاهد: ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا﴾؛ يعني: مكر الرجال، وقيل: هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل، وقيل: المراد بذلك نيران القبائل، وقال من فسرهما بالخيـل: هو إيقاد النار بالمزدلفة، وقال ابن جرير [٢٧٤/٣٠]: والصواب الأول أنها الخيل حين تقـدح بحوافرها.

وقوله: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: يعني: إغارة الخيل صبحاً في سبيل الله، وقال من فسرهما بالإبل: هو الدفع صبحاً من المزدلفة إلى منى، وقالوا كلهم في قوله: ﴿فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا﴾ هو المكان الذي حلت فيه، أثارت به الغبار إما في حج أو غزو، وقوله: ﴿فَوْسَطْنَ بِهِ جَمًّا﴾ عن ابن عباس، وعطاء، وعكرمة، وقتادة، والضحاك: يعني: جمع

الكفار من العدو، ويحتمل أن يكون فوسطن بذلك المكان جميعهن ويكون جمعاً منصوباً على الحال المؤكدة.

وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ هذا هو المقسم عليه؛ بمعنى: إنه بنعم ربه لكفور جحود. قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وابن زيد [وغيرهم]: الكنود: الكفور. قال الحسن: هو الذي يعد المصائب وينسى نعم ربه.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ قال قتادة، وسفيان الثوري: وإن الله على ذلك لشهيد. ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان، قاله محمد بن كعب القرظي فيكون تقديره وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد؛ أي: بلسان حاله؛ أي: ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾؛ أي: وإنه لحب الخير وهو المال الشديد، وفيه مذهبان أحدهما: أن المعنى وإنه لشديد المحبة للمال. والثاني: وإنه لحريص بخيل من محبة المال وكلاهما صحيح، ثم قال تعالى مُزْهِدًا في الدنيا، ومرغبًا في الآخرة، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال. ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾؛ أي: أخرج ما فيها من الأموات، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني: أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم، ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾؛ أي: لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ولا يظلم مثقال ذرة.



## تفسير سورة القارعة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ  
الْمَبْثُوثِ ٤﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦﴿  
فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩﴾ وَمَا  
أَدْرَاكَ مَا هِيَّةٌ ١٠﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ١١﴾

القارعة من أسماء يوم القيامة، كالحاقاة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك، ثم قال معظمًا أمرها ومهولًا لشأنها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾؟ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾؛ أي: في انتشارهم وتفرقهم، وذهابهم ومحيثهم، من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث، كما قال في الآية الأخرى: ﴿كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾؛ يعني: قد صارت كأنها الصوف المنفوش، الذي قد شرع في الذهاب والتمزق. قال مجاهد، والحسن، والسدي [وغيرهم]: ﴿العهن﴾ الصوف. ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين، وما يصيرون إليه من الكرامة أو الإهانة بحسب أعمالهم، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾؛ أي: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ يعني: في الجنة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت سيئاته على حسناته. وقوله: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ قيل: معناه فهو ساقط هاو بأمر رأسه في نار جهنم، وعبر عنه بأمه؛ يعني: دماغه، روي نحو هذا عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي صالح، وقتادة. وقال قتادة: يهوي في النار على رأسه، وكذا قال أبو صالح يهوي في النار على رؤوسهم. وقيل: معناه فأمه التي يرجع إليها ويصير في المعاد إليها هاوية وهي اسم من أسماء النار. قال ابن جرير [٢٨٣/٣٠]: وإنما قيل للهاوية أمه؛ لأنه لا مأوى له غيرها، وقال ابن زيد: الهاوية النار هي أمه ومأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها، وقرأ: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [آل عمران: ١٥١]. قال ابن أبي حاتم وروي عن قتادة أنه قال: هي النار وهي مأواهم، ولهذا قال تعالى مفسرًا للهاوية: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةٌ ١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ١١﴿.

وقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾؛ أي: حارة شديدة الحر قوية اللهب والسعير. روى مالك [١٨٠٤] عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقَدُونَ جُزْءًا مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ). قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية. فقال: (إِنَّهَا فَضَّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا)

رواه البخاري [٣٠٩٢]، وثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: (اشْتَكَّتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يَا رَبِّ، أَكَلْتُ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ: نَفْسٌ فِي الشَّتَاءِ، وَنَفْسٌ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الشَّتَاءِ مِنْ بَرْدِهَا، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الصَّيْفِ مِنْ حَرِّهَا) [البخاري/٥١٢ نحوه ومسلم/٦١٧].



## تفسير سورة التكاثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧ .

يقول تعالى: شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر وصرتم من أهلها.

قال الحسن البصري: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ في الأموال والأولاد، وفي «صحيح البخاري» [٦٠٧٥] في الرقاق منه عن أبي بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾؛ يعني: (لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ). [لَتَمَنَّى ثَانِيًا]. وروى الإمام أحمد [١٦٣٤٨] عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: (﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي. وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟)، ورواه مسلم [٢٩٥٨].

وروى البخاري [٦١٤٩] عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ).

وقال قتادة: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كانوا يقولون: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدو من بني فلان، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم، والصحيح أن المراد بقوله: زرتم المقابر؛ أي: صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده فقال: (لَا بَأْسَ، طَهَّرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ) فقال: قلت طهور بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تُزيره القبور، قال: (فَتَعَمَّ إِذَا) [رواه البخاري/٣٤٢٠]

وروى ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقراً: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② فلبث هنيهة ثم قال: يا ميمون ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله.

وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ قال الحسن البصري: هذا وعيد بعد

وعيد، وقال الضحاك: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: الكفار ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: أيها المؤمنون، وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾؛ أي: لو علمتم حق العلم، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة، حتى صرتم إلى المقابر، ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ① ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ② ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ توعدهم بهذا الحال، وهي رؤية النار التي إذا زفرت زفرة واحدة خرَّ كل ملك مقرب، ونبي مرسل على ركبتيه، من المهابة والعظمة ومعاناة الأهوال، وقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾؛ أي: ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته.

وروى الإمام أحمد [٢٣٦٩٠] عن محمود بن الربيع قال: لما نزلت ﴿أَلَيْسَ لَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قالوا: يا رسول الله عن أي نعيم نسأل؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: (أَمَّا إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ) [سنده حسن].

وقال سعيد بن جبير: حتى عن شربة عسل، وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا، وقال الحسن البصري: نعيم الغداء والعشاء، وقال أبو قلابة: من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي، وقول مجاهد أشمل هذه الأقوال، وقال ابن عباس: النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العباد فيما استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وثبت في «صحيح البخاري» [٦٠٤٩] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ)، ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون.





## تفسير سورة العصر

وهي مكية

وقال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ ۝٣ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٤﴾.

العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر، وقال زيد بن أسلم: هو العشي، والمشهور الأول. فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر؛ أي: في خسارة وهلاك، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ﴿وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وهو أداء الطاعات، وترك المحرمات ﴿وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾؛ أي: على المصائب والأقدار، وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر.



## تفسير سورة الهمزة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٌ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا ﴿٤﴾ لَيُبَدِّلَنَّا فِي الْحُطْمَةِ ﴿٥﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحُطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْتَدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ .

الهماز بالقول، واللماز بالفعل؛ يعني: يزدري الناس وينتقص بهم، وقد تقدم بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿هَازِجٌ مَّسْلَمٌ يَنْبِغِ﴾ [القلم: ١١]. قال ابن عباس: همزة لمزة، طعان معياب، وقال الربيع بن أنس: الهمزة يهمزه في وجهه، واللمزة من خلفه، وقال قتادة: يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم، وقال مجاهد: الهمزة: باليد والعين، واللمزة: باللسان وهكذا قال ابن زيد، وقال زيد بن أسلم: همزة لحوم الناس، ثم قال بعضهم: المراد بذلك الأخنس بن شريق، وقيل: غيره وقال مجاهد: هي عامة، وقوله: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾؛ أي: جمعه بعضه على بعض، وأحصى عدده كقوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج: ١٨]. قاله السدي، وابن جرير [الطبري ٢٩٣/٣٠]، وقال محمد بن كعب: ألهاه ماله بالنهار هذا إلى هذا فإذا كان الليل نام كأنه جيفة.

وقوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾؛ أي: يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار؟ ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب، ثم قال تعالى: ﴿لَيُبَدِّلَنَّا فِي الْحُطْمَةِ﴾؛ أي: ليلقين هذا الذي جمع مالا فعدده في الحطمة وهي اسم من أسماء النار صفة؛ لأنها تحطم من فيها، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحُطْمَةُ﴾ ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْتَدَةِ﴾ قال ثابت البناني: تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء، ثم يقول: لقد بلغ منهم العذاب، ثم يبكي. قال محمد بن كعب: أكل كل شيء من جسده حتى إذا بلغت فؤاده حَذَوَ حلقه ترجع على جسده.

وقوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾؛ أي: مطبقة كما تقدم تفسيره في سورة البلد.

وقوله: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ قال عطية العوفي: عمد من حديد، وقال السدي: من نار، وقال ابن عباس: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾؛ يعني: الأبواب هي الممددة، وعن ابن عباس: أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب، وقال قتادة: كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد في النار، واختاره ابن جرير [٢٩٥/٣٠]، وقال أبو صالح: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾؛ يعني: القيود الطوال.

## تفسير سورة الفيل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله وأرغم أنوفهم، وخيب سعيهم وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة، وكانوا قومًا نصارى وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالًا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، وكان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال.

وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والتقريب، ففي قصة أصحاب الأخدود: أن ذا نواس، وكان آخر ملوك حمير وكان مشركًا وهو الذي قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى وكانوا قريبًا من عشرين ألفًا فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام، وكان نصرانيًا، فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة لكونه أقرب إليهم، فبعث معه أميرين أرياط وأبرهة، في جيش كثيف، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار واستلبوا الملك من حمير، وهلك ذو نواس غريقًا في البحر، واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران أرياط وأبرهة، فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا، فقال أحدهما للآخر: إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا، ولكن أبرز إلي وأبرز إليك، فأينا قتل الآخر استقل بعده بالملك، فأجابته إلى ذلك فتبارزا وخلف كل واحد منهما قناة، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف فشرم أنفه وفمه وشق وجهه، وحمل عتودة مولى أبرهة على أرياط فقتله، ورجع أبرهة جريحًا فداوى جرحه فبرأ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن، فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزن ناصيته، فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف وبجراب فيه من تراب اليمن، وجز ناصيته، فأرسلها معه ويقول في كتابه: ليطأ الملك على هذا الجراب فيبر قسمه، هذه ناصيتي قد بعثت بها إليك فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ورضي عنه وأقره على عمله، وأرسل أبرهة يقول للنجاشي: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبَنَّ قبلها مثلها، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء رفيعة البناء، مزخرفة الأرجاء. سمئها العرب القُلَيْس، لارتفاعها لأن الناظر إليها تكاد تسقط فلنسوته

عن رأسه من ارتفاع بنائها، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما يُحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً حتى قصدوا بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً، فأحدث فيها وكرّاً راجعاً. فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجراً حجراً.

وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً وكان يوماً فيه هواء شديد، فاحترقت وسقطت إلى الأرض، فتأهب أبرهة لذلك وسار في جيش كثيف، لئلا يصدّه أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً لم ير مثله، يقال له: محمود، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك، ويقال: كان معه أيضاً ثمانية أفيال، وقيل: اثنا عشر فيلاً غيره فالله أعلم؛ يعني: ليهدم به الكعبة بأن يجعل السلاسل في الأركان وتوضع في عنق الفيل ثم يزجر ليلقي الحائط جملة واحدة، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جدّاً ورأوا أن حقّاً عليهم المحاجبة دون البيت، ورد من أراد به كيد، فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له: «ذو نفر» فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله، وما يريد من هدمه وخرابه، فأجابوه وقاتلوا أبرهة، فهزمهم لما يريد الله <sup>وَعَلَى</sup> من كرامة البيت وتعظيمه وأسر ذو نفر، فاستصحبه معه ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم، عرّض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه: شهران وناهس فقاتلوه، فهزمهم أبرهة، وأسر نفيل بن حبيب فأراد قتله ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه اللات، فأكرمهم وبعثوا معه «أبا رغال» دليلاً. فلما انتهى أبرهة إلى المغمس وهو قريب من مكة نزل به، وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة، وكان يقال له: «الأسود بن مفضود» فهجاه بعض العرب فيما ذكره ابن إسحاق، وبعث أبرهة حنطة الحميري إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدّوه عن البيت، فجاء حنطة فدلّ على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة، وإن يخلّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه. فقال له حنطة: فاذهب معي إليه، فذهب معه، فلما رآه أبرهة أجّله، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريه وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال لترجمان: إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمنع مني. قال:

أنت وذاك. ويقال: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشرف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إليه، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من مَعرة الجيش. ثم قام عبد المطلب، فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده. قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهياً فيه، وكان اسمه محموداً، وعباً جيشه فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه، ثم أخذ بإذنه وقال: ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مَراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيراً من البحر مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص والعَدَسَ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق، هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النعمة، وجعل نفيل يقول:

أَيْنَ الْمَفْرُ؟ وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرُ الْغَالِبِ

قال ابن إسحاق: فلما بعث الله محمداً ﷺ كان فيما يُعَدُّ به على قريش من نعمته عليهم وفضله ما ردَّ عنهم من أمر الحبشة، لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (١) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ (٢) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (٣) ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ (٤) ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ أَلْعُوفٍ﴾ (٥) ﴿لَا يَأْلَفُ فَرِيشٍ﴾ (٦) ﴿إِلَّا فِيهِمْ رِجْلَةُ الشَّيْءِ وَالضَّيْفِ﴾ (٧) ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٨) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾؛ أي: لئلا يغير شيئاً من حالهم التي كانوا عليها لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه.

قال ابن هشام [١/١٧٤]: الأبابيل الجماعات، ولم تتكلم العرب بواحدة. قال: وأما السجِّل فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب: الشديد الصلب. قال: وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة، وإنما هو سَنَجٌ وجل؛ يعني: بالسنج: الحجر، والجِل الطين. يقول: الحجارة من هذين الجنسين: الحجر والطين. قال: والعصفُ: ورق الزرع الذي لم يُقْضَب واحده عصفه. انتهى ما ذكره، وقد قال عبد الله [ابن مسعود]: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: الفرق. وقال ابن عباس والضحاك: أبابيل يتبع بعضها بعضاً، وقال الحسن البصري وقادة: الأبابيل الكثيرة، وقال مجاهد: أبابيل شتى متتابعة مجتمعة، وقال ابن زيد: الأبابيل المختلفة تأتي من هاهنا، ومن هاهنا، أتتهم من كل مكان، وعن عبد الله بن الحارث بن نوفل أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ هي الأفاطيع كالإبل المؤبلة.

وعن ابن عباس: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: لهم خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأف الكلب، وعن عكرمة قال: كانت طيرًا خضرًا خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع، وعن عبيد بن عمير قال: هي طيور سود بحرية في مناقيرها وأظافيرها الحجارة.

وقال سعيد بن جبیر: كانت طيرًا خضرًا لها مناقير صفر تختلف عليهم. وعن عبيد بن عمير قال: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيرًا أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف. كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مُجزعة: حجرين في رجله وحجرًا في منقاره، قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحًا شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعًا.

وقوله: ﴿جَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قال سعيد بن جبیر: يعني: التبن، وفي رواية عن سعيد: ورق الحنطة، والمأكول: القصيل يجز للدواب، وكذلك قال الحسن البصري. وعن ابن عباس: العصف: القشرة التي على الحبة كالغلاف على الحنطة، وقال ابن زيد: العصف ورق الزرع وورق البقل إذا أكلته البهائم فرائثه، فصار روثًا.

والمعنى أن الله ﷻ أهلكهم ودمرهم بكيدهم وغيظهم، لم ينالوا خيرًا، وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح كما جرى لملكهم أبرهة، فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم ثم مات.

وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: (إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّهُ قَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، أَلَا فَلْيُبْلِغِ الشَّاهِدُ

الغَائِبُ) [البخاري/٢٣٠٢ ومسلم/١٣٥٥ كلاهما بنحوه].



## تفسير سورة قريش

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ ۝ إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝﴾

هذه السورة مفصلة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، وإن كانت متعلقة بما قبلها، كما صرح بذلك ابن إسحاق، وابن زيد؛ لأن المعنى عندهما حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾؛ أي: لا تلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين. وقيل: المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم لعظمتهم عند الناس لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم احترامهم بل من سار معهم أمن بهم، وهذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم، وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ولهذا قال: ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ ۝ إِلَافِهِمْ﴾ بدل من الأول ومفسر له، ولهذا قال: ﴿إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾.

قال ابن جرير [٣٠٦/٣٠]: الصواب أن اللام لام التعجب كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك. قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان. ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾؛ أي: فليوحدوه بالعبادة، كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرماً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَذِهِ الْبَلَدَ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]، وقوله: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾؛ أي: هو رب البيت، وهو الذي أطعمهم من جوع ﴿وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾؛ أي: تفضل عليهم بالأمن والرخص، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا ندّاً، ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [١١٢] وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣].

## تفسير سورة الماعون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يُحِصُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

يقول تعالى: أرايت يا محمد الذي يكذب بالدين؟ وهو: المعاد والجزاء والثواب، ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾؛ أي: هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه ولا يطعمه ولا يحسن إليه، ﴿وَلَا يُحِصُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨]؛ يعني: الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته، ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني: المنافقين الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر، ولهذا قال: ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق وأبو الضحى.

وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل في صلاتهم ساهون، وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك كله ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيب منها، وكمل له النفاق العملي، كما ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: (تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ قَامَ فَتَقَرَّرَ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا) [مسلم/٦٢٢ بنحوه]، فهذا آخر صلاة العصر التي هي الوسطى كما ثبت به النص إلى آخر وقتها، وهو وقت الكراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب لم يطمئن ولا خشع فيها أيضاً، ولهذا قال: (لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا)، ولعله إنما حمله على القيام إليها مراعاة الناس لا ابتغاء وجه الله، فهو إذا لم يصل بالكلية. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا



كُفَّاءُ يَرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿النساء: ١٤٢﴾، وقال هاهنا: ﴿الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾؛ أي: لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما يُنْتَفَعُ به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُرْبَاتِ أولى وأولى، قال علي: الماعون الزكاة، وكذا روي من غير وجه عن ابن عمر، وبه يقول محمد ابن الحنفية، ومجاهد، وعطاء، والزهري، والحسن وابن زيد [وغيرهم]، وقال الحسن البصري: إن صلى راءى وإن فاتته لم يأس عليها، ويمنع زكاة ماله، وفي لفظ: صدقة ماله، وقال زيد بن أسلم: هم المنافقون ظهرت الصلاة فصلوها، وخفيت الزكاة فمنعوها [ينظر: الطبري ٣٠/٣١٦].

وقد روى أبو داود [١٦٥٧ بنحوه] والنسائي [١١٧٠١] عن عبد الله قال: كل معروف صدقة، وكنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر [وسنده حسن].

وعن ابن عباس: متاع البيت، وكذا قال مجاهد، وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وغير واحد إنها العارية للأمتعة، وعن ابن عباس [أيضاً] قال: لم يجئ أهلها بعد.

وقال عكرمة: رأس الماعون زكاة المال، وأدناه المنخل والدلو والإبرة، وهذا الذي قاله عكرمة حسن، فإنه يشمل الأقوال كلها وترجع كلها إلى شيء واحد، وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة، ولهذا قال محمد بن كعب ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال: المعروف، ولهذا جاء في الحديث: (كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ) [رواه مسلم/١٠٠٥].

وعن الزهري: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال: بلسان قريش: المال.



## تفسير سورة الكوثر

وهي مدنية، وقيل: مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ .

روى مسلم [٤٠٠] عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءً ثم رفع رأسه متبسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله. قال: (لَقَدْ أُنزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ سَوْرَةٌ) فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ ثم قال: (أَتَذَرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي ﷻ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرْدُ عَلَيْهِ أُمْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيَخْتَلِجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمْنِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ).

وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة، وأنها منزلة معها.

فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة، وروى البخاري [٤٦٨٠] عن أنس بن مالك قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: (أَتَيْتُ عَلَى نَهْرٍ حَافَتَاهُ قَبَابُ اللَّؤْلُؤِ الْمُجَوِّفِ فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ).

وروى البخاري [٤٦٨١] عن أبي عبيدة، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قالت: نهر عظيم أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه دُرٌّ مجوف، آيته كعدد النجوم، ثم روى البخاري [٤٦٨٢] عن أبي بشر عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة قال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه.

وهذا التفسير يعم النهر وغيره؛ لأن الكوثر من الكثرة وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومحارب بن دثار، والحسن بن أبي الحسن البصري، حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة، وقال عكرمة: هو النبوة والقرآن، وثواب الآخرة وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضاً، فقد روى ابن جرير [٣٢٠/٣٠] عنه أنه قال: الكوثر نهر في الجنة حافته ذهب وفضة يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل، وروى ابن جرير [٣٢٤/٣٠] عن ابن عمر

[مثله]، وهكذا روي عن أنس وأبي العالية، ومجاهد وغير واحد من السلف أن الكوثر نهر في الجنة، وقال عطاء: هو حوض في الجنة.

**وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾؛ أي:** كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونَحَرَكَ، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، قال ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة والحسن: يعني بذلك: نحر البدن ونحوها، وكذا قال قتادة، والضحاك، وغير واحد من السلف، وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله والذبح على غير اسمه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الآية [الأنعام: ١٢١]، وقيل: المراد بقوله: ﴿وَأَنْحَرْ﴾ وضع اليد اليمنى على اليد اليسرى تحت النحر، يروى هذا عن علي ولا يصح، وعن الشعبي مثله وعن أبي جعفر الباقر: ﴿وَأَنْحَرْ﴾؛ يعني: ارفع اليدين عند افتتاح الصلاة، وقيل: ﴿وَأَنْحَرْ﴾؛ أي: واستقبل بنحر القبل، ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير [٣٢٥/٣٠].

وعن عطاء الخراساني: ﴿وَأَنْحَرْ﴾؛ أي: ارفع صلبك بعد الركوع واعتدل وأبرز نحرًا؛ يعني به: الاعتدال، رواه ابن أبي حاتم وكل هذه الأقوال غريبة جدًا، والصحيح القول الأول أن المراد بالنحر ذبح المناسك، ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه ويقول: (مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَنَسَكَ نُسَكَنَا، فَقَدْ أَصَابَ النُّسْكَ، وَمَنْ نَسَكَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلَا نُسْكَ لَهُ)، فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله إني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم. قال: (شَاتُكَ شَاةٌ لَحْمٌ) قال: فإن عندي عناقًا هي أحب إلي من شاتين أفتجزئ عني؟ قال: (تُجْزِيكَ، وَلَا تُجْزِي أَحَدًا بَعْدَكَ) [رواه البخاري/٩١٢].

قال أبو جعفر بن جرير [٣٢٨/٣٠]: والصواب قول من قال: إن معنى ذلك فاجعل صلاتك كلها لربك خالصًا دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرًا اجعله له دون الأوثان، شكرًا له على ما أعطاك من الكرامة والخير، الذي لا كِفَاءَ له وخصك به، وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى محمد بن كعب القرظي وعطاء، وقوله: ﴿إِنَّكَ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾؛ أي: إن مبغضك يا محمد ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكره، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة وفتادة: نزلت في العاص بن وائل، وقال شمر بن عطية: نزلت في عقبة بن أبي معيط.

وقال ابن عباس أيضًا وعكرمة: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش، وروى البزار عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المصنبر المنبر من قومه؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية فقال: أنتم خير منه، قال فنزلت: ﴿إِنَّكَ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ إسناده صحيح،

وعن عطاء: نزلت في أبي لهب، وذلك حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال: بُتِرَ محمد الليلة فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. وعن ابن عباس: نزلت في أبي جهل، وعنه: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ﴾؛ يعني: عدوك، وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم، وقال عكرمة: الأبتَرُ الفرد، وقال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا: بُتِرَ، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا: بتر محمد، فأنزل الله ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتَرُ الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره، وحاشا وكلا بل قد أبقي الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم المحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد.



## تفسير سورة الكافرون

وهي مكية

ثبت في «صحيح مسلم» [١٢١٨] عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، وبـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف، وفي «صحيح مسلم» [٧٢٦] من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر، وروى الإمام أحمد [٤٧٦٣] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين، قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعة وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة، ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكُفْرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [رجال إسناده ثقات]. وفي الحديث أنها تعدل ربع القرآن [حديث حسن بطرقة].

وروى الإمام أحمد [٢٣٨٥٨] عن نوفل بن معاوية أن رسول الله ﷺ قال له: (اقْرَأْ: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكُفْرُونَ﴾ ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا، فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشَّرِّ) [حسن بما بعده]، وروى أبو القاسم الطبراني [في «المعجم الكبير الكبير» ٢/٢٨٧] عن جبلة بن حارثة، وهو أخو زيد بن حارثة أن النبي ﷺ قال: (إِذَا أُوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكُفْرُونَ﴾ حَتَّى تَمُرَّ بِأَخْرِهَا، فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشَّرِّ) [حسن بما قبله].

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكُفْرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَٰبِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقولها: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكُفْرُونَ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجِهين بهذا الخطاب هم كفار قريش، وقيل: إنهم من جهلهم دَعَا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ يعني: من الأصنام والأنداد ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وهو الله وحده لا شريك له، فما هاهنا بمعنى من، ثم قال: ﴿وَلَا أَنَا عَٰبِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾؛ أي: ولا أعبد عبادتكم؛ أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، ولهذا قال: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾؛ أي: لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]، فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبد، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كان كلمة الإسلام

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ)؛ أي: لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا ما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله، ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [الفصص: ٥٥]، وقال البخاري يقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الكفر ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الإسلام، ولم يقل ديني؛ لأن الآيات بالنون فحذف الياء كما قال: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وقال غيره: لا أعبد ما تعبدون الآن ولا أجيبكم فيما بقي من عمري ولا أنتم عابدون ما أعبد، وهم الذين قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفَيْنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤]، ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد كقوله: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [٥] إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [الشرح: ٥، ٦]، وحكاه بعضهم كابن الجوزي وغيره عن ابن قتيبة، فالله أعلم، فهذه ثلاثة أقوال: أولها: ما ذكرناه أولاً. والثاني: ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتَ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ في الماضي ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ ﴿٣﴾ وَلَا أَنْتَ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ في المستقبل. الثالث: إن ذلك تأكيد محض، وثم قول رابع: نصره أبو العباس بن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفي الفعل؛ لأنها جملة فعلية ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية أكد، فكأنه نفي الفعل، وكونه قابلاً لذلك، ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً، وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم، وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ على أن الكفر ملة واحدة، فورث اليهود من النصارى وبالعكس، وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود، وبالعكس لحديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى) [رواه أحمد ٦٨٤٤، وأبو داود ٢٩١١ وسنده حسن].



## تفسير سورة النصر

وهي مدنية

روى النسائي [١١٧١٣] عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: صدقت [ورواه مسلم/٣٠٢٤].

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

روى البخاري [٤٦٨٦] عن ابن عباس قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وَجَدَ في نفسه، فقال: لم يَدْخُلْ هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذٍ إلا ليُرِيهم فقال: ما تقولون في قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه؛ يعني: نصلي له ونستغفره. معنى مليح صحيح، وروى البخاري [٧٦١] عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي) يتأول القرآن.

وروى الإمام أحمد [٢٤١١١] عن مسروق قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قوله: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ)، وقال: (إِنَّ رَبِّي كَانَ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمِّي، وَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتَهَا أَنْ أُسَبِّحَ بِحَمْدِكَ وَأَسْتَغْفِرَكَ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا، فَقَدْ رَأَيْتَهَا) ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ (ورواه مسلم [٤٨٤]).

والمراد بالفتح هاهنا فتح مكة قولاً واحداً، فإن أحياء العرب كانت تتلَوُّم بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجا،

فلم تمضِ ستان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام والله الحمد والمنة، وقد روى البخاري في «صحيحه» [٤٠٥١] عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وكانت الأحياء تتلوّم بإسلامها فتح مكة، يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي، الحديث.





## تفسير سورة تبت

وهي مكية

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ .

روى البخاري [٤٦٨٨] عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: (يَا صَبَاحَاهُ)، فاجتمعت إليه قريش فقال: (أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ أَوْ مُمَسِّيُكُمْ، أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟). قالوا: نعم. قال: (فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ)، فقال أبو لهب: ألهذا جمعنا؟ تباً لك فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخرها وفي رواية فقام ينفذ يديه وهو يقول: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [البخاري/٤٤٩٢]. الأول: دعاء عليه، والثاني: خبر عنه، فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له والازدراء به والتقص له ولدينه.

وروى محمد بن إسحاق عن ربيعة بن عباد الديلي قال: إني لمع أبي رجل شاب، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذو جمة، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: (يَا بَنِي فُلَانٍ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، أَمُرُّكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تُصَدِّقُونِي وَتَمْنَعُونِي حَتَّى أَنْفِذَ عَنِ اللَّهِ مَا بَعَثَنِي بِهِ)، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه، فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب، رواه أحمد أيضاً [١٦٠٦٨] والطبراني [في «الكبير» ٦٣/٥] بهذا اللفظ [سند حسن]، فقلوه تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾؛ أي: خسرت وخابت، وضل عمله وسعيه، ﴿وَتَبَّ﴾؛ أي: وقد تبَّ تحقق خسارته وهلاكه.

وقوله: ﴿مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ قال ابن عباس وغيره ﴿وَمَا كَسَبَ﴾؛ يعني: ولده، وروي عن عائشة، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وابن سيرين مثله.

وقوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾؛ أي: ذات لهب وشرر وإحراق شديد ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش وهي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم

القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، ولهذا قال تعالى: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ؛ يعني: تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه، وهي مُهَيَّاةٌ لذلك مستعدة له. ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ قال مجاهد وعروة: من مسد النار، وعن مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والثوري، والسدي ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ كانت تمشي بالنميمة، وعن ابن عباس وعطية الجدلي والضحاك، وابن زيد: كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ، واختاره ابن جرير [٣٣٩/٣٠]. قال ابن جرير: كانت تعير النبي ﷺ بالفقر، وكانت تحتطب فغيرت بذلك، كذا حكاه ولم يعزه إلى أحد، والصحيح الأول والله أعلم. قال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة فقالت: لأنفقنها في عداوة محمد؛ يعني: فأعقبها الله بها حبلاً في جيدها من مسد النار، وعن الشعبي قال: المسد الليف، وقال عروة بن الزبير: المسد سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً، وعن الثوري: هي قلادة من نار طولها سبعون ذراعاً، وقال مجاهد: أي: طوق من حديد، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسداً؟ وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾؛ أي: في عنقها حبل من نار جهنم ترفع به إلى شفيرها ثم ترمى إلى أسفلها، ثم كذلك دائماً. قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (٣) وَأَمْرَاتُهُ، حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما لا باطناً ولا ظاهراً، لا مسراً، ولا معلناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة.



## تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية

روى البخاري [٦٩٤٠] عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: (سَلُوهُ: لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟) فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: (أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ) [ورواه النسائي/١٠٥٣٩]، وفي رواية [عند الترمذي/٢٩٠١] قال ﷺ: (مَا حَمَلَكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ؟) قال: إني أحبها. قال: (حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ).

وروى البخاري [٤٧٢٦] عن أبي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالتها، فقال النبي ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ).

وروى أبو عيسى الترمذي [٢٩٠٠] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (احشُدُوا، فَإِنِّي سَاقِرٌ عَلَيْكُمْ ثُلُثُ الْقُرْآنِ) فحشد من حشد ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: (فَإِنِّي سَاقِرٌ عَلَيْكُمْ ثُلُثُ الْقُرْآنِ) إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: (إِنِّي قُلْتُ: سَاقِرٌ عَلَيْكُمْ ثُلُثُ الْقُرْآنِ، أَلَا وَإِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ)، وهكذا رواه مسلم [٨١٢].

وروى الإمام مالك [٤٨٦] عن عبيد بن حنين قال: سمعت أبا هريرة يقول: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد، فقال رسول الله ﷺ: (وَجَبَتْ). قلت: وما وجبت؟ قال: (الْجَنَّةُ)، ورواه الترمذي [٢٨٩٧]، وقال: حسن صحيح غريب.

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد [٢٢٧١٦] عن عبد الله بن خبيب قال: أصابنا عطش وظلمة فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا، فخرج فأخذ بيدي فقال: (قُلْ). فسكت. قال: (قُلْ). قلت: ما أقول؟ قال: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، وَالْمُعَوِّذِينَ حِينَ تُمَسِّي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثًا، تَكْفِكَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ) ورواه أبو داود [٥٠٨٢] والترمذي [٣٥٧٥ بنحوه]، وقال: حسن صحيح غريب.

وروى البخاري [٤٧٢٩] عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ② ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ③ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ④ .

قال عكرمة: لما قالت اليهود نحن نعبد عُزَيْرَ ابن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر، وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان. أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ يعني: هو الأحد الواحد الذي لا نظير له ولا وزير، ولا نديد، ولا شبيه، ولا يُطَلَقَ هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله ﷻ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله.

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال ابن عباس: يعني: الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، وقال ابن عباس [أيضاً]: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفء وليس كمثل شيء سبحانه الله الواحد القهار، وعن أبي وائل ﴿الْصَّمَدُ﴾ السيد الذي قد انتهى سؤدده، وعن ابن مسعود مثله [ينظر: الطبري ٣٠/٣٤٦].

وقال زيد بن أسلم: السيد، وقال الحسن وقتادة: هو الباقي بعد خلقه، وقال الحسن أيضاً: الحي القيوم الذي لا زوال له، وقال عكرمة: الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم، وقال الربيع بن أنس: هو الذي لم يلد ولم يولد، كأنه جعل ما بعده تفسيراً له، وهو قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهو تفسير جيد. وقال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب [وغيرهم]: ﴿الْصَّمَدُ﴾: الذي لا جوف له، وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، وقال عبد الله بن بريدة: ﴿الْصَّمَدُ﴾: نور يتلأأ، روى ذلك كله وحكاه ابن أبي حاتم، والبيهقي والطبراني [٢٢/٢]، وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده [٣٠/٣٤٥].

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنّة له، بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير الصمد: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا ﷻ، هو الذي يُصَمَدُ إليه في الحوائج وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل، ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه، وقال البيهقي نحو ذلك أيضاً. وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ③ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾؛ أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة. قال مجاهد: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾؛ يعني: لا صاحبة له، وهذا كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١]؛ أي: هو مالك كل شيء

وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه تعالى وتقدس وتنزه.  
 وروى البخاري [٤٦٩٠] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (قَالَ اللَّهُ ﷻ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ  
 وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي،  
 وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ. وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ  
 الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ).



## تفسير سورتي المعوذتين

وهما مدنيتان

روى مسلم في «صحيحه» [٨١٤] عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: (أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يَرِ مِثْلُهُنَّ قَطُّ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾) وروى الإمام مالك [١٦٨٧] عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها، ورواه البخاري [٤٧٢٨] ومسلم [٢١٩٢]، وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما. رواه الترمذي [٢٠٥٨]، وقال: حديث حسن.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤ .

عن جابر قال: الفلق: الصبح، وعن ابن عباس [مثله]، وروي عن مجاهد، وسعيد بن جبير [٣٥٠/٣٠]، والحسن، وقتادة، وزيد بن أسلم [وغيرهم] مثل هذا. قال القرظي، وابن زيد، وابن جرير: وهي كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال ابن عباس [أيضاً]: ﴿الْفَلَقُ﴾: الخلق، وكذا قال الضحاك: أمر الله نبيه أن يتعوذ من الخلق كله، وقال كعب الأحبار: بيت في جهنم، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، وعن زيد بن علي، عن آبائه أنهم قالوا: جب في قعر جهنم عليه غطاء، فإذا كشف عنه، خرجت منه نار تصيح منه جهنم من شدة حر ما يخرج منه، وكذا روي عن عمرو بن عبسة، والسدي وغيرهم. وقال أبو عبد الرحمن الحبلي: ﴿الْفَلَقُ﴾ من أسماء جهنم، وقال ابن جرير [٣٥٠/٣٠]: والصواب القول الأول أنه فلق الصبح، وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري في «صحيحه» [١٩٠٤/٤] رحمه الله تعالى.

وقوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾؛ أي: من شر جميع المخلوقات، وقال ثابت البناني والحسن البصري: جهنم وإبليس وذريته مما خلق.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قال مجاهد: غاسق الليل إذا وَقَبَ غروب الشمس، حكاه البخاري عنه [تعليقاً ١٩٠٤/٤]، وكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، والضحاك وخُصِيف والحسن وقتادة: إنه الليل إذا أقبل بظلامه، وقال الزهري: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا

وَقَبَ الشمس إذا غربت، وعن عطية وقتادة: إذا وقب الليل: إذا ذهب، وعن أبي هريرة قال: كوكب، وقال ابن زيد: كانت العرب تقول: الغاسق سقوط الثريا، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها.

قال ابن جرير [٣٥٢/٣٠] وقال آخرون: هو القمر. قلت: وعمدة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد [٢٤٣٦٨] عن عائشة [قالت]: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فأراني القمر حين طلع، وقال: (تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ) ورواه الترمذي [٣٣٦٦]، والنسائي [١٠١٣٨]، في كتابي «التفسير» من سننهما، وقال الترمذي: حسن صحيح، قال أصحاب القول الأول: وهو آية الليل إذا ولج، هذا لا ينافي قولنا؛ لأن القمر آية الليل ولا يوجد له سلطان إلا فيه، وكذلك النجوم لا تضيء إلا بالليل فهو يرجع إلى ما قلناه والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ الْفَقْصِ فِي الْعَقَدِ﴾ قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك: يعني: السواحر، قال مجاهد: إذا رقين ونفثن في العقد، وعن طاوس قال: ما من شيء أقرب إلى الشرك من رقية الحية والمجانين، وفي الحديث أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال: اشتكيت يا محمد؟ فقال: (نَعَمْ) فقال: باسم الله أرقيك، من كل داء يؤذيك، ومن شر كل حاسد وعين، الله يشفيك [رواه مسلم/٢١٨٦ بنحوه]، ولعل هذا كان من شكواه ﷺ حين سحر، ثم عافاه الله تعالى وشفاه ورد كيد السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم وفضحهم، ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله ﷺ يوماً من الدهر، بل كفى الله وشفى وعافى.

وروى البخاري [٥٤٣٢] في كتاب «الطب» من صحيحه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن فقال: (يَا عَائِشَةُ، أَعْلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ: مَا بَالُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ أَعْصَمٍ - رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ حَلِيفُ الْيَهُودِ، كَانَ مُنَافِقًا - قَالَ: وَفِيمَ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ. قَالَ: وَأَيْنَ؟ قَالَ: فِي جُفِ طَلْعَةِ ذَكَرٍ تَحْتَ رَعُوفَةٍ فِي بئرِ ذُرْوَانَ). قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه، فقال: (هَذِهِ الْبِئْرُ الَّتِي أُرِيْتُهَا، وَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحَنَاءِ، وَكَأَنَّ نَحْلَهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ). قال: فاستخرج فقلت: أفلا تنسرت؟ فقال: (أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَأَكْرَهُ أَنْ أُبَيَّرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا).

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ أَلْوَسَاسِ ④ الْخَنَاسِ ⑤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑦﴾.

هذه ثلاث صفات من صفات الرب ﷻ: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيد له، فأمر المستعيز أن يتعوذ بالمتصف

بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يُزَيِّن له الفواحش ولا يألوه جهدًا في الخبال، والمعصوم من عصمه الله. وقد ثبت في «الصحيح» [المسلم ٢٨١٤] أنه: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ وَكِلَ بِهِ قَرِينَهُ). قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: (نَعَمْ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ، فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ)، وثبت في «الصحيح» عن أنس في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعَا فقال رسول الله ﷺ: (عَلَى رُسُلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُبَيْ). فقالا: سبحان الله يا رسول الله. فقال: (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْدَفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا، أَوْ قَالَ: شَرًّا) [البخاري/٣١٠٧ ومسلم/٢١٧٥].

روى الإمام أحمد [٢٠٦١١] عن أبي تميمه عن رديف رسول الله ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ حماره، فقلت: تعس الشيطان. فقال النبي ﷺ: (لَا تَقُلْ: تَعَسَ الشَّيْطَانُ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: تَعَسَ الشَّيْطَانُ، تَعَاظَمَ، وَقَالَ: بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ، وَإِذَا قُلْتَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ)، وإسناده جيد قوي، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب، وإن لم يذكر الله تعاضم وغلب، وروى الإمام أحمد [٨٣٥٢] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي الْمَسْجِدِ، جَاءَهُ الشَّيْطَانُ فَأَبَسَ بِهِ كَمَا يُبْسُ الرَّجُلُ بِدَائِبَتِهِ، فَإِذَا سَكَنَ لَهُ رَنَقُهُ أَوْ أَلْجَمَهُ). قال أبو هريرة: وأنتم ترون ذلك، أما المزنوق فتراه مائلًا - كذا - لا يذكر الله، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله ﷻ [قال الهيثمي في «المجمع»: رجاله رجال الصحيح].

وقال سعيد بن جببر عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسِ﴾ قال: الشيطان جائم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس، وكذا قال مجاهد، وقتادة وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه: ذُكِرَ لي أن الشيطان الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح، فإذا ذكر الله خنس، وعن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ قال: هو الشيطان يأمر فإذا أطيع خنس.

وقوله: ﴿الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ هل يختص هذا ببني آدم كما هو الظاهر أو يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليبًا، وقال ابن جرير [٣٠/٣٥٦]: وقد استعمل فيهم (رجال من الجن) فلا بدع في إطلاق الناس عليهم.

وقوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، هل هو تفصيل لقوله: ﴿الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ثم بينهم فقال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وهذا يقوي القول الثاني. وقيل قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وروى الإمام أحمد [٢٠٩٧] عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله



إني لأحدث نفسي بالشيء؛ لأن آخرَّ من السماء أحب إلي من أن أتكلم به قال: فقال النبي ﷺ: (اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسةِ)، ورواه أبو داود [٥١١٢] والنسائي [برقم/١٠٥٠٣، وإسناده صحيح].



## مراجع تحقيق كتاب اليسير

- ١ - إبطال الحيل، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَرِي المعروف بابن بَطَّة العكبري (المتوفى: ٣٨٧هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ٢ - الأحاديث المختارة، أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار النشر: مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ٣ - الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار النشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ٤ - الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، دار النشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
- ٥ - البحر الزخار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله، دار النشر: مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ٦ - تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٧ - تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار النشر: دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- ٨ - تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٩ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: الصادق بن محمد بن إبراهيم، الناشر: دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- ١٠ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر، دار النشر: دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- ١١ - الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار النشر: دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- ١٢ - الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - .
- ١٣ - الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن فتوح الحميدي، تحقيق: د. علي حسين البواب، دار النشر: دار ابن حزم، لبنان - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ١٤ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار النشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- ١٥ - الدر المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار النشر: دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
- ١٦ - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي أبو بكر، تحقيق: عبد المعطي قلججي، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١٧ - الروض الداني (المعجم الصغير)، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، دار النشر: المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ١٨ - الزهد، عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي أبو عبد الله، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٩ - سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار النشر: دار الفكر، بيروت.
- ٢٠ - سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار النشر: دار الفكر.
- ٢١ - سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار النشر: مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ٢٢ - سنن الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار النشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
- ٢٣ - سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، دار النشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ٢٤ - السنن الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ٢٥ - سنن سعيد بن منصور، سعيد بن منصور الخراساني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار النشر: الدار السلفية، الهند، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.
- ٢٦ - سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي)، محمد بن إسحاق بن يسار، تحقيق: محمد حميد الله، دار النشر: معهد الدراسات والأبحاث للتعريف.
- ٢٧ - السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار النشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - .

- ٢٨ - **شعب الإيمان**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ٢٩ - **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار النشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ٣٠ - **صحيح ابن خزيمة**، محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، دار النشر: المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- ٣١ - **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٣٢ - **العظمة**، عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني أبو محمد، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار النشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ٣٣ - **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، بدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٣٤ - **عمل اليوم والليلة**، أحمد بن شعيب بن علي النسائي أبو عبد الرحمن، تحقيق: د. فاروق حمادة، دار النشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- ٣٥ - **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار النشر: دار المعرفة، بيروت.
- ٣٦ - **الفردوس بمأثور الخطاب**، أبو شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي الهمداني الملقب إلكيا، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٣٧ - **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار النشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ٣٨ - **الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)**، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعد، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- ٣٩ - **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، تحقيق: محمود عمر الدمياطي، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٤٠ - **المجتبى من السنن**، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار النشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٤١ - **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار النشر: دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت، ١٤٠٧هـ.
- ٤٢ - **المراسيل**، سليمان بن الأشعث السجستاني أبو داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار النشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

- ٤٣ - **المستدرک علی الصحیحین**، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ٤٤ - **مسند ابن أبي شيبه**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبه، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي وأحمد بن فريد المزيدي، دار النشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- ٤٥ - **مسند أبي داود الطيالسي**، سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي، دار النشر: دار المعرفة، بيروت.
- ٤٦ - **مسند أبي يعلى**، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار النشر: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ٤٧ - **مسند إسحاق بن راهويه**، إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه الحنظلي، تحقيق: د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، الطبعة الأولى، دار النشر: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- ٤٨ - **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، دار النشر: مؤسسة قرطبة، مصر.
- ٤٩ - **مسند الشافعي**، محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٥٠ - **المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الهرازي الأصبهاني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ٥١ - **المسند، عبد الله بن الزبير أبو بكر الحميدي**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار النشر: دار الكتب العلمية، مكتبة المتنبي، بيروت، القاهرة.
- ٥٢ - **المصنف**، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار النشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- ٥٣ - **معالم التنزيل (تفسير البغوي)**، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار النشر: دار المعرفة، بيروت.
- ٥٤ - **المعجم الأوسط**، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار النشر: دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
- ٥٥ - **المعجم الكبير**، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة الزهراء، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- ٥٦ - **المنتخب من مسند عبد بن حميد**، عبد بن حميد بن نصر أبو محمد الكسي، تحقيق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، دار النشر: مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٥٧ - **المنتقى من السنن المسندة**، عبد الله بن علي بن الجارود أبو محمد النيسابوري، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار النشر: مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٥٨ - **موطأ الإمام مالك**، مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، مصر -.

## الفهرس

الموضوع	الصفحة
* تفسير سورة الإسراء	٥
* تفسير سورة الكهف	٤٧
* تفسير سورة مريم	٨١
* تفسير سورة طه	١٠٨
* تفسير سورة الأنبياء	١٤٤
* تفسير سورة الحج	١٧٣
* تفسير سورة المؤمنون	٢٠٧
* تفسير سورة النور	٢٣١
* تفسير سورة الفرقان	٢٧٥
* تفسير سورة الشعراء	٣٠٠
* تفسير سورة النمل	٣٢٥
* تفسير سورة القصص	٣٤٥
* تفسير سورة العنكبوت	٣٦٨
* تفسير سورة الروم	٣٨٥
* تفسير سورة لقمان	٤٠١
* تفسير سورة السجدة	٤١١
* تفسير سورة الأحزاب	٤١٩
* تفسير سورة سبأ	٤٥٩
* تفسير سورة فاطر	٤٧٦
* تفسير سورة يس	٤٩١
* تفسير سورة الصافات	٥٠٩
* تفسير سورة ص	٥٢٩
* تفسير سورة الزمر	٥٤٤
* تفسير سورة غافر	٥٦٦

الموضوع	الصفحة
* تفسير سورة فصلت .....	٥٨٦
* تفسير سورة الشورى .....	٦٠١
* تفسير سورة الزخرف .....	٦١٧
* تفسير سورة الدخان .....	٦٣٣
* تفسير سورة الجاثية .....	٦٤٢
* تفسير سورة الأحقاف .....	٦٤٩
* تفسير سورة محمد .....	٦٦٢
* تفسير سورة الفتح .....	٦٧٢
* تفسير سورة الحجرات .....	٦٩٠
* تفسير سورة ق .....	٧٠٠
* تفسير سورة الذاريات .....	٧١١
* تفسير سورة الطور .....	٧١٩
* تفسير سورة النجم .....	٧٢٦
* تفسير سورة القمر .....	٧٣٨
* تفسير سورة الرحمن .....	٧٤٦
* تفسير سورة الواقعة .....	٧٥٧
* تفسير سورة الحديد .....	٧٧٣
* تفسير سورة المجادلة .....	٧٨٧
* تفسير سورة الحشر .....	٧٩٨
* تفسير سورة الممتحنة .....	٨١١
* تفسير سورة الصف .....	٨٢٠
* تفسير سورة الجمعة .....	٨٢٦
* تفسير سورة المنافقون .....	٨٣٢
* تفسير سورة التغابن .....	٨٣٥
* تفسير سورة الطلاق .....	٨٤٠
* تفسير سورة التحريم .....	٨٤٨
* تفسير سورة الملك .....	٨٥٦
* تفسير سورة القلم .....	٨٦٢

الموضوع	الصفحة
* تفسير سورة الحاقة .....	٨٧٠
* تفسير سورة المعارج .....	٨٧٦
* تفسير سورة نوح .....	٨٨٢
* تفسير سورة الجن .....	٨٨٧
* تفسير سورة المزمل .....	٨٩٤
* تفسير سورة المدثر .....	٩٠٠
* تفسير سورة القيامة .....	٩٠٦
* تفسير سورة الإنسان .....	٩١٢
* تفسير سورة المرسلات .....	٩١٨
* تفسير سورة النبا .....	٩٢٢
* تفسير سورة النازعات .....	٩٢٧
* تفسير سورة عبس .....	٩٣٢
* تفسير سورة التكوير .....	٩٣٦
* تفسير سورة الانفطار .....	٩٤١
* تفسير سورة المطففين .....	٩٤٣
* تفسير سورة الانشقاق .....	٩٤٨
* تفسير سورة البروج .....	٩٥٢
* تفسير سورة الطارق .....	٩٥٧
* تفسير سورة الأعلى .....	٩٥٩
* تفسير سورة الغاشية .....	٩٦٢
* تفسير سورة الفجر .....	٩٦٥
* تفسير سورة البلد .....	٩٧١
* تفسير سورة الشمس .....	٩٧٤
* تفسير سورة الليل .....	٩٧٧
* تفسير سورة الضحى .....	٩٨٠
* تفسير سورة الشرح .....	٩٨٣
* تفسير سورة التين .....	٩٨٥
* تفسير سورة اقرأ .....	٩٨٧



الموضوع	الصفحة
* تفسير سورة القدر .....	٩٩٠
* تفسير سورة البينة .....	٩٩٤
* تفسير سورة الزلزلة .....	٩٩٧
* تفسير سورة العاديات .....	٩٩٩
* تفسير سورة القارعة .....	١٠٠١
* تفسير سورة التكاثر .....	١٠٠٣
* تفسير سورة العصر .....	١٠٠٥
* تفسير سورة الهمزة .....	١٠٠٦
* تفسير سورة الفيل .....	١٠٠٧
* تفسير سورة قريش .....	١٠١١
* تفسير سورة الماعون .....	١٠١٢
* تفسير سورة الكوثر .....	١٠١٤
* تفسير سورة الكافرون .....	١٠١٧
* تفسير سورة النصر .....	١٠١٩
* تفسير سورة تبت .....	١٠٢١
* تفسير سورة الإخلاص .....	١٠٢٣
* تفسير سورتي المعوذتين .....	١٠٢٦

## مركز تفسير للدراسات القرآنية

مركز بحوث ودراسات متخصص في الدراسات القرآنية وتطويرها، في المجالات العلمية والتعليمية والتقنية والإعلامية، من خلال مشروعات متميزة، من الدراسات والبحوث، والبرامج الإعلامية، والدورات التدريبية، والمؤتمرات واللقاءات، والتطبيقات الإلكترونية، بعمل مؤسسي يتحرى الإتقان والجودة، ويمد جسور التعاون والشرابة مع مؤسسات المجتمع كافة، ومع جميع العاملين في خدمة القرآن الكريم وعلومه في العالم أفراداً ومؤسسات. وينتسب للمركز - عملاً مباشراً وتعاوناً - مئات الباحثين حول العالم.

### الرؤية

الريادة في تطوير الدراسات القرآنية.

### الأهداف

1. الارتقاء بمستوى الدراسات القرآنية، وإثرائها ببحوث علمية جادة.
2. تشجيع البحث العلمي في الدراسات القرآنية، وتعزيز دراسات استشراف مستقبلها وتشجيعها.
3. تطوير البيئة التعليمية في مجال الدراسات القرآنية وصناعة المفسرين، وفق منهجية أصيلة بأساليب حديثة.
4. تقريب علوم القرآن للمستفيدين بوسائل مختلفة، وتقديم الاستشارات العلمية في مجال القرآن وعلومه.
5. تطوير بيئة تقنية داعمة لقطاع الدراسات القرآنية، وابتكار منتجات تقنية احترافية وتوظيفها في مجال القرآن وعلومه.
6. توظيف وسائل الإعلام التقليدي والجديد، وتعزيز الشراكات والعلاقات في خدمة القرآن الكريم وعلومه.

عنّا وبنّا



لصداقاتنا





